سرايـا
الـزعفـران

" روايـــــة "

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني محفوظة للناشر.

رواية: سرايا الزعفران.

الكاتب: هيثم أ هميمي.

الطبعة الأولى: يناير 2017

رقم الإيداع: 1531 / 2017

الناشر:

"دار أدباء 2000 للنشر والتوزيع"

المدير العام: **منة عامر.** Mobile: 01099654718

E.mail: Odabaa2000@gmail.com

Website: http://entashaaer.wix.com/odabaa2000

Facebook: https://www.facebook.com/Odabaa2000

تصميم الغلاف: **محمد علي.**

تصحيح لغوي: **أحمد شوقي.**

جميع الحقوق @ 2017 محفوظة للناشر

"دار أدباء 2000 للنشر و التوزيع"

يمنع منعاً باتاً بدون إذن خطي معتمد من الناشر:-

نسخ أو إستعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيها التسجيل الفوتوجرافي و التسجيل على أي أشرطة أو أقراص صلبة أو مرنة مقروءة أو النشر عبر الإنترنت أو أي برنامج إلكتروني أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها أدوات حفظ المعلومات و إسترجاعها.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **"دار أدباء 2000 للنشر و التوزيع".**

إختر أنت الحكاية .....
التي تريد أن تتبعها

بطل من اختيارك ....

مغامرتك الخاصة.

- مراد نصري.
- ديجا منير.
- عابد.
- خيري شهاب.
- مرجانة.
- نجيب رسول.
- نورينا.

أو تحدى السرايا و اقتحم أنت الحكاية .....

سرايا الزعفران

رواية

هيثم أ. هميمي

" لحظة وصول "

انتصاف وجه الليل واكتمال ظلال القمر في السماء.

ليلة باردة.

ساعة رقمية من أسفل المرآة، أكملت للتو الثانية عشرة، بداية ليوم جديد، الثامن عشر من شهر يناير لعام ألفين وأربعة عشر للميلاد.

أضاء مصباح السيارة شيئًا قليلًا، ضوء أصفر متقلب، ضوء يدفع من خلفه صوتًا لماكينة قديمة، تصطك تروسها من أربطة مهترئة ورذاذ من الزيت المتناثر.

لم يظهر القمر في السماء حينها، كانت الغيوم تُخفيه، فقد كانت ليلة مظلمة، وقد جنّ الليل بعد منتصفه بشيء من السكون، هدوء يفارق أضواء الشوارع، إلى الأروقة التي اكتست بأوراق الشجر المتساقط، تلك الأوراق الخضراء التي اتسمت بالصفرة الهزيلة. كانت الأضواء مطفأة والعجلات تمر من تلك البوابة الحديدية الصدئة، وعلى جانبها شعار بهتت ألوانه ليظهر أن تلك السيارة لم تكن إحدى سيارات الطاقم المميز، المخصص لذلك المكان.

الردهة القاتمة كما انتشر اسمها، ذلك الممر الطويل إلى البناية الحجرية.

من البوابة الحديدية وإلى جوارها غرفة مكتنزة لا تتعدى الأمتار الثلاثة، يقبع فيها العم (رجب)، الحارس الأسواني الأربعيني، طيب الملامح، مثقل الكاهل، رث الثياب،

والذي تخضبت جبهته بمرار الزمان وتجاعيد الهموم، وعلى غير العادة لم يكن وقتها هناك، فأناس غير ذلك الرجل الصعيدي كان ليخاف من المهمة التي سعى إليها بنفسه ليس على اختيار منه، ولكن لضيق الحال وأمور لا يعلمها إلا هو.

ليس لصعوبة الحراسة ليلًا، ولكن لكل تلك الحكايات المنتشرة، والتي نسجت الخيالات السوداء على المكان.

لسعة البرد القارصة تغلف الحديقة بضباب خفيف، يتزايد بين الأشجار.

لا زال الشتاء بعيدًا ولكنها البرودة التي دفعت الشخصين القابعين في السيارة أن يُشعلا أعقاب السجائر حتى نهايتها بحثًا عن الدفء، وأيضًا للتخلص من التوتر الذي التهمهما بشراهة في ضوء السيارة الأصفر، لكن الشخص الجالس على مقعد القيادة، ذلك الشخص المترهل جسده، أظهر شيئًا من الحنق وكان ينفخ باستمرار.

ما بين الفينة والأخرى كان يرمق المرآة التي إلى جواره ثم يعود لينظر في عقب سيجارته ثم إلى المرآة مرة أخرى، ومن غيظه وحنقه وربما من خوفه الذي كان يخفيه، ألقى بعقب السيجارة دون أن يطفئها، ولم يلق بالًا أنها سقطت أسفل أقدامه، في زمجرة صريحة على الوقت الذي كان يمر سدى.

تناول الآخر طرف الحديث، "إيه يا أبونا! مش كدة."

"أعصابك، هتاكل السوجارة!!"

"كل ده عشان مستنظرين حبّتين!"

بطرف عينه رمق مرتين، شرارات متطايرة، تنشّق من بعدها مرتين ثم اعتدل لينظر مرة أخرى، إلى المرآة، من دون أن يكلف نفسه عناء الحديث، يكفيه ما يلقى من عناء الجلوس إلى جوار شخص حقير، مهمته الوحيدة ألا يتكلم أو يسمع أو يرى أي شيء.

"إيه يا عمونا ما ترد عليا، ولا بقيت زي الرياسة؟"

"مش كدة برضو، ده إحنا بنهدّوك حتى."

"إيه رأيك في لغوة الإسكندرانية دي، مسا مسا عالبلطية اللي علمتنا."

"ما تعبرنا يا عم، إيه؟ آخد في وشك كدة وقاطش!"

لمرة أخرى يحدثه ولكن من دون جدوى، فصب جل همه في - سيجارته الجوينت - التي أعطته نشوته المعتادة، فوضعها مائلة في فمه، ثم مال إلى صاحبه مداعبًا، "صبح يا حاج، كله هيُسرُك في التمام."

ارتعشت يده، ارتعشت أكثر مما ترتعش السماء المُبشّرة بالمطر.

أحس أن الرياح كانت تعوي وتحمله معها في عباب أروقتها، وأن البرودة التي كان يشعر بها تلاشت وتبدلت إلى صحوة بركانية من الجنون، فأعاد النار من بين أصابعه وحشرها في يده، يدخن ويدخن، يطلق السباب ويعوى، فعادت النظرة المشمئزة كلما رآه يضحك بشكل هستيري ويلاعب نفسه، ويداعب ما سكن في داخل عقله الفارغ، بلا هموم أو

مبالاة، فقط الراحة التي يشعرها كلما أغمض عينيه ليتمايل ويتراقص ويتحرش بنفسه.

"الحق يا كبير، أنا شايفها بوسة مشبك."

"هه هه هه."

"شششششش."

"اكتم."

ليس بالأمر الجلل ولكنه كان صعبًا على رجل رحل عقله مع الدخان المتبعثر، وما كان من الرجل المتوتر سوى أن حشر أصابعه في جيبه وأخرج هاتفًا نقالًا من طراز (نوكيا 688)، لعنته الخدوش وشاشة مكسورة من إحدى طرفيها، ولصقة مكتوب عليها "لسه في الدنيا جدعان."

كانت تشير إلى الثانية عشرة وست عشرة دقيقة بعد منتصف الليل، وبضغطة واحدة وضغطتين اقتحم قائمة الأسماء نزولًا ثم أجرى اتصالًا.

بالكاد -رنة- واحدة ثم أغلق مسرعًا، وفي جوفه شيء من الامتعاض لتلك الجثة الهادمة الملقاة إلى جواره، محدثًا نفسه، "ولا كنت أجيبه!!"

"أنا إيه اللي بيخليني أوافق الرياسة؟"

لكنه سمع حديثه فأجاب مبتسمًا، "ومالو يا أبو عمو، هه هه هه، هيس وليس يا ريس،" ثم أرسل أصابعه ليوقظ الراديو من حالة السبات، خربشة مدوية.... لأربع ثواني من الضجيج، ثم أتى الصوت.

- ليلة من المساء الدافئ والأنوار المطلة على العاصمة، ليلة سعيدة على

كل المستمعين من حلقات متواصلة لبرنامجكم الإذاعي 10 ثواني... بعد قليل... و...

طرقات على المقود وامتعاض يتزايد، لم ينفك حتى أردف من حنقه، "اطفي الزفت ده."

لم يكن تركيزه منصبًا على الكلمات، وشيئًا فشيئًا كان يستعيد وعيه، يفرك ما تحت سرّته مداعبًا ويده الأخرى في أحواش منخاره.

"آه يا أبو عمو، مزة مزة يعنى." قالها ثم فقد السيطرة من الضحك، فأردف الآخر، "أستغفر الله العظيم،" وكان ينفخ من الغيظ بينما يحدق في المرآة.

ملامحه الصلدة وشعره الخفيف المترامي على أطراف جبهته، حواجبه الكثة وتلك العين التي مسح عليها البياض، تُبعد فكرة الخوف من رأسه، لكنه كان رغم الشكل خائفًا.. خائفًا لدرجة أنه يريد أن ينتهي من الأمر سريعًا، لا يهم إن كان يرى بعينه البيضاء خيالات وأشباح أو أن يسمع أصوات الرياح أو طرقات من النوافذ وما بين الممرات.. كل ما كان يُقال عن ذلك المكان الملعون ربما يكون حقيقة.

أفاق من غيبوبته، أفاق عندما أبصر ضوءًا يتقلب في المرآة من بعيد، إلى جوار باب جانبي. لم يأخذ الأمر على رسله، بل ألقى السيجارة رغم أنه لم يكملها، وضرب على كتف صاحبه مناديًا، "يالّا بينا،" موصدًا الباب بقوة تسمع على إثرها اصطكاك الحديد.

صوت غائر في الحلق من اهتراء الأوتار الصوتية هو ما دفع الرجل للتذمر، وهو في

الأصل يجيب بأريحية، "ومالو يا أبو عمو، يالّا بينا..." واضعًا قدمًا على الأرض والقدم الأخرى تعلو بمفردها ليتفل ما كان مخزنًا في جوفه من الخشاش، وأتبعها بسيجارة أخرى، لتسقط الولاعة من أطرافه، فيمسكها، ومن غيظه يدفع بها إلى الأرض ثم يُلقِي اللعنات، ويُلقِي من وراءها السيجارة وقتما رأى تقلب الأنوار من جديد.

"هو في إيه يا أبو عمو؟"

"شششش، تعالى ورايا. خلينا نخلص من الشغلانة السودة دي."

لتوه اجتاز عامه الثلاثين بسنوات قليلة، يرى طوله وكأنه أطول شخص في العالم، ولكنه في الواقع ما بين المائة والخمسين والمائة والستين، يتقوقع على نفسه راكزًا قدميه على تابلو السيارة، يُمرّر البرودة لما بين رجليه، تنتفخ عروقه أسفل ذلك الجلد المجعد وعلى رقبته تتدلى قلادة بها صليب وهلال ونجمة وكلمة فضية مكتوب عليها (انتصار).

من وراء السيارة، شخللة وحركة، وباب مفتوح، ولما اقترب وجد الرجل يحرك جوالًا رماديًا مُغبّرًا، مربوط في آخره بحزمة بلاستيكية، وزنه الثقيل دفع الرجل لأن يتساءل، "تفتكر، اللي جوا الشوال ده واحد ولا واحدة."

"معرفش، ومش فارقة معايا، المهم القُبيّل."

"على رأيك..."

"ومن إمتى بتفرق؟" وأتبع، "إحنا لازم نخلص المصلحة ونبلغ الرياسة بسرعة، زمانه مستني على نار، وإنت عارفه، مبيهداش."

هزر رأسه بوضوح.

لم يكن هناك الكثير من الحديث، أربعة أقدام تحمل جوالًا لا تظهر ملامحه أسفل الضوء المرتعش والمركز على الباب، ولا لتلك الكاميرا الموجهة لاتجاه واحد ويبدو عليها أنها مطفأة، ولا لكل تلك الدعوات الطبيعية التي تحذرهما من مباشرة ما يفعلان، فلا يستمعان إلى صوت حفيف الأوراق المرعب، ولا إلى مخالفة الدخول من البوابة الخلفية، ولا إلى تلك العلامة - عنـ.. الخد- والتي تلاشت ملامحها.

هذا لأن ثقل الهواء كان يدب في قلوبهما الرعب، يفرض على جباههما التعرق وبغزارة، فالسماء الملبدة بالغيوم تبشر بسقوط الأمطار ولكنها كانت مجرد أهواء غامضة في ظلمة تتميز بالجبروت.

جذوع خضراء وجذوع تقف كالهياكل، حراس المعبد القديم، سرايا الجنون، بيت أشباح قديم أو رواق لمعبد متهالك.. هناك حيث وُضِعت الأجساد النحيلة وتوارت خلف أسوار الموت.. هناك حيث قبع البعض راكعًا أمام شبح الانتقام من كاهن أعظم، يظن أن في مقدوره تغيير أسطر الحياة وكتابتها كيفما يريد.

اختفى من كان يقف أمام الباب ويشير إليهما بالقدوم، وعلى إثر اختفائه، شعر كلاهما أن الأمور لا تسير على ما يرام، حتى أن القزم قصير القامة تسمر في مكانه، لا

يتكلم أمام نظرات رئيسه الذي انتفشت لحيته من القشعريرة المفاجئة، والذي بدوره كان يفكر ملايين المرات في العودة عن ذلك الطريق، إيمانه الشديد أن الحكايات التي كان يسمعها عن ذلك المكان محض خرافات، لم تشفع ولو للحظة أمام التردد الذي اكتنف عظامه، فلا يقدر التقدم ولا لخطوة واحدة للأمام.

"بقولك إيه يا ريس، ما يالّا بينا من هنا.. المكان ده شكله عوق قوي، واللقمة اللي هتيجي من وراه طعمها مر."

اهتز شيء بينما كان يتكلم، فاضطرب وقال، "الشوال بيتهز يا ريس، والنعمة اتهز."

"لقطة!"

"يا ريس عليا النعمة اتهز!"

"لقطة!"

"يا ريس، وحياة النبي في حاجة اتهزت جوه."

"لقطة."

"أيوة يا ريس."

"ياض يا رِمّة، متحلفش بحد تاني غير ربنا، سامعني؟ خلي ربنا يباركلنا في اللقمة دي ونخلص من هنا يا بقف."

"ماشي يا ضاني، إنت الريس برضو!"

حاول (لقطة) أن يتبين ويتفحص لكنه تيقن أنها مجرد هلوسة، لقد بدأ ذلك المكان في التأثير على عقله، وربما لا يزال عقله يسبح مع الدخان المتكثف بداخل جمجمته.

تمتم الريس لا إراديًا، "سترك يا رب،" غير أنها لا تحمل له أي معنى يذكر سوى الخروج سليمًا من تلك المنطقة الشبحية، هي كلمة أصبحت مخزنة في الحمض النووي للإنسان المصري، تبزغ وقت الخطر كحائط دفاع أمام المخاطر التي يستشعرها.

ممر طويل، مترب، لا يظهر بوضوح لأن القمر انزوى على نفسه في تلك الليلة. ستائر مفتوحة، تتطاير بفعل الهواء العابر أمام نوافذ مفتوحة الأطراف، بينما ينطفئ مصباح ويضيء، يرتعش مرات ليعود فيضيء ويظلم؛ فلا صوت ولا حركة غير أنفاس كانوا يأخذونها بجهد مرير، يسمعون لها صريرًا في الحلق مزعج.

"إيه يا ريس فيلم الرعب ده؟!"

"متتكلمش كتير ويالّا!"

"بس يا ريس الشغلانة دي قافشة."

"قافشة! معصلجة! هتخلص يعني هتخلص،" وكان يفكر في الرياسة وما سيفعله بهما إن لم يُتمّا الأمر ويعودان مسرعين.

تكتكة الساعة الكبيرة والعرق يتطرق كالمطر أعلى الجباه، حتى الأعصاب الرجولية بدأت تتراخى، أعصاب الرجال الحديدية، الرجال الذين يأكلون النار نيئة ويصنعون من الفحم غموسًا لأفواههم بدلًا من التبغ.

أجساد تريد أن تتقهقر وأقدام ترفض الاستمرار، الاستمرار الذي كان يقودهما رغمًا عنهما في الممر المعتم من دون إرادتهما، ليكملا المهمة.

اصطكاك!!

"آآخ!!"

استدار (لقطة)، "هو في إيه يا ريس؟"

"شششش!!" قال الريس وعينه تجحظ في محجرها.

"ما نرمى البتاعة دي هنا ونمشي...."

ركض ليس ببعيد في... - تاك تاك تاك - طرقات تتبعها أقدام كثيرة ونقر على الجدران.

"ريس!"

"شششش!"

"أنا مش عايز أكمل يا ريس."

"خلينا نخلص من أم البتاعة دي يا ملكوم، هز طولك معايا. مش بعد ده كله نسيب المصلحة. وكمان أنا مقدرش أقول للباشا لأ، دي فيها موت."

ما بين عينيه صنع خطوطًا طولية تعبر عن الضيق، لأنه لا يستطيع التصرف في إسكات (لقطة)، القصير الغبي، وفي نفس الوقت، لا يستطيع السيطرة على نفسه. لم يكن الرجل الذي يخشى القتل، لكن ذلك المكان كان يصب في قلبه الخوف.

مرة أخرى، اشتدت قبضتهما على الجوال الرمادي، واتسعت الخطوة لتفوق الخطوة التي ترجلاها دخولًا إلى الممر.

لا تزال الضحكات!

ضحكات تتصدى في البعيد، تحمل معها أنينًا حادًا وقطرات تتدلى من صنبور يتيم، تتجسس رائحة كنيف مقرف، رائحة فواحة أيقظتهما من خداع العقل وأوصلتهما إلى الاستقبال،

إلى مكتب شاغر ودفتر مفتوح، عليه شخبطات وأسماء بجوار شنطة سوداء.

"سوده!!" هكذا فكر (لقطة)، لأنه لا يميز الألوان في الظلام ونور المصباح السقيم.

في آخر الممر، باب مفتوح، ذلك الخط الأبيض الذي ينبثق من الشق الصغير بين طرف الباب وحلقه، كان يرسم النهاية لهما، حيث سيُلقيان الحمل الملقى على كاهلهما ويستريحا أخيرًا من الهواجس التي سكنت صدورهما.

إلى هناك كانا يهرولان، من وراء الباب اختفيا تمامًا.

.

.

لا صوت لدقائق!

أنفاس لم تكن كأنفاس معهودة!

رائحة غير تلك الرائحة!

نفس الأصوات!

نفس الطرقات!

طرقات الأحذية!

سلم وممر، وباب واحد، باب حديدي في يُسراه مقبض نحاسي.

في ذلك الركن البعيد على الكرسي الوحيد، أسدلت الأغشية على الأعين التي كانت تحاول الرؤية، رائحة سيئة تفوح من وراء الكتان الأبيض، إلا إن الحركة كانت ممنوعة، فاليدين تثبتهما القيود، إلا إن الهروب كان مستحيلًا، فالقدمين يحوطهما نفس الشريط

اللاصق الذي يمنع أي صوت أن يصرخ بالمساعدة.

طرقات الأحذية!

عين تضيق لترسم الشبح المتجسد خلف الغطاء الأبيض، شبح ينحني، يد تتفحص.

نور أبيض شديد!

يحرق!

"أهلًا... أخيرًا... هه! هه هه هه هه!" ضحكات عبثية.

آآآآآ!!

آآآآآآآآآآآآآآآآآآآه!!

****

" 01 "
بعد الفجر

جلبة غريبة لم تكن لها أية أسباب، صوت كركرة مزعج ينخر في الدماغ، حتى الرؤية كانت ضبابية ولم تكن واضحة البتة، فقط نصف عين مفتوحة والعين الأخرى ترتعش، تُقلِّب الصور كإحدى الكاميرات القديمة، إطار خلف إطار ليصنع مشهدًا كاملًا من ذلك الشارع الخالي، صور باهتة ومظلمة، يتزاور عليها الضوء جيئة وذهابًا زيارة المرضى.

شخص يُلقِي اللعنات!!

إشارة مرورية ثم أخرى، والتفاف إلى اليمين، صوت احتكاك وخربشة، كادت السيارة أن تصطدم لولا أنه أدار المقود متفاديًا ذلك الـ!

لم يكن هناك شيء.

كان بعيدًا عن السيارات المتراصة على جنبات الطريق، كان يرى كل شيء برغم ضيقه فسيحًا، على المقعد إلى جواره، مسدس وحافظة وحزمة من الأوراق المتناثرة، وتلك اللعبة التي كانت تتراقص على سيارته ال بيجو 504 رمادية اللون، زجاجها الأمامي مشروخ، طلاؤها مخدوش وأنوارها الخلفية مكسورة.

تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ومن التعب الذي اكتنفه واضطراب أعصابه، أخذ وقتًا طويلًا لكي يصفّ سيارته رغم اتساع المكان.

للحظات، كان الطريق يتسارع كالقطار من أمامه، قابعًا في موقعه لا يقوى على النزول حتى هدأ التفاف الكون واستقر له في مأمن، ورأسه التي كانت تتمايل سكنت، لكن الدهشة التي أصابته لم تستقر، فلم يكن معتادًا على الهدوء، ذلك الهدوء القاتل الذي انقض على أنفاسه، احتاج إلى أكثر من خمس دقائق حتى يستجمع قواه ويفكر في الخروج من السيارة، وخمس دقائق أخرى ليبحث عن هاتفه النقال.

ارتعشت عينه وكان ذلك نذيرًا سيئًا بالنسبة له، انتفخ عرق في وجهه حتى انفجر في قلب عقله محاولًا حشر رأسه أسفل المقعد، اصطكت أسنانه بصرير مزعج من الغيظ لما صدم رأسه وتألم رغم أن الألم لم يكن في باله، لكنه اصطدم بالمقود فلعن الهاتف ولعن السيارة ولعن كل ما في الحياة، وأطرق نفسه نزولًا، ودفع الباب من خلفة بقوة، لكنه هدأ سريعًا، تقلب من حالة الجنون إلى حالة السكون في أقل من ثوانٍ.

دوار ورقصات بنفسجية! حالة عبثية غير مستقرة! غشاوة لحظية!

كان ينظر إلى أعلى ما تصل إليه عيناه، يعدد الطوابق باحثًا عن مسكنه، حتى أنه ترجل ونسي أن يوصد إغلاق السيارة، ذلك الطراز القديم لم يكن ليغلق نفسه آليًا بعد دقائق، برودة أطرافه أتعبت حركته وهو يتجول على رصيف الشارع وكأنه مطب، أحس بسقوط دماغه في جاكت بزته، وقد خلع الكرافات مسبقًا وشمر عن أكمامه من الضيق.

بطرفة عين مهزوزة، لمح الباب.

"عمارة الأم تر.." والبقية من العنوان لا يستطيع أن يراه، فابتسم ساخرًا من دون أن يدري لماذا، وقال، "أم اللي أم.. لا في بواب ولا في نور."

"أصل النور مقطوع في المنطقة،" أردف صوت في خياله، لم يكن يسمعه بوضوح.

"لا حول ولا قوة إلا بالله، إيه جرالك يا أستاذ أنور؟"

"تعالى طيب، تعالى أما أساعدك."

بشيء من الضجر الشديد، رفع حاجبه والتفت على يمينه وهو يفكر - الفسل - ذلك الشخص يريد مساعدته، "على أساس إنك هتعرف تساعد."

"يا بيه أنا في الخدمة."

"اخرس وروح افتح الأسانسير."

"امشي، روح."

منذ ثلاث دقائق فقط مرت حاوية النفايات، الحاوية الوحيدة واليتيمة الموكلة إلى الحي، ترجل رجل منها، يلملم الأكياس الممزقة والمترامية على جانب الصندوق البلاستيكي المكسر بسيل من الشتائم، ذلك لأن صندوق النفايات غالبًا ما يجده فارغًا.

"يا أخي يلعن أبو كدة، خدم عند أهاليهم إحنا، الواحد من دول ولا هاين عليه يرفع إيده يرمى الكيس في الصندوق، يعلن أبو شكلكم، عالم رمّة."

يعاتب نفسه سرًا، "إنت متضايق على إيه؟ ما إنت اللي رميت نفسك في المرمطة؟"

ليجيب نفسه قائلًا، "وهو كان بإيدي؟"

كان يرمق تلك السيارة المعدومة التي لم تُطفأ أنوارها، وبداخلها ذلك الشخص المُحدِّق أنظاره في زجاجها المكسور، لكنه لم يحرك ساكنًا أن يهز رأسه من اليقين، فذلك المشهد أصبح عاديًا جدًا في تلك الأيام، ما بين إضاعة العقل من السُكر أو الإدمان أو حتى الانتحار، أصبحت الخيارات قليلًا محدودة.

انفجار مفاجئ دفع الدماء إلى عقله كانبثاق ينبوع حار، انفجار كيس مقذوف من الناحية المواجهة من الشارع، من ذلك المبنى بالتحديد، الطابق الثالث أو الرابع، ذلك لأن رجلًا بملابسه الداخلية المترهلة البيضاء عاد أدراجه من الشرفة المكعبة الصغيرة إلى الداخل.

"والنعمة ما أنا لامم حاجة، يلعن أبوهم كلاتهم، ده هو لدهاكا."

أما القصد، فكان لذلك الرجل القابع في سيارته وكل أولئك المغفلين ممن على شاكلته، من يرون الحياة سهلة، ويعيشونها بطولها قبل عرضها، فالبلاد أصبحت بلادهم، والأرض أصبحت أرضهم، ولا حياة لمن تنادي، مهما علا صوتك مناديًا، لن يصل.

ومن اهتياجه وبراكينه المكبوتة التي كانت ستتفجر في أية لحظة، وبغضب شديد لا يستطيع السيطرة على حدوده، ضرب على الحاوية عدة مرات، "يالا يا عمونا من هنا، دي منطقة بنت، أستغفر الله العظيم،" و – فووووم – انطلقت حاوية النفايات بأقصى سرعتها، مخلّفة وراءها دوامة متراكمة من الدخان، مخلفات خمسين مصريًا اقتحموا حمامًا واحدًا

وفي وقت واحد، سيمفونية لن يفهمها سوى المرأة المصرية.

انقطعت الكهرباء في المنطقة!! كان يتساءل، حتى أصوات الكلاب الضالة كانت تتصدّى في أذنيه على الرغم من كونه أحد قاطني مدينة القاهرة، عاصمة أم الدنيا، قاهرة المعز وأهل المعز وناسه، قلب النيل وحضن الدلتا، فلا النيل نظيف ولا الدلتا تصلح للزراعة.

هو من كان يرقب سيارة القمامة ترحل من الغيظ، ولما ارتسمت تلك الصورة في عقله المهزوز، ضحك في نفسه، "هه هه هه، أم الدنيا!! بس... بس أكيد مش أمي."

أكملها المصعد المعطل وعليه تلك اللافتة من اتحاد سكان العقار - هه هه! كلام كبير - المصعد معطل وعلى سكان العقار دفع الرقم المكتوب والذي لا تحتويه نظرة واحدة. أطرقت عيناه في النظر لذلك الرقم الذي لا يستطيع أن يراه لكثرة الأصفار، ثم أكمل طريقه إلى السلم وأدخل رأسه باحثًا، الطابق السادس، شقة رقم أحد عشر، وبمجرد أن انتهى من تفكيره وبخطوات رشيقة مر من خلال الباب الذي كان مفتوحًا كما بين إصبعين، فأغلق الباب من ورائه وألقى الجاكت على الأرض وتكومت المحفظة على طاولة صغيرة إلى جوار المرمدة، وتجلت محتوياتها،

"مراد أحمد كمال نصري - متزوج - 1975/08/13" وأوراق نقدية لا تُكمِل خمسون جنيهًا وبضعة كروت، كلها مكدسة بحافظة من الجلد الأسود المهترئ.

بعدها، ألقى بجسده على الكرسي وغاب عن الوعي في لحظات معدودة.

عين مغلقة وعين بالكاد مفتوحة، كتب مبعثرة بلا نظام وكأس من الشاي مُطفأ فيه أعقاب السجائر، وتلفاز ملصق على شاشته قصاصات صفراء، متناثرة على كل أطرافه، بها أرقام وأسماء، رسوم وأشكال، كلها كانت تقود إلى ملصق وحيد على الناحية اليمنى.

اشتد نور من بعده ظلمة مدقعة، نور أشد من ومضات الكهرباء الهاربة، شرارات تتناثر من عمود منفرد ومصباح بعيد متهالك، حيثما يطير العقل بأبناء آدم، لأبعد ما تكون الحياة، وفي لمحة تشد الذكريات، كلهم يتساقطون، فلا راحة لمن سكن عقله دروب الوجع.

قد تقرأ المرة الواحدة في كتاب من آلاف الأوراق، وقد تقرأه في جملة واحدة، قبضة أنانية في دماغ مشوش لسكون وجنون، وأناس ضاحكة مستبشرة بحديث لا يخلو من السرور.

أناس متقوقعة على نفسها، لا تخشى سوى الليل وهم في الليل يعيشون، فلا عقل لمن ليس به عقل ولا جنون لمن لم يعد يهتم، كلهم ألعاب في سيرك الحياة، كل ألوان العيون أصبحت سوداء.

غرفة مظلمة في آخر الرواق الطويل. أصوات هامسة، بعضها محدثة وبعضها يغني ترانيم مبهمة. أقدام متراصة في الضباب وصوت أقدام تطرق على البلاط، وميضه مؤلم، دهشة وعلامات من الوجوم.. كلهم نائمون.. ضجيج وصخب وصراخ لا يهدأ، ذلك المكان لا ينام!

هرج ومرج وأنغام متعالية، طرقات خشبية تتوافد إلى الحدث، صدور عارية يميزها الخوف، أسوار وبداخلها بلاد بداخل بلاد، أسوار رخامية وأسياخ حديدة، ثكنة عسكرية تعزل الناس عن بعضها. بعضهم يتشدقون بالحرية وبعضهم يرضخون، لكن الحرية لها معانيها الخاصة، فمهما كان من الماضي، ستكمل الحياة أسطرها الأخيرة.

تك...

..1

تك...

..2

تك...

..3

تك...

..116

عدد خطواتها! بامتعاض شديد ترجلت الممرضة وفي يدها علبة حديدية مغطاة وتدس في جيب معطفها الشديد البياض حزمة بلاستيكية، وفي الجيب الآخر أقراصًا ملونة، اخترقت الممر ما بين ثلاثون مترًا ونوافذه مطلية بطلاء رصاصي قاتم، هي لا تريد الذهاب إلى تلك الغرفة، كثيرًا ما حاولت التملص من تلك المهمة الشاقة.

ذلك الطريق كانت دائمًا ما تعد خطواته، سريعًا ما تريد انتهائه، غرفه في آخر الممر بلا باب يمنع النظر إليها، لكنها غرفة قليلًا ما يأتيها المتطفلون، خطوة تتبعها خطوة، تسمعها بوضوح، طرقات في

مؤخرة الرأس، صوت مزعج، سلم حلزوني ومقبس مغلق.

"لا تفتحيه!" هكذا فكرت، وهكذا غضبت ولملمت أنظارها من الضوء الباهر لما أشعلته. هي لا ترى القدمين المترهلتين المكتسيتين بجوربين قديمين، فكلما أتت إلى هناك، كانت تلقي بوشاح أبيض على عينيها، كانت تخاف أن تراها فلا تشعر سوى بتلك الوخزة الحارقة في عنقها.

نيران تغلى وتستعر، تحرق أي ذكرى لأي ماضي أو حاضر، تلتهم أي شيء له علاقة بالوجود، لكنها لا تدمع، وتقبع ساكنة، تدفع الأنفاس إلى داخلها بانتظام، تغصب وجنتها على رسم صورة الاستسلام، ذات الملابس البيضاء كانت تضحك، تضحك لذلك الألم الذي سببته، سريعًا غادرت مثلما جاءت، غادرت وتركتها بمفردها، تصارع الأمواج. صور تسحب إطارها وترحل، جلباب وردي صغير.

أنا!!!!!...

1

أنا!!!!

2

أنا!!

3

أنـــ!

4

أ..

.

نـــ..

آه... (همهمة)

شظايا متناثرة على صفحة سوداء، خدوش تتساقط في أروقة العقل، نغمات مزعجة جذبت انتباهه من الغيبوبة التي اكتنفت روحه الضالة، شروخ هائمة بين خصلات شعره الملقى على أكتاف خياله، عرق غزير يتساقط إلى الأحراش المنتشرة في صدره، حركة في أصابعه وجبينه المقطّب يظهر علامات الحياة، همهمة ثقيلة تأتي من صوت مختنق، صوت اختلق الحزن من حياة يريد أن ينام فيها ولا يصحو، لكنه عاد إلى إدراكه، مُحدّقًا أنظاره إلى السقف، لا زالت أضغاث أحلامه تتجلى مبتعدة عن الإطار.

صورة مألوفة! كان لا يزال في شقته.

صوت التلفاز!!

وهنا أهم الأخبار:

أحداث مؤسفة على الطريق الدائري أدت إلى مقتل 11 شخصًا وإصابة 45 آخرين إثر اصطدام شاحنتين إحداهما محملة بمواد بترولية مسروقة لبيعها في السوق السوداء.

أعلن رئيس اللجنة العليا، القاضي نبيل صليب، في مؤتمر صحفي أن نسبة المشاركة في الاستفتاء على مشروع الدستور المصري، التي كانت الرهان الرئيسي في هذا الاقتراع، بلغت 38.6%، وأوضح صليب أن أكثر من 20 مليون مصري شاركوا في عملية التصويت على الدستور.

ضمن حملة تفتيشية على مكتب المحقق الخاص (آسر الراجي) تم العثور على جثمانه ولم يتم الاستدلال على مساعدته الخاصة المزمع اختفاءها في ظروف غامضة.

لا زالت قوات الأمن تسترشد عن التنظيم المجهول المتبني للحوادث الانتحارية الأخيرة في البلاد، تنظيم إرهابي يُسمّي نفسه بتنظيم الرؤوس السوداء، يعلن تبنيه الحوادث الأخيرة من اختطاف المواطنين وإعدامهم، ويهدد بالمزيد من عمليات الاختطاف للمواطنات المصريات وغير المصريات في حين تتزايد الجهود للقبض على المتهمين مع تحذيرات للمواطنات من السير ليلًا في الأماكن المعزولة.

تين تراتان تان...

"ونرجع مرة تانية في برنامج الشعب، برنامج كواليس، ونسأل ضيفنا النهاردة اللواء والخبير الاستراتيجي منير السيرجاوي عن ظواهر التحرش والخطف المنتشرة في البلد، واللي زادت قوي بعد الانفلات الأمني اللي حصل بعد الانقلاب العسكري لدرجة إنها بقت ظاهرة عامة، ومعظم طوائف الشعب غير آمنين لا على أموالهم وعلى حياتهم ولا على أبسط حقوقهم....

"هههههه، لو سمحتي، لو سمحتي متقوليش عليه انقلاب..."

"طيب أقول عليه إيه؟؟"

"نقدر نقول إن ده انقاذ للبلد من طائفة متعصبة دينيًا خارجة عن كل الأعراف السياسية أو السماوية المعروفة، جماعة عايزة توصل للحكم من زمان، تاريخهم معروف من تآمر وتصفية وغيره وغيره..."

تدريجيًا، أصبح الصوت مستساغًا في أذن (مراد)، كغيره من المصريين التعساء،

الذين تربطهم شاشات ذلك التلفاز المقيئ وتلك البرامج التافهة التي تقوم بغسل أدمغتهم، فلا هم يفكرون ولا هم يختارون، فمهما قلبت عينك بين القنوات، لن تجد أي تغيير ملموس، فضائية كانت أو أرضية، كلهم يسبحون في فلك واحد، فدائمًا ما يبدأ الحوار بالثرثرة وسريعًا ما يتغير إلى اتجاه مخالف، هكذا فكر (مراد) ساخرًا، وهكذا ابتسم واستمر في ابتسامه.

غصة في الحلق لها طعم مر، كثيرًا ما يشعر بها بعد أن يفقد وعيه في احتساء الخمور. احتاج أن يُخلّل حلقه بالماء، فقام إلى المطبخ وأشغل سيجارة ووضعها على حافة المرمدة، ثم فتح ثلاجة على يمينه لم تحو سوى زجاجتين ستلا وعلبة بيبسي وعلبة لحم مفروم وبيضتين، فأغلقها من امتعاضه واكتفى بغلي القليل من الماء.

كوب من القهوة قد يعيد إليه رشده الذي فقده، مهما حاول ومهما جرب، ليس بمقدوره الاحتفاظ بتلك الطبقة مرة المذاق التي تعلو فنجان القهوة، دائما ما يسوء من أسوأ إلى أسوأ. لكن القهوة لها مذاق خاص، شعور حالم يجذب العقل كتنويم مغناطيسي بكل ما يحويه من أفكار متراكمة، والأعين التي كانت تحدق ربما ارتاحت.

ارتاحت كثيرًا وتثاقلت.

كان الوقت متأخرًا، ظلل الليل بقمره المتلاشي أركان الشوارع، فكل من اختبأ، فر من سطوة الليل، أقدامه الصغيرة كانت لا تزال تتدلى من أطراف سريره، لا لشيء شربه

أو لخوف ما، أولكمّ الأفكار التي سكنت عقله.

كلهم نائمين، والده المتعب أناخ جسده الممزق بلا إدراك، ووالدته تواسيه ككل ليلة على قدر الشقاء الذي يلاقيه.

قريبًا منه، كانت العيون تدّعي الابتسام، وبعيدًا عنه كانوا يعانون، وعندما يأتي الليل، يعود وحيدًا، عشر ساعات كاملة قبع في غرفته لم يشعر بمرورها، يلف ما بين أوراق الكتب بحثًا عن مواضيع جديدة، يصيبه الفضول دومًا بحماسة غريبة، تدفعه للبحث المستمر، وما إن يصل إلى مبتغاه، بكل هدوء يتركه، فالهدف لم يكن أبدًا في النهاية، ولكن في قدرته على الاستمرار.

ذلك الكتاب المترّب هو كل ما يملك من ثروة، كتاب اهترأت أوراقه ولكنه لا يزال يحمل عبق ذكريات تركها له جده، ولذلك فهو يعامله بكل احترام.

انطفأ النور!!

"يووووووه!! كل يوم زي كدة، "ممتعضًا، ولكن بهدوء، "بس مش مشكلة."

"مممم!! أي حاجة أحطها في الكتاب عشان منساش الصفحة، صفحة!!!! آه... 116... بكرة أبقى أكمل بقى."

وتلمس طريقه إلى الطاولة ووضع عليها الكتاب ثم فكر أن يذهب إلى أمه وأبيه، لكن عقله كان يرسم لحنًا منفرد.

كان يفكر مليًا، "بس الأوضة ضلمة قوي، " ومع أنه لم يكن خائفًا، إلا أنه تميّز بين رغبة الذهاب إليهما وبين العزوف عن ذلك،

لم يعد يعرف كيف أصبح هكذا، يشعر دائمًا أنه وحيد، بمفرده سيصبح في مأمن أكثر من أي مكان أو بين جمع آخر، فلن ينهره أحد ولن يضربه أحد، وبالتأكيد لن يزعق والده في وجهه ثانية.

"هاه!!" لم يكترث كثيرًا، كل شيء سواء.

رسم صورة بدت حقيقية لهما، نائمين بلا انقطاع، فلم ينغّص عليهما راحتهما وقتما انقطعت أصواتهما؟

لكن لماذا السكون!!"

للحظات تذكر حكايات جده عن الجان والعفاريت، لم يمنع نفسه من رسم تلك الوجوه المرعبة في مخيلته، خطواتها كانت تقترب، تتربص به من أسفل السرير، أو من خلال ذلك الشق في خزانة ملابسه أو من ذلك الوهج الغريب من أسفل عقب الباب، أضواء برتقالية متموجة، ليس سوى الاختباء من أسفل الغطاء.

ليس أسهل من قص الحكايات المرعبة على أطفال لا يخشون عواقبها لأن كبارهم معهم، ولكنهم وبمفردهم قد يعانون أكثر من تلك العواقب في وقت قد يصدق أي شيء في الكون، أي فكرة سوداء قد تتسلق إلى عقله، أي سارق أو عفريت أو ثعبان أو صور قد تتهاوى على رأسه، حتى صورة الفتاة التي يحبها لم تشفع له أمام خوفه، تلك الصورة التي خبأها وراء صورة جده، لا يستطيع الاقتراب منها، لا يعلم اسمها ولا يراها كثيرًا لكنه اقتنص صورة لها في ليلة ما.

وسمع صوت اصطكاك الباب كطبول قلبه المترنح، وحدق بعينيه المتعبتين كي يرى

شيئًا يطمئنه في تلك الظلمة الحالكة. تكتكة غريبة كتكّات الساعة، تتخللها أرجل من الخوف، تتصادم، لكنه تدلّى إلى الأرض حتى أحسها، وظل يعدد الأرقام كلما تقدم ناحية الباب، ناحية ذلك الضوء البرتقالي الذي كان يزداد بريقًا.

1

2

3.. أربع خطوات فقط.

انفجار!!!

دخان ونار!!

لا أب ولا أم ولا جد!!

تكتكة ما بين الأشياء المتناثرة.

تك...

تك...

تك...

تك...

أغلق عينيه. كان على يقين أنه رأى شبحًا من النافذة.

شبح فتاة صغيرة...

"هاه!!!!"

صوت فوران القهوة على النار كان أول شيء يلاحظه بعد صوت نقرات الساعة، ثلاثون نقرة لأنها أصبحت الرابعة بعد منتصف الليل، وإطار على الطاولة يخبأ مشهده.

****

" 02 "
ليلة عيد

أصابع متشابكة وكف يد ملون، كتف مرسوم عليه الوشم بالحنّة، طلاسم أو ثعبان يتلوّى. ربما يكون الوشم فنًا لكنه غير مفهوم، لماذا يميت الانسان شيئًا وإن كان قليلًا من جلده كي يرسم عليه بالألوان؟ وإن نطق الجلد لقال عن عذابه أساطير، ألوان من الحبر قد تحيل الإنسان إلى الجنون، لكن الوشم امتد من بين أصابعها إلى كتفها والتف حول عنقها، خصلات من شعرها الأصهب أُسدِلت كخاتم معقوص، وقلادة مدفونة بين نهديها، أسفل ذقن صغير مدبب وعينين مكتحلتين بخيوط سوداء.

كانت تبتسم، تلونت وجنتاها بلون الورد وأخرجت من صدرها احتباس الهواء الكبيس.

"ها يا خالد!! خلاص كدة الشوت!! الساعة بقت واحدة وخمسة."

من خلف الزجاج أشار شاب ذو لحية خفيفة وشعر طويل معقوص مثل (بوب مارلي)، يحملق من أعلى نظارته الزرقاء الرفيعة، لوّح لها بإصبعه الابهام بعلامة التمام، فخلعت السماعات المطوقة لوجهها ووضعتها جانبًا، ثم أدخلت هاتفها في حقيبتها من دون أن تتصفح آخر مستجداته، والقابع إلى جوار نظارتها الشمسية وعلبة سجائر ميريت أبيض.

بحركة رشيقة أدارت رقبتها إلى اليمين وإلى اليسار لتسمع طقطقة متكررة، فخافت إن شدت عودها بقوة، أن تسمع نفس الطقطقة

المُفزعة، ذلك لأنها شعرت بالقليل من الألم بين فقراتها، فقررت أن تتحمل وكفى، عسى أن تهدأ فقرات ظهرها مع مرور الوقت.

"يااااه كان يوم طويل وسئيل جدًا."

"أوفف! أخيرًا خلص."

فُتح الباب ودخل (خالد) حاملًا رزمة من الورق المكوّم، وأعلى حاجبيه ابتسامة خارقة.

"نسبة المستمعين على النت عليت، ده المكان الوحيد اللي نعرف منه البرنامج رايح على فين."

"أوك، مش زي إمبارح، لأن حلقة إمبارح كانت واو، بس ممتازة برضو،" وأكمل، "يالا بقي يا أستاذة، ده شغل بكرة،" ووضع الأوراق على الديسك وكأنه يُزيح حملًا ثقيلًا، "اختاري منه موضوع وحضريه."

حاجب مرفوع كان رد فعل (ديجا)، "لا... لا... لا! إهدى عليا كدة. النهاردة ليلة عيد."

رافضة بشكل مؤدب وهي تشعل سيجارة وتضعها في فمها، ونسيت تلك اللوحة الموضوعة أمام نظرها إلى جوار الباب - ممنوع التدخين.

التف (خالد) هامسًا لنفسه بعلامة استغراب ثم قال، "عيد!!!!"

ابتسمت وهو يتحدث، "هو في أعياد النهاردة!!!"

"إيه ده!! إنت نسيت ولا إيه؟"

تذوقت رائحة الدخان لمرة واحدة ثم ضحكت برقّة وقالت، "مش حضرتك السبب إني مروحتش القداس النهاردة."

"إنت نسيت إن أنا مسيحية. هه هه هه هه! النهاردة عيد الغطاس."

"غطاس إيه ده!!!" همس (خالد) وأتبع سريعًا، "الغطاااااس!! آه، صح!!! كل سنة وإنتي طيبة يا ديجا."

"ولا يهمك يا سيدي، سيبنى أروح بقي عشان ألحق، ولا إيه؟!"

ارتبك (خالد)، "آه... بالـــ... بالتأكيد، اتفضلي."

شعر أنه ارتكب خطأ جسيمًا سرعان ما تداركه ثم أخرجه من رأسه، فهو ليس بالأمر الجلل وأصبح شيئًا عاديًا، أما (ديجا) فقد اعتادت تلك المفارقات، عملها في الإذاعة علمها أن تتصف بمرونة غير اعتيادية أمام تلك الأمور، قديمًا كانت شخصًا مختلفًا، كلما ظن أحدهم أنها مسلمة كانت ترتبك، وتعود مسرعة إلى بيتها، إلى غرفتها، لتبكي عند تلك الزاوية الكئيبة بالساعات.

تذكرت بيتها، وأي بيت كان!! طلبت والدتها الطلاق من والدها، لكنه كان مستحيلًا، وفاز والدها بتلك الدعوى القضائية المرفوعة من والدتها من دون أي عناء، والدتها لن تستطيع الزواج ولن تأخذ حقوقها، والدها زير النساء السكير، قعيد الخمور، بإمكانه أن يتزوج امرأة أخرى بكل بساطة.

لفترة طويلة لم تسمع من أخباره، إلى أن فقدت اهتمامها به، لم تعد تلك النسخة

القديمة من نفسها، أصبحت شخصًا آخر أكثر جرأة وأكثر شجاعة عما كانت من قبل، أما الفضول، فكان بلاءها وبليتها، وقتها كانت شفتاها المتوجستان تتهامسان.

"بس برضو، لازم ترجعي بسرعة، عندنا شغل كتير بكرة زي ما إنتي شايفة،" أعاد (خالد) كلامه.

"آه... آه... أكيد! يالا بقي أشوفكم بكرة،" قالت (ديجا) بعد أن عادت من بين أفكارها، ثم رجعت وقالت، "آه، صحيح. أنا مش هبقى موجودة لغاية العصر، فيا ريت يا ريت محدش يجنني باتصالاته يا ريت، ماشي؟"

رد (خالد) من بعيد، مشيرًا بيده، "آه طبعًا، هنعتبرها أجازتك يا ستي."

ضيقت (ديجا) عينها علامة على الضيق اللذيذ، فهي تدرك جيدًا أن تلك الفترة ضيقة ولا توجد إجازات، "ماشي يا خالد، زي بعضه. يالا أشوفك بكرة."

رفع (خالد) رأسه وأوقفها قبل أن ترحل، "بقولك صحيح، هو عمل معاكي إيه إمبارح؟"

ابتسامات خفيفة متبادلة، "كالمعتاد!"

"يالا، سلام."

خرجت (ديجا) من الأستوديو وكالمعتاد نسيت أن تضع بصمة الخروج. ذلك الجهاز العقيم الذي ظل يضايقها حتى في أحلامها، حقيقة، هي ترى الموضوع بأكمله ينصب على الإبداع، ولن يكون هناك إبداعًا وعلى رأسه القيود، أي فكرة عبقرية تلك التي انصبت على دماغ أحدهم ليحدد مواعيد قدوم وانصراف الموظفين في الإذاعة، وبالأخص المذيعين.

ولأنها كانت تعمل هناك لفترة ليست بالقليلة، كان عليها أن تعتاد على بعض الأمور، أولها كان ذلك الزي الموحد والعقيم، كانت تفكر في عقلها، "حاجة كدة ملهاش أي تلاتين لازمة."

في أقل من خمس دقائق كانت تترجل خارج مبنى الإذاعة والتليفزيون، (ماسبيرو). لحظات خاطفة مرت من الوقت، في ذلك المكان تجمع أقاربها وأعمامها وأولاد أعمامها وأناس عرفتهم بالعشرة وأناس لا تعلمهم، مِن أكبرهم لأصغرهم تجمعوا، مثل أحداث كثيرة شهدتها في تلك الفترة الصعبة، لكن ذلك الحدث كان الأشد إيلامًا لها، أحداث الأحد الدامي.

أليس غريب أن يكون ثمن الحرية الموت؟؟!

أجل، تسمرت لدقائق، لكنها سرعان ما استعادت اتزانها من حالة الصمت. كانت على يقين أن حال البلاد سيتغير قريبًا، ربما من سيغير الكفة أُلقي مُجهَدًا من الاعتراض، لكنه موجود، لم يُخرجها من حالتها التي انزلقت إليها مرة أخرى سوى ولد يمسك بيد بنت ويتهامسان على الضفة الأخرى من الطريق، على حواف كورنيش النيل، لا يباليان بقضية الشرق الأوسط أو البلاد التي انحدرت إلى منزلق الصراع. فقط يتمسكان ببعضهما ويتضاحكان.

ضحكت (ديجا) من دورها، ذلك الشيء لم يعد موجودًا، الثقافة، وفكرت، "البلد مبقتش محتاجة عالِم، لأنها كلها عوالم، ودول مفيش أكتر منهم."

بضغطة على المفتاح، أضاءت مصابيح سيارتها، (كيا كادنزا حمراء اللون – موديل 2013)، جلست (ديجا) على المقعد، وبعد أن جلست، أخرجت هاتفها من الحقيبة – هاتف نوكيا 808 ذو كاميرا عالية الجودة – مخصص فقط للتصوير الاحترافي.

رنين الهاتف على حين غرة أفزعها، فانتفضت، وكاد أن يسقط من يدها، ولما رأت الاسم المتوهج على الشاشة، هدأت سريرتها ومسحت بطرف إبهامها الغارق في طلاء الأظافر الأحمر، وسريعًا أجابت، ""ألو، أيوة يا ماما."

كانت النبرة برغم نعومتها حادة من الطرف المقابل، "إنتي فين كل ده؟ وليه مكلمتينيش لغاية دلوقتي، سايباني أجيب وأودي كدة مع نفسي."

"آه." همهمة لا تحمل أي تفسير.

"المفروض تكوني جيتي من ساعة،" أكملت النبرة المنزعجة.

"آه." همهمة موافقة.

ويبدو أن كلمات (ديجا) التي لم تحصل على الفرصة لقولها، لم تأت بجديد، فأسهب الأم بتوتر، "قلتلك ميت مرة إن البلد مبقتش أمان زي الأول، إنتي ليه مبتسمعيش الكلام، عايزة تتعبيني وخلاص."

أومأت (ديجا) برأسها يمينًا ويسارًا لأنها تعلم ما كانت ستقوله لها والدتها، وعلى الفور أجابت، "أنا كويسة يا ماما.. متقلقيش.. أنا خلصت البرنامج وجاية في الطريق أهو."

قالت الأم، " إنتي كل مرة تعملي كدة وتقلقيني عليكي."

"ديجا، ياريت ترجعي ومتتأخريش أكتر من كدة."

"حاضر يا ماما، حاضر، هاجى حالًا."

"يالا سلام بقي، سلا..."

"اســ..."

كليك!!

فووووووم –

صوت محرك السيارة.. ليس عجيبًا أبدًا تلك الطرق المزدحمة حتى وبعد أن جن الليل، فشوارع القاهرة دائمًا مكتظة بالأقدام والعجلات، لكنها ورغم ذلك كانت أخف بكثير من طريق قدومها في الصباح كما أن هناك قضاء أخف من قضاء.

بحركاتها الارتجالية، كانت (ديجا) تتمايل على أنغام مغني جديد يُسمّى (هادى الأمير)، لم تكن تذكر هل كان ألبومه الثاني أم الثالث، إلا أن نغماته كانت تنفض عن كاهلها شيئًا من عناء اليوم الطويل، دندنة تبدأ بعزف منفرد على العود، يتبعها بألحان البيانو الساحرة ثم يغنى بصوت تسوده نبرة الشجن.

سلام الليل على الأحلام بتندهلي

تعالي نعيش ونتقابل في يوم بكرة

أنا وإنتي نعيش اللحظة م الأول...

ومع صوته كانت (ديجا) تغنى وتعلو بصوتها:

حبيبي الحب مش كلمة ومش قلبين

حبيبي الحب ده بيعرفنا من سنتين
تعالى نعيش ونتمنى
ونتقابل سوا ف جنة
وليه نحلم ونستنى
ما إحنا هنا...

دائمًا ما كانت أنغام الأغاني تغلبها، كانت تتفاعل مع الأغنية حتى صارت تسمع لصوتها فقط وتظنه الصوت الذي يغني، وتلك الأضواء المنعكسة من مصابيح الشوارع كانت تضفي عليها سحرًا غريبًا إلى جوار البرودة التي دبت في عظامها كنتيجة لهواء المكيف. (ديجا) كانت تستمتع بتلك اللحظات، كانت تشدو، "ما إحنا هنا!!!!، فليه نحلم ونتألم، كفاية قوى."

للمرة الثالثة تعود الومضات على هاتفها لكنها لم تسمع، فخلو الطريق كان حافزًا لها للإنصات إلى مشغل الأغاني، فذلك الوقت كان الأنسب لاجتياز كوبري 6 أكتوبر من دون الوقوف لساعات طويلة من الزحام الخانق. أجل، كان ذلك حافزًا لها لأن تزيد من سرعتها عوضًا عن سرعة السلحفاة التي اعتادتها بضغوط مستمرة وتحذيرات عدة من والدتها.

الساعة: 1:16 ص - 19 يناير 2014

إيييييييييييييييييييي - كرييييييييك - طاااااخ!! -

صدمة قوية ورد فعل أخرق لحزام الأمان الذي أطبق على صدرها كردة فعل فجائية، كما لو أنه ضمّ أضلعها سويًا.

دحرجة وإيماءة بالرهبة، وضغطة بكل ما أوتيت من قوة بذلت فيها جل ما تملك من عضل في رجلها، لتري من بين الضوء الساطع الذي ضرب في عينها شظايا أشلاء تتطاير وزجاج يتكسر. عقل (ديجا) الذي ارتجّ بعنف على إثر الصدمة أوهمها بشخص يسبح في الهواء، ليسقط ويتدحرج وتنفجر الدماء سيلًا على الأسفلت الأصم.

أدركت أنه لم يكن وهمًا لأنها كانت تحملق بفزع في حقيبتها المبعثرة ونبضات قلبها الممتزجة بالخوف، تلك النبضات المتسارعة التي جعلت دقائق الوقت تبدو بطيئة، فكل شيء كان يتراكم فجأة، كل ما ظنت أنها تخشاه، كان يظهر يقينًا، لم تعد تعي ما كان يحدث.. هي فقط تسمرت في مكانها، لم تكن تسمع الخبطات المتلاحقة ولا الباب الذي فتح عنوة وذلك الشخص الذي جذبها بهمجية من يدها، وهو يصرخ ويصيح، "إنتي حيوانة!!!!"

تجمع الناس والاندهاش من تجمعهم كان غريبًا، حتى توقف السيارات على الكوبري لم يكن كافيًا لجذب ذلك العدد الغفير.. كان أغلبهم يعوي، وبعضهم يحدق بفضول زائد، وبعضهم ينظر ناحية (ديجا) والبعض الآخر يدعو المزيد من الناس.. هرج وصياح متزايد ليصنعوا دائرة من التحليل والتعقيب وإبداء الفرضيات التي سرعان ما أصبحت حقائق بين الصفوف، ثلاثة فقط كانوا يلتفون حول (ديجا)، يتربصون بها كالبطل المغوار. كل واحد فيهم يسعى لنيل الزعامة في إلقاء القبض على المجرم الذي تسبب في الحادثة الشنيعة.

سيل جارف من السباب!

"مش تاخدوا بالكوا."

"طب مادام مبتعرفوش تسوقوا بتتنيلوا تسوقوا ليه."

"منك لله ذي ما دمرتي الراجل."

"البت ماتت!"

"لأ، ده راجل!"

"الراجل قطع النفس."

أما (ديجا)، فذلك الصرير الموجع في أذنيها لم يكن سوى اصطكاك أسنانها من الفزع. كانت تنتفض من رهبة شديدة احتلت جسدها النحيل.. كانت ملابسها مبعثرة، أظهرت جزءًا صغيرًا من الوشم الملتف على كتفها، كانت تتساءل بكلمات غير مسموعة ونظرات تتفحص كل ما كان يدور من حولها.

"إززز... إزاى؟"

"طلع هنا قدامى إزاى!!"

لكنها في الأصل لم تكن تتفحص سوى تلك اللحظات السابقة.

صرخ أحدهم في وجهها، "ده شكله مات."

لم تكن بعيدة لأن (ديجا) سمعتها بداخل عقلها، تتصدى كنهاية متوقعة لمشهد موحش. كل ما كان منها هي تلك الدموع التي تجلّت بغير إرادتها، وعلى فمها يد تكتم نحيبها المتصل، يد تعزف من حنجرتها حشرجة صامتة.

بين الناس، جسد ينتفض بقوة، كانت الحياة تدب في حلقومه. ظل ينتفض على الأسفلت

للحظات.. لحظات أودعت في قلبه الألم.. وقت أن كانت للحرية معنى.

الخطوة تتبع الخطوة، كلها خطوات إلى الموت.. قُتِلت زوجته، قُتِل ولداه، لحظة الوداع كانت قريبة.. فقط عندما أحس أنه تابع.. ومن يتشدق بالثورة أصبح بلطجي، البلطجي أصبح بطل.. وقتما ضاعت حياته.. طرد من عمله، من غرفته وحتى من أعز الناس إليه.. أصبحت الحياة بدون جدوى.

هل انتحر؟

أقدام الناس المتراصة كجنود النمل لم تهبّ للمساعدة.. كان ضوء المصباح ينطفئ في عينيه.. فقط الظلال التي أوشكت على البزوغ.. ستائر سوداء تُلقى على جميع الألوان، وتلك الحشرجة الأخيرة التي أظهرت الأمل، ثم انتهت.

"الراجل مات، مات.. الست اللي هناك دي قتلته.. هي اللي قتلته،" صاح أحدهم كمن يُبلّغ الخبر السعيد بكونه من اكتشف موته حتى من دون أن يكشف بنفسه وإنما اكتفى بمراقبته جثة هامدة لا تتحرك، لم يكن مهتمًا ولا مكترثًا سوى بشهرته بين الناس المتسائلين عن آخر الأخبار.

اهتزت (ديجا) بقشعريرة مروعة، هزت أركان شجاعتها، فملامحها الهادئة وملابسها المنمقة، وسيارتها الجديدة لن يغيروا من الواقع شيئًا، فأنظار الناس كانت تتجسس المصائب، وقد كانت في منتصف الدائرة، هكذا أطبقوا عليها الخناق، ترى في وجوههم شيئًا من الغضب وشيئًا من الانتصار.

هتف أحدهم، وكان رجلًا بسيطًا مثل موظفي الحكومة المغمورين في الرتابة، "حد يشوف هو مين يا جدعان؟"

"يا جماعة، حد يتصل بالشرطة."

لما أتت تلك الكلمات إلى مسامعها، فزّت (ديجا) من مكانها وسط زحام الناس.. ضربة في كتفها كانت موجعة، لكنها تحملتها، من بعدها يد تمتد إليها، تتحسس جسدها، ويد أخرى تقتنصها.

لم يكن أمامها سوى أن تحشر نفسها ناحية السور الحديدي المتهالك للكوبري، على يمينها جثة ساكنة، خائفة، تتقوقع على نفسها، تتمنى لو أن الرجل يعود إلى الحياة، على يسارها هاتفها النقال يضيء وينطفئ باستمرار على مقعد السيارة.. يقينًا لم تكن تسمعه، لأنها لم تكن تسمع صوتًا غير صوت الطبول المدوية في صدرها كلما رأت أقدام الزومبي تقترب منها، أناس يتهادون ناحيتها كأشباح في الليل، للحظة فكرت أن تقفز.

"حد يمسك الست دي أحسن تهرب يا جماعة.. محدش يضمن أي حاجة.. حق الراجل هيروح."

"ابعدوا عني!!" زعقت (ديجا)، "محدش يقرب مني."

لم ينقذ (ديجا) سوى صوت سيارة الشرطة تدوّي بأنوارها المشهورة من بعيد.. حقيقة، لم يكترث الناس كثيرًا لقدوم سيارة الشرطة.. ذلك الزمان ولّى واليوم أصبح الناس يتجرؤون على رجال الشرطة كأي شخص عادي من طوائف الشعب.

حسنًا، تغير الكثير في تلك الحقبة الزمنية.. تلك الشعارات البالية لم تعد تجدي نفعًا.. لم يعد أحد في خدمة أحد، ولم يعد الوطن هدفًا للجميع، لكنهم ترجلوا مبتعدين عنها، أما (ديجا) فكانت الشرطة أهون بكثير عليها من تلك الوجوه الغوغائية المتراصة على الطريق والشرفات القريبة والبعيدة.

نظارة سوداء، لا تظهر منها ملامحه، ترجل نقيب شرطة، أملس الوجه بلا شارب أو لحية.. يبدو كمن وصل إلى مشارف العقد الثالث، من خلفه رقيب بثلاثة شرائط على كتفه، كث الشارب، ملابسه غير منسقة عريض المنكبين، وثلاثة عساكر طوقوا المكان سريعًا، أما الضابط فكان يمشي بهدوء، يتجرع من سيجارته وينفخ في الهواء، ثم يعود ليأخذ جرعة أخرى لينفخها في الهواء، لم ينطق بكلمة سوى أنه كان يمسح المسرح بنظارات ثاقبة حتى وضع سيجارته جانبًا وأشار للرقيب، "مشّيلي الناس دي من هنا."

"أوامرك يا باشا،" بسرعة البرق كانت استجابة الرقيب، لكنها كانت تحمل بين طياتها نبرة مستعصية. تلك النبرة التي تفرق بين الضيق والخضوع. مع ذلك باشر ومعه العساكر في إبعاد الناس عن مسرح الجريمة لدرجة أن جموع الناس اصطفت على الجانب الآخر من الطريق مما تسبب في بطء حركة السيارات بها، ولم يتجشم الضابط عناء تسيير حركة المرور.

قطرات الخوف تتقطر على جبهتها. حملقت (ديجا) ناحية الأرض حين ظنت أنها نجت من الناس. كانت أطرافها تصطك بقوة،

وأساريرها ترتعد. خصلات شعرها لم تعد مرتبة كما كانت، بل أصبحت كأغصان الأشجار المتشابكة، حتى اكتحال عينيها صار باهتًا وكان يسيح ما بين دموعها الهاربة.

لم يكن ذلك يحمل معنى للضابط. لقد اعتاد على دموع التماسيح، بل ذهب إلى السيارة بكل هدوء ثم مرر رأسه من خلال الزجاج المفتوح وتفحص جيدًا ما كان بداخلها.

الفحص والتمحيص مزيتاه المعروف بهما منذ أن عاد جهاز الشرطة للعمل مرة أخرى بعد الأحداث الأخيرة. حسنًا، كان يعمل ولكن على ما يبدو خارج نطاق الخدمة، أما اليوم فازدادت مهاراته واتسع سجله ليشمل العديد من المطاردات والتحقيقات، لم يفرق بينه وبين رتبته الجديدة العاجلة سوى خيط واحد.

ظل يتشمم الخيوط كلها بحثًا عن أي تناقض، ولما وجد أن السيارة لا تملك ضالته، أخرج رأسه ناحية الجثة، والتي كان يقينه يتزايد من أنها جثة رغم أنه لم يتفحصها. وحتى ذلك الحين كان يسير بخطوات ثابتة مارًا من جوار (ديجا) دون أن يلتفت إليها أو يعيرها أي انتباه. اقشعرت (ديجا) مطأطئة رأسها ظنًا منها أن دورها قد أتى، لكنه تفاداها إلى الرجل المكوّم على الأسفلت، ليجثو إلى جانبه ويصدر همهمة لم تتعد الثواني الأربع، ليحشر يده في جيب البنطال، يقلب فيه بحثًا ثم قام خطوة ونصف ليحشر يده في الجيب الأيمن.

همهمة أخرى، بضع أوراق وحسب. أوراق مفردة لا تُكمل الأزواج الثلاثة من عشرات الجنيهات،

وورقة بيضاء مطوية عليها رقم هاتف واسم وبطاقة شخصية، فضاقت عيناه حينها. بطاقة قديمة صورتها منزوعة، مكتوب عليها "الاسم الكامل: أنور رحيم عدلي عبد المولى – الديانة: مسلم – تاريخ ومحل الميلاد 1960/11/15 – العباسية."

أشار الضابط إلى الرقيب قائلًا، "يا صول توفيق، حرّز دي." ثم التف قائمًا وأشاح بضيق إلى الناس.

عند أقدام حذائه الأميري قبعت (ديجا)، كانت أشبه بروح تعلمت الحرية ثم كُسرت.

سألها من دون أن يلتفت لها، "تعرفيه!"

بتردد أجابت، "ممـــ... مين ده؟"

"أنور! أنور رحيم عدلي عبد المولي."

"أنا! لا... أنا! ولا عمري قابلته."

"مممم!"

كان يتفرّس من خلال جسدها النحيل بنظرات ثاقبة، طريقتها المعهودة كانت مختلفة، بعد ذلك تحدث بصوت متخشب، "بطاقتك."

تلبّكت (ديجا)، كانت أعصابها الحديدية لا تزال متأثرة من الموقف. تلك الفتاة القاهرية صعبة المراس التي لا ترضخ ولا تنكسر، أصبحت أصابعها تهتز كلما اقترب أو ابتعد ذلك الضابط الشاب. لم تكن تتكلم لأنها أحست أحبالها الصوتية جافة وعلى وشك أن تتمزق. كانت تجاهد كي تنطق تلك الكلمات، "فـــ... في الـــ... احمم... في الشنطة."

ابتعد الضابط عنها ولم يكترث لهتافها المذبوح، ذلك لأنه ومنذ قليل رأى حقيبتها في السيارة، وعندما جلس على المقعد بعد أن أدخل قدمًا واحدة وفتح الحقيبة، لمح شاشة الهاتف قد انطفأت للتو. بضغطة من يده أعاد فتحها ومسح على الشاشة ليتجول في محتوياته. رأى اسم (ماما) احدى عشرة مرة اتصال، فتبسم ابتسامة صفراء. مر بين الأسماء ليتصفحها جميعًا. كانت كلها أسماءً عادية ما بين الأصدقاء والمعارف، لكن عينه ضاقت، ضاقت لدرجة كبيرة.

وقفت أمامه (ديجا) وعلى وجهها يبدو الغيظ واضحًا لمّا رأته يقلب في رسائلها بالإضافة إلى صورها الخاصة.

على ما يبدو، تفحص الضابط كل محتويات هاتفها في لحظات. اقتربت (ديجا) خطوة واحدة وقالت بصوت مكروب، "إيه... إيه ده! حضـ... احم، حضرتك بتعمل إيه؟"

من فوق إطار نظارته، لاحظها بتلك النظرة الغير مبالية لأي تعليق والتي تخبرها، "اخرسي."

لكن ما بدر منه أنه لم يلتفت إليها لوقت طويل وهي تردد لمرة ثانية، "بتعمل إيه حضرتك؟ دي حاجاتي الشخصية!!" ونادى على الرقيب، "يا صول جودة."

"خد المتهمة دي وحطها في البوكس."

"حاضر يا فندم،" ولف صارخًا، "يالّا قدامي."

استجدت (ديجا) بعد أن أبعدت يد الرقيب عنها، موجهة حديثها للضابط، "يا فندم بعد إذنك..."

زعق الرقيب، "مسمعش صوتك. اركبي من سكات."

وقتها دخل الضابط إلى قائمة المفكرات. ثلاث أو أربع مفكرات لم تكن ذات أهمية، لكن ما لفت انتباهه مفكرة عنوانها كبير، (سرايا الزعفران - مستشفى العباسية)، فقال في سره، "الناس كلها بقت مجانين!" وجد فيها موعدًا في تمام الساعة السادسة عصرًا ليوم الغد، تحضيرًا للحلقة الجديدة من برنامجها لليوم الحادي عشر من شهر فبراير.

بعد فحص سريع، سكون تام، حمل اثنان من المسعفين الجثة من الأرض بعد أن تيقنوا من وفاتها ليُودِعوها في المشرحة، بعد أن مرت سيارة الإسعاف من بين أناس اقتربوا ليشاهدوا الأحداث عن كثب حتى بعد تحذيرات الضابط عن طريق الرقيب المغوار. أما أضواء الإسعاف فقد أفاقت (ديجا) من الواقع الذي كانت تتمنى أن يكون مجرد كابوس مزعج. ومع إدراكها أن الأصوات والأضواء والأقدام المتهافتة كانت حقيقة، كانت تتمنى غير ذلك.

جذب أحد العساكر (ديجا) من يدها برعونة. تألمت لكنها صعدت سيارة الشرطة بكل هدوء. للحظات رمقت الشارع بعين واحدة وأخرى مغلقة من الضوء الذي شعرته مُسلّطًا عليها. أدركت جيدًا أنها تتجه إلى طريق بلا عودة، وأن الانحدار الذي انزلقت فيه سيرافقها بقية حياتها. لعل ذلك الضوء هو آخر ما سترى من حياتها السابقة. كل شيء سيتغير بمجرد أن تصعد في تلك السيارة المتهالكة.

صوت إنـذار! صوت نـبضات الـخوف!

منـذ لـحظات كـانـت مـذيـعـة تـشق طريـق الـشهـرة، وهـا هـي ذات الـشهـرة تـطرق بـابـهـا الآخـر، مـسجونـة فـي قـضيـة قـتل. أحست أن الـقـدر يـلـعب مـعـهـا لـعبـة غـريـبـة. تـلك الـملامـح الـموحشة لـضحكات الـعساكـر الـذيـن بـاشروا الـمزاح والـحكايـات الـتي أوقـفـوهـا بـسبب مـا حـدث. بـشكل عفـوي، شعـرت (ديـجـا) بـالاشمـئـزاز، غـيـر أنـهـا لـم تـجد لـذلـك الاشمـئـزاز مـن دافـع.

فـي ذلـك الـركـن الأيـمـن كـانـت تـنـتظر مـصيـرهـا، لـم تـملك سوى الـنظر نـاحيـة الـعساكـر ثـم إلـى الـشارع الـذي كـان يـتلاشى.

كـان الـطريـق طويـلًا أكـثـر مـمـا تـوقـعت، والـجو يـزداد بـرودة بـعـد أن انـتفضت عظامـهـا بـقـشعـريـرة مـفـاجئـة اجـتـاحـهـا بـيـن الـحيـن والآخـر. تـرى أعيـن الـنـاس تـضيـق عـلـى سيـارة الـشرطة وكـأن الـعيـون تـزفّـهـا إلـى الـسجن، إلـى جـائـزة الـقـتل، الإعـدام، رغـم أن الـصور الـتي كـانـت تـتـرامـي إلـى رأسـهـا كـانـت تـؤكـد غـيـر ذلـك. حـكـايـة الـقـتل الـعـمـد لـيـس لـهـا أسـاس، ولـكـن حـتـى وإن لـم يـكـن عـمـدًا، سـتـوضع فـي الـسجن لـبضع سـنـيـن. الـفـكـرة وحـدهـا كـانـت تـصيـبـهـا بـالاسـتـنـزاف.

فـي صبـاحـهـا اسـتـيـقـظت، ربـمـا بـصعـوبـة دفـعـتـهـا لـلابـتـسام، لـكـنـهـا احـتـسـت كـوبًـا مـن الـشكـولاتـة الـسـاخـنـة الـتـي تـهـواهـا، دافـئـة لا هـي سـاخـنـة ولا بـاردة، وأكـلـت فـطـائـر الـكـرواسـون الـتـي أحـضرتـهـا والـدتـهـا مـن ذلـك الـمـخـبـز الـقـريـب. سـريـعًـا أخـذت نـظرة خـاطـفـة فـي جـهـاز الآيـبـاد، تـتـصفـح بـريـدهـا الإلـكـتـرونـي وصفـحـة الـفـيـسبـوك

وبعض الأخبار الأخيرة قبل أن تذهب إلى العمل.

على سلم الخروج قابلت البوابة، حارسة العقار، تلك السيدة الصعيدية الطيبة كانت قد فرغت للتو من غسل سيارتها ومن نظافة الطريق، وكالعادة داعبتها، بل وأكثر من ذلك على خلاف أي ليلة أخرى، حتى أنها أوصلت تلك السيدة العجوز في طريقها. اليوم هو نفس اليوم، في بدايته وفي آخره.

"خلاص!!" تمتمت في نفسها، "خلاص يا ديجا!!"

عشرات الخيالات والتوقعات السوداء، صور قاتمة رسمتها في عقلها، صور كئيبة صعبة، هي اللحظة التي دفنت فيها رأسها بين ذراعيها وهدّأت من حركة رئتيها.

صوت سيارة الشرطة انقطع بغتة، وهدأت السرعة تدريجيًا لدرجة أنها سمعت صوت الفرامل ينحر في العجلات. فتحت (ديجا) عينها اليسرى. لم ترى العساكر في أماكنهم. أصابها المزيد من الهلع. توقعت أسوأ مما كان ينتظرها. لكنها للحظات فكرت أن كل ما كان يجري من حولها ربما حلقة سخيفة من برنامج أسخف.

"بس للدرجة دي؟؟" فكرت (ديجا).

صوت الحذاء الأميري بطرقاته المخيفة على الأسفلت أعادتها إلى رشدها.

تاك... تاك... تاك!!

عند نهاية صندوق السيارة رأت الضابط، يتكلم، "انزلي،" بصوته الجاف المدعي الخشونة كان يتحدث.

ترددت (ديجا) في البداية وتساءلت، "هو هيعمل إيه!!"

شيء غريب كان يحدث، هكذا فكرت، لم تكن هناك أيّة علامة على وجود العساكر أو ذلك الرقيب قاسي الملامح، عدا أنا جلوسها لن يأتي بفائدة، لذلك قامت وأحنت ظهرها ثم ترجلت عن السيارة. نباح يأتي من بعيد. رمقت بعين يملأها التردد. كانت نظراتها ترسم كل تفاصيل الأماكن في أقل من ثانية.

"اتفضلي،" هزة غريبة أحستها في يدها لما سمعت صوته، "اتفضلي، موبايلك وشنطتك وحاجاتك."

كاد الجنون أن يصيبها بالشلل. كل أسلاك عقلها انفجرت.

أكمل الضابط وكانت ملامحه بلاستيكية، "عربيتك هتوصلك بكرة الصبح."

أخذت (ديجا) مقتنياتها لكنها ظلت تحدق باستغراب، لا تعي ما كان يحدث حقًا. استدار الضابط وأتبع التفافه بخطوات كانت تراها بطيئة، كان يبتعد عنها ناحية السيارة وهو يمد يده إلى بابها ويشعل الأنوار وصوت الموتور لينطلق أمتارًا، عشرات الأمتار، خمسين مترًا، حتى تلاشى.

هاتفها في يدها وحقيبتها في ذراعها، تظهر أسنانها البيضاء من فرط دهشتها.

الليلة ليلة عيد! عيد مبارك!!

"هه هه هه!"

بسخرية، ضحكة (ديجا) لم تكن تفهمها.

"مش عيد مبارك."

****

" 03 "
علامة صلاة

"**عيد** مبارك! ويقولون عيد مبارك!!"

"أي عيد هو المبارك؟ عيد النصارى!!"

واستعلت الأقدام عند الباب بصرير مزعج مسموع، ساد من بعده السكون للحظات. بنطاله القصير لم يكن في حاجة لأن يزداد قِصرًا، فبنطاله قصير بما فيه الكفاية. ارتمت أكتاف الناس إلى الوراء، يستندون على بعضهم وعلى الأعمدة والحيطان، موجهين أنظارهم باهتمام لا يقارن إلى جلسة أمام ذلك النتوء البيضاوي، حيثما تجشموا عناء الانصات، وكل من حمل شيئًا في يده تركه، وكل من أخرج هاتفه أعاده، فالانتظار نار تحرق، وهم ينتظرون منذ وقت طويل. لكنه انتظار المحبة الذي دفعهم لاحتمال مشقة الوقت البطيء. شيء كان يناديهم فيأتون مُهطعين. يسمعونه فلا يملون أحاديثه.

"وأتوقع أن يسألني أحدكم عن العيد المبارك الذي يحتفلون به؟؟ صه!! ألا تخجل من نفسك؟ فالمسلم أخي العزيز ليس له سوى ثلاثة أعياد."

تهللت أحداق الناس لما أيقنوا معرفتهم الجواب، وكل من كان يحمل إجابة ينظر إلى جواره. من لم يدرك إجابة ذلك السؤال أقل تدينًا منهم، وقمة الاختيال حينما يدرك أحدهم معرفته بشيء لا يعرفه الآخرون، يُصبه الغرور في نفسه، يُعدِّل من وضع قعدته ويهندم لباسه متأنقًا، لعل اختيارًا قريبًا

ينصب عليه، فله الثواني الأولى من الاستعداد وعليه البقية إن تأخر.

"عيد الأسبوع..." وبعض الناس في سرائرهم يرددون، "يوم الجمعة،" وكل من قالها نظر إلى غيره، وبعضهم نظر إلى الشيخ المضطجع على قمة المجلس، لعله يشكره أو يذكره أو ينوِّه عنه، إلا أن مرادهم عاد إليهم عندما لم يبد الشيخ اهتمامًا لأحد، بل أكمل بصوته الطيب المعتدل، ما بين الانخفاض والمغالاة.

كان يرتدي قميصًا رماديًا مخططًا وبنطالًا واسعًا، (لاكوست)، وحذاءً جاء به من (باتا). في يده مسبحة يُقلب خرزاتها وفي جيبه كُتيّب صغير فيه الأذكار، شديد البشاشة، لم تفارق الابتسامة عينيه أبدًا، ذقنه السوداء تكاد تصل إلى حواف صدره.

رجل تقي، طيب السيرة، يحب الناس الإنصات إلى حديثه لما يحمل من علم غزير. يأتيه كل من سمع من أخباره من شتى بقاع المحروسة، وبالأخص في ليل يوم الخميس. عدا أن الليلة كانت ليلة استثنائية، ليلة السبت، يوم يسبق العيد، الثامن عشر من شهر يناير لعام ألفين وأربعة عشر، مجلس استثنائي لاقتراب ذكرى الثورة الأولى، أو بالأحرى الثانية، ليلة الخامس والعشرون.

كان لابد أن يتحدث إلى الناس في ظل تلك الفترة الحرجة بالرغم من صعوبة الجلسات الدينية، خوفًا من أي ذقن شعثاء بلا شارب. أصبحت البلاد تمر من خلال حقبة هوجاء، يعد فيها انتماء الناس إلى اسم الجماعة جريمة، جريمة لا يغفرها الجار قبل المجتمع. أصبحت الجماعة وصمة عار سرعان

ما تحولت من كونها إسلامية إلى متطرفة إرهابية.

لم يمنع الشيخ من الحديث سوى امتحان الناس لأخلاقه قبل علمه، ولأنهم تيقنوا من أنه غصن طليق لا ينتمي لأي أفكار خارجة عن نطاق ما اعتادوه، أحبوه.

"والعار يا إخواني أن نبتعد عن الدين الحنيف وننتمى إلى أديان أخرى ابتدعها الناس من نسخ مخيلاتهم."

"لا هم يراوعون حرمتها ولا يُقدسون شعائرها، يتشدقون بها ولا يعلمون ما فيها، أما..."

"وتعالى نروح يا حبيبي للجنة..."

صوت رنين الهاتف كان عاليًا، جمع كل الأنظار على الشخص الذي طرق رنين هاتفه أسماعهم. جميعهم تميزوا من الغيظ وبعضهم اختبأ من الخجل، حتى تحدث الشيخ فقال، "قمة العار يا إخواني، قمة العار."

"معلش! مخدتش بالى!" قال الرجل مستعطفًا المعذرة من الناس قبل الشيخ.

بسرعة أطفأ هاتفه، ولم يفكر في أن يجعله صامتًا، حقيقة، تعجب الناس لم يدم طويلًا، والهمسات التي انتشرت بينهم سرعان ما اختفت. كانوا جميعًا يستمعون إلى الشيخ بإنصات.

"أديان الهوى تلك. أديان المصالح تلك. أصبح الأخ لا يأمن أخاه، ولا الجار يأمن جاره، ولا الصديق يأتمن صديقه. أصبحنا في زمن الزوجة لا تأمن زوجها. كل المفاهيم أصبحت تتبدل. كل الحقائق أصبحت زائفة خادعة..."

تهلل الناس من صدق كلامه، مقتنعين في حديثه، مُطأطئي رؤوسهم بأن الحديث عين الصواب. كلام موزون لا تشوبه شائبة. فقط تمزق المجتمع إلى عناصر عدة. أصبحت أواصرهم متقطعة. لا رفيق ولا صديق يُؤتمن. شيء ما فُقِد في متاهة الأزمات، شيء من الأخلاق ربما، أو شيء من القيم.

التفت نظرة حارة من بين أنظار البشر، تستكشف طريقها بين الجموع. ترقب أنفاسهم المتصاعدة بين التهليل والبرود. أنفاس حارة على جلد بارد. بريق ملابسهم النظيفة يضعف عينيه، يصيبه بغثيان لا ينقطع. كانت حركته بطيئة. يُخفي ملامحه عن الناس. تهتز رأسه صعودًا ونزولًا، يمينًا ويسارًا. شيء ما يطقطق في جيبه. حبل مربوط حول خصره كذنب معقود. يعتلي مداسًا طرفه المقطوع مثبت بطرف سلك.

كان يعرج!

أحدهم تقزز من شكله!

داس على قدم رجل!

كان يدنو ويقترب. يزحف في اتجاهه إلى موقع محدد. هناك عند ذلك الجدار في الركن البعيد، إلى جوار العمود كان مكانه. هناك اعتاد موطئه. حيثما سكنت سريرته وتدلى شيئًا فشيئًا ليضطجع، فاردًا قدمه وبين حاجبيه علامات الألم. ألم كان يختفي متى جلس بجسده المقوس على الأرض، متى ألقى بمسامعه ناحية الشيخ ومسح بيده المتسخة على آخر الحبل، يعد عليه لا على أنامله ويستمع بإنصات، يحمل بريقًا في عينه لا ينطفئ.

"يسمونه عيد الغطاس! أحد أعياد الجاهلية المسيحية الدخيل على الدين، واسمعوا ما يقولون: معمودية السيد المسيح لم تكن لولادته من الماء والروح لأنه الابن الوحيد للأب بالطبيعة، فلم يكن نزوله في المعمودية لكي يولد من الماء والروح لكنه كان نازلًا من أجل المسحة، لذلك سُمى بالمسيح، يسوع اسم الولادة، والمسيح هذا اسم المسحة في المعمودية...

ولكنها تأسيس لمعموديتنا نحن المؤمنين به، ففيما نال هو المسحة بالمعمودية أعطانا من خلالها الولادة من الماء والروح، لذلك يوحنا المعمدان قال للناس: **وسطكم قائم التي لستم تعرفونه، هو ذا حمل الله الذي يحمل خطية العالم كله - (يو 1: 26)."**

"وأي خطيئة هي تلك، أن الله الواحد القهار يدعون له ابنًا وهو ليس له ولد ولا بنت، وليس له زوجة ولا خليلة، فهو الفرد الصمد، لا إله إلا هو."

"فاثبتوا على الحق ولا يغرنكم علو الجاهلين، والحمد لله رب العالمين، ندعوه ونتوسل إليه، أن يغمرنا برحماته."

همهمة خفيفة تسبقها نظرة خاطفة، "أن يرحمنا ويغفر لنا وأن يدخلنا فسيح جناته."

رفع أحد الجالسين يده، فلما رآه الشيخ بعد سكونه، قال، "تفضل، سؤالك."

انتصب رجل مملوء، يرتدي بنطالًا وقميصًا، لحيته خفيفة وغير مرتبة، عينه شديدة السواد، دائرية جاحظة.

قال الرجل بصوت صريح، "تقول إيه حضرتك في الزواج المدني؟ يعني كتير بنشوف الموضوع ده منتشر وخصوصًا بره. إيه رأي فضيلتك في الموضوع ده؟" وكانت عينه تتقلب خشية من تبعات سؤاله.

أما الحضور فصبّوا قدرًا عظيمًا من الاهتمام على الشيخ لا على سؤال الرجل. كانوا يتابعون الشيخ في كل تصرفاته حتى الخفي منها. يصفونه بشيء أكبر من التمحيص.

نحنح الشيخ ثم احتسى قليلًا من الماء المُسند إلى جواره. يعقد ما بين حاجبيه شيئًا هيّنًا، يرتب إجابته كي تكون قاطعة وصريحة. لم يستغرق أكثر من خمس ثواني كي يجيب.

"الزواج كما تعرفون هو فطرة الله في الأرض، فطر الانسان عليها.

بسم الله الرحمن الرحيم: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) – سورة الحجرات."

ولكل فطرة قانون ينظمها، نظام بُني على أركان محددة، فأما الزواج فأركانه معروفه..."

تمتمت شفاه الناس على لسانه، يرددون خلفه، "الإشهار ركن أساسي من أركانه، والزواج من أهل الكتاب وهذا يشمل الأديان السماوية، فلا يجوز للمسلم أن يتزوج من ماجوسية أو علمانية أو ممن يعبدون الشمس والبقر أو من الأديان التي ليس لها مصدر نعرفه. الزواج المدني حالة من حالات الزنى، والله أعلم."

من بعد حديثه، علت البشاشة وجوه الحاضرين وزادت الهمهمات في أروقة المجلس، واتكأ رجل عند كتف الشيخ هامسًا في أذنه، حينها أردف الشيخ قائلًا، "ارفعوا لصلاة العشاء،" فأذن المؤذن للصلاة، "الله أكبر الله أكبر،" وقام المصلون لصلاة ركعتين يعتقدونها من السنة القبلية، ولمن يعرف، فلا سنة قبلية مؤكدة للعشاء، أما الركعتين فهما غير مؤكدتين لقوله صلى الله عليه وسلم: **(بين كل أذانين صلاة، بين كل أذانين صلاة)، ثم قال في الثالثة: (لمن شاء) - رواية البخاري (627)، ومسلم (838).**

وتفرق الناس في أركان المسجد بالتسبيح والصلاة على الرسول عليه أفضل الصلوات والتسليم. بعضهم حمل المصاحف وبعضهم أعادها، حتى رُفع الآذان للإقامة.

"الله أكبر... الله أكبر..."

فقام الناس واحدًا تلو الآخر.

"أشهد أن لا إله إلا الله... أشهد أن محمدًا رسول الله..."

فاستوت الصفوف.

"حي على الصلاة... حي على الفلاح..."

فأغلق كل من حمل هاتفًا هاتفه وبعضهم أعاده صامتًا.

"قد قامت الصلاة... قد قامت الصلاة..."

"الله أكبر... الله أكبر..."

"لا إله إلا الله..."

"استووووا، فإن تسوية الصف من تمام الصلاة."

وبلمحة سريعة تخللت صفوف المصلين، انعقد حاجب الشيخ وهمهم ثم بدأ الصلاة.

"الله أكبر..."

وقت أن قالها، تراص الناس أوتوماتيكيًا في صفوف مستوية. تلك الطرقات على الأرضية الخشبية سكنت، وطأطأت الرؤوس ناحية الأقدام مع اختلاف الأطوال والأشكال. قدم واحدة كانت تمشي بعناء، أنفاس قاسية يبذل فيها الجهد المرير، عين تملأها مرارة الحسرة، قدم تسبق قدمًا وتساعدها على الاستمرار. بصعوبة شديدة فتح باب المسجد. رجوعه يصدر تكتكة عالية حتى انغلق. يُجرجر أطرافه اليابسة، ممسكًا بحبله الثمين.

"سمع الله لمن حمده..."

خارج المسجد عالم آخر، عالم يملأه الجنون. بشر يسبحون في الطرقات كالجراد المنتشر. شوارع تملأها الأنوار وأزقة يرسمها الظلام. عالم الأسياد وعالم العوالم، وعالم غريب يسعى فيه الناس.

أكياس مملوءة على الأكتاف وأكياس خاوية تملؤها الشماتة، وأخرى تملؤها القناعة، ورجل يفترش الناصية بين ألعاب وزينة ومناديل، وحذاء على الخشب يمسحه رجل عجوز، ينحني ظهره، وشاب عشريني ضيقة ثيابه، يتحدث في الهاتف بجنون. يتكلم ويسهب في الحديث وما من رصيد في هاتفه.

"الله أكبر..."

أطفال يهرعون في الشوارع وأطفال يلعبون، وأطفال يشتمون وآخرون يعتركون، ورجل على القهوة مع عديله، يصيح صياح الديك

المفترس، فاز بجولة آخري بعد أن خبط النرد، فتهللت أساريره، مشاريبه أصبحت في حساب عديله، وعاد الحظ.

فتاة تسكن تحت العامود، ترقب الذاهب والآتي، تُنمّق طرف حجابها في كل حين، تارة تبرز خصلات شعرها وتارة تخفيها. حصان ينهق مُتفاديًا الرجل المارق، متضجرًا من صاحبه كيف يسوقه في الطريق، ودراجة بخارية مرت كأنها صاروخ، تسمع أغانيها الصاخبة من أول الشارع لآخره.

"الله أكبر..."

مباراة معادة تجمع عشرين نفرًا، يهللون ويتضاحكون. شاي وقهوة تحت الطلب، ونرجيلة بنكهات الفواكه. شخص ينفث الدخان وصديقه يتصفح الجوال، يُرفِق الصور، يبعث الرسائل لسيدة جاءت من وراء زوجها الغائب، في صفحات الدردشة يتضاحكان، يتحدثان في كل أمورهما، يتقاربان ويتعلمان أن اللقاء قد اقترب.

"الله أكبر..."

لقاء الناس ببعضهم مزحة.

قلوبهم ماتت في الصدور.

قلوب جعلت من لقاء ربها مزحة.

طااخ!!!

"ما تحاسب يا خويا، إيه ده!" صوت نسائي لم يتبين صاحبته من كل تلك الأشياء المكشوفة.

"يوه!! إنت بتبصلي كدة ليه!!" لكن النظرات كانت تتفحصها بتمعن ومن دون أي

كلام. لم يكن يهتم حقيقة بحديثها المتواصل أو بلسانها الذي كان فرسًا طليقًا بالشتائم. لعله يفعل ما يريد لأنهما كانا وحيدين بين الناس.

أولئك القابعون على كراسي القهوة لم يتحركوا ساكنين. ينظرون وحسب، ويتحدثون فيما بينهم بضحكات مكنونة، يتصفحون جسد السيدة المكتنز شبرًا شبرًا، ويرسمون في خيالهم المريض الأحلام الشيطانية. حتى الفتاتين العابرتين في الطريق ألقتا نظرات شزر أصيلة، نظرات تتميز بالأحقاد، ضغينة دفينة في نفس فتاة من ذلك الجسد المصبوب، وشاب مر بينهما في تخفي، يضرب السماعات في أذنيه ويخفي رأسه أسفل قلنسوة الجاكت. يميل رأسه بعينين يسمعان الموسيقى.

والله أكبر - دلالة على أن الصلاة لم تنته بعد.

رجل بملابسه الداخلية المهلهلة وامرأته بقميص نومها الأحمر كانا واقفين في شرفة مسكنهما في الطابق الثالث. يتحدثان عن كل من يمر حديثًا جانبيًا، يلقيان ببقايا البذور، (اللب)، في الشارع، يتمتعان كمن يشاهد مسرحية كوميدية، أما المرأة فكانت قد انتهت من فقرة سِبابها، تمتعض وتتقزز من هيئته المرضية، انطلقت في طريقها تتمايل يمينًا ويسارًا كما أتت، وأعين الناس تزحف خلف فاكهتها الثمينة.

التوت رجله وكان عليه أن يقبض عليها ليعدلها، ثم أكمل في طريقه كأن شيئًا لم يكن. فقد اعتاد أن يسير خيالًا بين الناس،

لا يرقبه أحد ولا يهتم لأمره أحد. هكذا كان وحيدًا.

رنين الهاتف!!

تررن - تررررن

ارتبك شيئًا قليلًا، أخرج هاتفًا عملاقًا كقطعة حجر كبيرة، نظر في شاشتها عن قرب، لكنه لم يجب حتى انتهى الرنين، رجل كان ينظر إلى الموقف بسيل من اللعاب المتجمع عند طرف لسانه.

عينه عليه وحبله الذي يشده من بين هندامه.

تنهد! تنهد بقوة!

****

السلام عليكم ورحمة الله - السلام عليكم ورحمة الله...

مال أحدهم على الشيخ قبل أن يتبع خطوات الراحلين، "بارك الله فيك يا شيخ خيري. تقبل الله من منكم."

ابتسم الشيخ وفمه لا ينقطع من التسبيح.

انتهت الصلاة وانفصل الناس ما بين جماعة خرجت من المسجد تباعًا وما بين أفراد أقاموا صلاة السنة. أما الشيخ (خيري) فلم يتحرك من مكانه وظل رافعًا يده بدعاء غير مسموع إلا في صميم قلبه، ولما انتهى مسح على وجهه ثم انتصب واقفًا، يمشي على أقدامه المتورمة إلى باب غرفته في آخر المسجد.

راعيًا للمسجد، كان عليه أن يتواجد دائمًا. ما من خير أفضل من رعاية بيت من بيوت

الرحمن، يهتم بأموره ونظافته، يباشر صدقاته وزكواته، مناسباته، خطبه، وقرآنه، وكان المصلون يتتابعون خروجًا من المسجد لمّا يفرغ المصلي من صلاته وقرآنه. قليل فقط من تبقى يسبح ويقرأ القرآن، وانفتح الباب.

كان الشيخ (خيري) قريبًا من باب غرفته لما انفتح باب المسجد ودخل خمسة من الرجال. سيماهم على وجوههم. يتميزون بالجلابيب القصيرة، لحاهم قصيرة وطويلة وعلى رؤوسهم علامات الصلاة. دخل أربعة منهم سريعًا، وظل خامسهم جوار الباب، يرقب الطريق بحواس مستعرة، ولما اطمأن، انضم إليهم، وشرعوا في الصلاة فرادى. في صفوف متفرقة يقفون ويصلون صلاة في أولها بطيء.

"صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد"، هكذا ظن الرجل الطاعن في السن والمرتكز على عمود في نطاق رؤيتهم، يقرأ ما تيّسر له من سورة (الأنعام).

"قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11)"

ليس أصعب على رجل عجوز من اتجاهه ذهابًا وإيابًا إلى الحمّام. هناك حيث ألقى الشيخ (خيري) عصاه التي يتوكأ عليها إلى جوار الثلاجة الصغيرة وخزانة ملابسه التي اتسعت لطواجن الطهي والملابس وأشياء أخرى قديمة. تضخم البروستاتا توابعه مزعجة لرجل عجوز سقيم. ساعات الليل لم تعد تملؤها الأحلام، بل الآلام التي لا تنفك تزداد. أصبح موطئ قدمه إلى بيت الراحة حقًا راحة وإن كانت قصيرة، ودقائق الانتظار فيه أصبحت تتسع لساعات.

بعد أن وضع عصاه جانبًا، ضغط على زر الراديو القديم على إذاعة إف إم:

- النهاردة البلد كلها بقت في حيرة، مع قرب الانتخابات الرئاسية، شوية من مؤيدين الـ..

تضجر الشيخ من حديث سخيف. أصبحت البلاد كلها تتحدث في ذلك الشأن. أصابه السأم كلما ظن أن الحياة أصبحت قاصرة على الأوراق. أوراق ترسم مستقبل الناس بعيدًا عن الإيمان. أما إيمانه فقد اقتصر على المياه الباردة الملقاة على جسده المترهل تاركًا الراديو وحديثه المزيف، وملابسه المعلقة على مسامير ثلاثة، مثبتة على الباب الذي تتخلله الثقوب، وتساقطت المياه أمطارًا على رأسه، تزيل عنه عناء يوم طويل.

راحة الماء على الجسد، راحة لن يعرفها إلا من فقدها.

انقلب صوت الراديو إلى إذاعة القرآن الكريم بعد أن طرقت الخطوات إلى غرفته. كنكة القهوة التي وضعها على النار، أصبحت تتقلب وتنفث ماءها، لكن يد امتدت وأزادت من النار فانقلبت، يد تفتح كتابًا وتُقلّب فيه مرتين ثم تضعه بهدوء في مكانه. لم تترك موضع قدم إلا وقلبت فيه. أطراف كثيرة كانت تتفحص الغرفة بما فيها.

وفُتح باب الحمام...

"هاه!!"

"إيه!!"

علامات الوجوم على الوجه المبلل.

ستة أزواج من الأقدام المفلطحة، وجوه عابسة وأخرى باسمة.

"كنت فاكر إننا مش هنعرف نجيبك، مش كدة؟"

"هاتوه...!!!"

"وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (الأنعام: 116)

واختفى صوت الراديو!

(الله أكبر)

****

" 04 "

إيبيفانيا

دخان السجائر المتطاير من بين إصبعين يشكلان شكل المقص، ما بين نهايتهما شمعدان من ثلاث شمعات كانت تحترق ومن ورائها عطر فواح، عطر يجذب العقل المشغول إلى النافذة، إلى الأرض الشاسعة، إلى المستشفى القابعة خلف الأسوار، مستشفى كانت خيرية يوم تم إنشاؤها للعام الحادي والثلاثين في مستهل القرن العشرين الميلادي، إلى نهاية الكوبري والطريق الممتد، ولمحة على الأوراق المتناثرة على المكتب، بريق ينعكس من المزهرية الخاوية، ضوء يشق ضباب الصمت في الكلمات.

دخان يتخلل شعر أسود قاتم. شديد السواد فيبدو مستعارًا. سكون غريب يكتنف الأركان، يقطعه صوت الورق المتعاقب، وأنفاس صامتة يأخذها بعد تركيز. قلم وأربعة أقلام متراصة إلى جوار بعضها، وصورة تختفي في ظلمة الفراغ، نصفها يبدو ظاهرًا ونصفها الآخر يختبئ في زاوية الإطار، ظهر فيها رجل يبتسم ابتسامة نضرة في منتصف دائرة، تشبه الهالة الضوئية.

نظارته التي أمسكها في يده، جديدة كما لو أنه لا يستخدمها، واليد الأخرى لا يتسنى رؤيتها. علوم الذات البشرية وأسرار الكون، كتاب عنوانه: غير حياتك في ثلاثين يومًا لإبراهيم الفقي، ومجلات أخرى مكدسة، وكتب في شتى المجالات الأخرى.

على الجدار، ضوء الشموع يتراقص. يرسم أشكالًا هلامية لأشباح تنتشر، خيال صاخب لعلامات إنسانية ونقوش هلامية، وتلك العيون التي كانت تختلس النظر من تحت أعقاب الأبواب، عيون عبثية فضولية، لتوها رحلت.

ساد سكون عقيم في الممرات بعدها. سكون كان يزحف على البلاط والشبابيك، أعلى الستائر المخضبة بظلمة السوداء، والمذابح الهامدة.

ضوء يمر من زجاج الباب.

وظهرت صورة التمثال الوحيد، مثبت بخمسة مسامير على الجدار. ينحني وحيدًا في تعب وسكون. تبكي عليه الأنامل كلما شاهدوه. دمع مستمر وبكاء مدرار، يختفي من وراء الصبر والإصرار.

رأوه فبكوا، ابتعدوا فنسوا.

ساعة بها بندول أعلى التمثال، تذكرة لوقت كان يمضي من دون جدوى. سبع نقرات، سبعة وحسب. نقرات كان تطرق في عقله الشريد. ما بين خيال الدخان الكثيف والأفكار التي لا تنفك تعيد سطورها. كان يتذكر كلما انطوى على نفسه. ملابسه السوداء لم تكن تحميه من ماضيه المشحون. في عباب السديم كان ينزلق.

نقرة واحدة!

نقرة أولى!

عواء الذئاب يعلن سطوة الليل فوق الجبل، رائحة الخوف تملأ الوادي، يتجمعون على إثرها من كل أفق بعيد. مئات العيون تبرق في عتمة مدقعة، تُبصر ما لا يبصره البشر،

أولئك المترنحون، القابعون في مساكنهم المتبعثرة، خائفون، مكظومون. لحظة الصيد لا تحلو إلا مع القمر في ظل خريف قاتل، وأسفل القمر أوراق الشجر تتساقط.

أدوات قاتلة لأعمار تتساقط. رائحة يتشممونها بشراهة، رائحة دماء تغلي في العروق، عروق تنتفض من الفزع، أقدام تفزع بين الأشواك، خوفًا، رجل يسابق ظلال الموت، بريق أنياب الذئاب المتربصة بظله.

وجدوه!

عثروا عليه!

تربصوا به!

انقضوا عليه!

قاومهم!

هرب!

عامود وحيد يُطفئ ويُضيء، لا يُلقي نوره إلا على ممر صغير. أقدام بمخالبها الحادة تزحف في ذكاء، تتشمم رائحة في الهواء.

هناك خلف ذلك الباب كانوا يقبعون، رجل يزحف برائحة الموت على أعتابه.

نقرة ثانية!

شخص تحمله الأيادي كأقفاص، فارد ذراعيه من الوهن بين عشرات الجروح. تحمله ثمانية أقدام إلى مثواه. لا يزال على قيد الحياة. يبصر القمر الكبير بضوئه الشارد. لا يزال يسمع أصوات المطر. لا يزال يشعر ببرد الشتاء في جوف الظلام. غياهب الكون كانت تتجمع في عقله العليل. أناس كانوا

ينتظرون. يتجمعون عن مشاهد قدومه، ملابسهم مصمتة متشابهة، أعلاهم رجل يشير إلى مكان.

في ذلك الحوض الصغير وضعوه.

يغطسونه من مآثمه ويعيدون إليه روحه النضرة.

هكذا اقتربوا إليه ليشاهدوا، يطفو على الماء بعد أن غرق. عينه مغلقه ووجه مهزوم، صدره يخطف الأنفاس من الهواء. كان يشعر بالحياة.

خلف سور مهدم كانت تترصد. عباءتها الرمادية لها حجاب يُخفي ملامحها، وربما لأن نصف وجهها كان مختبئًا من وراء الجدار. كانت تنتفض بقوة، تقبض على قلادة مُذهّبة، تُتمتم بالكلمات، وتكتم أنفاسها بيدها الأخرى. كانت تبكي الليالي بلا هوادة. تتضرع وتتمنى الأماني. ألم كان يختفي ويعود مع أنغام الترانيم. أما ذلك الرجل الملتحف بالسواد، فكان يتكلم، يحمل كتابًا يقلب أوراقه، يصب كلماته على روح الشقي الذي يطفو على الماء.

يتنفس. يحلم ويرسم ما يرى. في عينه تبدو كل ألوان السماء.

"هممممم! هممممم!"

صوت في الأذن.

"هممممم! هممممم!"

صياح واضطراب مستمر حتى لان وناخ. رجل نحيل وعلى رقبته أثار مخلب الذئب. على كتفه وشم لطالما أخفاه رداؤه. لعنة الموت كانت تقترب. عظامه المكسرة لا زالت تشعر

بالتعب. كان يركض هاربًا. كانت مواجهة وكان انتصار. أما انتصاره فكان هزيمة.

بانتفاضة عارمة صرخ، غرغرة تأتي من أعماق صدره، فزع من الحوض الصغير، ترانيم تعمده للحياة بعد الموت.

صراخ!

هدوء!

وغضب!

نقرة ثالثة!

دقائق الأيام، قطرات العرق تتصبب قطرة بعد قطرة على الجبين. رعشة البرد تضفي سحرها الخاص. الليل رسول، وكل العاشقين في بحر الهوى، صرعى، ضلوا الطريق، فلا مأوى ولا مسكن. رعشة جامدة وهزة ليس لا آخر. أنين يأتي من الأعماق. حنين النشوة يتقطر على الخدين. آهة مكتومة بحرقة وصدران يجتمعان سويًا في كيان واحد. أذرع تتلوى وأصابع تتشابك مثل الوردة التي تُغلِق بتلاتها.

يزداد العرق! يزداد القلق!

في ذلك المكان المظلم عند السور المهدم كانا يلتقيان. آهة ثانية وآهة ثالثة معجّلة وكأنها مسجلة. سرعة فلحظة فخبطة فهزة ثم سكون. هدوء ينحني من بعد الجنون. هدوء واحساس غريب. ما عاد الجسد واحدًا، بل أصبحا جسدين.

جسد يرتاح من العناء، محدقًا أنظاره إلى السماء، وجسد يلتف بعباءة، محني، ينظر إلى التراب وكأنه ثوب. ينظر إلى التراب بعد أن صار ذاك الشعور سراب. ما بين نهديها قلادة تحمل قسمًا غليظًا، أصبح القسم

كلمات عقوده انفرطت. العشق داء العاشقين، فلا ذنب شعرت ولا من الحب شبعت، لكنها، ذلك الجسد العاري في صميم الليل.

تاك... تاك!

تاك! تاك...

أربع نقرات!

فتح الباب، ودخل يستبق الرجلين رجل بعباءة سوداء. عيونه الخبيثة ترسم ضحكة صفراء، تنظر إليها من أعلى لأسفلها، لمكان محدد في ملابسها، ورغم أنها فطنت، ورغم أنها قامت وشرحت وعددت الأسباب. ما بين عيب وممنوع، أسوار الدير وصورة المسيح التي أشارت إليها، حتى الصليب، لكنه لم يرتو، أجل، أبصرها حينها بتقزز.

بين الرمال، في مكان بعيد في الدير، في مكان هادئ لا يأتيه بشر، غرفة تسكن أروقتها الأشباح، دب فيها ضجيج لم تعهده لعقود. أقدامها تسبق أقدامًا تسوقها. يد تفتح المقبض لتدخلها وتغلق النافذة في وجهها، تبعد عنها صورة السماء وتضيق عليها الأرض، حتى شعرت أن عباءتها قد ضاقت وأنا الرهبنة أصبحت ذلك الخواء الذي فقدته.

ببضع كلمات كان يقص عليها مجمل ما كان. كان يعرف ما يجري في أحشائها. بذور صغيرة لم تستقر، ولعلها التقت بمسكنها. بكت وتوسلت، وازدادت في البكاء، حتى قبلت المداس، لكنه صلد عنيد، شامخ يقف بلا حراك، راهب كبير.

تسولت مرات ومرات، ترجته، تشدّقت برجولته أن يستر عيبها، أنها دفعت ثمن الخطيئة وأنها مهما قالت بريئة، أما عينه الحقيرة، فكانت تحترق بريبة.

عواء الذئاب في صدره يتعالى. نيران تحرق كل جزء في جسده. كان يشتعل، كان يختلج، وأطفأ الشمعدان.

عواء: أو!

اقترب!

عواء: أوو!!

اقترب!

عواء: أووو!!!

اقترب أكتر!

عواء: أووووو!!!!

اقترب أكتر وهي تبتعد!

عواء: أووووو!!!!!

آآآآآآآآه...

السقف الأسود يرسم تفاصيل الفضيحة. يرسم فصلًا آخر من العذاب. عيون مجبرة أن تحملق فيه بينما كل شيء يهتز. عيون كانت تفر منها الدموع. جسد ينتهكه بعنفوان. قوة تقبض على رقبتها. كانت تتمنى الموت. احباط ليس له قرار. أطراف تتخدر مع كل انتفاضة. رأس يسبح في الملكوت، همسات تتردد من قلة حيلتها، ما بين الدمعة والأخرى:

أحببت لأن الرب يسمع صوتي، تضرعاتي

لأنه أمال أذنه إليّ فأدعوه مدة حياتي

(آه)

اكتنفتني حبال الموت. أصابتني شدائد الهاوية. كابدت ضيقًا وحزنًا

وباسم الرب دعوت: آه يا رب، نجّ نفسي

(آه) - دموع واهتزاز.

الرب حنان وصديق، وإلهنا رحيم

الرب حافظ البسطاء. تذللت فخلصني

ارجعي يا نفسي إلى راحتك، لأن الرب قد أحسن إليك

لأنك أنقذت نفسي من الموت، وعيني من الدمعة، ورجلي من الزلق

(آه) - جسد يترنح من الضعف.

أسلك قدام الرب في أرض الأحياء

آمنت لذلك تكلمت: أنا تذللت جدا

أنا!! أنا تذللت!!

تذللت!!

جحيم يتدفق في بئر بلا قرار!

(دموع وبكاء) .....

ست مرات!

ست مرات يربت على الكتف المقوس!

بطرف أنامله مسح على رأسها. كانت تتكور على فراشها. تدفن رأسها بين فخذيها، تشهق من البكاء، وبرغم خوفها، اطمأنت له. كان يعرف ما جرى لها، كان الخزي يكتنف نظراته المستسلمة، هو بضعفه من سلمها لذلك الشيطان، الحب والخطيئة طريق واحد لا يفترقان، ما بين اليمين والشمال اختيار.

أما هي فكانت تنهار، تربت على بطنها كلما اقترب منها، فتدمع تلقائيًا. كانت تشعر أن إحساس الأمان شعور وهمي، وكلما تذكرت أن في أحشائها صغير ينمو، كانت تقشعر، فما كان باختيارها الرهبنة أو الخطيئة. تذكرت لما فتحت عيونها على المذبح. هناك تربت وهناك تعلمت وسُلِّمت من يد إلى يد. هناك ألقت الوشاح على رأسها وأثقلت من عباءتها.

احتضنها لما رأى دموعها. أخبرها أن وقت الرحيل قد أزف إن كان لهما أن يعيشا ما تبقى من حياتهما سويًا، عليهما الرحيل من أسر الحياة. في لحظات تناسيا ذنبهما، ولا ذنب ابنهما أو ابنتهما الوقوع في خطيئة العشق. كيفما سارت الأقدار تزوجا بالكلمات وحملا العهد بين بعضهما. ها هما احتملا كثيرًا وجع السنين، ووضعا ارتياحهما في الشراب، دماء المسيح، ينزلق وتتبعه إلى الاستسلام، إلى الرضوخ بطبيعتهما.

انكسرت الأبواب والنوافذ. يقبض على يدها بقوة، يخشى أن يفقدها.

ذاك السور المهدم علت مبانيه. على الأرض تضطجع ممسكة ببطنها التي تؤلمها. يدان يُقوِّيان من عزيمتها، وفضيحة أضعفت خصرها، هتكت عرضها وأوجعت قلبها. هناك حيث فر هاربًا وتركها، تحت السماء مثلما بدأت، تتلوى من الاستسلام.

ستة أقدام وخطوتها!

الطريق الطويل لم يكن قد بدأ. مكان لم تره في الدير من قبل. ممر طويل ملطخة جدرانه، رائحته كانت تخترق خياشيمها

كرائحة الهلاك. طريق لا يأوي بشرًا ولا جان. دماء تفيض من بين ساقيها. جسد ضعيف يكتنفه الدوار والوهن. لا الأقدام تسعفها ولا الأنظار العائمة تمكنها من إدراك موقعها. ترى وحسب خيالات تجرّها إلى مثواها، إلى رقصة الفزع في صدرها المذبوح، إلى نهاية رأتها محتومة.

ذلك الظلام، ترانيم ترسم السلام بالسوط علامات على جسدها، تتابع على جسدها المقيد في منتصف باحة قاتمة، لكنها كانت تردد، كانت تهمس:

أنا قلت في حيرتي: كل إنسان كاذب

ماذا أرد للرب من أجل كل حسناته لي

(آه!!)

كأس الخلاص أتناول، وباسم الرب أدعو

(فاجرة!)

غرغرة! شراب مر تجبر على احتسائه. غصة تدفعها على مشارف الغرق. سعال خارق يأتي بالخشاش.

مرة أو مرتين! عشرات المرات!

استسلمت!

أوفي نذوري للرب مقابل كل شعبه

عزيز في عيني الرب موت أتقيائه

آه يا رب، لأني عبدك أنا عبدك ابن أمتك. حللت قيودي

(ابنتك!!)

ارتمت على الأرض. خبطة موجعة آلمت رجليها. حين اجتمعت كل أنواع المعاناة في جسدها

الضئيل، ما بين وجع الجسد والروح، والدماء المنبثقة من تراتيل الأشواك، ودماء تسيل من طفلها المعذب. ذلك الذي لم يأت للحياة.

وقت يمر أسرع من الثواني، أبطأ من ضوء القمر الذي يتسرب من شقوق في الجدران. غائبة عن الوعي لوقت لم يكن معلوم. غائبة عن أي وعي مفهوم. فُتح الباب وارتمى الخُفّ إلى جوارها. لا تزال الروح عالقة في جسدها. تتشبث بآخر أسطر الحياة، حياة طفلها الصغير الذي يضرب جدران رحِمها. روح ترى ضوء شديد، والأبواب مغلقة في ريحها. شفاه لا زالت تردد في الخواء:

فلك أذبح ذبيحة حمد، وباسم الرب أدعو

أوفي نذوري للرب مقابل شعبه

في ديار بيت الرب، في وسطك يا أورشليم

أنغام تداعب العقل الهالك، نهاية النظرات، ضوء شديد أمام حروف انقطعت، "عـــ.... آآآه..."

إيبيفانيا! ظهور!

****

" 05 "
طريق الموت

طريق له نوافذ زجاجية ولسعه برد.

علامته بدأت بجمع من الناس تغافلوا عن الصلاة.

إذا أخذتك أقدامك إلى حديقة الأزهر، فمن هناك ستسير عبر وشاح من الظلمة المدقعة، لكنك سترى أنوار المدينة، مدينة القاهرة. أضواء تتلألأ كمصابيح عرس بلدي سعيد، حيث تتراقص حوافر الأحصنة على قرع الطبل والمزامير. أناس يصطكون ببعضهم كأرطال من اللحوم، بعضها قاسٍ وبعضها عنيد، أما العروس فكانت تُطلّ أعلاهم من بعيد.

كانت ترمق الأقدام المترامية في شوارعها. زحام يبدو على الوجوه الغاضبة، وجوه باسمة ووجوه متوهمة. وقتما انتهى العرس وهو لا ينتهي، كانت تتنازل عن كبريائها وتنضم للحشود، تمشي بينهم ليشاهدون حقيقتها، ضعيفة منكسرة، عيونها غائرة في وجه نحيل منهك. أصابها تعب من طول فرحتهم. لم تعد أنظارهم تراها وانغمروا كثيرًا في رقصاتهم، أناس يتمايلون كرقصة الدراويش.

ليس غريب أن ترى الإشارات المرتعشة وصوت المراكب في النيل. ورجل يمسك بيد امرأة على الكورنيش، ينحيان ناحية بعضهما، يتهامسان، صديقان يلتقيان بعد فراق طويل، لا يتكلمان، وذلك الشخص الضائع، وذلك الشخص التائه، ورجل يرفع يده بالدعاء

ونظرات صامتة، يشكوا بها، وبعضهم يلوم، وبعضهم يمشي ولا يتذكر. أقدام الناس أصبحت تقودهم إلى مصائرهم. أصبحوا اليوم يمشون ويتكلمون أكثر مما يفكرون ويتعلمون.

من وسط البلد وشارع القصر العيني، مرورًا بالجامعة الأمريكية والشوارع الضيقة عند قصر عابدين، أناس كانوا يتجمعون فرادى ناحية كوبري قصر النيل بعد أن فقدوا الأمل في المرور من ناحية مبنى الداخلية أو مجلس الشعب.

كل الطرق أصبحت موصدة. أصبحت برغم أنها فُتحت مغلقة. تحية لأسدين شامخين يحرسان ما بين الدقي وجاردن سيتي، أحياء الرفاهية وطلعت حرب، إلى رمسيس، إلى العباسية، مدينة الناس الفهلوية.

تلك الصحراء القاحلة كانت جنة الجيش التي أوى إليها حينما افترشها بأوراق الجنية الجبس. حينما كانت العملة تساوى قناطير العملات الدخيلة. حينما تسلل الناس من ورائهم بعد أن دبت فيها الحياة والتجارة وساد الأمن خلف عباءة الجيش. هناك أنشأوا حياة أخرى، وهناك بنوا أسوارًا غير تلك الأسوار.

لماذا لا يتعلمون؟ تمر الحقبة وراء الحقبة ولا يفهمون؟

تغيرت مصر، لم تعد نفس الفاتنة الجالسة على ضفاف النيل، وقتما كانت تسمع الأذان فتنصت، وتسمع الأجراس فتسرح. أناسها الطيبون ما عادوا كوقتهم الذي مضى طيبين. أصبحت الوجوه متوجسة، وجوم ينبع من الخوف من أي شيء جديد. أصبحت الملامح كالحة غير

مستبشرة. أصبح تحت جفونهم عار وذل، وحِمل فاقت أوزاره أكتاف الصامدين رغم أنهم تحمّلوا. وقتها احتملوا واليوم يحتملوا وغدًا سيحتملوا المزيد. أصبحوا كظلال الصخر في الوادي، لا يتكلمون، لا يتألمون.

لا تتعجب أن الرجال في صعيد مصر يتوفرون بكثرة، حياة الصعيد صعبة. يركب قطارًا من قنا، عند أبوابه ينحني لساعات. رغم الهواء البارد وأسلاك الكهرباء التي كان يراقبها، تتدلى كلما ظهرت من العتمة، ورغم الأراضي الخضراء التي تلونت بالظلال، ولد يرتدي جلبابًا رماديًا متطايرة أطرافه، يقف عند حافة الباب في صمود.

عند قدمه صندوق الحمص والبذور، (اللب)، يحمل ما بين جبيه حملًا ثقيلًا لأب ينتظر، كسيح لا يتحرك، سقيمًا يحتضر، وأم تصبر على المرار، يراقبان ابنتهما التي كبرت وكأنها قطعة من نار. كان مبتسمًا رغم ما سكن في قلبه، رغم علامة على خده من العراك وصفعة صديق تزيدها احمرار وجنيهات ثلاثة، اثنان منهما سُرقا.

كان يبتسم رغم ذلك.

مصر يجري في دمائها الخير، لا يزال يجري في دمائها الخير رغم أنوف المغرضين. الخير كان ومازال في أرضها، لم يكن أبدًا في أولادها. كثيرًا ما تفرقت الأنساب والأجيال. أولاد اشتروها بثمن عظيم، وأولاد شروها بأقل القليل، أما البعض فتغافل عنها وقت احتياجها إليهم، والبعض رحلوا عن كل سبيل يؤدي إليها، ولم يكتفوا، بل

كالوا لها الشتائم وأوهموا البعض أنها قتلتهم.

أكتاف الرجال كانت كالجبال. رجال لم يقبل الواحد فيهم إلا تلبية النداء، حملوا الأمانة في صدورهم، ليجلسوها ويريحوها، منهم من عاش الحياة بالرضا، ومنهم من كانت نتانته تفوق القمامة.

وكأن مصابيح الإنارة صُنعت للنهار! الليل عتمة والناس كثير. شيئًا فشيئًا يختفي بين أطياف البشر. يد في الجيب ويد تحمل الجوال. أفواه تحتسي البيبسي وأفواه تتجرع السيجار. صفعة على خد امرأة من متعصب جبار. كان ينهرها وكان يضربها، وكانت رغم المتجمعين من حولهم وحيدة.

كان يصب عليها كل ألوان الحنق. يتجسد بينهما الشيطان. شيطان ألقى بلعنة الجسد حتى تقمص شخصية الرجل. أما هي، امرأة كسيرة، يراها الناس متجبرة، ويراها الأخرون مظلومة ضعيفة. ربما كانت هي أساس المشكلة وربما كان هو من بدأ. أما الناس فكانوا بغباء يشاهدون. يشاهدون بعدما هدأ طوفان الجنون وسكنت روعته. يشاهدونه لما ذهب إليها ليمسح على رأسها وهي تتمنع.

أنا راجل سواق التكس

وأنا اللي كنت جي عكس

ابتسم بشكل ساخر وهي يبصق من الشباك. كان يتفاعل مع الأغنية ويرفع ساقه اليسرى على المقعد.

قال في نفسه، "ما هو كل حاجة بقت ماشية عكس،" وزعق في السائق المارق إلى جواره،

"إيه يااااض!" ثم ردد بصوت خافت لم يسمعه إلا الراكبون، "إيه يا ابن المتضايقة؟ عايز تعدِّيني!"

سائق الميكروباص كان يداعب عقله بسيجارة نصفها محترق، غير مكترث بالدخان المتراكم في صدور الركاب.

وأنا الي كل كلامي هجس

وأنا الي ايدي ع الكلكس

وتيت تيت تيت تيت - ارتجل السواق بضربات على المقود متتابعة، ليتماشى مع إبداع الأغنية العاطفية الصارخة، والممتزجة مع حالته العاطفية السمجة.

أنا الي كنت حزين فيها

وأنا الي كنت مقضيها

تضايق الركاب لم يمنعه من الاستمتاع. أما الناس فكانوا يخافون الاعتراض على الأغاني الصاخبة والضجيج. شكله المقزز، وذلك الوجه المزين بضربات مطواة، يُصمِت من يفكر في الحديث. ذلك الشكل الإجرامي انتشر كثيرًا في البلاد، هكذا كانت تفكر المقاعد الخلفية، أما المقاعد الأمامية فكانوا يرونه ابن بلد أصيل، جار عليه الزمان كمن سبقوه، وها هو يحاول النحت في صخر الزمان كي يستحق الرزق ويطعم أولاده.

أما هو، فلم يفهم عن أي شيء كانوا يتكلمون، في يده جهاز راديو قديم سريعًا وضعه في جيبه، كان يحني رأسه ناحية الشباك ويرمق الأضواء البعيدة. تلك كانت متعته الخاصة. ورغم أن الأضواء كانت توهج وتنطفئ باستمرار، لم يكن يهتم، وربما لم

يكن يشعر. المآذن المُنارة أعلى المساجد والبيوت القديمة كانت تجذب أنظاره.

حديث يتذكر كل ما كان فيه، يداعب عقله، حديث الشيخ صاحب الذقن الرمادية. في وقت مضى كان يتكلم عن لباس الناس. حينما كان يمسك بطرف الحبل المعقود حول بنطاله، كان ينظر من شباك الميكروباص إلى السراويل القصيرة والعباءات الضيقة. كان يفكر أن المكان الذي يعيش فيه أفضل، وأن تلك الأسوار كانت تحمي خياله الخصب من مجتمع مريض. مجتمع استمعوا إلى تعاليم الدين ولم يتّبعوها. هكذا ضلوا وهكذا لا يندمون. يعقد شفتيه من التفكير. لم يكن يتكلم أبدًا.

هو نفسه لم يكن يفهم ما يقول لنفسه، رأسه كانت تعمل ذاتيًا بما لا يستوعب، وحينها تطرقت صورة الشيخ وهو يردد، "القابض على دينه كالقابض على الجمر. هو هذا الزمان. هو هذا الزمان."

"يالا آخر السكة،" قال السائق مستديرًا ناحية المقعد الأخير. قالها مرارًا لكن الرجل أو الشاب، لم يتبين من ملامحه، القابع في المقعد الأخير لم يكن يستجيب، حتى فقد الصبر وكاد أن ينهره، لكنه أفاق حينها على انتهاء صوت الكاسيت وسكون الميكروباص من الأغاني.

"إيه يا ريس، عمال أنده عليك. خلاص وصلنا آخر السكة. خلينا نشوف أكل عيشنا يا حبيبنا."

"إنت مبتردش ليهّ؟ عبيط اللي قدام ده عشان متعبروش."

"طيب يالا يا عمُّنا قبل ما أتغابى عليك. ينعل أبوكو أشكال."

لما نزل من الميكروباص، كان ينظر إليه السائق بوجوم، عدا أنه لم يتكلم بما يثير حفيظة السائق الساخط. كان ينظر إليه وحسب، وكأنما يرسم له صورة دقيقة في عقله. كان يتمتم بالكلام واللعاب يتقطر من بين شفتيه كالرذاذ. وقت أن رحل سائق الميكروباص كان لا يزال يتتبعه بنظراته المتفحصة، ربما إلى أن غاب عن نظره حتى استدار وترك الحبل الذي يعد عليه الأرقام. أرقام الخطوات التي كان يمشيها إلى طريقه البعيد.

في جنح الليل أقدام عرجاء تكنس الأرض من قذارتها. الطريق النازل تشعر فيه بالموت. سور مهدمة أحجاره. نظرات إلى الجبل المظلم، جبل المقطم، حيث الهدوء والسكينة، والفتيات العاهرات والرذيلة، حيث سحر القاهرة ووميض السيارات. ليس فقط الأغنياء بل الفقراء والمجرمين، همهمات تتواجد عند حوافه. من لم يجد عملًا ومن لم يجد خبزًا، هناك وجدوا الهدف. الأيادي الخفيفة والوجوه الملثمة، والشفاه التي تلتقي بالأيادي.

عند أعتاب الدخول، تبدأ الحياة عند الموت، القرافة أو المقابر، قرافة الفسطاط، المنطقة الواقعة أسفل جبل المقطم، جنوب القاهرة، سُمّيت بالقرافة كناية عن اسم قبيلة من المغافر يُقال لهم (بنو قرافة).

نصبة الشاي ورجال يجتمعون عن الضوء الباهت لدخان النرجيلة، بعد عناء يوم طويل، يوم من العمل الشاق لبعضهم وراحة متعبة لآخرين.

"يا بويا زي ما بقولك كدة."

"عليا الطلاق ده اللي حصل."

"مصدجك! مصدجك يا ابن العم."

مشيته الأفعوانية، لما رأوا حركته المعووجة، اشمأزت وجوههم وقتما كانوا يتضاحكون فيما بينهم، يبصقون على الأرض، يكيلونه الأسماء، وصاحب نصبة الشاي يُقلّب الأكواب بعيون ملتهبة، عيون يتخللها الضيق كلما رأى ذلك الأعرج.

"وش النحس، الأكتع،" هكذا قال لنفسه.

وقتها أراد أن يغلق النصبة لما رآه ينظر ناحيته، فما كان منه إلا أن ألقاه بالماء الساخن. انتفض الأكتع مذعورًا سوى أنه تفادى الماء قبل أن يصيبه، وهنا ازداد الصخب خلف خطواته.

"تاكل أبوك لأبو اللي جابوك يا بعيد."

وبصرخة استنفار، "روح من هنا يا وش البومة."

"هنلاقيها منك ولا من المكان، ياخي يلعن ال... امشي من هنا."

أما الشخص الرابع فقال، "يا جماعة، ده واد غلبان وأكتع. سيبوه في حاله. الريس طلبة..."

قاطعه أحدهم، "والريس طلبة يربي الواد ده ليه ويخليه عنده ليه أصلًا!"

"يا بوي، الريس طلبة راجل صُح مع إنه طينة تانية."

"آه والله عندك حق يا بلدينا. معرفش راجل زي ده إيه اللي يحدفوا على البلا."

عينه المثبتة اغضبت أحدهم، فصرخ فيه باهتياج المدافع، "ما تروح ياض، هِيّا ناقصة قرف؟"

رحل؟ أجل، رحل مفزوعًا، صامتًا.

كانوا يتكلمون رغم ذلك، "على لله يغور في داهية ونخلص من شكله."

"هيغور ورا الدفنة اللي لسه داخلة."

واحد منهم فقط من كان يتتبعه في خطواته بشيء من الحسرة.

خيوط حديثهم انتهت من مسامعه لأنه ابتعد عنهم كثيرًا. كان يتهادى على إثر كاوتش مشتعل، ومن حوله خمسة أنفار يضطجعون، يفركون أياديهم من لسعات البرد ليلًا، ولكنها لم تكن لسعة البرد وحسب، وإنما لسعة في قلوبهم وتوجس من المكان. بعض القلوب ممن تملك الشجاعة على التوغل في أرجاء المكان ليلًا. الشخص بمفرده ربما يموت من الخوف. فقط هو من كان يجرّ قدمه بارتياح كالمعتاد. في البعيد كان يرى بيته رغم أنه لم يصل إليه بعد.

على الرغم من أنه لمح وجودهم، إلا أنه لم يتكلم ولم يتجه صوبهم. كانت المصابيح المتناثرة كل خمسين مترًا تُلقي بظلال الحشرات المتجمعة حولها، ترسم على الأرض أشباحًا وظلال. كانت تصوره كعفريت كلما مر من أسفلها، (أبو رجل مسلوخة) كما اعتادت

النساء أن يُخِفن أولادهن بالحكايات عنه. أصبح في زمن حديث الخيالات المرعبة نموذجًا لترويض أي طفل مشاكس.

ما بين الحين والآخر كانت العيون تترصده في طريقه رغم أنها تخشاه. تلك البيوت الموصدة التي تسكنها أشباح الموتى. محاطة بأباريق خاوية وأبواب حديدية عليه الأقفال. نيران جهنمية من أعين سوداء تضعه في اهتمامها، نيران تأتي من الأضرحة النائمة. كلما توغل أكثر، ازدادت الهمسات.

طريق الموت صعب. طريق الموت موحش ومرعب. اكتنفت حكايات الموت قلوب الرجال حتى مزقتها. أصبحت الأيادي ترتجف ليلًا ونهارًا من النهاية المحتّمة، إلا قلوب الخاشعين المطمئنين على أرزاقهم في الدنيا والآخرة، من تأكد أن الموت راحة وأن الجنة سبيل المعذبين في الأرض، لتطمئن أرواحهم برحيق اليقين.

راحة الموت يراها على أبواب القبور، أشباح تترصد حركة مقلتيه قبل أنفاسه.

نظرته ناحيتهم كانت غامضة، لا تجذبه الرغبة ولا يُبعِده الخوف.

سواد شق جدران البيوت بخيوط من ظلام، تسري من تحت أعقاب الأبواب. حديد يبرق كلما التقى بضوء القمر، ريح تسرح بالخيال والأجساد، تحمل معها القلوب النابضة التي تئن. أمسك بالحبل على خصره وجلس يعقده. كان يرى المشاعل من بعيد. مشاعل الموت التي تُواري سوءة الراحلين. مشاعل التبشير

بنهاية الجسد في آخر جسر من أرواح وقفت عند أعتاب أضرحتها، متربصين.

وقتها فقط اقشعر بدنه.

لم يقشعر من الخوف وإنما لأن المشاعل كانت تبتعد.

في منتصف الطريق ظل منتظرًا. كان يرى بأم عينيه خيالًا يؤانسه. كان يسمع نداءً عليه أن يُلبِّيه. كانت تتمايل أمامه وتقترب. تقترب إليه وتبتعد، إلى حيث كانت أقدامه تسوقه خلفها. كان يمشي على طريق النار.

كل من سكن القبور في سباته العميق كان يكلمه، يحكي عن أسباب وفاته، ما بين مقتول وغريق، ونائم على فراش الموت. كان يراهم جميعًا ويبصرونه، يمشي بينهم، يسوقونه بالعلامات في سبيله.

ملائكة أم شياطين؟

لم يستطع أن يميز الفرق بينهم. كانت المشاعل في أيديهم مضاءة كشظايا من شظايا الجحيم. ترفرف أجنحتهم الخيلاء بريش يتساقط على الأرض ويحرق التراب. حتى التراب يصير رماد ويتحول كالجمرات.

لم يكن يرى أعينهم لكنه رأي علامات محفورة على جباههم. ميثاق ومفتاح بأرقام ثلاثة، لا تختلف عن مخالب الذئب. يسبقهم رئيسهم مخترقًا القبور تحت سماء رمادية تتخضب بالغيوم التي ترسم العلامة التي رآها مثل النقش المحفور على معصمه.

نفس العلامة!

رئيسهم الذي نظر إليه نظرة أطلت في صميم قلبه. نظرة إلى أتباعه لأن يتبعوه. يحملون

على أكتافهم نعشًا مكشوفًا، رجل عجوز يتشح بظلال سوداء وبين أضلعه رمز غير واضح المعالم. يظهر قلبه الممتلئ بالسواد بعدما انشق صدره وأظهر ما في باطنه، يرتلون تراتيلًا غير مسموعة، وهمهمات لا تتبدى إلا إلى مسامعه القريبة. كان يزحف على درب رحالهم في طريق الموت. كان يتأرجح بين القبور.

أشباح يحملون نعشًا على الأكتاف، صيحات كثيرة ونساء تبكين، تهمسن بالكلمات والأدعية الخافتة، أدعية تحمل في صميمها الصراخ الذي غلب على أذنيه، لطمات على الوجوه السوداء، أغطية غابرة، هواء خانق يقتل الصدور، ليلة القمر الحزين.

حفرة في النار كان يراها، انتفض قليلًا، رجال يُحكمون ثوبًا أبيضًا ملفوفًا، هو من اخترق الصفوف من ورائهم، يمشي بينهم، تغمره أضواء مشاعلهم، يتلمس الخيوط البيضاء بأطراف أصابعه، يتحمل رقّتها، يشعر بتضاريس الجثمان القابع من أسفلها، ذلك الكفن الضيق، والحفرة الأشد ضيقًا منه.

ألا حياة في ذلك الجسد؟

غافلين عن وجوده، في غمرة الحزن كانوا يترجلون. كان قد ارتفع في تضاريس الجسد، اقترب كثيرًا من صدر لا يشبه صدره، صعودًا ونزولًا، يشعر في داخله بحنق شديد، كراهية لمن وقفوا عند أطراف التراب يبكونها، كراهية في قلبه النابض من أحاديث يسمعها، أحاديث لم تتركها في نومها، أراد أن يوقظها.

"كانت شمال وعايقة، معملتش أي حاجة نضيفة في حياتها."

"يا أخي معرفش الأشكال دي بيدفنوها ليه أصلًا."

"ما يحرقوها ويخلصوا من بلاويها."

"تفتكر هيجيب نتيجة؟"

"ولا حتى الحرق هينفع."

أقدامها المهتزة، رقصاتها الماجنة، رأى أعينها المُثبّتة على عين من يساعد في حفر القبور، واحد منهم، الريس (طلبة) رئيسهم، آخرهم، كانت الكلمات تُدوِّي في مخيلته، طهارة الجسد وطهارة الروح، كان عليه أن يُطهِّرها، أن يغوص في ثناياها، أن يمحوا عنها الإثم ويأخذه إلى جسده، أن يقترب منها، أن يمسح عنها الخطايا ويغسل ثوبها. أصبحت أسنانه تصطك من طهارة لا يتحملها، طهارة الروح الآثمة التي لا يستطيع إلا أن يدنو عند أعتابها ويتلمّسها بيديه العاريتين وبنظراته المُتفحِّصة لما أسفل الغشاء الأبيض.

وبين انشغال البعض، زعق رجل نافر، "إنت عايز تحرقنا كلنا يا ابن الملاعين،" وأحدهم يقول، "هاتوه،" بينما زمجر حامل المعول، ضربة بالقدم، صرخ، "عليّا الطلاق لأبلغ الريس طلبة."

لما التفت الرجل إليه بساعدين يحاولان منعه، التفت إليه الناس، وأحاطوه بغضب قدومهم إلى ذلك المكان وراء باغية كان عليهم أن يواروها التراب. أحجار التقفوها، أحزمة اقتلعوها، أحذية ألقوها،

اقشعرت أطرافه لكنه لم يتزحزح عنها، وعليه الهمسات تتزايد، "مش ده اللي بيربيه الريس طلبة يا ختي؟ شكله مقرف الموكوس."

"أيوة هو، وده إيه اللي جابه هنا؟"

"مشوا الواد ده منها،" قال حامل المعول.

رجل ينهره، فيدفعه، فيخرجه من بين الصفوف، عينه لم تبتعد عنها، عن الكفن، عن الوشاح، وعن حفرة النار.

لماذا أبعدوه؟ لماذا تركوه؟

ابتعد عنهم، ابتعد كثيرًا عنهم حتى غاب في الظلام.

على جانبي الطريق كان يرى بحرًا لُجِّيًا، أعلامه رمادية. كان يرى أناسًا يضطجعون القرفصاء، يحملون كتابًا يقرؤون منه، تتمايل رؤوسهم كلما استمروا وكلما اقترب منهم. كان يسمعهم بوضوح لكنه لا يميز بأي لسان يتكلمون، بينما طفل صغير يشبك أصابعه في راحة يده. طفل لا يرى منه سوى الأقدام التي كانت تترك آثار زوجٍ من الأصابع السداسية على التراب.

كان يدعوه أن يعبر الجسر المؤدي إلى تلك البوابة الحديدية في آخر الرواق. ذلك الضريح الوحيد الذي لم يراه من قبل، والذي إليه كانوا يذهبون ويختفون.

ذلك الضريح الوحيد!

أضاء شيء في عينيه. فتلك الكلمات التي تحمل فحوى البداية والنهاية كانت قريبة من قلبه. كان يشعر بدفئها بين أضلعه، وذلك الطفل يسحبه من يده ويعدل من مشيته.

أقدامه السوية لم تعد تُسحب، لم تعد تعرج، ولم تكن تتدحرج. كان يمشي بهدوء وروية. لف الحبل من على خصره وبخشخشة أخرج مفاتيح معلقة من أسفل أحشائه. تلك المفاتيح الكثيرة أمسك منها مفتاحًا واحدًا يختلف شكله عن البقية. ثلاث طرقات دوّت من الباب ثم صرير حاد وبطيء.

كان عليه أن يتبع الأشكال التي اختفت من نطاقه. كان عليه أن يتوغل في الضريح ليبحث عنهم، ما بين الأحجار المتراصة والطرقات الضيقة، إلى النصب المنقوش أسفل ضوء الشموع البرتقالي. صخر لصخرة وقف هامدًا لا تتحرك حتى عيونه. اسم يعرفه وموعد الليلة كان منقوشًا على نصب ضريح.

وقتها فقط، عادت الأضواء ورأى الأشباح المجنحة تحمل شخصًا ساكنًا كالموتى. رأى حفرة أسفل النصب لا تتسع إليه. رآه مقيدًا من يديه بقيود من نار. رأى الجسد المهلهل ينضح بالصرخات المعذبة. رأى عينه، رأى ملامحه، رأى العلامة على يده.

الريس طلبة!

كان يذوب وكانت الديدان تخرج من منخاره ومُقل عينيه. كان يعود مرارًا إلى حالته الأولى ليبدأ من جديد في عذابه. كان يراقبه ولا يحرك منهيًا ذلك العذاب. كانت الأشباح تتراص على جنبات الضريح فرادى، وكان رئيسهم يعتلي شاهد الضريح بأقدامه.

نظرة إلى قلب الأكتع كان يحفرها بالمسامير. ذلك الأكتع الذي لم يكن خائفًا من المصير الذي أشرف على عذاب الريس (طلبة)، غير أنه وبالتأكيد كان يشعر

بالفضول. الفضول الذي دفع بالجسد المحترق أن يدفن ويقذف عليه التراب.

لا الأشباح سكنت الرواق ولا النيران أحرقت الضريح.

فقط الحفرة الضيقة، تلك التي وجدها في الأرض، لم تكتمل، وإلى جوارها المجرفة. عندما رمش مرتين لم ير أي وجود لأضغاثه المثقلة. كان لا يزال في ذلك الضريح، وإنما عادت الظلمة الشديدة إلا من ضوء مصباح عامود الإنارة خارج الضريح. ذلك المصباح الذي رسم مستطيلًا كان ينحني إلى نقطة انتهاء، إلى حيث وجد حذاءً على الأرض.

نفس الحذاء، نفس الجسد النحيل الذي أثقل كاهله عند حفر القبور، الريس (طلبة)، رجل عجوز طاعن ملقى على الأرض، مسحول، يسيل من فمه اللعاب، عيونه جاحظة مرتعدة وملابسه ممزقة.

كانت أظافره تنحت في التراب، تحفر خطوطًا مستمرة وخطوطًا متقاطعة، لعله كان يحاول الانتصاب والخروج من بركة الدماء التي اسودت وتيبّست.

كان يعلم أنه رجل مريض. رجل دفن حياته بين الموتى حتى صار منهم. رجل لم يركع في حياته أو يسجد. ذلك الأكتع الذي يعتلي الرجل العجوز كان يشفق على الحال الذي وصل إليه. أما هو، حفّار القبور، عاد ليحفر قبرًا يتسع لراعيه. نفس ذات القبر الضيق الذي رآه من قبل، حتى واراه التراب، على شاهد القبر وقف في صمت، يحثو عند أطرافه التراب، ويتمتم بالكلمات التي لم تكن لها معنى ولا نبرة.

****

" 06 "
تلت وحايد

"اللي عنده عربية بيجو 504 رمادي يجي يشيلها لأنها زانقة على عربيتي."

سرًا، وبغيظ، "دي ركنة دي! الناس دي عمرها ما ساقت عربيات قبل كدة."

أذناه لا تسمعان إلا الصخب، ألوان بنفسجية ومارونية مشرقة تتموج ما بين لونين، الأحمر والأزرق، حيث انزلقت الأقدام عبر سرداب صغير إلى تحت الأرض، تنزل خطوة وتتبعها بخطوة أخرى عبر سلالم تُنيرها مصابيح صغيرة مُعلّقة على الجانبين، لونها الأخضر، ترسم طريقًا إلى جهنم.

أسفل تلك العمارة الشهيرة، المهجورة، وجد السرداب. شامخة عظيمة كما كانت، لكنها مهجورة، وتلك الأراضي الشاسعة على ضفاف النيل امتلأت بالمباني العشوائية. فلم يعد بالإمكان رؤية النيل من مكانك كما كان في وقت مضى.

ولكن! من يريد متعة النيل وبإمكانه الغرق في بحر آخر؟ بحر الظلمات كان يرسل أمواجه اللازوردية إلى الغرف المتراصة في القاعة، تفرق ما بينها الستائر الكُركمية، بعضها مفتوح وبعضها الآخر يحجب الأنظار، وتلك الأقفال البلاستيكية التي يتسرب من خلالها الدخان، دخان يتلاعب بالعيون، يسحرها، يؤرقها، يدفعها لتستكين على الأسرة المقوسة خلف طاولة تحمل زجاجات فارغة، أقراصًا وأوراق.

بُصاق يبثق الغل من حشاشة القلوب. ضحكات وزمجرة وزبدة بيضاء يسيح منها رحيق الأنوثة، عباءة تتدلى لتكشف عن ساق بيضاوية وتنهيدة غامرة. تضاريس تتلوى على الأنغام المتآلفة. رنين وكأسان يتصادمان ودخان. أناس من وراء الستائر يتراقصون ويتناحرون. حياة في رقعة أخرى من الزمان. آذان لا تسمع إلا ضجيج اللذة. متعة أصبحت أرقامها إدمان.

طبول العقل تتهاوي بطرقاتها، طبول القلوب المترنحة التائهة، رجال ونساء ورجال كالنساء ونساء كالرجال ينصهرون، يتآلفون فيما بينهم ليصنعوا حلقة النار. صرخات تئن من داخلها. قبلاتٍ واضطجاع، وأنف ما بين نهدين واستمتاع.

أما الرجل الذي كان يصيح، "اللي عنده عربية بيجو 504 رمادي ييجي يشيلها،" فلم يعد يبالي. كان يسعى للرحيل لكن شيئًا ما جذبه، فأعاده. ظل يلقف الكأس وراء الكأس حتى عمي. كان يرقب صدور النساء كأنها دوائر الحظ العظيم، فتاتان تتلوّيان عند البار، كانتا تصبّان له الكؤوس كي يتجرع حتى انتهى. حينها فقط، أسند رأسه على البار بلا نفس أو حراك.

منذ وقت قليل كانتا ترمقان تلك الطاولة الوحيدة، أصبحت فارغة كما اعتاداها. يجلس عند طرفها رجل يحمل في يده مفكرة صغيرة لا تفارقه أينما ذهب. تتدلى من رقبته سلسلة مدفونة ما بين شعر صدره الغزير. دائمًا ما يأتي كل ليلة في وقته المحدد بعقارب الساعة، موعد لا يخلفه أبدًا. كلما اقتربا منه كان يبعدهما. لما يجدا له أبدًا طريق.

استعصى عليهما، ومن يستعصي على جمال النساء؟

مفكرته على طاولته، رحل إلا من آثاره، لم يكن موجود. كانت تداعبهما أحلام اقشعر لها جسديهما. كانتا تتموجان خلف رنين الخلاخيل. امرأة اقتحمت الصالة، تلتحف بعباءة لف مثيرة. كانت تتمختر في مشيتها لكنها لم تجذب وحسب أنظار الرجال. اشتهتها النساء في دربها قبل الرجال، ومع تساؤل الفتاتين عنها، لم يدركا ولم يدرك أحد من تكون. سرعان ما تلاشت بين الصفوف. سريعًا أصبحت كالشبح لا يأتي إلا إن ذكرت طلاسم الحنين والأنين.

تلك الأحاديث بينهما وبين رجل اعتاد المجيء لم تستمر، رجل قبع بينهما، عينه تدور مثلما دارت عينهما، ومع أن احداهما نادت من ورائه، "مورو،" لم يستجب.

أوقات ترجع للوراء وكل شيء يسير من خلفه. كان يشعر بالضيق. كان في صدره نار تحترق. قالت إحداهما إلى الأخرى، "مراد مش مظبوط النهاردة!" ورغم أن الأخرى وافقتها، إلا أنها شعرت بالضيق. حنق شديد لأنه لم يُعرها أي اهتمام. كانت تذلل أمامه كل سبل الإغراء. كانت تسعى له في كل درب كي تصل إلى عقله.

قالت، "واضح! مشغول! مشغول!"

صكت على أسنانها كمن يتمزق من الغيظ، لكنها أخفت الحنق عن صديقتها، فصاحبتها كانت تتلون أمامه بكل الألوان التي تعرفها.

مالك الماخور كان هو، ماخور (تلت وحايد)، (مراد)، أو الذي يكنّيانه خفية فيما بينهما باسم (مورو). أعطته شيئًا ثمينًا وكان لها وقت للتسلية، إلا أنه أصبح يرمقها بنظرات الشزر كلما رآها. كان هو الشخص المترنح أمامهما وكانتا من خلفه يقتتلان بابتسامات سامة لا تخلو من أحقاد النساء، من منهما ستمسكه وتضمه إليها قبل الأخرى.

ظل يتفحص الماخور ويرقب كل من فيه. حتى ذلك الرجل الجالس في ركنه الهادئ. ذلك الذي يحتسي الخمر بإسراف ويقبض على مفكرة بحجم الكف يقرأ ما فيها بإمعان. أما ذلك وحسب فلم يكن بالأمر الجلل، فليفعلوا ما يريدون طالما أنهم يدفعون ثمن متعتهم، أيًا كانت ومهما تعددت. فلكل شيء ثمن يكال به.

رمق ذلك الرجل الذي هب صائحًا، ينادي على المتمتعين بأسحارهم على سيارة ما. حقيقة لم يسمع ما كان يقول جيدًا، فقد انطلت على عينيه غشاوة الخمر بغيظ يفور.

وقف الرجل الذي ينادي على السيارة بعد أن يئس من مستمع أمام رجل عريض المنكبين، على قفاه ثلاثة نقوش تشبه علامات السكاكين، يرتدي قميصًا بنفسجيًا لا يكاد يظهر أسفل أضواء الماخور، بنطاله الضيق كان يُبدي مسدسًا يتضخم ما بين قدميه. رأى في عينه نار تستعر كلما نفث أنفاسًا في وجهه. يد كانت تبطش برأسه ناحية العمود.

دماء فدماء تنفجر، وفرحة على وجهه كلما أحس بضعف فريسته. يضربه بقوة حتى تكسر

منخاره، حتى أصبح خرقة هاملة لا تتحرك. تركه وحسب لأنه رآها. تلك الفتاة الملتحفة بعباءة لف. تلك التي تتمختر في أقصى الماخور، كانت تختبئ عن الأنظار، كانت تغيب عن عينيه التي حدقت ناحيتها.

كأس وراء كأس ورأس تدور.

أصابعه المبتلة تلامس مؤخرة، أقراص تتبعها ضحكات فهمسات فكلمات، كان يتبعها أينما ذهبت، كان يلقي الهمسات على أذنيها لعلها تستجيب لعروضه المبهرة، كانت طاقته على وشك النضوب، حرارة حارقة تتوغل في عروقه، همس في أذنها بكلمات فابتسمت ثم مالت وابتعدت، شيء ما يسحره إليها.. يدفعه بلا تفكير إلى طريقها، إلى أن حشرها عند العامود، ما بينها وبينه اصبعين، يزحف على مجسمها كثعبان يتفحص فريسته، يتشمم رحيقها الغريب. كانت ترمقه في عينيه بنظرات الثقة. كانت ساكنة لكن كل شيء فيها كان يتحرك.

دست يدها البيضاء في جيبه وداعبت، داعبت هاتفًا سرعان ما أخرجته ووضعت على شاشته الأرقام، برق بصره بانتصار، لكن نيرانه لن تطفئها الأرقام، هو وحسب لم يدرك أنها فعلًا مسألة أرقام، أرقام تحدد الوقت الذي يفصل بينهما، أرقام تحدد مقاس خصرها. أرقام تحدد الشعلة المنبثقة من جسدها. أرقام تحدد استمرار انتصابه أمام خطواتها.

هي وحسب مسألة أرقام. أما الرجل الذي لا تستعصي عليه امرأة. هي وللمرة الأولى نوع غير مألوف. كانا ينغمسان ناحية باب خلفي

يقود إلى ممر ناحية بيوت الراحة وقتما كانت تنزلق من بين يديه كلما اقترب منها.

على غرار الوافدين إلى الماخور، أيقنت الفتاتان أن حلقة جديدة من قانون رئيسهما كان على وشك الحدوث، ورغم أنهما كانتا تتميزان من الغيظ، إلا أنهما التفتا ناحية المتمتعين ليُغدِقا عليهم بالهبات. أما طريق الراحة، فأصبح طريقًا إلى الشقاء، فتلك الروح الشريدة التي يسميانها (مورو) لم تكن لتتقبل الهزيمة، ولم تكن لتتقبل الاعتراض.

حتى نور الحمّام كان يرتعش، حوائطه الزلقة بألوانها الفسفورية، أضواء خضراء شبحية ترسم ظلًا لشخصين يتنافران ما بين نقوش الجرافيتي ووجوه شيطانية زخمة، أسراب تتراقص فيما بينهما، أيادٍ تنهر وجسد يُقبِل.

تراجعت قطرات الماء إلى صنابيرها، تلك التي كانت تتقطر من أعين حائرة. فقط المياه التي كانت تتصبب من المباول التي علتها قشرة سميكة من القذارة. رائحة تأنف لها آناف الإنس والجان.

باختلاجة عارمة فتح أزرار بنطاله. كان يتنفس بصعوبة. لقد أثقل في الشرب حتى صار لا يميز ما بين التبول في المراحيض وفي النساء. لكنه كان يهواها. كان يريدها حقًا لدرجة أن أرضية الحمام الرطبة كانت كالبحر الأهوج، والجدران تطبق على صدره وتتقلب. يُثبِّت نفسه بطرف يده اليمنى خشية الانزلاق في موج أبدي، ويده اليسرى تفك

الخناق على مسدسه الساكن في نومه، مسدس لا يثور أبدًا على التاء.

عين جاحظة! سيتفجر!

يد تغرس أصابعها الخمسة على الجدار. رأس تنحني ناحية المبولة. يد يُسرى تفتح مسحاب بنطاله. قُطب كانت تتفكك لتكشف عن انفجار. خلطة سحرية كانت تغلي بداخل أحشائه. لم يكن الوحيد هناك، لكنه ظل قرابة العشر دقائق، يلتصق بالمبولة. أنينه الحاد لم يكن ليفك عنه أسرار العذاب.

أنياب سامة تمزق أمعاءه بلا هوادة. هو أيضًا أثقل في الشرب. ذلك الكتاب الصغير الذي يحمله في جيبه أصبح لغزًا لا تنحل عقده مثلما حل قطب البنطال سريعًا. كان ينظر على زوائده المتدلية وعلى وجهه ابتسامة ساخرة. قبض على يده كمن كبش على زمام الأمور. كان ينتظر استلال سيف ليقتل نفسه ويستريح.

همهمة!

"مممم!" همهمة وسكتت، لم ينتبه.

همهمة أخرى وخبطة خفيفة تدوي من ثلاثة أقدام عند باب الحمام الثالث. رجل يثبت امرأة بحذائه المسنن. تنحني ركبتيها إلى جوار عباءتها اللف التي افترشت الأرض وبلوزة وردية ممزقة. استطاع أن يحكم سيطرته عليها قبل أن تنطق. بيديه الاثنتين كمم نصف وجهها، كانت تختنق. لم يشاهد ذلك المارق عند المبولة، لم يشعر أبدًا بوجوده.

كل ذلك ولم يلق بالًا لما كان يحدث من خلفه، ولا للحظات قليلة ألقى مسامعه ليتبين مصدر ذلك الصوت.

"شششش!"

أشار بيده كما لو أنه سيقتلها إن أصدرت صوتًا مماثل، ولام نفسه في لحظة تمكن من التفكير، لام نفسه لأنه أراد أن يضربها، أن يصب عليها جم غضبه لما رآها تبتسم. ضحكاتها كانت تزيد من حنقه. عقله المُغيّب لم يقدر على الخلاص من صورتها الآسرة.

كانت تأسره رغم احتياجه لقتلها. كانت تنحني أسفله كعود عنب نضجت أطرافه، يتزين بشهد وغموس من الملبن.

صحيح أن البلوزة كانت ضيقة وأن جزءًا من صدرها انبثق خارجًا منها، وصحيح أن بنطالها الجينز كان أشبه بالفيزون، ذلك الوشاح الرقيق الذي يسمونه بنطلون، وصحيح أن شعرها الأسود المنسق في ضفيرة واحدة، وذلك القرط الكبير المدموغ على شكل نجمة وحيدة تزين أذنها اليمنى، اكتحال لم يسِل من أعلى عينيها.

مقلتان زرقاوتان تاه فيهما كأنهما بحر لا قرار.

هي أصلًا لم تكن تبكي قطرة واحدة. لم تكن ترتجف ولم تكن تقاوم. كان يقبض عليها بإحكام ولم تحاول حتى الهروب. ربما لأنه كان يحشر مسدسًا آخر فوق مؤخرته.

رنين الهاتف يهتز في جيبه!

لم ينته بعد من إفراغ مثانته الحمقاء. لا يزال يستند على الجدار ويُلقي برأسه ناحية

المبولة. كان يفكر في هاتفه المقتحم بعنوة في نزواته، كيف يقتحم أبواب خلائه بلا استئذان. لا شيء أكثر إزعاجًا من ذلك الضجيج المقرف. رنين كان يضيء عيني الرجل القابض على عنق الفتاة تحت رجله، يتنشق باطراد ويمسح منخاره بطرف يده. شارف على الاختناق من وقت كان يتقاصر ومن حيلة كان يفقدها بدون أي سبب.

وقع المسدس من طرف بنطاله بارتطام على البلاط. كان لوقع ارتطامه اصطكاك مفاجئ. ارتبك الرجل وشدّ على الفتاة كي لا تصدر المزيد من الأصوات والحركات. كان يشعر بخوف شديد، لا يدري إن كان من تلك الأقراص التي تجرعها أم من الفتاة التي كانت تقتله بجمالها. رسم ثلاثة آحاد على جبينه المتعرق، علامة على نفاد الصبر، أصابع متورمة وخاتم يحمل شكل نقش الصليب على بنصره.

"اسكتى!!"

"شششش! متنطقيش!"

"ولّا إنتي مش عارفة إيه اللي هيحصلك؟ أكيد عارفة اللي هيحصلك،" والفتاة لم تُبدِ أي رد فعل لتهديداته. على العكس تمامًا كانت تُركز وبشدة مع ذلك الشخص الآخر عله يخلصها مما هي فيه.

وخبط الباب وفتح....

وقفز من قلبه وانكسر، واحمرت عينها ورمشت الفتاة محاولة منها أن ترى. لفلف بيده بشرود لكنه كان منتصبًا أمامه، يرتكز على الباب بشيء من الغيظ وعيون سابحة في السراب. لمّا رأى المشهد ضاع منه التوتر.

ولما رأي الرجل منقضًا على رقبة الفتاة، عاد إليه هدوءه، وقد احتاج الرجل وقتًا كي يستعيد هدوءه الخاص، لأنه رأى جحيمًا في عيني غريمه، عيون تتميز بالنيران، رمش عدة مرات ليتبين الملامح، لكنها كانت ضبابية، أما ذلك الشعور فسرعان ما تبدد.

استدار من سكات فزادت همهمة الفتاة، فضربها على رأسها وزعق، "اسكتي،" وانقض مقتربًا إلى طبلة أذنها بعد أن لمح ما بين مفرقي الشخص الذي أمامه.

"محدش هيخلصك مني، سامعة."

"أحسنلك تعملي اللي أنا عايزه."

"ها... أحسنلك تسمعي الكلام."

"النهاردة هاخد اللي أنا عايزه،" وكانت يده تتحسس جسد الفتاة. بدأت تقاوم سيطرة الرجل لما رأت الآخر يترجل مبتعدًا عنها، يترجل في نطاق رؤيتها ولم يبتعد كثيرًا.

صرخت، لكن صراخها كان آخره بين أصابع مفترسها، فخبط من الغيظ على صدرها خبطة أخرجت ما في أحشاءها، وحشر اصبعيه في منخارها قائلا، "محدش هينجِدك، سامعة. ولو معملتيش اللي أنا عايزه هجيبك. آه، وإنتي عارفه إني أقدر أجيبك."

أصبحت تتلوي كصيد شُلّت أطرافه من سموم الأفاعي. كانت تحتضر ما بين اصبعيه. رؤيتها أصبحت تتلاشى. كان يتمتع من استنجادها بمغيث لا يهب لنجدتها، كان يتمتع من لون وجهها القرمزي.

نظرة جنونية ضوضائية، مئات من الشرايين المحتقنة. بعد أن فشل في استخلاص رغباته،

أمست جسدًا ستأكله ظلال الليل، حيث كانت أوهام الموت تحلق فوق نهاية رأسها. ذاق من شهدها بطرف لسانه طعمًا مُرًّا، اشمأز منه، رائحة القلق ورائحة العرق على جسد متحلل.

"هحرقك بعد ما اقتلك،" هكذا قال بوشومه الشيطانية ما بين عينيها.

رنت الكلمة رنينًا صارخًا، "هحرقك... هحرقك... هحرقك..."

نار تأكل كل شيء. نار تزحف ما بين الخيوط. نار تبتلع الشبابيك والستائر. نار تذيب الصور على الجدران. أب وأم، طفل صغير وامرأة، صرخة مفزعة تسبق نهاية الخوف. ألم يشق رأسه بسكين مُثّلم. رعشة يتيمة اجتاحت كيانه الصغير. رأى النيران في كل مكان في بريق عينيه. تتساقط ما بين قدميه العاريتين. رعشة يتيمة أعادت عفونة الحمّام.

لا نار ولا أب ولا أم، فقط رجل وفتاة.

كان يُمرِّس على جلدها الناعم. يعض على شفاهه من اللذة. يجوب ما بين خصلات شعرها ويضغط على خديها.

كان يردد، "إنتي ليا النهاردة،" قشعريرة في أطرافه.

أما الفتاة فابتسمت. كان أول رد فعل لها أنها ابتسمت ابتسامة أحرقت ملذاته.

"متـ ... متـ ... متضحكيش... سامعة، متضحكيش!"

كانت الفتاة لا تزال تبتسم. ضايقه تصرفها أكثر. استدار من نفسه وشد على المسدس من

الأرض، وهو يقول، " بطّلي، متضحكيش. بقولك متضحكيش."

"آآآآآه!"

صيحة مدوية فجّرت عروقه لما رأى إبرة المحقن - السرنجة - مغروسة في كتفه.

"يا بت الـ...، إيه! إنتي عملتي ايه؟ إيه دي؟؟"

أخرج الإبرة من كتفه وألقاها ثم خبط على الأرض بكعب مسدسه. لم تتفاعل مع ثوراته. رشق المسدس في رأسها. اقشعر جسدها كما اقشعر جسده.

"هقتلك، سامعانى، هقتلك..."

أصبحت الجدران تتمايل شيئًا قليلًا، دوار في مؤخرة رأسه يفقده التوازن. يحاول أن يقاوم ذلك الإحساس ولكن بصعوبة جمة.

"إيه اللي إنتي ضربتيني بيه ده يا... يا...؟"

"نهايتك... نهايتك على... على... إيدي... أنا... آه!"

حرب دائرة في أعصابه. احتساؤه للخمر والأقراص أبطأ ذلك الترياق الذي صار ينتشر في دمائه. ابتعد عنها حقيقة لكنه كان ينبض بقسوة. رأسه تنبض وكأنها ستنفجر. صرخات كان يسمع دويّها لكنه لم يكن يطلقها.

"مفتكرش إنك هتعمل كدة."

بكل هدوء وبرود متصنع بصق في وجهه بالكلمات، نظر إليه نظرات مقيتة، ونفخ نفخة أحس أنه سيطير من بعدها. انتفخت

عضلاته للقدر الذي يمكنه من مسك المسدس بإحكام. قبضة من ألم يغزو العظام ويفتت اللحم. ألم في الحلق من عامودة الفقري الذي كان ينتصب بصعوبة فجة. كان المسدس يهتز في يده وهو يتحدث، "إنت!! إنت آخر يوم في عمرك النهاردة."

"أنا همسح بيك الأرض."

"أنا هعرفك أسيادك يبقوا مين."

"أنا شفتك، وعرفت شكلك. متفتكرش إني مش هعرف أجيبك."

"شايف دى،" وأظهر أسفل كفه.

اندهاش، "ظابط!!" ثم ألقاها في وجهه أمام ابتسامة انعدام الاكتراث.

"هجيبك... في أي مكان هتكون هجيبك."

رجفة جفونه لم تكن رضوخًا لذلك التهديد، وإنما لأعصاب متعبة. في الواقع، كان يتنفس بلا حراك. كلاهما كان في موقع ما بين النشوة والضياع. كلاهما يشعر بأشياء تمشي في الرأس. ديدان تزحف ناحية الدماغ، تحبو على عكس التيار.

على حين غرة انطفأ الدخان وسقط عقب السيجارة في الماء، وكأس الشراب صار قانيًا بلون الدماء. طوابع كانت تتساقط على الطاولة. حديث كان يدور في العقل، لم يبدأ في أصله أبدًا. كان كلاهما يرمق الآخر وحسب. بعد أن ضربت كتفه بإبرة المحقن، صارت عروقه تنتفخ.

ضربة في الكتف وضربة بالكف. دماء تتناثر من الشفاه. سخط وركبة موجعة في البطن. خبطة على الجدار واهتزاز. رجرجة في الرأس

ويد تمتد ناحية المسدس ويد تمنعها، ضربة بالقدم أفقدته وعيه. أقدام صغيرة كانت تسير في هدوء، أمسكت المسدس، كانت تصوبه ناحية رأسه التي أصبحت صخرة ملقاة على الأرض.

كانت تتمنى، إلا أن يدًا قبضت على يدها قبل أن تضغط، فمنعتها.

على تلك الطاولة البعيدة، كان يجلس.

أوراق الكوتشينة تتساقط، ثلاثة آحاد وكفى.

****

" 07 "
أوراق الزيتون

الغرفة المظللة الهامدة مجدداً، تفتح أسلاك النافذة لتسمح لضوء الشمس المنطفئ بالعبور. حرارة ضعيفة كانت تتخلل ما بين حاجبيها وحدقتي عينيها. راحة غريبة حينما تتلامس مسامها مع الضوء المتآكل. رائحة تأتي من الشقة المجاورة لشواء يفوح دخانه من الشرفة العريضة، رائحة تأنف لها أنفها وتصيبها باشمئزاز يتبعه المزيد من الأسى على حال العمارة الذي يرثى له. ضحكاتهم كانت تدفعها إلى التساؤل عن نوعية المالكين الجدد. لم تعد الخصوصية والاحترام شيئًا يُقدّر كما كان في الماضي.

بلمحة واحدة، كانت الشمس قد أودعت رحالها إلى أطراف الليل بعد أن حملت حرارة القلوب على عاتقها وألقت بظلالها على الشوارع المتراصة سياراتها. أقدام لا تكل من السير في الطرقات. أشجار تستدير وأزهار لا تحمل رائحة تذكر. أصبحت تلتف في منتصف الشارع. تزين شكله القبيح ليصبح شكلًا حضاريًا، لكن الأشياء المتناثرة، والقليل من الأشياء الملقاة كانت تثير حفيظتها. كانت تنتابها قشعريرة عارمة كلما رأت الأوراق والأقلام وذلك الجهاز المسطح المسمى بالآيباد. أصبحت تتوتر من تلك الأمور الحديثة والتافهة.

قديمًا كانت الأمور أكثر سلاسة وأكثر إرشادًا. كانت الحياة أكثر إقناعًا من الساعات التي أصبحت تمر كالدقائق على

مواقع التواصل الاجتماعي. أصبح ألبوم الصور مجلدًا الكترونيًا لا تسعه قلوب الأحبة أكثر مما تسعه الذاكرة العشوائية. هي وحسب لم تفهم تلك المصطلحات الشبابية الدخيلة على عالمها البطيء، عالمها الذي كانت الثانية فيه ثانية كاملة، لا تنقص ولا تزيد.

أما وقتها، فقد أصابتها حفيظة الضجر.

"ديجا... ديجا، يالّا قومي، اصحي."

(ديجا) المستلقية على بطنها وتضع سماعتين في أذنيها ولعابها يسيل على مخدتها، لم تنطق ولم تتحرك. كانت تغط في نوم عميق. كانت رأسها رغم ذلك تتفاعل مع آخر المستجدات والفعاليات بالإضافة إلى الأوراق والمستندات التي تحصلت عليها. كان عليها أن تُعِدّ لحديث الليلة، لكن الوقت والجسد المنهك لا يسعفانها.

بالرغم من أنها أرادت الاستيقاظ باكرًا، حسنًا، من يأتي بيته في أواخر الليل لن يستطيع الاستيقاظ بسهولة.

حقيقة أنها اعتادت الليل أكثر من النهار، كانت واقعًا لا يقبل التغيير بحكم طبيعة وظيفتها، غير أن جسدها المتتبع آثار النوم كان يرفض وبكل وضوح أن يعيد تشغيل عملياته حتى ينال قسطًا كافيًا من الراحة، وتلك الموسيقي التي كانت تسبح فيها، كانت تساعدها تمامًا على الاسترخاء.

"يا بنتي، اصحي يا بنتي بقي. إيه؟ خُم نوم..." أردفت الأم من قلة حيلتها.

"إنتي كل يوم تغلِّبيني كدة."

تقلّبت (ديجا) وعدّلت من طريقة نومها، وبطرف يدها مسحت فمها المبتل، لكنها عادت سريعًا إلى النوم من دون أن تلحظ وجود أمها التي كانت تغلي ما بيها وبين نفسها، الأم التي كانت على وشك أن تقلب الفراش رأسًا عن عقب أو أن تفصل السماعتين من أذنيها، لكنها فضلت أن تحاول مرارًا.

قالت الأم، "انتي مش وراكي شغل ولا هتقضي اليوم كله كدة."

"اصحي يا ديجا. يالّا يا حبيبتي، قومي. الوقت بقى العصر."

لحظات قليلة فقط، رمش جفن ثقيل من أعلى عينها ليُبصِر شيئًا هيّنًا. لم تسمع سوى كلمة العصر التي أصابتها بالصاعقة، إلا أن همسًا لا تألفه إلا النساء كان يردد أن تستريح.

رددت (ديجا) بصوت متردد خفيض وابتسامة خفيفة، "بقولك إيه يا نورا يا حبيبتي، سيبيني عشان أنا عايزة أنسى اللي حصل امبارح؟"

"اصحي طيب وانسي اللي إنتي عايزاه براحتك."

"لأ، بجد، سيبيني عشان أنا مش قادرة،" وأكملت بجهد مرير، "إنتي عارفة إني برجع متأخرة بالليل. سيبينى بقى أنام شوية، ياريت."

كانت الأم على وشك أن تحمل عنها مخدتها وهي تتكلم، "يا بنتي خلاص قومي عشان تجهزي نفسك لشغلك."

أتبعت (ديجا)، "بصي يا نورا يا عسل يا قمر إنتي..."

"أيوة! أيوة! ادخليلي بقي في الوصلة دى."

"سيبيني بس أنام شوية وأنا هقوم لوحدي أعمل كل اللي إنتي عايزاه. خمس دقايق بس."

"ولا ربع دقيقة، يالّا قومي عشان أنا كمان شوية نازلة."

انتصبت (ديجا) بحركة مفاجئة وشعرها المربوط يتدلى على صدرها وعلى وجهها علامات اندهاش ونظرة صحفية حادة تتعقب من خلالها تفاصيل والدتها.

"إيه يا بنت في إيه؟" استفسرت الأم وهي تتراجع بعد أن تأكدت من مفعول ضجتها.

"أنا نازلة! عادي يعنى!" وكانت قد خرجت من الغرفة وابتعد صوتها إلا أن (ديجا) قالت بصوت ساخر وواضح، "ومن امتى كنتي بتنزلي يا نورا؟ جديد الموضوع ده."

"سيبك من الموضوع ده وتعالي افطري وجهزي نفسك."

بهذه الكلمات أنهت الأم حالة الإيقاظ الشبه يومية ودخلت إلى المطبخ، أما (ديجا) فطقطقت فقرات ظهرها المتورمة قليلًا ثم شهقت نفسًا عميقًا أودعته في صدرها للحظات قبل أن تنفثه مجددا. ها قد بدأ يومها الجنوني مرة أخرى، بدأ لما وطأت الأرض بأصابعها العارية وبنطال بيجامة مخطط بألوان بيضاء ولازوردية، ترتديه مع بلوزة لونها بستاج، أكمامها قصيرة.

جحظت عينها التي تعوصها بأناملها، كانت تفكر، "ميعاد المدير!"

حقيقة، (ديجا) لم تكن كسولة، فأشياؤها كانت مُرتّبة وحقيبتها مجهزة وملابسها مُحضّرة وقريبة. لا تحتاج سوى لحمام بارد وسريع وتغمر شعرها في زيت مخصوص، وهو أول شيء فعلته بعد أن خرجت من غرفتها، لكنها سبقته بأن حملت جهاز الآيباد معها إلى طاولة الطعام ووضعته في مكانه أمام مقعدها، وضغطت على ريموت التلفاز وأشعلته على قناة العربية الإخبارية، فقط كما اعتادت أن تبدأ يومها في كل صباح.

حمامها البارد سريعًا جدًا انتهى. كانت تضطجع بقدم محنية وشعر رطب يبرق من تأثير الزيت، غمزات كانت ترسمها على خديها من فرط النشاط المفاجئ الذي انصب على عقلها فجأة. شعور لا تنفك من الاستمتاع به في كل مرة تتساقط القطرات الباردة على رأسها.

"إيه ده! إيه ده! إيه ده؟ اشي اشي..."

"هوت تشوكليت وكرواسون! إيه الرضا السامي ده."

كانت (ديجا) تراقب والدتها في غرفتها بعد أن تركت المطبخ منذ وقت قصير. كانت تداعبها بالكلمات كلما وقعت في نطاق نظرها. تلك الصورة المثبتة على الجدار كانت تحملهما معًا. لم تكن قد بلغت الثامنة حينها، لكنها كانت سعيدة، ربما أكثر من أي وقت مضى، أما الابتسامة المطفأة، لسان حال والدتها، كانت تتصنّعها، تمسحها وفي عينها نظرة حزن جلّية، لم تستطع (ديجا) أن تراها، شعور يطعن في الصدر بلا هوادة.

مرت الأم من الغرفة إلى الحمّام، كانت تقول، "بطّلي مألسه وخلصي فطارك عشان تجهزي نفسك للشغل."

حشرت (ديجا) قُضمة من فطيرة الكرواسون باتساع فمها بعد أن احتست قليلًا من الشوكولاتة الدافئة وهي تتصفح عناوين صفحتها على جهاز الآيباد، تقرأ بتمعن آخر رسائلها وتجيب على بعض تعليقات القراء والمعجبين. كان ما جذب انتباهها هو تعليق الناس على حلقة برنامجها الأخيرة لليلة الأمس، بعضهم قال عنها حلقة أسطورية، والبعض قال عنها سوداوية، والبعض الآخر كتب سجالًا طويلًا ما بين العِمالة والتحيز، ليجيبه آخرون بعدم الفهم والتحليل السليم. آراء كثيرة لا تتشابه مع بعضها.

تنهدت (ديجا) وباشرت إلى آخر مدونة لها بعنوان (10 ثواني) إلى جوار مدونات أخرى: في آخر النفق - His & Her Story - أرض الرمال وفي العزلة، وكلها لكاتبها المفضل (هيثم أ. هميمي)، والكثير من الرسائل والدردشات والصور المتنقلة في الفضاء الاجتماعي لمحتها بنظرة محلقة خاطفة، لكن لا شيء يفوق ذلك الكتاب الذي تحتفظ به قريبًا من سريرها، بدأته قريبًا وتغوص في قراءته.

(ديجا) لم تكن شخصية منعزلة لكنها كانت تحب آيبادها كثيرًا. كانت تعتبره ثقافتها المحمولة. وقتها لمحت، وتكلمت بحشرجة غير مفهومة، "إنتي فيكي حاجة غريبة النهاردة، مش على بعضك يا نورا."

"كل حاجة عايزة تخلصيها بسرعة بسرعة. واضح إن وراكي مشورا مهم جدًا."

"أيوة مهم،" إجابة مفاجئة من أمها، شغلت انتباه الفتاة عن عالمها الفضائي.

كانت (ديجا) تلوك الكرواسون ببطء وصورة والدتها أمامها. تلك الخصلات الذهبية ترسم تاجًا على رأس ملكة. أمها كانت هي الملكة التي اكتفت بوحدتها وعاهدت ابنتها على حمايتها. في أشد مواقف الحياة قساوة، حينما اهتزت الأرض من أسفل أقدامها الصغيرة وتهاوت الأعمدة التي كانت تعلق عليها صورها القديمة، في ذلك الوقت كانت والدتها صامدة، شامخة كجبل عظيم وإن تناثرت صخوره.

صورة العذراء ورضيعها كانت تطمئنها. لزمن ليس بقريب كانت تبتهل إليها بالدعوات. دعوات كانت تأتي من قلب طفل بريء. دعوات أطلقتها إلى السماء ولم تأتِ بنتيجة. حينما وكما فعلت وقتها، أشاحت عينيها عن صورة العذراء. أصبح قلبها مُخضّبًا بلون الأماني المُنكَرة. لم تعد تلتفت مجددًا إلى حالتها السقيمة، لكنها التفتت متى تحدثت والدتها، "أيوة مهم."

"آه صحيح، إنتي ليه عمرك ما كلمتيني عن جدي أو جدتي؟"

تيّبست الأم، وقالت، "إنتي إيه فكرك بيهم دلوقتي؟"

"لأ، عادي. بسأل عادي، مفيش سبب،" وحشرت المزيد من الكرواسون.

كانت الأم تنحني أمام ابنتها على الطاولة، في دهشة غريبة، انحشر الطعام في حلقها بغصة حارقة متى رأت ذلك المشهد الغير مألوف.

أسهبت (ديجا)، "إيه اللي إنتي عاملاه ده يا نورا؟" وأردفت، "إنتي عيانة ولا حاجة؟"

كانت الأم تُنمّق من وشاحها، لما ابتسمت شيئًا قليلًا في وجه (ديجا) المصعوق، قالت، "إيه رأيك؟ عجبك؟ حلو مش كدة؟"

ابتسامتها أصبحت شيئًا عزيزًا جدًا، ابتسامة لم ترها (ديجا) منذ وقت طويل. كانت تريد أن تتركها لحالتها الفرحة لكنها لا تستطيع، ومع ذلك لم تنطق، أصابتها دهشة لم تكن تتوقعها، ربما لأن عقلها لم يعمل بكفاءته المعهودة بعد، وربما لأن شيئًا من الدماء كان يتجمد في عروقها.

"آآآ... مممم... أوك!! الموضوع ده جديد."

مسحت الأم على وجنة ابنتها وقالت بلطف، "لو كنتي سمعتي الكلام وجيتي معايا."

سألت (ديجا)، "آجي معاكي فين بالظبط؟" وأكلمت بعد أن تركت الكوب وقطعة الكرواسون المتبقية، "واضح إنك كنتي بتطلعي كتير الفترة اللي فاتت وأنا مشغولة جدًا طبعًا."

أجابت الأم، "متِحمرّيش وتِخضرّي، ووشك يتقلب كدة، ويا ستي اعتبري إني مقولتلكيش أي حاجة خالص."

"هو أنا بحاول أفهم الصراحة بس مش عارفة،" اتبعت (ديجا).

كانت قد أوشكت على النهوض من مجلسها لما تحدثت والدتها، "أقولك على حاجة. أنا هعزمك النهاردة في دون كيشوت، إيه رأيك بقى؟"

"هههههه، دون كيشوت مرة واحدة!" ضحكت (ديجا)، "لا، فكرة مثالية فعلًا. بتغيري الموضوع في ثانية يا نورا. بس بجد أنا عايزة أعرف إنتي بتروحي فين."

"شوفي يا نورا، لو إنتي عايزة تخرجي، أخرجي. صدقيني، أنا معنديش مشكلة. بس على الأقل أبقى عارفة إنتي بتروحي فين عشان أبقى متطمنة عليكي."

"متخافيش يا ديجا،" قالت الأم وهي تربت على كتف ابنتها التي كانت تساويها في الطول. كانا يقفان رأسًا لرأس، لا يفرق بينهما سوى أصابع الكف. ملامحهما التي تتشابه كانت تبعد أي موضع للشك. الأم وابنتها في بوتقة واحدة يجلسان.

أما الأم، فرمقت بشغف، وأما (ديجا)، فكانت بين الحين والآخر ترمق صورة العذراء من خلف رأس والدتها، ثم تتابع نظرات الأم الحائرة، التي رغم سكينتها لم تكن تشعر بالاستقرار.

قالت (ديجا)، "أوك، بس الحجاب اللي إنتي لابساه ده! أنا ابتديت أقلق بجد. !نتي بقيتي شبهم خالص. بجد أنا معرفتكيش لما شفتك."

"أنا عندي فكرة يا نورا. على فكرة أنا مش مضطرة أروح الإذاعة النهاردة، وبكرة يعتبر أجازة عشان العيد."

"إيه رأيك لو نطلع ناخد لنا كام يوم كدة نروّق نفسنا؟"

"بذمتك مش هيبقى تمام؟ إيه رأيك؟ موافقة؟"

بإيماءة خجلة قالت الأم، "بقلك إيه، أنا هروح أصلي عشان لسه باخد وقت طويل في الصلاة وكمان عشان ألحق أنزل."

عقدت (ديجا) ما بين حاجبيها من الاستغراب، لكنها لم تعقب لأنها تدرك أن حديثها لن يأتي بنتيجة. الأم التي تركتها والتي حملت سجادة مستطيلة، بدت قليلًا متحيرة، تنظر في كل اتجاه، لا تدري أي اتجاه هو اتجاه القبلة.

لوقت ما كانت تصلي في أي اتجاه خوفًا من الناس، ووقتما حددت اتجاه القبلة في غرفتها، كانت تذهل من مكان القبلة في أي مكان آخر من البيت، لذلك قررت أن تصلي في غرفتها كما اعتادت. كانت تتنفس بصعوبة لكنها كانت تشعر براحة نفسية من بعد قشعريرة رعب تنخر عظامها.

فمها لا يُغلق، حملت (ديجا) الكوب ودخلت المطبخ، تغسله، كانت تفكر فيما ستقوله لأمها التي اتبعت ديانة أخرى، ديانة الإسلام ليس من وقت بعيد، في كل مرة تواجه ذلك الموقف، تشعر بقلق رهيب، الأمور تتطور سريعًا جدًا.

ذلك الموقف جعل عينيها تغيب عن الأوراق الجافة الموضوعة في طبق خزفي. لم تحرك والدتها ساكنة في غرفة المعيشة. كانت تنتفض وتتلعثم. حتى وجدتها (ديجا) خلفها في المطبخ. كانت ترتجف بوضوح وكانت

تتحدث، "أنا مش فاهمة إنتي عايزاني أعمل إيه طيب. ما إنتي عارفة اللي أنا شفته."

قاطعت (ديجا) بقلق، "ماما."

لكن الأم كانت تكمل، "أنا مش فاهماكي يا ديجا. إنتي عارفة أبوكي واللي عمله فيا."

أومأت (ديجا) بأسى، "عارفة."

"طيب، ليه بتلوميني؟ لا عرفت أسافر وآخدك معايا، ولا عرفت أعيش حياتي زي أي واحدة تانية، ولا حتى عرفت آخد حقي منه، بس حاولت أحافظ عليكي على قد ما أقدر. دلوقتي بتلوميني أنا مش عارفة ليه."

ابتأست (ديجا)، لم تعد تعرف ما تفعله اتجاه والدتها.

بطيبة شديدة قالت، "لأ، أنا مش بلومك. متقوليش كدة. أنا عارفة كل اللي بتقوليه وفاهماه، وعارفة إنك شوفتي اللي عمري ما أتوقع إني أشوفه. بس تسلمي، ده اللي مش فاهماه."

"أبوكي يا ديـــ... جا..." ارتبكت الأم، كانت تتصبب عرقًا وتتمايل الأشياء كالأفعوانية أمامها. كادت أن تسقط لولا أن (ديجا) أمسكتها وهي تصرخ، "ماما!" وأجلستها على الكرسي والأم تُراقب الأرض بلا قدرة و(ديجا) تتحسر على حديثها المر.

نأنأت الأم، وقالت، "يا بنتي... دلوقتي مش زي زمان؟"

"حاجات كتير اتغيرت وحاجات كتير اتبدلت..."

"... وفي حاجات مهما الواحد حاول يعّدلها مش هيعرف، لأنه هو اللي بإيده كسرها."

قالت (ديجا) بقلق، "يا ريت منتكلمش في الموضوع دلوقتي، إنتي عندك السكر وده مش كويس."

"إيه؟ إنتي خايفة عليا؟"

"إيه؟ أكيد طبعًا،" ابتسامة الأم الصافية.

أشارت بصعوبة إلى علبة خزفية وهي تتحدث بحشرجة مؤلمة، "اغليلي شوية من الورق ده."

تساءلت (ديجا) بعد أن نظرت إلى الأوراق بحيرة، "إنتي بطلتي الدوا وبقيتي تمشي على الأعشاب الأيام دي!"

أطلقت الأم نحنحة من حلقها الهش، فقالت (ديجا) على الفور، "طيب، طيب. هغليلك شوية حالًا،" وابتعت مستفسرة، "بس إيه الورق ده؟"

استجمعت الأم قواها وقالت، "ورق الزيتون..."

"... وصفة واحد وصفهالي بيقول كويسة جدًا للسكر."

"اغليلي شوية خليني أشرب قبل ما أنزل."

همهمت (ديجا)، "إنتي لسه مصرة تنزلي؟"

حديثها الصامت لم يغب عن بال والدتها التي قالت بعد جهد شاق، "أيوة،" وكانت تحني رأسها للوراء وتتنفس بصعوبة جمة.

تابعت (ديجا) والدتها بكلمات لم تكن مقتنعة بها، "طيب، مفيش مشكلة. خدي نفسك وريحي شوية. أنا هعملك المغلي اللي إنتي

عايزاه ده،" وبابتسامة متصنعة، "مع إنك عارفة إني لا بطبخ ولا بعمل شاي ولا غيره، يعني من الآخر برنسيسة."

ابتسمت الأم من دورها فقبلت (ديجا) رأسها ثم اتجهت لتصنع لها أوراق الزيتون، لكنها كانت لا تزال هائمة. ذلك الأمر برمته كان غريبًا وجديدًا عليها.

والدتها كانت تسير في كل السبل منذ وقت بعيد، تبحث عن مفر لمصيبتها. وقتها لم تكن تعي ما كانت الأم تقوم به لأنها كانت صغيرة، لكن، ما إن كبرت حتى أدركت تلك الخطوات الخطيرة والجريئة التي أخذتها. الإسلام كان الحل الوحيد أمامها لتتخلص من سطوة والدها المتجبر، لتتحرر من عالمه القاتم وتعيش في عالمها الأنثوي الحنون.

رمقت (ديجا) والدتها عن كثب بنظرة واحدة خاطفة ودمعة تسعى للفرار ما بين جفنين مكتحلين. كانت تفكر مليًا وهي تصنع لها أوراق الزيتون. والدتها البائسة ستظل أسيرة الماضي إلى الأبد، لن تجد طريق النجاة مهما حاولت، ومع ذلك تمنت أن تحمل الأيام شيئًا جيدًا لهما. ما بين أسوار منزلهما، فتاتان وحيدتان تعيشان معًا تحت سقف واحد، وقلب واحد، وجسدين.

في حقيبتها المستديرة كان هاتفها الصغير يهتز بشكل جامح. ظل على اهتزازه لوقت لم يكن بالقصير حتى انطفأ. أمسكت الأم كوب الشراب ترشف منه قطرات كرشفتها لملعقة الدواء، و(ديجا) تنحني على رخام المطبخ، تراقبها بحدة. كانت الأم تتحسن وتستفيق من وعكتها لدرجة شعرت (ديجا) أن شراب أوراق

الزيتون كان شرابًا سحريًا، أما الأم، فكانت تفكر في ابنتها، صغيرتها، كانت ترسم كل لحظاتهما معًا. كانت تتحدث معها في ليلها وصباحها، وحتى في أحلامها. كانت تشعر بارتياح يأتي من بعد اليقين.

مر الوقت بينهما في هدوء. كان يمشي بطيئًا على عقارب الساعة.

"شكرًا يا حبيبتي،" بدأت الأم بعد أن انتهت من شرابها وشعرت بارتياح خفيف. نصبت قامتها بينما تتحدث، "أنا هروح أجيب الشنطة بقى عشان أمشي."

أسرعت (ديجا) بطلبها، "لا، لا، إنتي... ممم... أنا هجيبهالك. خليكي قاعدة شوية."

"أنا... انا مش عايزة أتعبك يا حبيبتي."

"لا مش هتتعبيني ولا حاجة. خليكي أنا هروح أجيبلك الشنطة."

اخترقت (ديجا) حواجز الوقت والممر المؤدي إلى آخر غرف الشقة، حيث كان عبق والدتها لا يزال يفوح باطراد.

وقت أن حملت حقيبة والدتها، كانت ترى الهاتف يتوهج. رسالة واحدة غير مقروءة. فكرت (ديجا) للحظات. تلك الفتاة الصغيرة كانت قد كبرت، لكنها استمرت في حمل جين العائلة المتطفل. كانت تفكر في محتوى تلك الرسالة وما كان يمنعها هو ذلك الخيط الرفيع، ذلك الميثاق فيما بينهما. ميثاق لم يمنع (ديجا) من إعادة توجيه الرسالة من دون أن تفتحها إلى الآيباد الخاص بها ومحو كل أثر يدل على فعلتها.

كان صدرها يعلو باستمرار وكانت تتنفس بحرارة، حتى عادت وأعطت الحقيبة إلى والدتها، التي سرعان ما ترجلت. كانت (ديجا) تراقبها بصمت وقلب يخفق حتى أغلقت الباب خلف أقدامها. حينها، وقفت أمام الآيباد قليلًا. كان قلقها يمنعها من التطفل في رسائل والدتها وفي ذات الوقت يحثها على النقيض. أما هي، فقد اختارت أن تدخل عالم والدتها السري وتتجسس الآثار خلف خطواتها.

جلست (ديجا)، وفتحت الرسالة.

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. إزيك يا نورينا، عاملة إيه؟ حبيت أقولك إن الشيخ اعتذر ومش هيقدر ييجي النهاردة. حبيت أقولك قبل ما تنزلي عشان متضربيش مشوار طويل على الفاضي."

ظنت (ديجا) أن الرسالة انتهت، لكنها استمرت في الضغط. هناك كانت البقية.

"على فكرة الشيخ رد على سؤالك. أنا بعتهوله في رسالة وهو رد عليّا وبلغني إني أبعتلك الرد بالتفصيل ومشيلش منه حاجة."

ضاقت عينا (ديجا) خشية مما كانت على وشك قراءته، لكنها أمعنت بحرص. لغتها العربية لم تكن جيدة ولم تكن ركيكة رغم أنها كانت تقوم بكتابة المدونات، عدا ذلك فقد استمرت في القراءة.

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أختي في الإسلام..."

"... تحية طيبة لك خالصة من القلب..."

"... أما عن سؤالك فيما تظنين عن إخوتنا المسيحين؟ فها هي الإجابة التي أتمنى أن تشفي عليلك، فأمراض القلوب شتى ومرضك يُكنّى بالتردد، تردد يصيب الأنفس الحائرة من اتباع الحق، فلا يميزون بين الحق والضلالة."

اضطجعت (ديجا) جيدًا وأكملت، "قال الله تعالى: **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) الممتحنة.**

فالإسلام يا أختي دين المحبة، وقد جمعها الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع الإيمان بقوله: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه،" وإن ذلك ليؤكد أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم من الأديان الأخرى هو السلام."

اختلج قلب (ديجا) ثم أكملت.

"لقد كانت علاقة الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع النصارى علاقة محبة، فالمقوقس واسمه (جريج بن مينا)، وهو من عظماء الأقباط في عهد الرسول الكريم اعترف اعترافًا كاملًا بنبوة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، إذ قال في إحدى رسائله: بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد بن عبد الله، من المقوقس عظيم القبط وقد علمت أن نبيًا بقي وكنت أظنه يخرج بالشام."

انطفأت عينها بقشعريرة وهي تقرأ الكلمات التالية، "عن عمرو بن الحمق رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أيما رجل أمن رجلًا على دمه ثم قتله فأنا

من القاتل بريء وإن كان المقتول كافرًا، رواه ابن ماجة وابن حبان في صحيحه واللفظ له، وقال ابن ماجة فإنه يحمل لواء غدر يوم القيامة..."

"... وقال ابن حزم في مراتب الإجماع: واتّفقوا أن دمَ الذميّ الذي لم ينقض شيئًا من ذمّته حرام."

(ديجا)، كان رأسها يلعب، تتخيل من مات من أقاربها في أيام الثورة. ترى من حملوا الصليب في أياديهم يتساقطون رغبة في المساواة. أصبحت (ديجا) في حيرة من أمرها. ما تقرأه لم يكن مكافئًا لواقع مرير.

تعجبت أكثر، وتساءلت متى كان المسلمون يعايدون ويجتمعون مع غير المسلمين. سلام ما بين الجار وجاره وحسب، وأبواب تُغلق في الوجوه، لا تكشف عما تحمل الصدور. واقعًا أن (ديجا) تأثرت بطفولتها لكنها كانت تتساءل عن القيم التي تقرأها أين ذهبت. أم أن الإحسان إلى الغير أصبح حالة فردية، والصداقة أصبحت مسمى لا يحمل معنى حقيقي.

كان آخر ما قرأت، "... وعن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه قالت: قدمت على أمي وهي مشركة فقلت يا رسول الله إن أمي قدمت عليّ وهي راغبة، أفأصِلُها؟ قال: «نعم صليها». متفق عليه."

استندت (ديجا) إلى الوراء، كانت من بعيد تقرأ الكلمات الأخيرة وفي رأسها مئات الأسئلة. والدتها كانت تسير في طريق غير الذي عهدته طيلة حياتها. خرجت من عباءة والدها الجهنمية إلى درب مظلم تملأه

الحفر. هكذا ظنت (ديجا) وهي تفرك رأسها بقسوة، وتضع الآيباد جانبًا بعد أن أفهمها أن الطرق الوعرة لا تنتهي.

وطرق الباب!!

"نورينا!!!،" ولكنها لم تكن تنادي.

تمتمت (ديجا)، "أنا... أنا!! طيب، أنا هروح الميعاد."

****

" 08 "
قراطيس

في الدنيا الهلامية الغوغائية، في عقل يشبه الأسلاك المتشابكة، بين الظلال المكوّمة في الردهات، برغم شروق الشمس كان يسير. عينه سوداء، تغرق في بياض ناصع، غائرة حائرة، وتجاعيد وجه أملس، يعبس بوضوح ولا يعبس حقيقة.

صوت يناديه، يهرع إليه، يدعوه باسمه، لا يسمع ولا يستجيب.

"سعادة القمص... سعادة القمص نجيب رسول."

"هاه!!" بالكاد وبعد محاولات التفت إليه لما وصل إلى كتفه وشعر بأصابعه.

كان في حلقه الكلام لكنه لم يستطع الكلام، ربما لأن عقله متخم عن آخره بالأفكار. أفكار كانت ترسم الحيرة جلية على ملامح وجهه المستطيل، لما رأى شابًا مليح الوجه، أمهق، لم يناهز الثلاثين من عمره بعد، كان يهرع إليه ويحمل في يده رسالة مختومة وموصدة بخاتم الكنيسة الداخلي.

رئيس الشمامسة، الأرشيدياكون، يرتدي (التونية) البيضاء، والتونية هي كلمة مشتقة من كلمة (تونيكا) اللاتينية أو الاسم الدارج لها، (كولوبيون)، ومنها جاءت كلمة (جلابية) باللغة العربية، والكولوبيون هي التونية، ولكن بأكمام قصيرة مُثبّتة فيها، بينما أكمام التونية طويلة يمكن تركيبها أو فصلها من التونية.

ذلك بالإضافة إلى البطرشيل الأحمر، وهو تعريب للكلمة اليونانية إبتراشيليون أو كما يُعرف بالأوراريون أو الزنّار، وهو رداء يُعلَّق في العنق بفتحة في أعلاه، يتدلّى بعرض الصدر ومن الأمام حتى إلى القدمين، وقليلًا من الخلف، ويُزيَّن بالصلبان، وهو يُسمى حاليًا بالصدرة، أي ما يُلبس على الصدر.

هو الذي كان يسرع الخطوات خلف القمص (نجيب رسول)، الملتحف بفرجيته السوداء من دون عمامة، والمطرزة بخيوط ذهبية على شكل الصليب على أكمامها، يعلق صليبًا كبيرًا على صدره، ويمسك بالأوراق والكتيبات في يد تتقدم ذراعًا يخفي الوشم.

تنهد رئيس الشمامسة الشاب، كان قد لحق بـ (نجيب رسول)، تنفس مليًا، طرد الإجهاد من على وجهه ثم أعطاه الرسالة.

أمسك (نجيب رسول) بالرسالة في يده، متعجبًا، رسالة قديمة تشبه القراطيس العتيقة التي كانت الكنيسة تكتب عليها قديمًا. كان لا يزال حائرًا تائهًا على الرغم من أنفاسه المنتظمة، بينه وبين الشاب نفس الاستفسار.

هز (نجيب رسول) رأسه وأجفل مرتين من دون أن ينطق بكلمة، فقال له رئيس الشمامسة بتسرع، "في رعاية الرب،" وكان يهم بالرحيل، فليلة مليئة بالتحضير وليلة الغد ليلة العيد، وعليه من التجهيزات والترتيبات ما يفوق أحمال ظهره، لعل أولها برامون العيد وعشيته، وابصالية واطس | لحن فاطوس (العُلّيقة)، والتي عليه أن يتمم استعداده لها إلى جوار طقوس

متعددة للقداس الإلهي، هذا بالإضافة إلى اعتلاء البابا لقداس الليلة، وزيارة الرئيس المؤقت للبلاد والمزمع حدوثه بعد ساعات.

كانت الكنيسة كلها في حالة من الاستعداد والتحضير لعيد الغطاس، عيد الظهور الإلهي، حين بدأ (المسيح) التبليغ عن رسالته بعمر الثلاثين، قادمًا إلى نهر الأردن، النهر المقدس حيث كان (يوحنّا المعمدان) يعمّد اليهود ليطهرهم بالماء بكلمات يرددها لهم: "توبوا فقد اقترب ملكوت الله."

أتى (يسوع المسيح) وقال له "عمّدني،" فأجابه (يوحنّا)، "أنا أحتاج إلى التعمد منك لأنك بدون خطيئة،" فقال له (يسوع) بعدها، "دع الآن، علينا أن نتمم كلّ برٍّ."

فتعمّد (يسوع) من توه بدون الحاجة للتعمّد لأنه بدون خطيئة، ولمّا صعد (يسوع) سمع صوتًا كصوت الرعد من السماء يقصف، ويقول، "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت،" فظهرت الروح القدس بصورة حمامة بيضاء نورانية ترفرف فوق الماء.

وقت أن وقف (نجيب رسول)، ليس ببعيد عن اللوحات المستقرة على الجدران أو المرسومة على الزجاج، ارتابته الهواجس، شعر بغصة خانقة، شعر وكأن رداءه يشقّ عنقه. حين بدأ في فتح الرسالة، كان قد امتعض قليلًا. ليلة العيد وربما في ليلة العيد تكون المسامحة أكبر من الأيام الأخرى ، كان قد تنشق الهواء، وبدأ في ترديد الكلام بلا صوت:

"القمص نجيب رسول،

سلام من الرب، وتحية من يسوع المسيح بعيده المجيد، عيد التعميد المبارك. يرجي القدوم في الوقت والساعة إلى غرفة المجلس العليوية.

في رعاية الرب،

الأنبا/ زكريا بيلاطس

فرك (نجيب رسول) الرسالة في يده وتمتم، "المجلس التأديبي!"

"وقت انعقاده غريب! يا ترى ليه؟"

"وكمان الطريقة غريبة، كان ممكن الأنبا زكريا يكلمني مباشرة."

الكاتدرائية المرقسية بالعباسية – كاتدرائية الأقباط الأرثوذوكس. ليس من وقت قريب، مر (نجيب رسول) من الدهاليز العنقودية المقوسة، في طريقه إلى البهو الأبيض الكبير، إلى المذبح، إلى غرف الغفران، وإلى مكتبته، ليس حتى اقتنصه رئيس الشمامسة، فاضطر لتغيير وجهته صاعدًا على الدرجات الرخامية.

حين أتي الممر الصامت، ووقف أمام الباب الخشبي يلتقط ما تبعثر من أفكاره، رتب هندامه، شحذ عينه، تفس مليًا ثم دلف مسرعًا.

على أضواء أزواج من الشمعدان المصنوع على شكل الصليب، أضواء تنتشر في أرجاء الغرفة التي تشبه المسرح الصغير، تصبغها بتموجات خفيفة، غرفة ستائرها القرمزية مُسدلة على النوافذ. على جانبها مذبح صغير وعليه

العشرات من الشموع المشتعلة من خلف مسند موضوع عليه الكتاب المقدس، من أسفل إطار كبير يحمل صورة المسيح وأمه العذراء. محراب يشبه محاريب التعبد، هي غرفة ومكان تفكر الأنبا (زكريا).

وقف (نجيب رسول) أمام عتبة عليها طاولة مستطيلة تقارب المترين، يجلس عليها رجل أشيب، له ذقن بيضاء، يلتحف بتونية عليها صليب ذهبي كبير علي الصدر لكي يتذكر خطاياه، وصليب آخر على الظهر إشارة إلى أنه يحمل خطايا الناس، وصدرة، أكمام، بُرنس وطيلسانة، فقد كان مستعدًا ليلة العيد. على عكس الشخصين القابعين عن يمينه وعن يساره، بلحيتهما الخفيفة، كانا يرتديان فرجية وعمامة أسودتين بخلاف الأنبا، مثلهما مثل (نجيب رسول).

أول ما تكلم، تكلم الأنبا (زكريا) بنبرة رقيقة، وقال، "تعال يا نجيب،" وأشار بيده إلى الكرسي الكائن أسفل عتبة الطاولة، كرسي وحيد يُنصّف الطاولة.

جلس (نجيب رسول) بعد أن رفع ثم أسدل ملابسه، وكان لا يزال محتارًا من أسباب ذلك الاجتماع الغير مألوف موعده.

تكلم الأنبا، "بالتأكيد تعرف القمص يوسف يونان من طرف الكنيسة المرقسية في الإسكندرية، والقس إبراهيم اسحق متى زميلك وراعي الرب هنا."

أشاح (نجيب رسول) بنظره موافقًا وانتظر بقية الحديث.

كان الأنبا هادئا جدًا وكان يُنهنه كثيرًا، ربما من اختيار كلماته، غير أنه كان يرمق

كل نظرة تصدر عن (نجيب رسول) وكانت عينه قوية متفحصة.

بعد أن توترت الأجواء، تكلم، "شوف يا نجيب المجلس ده مش مجلس تحقيق وعقاب، ولا تشكيك أو تخوين، حتى بعد التجاوزات اللي صدرت منك."

قال (نجيب رسول)، "أي تجاوزات نيافتك؟" وكان برغم اضطرابه ساكنًا.

أشار الأنبا إلى القس (إبراهيم) وكان يحمل صحيفة في يده، وبعد أن وضع نظارته الطبية، تكلم، "شوف يا قمص نجيب..."

"من واجبات القمص القضاء بين المؤمنين في المنازعات اللي تصدر بينهم..."

"... أحد عطايا الخدمة الكهنوتية."

تحيّر (نجيب رسول) من كلامه يعرفه وأطرق سمعه.

"القراطيس دي تحمل تصريحات لا تتناسب مع الكنيسة، قمت بها سيادتك في بعض وسائل الإعلام والجرائد الغير رسمية، صدر منها وبالأخص في برنامج إذاعي خاص اسمه 10 ثواني لمذيعة شابة مسيحية اسمها ديجا منير، هذكر بعضها عشان تتأكد بنفسك..."

نحنحة لينفك انسداد الحلق، "حضرتك قلت: المسلمون يقولون إنهم وحدهم يحتكرون الجنة وأن غيرهم من غير المسلمين سيدخلون النار، كيف سيدخلون الجنة وهم يسبون عذراءنا وهم يقتلون أبناءنا؟ أيعتقدون أننا ننسي؟ ... إلى آخره..."

أسدل القس ورقة ثم قرأ التالية، "الأديرة دور العبادة، لا الدولة ولا الجهات الأمنية

أيًا كانت تبعيتها لها أن تتدخل في شئونها، الحق الوحيد هو للكنيسة،" وهنا سعل القس الآخر، ونظرة من (نجيب رسول) مليئة بالتفكير.

ورقة أخرى، "مع اختلاف الآراء، يجب الحكم بإعدام من اعتلوا السلطة وقتلوا من الشباب الآلاف. هم مجرمون وإن كان القضاء سيحكم بغير ذلك فهو مُسيّس ولا عزاء له."

امتعض (نجيب رسول) ولم يُعلّق، لكنه كان مغتاظًا، كانت النظرات المتبادلة بينه وبين القمص الآخر، القمص (يوسف يونان) لا تقارن. كانت هناك شرارات حانقة بينهما.

أشار الأنبا إلى القس بالتوقف، وتكلم، "وفقًا للشريعة الإسلامية، المسيحيون هم أقرب الناس مودة للمسلمين، وتكلم القرآن في تعبدهم وعدم استكبارهم، حين قال: **وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (82) سورة (المائدة)**

وأكمل، "أنا لن أمنعك من التفكير، ولكن أرشدك لتقويم تفكيرك."

"أفكارك مشوشة وغير مرتبة، أخاف إنها تمتد إلى شجرة شيطانية خبيثة."

أشار القمص (يوسف) إلى الأنبا (زكريا) بأوراق أخرى، سريعًا ظهر الغضب على وجهه، وردد، "الموضوع ده مش وقته دلوقتي،" فتكلم القمص معقبًا، "لكن هو ده السبب الحقيقي لجلسة اليوم، نيافتك."

قال القس (إبراهيم) موافقًا، "كلام صحيح نيافتك. الموضوع لا يحتمل الانتظار."

قال الأنبا بعد تنهيدة ونظرة مسترسلة إلى (نجيب رسول)، "الوعظ أولًا."

صمت القساوسة عن الكلام وباشر الأنبا، **"كما تعلمون كيف كنا نعظ كل واحد منكم كالأب لأولاده ونشجعكم." (1 تس 2:11)**

"أكرز بالكلمة اعكف على ذلك في وقت مناسب وغير مناسب. وبّخ انتهر عظ بكل أناة وتعليم." (2 تي 4:2)

"والذين لهم سادة مؤمنون لا يستهينوا بهم لأنهم إخوة بل ليخدموهم أكثر لان الذين يتشاركون في الفائدة هم مؤمنون ومحبوبون. علّم وعظ بهذا." (1 تي 6:2)

ثم نظر إلى (نجيب رسول)، وقال، "ألا تسمع صوت الرب؟"

صوت الرب! إنه صوت الرب!

غمامة في عقل متحير، عقل يفكر كثيرًا بينما يحملق في ملامح الأنبا الطيبة.

(نجيب رسول)، الطفل المتوجس من ظل أبيه، والواقف أمام فراش أمه. يرى وجهها شاحبًا كأنها شبح يحتضر. كان لا يزال صغيرًا على أن يدرك أي شيء غير قيمة الأم، لذلك قبع عندها ليلة بعد ليلة. يرقب تقلباتها عن كثب، عل الساعة تأتي وتستفيق.

وجهه لم يكن حزينًا، كان وجهًا مطاطيًا كئيبًا، يرسم صورة بعد صورة، أولها مبهمة وآخرها قاسية مصمتة. قريبًا جدًا كان منها، يضع راحة يده على جبهتها المُتعرّقة.

لم تستطع لأن رأسها على الوسادة كانت تنحني منها، كانت تغمض عينها بلا أية إرادة لأنها كانت صامتة. ذلك الطرق الشديد لم يكن يصمت، كان يعلو باطراد. ألم حاد لا يفارق دماغها. نبرة لا زالت تتصدى في أذنيها. لا زالت رغم الذي مر في الماضي تتذكر. ترى أطيافًا وأناسًا يستميتون على الرحيل، وأناس ينادونها راجين ألا ترحل، أن تمكث بينهم، بنحيب صامت، بين سبات وأنين.

بعض الأشكال كانت تأتي وتختفي. لماذا يبكون؟ لا تعرف. لا زالت تسمعهم. لا زالت تسمع همسهم عنها. لا زالت ترى وجوههم التي لا تفارقها. لا زالت تشعر بيد حانية تتلمّسها وأيادٍ على وجهها لا تعرفها. ذلك ابنها وذلك شبح الموت، وذلك الذي يرتدي الثوب الأبيض يقينًا لا تعرفه ولا يفارقها.

قانعة راضية، لا تسخط ولا تغضب. برغم سكينتها لا يصمتون، لا يرحلون ولا يعلمون أنها ترى وجوههم البائسة. تسمع الطرقات الخافتة، تصيبها بالدوار، آلات ماجنة ونقرات، ألا يعلمون أنها بالكاد تتنفس؟ ألا يفقهون لغة العيون؟ ألا يعلمون أين تكون؟

أبواب كثيرة، لكنها اختارت بابًا واحدًا. تشم رائحة البحر وتسمع أمواجه. ابنة الإسكندرية لم تكن هناك، لكنها كانت ترى بوضوح. ترى بين الجموع شظاه. يمد يده يتلقفها، يحملها ويحتملها. خطوط سائرة ودنيا تصطحبها وتتكور. عيون حولها تنتظر متى ينتصر ذاك النعاس. يغلقون عليها بصرها. يعيدون الجفن المتعب إلى وضع السبات.

ألم حاد وارتجاج ثم رذاذ. هزة قلبت الأرض بمن عليها، إلا هو، رحلوا جميعًا وبقي وحده يستدير، يقف فوق الحائط، يبتسم، يتكلم إليها، "اصبرى."

"أنتِ الأمس وعدتِني،" فتتكلم وهي لا تتكلم، "أنا!"

تتعجب من حديثه، لكنها تعلم صدق كلامه. قال لها، "اسألي،" فسألت نفسها، والجواب بلا. رنة وضوء شديد، ونغمة في أذنها تسحبها بعيدًا، كأنما تخرجها من سبات عميق، إلى عالم آخر، إلى ضوء شارد ودنيا تراها تتسع، في آخرها ظلال تقترب.

همس خفيف، "هيا ارحلي،" فتُردِّد، "لا،" ويتعجب، "لا!"

لماذا يتحدثون؟ لماذا لا تراهم؟ لماذا لا تسمعهم؟

هرج ومرج وصوت مرتفع، ووقتما اقترب إليها ابنها الصغير بعد أن رحلوا جميعًا.

وحدها نائمة، لكنه جلس على الفراش إلى جوارها، يقرأ كتابًا كانت تحبه، يحاول أن يُسمِعها صوته لعلها تعود. ليلة يخشاها وتمنى لو أنها تُسرِع. كان يتكلم وكانت تُنصِت إليه، أجل تُنصِت إليه ولا تسمعه، والطفل بين سطور أقصوصة وخيال.

تكلم الطفل، "أقرأ يا ماما يا حبيبتي. إنتي هتحبي الحكاية دي أنا متأكد،" وجهه البشوش ضحك ثم عبس ثم ضحك.

اتنبه كثيرًا إلى وجهها، لا فرح ولا حزن، كانت تائهة تمامًا في الأحلام. راحة غمرتها

بعد تعب طويل. في صمتها كان يتبسم، وساد الصمت، وزاد الطرق في رأسها...

... ووقت مر...

لا زالت لا تقدر على فتح الأبواب، لكنها كانت تنفتح أمامها، بهو شاهق وغبار، وضوء قاتم وصرير، صرير يتبعه سكون. طفل صغير يجلس عند نافورة الماء، لونها أزرق، بها نثرات الورد كالمرجان. أغمض عينيه وابتسم.

هي تعرفه؟

سألت نفسها مرارًا.

يفتح كتابًا في يده، ينظر فيه، يعبس قليلًا ثم يبتسم.

شيء عجيب!

هي وحدها بعيدة عنه، هناك إلى جوار النافذة، تنظر منها فترى تلألًا وهضاباً ونجوم. نجوم تبث ضوءًا ثم إياب. تتمنى لو أنها تسبح معها. ترى عصفورًا في ظلام الليل لا يخشى من الطيران. ترفع يدها، تتخيل، تُبصِر الأوراق تتساقط على التبة، ترى العتمة.

دمعة تتقطر على راحة يدها، لا تفهمها، ولا في رغبتها السؤال. لكنها كانت تتألم، تحس الوخز في رأسها، ترى الدنيا تتسلل.

هي متعبة كثيرًا، لا تقوى على التفكير. رئتها تصعد وتهبط بلا نظام. أغمضت عينها ثم فتحتها بالكاد. كل الألوان تتمايل وتترنح، فتهوي بين الأفكار ثم تضيع، وصوت خامد حولها وكون مظلم وحدها تعيش فيه.

من يناديها؟

جواب قاطع يأتيها، "ماما أرجوكي متروحيش."

"أنا هكملك الحكاية؟"

"هي مش عاجباكي؟"

هي ترتد، هي تضعف، هي تتنهد.

عالم هي وحدها تعيشه!

رأسها تهوى على الأرض، ملقاة مثل فراشة غضة، لكنها تسمع وحاولت تبصر، بل أبصرت شيئًا.

طفل صغير، ثيابه رثة، مبعثرة رأسه، راسمًا أملًا على وجهه، يبتسم. لا تعلم لماذا يبتسم. يجلس مُسنِدًا ظهره، يقرأ من كتابه الأخضر، ممسكًا قلمًا، لم تعتقد أنه أعسر، ينظر إليها مرة ويشيح عنها مسرعًا.

مغمضة عينيها كملاك صغير. لا تريد شيئًا سوى محبة أكثر. هي الآن تتنفس في صدرها الحياة. لعلها تعود ولعلها تبقى، لكنها كانت تحلم وفي عالم آخر كانت تعيش، هناك حيث رأته، ذاك الذي أحبها، هناك حيث وهبها الزمان لحظات تمنتها. عند حافة الجرف كانت تقف إلى جواره، تمسك يدها بيده، تقبض عليها بشدة، لا تريد أن تتركه.

نظر إليها ثم قال، "إنتي لازم ترجعي."

قالت سريعًا، "لا..."

قال بحنان، "والوعد!! أنا هنتظر."

أجابته باستجداء، "بس أنا شوفت السعادة هنا."

قال لها، "ارحلى..."

قالت ثم أشارت، "هناك!" ومر سحاب فوق القمر، رسم أوراقًا تطير.

تلك الفتاة، كانت تقف عند النافذة، إلى جوارها باب مفتوح، وفي البعيد طفل صغير يضحك، يُمسِك كتابًا ويبتسم، يبتسم ويتلاشى.

ألم وطرق ثم صراخ...

شهقة صامتة، ونظرات تتفتح!

هل أفاقت؟؟؟

قالت وسمع قولها وحده، "نجيب، نجيب. أنا... أنا سمعت صوت الرب."

كانوا يركضون.....

وخز شديد في رأسها، وأناس يتمايلون ويهرعون، وأناس تصيح وآخرون ينتظرون.

صوت الرب، صوت الرب الذي كان يتصدى في عقله حينها. صغير لكن أفكاره كانت محددة ومرتبة برغم حيرتها.

ردد (نجيب رسول)، "صوت الرب!" أمام عين جاحظة تنظر إلى الأنبا وأبعد من ذلك.

نطق الأنبا،

"وفي ذلك يقول القديس بولس الرسول لتلميذه تيموثاؤس الأسقف في وجوب العدل في أمثال هذه المحاكمات: لا تقبل شكاية على كاهن (شيخ) إلا على شاهدين أو ثلاثة." (1 تي 19:5)

فكر (نجيب رسول) من بعد ما استعاد نصف وعيه تقريبًا، وكانت بصيرته مُنصبّة على صفحات كان يقرأها من الكتاب الساكن في

عقله. يريد أن يتحدث ويمتنع، وربما يتبختر بما جاء في عقله من أفكار تيقن وحده من أنها الصحيحة، والسؤال، عن شيء يتكلم ويقارن؟

المعمودية:

الأرثوذكس: سر يحصل به المعمد على نعمة الميلاد الجديد، وهو باب كل الأسرار، ويتم بالتغطيس للصغار والكبار، ومادة السر الماء.

الكاثوليك: يجوز العماد بالرش أو السكب.

البروتستانت: ليس سرًا مقدسًا بل علامة يجوز ممارستها بالرش أو التغطيس. والمعمودية التي يعترفون بها هي معمودية الروح القدس بدون ماء.

الميرون:

الأرثوذكس: سر ينال به المعمد نعمة الروح القدس ومادة السر الزيت. ويرشم به أعضاء الجسم ست وثلاثين رشمة.

الكاثوليك: مثل الأرثوذكس إلا أن ممارسته تكون في السن بين سبع واثنتي عشرة سنة.

البروتستانت: لا تؤمن به إلا بعض طوائفها ولا يتم بالزيت بل بوضع اليد.

أيتكلم في أفكاره التي تشغل عقله ومكتبته؟ أيتكلم عن أفكار أخرى؟

لعل الكلام في أفكاره كان سيجلب عليه عبئًا ثقيلًا ولذلك فضل السكوت، لكنه تكلم أخيرًا، "التصريحات دي عبارة عن دراسة كان بيقوم بيها كاتب مسلم صديق، وكانت مناقشة ما بينا في إحدى الأماكن مش أي حاجة تانية."

تكلم الأنبا مقاطعًا، "أنا عارف الكاتب وعندي نسخة من الكتاب مرسلة من الكاتب نفسه،" وأردف، "شوف يا نجيب، مصر بلدنا وحفظ البلد إيمان. مصر في حالة من الضياع ولازم نتكاتف."

"إحنا أبناءها من المسلمين والمسيحيين. في الوطن يا نجيب مفيش مسلم ولا مسيحي، مفيش غير مصري."

"البلد دي ياما وقفت جمبنا في أحلك ظروفنا واتحملتنا، واحنا لازم نرد لها الجميل."

"لو كنت عجوز زيي من الجيل القديم كنت عرفت عن إيه أنا بتكلم، مينفعش يجي يوم ونتخلى عنها بسبب أفكار العقل أو آراء البعض."

"راعي الرب يا نجيب، لا يجب إنه يتكلم في السياسة ويساعد في زعزعة المجتمع."

"كان في توجيه واتهام بالتحريض لكن الكنيسة ردت بتقويم رعاياها، والدولة في الفترة الحالية مش هتستحمل حد يتكلم خارج النطاق."

"أما إحنا، متعهدي الرب، وظيفتنا النصح والإرشاد."

"روح يا نجيب، روح لغرف الغفران ومارس العمل التقويمي."

هكذا أغلق الأنبا عينيه و(نجيب رسول) لا يزال محدقًا.

انتهى المجلس، وكما جاءوا رحلوا مارين من جوار (نجيب رسول)، تركوه وحيدًا في كرسيه، لا يزال يفكر والغضب يكتنفه. لا يزال يشعر

أن الغرفة المسرحية ضيقة عليه. كان يختنق وكان يهم بالرحيل، في الممرات كان يسير الهوينا، يهبط السلالم الحلزونية، يستند بذراع حديدية، سريعًا خطفته الهواجس ومر من خلال العابدين، القائمين على رعاية الكنيسة والمُحضّرين لليلة العيد، في مخيلته لا يرى شيئًا غير صاحب تلك النبرة الشبحية، تلك التي كانت تتشح من وراء الستار، حيث جلس في غرفة من غرف الغفران الخشبية، أناخ جسده، وسند رأسه للوراء.

ستارة وأسلاك وضربة واحدة على الخشب من الهياج.

"ديجا منير!" بغيظ ردد في جوفه.

"تمام،" صوت من الجهة المقابلة.

****

" 09 "
حياة الآخرة

تسابيح الفجر! لا زالت صفحة السماء مكفهرة معتمة، ألا إنها لكبيرة على النائمين الحالمين، السابحين في أمواج الموت، ترحل فيه الروح بإذن القدير، لتذهب أينما تذهب، إلى عالم لا يفطنه عقل ولا خطر في رؤوس الجان، وتعود أدراجها بقدرٍ لمن يشاء. في عتمتهم يضطجعون، على أسِرّة من لمح البصر، دقائق معدودات وفي الأصل ساعات، ومن يطوي الوقت سوى من بمقدوره أن يُميت من عاش ويُحي من مات.

طيور تصيح بالتوحيد، تدعو راجية أن تزول الغمامات، غمام لم يكن يُبشّر بقدوم النهار بعد سطوة الليل. لا تزال السُحُب القانية تزحف فوق القبور، حشود تظلل الموتى عن خيالات الآدميين. هي حياة الآخرة، حياة أناس تركوا سبل التمدن وقرروا المعيشة بين القبور. أناس لم يملكوا خيار الحياة بين البشر، فقرروا التعايش بين الأموات. عند حواف أودية الموت كانوا يتمنون الحياة، يدفعون أنفسهم ثمنًا لذلك.

لم تعد الوجوه تعجب وقتما ترى الأضرحة تتراص في الأحواش المحاطة بالأبواب المغلقة، أبواب بداخلها أرواح لم تفارق الدنيا. يرتعدون ليلًا من الحكايات التي لا تفارق خيالهم المجهد من العيش في صناديق جدارية مغلقة، وصباحًا يُكملون حياتهم الاعتيادية بلا خوف، وكأنهم أخذوا المواثيق

بينهم وبين الأموات على أن يتقاسموا الواقع المرير والآخرة المبهمة.

هي حياة الآخرة التي لا تعرف إن كان الموتى يعودون فيها إلى الحياة أم يذهب الأحياء بها في رحلة الموت.

كل البيوت كانت مظلمة عدا بيت يتيم كان يُضيء بمصباح ينتفض من برودة الليل رغم بريقه الأصفر المتوهج. بداخله التف رجل عجوز ناحية الطاولة. كان يسمع التهاليل الأولي لآذان الفجر وهي تصدح في أروقة القلوب، كل القلوب غير تلك التي خشعت لسلطان النوم وغطت بلا إرادة في سباته العميق. صوت لم يكن يميزه لكنه اعتاد الانصات إليه مع بداية كل يوم جديد.

وقتها كان يغلي الحليب في إناء بلا مقبض ويُحضِر من بين لفافة القماش كسراتٍ من الخبز الجاف. كانت حوافره مُثبّتة أمام الطاولة، أمام العين الملتهبة بالنار والحليب الذي يغلي باطراد. ألسنة اللهب كانت تحرق أنفاسه بين تلك الأضلع الضيقة، كما كانت تبتلع تلك الصورة القديمة المعلقة على الحائط، وتأكل الأمل في عينيه السوداوتين.

صورة قديمة كان يتخشب أمامها لسيدة وجهها كالبدر المُضيء، تلتحف بعباءة رمادية، مطرزة بخيوط بيضاء. كانت ترسم ابتسامة شديدة الحزن وكان يقف أمامها ويتمتم بالكلمات وفي قلبه اطمئنان غريب.

بأطراف أصابعه المُخشّبة، والتي تكاد تلفظ العروق منها، مسح على الصورة، ودمعة تكاد تفر منه لما حاول أن يتكلم ولا يستطيع.

يُعيد الكرّة مرارًا ولا يقدر، ربما لأنه لم يجد في روحه ما يُحدّثها به. كانت عينه تدمع، لا يرى الدموع لأنها تأبى النزول. كان قلبه ينبض، ولا يسمع لأنينه سوى عزفٍ متألمًا من الفراق.

تأوه العجوز وأحنى رأسه أمامها، وهو يُردّد، "وحشتيني قوي..." كان لحديثه بقية.

دمعة العين لم تكن السكينة التي تمناها، بل كانت دموعه تتوغل في أعماق قلبه فتحرقه قبل أن تلهب ما بين جفنيه. دمعة العين هي التي أجبرته على أن يكتفي بصورة مشرقة في عين مغلقة. لقد تشابكت خيوط العمر وكثرت عُقدها. هو اليوم ذلك الرجل العجوز الذي يبست عزيمته قبل أن ينضب ترياق حياته، ترياق استنزف قطراته في لحظات يضن بها العمر قبل حتى أن يعيش.

ابتأس العجوز وعقد ما بين حاجبيه من الكرب. قال ورأسه محنية من مزيج من أوجاع الدهر والخجل، "يا ريت تسامحيني..." تأويهة يظن بها أن الأسف بلا معنى، ذلك ولأنه أكمل حديثه تمامًا كما كان يحدثها قديمًا. كان يشعر أنها تحوم في أروقة البيت كما اعتاد أن يراها، لا تُفارق ظله ولا يفارق ظلها مهما ابتعدا.

"تعرفي،" وانتظر الرد منها، من السيدة التي تختبئ فيما وراء الصور القديمة حتى أكمل، "أكيد هنتقابل قريب. أنا حاسس بكدة،" ولكنه سرعان ما عاد إلى نظرته الحزينة.

قال العجوز، "أنا عارف إن حتى ساعتها مش هتسامحيني برضو."

"هتسامحيني إزاي بعد اللي عملته فيكي."

"إنتي العدرا الطاهرة،" وأصابعه تسمح على عباءتها، هي صورة العذراء، لكنه كان ينظر إلى أبعد ما تراه عينه. كان ينظر إلى فتاة تزين إطار الصورة ببسمتها. كان يشعر بدفء غريب، طمأنينة لا يعرفها، روح تشوبها الخوف، طيور تغرد في ملكوت آخر، حيث لا حزن ولا فتور، حيث لا انكسار ولا وجع أمام تلك البحور، بحور بلا شطآن أمام شمس بلا حر ولا عرق. ألا في قلبه لحظة لا يود أن يفارقها، ألا إنها لحظة الوداع.

تكلم العجوز وجسده المتآكل ينتفض بينما ترتعش يده بوضوح، "أنا متأكد إنك في دنيا تانية أفضل من حياتنا. حياتنا بقت صعبة قوي، طعمها ولا العلقم."

"صابرين؟"

"آه، صابرين كتير. صابرين على المر لغاية ما الغرغرة تصيبنا."

"بس إنتي عرفتي إزاي؟"

"لأ، متقوليش كدة. أنا... أنا مش خايف."

انزوى العجوز على نفسه شيئًا هيّنًا. من خلفه مر ظل يكاد يلامس الأرض. كان يجر قدمه بصوت لا يُسمع، ينظر إلى الرجل العجوز بعين واحدة مُدوّرة، نظرة تحمل الكثير من الحب والغضب والخوف. لم يتكلم أحدهما إلى الآخر منذ وقت ليس بالقصير، إلا أن أحدهما لم يكن يريد الكلام، بل الانتظار، ورغم أنه مد ذراعه إليه، إلا أنه لم يُرد أن يخرجه من حالة الشجن التي اتسم بها.

رجل عجوز وصورة وحيدة يتبادلان فيما بينهما الأحاديث كل ليلة عند نهاية الليل.

لم يكن يعرف من صاحبة تلك الصورة، صاحبة تلك الهالة النورانية، ليس حتى اعتادت قدماه الترجل في أزقة القاهرة. لم يُسمح له سابقًا، لكن هناك، لمح بعض المحال التي تتزين بوجه تلك السيدة الصبوح. دائمًا ما يقف أمامها متحيرًا، متعجبًا من ذلك الطفل الصغير، ولما كان يتعجب من حديث العجوز إلى تلك الصورة، كان يتعجب أكثر من الرجل الذي جف جسده حتى أصبح نحيلًا لا يقوى على الحراك.

أين ذهبت عافيته؟

كان يقف محنيًا من وراء الجدار، يُراقب عن كثب كل حركة من حركاته، يختبئ خلف جدار من الصمت والسكون، حتى أنفاسه كان يُخفيها. أمامه كان يتكلم.

أسهب العجوز، "بس تفتكري، حتى في الآخرة مفيش مسامحة؟"

"زي ما إنتي شايفة، الزمن جار عليا، عجّزت. بقيت مهكع زي ما كنتي بتقولي."

"العود الأخضر يبس. مبقتش قادر أصلبه."

"لو كان بس تقدري تردّي عليّا زي زمان."

"إنتي بتعرفي تقولي الكلام المظبوط."

"إنتي ليه مبترديش عليّا؟"

"خايفة من مين؟ خايفة منها؟ خايفة تسمعنا؟"

"لأ، أمنا لا يمكن تغضب علينا، لا يمكن تعاتبنا، لا يمكن توجعنا، إحنا أولادها!"

وقتما ظن أن الصمت سيعيد إجابة سؤاله، لم يأتِ إليه سوى الفراغ الذي يتسع في صدره. لعله يمسح تلك الصورة القديمة بقماشة فيجلي عنها القذارة، ولكن من يُجلي عنه قذارة الماضي؟ حاول مرارًا أن يُنظفها بطرف جلبابه، إلا أن محاولاته لم تأت بجديد، ظلت كما هي، كما اعتاد أن يراها، كما اعتادت عيناه أن تراها، حتى أنه حملها ووضعها من دون قصد في نفس المكان. كان يظن أنه قد رفعها إلى موقع أعلى، إلى حيث سيبصرها برويّة ويقين.

لما أتى، تلك العظام المقوّسة، انتصب العجوز في وقفته في اختلاجة سريعة. كان جلده المترهل ينتفض ربما خوفًا. لم يحسب لقاء الدموع التي أشاحها بلباسه المتسخ، حتى زعق بصوت متوجس، "عابد!"

(عابد)، المُتصلّب، المعقوف، غض نظره وألقى مقلتيه ناحية الأرض، بينما تطرقت أذناه ناحيته خشية الفجاءة. اقشعر الرجل العجوز واستقبل شعر رأسه الخفيف شحنات من الكهرباء من الجو. فيما بينهما توضع الأذرع مسافة لا تقل.

بشيء من السخط تمتم العجوز في محاولة إنقاذ ما تبقي من الحليب المسكوب بعد فورانه، ليصبه في الكوب الحديدي، يضربه على الطاولة ثم يبتعد، وهو يُغمغِم، "اشرب اللبن بتاعك يا عابد،" نظرته لم تكن إليه، "النهاردة هيبقى يوم طويل، في دفنة جاية من بعيد ولازم نحضر ليها."

مكملًا لمّا استدار، "بعد ما نخلص هتييجي معايا الكنيسة. النهاردة ليلة البكارة يا

عابد وبكرة يوم العيد، تعرف يعني إيه يوم العيد؟"

(عابد) كان منخاره يسيل بغزارة. كانت الرعشة في عينه اليسرى ترسم تساؤلات كثيرة. كان يقترب من الرجل العجوز حتى صارت المسافة بينهما ذراعًا واحدًا، والرجل العجوز يناقضه فيبتعد حتى تتسع الهوة بينهما مُتحجّجًا بالوقوف أمام الصورة القديمة والتبرك بها وبكل ما تحمل من ذكريات.

"تعالى يا عابد،" نادى العجوز برفق.

"عايزك تقف قدام صورة الغالية،" وأشار إلى الإطار المتربع على الطاولة.

"النهاردة ليلة من ليالي الرب."

"كلمها يا بني."

"سمعها صوتك."

"هي أكيد هتسمعك وتفهمك، أكيد هتحس بيك أكتر مني."

لما حاول الرجل العجوز أن يُمسِك يد (عابد)، تردد. كان يخشى عاقبة فعله المتسرع، وربما كان يخشى ردود أفعاله الغير متوقعة. ليس بالشيء الجديد، فقد كان (عابد) يحملق بنفس النظرة المستعرة، تلك النظرة التي يغمض فيها عينه اليمنى شيئًا قليلًا وكأنه يصب جل اهتمامه على شيء واحد بلقطات مستمرة لم تقطعها ترجّل الرجل العجوز، ولا تباشير الفجر التي كانت تصدح من وراء جدران المنزل.

أضواء الإله كانت تشق عتمة القلب في ليل دامس، ومضات تتأرجح ما بين أضلع جوفاء

وأصوات تتردد من فم مغلق. لعله كان يكلمها، لعله كان يحكيها الحكايات ولعله كان يسألها، من يدري؟

مكث (عابد) على حالته وقتًا طويلًا. لم يحاول الرجل العجوز أن يُخرجه منها، بل ظن الرجل العجوز أنها الطريقة المثلى ليُرشِد الصغير الواقع في كنفه إلى طريق الراحة الأبدية، ليعلمه من تكون وكيف كانت. ربما يحمل سكوته استيعابًا أكبر من قدراته.

كان يحبه، يحبه برغم انحاء عظامه، برغم رائحته المقيئة، بالرغم من فظاظة نظراته. كان يحبه لأنه يحمل عبقًا يفوح من زمن آخر. كان يحبه لأنه يرى في مقلتيه نفس نيران العذاب التي لا تسكن. محبة لا تبتعد كثيرًا عن الكراهية.

طرقات الباب وصوت ينادي لم يسمعه (عابد). لم يكن شخصًا أصمًا، لكنه ظل مُتسمّرًا أمام صورة السيدة البشوش، يناجيها ويحاورها بلا كلمات. لا يكلمها ولا يساومها، وإنما ينتظر مجيئها برسالات السلام، ومن يعلم ما تحمل قنينة بين أمواج البحر المتلاطم؟

الرجل العجوز هو الذي فزع من دهشته وهب مسرعًا ليقبض على طرف الباب، لتختفي ملامحه عن (عابد) إلا أن قدمه كانت لا تزال تهتز. ذلك الوهن الذي كان يراه (عابد) مثيرًا للأعصاب، يستثير حتى أنامله المتصلبة.

لم يكن صوت العجوز من بدأ، "ريس طلبة، السلام..."

نبرة جافة طرقت أذني (عابد)، نبرة قاسية من صوت جلْف.

"ريس طلبة، أنا جاي عشان أقولك حاجة مهـ..."

"بخصوص عـ..."

غير أنه لم يسمع شيئًا سواها، حيث استدار الرجل العجوز، الريس (طلبة)، إلى جوار الباب ورجل لا تظهر هيئته أو ملامحه، فقط طرف عباءة فضفاضة، وحذاء يشبه الخُف، يتحدثان برويـة سرعان ما احتدت، لوقت قليل ثم سكنت بطريقة ما حتى صارت سلامًا.

كان (عابد) يراقب على انعكاس ضوء المصباح وزجاج الصورة بشيء من التركيز، حتى أنه نسي كوب الحليب الذي كان يتقطر على قدمه، بل وانسكب نصف ما كان فيه. على درب زائري الفجر كان (عابد) يتلصص، لا ليسمع أحاديثهم التي كانت فحواها تصب على العفاريت والجن، أو النساء أو حكايات غابرة من عصر سالف، بل عن الأسرار التي لا تتكشف إلى تحت ستار الليل.

وقتما كان الريس (طلبة) يتكلم مع الرجل المبهم، كان (عابد) يرمق الصورة القديمة بغضب. أنفاسه المتأججة تتزايد باطراد. كان يرى أقدامًا عارية تسير على التراب. أقدام تسوقه من خلفها، فلا يملك السيطرة على تلك الرغبة التي تدفع أنفاسه كي يقترب إليها. نيران تحترق بلا رماد، غير أنه كلما حاول الاقتراب، لا يستطيع.

بطريقة ما كانت تتملص من بين يديه فتزيد صدره احتراقًا. احتراق في عينيه، وبريق على زجاج الإطار، الذي يحمل الصورة القديمة، بريق يحمل مشهدًا للريس (طلبة)

وهو يطرق بطرف أصابعه على الباب، ويوصده بعنفوان.

نفس ذات الرغبة التي دفعت (عابد) كي يبتعد متى تيقن أنه لن يصل إليها، تلك الأقدام العارية التي تأرجحت مسرعة إلى غرفته. وقتما كانت الألوان تتمايل على أنغام هو وحسب يسمعها، كان يبتسم.

انحناءة ما بين شفتيه وكأنما عض عليهما من الغيظ، ولكنه كان يبتسم.

كان يبتسم لأنه وقف أمام سريره وهو يرى الأقدام العارية تسبح أسفل فراشه، تختبئ مسرعة من أسفل وسادته الممزقة.

همجية واحتقان، همجية أصابت الريس (طلبة) بحالة من الجنون، ليجوب المنزل كالثور الهائج بحثًا عن هدف يضعه صوب قرنيه. انتفاخ أوداجه وبروز العروق في جبينه يضغط على دماغه حتى ظن أنها ستنفجر. لم يكن يستطيع السيطرة على نفسه. كان يتأفف ويُهمهم، يتمتم بالكلمات المبهمة بلا توقف.

عادت السماء لتخبر الناس بموعد الفجر، واعتلى مؤذن أطراف السماء، مُكبّرًا، مُناديًا، نداءً تَمخّضَ في سرائر النوم بالسجود على بساط الصلاة. وقتها كان (عابد) يغمض عينيه ويستمع بشيء من السكينة. كان يحلم بذلك الصوت الشجي ويتعلم من معانيه، حيث تسري فيه الأحرف مجرى الدم، لا يُبعِده عنها إنس ولا جان، ولا الشيطان الذي جاب الطرقات بأغطية يُلقيها على الرؤوس، رؤوس خنعت لسحر الراحة ونامت عن الاجتهاد.

اجتهاد النفس صعب على من لا يحاول، من حاول أن يضرب رأسه في الحائط ولم تُخفِّف من ذلك الرنين. لهث الريس (طلبة) والعواء لا يزال ينضح في جسده، لا يشعر بما فيه، لا يشعر بيده، تنهال على جسد (عابد) بطرف الحزام. (عابد)، الذي كان يجثو بلا مقاومة، يشبك كلتا يديه ويستند على حد السرير. لسعة تعلو ثم تنهال كالمطرقة، لا تحوشها عن جسده ملابسه الرثة، ولم يتحوّش عنه الريس (طلبة) ولم يكترث، ولم يسمع.

تنهد (عابد) وحاول جاهدًا الجلوس، بينما يمد ذراعه لما وراء الوسادة كان يتألم، لكنه كان يبتسم. لا يدري ما سر شغفه بما يحمل، مذياعه القديم، حتى أنه أخفاه عن الريس (طلبة) خشية أن يأخذه منه. يأخذه من بين أصابعه التي كانت تُقلّب الترس الصغير فتتغير الأصوات. لا يدري أي صوت ذلك وما هي تلك الألحان، وقتما كان يُغمِض عينيه ليُنصِت.

روح مُتعبة ترك لها المجال كي تسبح مع سطور الخيال، سحر لا يقوي على مقاومته. إلى هناك كل ليلة كان يسير، إلى حيث لن يعثر عليه بشر. حيث لن يحتاج إلى تبرير سبله أو صمت كلماته. حيث لن يري نظرة الناس المشمئزة من مظهره السقيم.

امتعاضة على وجهه وقت أن خفت الصوت وكاد أن يسكت.

And here we are continuing to listen to Mozart – Lacrimosa and the final for the evening.

لتعود النغمات مرة أخري ويعود ليطرح نبضات قلبه خارج أقفاص صدره الضيق، يتلوى بطرف جفنين يتآلفان ويصنعان لحنًا خاصًا بهما.

لم يكن يحلم ولم يكن يسمع، كان يُنصت. كان يقبض على مذياعه القديم.

وقت أن طرق الباب، لم يكن طرقًا عاديًا. كان طرقًا يتميز بالغضب. وقت أن كان ينصت إلى ألحانه الخافتة في عقله، هو وحسب يسمعها وكأنها تصدح بوضوح بين جدران غرفته، وقت أن كانت السماء تبتهل بتكبيرات الآذان. كان الوقت يمر بطيئًا على من تيقظ ولامست أصابعه برودة البلاط، من سعى إلى الصلاة مُلبّيًا أو سعى إلى الحقل مُناديًا بالرحمات من السماء، أو من سعى إلى ليلة العيد المجيد مُسلّمًا أمانيه إلى سلطة أعلى من سائر البشر.

أناس تغشاهم الملائكة وأناس يعيشون في الجحيم، تنفث مناخرهم نيران الكراهية العمياء، فمن يحب ومن يكره؟ ومن يتعلم ومن يُعادي؟ رجل عجوز وأكتع موسوم بالعار، فيما بينهما حبل من السماء ملوث بالدماء. حبل كلما غسلته قطرات المحبة، يعود فيتلوث من جديد.

طرف الحزام، ضرب المذياع، وانتفض (عابد) عدى أنه لم يبرح مكانه.

سقط من يده مذياعه القديم، فالتوى ليحميه من ضربات الريس (طلبة)، بكل ما أوتي من قوة تقوقع عليه حتى أحتضنه مرة أخرى بين ذراعيه.

(عابد) لم يبك، لم يدمع ولم يئن. كان يترقب انتهاء آذان الفجر. كان يُنصِت بكل ذرة في قلبه، كان يدرك أن سياط الألم ستتوقف وقت أن يتوقف الرجل الذي يتهلل بالنداء.

فتوقفت اليد!!

وكأنها شُلّت...

****

" 10 "
فتاة نص الليل

تناثر الغبار أمام أنوار السيارة المرسيدس السوداء في ظلام الليل، يتبعها أسطول من السيارات الجيب المظللة نوافذها. رجال كألواح الدواليب فزعوا ذهابًا وإيابًا، صانعين فيما بينهم مربعًا محكمًا، لا يدخل إليه الذباب.

واحد منهم كبنية الغوريلا، تكاد سترته تتمزق من بروز عضلاته التي حُشِرت بصعوبة جمة، ترجل في هدوء إلى سيارة المرسيدس ليفتح الباب، غير أنه قبل أن يفتح الباب تلفّت يمينًا وشِمالًا، ومسح الممر بعينين مسوّدتين من خلف نظارته الراي بان. بعد أن هدأت سريرته نحو الطقس من حوله، باشر في فتح باب السيارة.

"حمد الله على السلامة يا فندم،" هكذا قال بصوت أجوف، شديد الجفاء، لا يحمل أي شعور من الفرحة أو الضيق. مثل صخرة وضعت بين الجليد، كان يتنفس أنفاسًا باردة، تخرج كنيران من بين أضلع صدره المُتّسِع.

حذاء أسود له قمة مدببة طرق على بلاط الإنترلوك طرقتين. في شموخ انتصب واقفًا في بزته البيضاء أمام الغوريلا لينقصه ببضعة إنشات قليلة. كان يتأفف من الضيق باستمرار، كانت عينه تجوب نواحي المكان بينما ساد في حضوره صمت مُطبق. أعين حازمة كانت تنظر إلى أقصى ما يصل إليه حد البصر.

ولا الغوريلا نفسه كان ينظر في نطاق عين سيده، فقط ليتعالى رنين هاتفه الجوال، فيتضايق، غير أنه أخرج الجوال من جيبه بقبضة تكاد تكسره إلى نصفين، وبكل هدوء تكلم بعد أن أطبق جفنيه على مقلتيه، وبرق بعينه المارونية في ضوء المصباح، الذي بالكاد عكس السيجار بين أصابع يده اليسرى.

صوته الجارف، "ألو...!!"

نبرة حادة وغليظة من الناحية الأخرى كانت تقول، "أفتكر إنك وصلت بالسلامة. كانت رحلة موفقة؟" ابتسم شيئًا ما ثم قال، "متقلقش، كل حاجة تمت وتحت السيطرة."

"أنا متأكد من ده، معنديش أي شك،" وأتبع، "مصر دايمًا مُهدّدة. الأيام دي العين عليها من كل ناحية."

"أكيد، بس يا باشا، ملفاتهم كلها عندنا. مفيش أي خوف على المدى الطويل."

دخان السيجار يتوهج، خاتم عملاق في الإصبع وسوار لامع، نفس عميق وزفير صارخ كأنه يتكلم، "حتى لو الأوباش بيصطادوا في المايه العِكرة، إحنا راصدينهم كويس وبنعرف نختار اللي يبقوا في صفنا ويخدمونا."

ضحكة مُبرّرة أتت مواجهة للجملة الأخيرة. كانت همهمة غير واضحة وكأنها تفكير في الكلمات التي ستُقال، "أجهزة الدولة مش هتسمح لمصر إنها تقع. النظام السياسي لازم يفضل صامد."

"سيادتك، الثورة اللي بيقولوا عليها حصلت والضربة اللي جات اتردّت."

"أعتقد إن الطريق بقت مُعبّدة عشان نبني بلدنا من تاني بالصورة اللي شافينها سليمة."
"يا فندم، اسمحلي أقولك إن الخطر لسه موجود."
"شاكك في حاجة معينة؟"
"إحنا دايما في حالة من الشك يا باشا، لو مشكّيناش يبقى منشتغلش أحسن."
"عفارم عليك..."
"يا باشا، أنا مش عايزك تقلق خالص. مفيش سبب للقلق أصلًا. الرجالة بتوعنا جاهزين وعلى أتم إستعداد في أي لحظة، وكل الترتيبات والإجراءات تمت خلاص، ماشين على الخطة اللي حضرتك حاطِطها، وعلى مسئوليتي، الراجل بتاعنا هيقوم بالمهمة بالمظبوط."
"منير... أنا عارف إنك قدّها ومعنديش شك في قدراتك... على العموم، بكرة عايزك تجيلي المكتب عشان نرصد آخر التطورات. لازم نكون جاهزين لأي فعل برد فعل أقوى منه."
"هتلاقيني عندك في الميعاد."
"تمام، خد وقتك وريّح النهاردة."
بضحكة ساخرة، "ومن إمتى اللي زينا ليه راحة يا فندم؟"
ضحكة أكثر غموضًا، "هه هه هه، منتظرك بكرة."
كليك - انطفأت شاشة الجوال ليعيده إلى جيبه مرة أخرى ويترجل بخطوات رشيقة على سلالم السرايا، لينفتح الباب ويختفي من بعده.

****

هي، كانت تفكر فيها. تفكيرها لا ينقطع. كعادتها، كانت تتراقص على الطرقات بجسدها الممشوق وخصرها المكتنز من داخل فستان شعبيّ أرجواني. بينما الساق تتبع الساق، تتلوى كأفاعي الشهوة، كانت أطراف فستانها تتهلل بريقًا وتأسر أعين المارة، فتستدير رقابهم ناحيتها ولا يملون النظر.

نظرة أولى، تتبعها ثانية، تتبعها ثالثة، فتدوم، تدوم كذرات حالمة في قلوب نابضة وقلوب مريضة، قلوب ساخطة وأخرى متعجبة. ما بين كل هؤلاء كانت الكلمات تتقاذف ناحيتها، تخطب ودّها، لكنها تعزف عن سماع ألحان العشق الواهم، ومن يفهم مثلها تفاسير الحب، ما بين نظرات كالسهام وأيادي كالخناجر، سيدة شابة ولكنها عذراء، تهبط على رؤوس الرجال من السماء، فتصيبهم بجحيم الإثم وترشدهم إلى طريق البغاء.

لم تكن هي تلك الساقطة التي يتمنى أن يحظى بها الرجل المُكبّل قبل الحُر. هي، كانت العصفور الذي لا تربطه قيود، الكلمة الحرة التي لا تُلجّمها الأفواه. هي، كانت المرأة التي تحررت حتى من قيود الحرية، فأصبحت مثلًا يُضرب بين النساء اللائي يتمنين شطرًا من رحيق الحسن. هن اللائي يتمنين أن يغترفن من صندوق الجمال الذي يسكن خيالات الرجال.

وقت أن مرت الساعات كانت تتهادي في الطرقات بين المارة، حتى أنها أجابت الصيحات الخافتة بنظرات وابتسامات سامة، ومن لا يعرفها في ذلك المكان القديم؟

طرف عينها الزرقاء كان يتوغل في الأسرار. كانت ترى أبعد ما يسكن الجسد. كانت ترسم في ذاكرتها النقش قبل الكلمات، وكانت تتبع الحجر حتى على الطرقات. العناوين والأسماء، أوجه الناس وحتى الأقلام التي تكتب، كلها كانت تتسع في ذاكرة حديدية فوتوغرافية، في عقلها الفولاذي.

انطباع الناس عنها لم يكن يخطر لها على بال. حقيقة أنها الساقطة بين الرجال وبين النساء لم يعد يهم. بداية الليل قد حانت وعليها أن تستعد. على أعتاب المنزل القديم ترجلت. قدم تتبع الأخرى، تصعد، وتستمر في الصعود.

سلم قديم مظلم وأصوات المضخات تُقلقِل عبر مواسير المياه. لأكثر من مرة كانت تخشى أن تسقط فتهوى إلى حتفها، وحتى المصابيح المثبتة فوق الأبواب، لم تكن مُضاءة. على الشخص أن تعتاد عيناه على الظلام سريعًا. ظلام العين أو ظلام القلب، لم يعد هناك فرق بين المعنيين، كلاهما يدفع بالسقوط إلى الأعلى.

أمام باب الشقة المفتوح وقفت بعد أن ضاقت عينها، أنسيت الباب؟ كانت قد قررت أن تتصرف بهدوء، ليس لأنها اعتادت أن تترك الباب مفتوحًا، ولكن لأنها اعتادت تلصص الآخرين على خباياها. بشيء من الحذر أمسكت طرف الباب، والذي أخفى شعاعًا من الضوء الأصفر الباهت، ودفعته.

لحظة فاحصة استغرقتها قبل أن تترجل وتغلق الباب من خلفها. كل الأشياء راقدة في مكانها، لم تعثر على أية علامة على السرقة

أو أي صوت يدل على أن أحدًا كان هناك. لا شيء سوى البريق الأصفر الذي كان يشع من غرفتها.

كانت أمامها الفرصة أن تأخذ سكينًا من المطبخ أو أن تمسك بأي شيء حاد حفاظًا على حياتها من الخطر، لكنها لم تفعل. هي وحسب انتصبت، أوسعت من صدرها، وبهدوء شديد تقدمت ناحية الغرفة، وتركت كل الأفكار الساكنة من ورائها.

صوت أنثوي في المذياع، كان بعيدًا!

بقولكم كل سنة وإنتم طيبين في سهرة من سهرات الليل الحالم. برنامجكم عشر ثواني بيوصّل فرحة العيد لجميع أطياف الشعب المصري، المسلم والمسيحي، بالسنة الجديدة وبعيد الغطاس المجيد.

اقتربت شيئًا فشيئًا، كانت تنصت بلا خوف إلى المذياع القديم المتربع على الطاولة إلى جوار مقعد على يسار سريرها.

الحلقة النهاردة كانت طويلة شوية لأهمية الموضوع. لأننا كلنا بنحب بلدنا وعايزينها تكون زي ما إحنا عايزينها مش زي ما همّا عايزينها. بعض اللي بيحاولوا يغرّقوا البلد دي ويجرّوها وراهم لمستنقع من الفتنة والضياع.

على مر التاريخ الشعب ده كان واحد وهيفضل طول عمره واحد. مهما حاول المغرضين إنهم يشوّهوا صورة الحلم الجميل لوطن ديموقراطي آمن، مش هيعرفوا. البلد دي فيها تقريبًا تسعين مليون وطني على استعداد إنهم يحموها.

وقت أن اقتربت من الباب وباشرت في اتساع الشق الذي كان يُسرّب الضوء الأصفر المتوهج، كان الصوت الحالم يردد آخر كلماته:

... بشكركم على وقتكم، ديجا منير - برنامج 10 ثواني وكل سنة وأنتم طيبين

وانطفأ المذياع.

"مريام،" قال صوت أجش كان يختبئ من خلف نور الأباجورة المُتقدّم، لا تظهر ملامحه سوى بريق خفيف من إطار نظارته.

ذلك الاسم لم تعد تسمعه كثيرًا...

شخص واحد فقط يعرفه...

كانت تنظر في المرآة وقتما ذهبت رأسها إلى البداية.

كانت صغيرة، تبكي، كانت ضعيفة، ضعيفة الروح ونحيلة الجسد، أقدامها تشققت من كثرة المشي، كانت تستند من أسفل حاوية القمامة، تئن من الوجع. لا يسأل عنها أحد ولا يقترب من أحد. لم يستمر هروبها طويلًا منذ آخر وهلة كانت تمتلك سريرًا تنام عليه. كانت تنام على بين الأوراق والاكياس والطين. كانت تأكل من القمامة ومن كسرات الخبز العفنة.

كانت تشعر بالوهن، أصابتها قذارة الأيام، شفاه جافة مجروحة، لا استحمام ولا ماء ولا هواء، فقط، أعين الناس الفضولية، المتقززة من حالتها. يضيقون عليها حيزها، يخشونها، يخافون الاقتراب منها، لا يريدون التكلم معها بل التكلم عليها.

نظرتها كانت مُتحسّرة. كانت تخشاهم هي الأخرى. فمها الذي يتلاعب من قلة الغذاء،

حالتها العبثية ولسانها المتشوق للطعام، كانت ترى الضوء بعيدًا حتى جاء ظل يمشي من أقصى الطريق، ووقف عندها. ارتبكت، تراجعت، توجعت، لم تقو على الحراك. عند أقدامها جثا الظل فرأت شابًا مليح الوجه، يبتسم ابتسامة مبهجة.

"تاكلي؟" قال لها برفق. لم تُجبه، ولم تُبادر في أخذ قطعة الساندويتش التي أحضرها معه. كان لا يزال مبتسمًا رغم ذلك. لم يهرب من وجهها المُلطّخ بالقاذورات.

قال الشاب بإصرار، "إنتي لازم تاكلي... إنتي لسه صغيرة ومش هتستحملي."

كان برغم اللين حازمًا، "لو مأكلتيش، هتتعبي، إنتي عايزة تتعبي زيادة؟"

"طيب إنتي عندك كام سنة؟ شكلك لسه صغيرة!"

همهمت الفتاة بلسان يتلاعب فأكمل الشاب، "متخافيش مني، أنا مبعُضّش."

لما رأته مُصرًّا، اختطفت الساندويش من بين أصابعه وانهالت عليه بالقَضْم، حتى حشرته كله في فمها، فتقلقلت بغصة متعاقبة، فضحك، وظنت أنها ستموت، فأعطاها زجاجة ماء لتتجرعها كلها مرة واحدة إلى أن هدأت.

بعد أن رمق الشاب حالتها، قال، "لو لسه خايفة مني، أنا ممكن أمشي."

هزت الفتاة رأسها شيئًا يسيرًا، رافضة كلامه، فابتسم، وقال، "طيب دي بداية كويسة،" وأكمل، "شوفي، أنا زيّك يتيم،

مليش لا أب ولا أم، مش إنتي كدة برضو؟ ملكيش أب ولا أم؟"

طأطأت الفتاة رأسها موافقة ومسحت عينيها بيدها المتسخة، فمسك يدها، فانتفضت، وأعطاها منديلًا لتمسح وجهها الطفولي العجوز.

قال الشاب، "الناس اللي خدعوكي واستغلّوكي همّا اللي غلطانين. أنا كنت زيك كدة، وضحكوا عليّا أنا كمان وعذبوني..."

"... بس دلوقتي أنا عايش مع ناس طيبين قوي، بيحبوني وبحبهم."

قالت الفتاة بصوت واهن وحاجبين مرفوعين، "بجد!"

"أيوة بجد،" أجاب الشاب.

"متخافيش مني، أنا مش بضحك عليكي ولا عايز منك حاجة. تعالي معايا، أنا عايز بجد أساعدك وأحميكي."

اليد التي لم ترفضها، يده الممدودة، والتي تشبّثت بها جيدًا بقوة، وضعها على كتفها بكل طيبة وقلبها سعيد يخفق، يسألها، "إنتي إسمك إيه؟"

"مر... يام..."

وجه لا يصغر ولا يكبر، هو نفس الوجه الذي ينظر إلى المرآة، نفس المرآة التي رسمت ملامحها بألوان البرود التي سرعان ما تحوّلت إلى ابتسامة صفراء بعد أن وضعت راحة كفها الأيمن على نصف وجهها، ألم تتغير؟

عُقد عمرها كانت تزيد أكثر مما زادت عُقد ملابسها الممزقة، بإمكانها أن تصل إلى سقف الباب، بإمكانها أن ترتدي الفساتين والسراويل النسائية، أصبحت تتوجع تمامًا مثلما تتوجع النساء، بلاء لا تعرف تبعاته إلا امرأة مثلها. حالتها المزاجية لم تكن كما كانت. أصبحت شابة لها شخصية مركبة، متناقضة أو موازية لما ترى. قالت الشابة في هدوء، من دون حتى أن تستدير، وكأنها اعتادت على الغرباء في حياتها، أو على الأقل، في منزلها، "أنا مبقتش عارفة إنت مين؟"

قال الرجل بنفس ذات الهدوء، لم يعد نفس الشاب الذي التقته من قبل، "بعد كل الفترة دي ولسه بتسألي أسئلة ملهاش أي لازمة! هتفضلي لإمتى مش عايزة تتعلمي؟"

غمغمت الشابة، مستفسرة، وتساءلت، "طيب! عايز مني إيه تاني؟ ما أنا عملت زي ما قولتلي بالظبط، فين غلطتي بقى؟"

"إنتي معملتيش كل اللي طلبناه منك بالحرف. اترددتي والتردد ضعف منقبلوش."

"لازم تعرفي إننا عارفين عنك كل حاجة يا مريام، متنسيش ده أبدًا."

"إذا كنتي عايزة تعرفي ماضيكي، فلازم تثبتي ولائك لينا."

"إذا كنتي عايزة تبقى واحدة مننا، فلازم تثبتي إنك الأفضل."

"إحنا الجنس الأسمى، إحنا العالم..."

بدهشة ووجوم، "إنت دايمًا محسّسني إنكم كتير، إنتوا مين؟"

تكلم الصوت الغامض، والذي كان يضع قدمًا على قدم من وراء الضوء، "مش هقولك مش مهم إحنا مين. بس إحنا موجودين، فكل مكان، وفي كل أرض."

من ورائها ظهرت الأيادي على أكتافها فارتبكت، خاتم فضي برّاق، نظرت إليه وتعجبت، يبتسم في وجهها ذلك الشاب الذي تعرفه، فمن يكون الجالس في الظلام؟

أشار لها الشاب بينما يُكمِل الصوت بنفس النبرة، "مريام، فتاة الليل، العاهرة، اللقيطة، أو مرجانة! أيًا كانت الأسماء اللي بتحبيها بس اسمك الحقيقي عارفينه، اسمك الكامل يا مريام، اللي حاولتي تخفيه عننا."

"إحنا اللي عملناكي وإحنا اللي في إيدنا كل حاجة عنك."

قالت (مرجانة) بعد أن تقلبت ما بين الطرفين، "أنا معرفش حاجة، أنا..."

نظرة على الشاب، "أنا عملت لك كل حاجة بتطلبها مني، ناقص إيه تاني معملتوش؟"

زاد انتباه (مرجانة) إلى استقرار نغمة صوته، كان يتكلم، "أعتقد إن الجسم ده مبقاش مِلكك من كتر ما اتمرمغ فيه الناس، هل مستعدة تبيعيه في مقابل حريتك؟"

"لقيطة، أمها رمتها وهي بنت صغيرة، تفتكري ليه؟"

"مسألتيش نفسك السؤال ده؟"

"مسألتيش نفسك، أمِّك رمِتك ليه؟"

"أنا مبقتش أفكر في الموضوع ده خلاص، ولو فكرت، فإنت السبب في اللي أنا فيه، ضحكت عليّا زمان وقلتلي هساعدك. شوف وصّلتني لإيه،" قالت (مرجانة) وهي توّجه حديثها إلى الشاب في الأساس في محاولة لتبرير توهّج عينيها من الغيظ وقت أن ذكر والدتها، حقيقتها وواقعها المُتغيّر، على ذلك انصب تفكيرها.

"القدر، الإله يا مرجانة ليه تصاريف خاصة بيكي علشان توصليلنا."

تابع الرجل، "أيّامِك في دار الأيتام مكنتش سهلة أبدًا زي ما كنتي بتتمني، مش كدة؟"

"متستغربيش... صاحب دار الأيتام، فاكراه؟ طريقة كلامه وطيبته، فاكراها؟ مداعبته وإيده وقربه، فاكراها؟ فاكرة عمل إيه في البنت المسكينة، مريام؟"

انكمشت (مرجانة) على نفسها وانتفضت كالديك، في كبرياء ينفش ريشه، وينفض عن كاهله غبار الماضي. كانت تشعر أنها تُعافِر ما بين الخناجر التي تطعنها كي تبقى صامدة على الحياة. ذلك الرجل لم يستقر عند نهاية الخيط، بل أكمل في مواجهتها، "البنت الصغيرة، كان بيتحرش بيها من وعندها سبع سنين واغتصبها وهي عشر سنين..."

"... ومش بس هِيّا! كام بنت معاها كمان..."

"... كان موضوع كبير في الدار اللي حاول يلغوش على الموضوع وميطلعش بره."

"اتأكدتي إننا نعرف عنك كل حاجة..."

"أحسن لِك تسيبي اللي ورا ورا ضهرك. إنتي دلوقتي حاجة مختلفة."

ضحكت (مرجانة)، حقيقة لم يكن لنبرة ضحكتها سوى أنها تذكرت كيف انتقمت من ذلك الرجل بعد أن أتمّت عقدها الأول، وكيف أن الأرصفة المتسخة كانت المهد الذي احتواها بعد أن ضنّت عليها الدنيا بما رحبت، واستخسرت فيها الحياة الكريمة.

الملائكة والشياطين، كل من سكن على الأرض شيطان مارق. هكذا اعتقدت وقت أن كانت الأمطار تتساقط على ملابسها الممزقة في ليل عاصف، تقشعر له الأبدان وتُغلق عليه الأبواب والنوافذ. هي، ذات الفتاة التي علا الطين ملامحها البريئة وتقزز الناس من رائحتها. هي، ذات الفتاة التي طوقتها الكلاب لتحميها من ذئاب البشر.

وقتها انتفضت ببراءة، انتفضت متى تذكرت ضوء المصباح الأصفر وذلك العامود الصدئ، الذي يتدلى ليكشف شيئًا من عورتها في حرم الطريق، حين ظن السكارى والمارقون أن هدايا العيد هي لقمة رطبة بين القمامة. الأعين الصفراء لم تكن أعين مخلوقات الليل، ولكنها كانت أعينهم.

لم يلجم أفواههم السائلة بلعاب الشهوة سوى التحرر من الأزرار. هي الأقدام الرباعية التي كانت تنبح باستمرار. خمسة منهم أو يزيد، يصنعون طوقًا مُحصّنًا، يحول بين الفريسة وبين المفترس.

قالت (مرجانة)، "ولا مريام اللي بتكلم عنها هي نفسها مريام بتاعة دلوقتي..."

"... أنا اسمي مرجانة."

قال الصوت مقاطعًا، بل مُمزّقًا الصورة التي تجلت ظاهرة في مخيلتها، "الحقيقة، كل ده مش مهم عندنا. إحنا كلنا في خدمة هدف أسمى."

"إحنا عندنا عرض ليكي..."

"... أعتقد هيهمك إنك تسمعيه."

اعتدلت (مرجانة) واتجهت إلى حاوية ملابسها، تفتش فيها حتى أخرجت رداءً وردي اللون، يكاد يكون شفافًا من بين أروابها المتراصة على الأرفف، لتضع الفخذ أمام القدم وتنحني فتزيل عنها ملابسها وتتشح بخصلات الشعر الأسود، فلا تضيف جهدًا أكثر لإثارتها غير الثواني القليلة التي تسمّرتها في انتظار سماع تأويهة متأججة.

لم يصل إليها سوى الصمت، صمت مطبق، فوضعت أكتافها بين جنبات الروب الوردي وعادت لتقف أمام الصوت الصارم.

بضجر بعد فشل محاولتها، قالت، "سمّعني، أي عرض اللي أحب أسمعه؟"

قال الصوت، "الراجل صاحب الدار اللي اغتصبك..."

تعجبت (مرجانة)، لكن الصوت أسهب، "... واللي إنتي قتلتيه بسكّينة."

"تفتكري السكّينة دي ضاعت؟ تفتكري التحقيق اتقفل؟"

قهقهت (مرجانة)، لكنه قاطعها بجفاء، "والست اللي وقفت معاه قصادِك..."

تأففت (مرجانة) لأنها تذكرت تلك المرأة القاسية التي كانت كالظل لصاحب الدار،

وكيف أنها وشمت أسفل كفها بالحروف، وما أن تذكرت ذلك أمسكت يدها من الوخز الذي ضرب رأسها. كانت لا تزال العلامات واضحة.

للشاب قالت (مرجانة)، "حاجات كتير عارفها عني، المفروض أفكر إزاي دلوقتي يا مازن...!"

قاطع الصوت، "مازن مجرد واحد من عناصرنا. إحنا أشباح ولينا ميت راس."

"والمفروض أنتظر إيه؟"

"مش كتير، مهمة أخيرة..."

"إنتي أثبتي كفاءة ممتازة. تقومي بالمهمة اللي هنقولك عليها وتبقي واحدة من عيونّا، هتخرجي."

"والمقابل؟"

"الفلوس مش هنختلف فيها. بس لو هتبقي معانا، هتعملي بالحرف اللي نقولك عليه..."

"... وعلى فكرة، إحنا ممكن ندمرك بسهولة. إحنا موجودين في كل مكان في البلد وبنسمع كل حاجة. مفيش حيطة ملناش فيها ودان."

بادلته نفس الحديث بنفس درجة الصوت، "أنا ميفرقش عندي كل الكلام ده. مازن وعدني إنه هيخرجني من حساباته، وإن العملية اللي فاتت هتبقى آخر عملية."

"وأنا أوعدك إن دي آخر عملية، من بعدها مش هيكون لينا وجود في حياتك..."

"أنا عارف إنتي بتفكري في إيه، وعارفين علاقتك بواحد من أهم الرؤوس في البلد،

وعارفين إنه بيهوى وجودك معاه، تقريبًا كدة العاهرة بتاعته."

"وإنتوا عايزينّي أتجسس لكم عليه؟ ولا أحط لكم سماعة في أوضة نومه."

"مش هيبقى صعب عليكي، بس، لأ، مش ده اللي عايزينه."

للحظات تيقنت (مرجانة) أنها أمام أمر جلل، فالشخص الذي يتحدث عنه أو اعتقدت أنه يتحدث عنه، الوصول إليه مستحيل، لكن العلاقات السفلية التي أودعتها على ذلك الطريق، وفرت لها حماية لم تكن في الحسبان. كانت تمقت الرجال حقًا، لكن المصلحة كانت دائمًا ما تُغيّر الحسابات.

وضع الرجل صورة على الطاولة وقال بنبرة جافة مرة أخرى، "إحنا عايزينك ترجّعي للشخص ده هويته..."

"... عايزينك تراقبيه، أو بمعنى أصح، عايزينك تسحبيه، تجيبيه، تكوني لازقاله زي الضل."

"الشخص ده خطر كبير علينا كلنا ولازم ننهيه بس بالطريقة المناسبة."

اقتربت (مرجانة) وحملت الصورة بعد أن أضاقت جفنيها في محاولة لتبيّن ملامح الصورة، ملامح يُوسِفِية جريئة.

علقت (مرجانة) بسخرية، "إنت محسسني إن ده فيلم عربي قديم، ولا قصة من القصص البوليسية البايخة، ولا مذيع من إياهم من بتوع البتاعة دي اللي بيسموها..."

"... آه... المؤامرة!"

"أوك،" قال الصوت، وبعد أن صمت لوهلة أردف قائلًا، "في حاجة أسهل من كل ده. معلومة عن الست اللي عيّشتك أسوأ أيام حياتك في دار الأيتام. هي نفس الست اللي شهدت لصاحب الدار قدام الجمعية، وكان سبب إنه متعاقبش."

قاطعت (مرجانة) والشوق في عينيها، "وأنا إيه يهمني من كل ده؟"

"أنا نسيت الكلام ده خلاص،" وتعابير وجهها تبوح بغير ذلك.

في وجهها، أُلقِيت حزمة من النقود بورق المائتين، النقود التي لم تنحن (مرجانة) كي تلتقطها. كانت تفكر مليًا في صاحب الصوت، وزيارة الليل وطريقة دخوله إلى منزلها. كانت تبحث عن تفسير منطقي لما يطلبه منها. لم تكن غبية أبدًا ولعل ذلك سبب بقائها على قيد الحياة لتلك اللحظة.

ذلك الشخص، أو كما تحب أن تسميه، الباشا، لو أراد كما يدعو أن يتنصّت عليه، فلماذا جاء إليها بالتحديد؟ وإن أراد تتبُّع صاحب الصورة، فهذا ليس بالأمر الصعب، ولكن لِم هي؟ كل ذلك كان يجول في خاطرها بالإضافة إلى اعتقادها أن السيدة التي عذبتها في صغرها، تستحق العذاب ضعفين بل ثلاثة، وربما أكثر.

قبل أن تتمكن (مرجانة) من الرد، ألقى في وجهها مرة أخرى ملفًا أزرق. استطاعت أن ترى فيه صورًا لها، صور متراكبة تخدش الحياء، وأخرى في شقتها، وأخرى بين أحضان رجل معروف، ورأت أيضًا المزيد من الصور لفتاة أخرى، مهندمة الثياب، عينها حادة

ووجها دائمًا ما يختبئ من أسفل الخصلات الحمراء.

قال الصوت، "اللي في الصورة دي مذيعة معروفة، اسمها ديجا منير، مذيعة معروفة في الإذاعة، عندها معلومات حقيقية عن الست اللي من دار الأيتام."

قطّبت (مرجانة) وجهها في محاولة منها لتتبع بقايا حديثه، محاولاته كانت تصب على تحويل اهتمامها إلى شيء آخر. اعتدل الرجل في جلسته ثم وقف وهو يتجه نحوها ببطء، ويتكلم، "عندنا، صاحب الصورة في مقابل الست اللي دمرت حياتك."

انعكاس المرآة ورنين في الأذن المتورمة، زوج من الأقراط البراقة التي لها شكل المثلثات، إحدى هداياه القديمة. مر الوقت على تلك الأحاديث، كانت حالتها غير الحالة الأولى.

باب الشقة المفتوح، ذلك الرجل القابع في الكرسي من وراء الظلام، وذلك الخمود. كانت تنظر إلى المرآة، تنظر إلى أحداث مضت، عبوس يُصادمها، يُحرّرها ويأسرها.

"مريام،" هكذا ناداها، نافية الكلمات، عارضت وفي الأصل لنفسها، "أنا مش مريام، أنا مرجانة."

ظهر وجهه أخيرًا تحت ضوء المصباح، ضاحكًا، فقالت (مرجانة) باهتزازة فجائية، "هو إنت؟"

"يخرب بيتك..."

"... وقعت قلبي من الخوف."

"هه هه هه! إنتي معندكيش قلب يا حبيبتي."

"حبيبتي إيه بس! ده أنا زي بنتك، ده إنت اللي مربيني."

وجه تبدّل إلى الوجوم فجأة، "قابلتيه؟"

وجهها من الحيرة إلى الصرامة، "آه، قابلته."

"تمام! بس أنا رأيي تأجلي الزيارة دي دلوقتي، لغاية ما تقومي بالمهمة اللي كلفتك بيها."

"متقلقش، أنا هعمل اللي طلبتوه مني بالحرف، بس المهم توفي بوعدك."

"ممتاز."

تمتمة مبهمة...

وقف وظهر لها، مباشرة أمام نظرة أحادية ناحية الضوء. كل شيء تغير وتبدلت الأمور، دنا من أصابعها، إلى جوارها، يلمسها بلطف، ويتكلم، "مش يالّا بينا،" وكان يغمز لها بعينه.

فهمته (مرجانة) وقالت بروية، "اسبقني على جُوّه."

"ماشي،" ثم تقدم.

من ورائه وقفت (مرجانة)، برفق شديد وضعت رباط حذاء قديم على الطاولة، في آخره قطعة خشبية.

بخطواتها الخفيفة، دخلت.

****

" 11 "
10 ثواني

الجالسون خلف زجاج الاستديو يتهامسون فيما بينهم بصوت رقيق. يختطف الواحد منهم نظرة عابرة لا تستمر لأكثر من ثوانٍ قليلة، ليعود ويثرثر بالدقائق عنها. كانت الأجواء قليلًا قاتمة، يسودها الهدوء القاتل، الذي لا ينفك يتحول إلى ضجيج. هرج ومرج، وأيادي ترتفع وأفواه تبصق اللعاب في الوجوه. البعض يتأفف والبعض يتضاحك، والقليل فقط من تخشّب في المقاعد الدوّارة، يرقب الأجهزة، يسطر الاتزان بين مستويات الصوت وبين الخواء وبين أدني درجات الصمت المدقع.

في مقعدها كانت تبعثر أوراقها وتُرتّب ملاحظاتها، تضع القدم فوق القدم، تنحني لتقرأ بدايات الحديث بينما تصنع من أصابعها مشبكًا يتخلل خصلات شعرها المسترسلة أطرافه بينما تلفه كتاج على رأسها، واضعة عودًا رفيعًا أشبه بأدوات الحياكة لتثبيته. لم تكن ترى أي شيء من وراء الزجاج، لأنها لم تلتفت ولا للحظة لكمية البعثرة التي امتاز بها الممر. لم تكن تسمع من بعد أذنيها، لأنها حشرت السماعات بأغاني تتراقص السبابة والوسطى على أنغامها، وكل من نظر إليها يظن أن الجنون قد أصابها لحركة شفتيها المارونيتين.

كلمات هي وحدها تسمعها، تتصدّى في عقلها المتزن مثل ناقوس لتعويذة سحرية، ترانيم

كانت ترددها لعلها تلهمها السلوى في طريق الأشواك الذي كانت تمشيه، كلمات ربما لا إراديًا كانت ترددها: **(21) وَيَبْنُونَ بُيُوتًا وَيَسْكُنُونَ فِيهَا، وَيَغْرِسُونَ كُرُومًا وَيَأْكُلُونَ أُثْمَارَهَا. (22) لاَ يَبْنُونَ وَآخَرُ يَسْكُنُ، وَلاَ يَغْرِسُونَ وَآخَرُ يَأْكُلُ. لأَنَّهُ كَأَيَّامِ شَجَرَةٍ أَيَّامُ شَعْبِي، وَيَسْتَعْمِلُ مُخْتَارِيَّ عَمَلَ أَيْدِيهِمْ. (23) لاَ يَتْعَبُونَ بَاطِلًا وَلاَ يَلِدُونَ لِلرُّعْبِ، لأَنَّهُمْ نَسْلُ مُبَارَكِي الرَّبِّ، وَذُرِّيَّتُهُمْ مَعَهُمْ – أشعياء 65: 21-23**

ولعلها لا تعي أنها تُحدّث نفسها من فرط إفرازات دماغية تحذرها من الاستمرار على منوال الصراع، فالصعب لن يكون أبدًا مستحيلًا، والمستحيل لن يكون أبدًا سهل المنال.

هكذا كانت رؤيتها للأمور، وهكذا أجابها اليقين، بأن محاولاتها الخصبة في إصلاح ما أفسده الزمان، محاولات بائسة كالطرق على الحديد المتهالك.

ضربت عقارب الساعة عدة مرات تبشيرًا بانتصاف الليل، ربما كان ذلك منذ نصف ساعة مضت. وقتها أخرج (خالد) هاتفه النقال من جيبه الضيق لينظر كم تبقى من الوقت على إشارة البدء، وغير أن استعداداتهم كانت على مشارف نهايتها، كانوا متأخرين. حتى أنه لم يلمح رسالة فورية مبرمجة لتذكره بجلال (الله) وعطائه: **(سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ)**، وتخبره أن عدد التسبيحات للّيلة قد قارب العشرين.

الحال كما هو الحال، والهرج الذي استمر لكسر من الساعة بين الرقابة وأحد مخرجي البرامج رغم خصوصية الاستديوهات، ومنع دخول غير المخصصين من طاقم العمل، أخرج البعض عن المألوف، لتعلو الصيحات وتتشابك الأيدي. لعلها ليلة عادية في بناية عتيقة تؤثر في العقول كما تؤثر حدة الموجات الهوائية على الأنسجة العضوية. يرى البعض فيها النعمة ويرى البعض فيها النقمة، ولكن، في كلتا الحالتين، المُتلقّي هو من يحدد.

أما (ديجا)، الكائنة في مقعد القيادة، وكما اعتادت، أرسلت سبّابتها لتجري اتصالًا أسرع من الموجات، فتحمل الهاتف وتتكلم، "ألو..."

ليأتيها الصوت، فتجيب، "أيوة يا ماما، إنتي عاملة إيه؟"

"أيوة يا حبيبتي، أنا كويسة. نحمد الرب..."

"... قوليلي، البرنامج هيبدأ إمتى عشان أسمع."

"مممم!! الحقيقة..." ابتسامة وهمهمة، "منصحكيش تسمعي الحلقة دي خالص."

"ليه كدة يا بنتي؟!" سارعت الأم في قلق واضح، وأردفت، "إنتي ناوية تعملي إيه! إوعي يا ديجا تعملي مشكلة."

أجابت (ديجا) بضحكة مكتومة، "لا متخافيش، من إمتى وأنا بعمل مشاكل؟ ده أنا المشاكل ذات نفسها."

طرقات على زجاج الاستديو، بالكاد سمعتها (ديجا)، حيث أومأ (خالد) بأصابعه إيحاءات بأن البرنامج على وشك البدء، وكان يثني الأصابع بالأعداد وقت أن قطعت (ديجا)، "طيب سلام بقي يا ونورا... سلام! سلام!" واضعة الهاتف أمامها، لتأتي إجابة أسرع، "استني! استني!" وينقطع الصوت بنفس ضغطة الإصبع أمام أصابع (خالد) التي كانت تشير إلى عد تنازلي يبدأ بالخمسة.

أغمضت (ديجا) عينها لخمس ثواني، سحبت فها من الهواء البارد أطنانًا تُثلِج صدرها الذي كان يضيق. لم تكن تشعر بالخوف، فهي مذيعة مُحنّكة، بل كانت تبتسم لأنها على وشك إلقاء المزيد من القنابل.

انتصار، انتصار واحد من الأسماء الكتيرة المنتشرة في بلدنا. انتصار للخير، انتصار للشر، أو حتى انتصار لأجندة ليها رؤية أو ملهاش. كل ده في عشر ثواني، عشر ثواني بس ما بين إنك تصدق الشخص اللي بتسمعه وما بين إنك تقول عليه كذاب، مخادع أو حتى ضلالي.

هنتكلم عن الثورة؟ جايز! هنتكلم عن الاعتصام؟ جايز! هنتكلم عن الأموات؟ جايز! لكن بالتأكيد هنتكلم عن مصر، رؤية سوداوية، رؤية واقعية، أو حتى رؤية خيالية. محدش بيتخيل الجرح عشان يعالجه، لازم يكون الجرح قطع فيك شخصيًا عشان تحس بيه.

من غير أوهام، من غير تجميل أو خداع، هبدأ معاكم حلقة النهاردة، "واقع من مصر"، وبرنامجكم 10 ثواني.

هدأت نبرة الصوت، لثانيتين، لتُبصِر (ديجا) ابتسامة (خالد)، وإشارته بإبهاميه أن الأمور على ما يرام وأن عليها أن تُكمِل.

على ضوء الموسيقى الشبحية التي وضعها (خالد) في خلفية الكادر، أكملت (ديجا).

مش غريبة إن كل اللي بيقول عن مصر، إنها بلد الحضارة، عواجيز. عواجيز مبيعترفوش بالشباب، لأن مصر أصلًا مفيهاش طبقة الشباب. مصر مفيهاش غير طبقتين، الأطفال والعواجيز. مهما حاولت الطبقة الوسطية المختفية ومهما إدّولها من فرص، دايمًا في مخيلة الجيل العجوز إن الشاب الطفل هيفضل عديم المسئولية، لا يعتمد عليه. ده فكر متأصل، زيّه زي أي فكرة تانية نشأ عليها الشعب المصري، الشاب الطفل هيفضل طفل لغاية ما يعدي الخمسين.

لو بدأنا من الأول وحكينا عن مصر، نسرد المعلومات ونتكلم، هتلاقي إن مصر في مقدمة الدول الأسوأ من حيث الحالة الصحية وتدهورها على مستوى العالم. الصحة أهم، لكننا في المركز الأول في معدلات الإصابة بفيروس سي، وده مش جديد، بناءً على إحصائيات منظمة الصحة العالمية لآخر سنة 2013، تقريبًا 22% من الشعب المصري مصاب بالفيروس، حاجة تحزّن.

كمان، مصر، وعن جدارة، استحقت المرتبة الأولى في نسبة الأمية على مستوى الدول العربية ورقم عشرة على مستوى العالم حسب تقرير هيئة الأمم المتحدة بحوالي سبعتاشر مليون أُمّي، وعرّف التقرير الأمية بعدم القدرة على القراءة وكتابة الجمل

البسيطة، وطبعًا مش غريب إنها تاخُد المركز الأخير من حيث جودة التعليم حسب تقرير مجلة (فورين بوليسي) في أجدد إحصائياتها لآخر سنة 2013، ده بالإضافة لنفس المركز طبعًا بالنسبة للتلوث بسبب حرق الفحم والزبالة.

نهنهة!

مركز معلومات دعم واتخاذ القرار التابع لمجلس الوزراء أكد إن نسبة الطلاق في مصر وصلت لـ 40% خلال السنوات الخمسين الأخيرة بمعدل 240 حالة طلاق في اليوم، وعدد المطلقات وصل إلى اتنين مليون وخمسميت ألف مطلقة ومعظم الحالات دي بتبقى في السنة الأولى من الجواز.

يا ترى ليه؟

لو رجعنا لتقرير مركز البحوث الاجتماعية والجنائية هتلاقي إن 40% من السيدات في مصر بيضربوا أزواجهم، ده دليل على توحش المرأة مش لمجرد التوحش ولكن لمواجهة القهر والعنف الأسري في البيوت.

مصر هي أسوأ مكان ممكن تعيش فيه المرأة، وهي في المرتبة التانية على مستوى العالم من حيث نسبة التحرش الجنسي والاغتصاب بعد أفغانستان، ونفس المرتبة بالنسبة للاتجار بالنساء اللي بيقود إلى نسبة مرتفعة من زواج القصر وخصوصًا في المناطق الريفية في البر المصري.

هدأت (ديجا) قليلًا، وسريعًا أتبعت كلامها بكلام يبدو مضادًا، ألا إنها كانت تحاول أن ترسم صورة حقيقة في عقلها عن واقع الناس. كانت تجمع من بين الكلمات أطراف الخيوط

المتشابكة عن أسباب التدهور المستمر، غير أنها كانت تبحث عن حقيقة إجابتها ما بين ومضات من عرض مستمر.

متستغربش من كل ده، متستغربش كمان لما تلاقي إن مصر في المرتبة التانية في قائمة الأغنياء العرب بعد المملكة العربية السعودية حسب إحصائيات مجلة فوربس العالمية، وأخدت المركز التسعتاشر عالميًا ما بين مشتركي الفيس بوك، والأول في مشاهدات موقع اليوتيوب وتصفح المواقع الإباحية على مستوى العالم حسب تقرير شركة آي تي فيجين العالمية المتخصصة في مجال الاتصالات، وأولى دول العالم التالت من حيث استخدام الانترنت بشكل عام.

المركز الأول عربيًا والسابع دوليًا في مؤشرات السمنة حسب دراسة لمركز قياس الصحة في مدينة سياتل والتابع لجامعة واشنطن، دراسة بعنوان (انتشار زيادة الوزن والسمنة على المستويات العالمية والإقليمية في الأطفال والبالغين).

كل دي أرقام حقيقية، لكن ليه؟

همهمت (ديجا) لوهلة، ثم عادت.

الكهربا حياة، مفيش إنسان يقدر يعيش من غيرها في وقتنا المعاصر. الكهربا بتغلى، الكهربا بتقطع بالساعات، في عجز ميجات، في عجز في المحطات وفي عجز في الميزانية. مش بعيد جدًا إن الكهربا تقطع علينا هنا كمان في الاستديوهات ومنعرفش نوصل الرسالة المهمة اللي عايزين نوصّلها.

طيب إزاي ومصر كانت طرف رئيسي في مشروعات تصدير الكهربا في الشمال الأفريقي من سنوات؟

الواقع الحقيقي في مواجهة المشكلات مش في تجميل الإنجازات.

نحنت (ديجا) مرات عدة في محاولة لتتبع الخيط من أوله. كانت بالفعل قد ألقت لمحات خاطفة ناحية الإعداد وبالأخص ناحية مخرج البرنامج، (خالد)، والذي كان منهمكًا بشدة، حتى أنه فك قيود شعره الشائك، وبعد أن شحذت (ديجا) فتات تركيزها، أكملت.

رغم إن بلدنا فيها حسنات متأصلة في شعبها، إلا إن فيها سلبيات مخلّية شكل المجتمع مريض ومحتاج الدوا.

من برنامجنا 10 ثواني بنطلق هاشتاج #10_ثواني_في_مصر، في 10 ثواني في مصر، أي حاجة هتلاقيها ماشية بالعكس، صورها فيديو أو صورة وابعتها على موقعنا على الفيس بوك أو تويتر. شاركنا رأيك، شاركنا فكرك، قولنا نقدر نغيرها إزاي، بس تبدأ الأول.

على ما يبدو، كانت (ديجا) تنطلق كالحصان الذي لا يتوقف.

كام مرة شوفت العربيات بتمشي بالعكس رغم إن في قانون للمرور؟ والله أعلم فين إدارة المرور، ولما تيجي تتكلم وتقوله ليه كدة، يبجح في وشك ويمكن يتخانق معاك ويضربك كمان.

كام مرة حاولت تحترم نفسك وتمشي على الرصيف وتنزل الشارع وتطلع تاني وتلف

وتدور ما بين العربيات لأن البياعين استباحوا الأرصفة وحطوا بضايعهم في نص الشارع؟

كام مرة روحتي تشتري الخضار، يقولك سعر الدولار يا هانم، الأسعار غليت يا بيه؟ الحياة بقت صعبة ومتعرفش السبب منين، هل من العملة فعلًا؟ ولا اتفاقيات الاستيراد؟ ولا من تجار الجملة؟ ولا من تجار التجزئة؟ ولا من الجشع؟ وكتير من الناس بيترحّم على الخمسينات.

امتزجت الألحان بنبرة يأس حاولت (ديجا) أن تخفيها، لكنها لم تستطع. ما بين سطور حديثها كانت تُكوّر كف يدها، ليس من الغيظ، وإنما لرغبتها في أن ترى مستقبلًا أفضل. لا تزال تُلقي بظلال الواقع وتوسمه بعباءة الحقيقة، حتى أنها وضعت راحة يدها على هاتفها وربتت عليه. في لحظة خاطفة أحنت رأسها، غير أن (خالد) ألصق ورقة على الزجاج، وما أن التفتت إليها (ديجا)، حتى انتبهت.

10 ثواني في مصر - 500 مشارك وبيزيدوا.

فقط في مصر، أسهبت (ديجا).

فقط في مصر تشوف أكياس الزبالة متعلقة بالحبال من الشبابيك والبلكونات، منتظرة كارّو الزبالة أو قلاب الزبالة يلف في الصباحية أو تشوف الزبالة مجمعة ومكومة على طرف طريق والأطفال رايحين جايين عليها وجايز يلعبوا فيها.

ده حتى الزبالة ثروة، وفي دول بتستوردها، ولا؟

أوراقك من الصبح بدري تمسكها في إيدك وتجري وإنت فاكر إنك الأول لأي مصلحة حكومية، مع إن في يقين داخلي إن مستحيل تكون الأول، إلا لو حجزت دورك وبت ليلتك هناك. تعدي الساعات في طوابير الانتظار، تلاقي الخس والجرير، تلاقي الموظف اللي بيكلمك بتعجرف وبلا مبالاة ويقولك إنت مش شايفني بفطر، أو موظفة بترغي مع اللي جنبها أو اللي بيقرأ في جرنان، أو تقوم الشملولة بالخطوة البطيئة تعمل حاجة وتختفي.

أنا مش فاهمة، الناس دي إيه؟

المايه، فجأة الشعب بقي بيعاني من المايه، المايه لونها أصفر، المايه لونها أسود، المايه جايبة أمراض للشعب، والعزاء إن معدة المواطن المصري تهضم الحديد. المايه هتقطع خالص، المايه هتتمنع من منابعها، سد النهضة! سدود تانية! هل دي نظرة سوداوية ولا نظرة واقعية لحياتنا؟ لا عزاء للسياسة المصرية.

نظرة حزينة ولكنها تحمل رؤية ثاقبة وعين لا تنظر إلى الزجاج ولكن أبعد من ذلك.

إنك تشوف الشيء الكويس وتقول أهو في حاجة كويسة وسط كل الحاجات الوحشة. ليه التشاؤم؟ ما تبص على نص الكباية المليان. الكلام ده غير عملي بالمرة.

سياسة النص المليان دي سياسة استمرار وبس مش سياسة تطوير. الكوباية فيها نص مليان ونص فاضي، يا تشوفها على بعضها يا متشوفهاش. من الأفضل إنك تشوف السلبيات عشان تعالجها، لأنك لو شفت الحسنات وبس،

مش هتحاول أبدًا تزوّد، هتفضل على نفس وتيرة البقاء. هي نفس وتيرة الإنسان بعد ثورة يوليو، اللي زي ما ليها حسنات، ليها سيئات أكبر، وبداية لظلم أكبر وقمع.

طلعت مظاهرة قبل كدة؟ تفتكر مين أهم الشخص ولا البلد؟ اللي يفرق إن الشعب المصري عاشق للكبير حتى في أمثاله، دايمًا محتاج حد فوق راسه، يقدسه، يعبده، بإنه يسلّم له مفاتيح مستقبله وحياته. العمل للشخص، الجهد للشخص، مش للبلد. شيء محزن لما تكون مش مقدّر نفسك، عايز غيرك يقدّرك إزاي؟

من خمس سيئات حاجة واحدة كويسة بمقياس معين. هل تفضّل إن درجة الحاجة الواحدة الكويسة يعلى مقياسها ولا تحاول تلغي الشيء السيء، فيبقي عندك اتنين أو تلت حاجات كويسة بس بمقياس قليل؟

كتير بيقول مش أحسن ما نكون زي فلان وعلان، طب ليه منبقاش زي فلان أو علان التانيين؟

سكتت (ديجا) شيئًا قليلًا، تبتلع لعابها، ثم أكملت.

بدأت بالعنف، الاحتفال بعيد الثورة يتحول إلى عنف. العنف أصبح عنوان المرحلة. الرموز هي مجرد رموز، حتى الرموز الوطنية مجرد رموز. الوطنية بذرة في صدر كل مصري. مفيش حاجة اسمها رموز وطنية، لأننا كلنا وطنيين. كلنا بنحب البلد دي بشكل أو بآخر. الفرق كله في الثقافة، ثقافة الحوار، ثقافة الاقتراح، وثقافة الاستماع لآراء الغير، الأدب والأخلاق في مواجهة البلطجة والفهلوية، البلطجة مش بس فعل

نشاز عن الأعراف السائدة بين أفراد المجتمع. البلطجة هي فرض بالقوة أي حاجة ليس لها محل من الإعراب.

كام واحد مات من اللي بيجرى، أحداث بورسعيد، أحداث خمسة إبريل في مدينة الخصوص بالقليوبية، وغيرها وغيرها. لو هتطرح صوابعك على الترابيزة وتعد كمية المآسي، مش هتخلص، حقيقي مش هتخلص. كل ده بسبب بلطجة الفكر، بسبب الجهل والخوف من الوحدة. مش هتلاقي بيت واحد متماسك من وقتها. كل واحد عنده فكر ومؤمن بيه، صح أو غلط مؤمن بيه.

في ناس لا يمكن يعترفوا بثورتنا، لأن مصالحهم بتمنعهم من ده. شايفين إن اللي حصل مجرد زوبعة في فنجان، ومش بعيد يشوفوا الدم مجرد مايّة بتغلي، ما هما ليهم ألف إيد تقلب وألف لسان بيمكر.

مذكور في القرآن، في سورة الكهف، آيات رقم (103-104): **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104)**

بإشارة سريعة، انطلق (خالد) ليمنع (ديجا) من الاستمرار على هذا المنول، وطأطأ رأسه بالرفض مرات عدة. لم تكن تراه بسبب تركيزها الشديد، لكنها وقتما رأته، أسرعت في اتجاه آخر. ليس خشية منها من الطريق الذي كانت تمشيه، ولكنها أدركت أن الوقت كان يمر سريعًا وعليها أن تطرح بقية الأفكار التي في جعبتها. لا تزال حقيبة أفكارها مكتظة بالنقاط المهمة.

تـأتـأت (ديـجـا) وارتـشفت الـقـلـيـل مـن الـمـاء مـع جرعة من الهواء، لا تدري إلى رئتيها أم إلى معدتها، ثم أكملت.

الفرق ما بين القتل والتضحية في عرف الحكومات هو الشرعية. اللي يملك المفتاح، يفتح ويطلق الرصاص بدون حساب، ومهما جاب الرصاص من شوشرة، هتفضل شوشرة شبه طلقات الصوت، بدون جوهر.

أما القانون الإنساني، فمش ممكن أبدًا يوصل للكمال، والإنسان عارف ده كويس، وعشان كدة عمري ما اقتنعت بلون الروب الإسود للمحاميين على عكس الروب الأبيض للأطباء، وكأن كل لون روب بيمثل حقيقة المهنة بتاعته، تحس في فرق كبير، لكن حتى لون الأرواب بيخدع.

الدم المصري رخيص وقرب يكون مايه. ده حتى المايه أصبحت الدول بتحارب بعضها علشانها. إذا كنت مؤيد أو معارض متستغربش، ملكش لازمة. لو لقيت انفجارات أو تعديات أو حوادث، اعرف إنها مؤامرة. متستغربش من الكلمة لأنك هتسمعها كتير من ناس متتخيلش إنهم يتكلموا عنها. المؤامرة الحقيقية موجودة. إحنا صنعناها وكتبنا وبنشارك في تمثيل فصولها. لكن الحقيقة أكبر من كدة.

قليلًا تنفست ثم أسهبت. كانت أصابعها تهتز.

تعرف معني التقليد، أوه، الشعب ده أكتر حد يقلد، والغريب إنه بيعشق تقليد الشيء السيء. في كتير من الممثلين والإعلامين، وحتى رجال المجتمع والناس العادية مدركين لده كويس وبيستغلّوه. لو لقيت قصة شعر

مجنونة، أو لو اتكلمت بلسان ملفوف، أو بلغة ركيكة معيوبة، لو لقيت موضة عجيبة وقمصان وتيشرتات انتشرت فجأة، ولو سألت، ليه؟ يقولولك البياعين إن ده اللي بياكل مع المواطن، وخلونا ناكل عيش. اعرف كويس إن الشعب ده هو الشعب المصري.

جايز يكون مظلوم، بس هل المظلوم بيفضل على طول مظلوم. بالظبط كدة زي مسرحية مدرسة المشاغبين، اللي برغم نجاحها الباهر، إلا أنها أفسدت جيل كامل من التعليم.

هي فين القدوة والمثل العليا؟ أعتقد إنها بقت حروف، مجرد حروف بتتقرا في الكتب، ومعظم الشعب لا يهوى القراءة ولا حتى السمع.

أومأ (خالد) بعد أن اطّلع على بعض التقارير من مساعدته، والتي كانت تحمل بعض المؤشرات على تقبّل المستمعين للحلقة على مواقع التواصل الاجتماعي، وبالأخص على الفيس بوك وتويتر.

الأرقام كانت مبشرة بشكل جنوني، وأن هناك تقبّل يتصاعد، في أولها أن (ديجا) اقتحمت الموضوع من دون أية مقدمات، ليطلب تغيير نغمة الخلفية ويجعلها أكثر هدوءًا من ذي قبل. رأت (ديجا) ابتسامته بلمحة خاطفة، فتيقنت أنها ستكون حلقة مميزة كما تمنت بالضبط.

بعد أن أنهى (خالد) المراجعة وبعض المشاورات مع فريق العمل، اتجه صوب (ديجا) ليرسل لها رسالة سريعة على زجاج الاستديو، منوهًا ببدء فقرة اتصال

المستمعين، وهو جل ما تنتظره (ديجا)، فلا إعلام بلا جمهور، ولا سقف لنجاح بدون قاعدة تحضيرية وأعمدة جمهورية.

ارتمت (ديجا) إلى الوراء وألقت بظهرها المتعب من صلابة جلستها في أحضان المقعد الدوار، لترتشف المزيد من المياه وتأكل قطعة صغيرة من الحلوى، تلوكها في بطء.

لا رسالة بدء ولا رسالة انقطاع للحديث، هذه كانت توجهات مخرج البرنامج (خالد) والذي وضع بعض التركيبات الكلامية التي كانت تُعاد مرات ومرات بعد انقطاع صوت (ديجا)، "شعب... وطن... بلد... حر... انتماء... وطنية... نظرة... حقيقة... واقعية... 10 ثواني،" وهكذا مرات ومرات حتى تلتقط (ديجا) أنفاسها من الكلام المتواصل وتستعد للقاء الجمهور، وهي اللحظة الأهم في أي برنامج.

منذ لحظات قليلة سابقة، ترجّل أحد المذيعين البارزين في الإعلام المصري ما بين طاقم العمل، ومن خلف زجاج الاستديو، كان يرمق (ديجا) ببعض نظرات الإعجاب التي لا تخلو من التوتر. تلك الشابة على وشك أن تواجه حقيقة غير الحقيقة التي توقعتها. أن تكون مصريًا، أن تسمع آلاف الآراء، الصائب منها والمخطئ، ورغم ذلك تُصرّ على أن رأيك هو الرأي السليم. هكذا كان يفكر وهكذا ربط ذراعيه ببعضهما وانتظر.

أعاد (خالد) الأصابع الخمسة، لتضع (ديجا) سماعتها وتتلقى الاتصال الأول.

"ألو..." صوت عالٍ ونبرة جافة.

"ألو..." مرة أخرى، لتتبعها (ديجا)، "أهلًا يا فندم ويشرفنا مشاركة حضـ..."

"لا أهلًا ولا سهلًا،" أضاف الرجل مقاطعًا، وأعقب بغيظ شديد، "إنتوا برنامج فاشل وحقير ومدلسين كمان."

رفعت (ديجا) حاجبها قبل يدها، مشيرة إلى (خالد) بعدم قطع الاتصال. قالت (ديجا)، "ليه حضرتك بتقول كدة؟ إيه هيّا أسبابك؟"

قال الرجل بصوت صارخ، "إنتي مسيحية، صح؟ أسمع إنك مسيحية."

أجابت (ديجا)، "ده صحيح."

"يبقى إزاي تستخدمي آية قرآنية،" علق الرجل وأسهب بلا اكتراث لمحاولتها الإجابة، "ده قمة الجهل إنك تستخدمي آية من القرآن إنتي متفهميش فيه عشان تبرري كلامك وحديثك. إنتي تعرفي إيه عن القرآن؟ ولا عن مصر وحالها؟ ولا عن الناس وعيشتهم؟ بطلوا فتي بقي البلد مش مستحملة الأشكال اللي زيكم،" وانقطع الاتصال، لم يقطعه (خالد) ولكن أطرق الرجل بعد حديثه وتنديده بأن أغلق الهاتف بابتسامة انتصار على وجهه بين رجال يقبعون إلى جواره ويبادلونه شعور الفوز.

ابتسمت (ديجا)، ظهرت ابتسامتها بكركرة خفيفة عبر المذياع. كان المذيع البارز يرقب بإمعان سرعة بديهتها وقدرتها على إبراز مواقفها وتعليل أسبابها.

تكلمت (ديجا) بعد أن فارقتها صدمة الاتصال، **" – قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**

وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) –
أعتقد إن معنى الآية القرآنية واضح حتى ولم أكن مسلمة، وأعتقد علم النفس يشاركني الرأي لو قلت إن قرارات الإنسان بناءً على تجاربه الشخصية مجرد وسيلة دفاع لكنها مش شرط تكون الرأي السليم. الحقيقة إننا شعب متدين بطبعه. نشتم الدين ونشتم الإله ونقول إننا شعب متدين بطبعه، لكن لو فكرت لثواني وحاولت تجيب حاجة كويسة، هتلاقي ألف ومليون خنجر حواليك. أنا مسيحية ولكن أنا مصرية، وده لا يمنع إن الانسان يكون عنده ثقافة."

عاد الاتصال مرة أخري، لتقبض (ديجا) على طرف سماعتها، وتسمع صوتًا مختلفًا لشاب عشريني ربما.

كان يتكلم بهدوء ويقول، "متزعليش..."

تبسمت (ديجا) وأنصتت إلى حديثه بسكينة، "متزعليش لأنك هتقابلي كتير ذي كدة. أنا عايز أقولك إنّي مش أشد المعجبين ببرنامج حضرتك. حقيقة برنامج جميل ومشرف."

"أجمل شيء إن حضرتك مثقفة وواعية، وغير باقي البرامج اللي لا يمكن الواحد يثق فيها، كلها بقت عاملة زي الفرقة الموسيقية لسياسة معينة، مفيش مصداقية ومفيش وعي، سواءً من الطرف ده أو من الطرف التاني."

تمتمت (ديجا) في سريرتها بالشكر بينما يتكلم الشاب، "على فكرة، مش هتلاقي متابعين لبرامج الإذاعة كتير في وسط الإعلام المرئي ووسائل التواصل الاجتماعي، بس المخلصين للزمن الجميل والحقبة الهادفة

هي اللي بتسمع الراديو الأيام دي. أتمنى أكون واحد منهم، بس أنا متابع جيد لبرنامج حضرتك، وأفتكر بعد كدة لازم أتابع الراديو أكتر من كدة."

"آه! وعلى فكرة،" أتمّ الشاب، "كل الكلام اللي بتقوليه حقيقي وواقعي. الاختلاف ما بيني وما بينك بحكم إني لسه أربعة وعشرين سنة، إني متفائل حبتين. ويل، أعتقد إني متفائل لأن مفيش حل تاني."

تكلمت (ديجا) بعد أن انتهى الشاب العشريني، "أنا بشكرك جدًا وكنت أتمنى أعرف اسمك لأن الأسماء عنوان لأصحابها..."

"... النظرة ممكن تكون سوداوية بس حتى اللون الأسود ممكن ترسم عليه. عشان نقدر نشوف الأمور صح، لازم تقفل النور وتبص من حواليك. بسرعة عينك هتتعود على النور وهتعرف الأماكن. هتعرف إن دي مكانها مش هنا وإن دي لازم تكون هناك، ولما تشغل النور هتكون الحاجة في مكانها. هل ممكن تعمل ده في النور؟ ممكن، بس أفتكر إن أول حاجة هتعملها، هتجري على تليفونك وتشوف جالك كام لايك وكام كومنت."

ابتسم المذيع البارز، وبعد أن زالت شكوكه، اتجه ناحية باب الخروج حين لمحته (ديجا).

توالت الاتصالات كالغيث، تنهمر على عاتق (ديجا) بلا هوادة. كانت تنتفض كلما أجابت أحدهم وكأنها تعتصر عقلها كالإسفنجة لتُخرِج عصارة القول. أسرعت فتاة ذات رداء أبيض مزركش ونظارة مربعة، تتجه بخطوات واسعة ناحية (خالد)، الذي كان يكتب بخط يده بعض

الملاحظات لفتاة أخرى، وشاب يرتدي قميصًا وردي اللون وبنطالًا ضيقًا، ينتظر دوره في الحديث.

نادت الفتاة، "أستاذ خالد، أستاذ خالد! لو سمحت، بعد إذنك."

رمقها الشاب بنظرة ضيق سفلية لأنها تتجاوز الخط، وقال بحنق، "بعد إذنك، أنا هنا الأول."

نظرت إليه نظرة صفراء، تصبغ العين سريعًا بغيمة قانية من الدهشة، عدا أنها لم تعطه الانتباه، واقتربت من (خالد)، بل والتصقت به، لتصرف نظره إلى شاشة التابلت وتتكلم، "أستاذ خالد، اعذرني، بس دي حاجة مهمة جدًا."

"في إيه يا سارة؟ المفروض..." وقبل أن يكمل، عقّبت قائلة، "ديجا جالها أكتر من تهديد بالقتل على الفيس بوك."

لم يكد (خالد) يلتقط أنفاسه حتى همهم بحذر، حيث جابت عدستا عينيه ما بين التعليقات، وبعد أن فرغ، قال، "ممم!! طيب امسحي الكلام ده من على الصفحة ومتقوليش حاجة لديجا، ولما ييجي الوقت المناسب أنا هقولها."

في المقابل، رجع الصوت من المذياع، "إنتي عايزاني أصدقك إزاي. إحنا دولة بتخاف من الأغنية، دولة بتستخدم الإعلام وسيلة لغسل مخ الشعب. حقيقة أنا مبصدقش أي حاجة تتقال في الإعلام المصري، أفضّل آخُد المعلومة من برة، لأنها أكثر مصداقية وشفافية. يا أستاذة، مصر دي فيها حاجة إنتي مش هتفهميها."

"صراحة، متصدقش نص الكلام اللي تسمعه، ويقينًا لازم تتقصى أي معلومة توصلّك. مش أي حد يقدر على الموضوع ده وعشان كدة لازم نتحرّى الدقة قبل أي معلومة نعرضها. أنا مش هقولك إن بلدنا سيئة ولكنها مستاءة. البنت الفتية شابت من عمايل ولادها، ولادها اللي بيحترموها بالكلام، لكن بالفعل، لأ. إحنا محتاجين نحاول المرة ورا المرة، المشكلة في المجتمع ككل. القيم أصبحت كلمة بيقراها الناس في الكتب، والأكتر مش بيقرأ."

طأطأت (ديجا) رأسها وتلعثمت، غير أن الكلمات كانت تنزلق بمفردها على طرف لسانها، "لو التربية سليمة، النشأ هيبقى سليم، ولو النشأ سليم، المجتمع هيبقى سليم. التطور السريع للتكنولوجيا الخارجية عمل فجوة ما بين الأبوين وأولادهم، واتبدّلت المفاهيم للتحرر مش الحرية. التحرر في الفكر، التحرر من القيم، إحنا هنقدم الرسالة، وأنا أشكرك على رأيك."

عادت (ديجا) للحديث.

الناس كلها منتظرة النتيجة النهائية للاستفتاء على الدستور النهاردة.

عايزة أوجه طلب للمسؤولين، البيانات من عندكم والقرارات من عندكم.

مش تضحكوا على الشعب. مش تعيّشونا الوهم. مش تفكّروا إننا هنسلّم بالكلام ونسكت. مش تفكّروا إننا مش هنفتش وراكوا عشان تكون أيامكم سعيدة، وإحنا الشعب نعيش في مرار. حقيقي، ملفات المسئولين كترت، وأنا عندي

منها اللي هيكون موضوع الحلقات الجاية. ملفات حقيقية، وجرائم بتُرتكب من ورا الشعب.

حاسب، السلطة مش قوة، السلطة آفة.

ابتسمت (ديجا)، قليلًا.

بقولكم كل سنة وإنتم طيبين في سهرة من سهرات الليل الحالم. برنامجكم عشر ثواني بيوصّل فرحة العيد لجميع أطياف الشعب المصري، المسلم والمسيحي، بالسنة الجديدة وبعيد الغطاس المجيد.

الحلقة النهاردة كانت طويلة شوية لأهمية الموضوع. لأننا كلنا بنحب بلدنا وعايزينها تكون زي ما إحنا عايزينها مش زي ما همّا عايزينها. بعض اللي بيحاولوا يغرّقوا البلد دي ويجرّوها وراهم لمستنقع من الفتنة والضياع.

على مر التاريخ الشعب ده كان واحد وهيفضل طول عمره واحد. مهما حاول المغرضين إنهم يشوّهوا صورة الحلم الجميل لوطن ديموقراطي آمن، مش هيعرفوا. البلد دي فيها تقريبًا تسعين مليون وطني على استعداد إنهم يحموها، إحنا كلنا بنحب البلد دي، مصر، بس فينا اللي بيحبها كإنها أمه، وفينا اللي بيحبها زي مراته، وفينا ودول كتير، كل واحد فيهم فاكرها عشيقته.

بشكركم على وقتكم، ديجا منير - برنامج 10 ثواني وكل سنة وأنتم طيبين

(استني، وخليك هنا جنبي. جايز ترجع أحلامنا بحلم جديد) - رنين الجوال...

انتفض جسد (ديجا) وقت أن كانت تطرح السماعة جانبًا وتمسح بمنديل أذنيها. على شاشة الجوال رقم لا تعرفه وتاريخ اليوم، الثامن عشر من شهر يناير، فبادرت بالحديث. ترجل (خالد) ومعه اثنين من طاقم العمل إلى داخل غرفة التسجيل، حاملًا معه تباشير النهاية المتوقعة، نجاح ساحق.

"ألو،" قالت (ديجا) في هدوء.

"عايزِك بكرة تعدّي عليّا في المكتب،" صوت شديد الحزم يكسر سكينتها.

"حاضر يا فندم..."

"... هتلاقيني في الميعاد."

ليضع (خالد) كف يده على كتف (ديجا) برفق.

** *

" 12 "
بني النور

كانت تسمع لحنًا...

كان يتردد في رأسها...

تسبحة عشية، طرقات الصاجات النحاسية، رفع البخور، ثابتين، لم يخرجوا. بدأ التمجيد أمام أيقونة القديس (يوحنا المعمدان) بينما يُعدّ اللقان في الخورس الثالث بغسله وملئه بالماء العذب، إذ يجب أن يحضر ماء اللقان تسبحة نصف الليل من أولها، في طبق كبير على منضدة وعن يمينه ويساره شمعتان.

وقت انتهاء التمجيد سار الكهنة مع الشمامسة والمرتلين، والشموع موقدة إلى حيث اللقان مبتهلين، بداية صلاة نصف الليل، مقدمة للهوس الكبير، تسبحة تُقرأ على الماء.

(لحن تين ثينو - قوموا يا بني النور) -

- تين ثينو إي إبشوي ني شيري إنتى بي أوؤيني إنتين هوس إي إبشويس إنتى ني جوم
- قوموا يا بني النور
- لنسبح رب القوات
- هوبوس إنتيف إرإهموت نان إم إبسوتي إنتى نين إبسيكي
- لكي ينعم لنا بخلاص نفوسنا
- خين إبجين إثرين أوهي إيراتين إمبيك إمثو سوما تيكوس
- عندما نقف أمامك جسديًا

- آليؤيي إيفول هيتين بين نوس إمبى هينيم إنتى تي إفشي
- موي نان إبشويس إنؤميت ريف إرنيم فين. هوبوس إنتين كاتي إنتين أوهي إيراتين إمبيك إمثو إم إفتاف إنتى تي إبروس إفشي
- أووه إنتين أو أورب ناك إي إبشوي إنتى ذوكسولوجيا إتئير إبريبي.
- أووه إنتين شاشني إي إبكو إيفول إنتى نين نوفي إتؤش. ذوكساسي فيلان إثروبي

- انزع عن عقولنا نوم الغفلة
- أعطنا يا رب يقظة لكي نفهم أن نقف أمامك وقت الصلاة
- ونرسل لك إلى فوق التمجيد اللائق، ونفوز بغفران خطايانا الكثيرة. المجد لك يا محب البشر

وهل كانت للمحبة تبكي؟

كانت تشم رائحة البخور على أعتاب شمعتين، تحرسان رقرقة المياه العذبة وسكونها بين الأنغام. تأوهات ورنين على الصاجات النحاسية، عزف يبدو منفردًا، أنغام تسري في القاعات وبين الممرات، أنغام كانت تصل إليها.

أمام صورتها مع ابنتها وقفت (نورينا). كانت تتنفس الصعداء وتدعوا كثيرًا في سريرتها بظاهر الغيب. وجهها لم يكن يظهر واضحًا في النور الخافت، كانت تنتفض برغم سكونها. كانت تنظر إلى أبعد من تلك الصورة، التي جمعتها مع (ديجا) وهي بعمر

الخمسة أعوام. السعادة كانت عنوانهما برغم قسوة الحياة، والحزن كان عنوان لمحتها.

أرادت (نورينا) أن تتكلم، لكنها لم تعرف ما تقول. كانت الشفاه تمنع الكلمات من الخروج وتعيدها إلى مكمنها في أعماق صدرها. (ديجا) هي كل من تحب، وكل من تحب لم يكن في خاطرها.

شيء ما كان يُبكيها. كل ليلة كانت تصحو في ظلمة مدقعة تبكي وتئن. أنفاسها كانت تضيق وصدرها كان يتزلزل، وتلك الصورة كانت تصب عليها الأوجاع صبًا. حاولت مرارًا أن تبتعد، لكنها لا تستطيع. أمام الصورة مباشرة كانت واقفة، ربما تنتظر أن يُسمح لها بالرحيل.

نهنهت (نورينا)، ومسحت دموعها بمنديل في جيب ردائها. بالتفافة سريعة تحررت من القيود وانطلقت، انطلقت مبتعدة تمامًا عن تلك السطور. سرير (ديجا)، كانت تنظر إليه وتتخيل الطفلة الصغيرة التي تتقافز بلا رضوخ، فتبتسم، لم تنته أبدًا (ديجا) عن الجنون وقت أن كانت صغيرة. كانت هي مصدر سعادتها. كان سريرها مُرتّبًا وغرفتها مُضاءة بنور أصفر باهت. تظهر أشياؤها بشكل شبحي قديم.

تنهدت (نورينا).

هكذا تمامًا كيف كانت تحب غرفتها، غامضة ومنمقة. عند الوسادة، رأت (نورينا) كتابًا مفتوحًا وموضوعًا على صفحاته. بدأت (ديجا) قراءة الكتاب ربما منذ وقت قصير، لأنها لم تتخط الصفحات الأولى، أما (نورينا) فأرادت وضع الكتاب بين الكتب الأخرى، لكنها متى

باشرت، سرعان ما تخيلت (ديجا) وهي تنتفض كالطاووس لأنها لا تُحبّذ أن يعبث أحد بأشيائها، فجلست. بشيء من الفضول، حملت الكتاب وأدارته إلى غلافه - نيرا لـ هيثم أ. هميمي.

صكت (نورينا) أسنانها وتعجبت، فهي لم تظن أن (ديجا) كانت تقرأ ذلك النوع من الكتب. قرأت (نورينا) - بطلة من الزمن البعيد - ويبدو أن عنوان الفصل الذي توقفت عنده (ديجا)، جذب انتباهها، فقررت أن تُكمل، وانحنت شيئًا قليلًا، للدرجة التي يسمح بها ظهرها، وفي الضوء الباهت، سمعت في أذنها الموسيقى، وتبدلت الغرفة إلى مشهد مغاير لأحداث أخرى.

كانت قد طرقت الباب فجأة، فانتفضت (ديجا) التي تنام على سريرها وتضع قدمًا على قدم، لتصيح، "بتعملي إيه يا نورينا؟"

كانت تحمل ذلك الكتاب وتقرأ فيه، و(نورينا) تجيبها، "البيت محتاج تنضيف."

"تنضيف إيه دلوقتي! إنتي عايزة تجنيني. ما البيت كويس وزي الفل أهو يا نورا."

علّقت (نورينا)، "بقولك إيه، خليكي في اللي بتعمليه وسيبيني في اللي بعمله."

بنهنهة، ضربت الأشياء بالقماش، و(ديجا) ستجن إن لامست حاجياتها وسط ابتسامة مخبأة بين ثنايا الفم المجعد.

لما تأكد (ديجا) أن والدتها تستثير اعصابها، ارتمت إلى الوراء ثم قرأت:

"قُرعت الطبول ونُفخت الأبواق، وأنشدت القيثارات بأنغام السحر على رفرفة

الطيور. تقافزت الحيوانات في المروج، وابتهجت الوجوه. تضاحكت الأفواه، وتساقطت الأوراق بفعل أمواج الريح العاتية. انهمرت قطرات المطر ببطء، وبكت العيون من السعادة. ندى الصباح تلألأ في الحقول الواسعة على الأعشاب الخضراء. النساء تجملن والشباب تراقص. حامت الألوان حول البلدة الهائجة مثل موج البحر العارم، ورفرفت الأعلام على سماء المملكة لتعلن البشائر بالأصوات المتصاعدة للمنادين.

لقد كانت ليلة سعيدة. كان يومًا مملوءًا بالحفلات. تطايرت الريشات وحملت الحمامات أغصان الزيتون، تبشيرًا بمجيء الرخاء والنصر، النصر الذي لم أعتقد فيه أبدًا. عرفت ما سيُحيّر أرواحهم الضالة. عرفت ما كمن وراء جبال (ليفيجانث). الفرحة التي شعروا بها لن تدوم طويلًا.

اشتممت غضبه مؤلم، رائحة غامضة تفوح من أعماق الجحيم، حيث سُجِن أباطرة الشر بداخل رغبتهم المعتمة. نداء الظلام يحث على الإسراع بصعود الملعونين. اهتاج واشتعل، أقسمت روحه الملعونة على الأخذ بالثأر. عشيرته لن تموت هباءً، اشتهى الدماء، ولعب بها كالدمى. عليه أن يعود، يجب أن يحكم العالم بدون تحدى."

تنهدت (نورينا) وجحظت عينها قبل أن تكمل، (ديجا) لم تكن تساعدها، بل كانت تستمر في القراءة.

"أخي وأنا وقفنا ضد إرادته. سوية، قوة متحدة واحدة، يجب أن نزيل خطره. يجب أن نُعيده إلى منفاه، إلى حيث عاش وعانى في

صومعته الكئيبة طويلًا. يجب ألا يُحي لعنته فوق العالم من جديد.

لذلك، أنا، الأميرة (نيرا) حشدت قوتي لاستئصال جذور الظلام والقضاء على ذلك المخلوق الشرير. ترحلت غير مكترثة لقوى الشر، دائمة البحث عن الراحة والسلام. أبحث عن القلب الصافي لمعانقتي، وما كان سهلًا أبدًا. رأيت ما حطم ما تبقى داخل روحي الشريدة. أحسست هيمنة الظلام منذ اللحظة الأولى حين جئت. كنت منبوذة من كل الأجناس، مطاردة بحشود الشر. لعنتني بأحداثٍ عديمة الرحمة وسحر مظلم. لا أعرف كيف تمكنت من النجاة عبر كل تلك العقبات. هي بالفعل تلك الذكريات الباهتة، التي ما استطعت يومًا نسيانها.

ساعدني يا أخي العزيز. ضعني على طريق النجاة. عالجني من الأنانية والحقد. أتوسل إليك ألا تجعل اليأس يجد طريقًا إلى روحك، فأنا سوف أعود عندما أصل إلى الراحة الأبدية. لقد أُصِبت بداء الحزن يومًا وخلطت بين القلب والعقل. سقطت في الأوهام وعشت داخل العالم السفلى وقتًا طويلًا.

أجل، يجب أن أعود وإن كان بشكل آخر. أقسمت على استعادة القوى المفقودة وإنقاذ العالم. أخذت عهدًا على نفسي بحمايته، أخي. يجب أن أحمل العبء.

إنه قدري أن أحمل مصير العالم على عاتقي، ويجب أن أفي بالعهد الذي لا يمكن الحنث به، ولكن! هل أستطيع؟ الذي رأيته اجتاح شجاعتي. إذا عشت أو متّ، ما أحدث ذلك فرقًا. الظلام يتوسع مقتحمًا.

قريبًا ستُفتَح الأبواب وتُعتَق جحافل الظلام. هم، بتحررهم سيطغون على الأمل الأخير في إنقاذ العالم. على المدى البعيد، استسلمت أخيرًا إلى إرادة الأوهام. انتهت حياتي وخارت قواي، وتوقفت دقات قلبي التي كانت يومًا تنبض بالحياة. لم تعد الحياة هدفًا لهذا الجسد. شخص آخر عليه أن يحمل العبء. شخص آخر يجب أن يعتنى بأخي. لا تبكي يا أخي العزيز. لن أرحل عنك أبدًا. سنلتقي يومًا ما. تذكر دائمًا أن تترك الحب يدوم طويلًا.

خفت الصوت وانتهت الحروف، ومع أخر كلمة أخبرت أخي الصغير بها، أحسست الروح تخرج من جسدي. لقد حان الوقت كي أنتقل إلى العالم الآخر. تلك التي سوف تنقذ العالم ستجيء قريبًا. هي الوحيدة التي تملك القدرة على دمج القوى، القوى التي تكمن فينا. بعد ذلك الحين، سيواجهون الظلام بلا خوف. عليهم أن يُشعلوا الضوء داخل القلوب. فقط انتظروا، سوف تجيء قريبًا، بطلة من زمن آخر.

أنا، الأميرة نيرا."

نطقت (ديجا)، "مسكينة!" وازداد شغفها لتعرف المزيد، أما (نورينا)، فبصورة أو بأخرى كانت تربط بين ما تقرأ وبين (ديجا)، الفتاة الثائرة.

"من تكون؟ إنها البطلة التي جاءت من زمن آخر. إنها البطلة التي وضعوا ثقتهم بها، من قُدِّر لها إنقاذ العالم. إنها التي تملك القدرة على دمج القوى. إنها المنقذ الذي ينتظرون، وأي منقذ ستكون؟ تُنقِذ نفسها أولًا

أو بالأحرى تُنقِذ الآخرين، تُوجِع نفسها بتجاهل العبء الثقيل المُلقى على عاتقها، أو قد يكون بتجنب المسؤولية. هي لا تستطيع أن تكون بطلة، هي ليست كذلك.

كل الذي يحدد ملامح البطولة ليس متوافرًا فيها. أي شخص يمكنه أن يُدينها كما يشاء، لكن هذه هي الحقيقة. هي ليست واحدة.

بشغف شديد، أمعنت تلك الفتاة الحالمة نظراتها الشاردة في الصفحة وقرأت المقطع الأخير مرارًا وتكرارًا في اليوميات التي تركتها الأميرة. بدأت تصدق أنها ليست الأميرة، ولن تكون أبدًا كذلك. هي لا تملك نفس البسالة والحماس، ذلك الذي كان يميز الأميرة. كانت الأميرة شجاعة، دائمًا في مواجهة فلول الظلام. هي فقط لا تستطيع أن تكون مثلها. كيف لها أن تحيا بروح شخص آخر وحياة هي ليست لها؟ لم تعد تستطيع ذلك. هي ليست الأميرة، هذا لم يكن ولن يكون.

منذ وقت قليل، بدأ الظلام يفرد سطوته الأبدية على السماء، وانسل الصقيع ليغزو عظامها، ويبرد جسدها باندفاع جارف للرياح.

كان الوقت متأخر. جاء الليل سريعًا وأضاءت القناديل في الطرقات الخاوية. القدرة على الإدراك الوحيدة التي كانت لديها أنها تائهة في الطريق، ليس لها عنوان. كل الذي في داخل عقلها حياة عاشتها في عالم آخر، عالم تسوده الوحشية والقسوة، ومزيد من اللاإنسانية. شعرت وكأنها لا تستطيع أن تصدق ما مرت به.

إنه المعنى الحقيقي للخوف. جعلها على حافة أن تفقد الشيء الأثمن الذي احتفظت به. غيّر شخصيتها وحطم التقاليد التي نشأت عليها. عندما تتوغل في تلك الذكريات القديمة، يُسيطر ألم فظيع على رأسها، تضيق أنفاسها تدريجيًا وتتباطأ خطواتها. لكنها استطاعت أن تمشي بالكاد على ذلك الطريق الحجري، تترنح نحو جذع الشجرة الشيباء، بدا قديمًا ومتهالكًا مع الوقت.

هناك ألقت بنفسها وكأنها عبء ثقيل ينكبّ بقوة على الأرض. في هدوء انزلقت على الفرع المنحنى ومدّت يدها إلى الخلف واستلقت كجسد فارقته الحياة.

مر الوقت كالسحاب في السماء، يدفع خيوط الريح المتماوجة نحوها. أحست برعشة برد، يتبعها تزايد الصقيع، وتساقط أوراق الشجر من الأغصان، بينما لمحت عيناها شبحًا لفتاة في مقتبل العمر. تسير بخطواتٍ ثابتة نحو طريقها، واثقة بمستقبلها، تعيش حاضرها، وتعلم ماضيها..."

كانت (ديجا) تضع كف يدها على صفحة الكتاب، وتسأل، "هو مفيش حد مش متعذب؟"

قالت (نورينا) وكانت تجلس إلى جوار (ديجا)، التي لم تشعر بها.

"هو مين ده اللي متعذب؟"

"آآآه! خضتيني،" قفزت (ديجا) من مكانها. مصت شفتيها وقالت، اسمعي يا ستي."

"... سكون مثل ظلال قاتمة التف في مشهد من الضياع الذي شعرت به كدوامة من الخوف في عقلها. ليس له معنى سوى أنها بدأت تدرك

أنها لن تحصل على تلك الحياة التي لطالما حلمت أن تحصل عليها. أوشكت أن ترى بعينيها تلك الحقائق الخادعة بعد أن أدركت أن لكل فعل عاقبة، ربما أكثر قسوة من سابقتها.

بسبب ذلك المشهد، زحف البؤس إلى عينيها، وأعادها زمنًا إلى الماضي، إلى حيث لا تستطيع أن تتذكر كيف ولماذا، سوى من أين بدأت. عندما كانت في نفس العمر مثلها، ترقص وتتمايل، سعيدة بصباها، جميلة ومشرقة دومًا على الرغم من كل العقبات التي صادفتها. رفعت تلك الفتاة النقاب وأسدلت غمامة الماضي تاركة وراءها سُحبًا هائلة من الذكريات، تدافعت واحتشدت في عقلها، وترتبت تلقائيًا كنوع من الاستدعاء لذاكرة ربما أرادت أن تتناسها، وربما لم تعد تريد أن تتذكر مجرياتها.

ذلك الخيط الرفيع الذي يفصلها عن الماضي لا زال متشبثًا بها من دون أن يترك لها المجال للهرب في دهاليز الحاضر، لعل النسيان أصبح هبة لن تحظى بها أبدًا.

هل اعتقدت الأحداث أنها نسيت؟

لا، فهي تتذكر جيدًا، أكثر من ذاكرة الماضي نفسها، ولكن الذاكرة اندثرت إلى حيث لن تجدها، وغابت عنها كل الحقائق.

وحيدة كما كانت دائمًا، رفعت جبهتها وحدقت النظرات نحو النجوم في السماء، وانبثقت أنفاسها الضالة كالنيران تلتف حول الشجرة الشيباء. دفعتها تلك الشابة إلى أن تغفل عن الواقع وتعود من حيث بدأت، إلى تلك

القرية التي عاشت بها، هي عالمها وبيتها وعادت الذكريات....."

أنفاس طويلة، (نورينا)، كما وجدت الكتاب وضعته، كانت تفكر في (ديجا) وكيف أن أفكارها كانت تقودها إلى طريق مكتوب، كان الصوت يتمتم سرًا وربما من البعيد:

- ذوكساسي فيلان إثروبي
- هيبى ذى إزمو إى إبشويس ني إيفي أيك إنتى إبشويس. ذوكساسى فيلان إثروبي
- ني إتؤهي إيراتو خين إبئي إمبشويس، خين ني أفليو إنتى إبئي إمبين نوتي. ذوكساسي فيلان إثروبي
- إن إهري خين ني إيجوره فاي إن ني تين جيج إي إبشوي ني إثؤواب إزمو إي إبشويس. ذوكساسي فيلان إثروبي
- إبشويس إف إزمو إيروك إيفول خين سيون، في إيتاف ثاميو إن إتفي نيم ابكاهي. ذوكساسي فيلان إثروبي
- ماري باتيهو خونت

- المجد لك يا محب البشر
- ها باركوا الرب يا عبيد الرب. المجد لك يا محب البشر
- القائمين في بيت الرب، في ديار بيت إلهنا. المجد لك يا محب البشر
- باللليالي ارفعوا أيديكم إلى فوق أيها القديسون باركوا الرب. المجد لك يا محب البشر
- يباركك الرب من صهيون، الذي خلق السماء والأرض. المجد لك يا محب البشر
- فلتدن وسيلتي قدامك يا رب، كقولك فهمني.
- المجد لك يا محب

إمبيك إمثو إبشويس، ما كاتي ني كاطا بيك ساجي.	البشر
▪ ذوكساسي فيلان إثروبي	

وقف هناك طويلًا، لم يستمر ولم يُكمِل ما بدأه في الماضي. لم يكن يريد من الحياة سواها، لم يتعلم أنه لا يجب أن يضع جم مشاعره في إناء واحد. قد يرحل في وقت يكون فيه احتياجه إليها شديدًا، فيصبح خاويًا بلا أية معالم أو فحوى.

هناك رغم أنه تعلم كثيرًا في وقت قليل، لم يُرد أن يُصدّق ما تعلّم، وكأنما يقول لدروس الحياة، أنتِ كاذبة، توهميني بما تريدين، وتقولي، هذا درس لتتعلمه مني. فلا أنتِ حقًا على صواب ولا أنا مخطئ.

لم يرد أن يدرك أن تبعات إنكاره لمسار القدر المرسوم لن يعود عليه إلا بالخبال، سجن يأسره في قرارة أوهامه الضالة. هكذا كان حينها، يمر كالطيف في ذلك المكان البعيد، يرمق الناس في خطواتهم، وهو حقًا لا يبالي. لم يعد يبالي كثيرًا بما يدور من حوله. الشيء الذي أعطاه الهدف والحافز رحل كما سيرحل عنه كل شيء آخر.

ولكن أين هو؟ وماذا يكون؟

هو لا يعرف.

لم تُعطِه الاهتمام الذي يستحق، كانت رأسه تدور وكانت تظنه هاجسًا عارضًا لِما أظهر من ثبات غريب. كان لا يزال يتنفس ويجفل مرات ويحدق مرات. كان يرى الأقنعة تتساقط، وأعين الناس تبحث عن مكانه وتتربص.

هو الصمت الرهيب. هو السكون الذي لا ينتهي.

المرأة، لا تعلم ما تريد. لذا إن وضع الرجل فيها الدفة والشراع قد تدفعه للضياع بقراراتها الغريبة بالنسبة له. كائنان مختلفان وقد قُدِّر للرجل أن يقود. المرأة تستطيع أن تدفعك للأمام أو تعطيك خيارات جمة أو أن تقف إلى جوارك أو أن تقود تحت عينيك. فإن لم تكن تعرف ما تريد حقًا، فلا يمكن إلقاء اللوم عليها أو معاتبتها كما يحدث. فلا تعاتب إلا نفسك لأنك قصرت في دورك الأصيل.

هي كلمات ارتسمت في عقل (مراد)، كان يتصور نفسه كمن يقود على أعتاب نفق مظلم، نفق الحياة المتسع. هو يرى فيه الأشياء السابقة سرابًا لأنه أضاءه، لكنه يظل لا يرى ما أمامه، فيسير ويتهادى بدون أي إرشاد.

الإرشاد هو ضميره وعقله وتجارب الماضي التي تعلمها.

دارت رأسه...

كان مذياع السيارة يتخلل عقله من بعد أن أعادتها الأصابع الرقيقة، عندما فتحت زجاج النافذة شيئًا يسيرًا، وتطاير دخان السيجارة كالأمواج.

كانت تسند رأسها على الزجاج في سكينة.

سارحة، تستمع...

ممكن تدوق طعم المطر

يا صاحبي دوق طعم المطر

صدقني مر

أنـا شخص حر
قـاعد بـفـكر فـي الـسبب
فـي عنين عطاشى وحيرانين
فـارشين أمـل - بـايـعين هوا
ع الـشط نـاس مـتغربين
مستنيين يـيجي الـدوا
وطاااااال الـميعاد
فـي الانـتظاااااار
وفـي الـنهـايـة تـمنه صبر
****
إن قـلت مـمكن
جـايـز يـعود
جـايـز نـوى
وقـلـوب تـشوفـهـا بـتـترسم
قـبـل الـسلام
بـيحذروك مـن الـهوى
تـفضل تـهـاتـي بـعلو صوتـك
وبـدون كـلام بـيكذّبـوك
يـدّوك أمـان
تـخاف تـسيب
خوفـك جبـان
تـدخل تـشوف
مـين الـجبـان
تـلاقـي حـلمك يـتهدم
تـلاقـي ذنـبك إن إنـت بـتـتوهم

****

فـاكـريـنـه خـايـف
وهـو شـايـف
طعم الـخيـانـة مـن زمـان بـيـجيب ألـم
يـرجع ويـسأل
إمـتـى يـجي؟
يـفـضل طريـقـه لـلسمـا
مـرصوف عهـود
يـفـضل تـراب
مـرخي وصحيـح
لـكن سراب
ولا يـوم حلم
صاحبي الـجبـان
ولا يـوم فِهم
أنـا مش هنـام
غيـر لـمـا أنـسى كـل ذكـرى
أروح وأمـحي كـل فـكـرة
هـرجع وحيـد
إنـسـان شديـد
لـكن جديـد مـن غيـر نـدم
علشان زمـان
وأصحاب زمـان
ولـكل ركـن فـي سكـتي
مـمكن تـدوق
طعم الـقـدر؟

وتقولي ليه طعم المطر
بيجيب ألم
يا صاحبي ليه بيجيب ندم
(هادي الأمير - ألبوم سلام الليل)
(هادي الأمير - ألبوم سلام الليل)
(هادي الأمير - ألبوم سلام الليل)
أظلم النفق!

أظلم النفق أمامه فتوقف وترنح وكاد أن يهوي. خاف كثيرًا، ولذا وقف في مكانه كالتمثال لا يتحرك. لا ينفك يفكر فقط في الماضي. عن أي شيء يبحث؟ لا يعرف. أضاع نفسه وحلمه ووقته وصحته، ولا يفعل شيء سوى الصمت.

الصمت سلاح ذو حدين. قد يكون مطلوبًا إن خشيت أن تخسر شخصًا ما عزيزًا على قلبك خوفًا من اندفاعك بمبادرة إلقاء اللوم على أفعال أنت لا ترى أنك شريك في نتائجها، وقد لا يكون مطلوبًا حين تظل ترضخ بدعوى الحب وتجود من نفسك بما لا يدفعك للأمام، وإنما لأنك فقط لا تدرك قيمتها، فتهوي للأسفل.

الحب عطاء متبادل. لا أن تُعطِي أنت فقط، فهذا ليس الحب، فالعطاء من جانب واحد ما هو إلا كرم وأحيانًا سذاجة. الحب هو ألا تتوقع رد فعل معين من الشخص الذي أمامك فإن لم تجده، تتكسر فيك أشياء تظن أنها تحدده، فهذه هي هواجس الحب.

الحب هو أن تُعطى أفضل ما لديك وأنت على يقين أنه كما أعطيت أنت، سيعطيك الشخص ما يفوق ما تعطيه حتى وإن لم تسأل. الحب

أكثر منه اهتمام من المشاعر. أن تُقدّر قيمتك، لا يقلل من مقدار حبك، وإنما يزيده، ولكن بما لا يكون فيه من المغالاة والتكبر. الحب عدو الكِبر في كل الأزمان.

هو يدرك ذلك تمامًا ويعي أن في داخل قلبه كلمات إن استمع إليها لما توقف عقله عن التفكير فيما مضى، ولمضى إلى الأمام، لكنه صمت ووقف هناك عند أعتاب النفق، يُحملق فيه بشدة عله يرى ما يترصده في كل تلك الزوايا، يتلمس طريقه بحذر عله يسقط أو يقع عليه شيء ما، وبين الحين والآخر يقف لأنه وجد من يركن إليه ويشعره معه بالراحة، فكأنما لا يريد الرحيل، ولِم يرحل وقد وجد من يشعر به؟

الخوف فيه ليس لأنه وقف عن كثب ولا لأنه قد يخسر ذلك الشخص، وإنما لأنه وضع قدرًا مما لا يمتلكه فيه، برحيله قد يُسبّب جرحًا غائرًا في ذلك الشخص، وقد يخسر المزيد من نفسه بدعوى الندم.

"مراد!"

"مراد!"

"مراد!"

لكنه فضل التوقف على مضض، وأغلق الأبواب إليه بابتسامة خفيفة، تُرتسم دائمًا على وجنتيه، تُعطِي مَن أمامه شيئًا من السكينة والحيرة في نفس الوقت. لم يكن في مقدوره سوى أن يترقب حدوث ما لا يترقب حدوثه، وأن يستمر في حياته من مكان وقوفه. كلما قرر الاستمرار، يدفع خطوة وراءها خطوة، وهو يعلم برغم كل شيء إن كان يعلم أنها هي من

تقف في آخر النفق لركض على عماه علّه يجدها.

غريب أن يدفع الانسان نفسه إلى حافة الانهيار بدعوى الحب، هو فقط لم يعد يدرك أنه لا يزال يتحرك بالفعل، سواءً أراد أم لم يُرِد، وأن كل من يعترض طريقه ليس من خوفه وإنما من القدر. هناك حيث كان يسير في ظلام صنعه لنفسه ولا يدري متى وكيف وأين سيصل.

إلى آخر ذلك النفق!

ألحان ونهاية النغمات في مذياع السيارة بمقطوعة صغيرة.

كان لا يزال مشدوهًا وهو يقود، وكأنه غائب عن تلك الدنيا.

(مراد)، تائه في عالم آخر، يبحث عن طريق الرجوع.

وشقّت السيارة الريح كالسهم المُسوّم، في مؤخرتها أنين لرجل يترنح.

- إفئي إي إيخون إمبيك إمث إنجي با أكسيوما كاطا بيك ساجي ماتانخوي.
- ذوكساسي فيلان إثروبي
- إيري نا إسفوتو فيفي إنؤ إزمو إيشوب أكشان إتسافوي إينيك ميثمي
- ذوكساسي فيلان

- ليدخل ابتهالي أمامك، ككلمتك أحيني.
- المجد لك يا محب البشر
- تفيض شفتاي السُبح، إذا ما علمتني حقوقك
- المجد لك يا محب البشر
- لساني يجيب

إثروبي
- بالاس إفتي إيروؤ خين نيك ساجي. جي تيك إنتولي تيرون هان ميثمي ني.
- ذوكساسي فيلان إثروبي
- ماريس شوبي إنجي تيك جيج إي إفناهميت. جسي نيك إنتولي آي إيري بيثيمين إيروؤ.
- ذوكساسي فيلان إثروبي
- أي تشيش شوؤ إمبيك أوجاي إبشويس، أووه بيك نوموس بي طامي ليتي.
- ذوكساسي فيلان إثروبي
- إسني أونخ إنجي تا إبسيشي أووه إسئي إزمو إيروك، إووه نيك هاب إفئير فو إيثين إيروي.
- ذوكساسي فيلان إثروبي

بأقوالك لأن جميع وصاياك هي حق.
- المجد لك يا محب البشر
- لتكن يدك لتخلصني لأني اشتهيت وصاياك.

- المجد لك يا محب البشر
- اشتقت إلى خلاصك يا رب، وناموسك هو تلاوتي.
- المجد لك يا محب البشر
- تحيا نفسي وتسبحك، وأحكامك تعينني.

- المجد لك يا محب البشر

تلك الرحلة شارفت على الانتهاء بعد أن سطعت بداياتها ولاحت في البعيد ناحية الأفق الآتي خلف خيوط القمر الساطع. هناك من بعد ضياع الأمل وعذاب الضمير ورحلة العناء المريرة التي استمرت لسنوات طالت مداها، وارتسمت حياة بأكملها وكأنها فصول تتألف

من ألوان أربعة: ما بين بياض ناصع وسواد قاتم، ألوان رمادية خافتة وألوان وردية حالمة.

رحل الريس (طلبة)...

... وعند الهوة التي احتضنته، وقف (عابد)...

... ينتفض من البرد.

ألّفت تلك الألوان الأربعة سطور حياة شخص كان يتهادى في الصحراء، يرتدي وشاحًا ناصع البياض، ويضع قدميه ناحية النهر الذي ظهر من التيه، يغدو بخياله من دون أن يدري إلى ذلك الماضي الموجع، حين وقف أمام السراب فلمح من بين أواصره وردة كانت تبرق مثل بريق الشمس في ليل حالك، فما كان منه إلا أن انجذب إليها لأنه شعر أن تلك الوردة هي الحلم الذي زُرِع في عقله منذ ولادته.

نامت الوردة في طريقه، فمال منحنيًا خشية أن يطأها بسوء، وظل مبتعدًا يرمقها بخجل من بعيد، فاقتربت إليه لعلها أدركت خشيته عليها، فمال إليها مبتسمًا وكل ألوان الفرح تلوح في عينيه، ضياء وردى اللون وكأنه لا يرى في الدنيا بأسرها سوى لون الحب.

احتضنها، وعصرها بقوة من الشوق.

عادت الأيام لتُلقِي بظلالها عليهما، وغلفتهما بسواد قاتم أحلك من سواد الليل الواسع، وضاعت الوردة بين ألسنة الناس من بين يديه كما ضاعت الكلمات في أفواه المحبين، فلم يعد يقدر بعد أن تكسرت مرآة

أحلامه التي لطالما كانت تدفعه إلى الاعتقاد في الحب، وأنه أقوى من أي شيء آخر.

ظل يُحصّن نفسه أمام الشر طويلًا وأمام أية ملامح يرى فيها غير تلك الصورة التي وُلِد عليها. أحبها، فتمنى أن يراها، وتهاوى ذلك الجدار الراسخ الذي ظل يبنيه مع السنين. يلقفه السواد ويقذفه، ويضعه في مشكاة انطفأ نورها، ويلقيه في طريق البشر بكل ما فيهم.

ورود وأشواك، ومع كل هبة ريح يظن أن وردته قد عادت، تحمل مع نهاية الماضي فرحة الحاضر ولهفة المستقبل، ولا يدري أن تلك الريح كانت تُزيح ستار الليل عن طريق رمادي يعلوه الضباب. من دون إرادة تأخذه قدماه إلى بدايته. هبط إليه أو صعد، وصار أسيرًا يسير بلا حرية، وكأنه يسرى بعكس تيار البشر الزاحف على جانبيه، لا يكاد يراهم أو يسمع منهم ما يُقال.

صارت الوردة صورة تؤنس وحدته بين البيوت الخاوية.

أصبحت حياته أحادية، هو فقط من بمقدوره أن يُلوّن بفرشاته أيامه القادمة.

فهل حقًا يستطيع؟؟؟؟

ألم تكن تلك أحد فصول الحياة؟؟؟

لون شديد البريق تجلى في عيني (عابد)، ربما خيال ظهر له ومن ورائه كان يسير، مغادرًا تلك الحاوية المظلمة التي تلتهم الأجساد. همهم ورحل، رحل عن الجسد الذي واراه في التراب.

- أيسوريم إم إفريتي إنؤ إيسوؤ إي أفتاكو، كوتي إنسا بيك فوك جي نيك إنتولي إمبي إيربو أوفش. ذوكساسي فيلان إثروبي
- ذوكسابتري كي إيو كي أجيو إبنفماتي. ذوكساسي فيلان إثروبي
- كي نين كي آ إي كي إيس توس إي أوناس طون إي أونون آمين. ذوكساسي فيلان إثروبي
- بي أو أوو إم إفيوت نيم إبشيري نيم بي إبنفما إثؤاب يسجين تينو نيم شا إينيه إنتي ني إينيه تيرو أمين.
- ذوكساسي فيلان إثروبي
- بي أو أووناك بيماي رومي إن آغاثوس. بي أو أوو إنتيك ماف إمبارثينوس نيم ني إثؤاب تيرو إنتاك. ذوكساسي فيلان إثروبي

- ضللت مثل الخروف الضال، فأطلب عبدك لأني لوصاياك لم أنس. المجد لك يا محب البشر
- المجد للأب والابن والروح القدس. المجد لك يا محب البشر
- الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين. المجد لك يا محب البشر

- المجد للأب والابن والروح القدس منذ الآن وإلى أبد الأبدين كلها آمين.

- المجد لك يا محب البشر
- المجد لك يا محب البشر الصالح، المجد لأُمك العذراء وجميع قديسيك. المجد لك يا محب البشر

نحنح (نجيب رسول)، يقلب الصفحة باهتمام.

قَسَمْ - عنوان الفصل الجديد...

... أضاق عينيه.

"بدأت الأحداث في وقت مضى، من يعلم متى؟

في مكان ما من طبقات السماوات المتعددة، هناك انتهك الشيطان، إبليس، وهو العابد الساجد، أمر ربه بأن يسجد إلى ما خلقه (الله) عز وجل، إلى ذلك البشري الكائن من الطين، لعجرفة فيه وتعالٍ بالغين دفعا بالشيطان بعيدًا عن رحمة (الله) عز وجل. ذلك ما أوجس في نفسه ترصد كل السبل لـ (آدم) و(حواء) في مقرهما الذي قدره (الله) عز وجل لهما وهو الجنة.

هناك، أزلّهما الشيطان بأن أغواهما أن يأكلا من تلك الشجرة التي نهاهما (الله) عز وجل عنها وحرمها عليهما.

حينها وقعا في الخطيئة، فنزع عنها لباسهما، وأبدى لهما سوءاتهما، فأخذا من ورق الجنة لباسًا لهما، وأدركا الخطيئة التي وقعا فيها. تلك كانت الخطيئة التي أسقطت كليهما من السماء إلى أبعد ما يكون، على الأرض التي أعدّها (الله) مسبقًا لتكون مُستقر الحياة.

هناك، عدوان يتربصان ببعضهما حتى يدق ناقوس النهاية، ويُنفخ في الصور مرتين، مرة فيموتوا جميعًا، ومرة أخرى فيُبعثوا إلى السماء، نداءً، وعدًا ووعيد من (الله)، نداء الحق الذي لا ريب فيه، فانكب سيدنا (آدم) على الأرض يدعو (الله) عز وجل أن يغفر له ويتوب عليه، وبدأ من بعدها تكاثر في النسل واستعمار الأرض."

حك (نجيب رسول) ذقنه الشائكة وأكمل.

"كانت الصورة واضحة جدًا أكثر من أي وقت مضى، بين الرؤيا والخداع. هكذا تعلمها ذلك الرجل العجوز من القرآن والسنة والتفاسير، ذلك الذي كان على فراشه وحيدًا، حشرجة في نومه موجعة، بعد أن أصابته لعنة ذلك الصوت فقط لأنه وللمرة الأولى منذ ثمانين عامًا ينسى أن يقرأ المعوذات قبل نومه.

تلك كانت الفرصة السانحة للشيطان وأعوانه أن يتسللوا من أسفل الأبواب والنوافذ وكل فتحة كائنة في منامه، فقبعوا تحت أذنه يُوسوسون، يهمسون بأصوات أصابت جسده الهزيل بقشعريرة ظلت تسري في عروقه متجهة إلى قلبه المفعم بالإيمان.

كان يضعف...

في القِدم، حاول الشيطان كل ألاعيبه للنيل من ذلك الرجل العجوز وأسره تحت عباءته السوداء، لكنه وعلى مر كل تلك السنين، فشل فشلًا ذريعًا. أما وقتها فقد نسي ذلك الرجل العجوز قراءة المعوذات حصنًا له في نومه، ولعله كان اقتراب سكرات الموت.

كان وحيدًا على فراشه يتصبب عرقًا. لا يدرك من أمره من شيء، وهو الذي أنعم (الله) عز وجل عليه طيلة أعوام عمره بالصحبة والأهل والصحة. يمر وقتها بأصعب أوقات حياته، ولعله اختبار من (الله)، العزيز الحكيم، لذلك الرجل الصالح.

زادت همسات الشيطان في أذن الرجل العجوز، وهو الذي فشل من قبل بكل طرقه أن يجني إرادته وإيمانه. فكّر مليًا حينها، فاستقر

على أن يستخدم أسلوبًا آخر، أن يأسر عقل ذلك الرجل العجوز ويعرضه في أزمنة سادت فيها الفواحش والهرطقة، ويُذيقه لذة كل أنواع الانتهاكات، علّ واحدة تصيبه فيرجع عن دينه.

في لحظات نومه القصيرة، الممتدة، سينزلق فيخسر أو يقف صامدًا فينجو.

ذلك هو القَسَم الذي لا يمكن الحنث به. القسم الذي أسقط الشيطان في شر استكباره حين قال في حضرة ربه قبل أن ينكب على الأرض:

قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) – سورة الأعراف"

دخان السجائر المتطاير من بين اصبعين يشكلان شكل المقص، ما بين نهايتهما شمعدان من ثلاث شمعات كانت تحترق ومن ورائها عطر فواح، يرسم أشكالًا هلامية لأشباح تنتشر، وظهرت صورة التمثال الوحيد، مثبت بخمسة مسامير على الجدار، ساعة بها بندول أعلى التمثال. تذكرة لوقت كان يمضي من دون جدوى.

- ذوكساسي أومونوجينيس، آجيا إتريـاس إيلييسون إيماس. ذوكساسي فيلان إثروبي
- ماريف تونف إنجي إفنوتي. ماروجور إيفول إنجي نيف
- المجد لك أيها الوحيد، أيها الثالوث القدوس ارحمنا. المجد لك يا محب البشر
- ليقم الله ولتتبدَّد جميع أعدائه وليهرب من قدام

جاجي تيرو. ماروفوت إيفول خا إتهي إمبيفهو إنجي أوؤن نيفين إثموستي إمبيف ران إثؤاب. ذوكساسي فيلان إثروبي	وجهه كل مُبغضي اسمه القدوس. المجد لك يا محب البشر
▪ بيك لاؤس ذي ماريف شوبي خين بي إزمو إيهان آنشو إنشو نيم هان إثفا إن	▪ وأما شعبك فليكن بالبركة، ألوف ألوف وربوات ربوات، يصنعون إرادتك
إثفا إفئيري إمبيك أوؤس	▪ يا رب افتح شفتي ولينطق فمي
▪ إبشويس إكئي آآوؤن إننا إسفوتو. أوو إيري روي جو إمبيك إزمو	بتسبحتك

أي شعور هذا الذي تشعر به؟

أي غربة تلك التي كانت تسكن أضلاعها؟

أي حيرة هي التي لا تنفك تذبحها؟

لماذا تتعب أنفاسها في كل درب تسير فيه؟

لماذا لا تحن الدروب وتدفعها للوصول؟

لماذا لا يمكنها السكوت وحسب؟

نقر الحذاء اللامع بطرقات ثابتة بما يفوق البوصة الواحدة فوق السيراميك، يلتف جسدها الممشوق وتلقي في طريقها السلام والابتسامات.

عناد بعناد، هكذا كانت الدنيا.

كانت تقف أمام الباب صامتة، تُهندم ملابسها.

طرقة ثم أخرى.

لقد بدأ الرحيل منذ أن رحلت. لقد مر الوقت. كانت لا تزال تتخيل حديثه. كان لا يزال منكفئًا على الهاتف. ذلك الألم في رأسه لم يكن بسبب تلك الأصوات المترامية من البعيد والقريب، والضجيج الصاخب الذي يلتف حول إدراكه، فلا تنفك عينيه تتلفت عن أي سبيل يقطع به أطراف الحديث.

"لا، تمام يا فندم. لا، فهمت، تمام، توجيهاتك هي اللي هتمشي..."

وضع سماعة الهاتف، فرآها، فتكلم، "تعالي يا ديجا، اتفضلي اقعدي."

جلست (ديجا)...

ربما ذكرته بتلك اللحظات التي حمل فيها حقيبته وفي قلبه رغبة جمة على النجاح. لم يكن في يده سوى العمل. لعله كان العمل الذي لم يتم أبدًا، وظلت رغبته متأججة، لا تكل ولا تهدأ. بينهما نفس الطموح ونفس الأولوية، لكنها بالتأكيد كانت الدقائق القليلة التي تفرق بينهما. كان يتعجب مما يرى. لعل ملامحها تغيرت كثيرًا لدرجة أنه لم يعد يميز بين (ديجا) القديمة، و(ديجا) التي تجلس أمامه، وربما نظارته المظللة هي التي صبغت كل شيء أمامه بذلك الغشاء الرمادي الباهت.

"حضرتك كنت عايزني يا فندم،" تكلمت (ديجا) مقاطعة السكوت.

بعد أن همهم، وارتبك، قال، "آه! كنت عايزك."

أي شعور ذلك الذي يشعر به وهي تمر من أمامه في نفس الطرقات التي مر بها في صغره! أي فرح! أي ألم! وأي حيرة تلك التي تميز ملامحه عن الناس! أولئك المارة لم يبالِ أحد فيهم بما كان في خاطره. كان صغيرًا، لكل واحد فيهم حكاية أخرى يعيشها، بكل ما فيها من فرح ومعاناة. هي الحياة التي تربط أقدار الناس جميعهم في إطار واحد لا يستطيعون الخروج منه طالما لا تزال أنفاسهم تنقبض وتنبسط مع دقات الوقت.

كان يشعر بها. كان يشعر بكل دقيقة تمر وكأنه يرى خصلات شعره السوداء تتحول تدريجيًا إلى اللون الرمادي، في لحظات قليلة تكاد تُعدّ على الأصابع، حتى أنه أودع حقائبه المغلقة مكانها من دون أن يفتحها. يتساءل الناس عن ماهية تلك الحقائب ولماذا لا يفتحها ويُصرّ أن تكون كما هي موصده، إلا أنه لا يُعطي سوى ابتسامة مطاطية، لا تحمل أية إجابة تُذكر، ويعود ليُفكّر في نفس الإجابة التي يسعى وراءها الناس.

"يا فندم؟ حضرتك معايا؟"

"نعم؟"

"آه!"

"معاكي يا ديجا."

حقائبه هي أفكاره، لن يفتحها حتى لا يرى الناس ما فيها، حتى لا يرون سوى ما يظهر منها وحسب، حتى لا يدرك الناس أفكاره وأحلامه، حتى لا يعود إلى الطريق الذي بدأ منه.

إلى أين؟ ومتى؟ وكيف؟

"إنتي طبعًا متوقعة كمية من المشاحنات بعد حلقتك إمبارح، والحقيقة ده كان صحيح، لكن..."

أشار بإصبعه ليكمل، "إنتي عملتي ضجة كبيرة بسبب الموضوع اللي طرحتيه والإذاعة إتأثرت بده لدرجة إن برامج تانية ابتدت تقلدك."

"أنا كنت في قمة الغضب، إنتي متعرفيش كمية الاتصالات اللي وقعت على راسي من وراكي."

نظرة ثاقبة، "احم، أنا عارف إنك محضرة النهاردة برضو حلقة مميزة."

طأطأت (ديجا) رأسها بفرح، بينما يكمل، "شوفي يا ديجا، أنا عايزك تبقي على طبيعتك. تقولي الكلام المظبوط اللي حضّرتيه. بس في نفس الوقت..."

"بس!!" قاطعت (ديجا).

"... لازم تعرفي إن البلد مش مستحملة، والعيون علينا كلينا."

"مصر وطنّا يا ديجا. لو إحنا محافظناش عليه، مين هيحافظ عليه؟"

"أكيد يا فندم."

"يا ديجا، إحنا مش عايزين مشاكل مع الرأي العام ولا الرئاسة ولا مؤسسات الدولة. متدخليش في مواضيع صعب إننا نتطرق ليها دلوقتي."

تنفست (ديجا)، وكان الضيق يتسرب إلى صدرها.

"ده مش تحذير،" وأشعل سيجارة، سرعان ما احمرت مقدمتها.

"أنا عايزك تبقي مذيعة شاطرة. تعرفي تقولي إيه؟ إمتي؟ وإزاي؟ أعتقد إنك فاهماني."

بابتسامة صفراء، "آه طبعًا، أكيد يا فندم،" ووقفت.

لعله نفس الشعور الذي يدور في خاطرهما، لعله نفس الشعور.

تذكرت (ديجا) تلك المقولة، "أيها الزمان، ترحّلنا وكأننا خلقنا في الدنيا كي نكون غرباء."

بابتسامتها المعهودةٍ، أردفت، "بعد إذنك يا فندم،" ثم استدارت مغمضة العين، تحاول أن تلغي كل ما سمعت، وتستعد، تغوص في الرواق حتى تختفي...

ومن ينظر؟

بعيدًا جدًا عن كل من يدرك، شخص يلتحف بالدخان الكثيف، يقف من وراء نافذة الشرفة المغلقة وينظر إلى النقاط المضيئة والمتبعثرة في الظلام.

كان يبتسم!

****

عن اليمين وعن الشمال رجال يتميزون بلباسهم الأبيض، يصطفون بأوشحة حمراء، على طرقات الدفوف يرتلون، يتغنون أمام جمع من الرجال الساكنين والنساء المغطاة رؤوسهن بالأوشحة، وعند كاهن أكبر يأتي بعدها بالبخور، بياض ذقنه يمتزج مع الخيوط

الرمادية الشعثاء، يرتدي رداءه المطرز بحمرة وبياض، ويعتمر تاجًا على رأسه، وفي يده عصا الصليب، يبتهل ويبتهلون.
قوموا يا بني النور/ لحن تين ثينو –

****

صندوق الراحة

مراد نصري.
يعود إلى منزله ليلًا، ضائعًا في حلم قديم.
يقوم بإنقاذ فتاة في ماخور تلت وحايد من يد صاحب الماخور المدعو (مورو).
ديجا منير:
حادث السيارة التي تقودها على الكوبري، وتعرضها لضابط شرطة نقيب.
خلاف بينها وبين والدتها فحواه رغبتها في النزول للقاء شيخ مسلم.
حلقة مميزة لـ (ديجا) من برنامجها، 10 ثواني.
عابد:
استماع إلى جلسة الشيخ (خيري) وخروجه من المسجد وقت قيام صلاة العشاء.
عودته إلى القبور ليعثر على راعيه الريس (طلبة) ميتًا فيقوم بدفنه.
مُتأثّرًا بحديث أحدهم، يقوم الريس (طلبة) بضرب (عابد).
خيري شهاب:
إمامة الناس في جلسة قبل صلاة العشاء، يحدثهم فيها عن عيد الغطاس.
اقتحام رجال لغرفته الصغيرة في آخر المسجد وقت استحمامه، ولحظة اختطاف.
مرجانة:
تعرضها لمحاولة اغتصاب في ماخور تلت وحايد من صاحب الماخور، (مورو).

عودتها إلى منزلها لتتذكر فقرات من حياتها ثم لقاءها مع شخص يعطيها مهمة جديدة.

نجيب رسول:

رؤيا قديمة في دير بعيد.

استدعائه إلى جلسة لمناقشته في الادعاءات المتداولة عليه في وسائل الإعلام وغيرها.

نورينا:

مواجهة بينها وبين ابنتها (ديجا)، وحديثهما في موضوع الشيخ وكذلك عن اسلامها.

محاولة التبرير بزواجها السيء من والدها ومحاولتها للخروج.

****

" 13 "
بلا كفن

صوت فوران القهوة على النار كان أول شيء يلاحظه بعد صوت نقرات الساعة، ثلاثون نقرة لأنها أصبحت الرابعة بعد منتصف الليل. ترجل (مراد) وسكب القليل في كوب غير نظيف، خالي من السكر، ليرفعه شيئًا فشيئًا، ويسكبه داخل وعاء بطنه بينما يُحملق بلا انقطاع. كانت أطرافه ترتعد، يشعر بحكّة لا يقدر على مقاومتها، حكّة من أسفل جمجمة راسه. التلفاز لا يزال يرتجف بومضات، لا يريد (مراد) أن يسمعها أو أن ينصت إليها، في رأسه حديث من الأصوات المتراكمة، لا يريد أن يرضخ لها.

وقت أن انتهى الفنجان ووضعه (مراد) على الطاولة، أو ظن أنه وضعه على الطاولة، وهو في الأصل مُكسّر إلى قطع بعد أن سقط على الأرض. وقف (مراد) بكل خضوع أمام المرآة الطويلة، والتي كانت ترسمه كاملًا باستثناء قدميه، يُضِيق عينيه ويوسعهما مرات ومرات، باحثًا عن شيء مفقود. كان لا يزال يرى أن شيئًا فُقِد منه ولا يدري أين مكانه.

الأوراق المبعثرة على الطاولة، المفكرة الصغيرة، فيما بينهما سكين لها حزّ مشرشر كإحدى سكاكين الجيش، علامة القوة والعزيمة. على التراب تزحف أجساد الرجال، لتعود بتباشير النصر. هكذا عاش البعض وهكذا ماتوا، وانقلبت الدماء من الرمال إلى الشوارع، وتخضّب الأسفلت بلون لم يعده، قاني. لا يزالوا يصرخون، لا يزالوا يندبون،

كانت أحلامهم تتلخص في كلمات ثلاث، (عيش - حرية - عدالة اجتماعية).

وأي عدل ينتظر الإنسان من الإنسان! لا عدل على الأرض إلا ببركات من رب السماء. كُتِبت الأسماء على الصخور، ولكنها في ذاكرة النسيان صفحة ستنسى، كتلك الصفحة التي كان ينظر إليها (مراد) بعد أن اضطجع على المقعد أمام الطاولة، وظل يُقلّب في مفكرته القديمة، التي تهالكت وتحوّل غلافها من لونه البني إلى اللون القاتم.

عناوين وأسماء يقرأها (مراد) ويتمتم إلى نفسه، فترتعش عينه. تمنى لو أنه يضرب رأسه فيفلقه إلى نصفين، علّ طرق المسامير ينتهي.

أمسك (مراد) بطاقته القومية بيد مُتعرّقة، أخفت نصف البطاقة الأيسر، وهو يقرأ، (مراد أحمد كمال نصري)، فلا ينفك يتضايق، ساخرًا بوجنة غائرة، ويُلقي البطاقة بكل ما أُوتي من قوة حتى تركن إلى الجدار أسفل التلفاز. قطب (مراد) عن جبينه بعدها وهو ينظر إلى التلفاز الذي أذاع لتوه أغنية، أتت إلى مسامعه بالضجر.

"نغمات ألبوم (سلام الليل) - هادي الأمير - (سلام الليل على الأحلام بتندهلي. تعالي نعيش ونتقابل في يوم بكرة، أنا وإنتي نعيش اللحظة م الأول) اتصل على 0900، حمل الآن،" فما كان من (مراد) إلا أن أطفأ التلفاز ورطم جهاز التحكم على الطاولة.

تلك الغصة في حلقه كان يشعر بها، حريق يعلو من طرف معدته. لا يريد أن يتقيأ ولا يستطيع أن يرتاح. شعور مزعج لطالما لازمه

ولكن لا يتذكر منذ متى. شعور ينتابه بالضيق وكأن أنفاسه تنحسر رويدًا رويدًا، فلا يمتلك الهواء ولا يقدر أن يهدأ، بينما تطرق آلاف الأقدام على رأسه وكأنها تريد أن تُوقِظه من نوم عميق، فلا يفهم هل الحقيقة خيال، أم أن وجوده في الخيال هو الحقيقة الوحيدة.

همهمة أتبعها بأنين ينبع من أحشائه، ثم عين تغمض، من بعدها العين الأخرى. ضوء برّاق، ضوء المصباح العنيد، أيادٍ كثيرة تمتد فتُطبِق على رقبته. حشرجة لا يستطيع من بعدها التنفس. هو الموت الذي لا يفارقه. كلما اقتربت الساعة من بزوغ الشمس، يشعر وكأنما تصّعد روحه إلى السماء، فتُلقى في نيران الجحيم. لا راحة لمن لا يرى في السماء خير.

تِن...

تِن...

صوت جرس الباب!

تأفف (مراد) وانحنى إلى الوراء، للحظات يحاول أن يجمع شتات جسده المتعب. كان يشعر أنه يذوب بلا نهاية. كان يشعر أن النيران لا تستقر حتى تمر الدقائق الثقيلة، وطرقات الباب مثله لا تهدأ، بل تتزايد باستمرار وتعلو حدتها، وكأن من أتاه في ذلك الوقت يشك أو يتيقن من موته.

بعين منكسرة، ووجه مزرٍ كئيب، تفاجأ الرجل الواقف أمام عتبة الباب بملامح (مراد). تلعثم كثيرًا ولم يقدر أن يجمع جملة واحدة مفيدة، حتى التف (مراد) وترك الباب مفتوحًا، وتركه للعثمته.

ترجل الرجل إلى الداخل، وكانت هيئته بسيطة، وبنظرة مشمئزة جابت المنزل، حيث القاذورات والأوساخ في كل مكان. حينها ربت على ظهره برفق وهو يتحسر، لكنه تنهد وقال، "شكلك منمتش يا باشا."

من مقعده ردّد (مراد) بشيء من الضيق، "عايز إيه يا سيد،" وأشعل سيجارة سرعان ما انتشر دخانها.

قال (سيد) بعد أن أخرج كيسًا أسودًا من جيبه، "إنت نسيت وإلا إيه يا باشا، إنت مش إمبارح المغرب وإنت خارج قولتلي أصحيك النهاردة الساعة خمسة."

"أعملك حاجة تشربها تفوقك يا باشا؟"

"أنا قولتلك تصحّيني؟!" سأل (مراد) بدهشة وأردف، "إنت مش إمبارح شفتني ووصلتني لباب البـ..." ولم يكمل (مراد) لأن (سيد)، الذي انحنى بالفعل ليجمع القمامة في الكيس الأسود، قال، "من بعد المغرب مشفتكش يا باشا، وإنت عارف، أنا آخرى الساعة اتناشر. مبطوّلش عن كدة وعمري ما عملتها."

أومأ (مراد) ولم يُعقّب، بل كانت السيجارة تطرح رمادها على الأرض.

قال (سيد)، "إنت شكلك تعبان يا باشا. روح نام بدل ما إنت صاحي كدة وأنا أجيلك في وقت تاني."

"لأ،" قال (مراد)، "ملوش لزوم. شوف اللي إنت بتعمله."

شرارات من عين (مراد) تخترق النفس الساكتة، (سيد)، الذي كان ينظف.

أمسك (سيد) ببضع مئات من النقود المُلقاة على الأرض بجوار الأريكة، يُكرمشها في قبضته، ويمد يده قائلًا، "اتفضل يا باشا."

بنظرة من (مراد) أكمل (سيد)، "يا باشا لازم تحرّص على حاجاتك."

قاطع (مراد) من بعد غصة، "خليهم في جيبك يا سيد."

"يا باشا، بس..."

"مفيش بس، وشوف إيه اللي محتاجة البيت وابقى جيبه."

"حاضر يا باشا، تحت أمرك."

أمسك (مراد) طرف رقبته من الصداع الذي اجتاح رأسه. إحساسه بارتخاء أعصابه زيادة عن وضعها الطبيعي كان يؤرقه، وكأنها متلازمة لمرض ما، حيث ينتفض جسده وترتعش أطراف يده بينما يدب الضجيج في دماغه كضرب النعال. يتمنى وقتها لو أن في يده سكينًا فيفصل تلك الرأس عن الجسد، لعله يرتاح.

بشيء من الألم تكلم (مراد)، "الحاجات اللي ملهاش لازمة ابقى خُدها لأولادك يا سيد..."

"إنت قولتلي هما كام؟"

"ستة يا باشا والسابع جاي في الطريق."

"سبعة يا سيد! سبعة! مش كتير عليك."

"ربنا يزيد ويبارك، العيال عِزوة."

"إيه العِزوة في كدة؟"

"أهو، اللي اتعلمناه..."

"وبتصرف على كل دول إزاي؟"

بشيء من الحسرة وشيء من الطمأنينة، قال (سيد) من دون أن ينظر، "ربنا كريم وبيرزق."

تمتم (مراد)، "آآه..."

"... بقولك يا سيد، ادخل الأوضة هتلاقي على الترابيزة اللي جمب السرير، علبة صغيرة، هاتهالي."

"سلامتك يا أستاذ مراد."

"هو أنا قلتلك إني عيان!"

"لأ... بس... حاضر يا باشا، حاضر،" من عند باب الغرفة كان يتكلم.

"شوفت يا باشا اللي حصل، مش جيت عالفجر كدة بفتح التلفزيون عالفضائية، ألاقي حادثة كبيرة على كوبري أكتوبر."

"عمري ما فتحته المخروب ده ولقيت حاجة عِدله."

"لا وإيه بيقولك..."

"... قفلت الكوبري وبيقولوا في خمسين واحد كمان اتصاب فيها..."

"واللّه الواحد ما هو عارف البلد دي رايحة على فين."

ضاقت عين (مراد)، انتفض ثم انتصب مُسرعًا من دون أي كلام، عاد (سيد) لكنه تفاجأ أن باب الشقة طرق من وراء (مراد)، الذي خرج من توّه

كان يتكلم وانتهى، "باشا!!"

السلام والعجلات، خطوط طولية، التفاف وميادين، إشارات حمراء وخضراء، وحركات

بهلوانية. رحلة الساعات، قطعها في وقت قياسي على غير العادة. في القاهرة، لا يمكنك أن تتحرك من مكان إلى مكان من دون أدوية الضغط، وقدرًا وافرًا من الصبر.

****

السيارة في ممر بعيد...

شق (مراد) عباب الليل وسار بطرقات حذاء تندثر بين جنبات السكون الذي طغى على الطريق، مرورًا بمقهى مغلق وأرصفة سوداء تكاد لا تُرى من قلة الضوء، حجر كبير ترشمه أعواد البخور بنسيم عطِر يضع عنوانًا لشارع جانبي صغير، رائحة قميئة تسري على الأسفلت كطاعون قاتل، يبحث عن جسد يحتويه، لينتشر كوباء بلا رادع.

رائحة تخترق منخاريه فيتأفف، وينزعج، رغم أنها كانت تنحسر بفعل دخان البخور المتطاير، وربما كان يتخيل كل أنواع الكوابيس التي من الممكن أن تطارد كل من ترجل في ذلك الطريق، طريق إلى أذرع الأخطبوط.

حارة الموتى، لا تبرح أقدام الوافدين إليها حتى وتتمنى مرور الكرام. هنا حيث اكتظت الأقدام المتسخة بالدماء ما بين المئات والآلاف من الجثث الباحثة عن سبيل الآخرة. العذاب الدنيوي الذي يؤرق الأحياء قبل الأموات. فلا بكاء ولا عزاء حتى تنتهي مراسم التشريف.

ألا إن من بين الضباب صوتًا يهمس في أحلام النائمين، فلن تعود من فزع ولن تتعود

عليه، ولن تبرح موطنك لأنك قليل الحيلة، تعيش وكفى بين الأشباح.

نثر (مراد) عن جسده قشعريرة الجو برداء أكثر بردًا كان ينبع من داخله. كانت أعواد الكبريت تتساقط أنهارًا من طريق إلى ممر إلى ذلك الشارع الصغير. ربما أحرق الكثير من السجائر كي يبقي دافئًا وربما أحرقها كي يظل مستيقظًا، متفكرًا فيما تحتويه الأنوار المختبئة من وراء الستائر في الطوابق العليا.

أناس يتضاحكون وأناس يتخاصمون وآخرون لا يتكلمون، أما هو، فكان يمشي في طريق لا يقدر على الرجوع عنه، حتى أنه رأى ابن عُرسٍ ينسل من بين فتحات السور، فتبسم، وشبه نفسه بذلك الكائن الذي يعشق الظلام ويندثر في طيات ظلاله، فلا تقدر أي فتحة كانت على منع جسده الزلق من الدخول.

"تفتكر يا عمونا، مش لو كانوا عملوا حسابهم كان بجى المكان أحسن؟"

"إنت أكيد بتهزر، إنت جديد في الشغلانة ولا إيه؟"

تطرقت الأصوات إلى مسامع (مراد) الذي أسرع راكضًا إلى ناحية الجدار والتصق في خشونته، صامتًا، يستمع إلى حديث رجلين من وراء السور، يجلسان على سلم أمام بوابة حديدية زرقاء، يشربان أكواب الشاي، أحدهما يدخن السجائر والآخر يرتدي زي الأمن المركزي.

"لو حد عرف إنك سايب مكان خدمتك قدام المصلحة هتتشاط فيها يا ابن عمي،" قال الرجل ممازحًا، وكأنه يدعوه إلى عدم

الخوف، فكان رد فعل العسكري أن قابله بوجه ضاحك.

ارتشف القليل من الشاي ثم قال، "عليّا الطلاج ما في حاجة عِدلة. يا بويا، أنا بعمل اللي يجولولي عليه. اجعد هنا يا محمدين، أجعد. نام هنا يا محمدين، أنام. بس دلوجتي مفيش حد. خلينا نروّح عن نفسينا شوية يا بوي."

أمسك الرجل بهاتف نوكيا قديم، يُقلّب فيه بينما يتكلم، مغمضًا جفنيه من الدخان الكثيف للسيجارة المحشورة بين شفتيه، "وعلى كدة، إنت إيه رأيك في اللي حصل؟ أهو كتير متلقحين جوا، لا معروفلهم صاحب ولا عزوة. الواحد فيهم بقي عامل زي الخرقة النتنة."

"اللهم احفظنا يا عم،" عقّب (محمدين).

"المشرحة مليانة اليومن دول. متقولش ماسورة وضربت يا جدع."

اقترب (مراد) أكثر وشحذ سمعه ناحيتهما. كان (محمدين) قد أنهى كوبه للتو، فوضعه على الأرض وقال شاكرًا، "تسلم على واجب الشاي يا عمنا."

"يا بلدينا، متقولش كدة، أدينا بنونّس بعضينا، وكمان الشغلانة دي عايزة دماغ صاحية."

"بجولك يا ريس ناصر. بجالك كتير إنت شغال هنا؟"

"يووووه! من زمان، مبقتش أعد."

"هو صحيح في عفاريت؟"

أجاب (نـاصر) بـتمتمة وملامح الخوف تظهر عليه غير أنه حاول أن يُخفيها، وقتها قفز (مراد) من فوق السور، في ركن مظلم معتليًا الأسياخ الحديدة المعقوفة، وترجل إلى ممر جانبي، حيث وجد بابًا خلفيًا لغرف تغسيل الموتى، ليقطع المسافة سريعًا، غير مكترث للرائحة النفّاذة التي تخلّلت كل ذرة في جسده برغم النظافة الدورية.

رائحة الفورمالين، رائحة الأموات، كان لا يزال يشمها عبقها القاتل، عبق يتراكم بحدة على طبقات الجلد المختبئ من أسفل جاكت أسود، لا يستطيع أن يمسحه عن نفسه، لأنه عبق يأكل الحياة.

"الباب مفتوح!" أول بادرة في عقل (مراد) وقت أن وجد الباب الخلفي لإحدى غرفتي التغسيل مفتوحًا وبه خدوش وشحطة خفيفة على الدهان، حيث الجدران البيضاء التي لم تنجلِ عنها الأصباغ، حيث طاولة رخامية بيضاء وزجاجات خضراء بعضها ممتلئ بمادة ثقيلة، وحاويات بلاستيكية مقصوصة بالمقص، تستقر بين مماسح الأرضيات العفنة، ولباس كحلي معلق على مواسير موصولة أسفل السقف، وسخّان المياه المتدلية أسلاكه.

شعر (مراد) ببرودة غير اعتيادية تدب في أوصاره، رعشة أصابته بالخوف، خوف دفع الألم في رأسه لأن يزداد. نبضات قلبه كانت تتراقص على وتيرة الانقباض الساحق، ذلك الانقباض الذي تتبعه وفاة حتمية.

يشعر الأيادي وهي تلتف من حوله، تلمسه، يتكهرب، مسّتها جليدية، مرة أخري يشعر أن الموت أقرب إليه من تلك الطاولة القابعة

على يمينه. كان يفقد السيطرة على أعصابه. كان يتهاوى، ولكن يده المثبتة على الطاولة حالت دون وقوعه، بل وسحبها مُسرِعًا لأنه تصور جسدًا خائرًا موضع أصابعه. كان يخشى الموت، لم يكن يخشى الموت، ما بين نقيضين مكثت أنفاسه، حتى أتاه ذلك الصوت.

"لو بتخاف من المشرط، متخافش."

"هه هه، إنت عندك حق، وأنا هحاول موجعكش."

"بس قولي، إيه حصلك؟ إنت أكيد هتقولي إيه حصلك، صح؟"

"حد قتلك؟"

"يا ترى إزاي؟"

"لأ، ما هو لازم تقولي عشان أكتب التقرير وأعرف اللي جرالك."

تربيتة على الكتف، "أيوة، الكلام ده مظبوط..."

"... هنا الأموات عايشين في سلام. راحة أبدية مفيهاش شقى. الواحد منهم مبيشوفش العذاب تاني."

"الأموات عمرهم ما بيرجعوا، بالظبط زي اللي بيموت جوا الإنسان."

"ولّا إنت عندك رأي مختلف!"

"آه طبعًا، أكيد أحب أسمعه."

كان (مراد) يتلصص الخطوات على إثر الصوت الذي يتصدّى في الممر الأزرق. يتكلم إلى شخص آخر، فكر (مراد) أنه شريكه، ربما يتباحثان في أمر ما.

في منتصف الممر، والأنوار مُطفأة تقريبًا إلا من ضوء الغرفة التي اتشحت باللونين الأبيض والأزرق، وعند طرف الباب، اعتكف (مراد)، يترقّب بعين واحدة، رجل يرتدي معطفًا أبيضًا وسروالًا لازوردي الصبغة، يقف مُنتصبًا على اليمين أمام احدى طاولتين من الاستانلس.

ضحك مرة وبعدها مرة أخرى، ثم كرر، "تفتكر، لا، لا، مش للدرجة دي."

"أنا عايز أقولك إن لو مقلتليش إيه اللي حصلك، مش هقدر أساعدك. ما إنت لازم تقولي إزاي مت."

ما بين ثلاثة أصابع يقبضون على مشرط، رجل فارق الأربعين بخمس سنوات، سنوات عجاف تركت بأسها على ملامحه، خفيف الشعر، لحيته كالأشواك المغروسة، وضربة على الرأس أظهرت أغشية تُغلّف المخ، وصدر عارٍ به شق في منتصفه.

كان يتكلم، "المشرط ده بيشيل طبقات ساعات العين نفسها بتكون ليها نفس القوة وتعرّي الإنسان كإنها شايفة كل حاجة قدامها."

"متقلقش، أكيد مش هعمل كدة."

وضع الرجل كلتا يديه على الطاولة وانحنى ليسمع بوضوح، ثم قال، "تفتكر الضربة على راسك هي اللي قتلتك ولا الضربة اللي في صدرك؟"

"الاتنين مختلفين وكل واحدة ليها سلاح خاص بيها."

"ممم! مش عارف؟"

"أوك، السلاح التاني مش متاح لأن محدش لقاه، بس برضو مقدرش أجزم إن ضربة الراس هي اللي قتلتك."

تنهد قليلًا، ثم أكمل، "إنت لازم تساعدني أكتر من كدة."

كان (مراد) قد ضاق ذرعًا، لكنه تمكن من التعرف على الشخص الموضوع على الطاولة اليسرى، فضاقت عيناه مُتسائلًا.

وقع أقدام، سمع (مراد) وقع أقدام، صب اتجاهه جل اهتمامه ليتيقن من مصدره. مرت الثواني حتى تأكد من توهّمه، فعاد ناحية المعطف الأبيض ومشي بهدوء حتى وضع مسدسًا على رأسه، فتجمد كل شيء عن الحركة، حتى أن المشرط وقع من يده، واتسع بؤبؤ العين حتى غطّى البياض.

نطق (مراد)، "متتحركش،" وكان الصبر ينفذ من أحشائه المضطربة.

بقوة أدار (مراد) الرجل الذي يرتدي المعطف الأبيض، نظرة أمام نظرة يفصلهما زجاج النظارة.

"إنت!!"

****

" 14 "

طهارة روح

تراب كان يتطاير بين أمواج الصقيع، برودة تسري في الأجساد الناعسة عدا جسده. أصابعه كان يُحرّكها بين النجوم في السماء. نقاط يزداد توهّجها كعقد من حبات المرجان، انفرط رباطه، فتبعثر بين أرجاء الكون.

في ليلة من ليالي الانسان كان وحيدًا، ظلًا ثابتًا في بحور الحياة، شريدًا يُجاهِد كي يعتلي الأسوار، لعله يصعد إلى السماء، فيمسك بيده ضوء القمر.

ما بين خنصره وابهامه كرة بيضاء، يتخلل نورها بين الثنايا كخيوط من الخيال الحالم. كرة في أقصاها وميض أسود، وميض يزحف مُتسلِّلًا خلف الضياء بستائر من عتمة، فقد حان وقت الظلام، وعادت القطرات لتعكس على مرآة عينيه بداية لانحسار الضوء وتركه المجال للظلام كي يسود، ظلام وفي آخره هيمنة لكل ألوان الأثير.

كجذع نخلة أتى عليها الزمان بأوجاعه، كان يقف متماسكًا، يرقب السماء ما بين الأروقة الترابية والقبور التي احتضنت فيه ما لم يحتضنه الناس. كان يقبع في رويّة وسكون. كان يبتسم مغمض العين، في جنون.

وقف (عابد) ليرقب أنه الوحيد في ذلك الكون، أرض الموتى، الذي كان ينظر إلى السماء ببشاشة غامضة ويتمتع بأوقات النجوم، فلا ملمس لإنسي وآدمي في الخواء. بطقطقة في مفاصله، أحنى رأسه ولملم ملابسه الفضفاضة ثم كوّمها أسفل حزامه، ليعرج

طريقه إلى المنزل. إلى حيث يغفو الريس (طلبة) في سبات عميق، سبات جعل (عابد) يُفكّر مليًا وتغوص عينه في محجرها متى تيقن أنه سيجد الريس (طلبة) في فراشه.

أمام الفراش ظل واقفًا. لا يُتمتم ولا يسأم من الانتظار. كان يمضي الوقت كصخرة استقرت في موضعها بعد أن ترجّل بين الجدران وأطفأ الأنوار، مُغلقًا النوافذ كلها.

يرمق الفِراش الفارغ، فتضربه ملامح الريس (طلبة)، ملقى على الأرض، تبتلعه هوة سحيقة لا قرار لها. يرى الجسد المهمل تحت الأرض والتراب يتساقط عليه كالسكاكين. إلى مستقر الآخرة ذهب الريس (طلبة)، ولكن (عابد) لا يزال ينتظر رجوعه. كانت أصابعه لا تزال متسخة من خشاش الأرض، نفس الأصابع التي حثت التراب على جبين الرجل الأشيب، لتخبره أن طريق الموت لا رجعة فيه.

وقتها تألم، ألم شديد يكتنف أضلاعه. ضربات الأحزمة تنهال على جسده. شعر بها وكأنها تقتلع العظام، فيصرخ، بحنق وافر، ويتكور على نفسه ليتحمل فلا يستطيع. أمام الفراش ظل صامتًا. صمته كان يحمل صورًا أخرى إلى عقله.

رجال ونساء يجلسون في البعيد، يشاهدون باستمتاع الريس (طلبة) وهو ينقش على جسده بالحروف كل معاني العذاب. دماء تسيل من جروحه، لكنها دماء سوداء.

الومضات تظهر واحدة تلو الأخرى كالخواء ثم تختفي، لا يرى سوى الأمتار القليلة من حوله. طائفة من الناس يجتمعون، يتجالسون فيما بينهم، بعضهم في الممرات وبعضهم يستند على الجدران والأعمدة. يتكلمون خفية

ولا يسرّون بالحديث لأي أحد كان. من خلالهم مر (عابد) كخيال لا يُرى. لا يرمقونه بالنظرات ولا يُعيرونه الانتباه، وكأن على رؤوسهم مساكن الطيور، لا تنفك أعينهم المجهدة بالبوح بالأسرار، يخوضون في غمار الأكاذيب كخوض أحدهم في قنايا الماء.

أمام ذلك الرجل، الذي خطّ الشيب ملامحه، وذقنه المغزولة، اضطجع (عابد) بعد أن انحنى وتألم، واستند ليشبك القدم بالقدم، ولم يقدر على الاضطجاع كاملًا. وضع الرجل كفه على كتف (عباد) وربت عليه برفق. وجهه البشوش أطلق تباشير السلام. عينه السوداء كانت تستبق الحدث وترسل الرسائل تباعًا، لكن الحديث بدأ متى بدأ الكلام.

صوت يُدوّي، لا يعرف (عابد) أين مصدره. صوت لا يصدر عن الرجل لأنه مُطبِق الشفاه. كان يناديه، "عاااااابد،" و(عابد) لا يلتفت إليه وإنما إلى الأجساد العارية التي تتمايل في الظلال بعيدًا.

"أديان الهوى، تلك. أديان المصالح، تلك. أصبح الأخ لا يأمن أخاه ولا الجار يأمن جاره ولا الصديق يأتمن صديقه. أصبحنا في زمنٍ، الزوجة لا تأمن زوجها. كل المفاهيم أصبحت تنحني وتتبدل."

"وأي خطيئة هي تلك! وأي خطيئة هي تلك! وأي خطيئة هي تلك!"

"فاثبتوا على الحق! فاثبتوا على الحق! فاثبتوا على الحق!"

"رجل وفتاة! رجل وفتاة! رجل وفتاة!"

"خطيئة الجسد. خطيئة الجسد. خطيئة الجسد."

نبرة هادرة، "تطهير الذنوب! تطهير الذنوب! تطهير الذنوب!"

"تطهير الجسد! تطهير الجسد! تطهير الجسد!"
ذلك العجوز نظر في عينيه، يعرفه جيدًا. هالة سوداء وابتسامة مارقة، إنه هو، صوت لا يفارق خياله، ذلك المختبئ في عباءة الوقار.
"عابد! عابد! عابد!"

****

أشياءه القديمة وملابسه الملقاة على السرير بلا نظام، تبختر (عابد) في مشيته ثم أمسك بطرف الجلباب المهلهل ليفرده على صدره، قليلًا ما استطاع أن يقترب من ملابس الريس (طلبه)، وبما أنه ذهب في رحلته، فالمنزل بأكمله أصبح تحت رغبة (عابد)، ورغبته كانت في أن يتصنّع دور الريس (طلبة) كراعٍ للقبور، بارتداء ملابسه أولًا، والتعكز على عصاته، ومخاطبته الناس بصوته، غير أن الأمنية الأخيرة لم تكن في الإمكان.

لم يتعرّ عابد من ملابسه بل انسل إلى داخل جلباب الريس (طلبة) بعد أن قبض نفسًا عميقًا، ملأ به صدره المتكور، وأمسكه وقتًا طويلًا حتى استطاع أن يتجسد تمامًا في شخصيته، غير أن تقوّس قدميه وانحناء ظهره أرغمه على أن يُلملِم أطراف الثوب ويعقدها بصعوبة حتى تمكن من السيطرة على الموقف.

وقتها فقط، ضغط (عابد) على العصاة وطرقها على الأرض عدة طرقات. وقتها شعر أنه هو الريس (طلبة)، الرجل الذي يحبه الناس.
حتى سقطت!!

تلك الأوراق المطويّة سقطت على الأرض، و(عابد) ينظر إليها بدهشة ولا يستطيع أن يجثو ليلتقطها، لكنه بذل المحاولات، حتى التقفها. كانت أصابعه الحجرية ترتعش وهو يعكس طيّة الورقة ليفتحها. كلها كلمات، كلمات وأحرف ونقاط. علامات مبهمة لا يقدر (عابد) على فهمها، رائحة غريبة تفوح من بين الورق ربما لأنها مكثت في جيب الجلباب وقتًا طويلًا، رسالة قديمة كان يُقلّبها بين يديه، حتى فقد الاهتمام بها، فأعادها إلى جيب الجلباب.

همهمة!

ضجيج بذل فيه (عابد) طاقة هائلة حتى يخرجه من مسالك حنجرته. ألا إن قدرته على الكلام بصورة الريس (طلبة) كانت لا تتعدى طرقات طائر نقار الخشب، نقرات كانت تضرب في دماغه فتوجعه. وقتما تيقّن (عابد) أنه لن يستطيع أن يُضاهي الريس (طلبة) في تصرفاته، اهتزت مفاصله وتحشرج ثم بعنفوان لا سيطرة له عليه، مزّق طريقه خارجًا من قيود الجلباب، بل من قيود الرغبة الملحة.

نَهَر (عابد) نفسه وهو يُلقي الجلباب أرضًا ويدوسه بقدمه من شدة الغيظ، حتى كاد يتعثر فاستند بمعصمه، وأصدر طقطقة، غير أنه تمكن من الوقوف.

النار، حرارتها كانت تتجسس أطرافه، بل وكانت تأكل الثوب بما يحتويه من فشل. هكذا شعر (عابد) بالانتصار، بعد أن أوقد النار في قدر حديدي وغمس فيه الجلباب، حتى تحول إلى لا شيء. يطفو الدخان إلى

داخل رئتيه، فيُطهره وينقيه من خبائث الوجود، من شظايا الأفكار العبثية.

في تلك النار، رأي (عابد) قدرته على السيطرة على الأمور. كانت الفرحة تتوغل في جوهر فؤاده. كان وقتها لا يزال قزمًا صغيرًا، وكانت يده لا تزال رطبة رغم تيبّسها. كان يتمايل ويتراقص على الرغم من أن شيئًا فيه لم يكن يتحرك.

وقتها فقط، ضربت الصرخات في أذنيه، صيحات تستغيث. كانت الأنامل الصغيرة تهرع مسرعة وتتعثر، أقدام عارية تُلامسها الصخور كالسكاكين، فتذبحها، وتصب منها الدماء لتروي عطش الأرض الجرداء. كان الصوت يختفي ثم يعود، وكأن الأنفاس لا تُسعِف صاحبها، حتى انحنى وارتكز على ركبتيه، لا يستطيع المضي قدمًا. زفرات باهظة وشهقات كثيرة كان يأخذها من الهواء ولعله لا يملك ثمنها.

بنطاله الممزق يُظهِر شيئًا من جسده، وعلى كف يده علامات وخطوط، وأظافر اسودت من الأوساخ. لم يُسعفه الوقت حينها كي يلتقط بقايا أنفاسه، حينما أدار رأسه، وجد أحذية سداسية تجوب الأرض باحثة عنه، بل وكانت في مرمى البصر ولم تكن بعيدة. أجساد فارغة مهلهلة وسراويل ضيقة وفضفاضة، تظهر الملابس الداخلية وربما أكثر.

ضحك أحدهم بطريقة بلهاء، وتكلم، "هه هه هه!! هتروحي فين يا قطة؟ إنتي هنا ملكيش مكان."

وافقه الشاب الأخر وكان يُنظّف منخاره بطرف يده، وقال، "عايزين نقضي المصلحة دي يا

قبطان. هنقضّيها حاوريني يا تيتة طول الليل ولا إيه! الحتة هتخلص والبؤبو هينخ."

"ما تنشف ياض، أنا عارف المُكنة دي كويس، المُكنة دي مفيهاش حد غير راجل عجوز مهكع، وأنا شفته خارج من يومين، يعني مفيش حد."

"البت معفنة، بس شكلها فرسة."

"خ خ خ خ،" وحشرجة ثم تفل على الأرض وأخرج كل أوساخ صدره.

كانت الفتاة لا تزال تُسرع خطاها وتتعثر المرة وراء الأخرى. طاقة غريبة كانت تتخللها. طاقة لا تعرف لها معنى، لكنها طاقة البقاء. غريزة أساسية عند كل إنسان، ولكنها عند الأنثى قوة جبارة تمكنها من الحفاظ على نفسها حتى في أحلك الظروف.

تلك الفتاة الغير منمقة ملابسها، التي كان جيبها محشوًا بشيء ثقيل، وأطراف شعرها الثائر لا يُعطي أية لمحة عن كونها أنثى.

تلك الفتاة كانت تبكي، ولم تكن تبكي. كانت الدموع تسيل على وجنتيها، ولم تكن تسيل على وجنتيها. كان قلبها يثب كالجواد الأهوج صاعدًا إلى منتهى حلقها، ولم تستطع أن تلفظه لتنعم براحة الموت.

أيادٍ حانية، طمأنينة واستقرار، تمتمة وصياح، أقدام تسوقها، وفي ذلك الشيء تلقيها. بعد أن كانت ترى النور، أصبحت ترى الظلام، وبعد أن كانت تشعر بالدفء، أصبح الصقيع هو موطنها. كان العالم كبيرًا جدًا. كان العالم هو تلك الحاوية التي وصمتها بشعار الوطن الجديد، وأعطتها

جنسية ظلت تحملها إلى ذلك الوقت البعيد، حيث ارتطمت على الأرض ولطمت أنفها، فدمعت من الألم.

"بقولوكوا إيه، روحوا امسكوها، أنا زهقت والحكاية مبقتش تبسطني،" قال الشاب الثالث وفي فمه سيجارة ملفوفة دخانها كثيف بعد أن أعطاها لمن يقف بجواره ثم استعادها مرة أخرى.

"أنا في حاجة بتاكلني، هه هه هه!" ثم أمسك بنطاله بطريقة ذكورية أصبحت عفوية.

"يا سلطنة، النهاردة هنفرتكها."

"المهم تكون متأكد محدش بييجي هنا."

"يا عم متقلقش، المكان ده مبييجيهوش حد،" وأكمل، "الناس هتسيب البلد كلها يعني وهتييجي هنا، مع الميتين."

"ما تشوف يا جدع، يمكن حد يكون عايز يظبّط هو كمان،" قال أحدهم وكان يشير إلى الأضرحة المتراصة في جوف الليل، ضاحكًا.

القمر هو الشيء الذي قدّر المسافة بينهما، تلك الفتاة لم تكن بعيدة أبدًا، وبدأت تشعر باليأس لأنها لم تجد طريقًا بين الأروقة المظلمة، التي تشبه المتاهة.

قال أكبرهم، "اللي عايز يشارك يشارك، إحنا مش هنستخسر في حد،" وكان يقولها بخيلاء وسخرية في نفس ذات الوقت بعد أن ظن أن تلك المصلحة سترفعه كي يكون قائدًا عليهم، ويصيروا من أتباعه، لا يرفضون له كلمة بعدها.

"والله إنت كبير يا كبير. تصدق الواجب ده مش هنساهولك العمر كله."

"مش قلتلك السلطنة هيعمل واجب معانا."

"استنوا طيب لما نشوف حلاوتها."

استهجن أحدهم، وكان ينتفض كالديك الذي أصابته الأمطار، "على الأقل أحسن من الست الكُهنة بتاعة آخر مرة."

بنفس الحركة، قال الآخر، "دي أخدت ميت ملطوش بنت الإيه..."

"قصدك، بت الأرندلي!"

"هه هه هه هه! آه والله، عندك حق. بس المصلحة المرة دي لوز."

كل واحد فيهم كان يتخيّل مغامرته القادمة، كيف سيثبت أنه الرجل الفحل، بل والرجل الأقوى بين الآخرين. عقولهم الفارغة تكدست بالفقر، تكدست بالجهل، بل وتكدست بالخوف، أما الفتاة فكانت هائمة، مضطربة ومتحيرة بين الممرات، لا تدري في أي طريق تذهب. كل الطرق تشبه الدائرة التي تعود إلى مركزها. أينما ذهبت، كانت تجدهم في إثرها. يقتربون ناحيتها، أناملهم تتجسس أطرافها، تنتفض، تصيح ولكن بلا صوت.

وبينما هي تركض، أخرجت سكينًا مخبأة في ملابسها، أمسكتها بقوة، لعلها تكون ملاذها الأخير، لعلها تتعلم شيئًا من تجربتها السابقة. كانت تشعر بالرهبة. كانت تشعر أن جسدها تعرّى مئات المرات. لا الناس يمدّون أيديهم ولا الأقدام تكف عن الركل. أصبح الإلحاح هو سبيلها الوحيد في النجاة. إلحاح على الحياة كي توهبها الحياة، وإلحاح على الموت كي يوهبها الموت، لكنها لم تنل الحياة ولم تنل الموت، بل ظلت

معلقة كالهامّة في أودية الزمان، لا تخشى أكثر من الخوف نفسه.

انتهى الممر، كل الأضرحة تتقوس حتى لا ترى لها دربًا تسلكه. كل الأضرحة تتكاتف عليها. من بقايا الموت أشباح يُقيّدون حركتها. عينها الجاحظة والسكين في يدها، لا إلى اليمين ولا إلى الشمال.

لا طريق سوى طريق العودة، حيث وقف الشباب كنهاية المطاف بالنسبة لها وبداية المطاف بالنسبة لهم.

تقدم الأكبر وقال، "مفيش طريق من هنا يا حلوة، تعالي بالود أحسن. صدقيني هيعجبك الموضوع."

تكوّرت الفتاة واتخذت موضع الهجوم، وأمسكت سكينها أمامها، تشيح بها لتخيفهم.

بغيظ شديد، "جرى إيه يا بت، إنتي هتعمليهم علينا. إنتي كلاب الشوارع متعبركيش يا بت. إنتي تبوسي إيدك إن إحنا معبرينك أصلًا."

"هتعمليلي فيها الخضرة الشريفة؟ تلاقي أصلًا البلد كلها عملتها معاكي، وتلاقي ميت إيد فعّصت فيكي."

اقشعر جسد الفتاة باختلاجة جامحة لم تقدر على منعها، ذلك الشعور أصابها من قبل، وتلك التجربة كانت تتكرر، لكنها لا تزال تشعر بنفس ذات الخوف.

كان الشاب يكمل كلامه، "... فمش هتعمليهم عليّا."

"تعالي هنا، جايز نخلّيكي المزة الرسمية بتاعتنا. هنبسطك وهنصرف عليكي، مش أحسن ما تعيشي في الشارع؟"

نظرة أمام نظرة، "يووووه، هتفصليني. بقولك إيه، روح هاتها،" وقبل أن يتحرك، استدارت الفتاة وقفزت على أسوار الضريح، تتشبث بأظافرها في أحجاره وتحاول الصعود.

صاح أحدهم، "يا بت الكاااااااااااب!" وكان قد كوّم حجرًا في قبضة يده، ورمقها بسهم من عينه اليمنى.

فُتحت النافذة. بعد أن أثارت الصيحات فضول (عابد)، وتجلّت ملامحه من ظلمة البيت على ضوء القمر، ليرى أشخاصًا ثلاثة يقفون على يساره، أحدهم يقذف حجرًا من يده ناحية شخص آخر، والذي كان يتسلق سور الضريح وكاد أن يفعلها، غير أن الصيحة التي تبعت ضربة الحجر المسومة على ظهره، دوّت في أرجاء المكان، ليسقط بعدها على الأرض ويتلوى من الأنين كالأفعى.

شيء تمزق في القلب. كانت الفتاة تبكي. كانت فجيعتها متلاحقة. كان اليأس قد أصاب عزيمتها.

وقتها خارت...

بهزة قوية وقبضة فولاذية، أمسكها اثنين من الشباب، وعلى سور الضريح ثبّتا ذراعيها. كانت لا تزال تحاول الفرار دون جدوى، حتى ضربها أكبرهم بكفه ضربة كالمطرقة، خدّرت خدّها وقذفت الدماء من منخارها.

تمتد الأيادي فتتلمس جسدها، كل جزء فيه. ألسنة تنعقد وتصبّ لعابها فتشعر به باردًا

على رقبتها. إيماءة وأقدام تفرق ما بين قدميها. تنتحب وتشهق بفزع. كان كبيرهم يضع يده على وجهها، يتحسس تضاريسه.

تمتم في سكينة، "تصدق البت طلعت مُكنة فعلًا."

"فورتيكة يا سلطنة،" أتبع الآخر.

كانت يده قد امتدت إلى عنقها، وكان البريق في عينه الجاحظة يتزايد. متعة غريبة دبت في عروقه حتى أسرت كيانه. قوة لا يستطيع التحكم بها أو مقاومتها. دافع غريب وهاجس لا يريد أن يفارقه.

ومزق الثوب...

وكشف جزءًا من صدرها...

دمعت وصمتت، لم تترج ولم تستغيث، ومن يُغِيثها من فصول حياتها التي تُعِيد أحداثها؟

في غمار الثورة، شهق الشاب، فضربها مرة أخرى، لعله شعر بالضعف ما بين فخذيه، فعاود ضربها لعل مدافعه تستجيب. ربما رهبة المكان وربما نقطة في قرارة عقله كانت تمنعه، لكنها لم تمنعه من ضربها حتى يشحذ طاقته. تلك الطاقة التي كانت تأتي من أعماق أعماق خلاياه. تسبح مثل طلقات اصطدمت في نهايتها. شعر بها فانتفض من البهجة العارمة، بهجة يأتي من بعدها الوهن.

ثار الشاب من الفوران الذي يكتنفه. كان قد شحذ طاقته كلها. غليان ينصبّ كالحمم، لا يعوقه ساتر ولا مغاليق.

في قمة فورانه، انطلق الشاب.

لطمة قوية!

ضربة بالعصا على الرأس، أفقدته توازنه وبللت ملابسه. فزع الشابين الآخرين وتركا الفتاة، والتي جثت على الأرض، تُطوّق نفسها بجناحي ذراعيها. وقف (عابد) أمامهم، بعين مرتعشة يحدق في الفتاة المتهالكة بغضب، وبعينه الأخرى الساخطة يرمق العصاة التي يُلوّحها بصعوبة في اتجاه الشباب، الذين تركوا أكبرهم تحت رحمة التيه، تدور كل الألوان من حوله، فجلس على الأرض، لعله بعدها يستقر.

"يا ابن المدعوق!" رأسه تدور ويغمض عينه بالمرات، "بتستجـ... ري!"

ليقول أخيرًا، "إنت هتموت هنا،" وكل واحد فيهم يُغلِق مسحاب سرواله.

وثب (عابد) وثبات لا تعلو عن الأرض مقدار شبر واحد. كان يحاول إخافتهم بعصاته التي لا نمط لضرباتها. أما جُلّ ما كانوا يخشوه، هو مظهره المقيئ وجنونه الأهوج. أخرج أحدهم مطواة، اصطكت لما فتحها وأشهرها في وجه (عابد) "النهاردة هتشوف دمك يااااض."

عرج الآخر لما ضربته العصاة وانفجر من الغضب، وأمسك بالعصاة بقوة من يد (عابد)، الذي صاح كالمجنون.

"هات دي..."

"... يلعن ميتين أهلك."

"أنا تضربني يا...!" لتنهمر عليه أسواط السباب قبل اللسعات.

"إنت متعرفنيش؟ ده أنا كرااااااكة." وانهال على (عابد) بالضربات، على ظهره

وعلى رجله وذراعه. ضربات انتقامية لا تفرق بين مواضع الجسد المبعوج.

احتمى (عابد) في ثوبه، وكان يزعق ويصرخ ويتراجع شيئًا فشيئًا، لكنه كان مُصّرًا على طردهم من رقعته. تلك كانت منطقته وتلك الأرض أرضه وجواره. أولئك العابثون تجرأوا على المطي في واديه وكان عليهم دفع الثمن، والثمن هو الموت.

قفز (عابد) بقوة لم يظن أنه يمتلكها وحزّم رقبة الشاب بين حزام سروالة، فانكفأ على الأرض، بوجه أحمر قاني. أنفاسه لا يستطيع أن يأخذها، و(عابد) يُقطّب حاجبيه ويصرخ من الحنق، والشاب الآخر يترك مطواة ويلتقط العصاة، فيضربه بها دون جدوى. لم تكن هناك قوة تستطيع أن تُحرّر الشاب من قبضة (عابد). كانت مشارف موته حقيقة.

طعنة بالمطواة. تحرّر الشاب واهتز (عابد) واستدار ليرى أكبرهم، يمسك المطواة الملوثة بالدماء في يده، فنعق نعيقًا صب الخوف في قلوبهم كصب النار على الحديد.

اضطرب الشباب، وتراجعوا للوراء. ذلك الجنون الجم أفقدهم عزيمتهم ورغبتهم في تلك الفتاة. حتى أن أحدهم تعثر وهو يعود إلى الوراء، وسرعان ما تدارك نفسه وهب مسرعًا، يتبع الآخرين في ركضهم، بينما يصيح (عابد) صياح الوحوش في الفلاء، وحش كاسر من وحوش الليل، حتى تلاشوا عن مرمى بصره واختفوا في الممر.

هدوء وأنفاس تتصاعد وزفرات. استدارة وحاجب معقود وغيظ. كلها علامات صبها (عابد) على تلك الفتاة في نطاق سيطرته،

كانت ترى في عينه نظرة تفوق نظرات الشباب. كان يتقدم ناحيتها، ينفخ، خطوة تعرج وراء الأخرى. فتاة مهزومة وهمجي محدب الأطراف.

عصر ذراعيها بيديه، نظرة نارية متأججة، أنفاس مضطربة.

حيرة! صراخ! ألم! ..... ما لم ينله الشباب.

****

" 15 "
كراكة

"**صباحك** فل يا ريسنا..."

"بوسة دي يا كتابغي؟"

"سيبه في حاله، الكراكة مش في الفورمة النهاردة."

"ليه بس كدة، نظبطهاله ونعدّله الدماغ. يا سلام، أحلى سوجارة للمريسة الكراكة."

التف أحد الرجال في لباسه الأزرق واستند على ذارعه، ثم زحف مترًا واحدًا ليصل إلى الرجل الذي يجلس عند الحائط. كان ينظر بإمعان ونيران في عينيه تحترق. كانت الشهور قد مرت، وللمرة الثانية يقبع بين تلك الأسوار، يشم نفس الروائح ويلتقي بنفس الناس. لقد أصبح مقيمًا دائمًا في فندق المساجين.

كان يمسح رأسه الصلعاء بخُفّ يده الذي يشبه خُفّ الجمل، يتحسس موضع ضربة الساطور الغائرة، يده خشنة كحراشف الأسماك. لا يسمع بوضوح من أذنه اليمني، تلك الأذن المقروضة التي تآكلت.

اصطكت أسنانه، وقد لاحظ الرجل الذي يقترب منه، فوضع السيجارة بين أصابعه ثم رحل، يزحف تدريجيًا إلى الوراء في ملابس السجن المهلهلة، حتى أنه سحل مقعدته الخاصة، لكنه لم يشعر بذلك. تصخّر الجلد وأصبح صفيحًا، وأصبحت اليد المشققة أداة للقتل. لا براءة ولا عناء، كل من يقف في الطريق

سواء، إما مطعون أو مذبوح أو مكسورة عنقه.

قهقهة صامتة، وارتكاز على الجدار، ضربة خفيفة على الرأس، كان يتكلم، "هو ماله البرنس، مش في الفورمة ليه النهاردة؟"

"متشغلوش،" قال صوت مبحوح، وكان ينتهي من تدخين السيجارة ويعقبها بسيجارة أخرى.

في منتصف رأسه ضربة بمطواة، ونصف وجهه محترق، لكن جسده الضخم ويده التي تشبه الكرة الحديدية المستخدمة في هدم المنشآت، أظهرت أنه مكث في السجن عشرات السنين. كانت نبرته هادئة، يتكلم بنغمة متزنة، كان يُطفئ السيجارة في فخذه.

"واضح إن دماغه مشغولة بحاجة، بيخططلها ويظبطلها تمام."

"أحسنله يعيشها أريحيّة،" قال الرجل، "مفيش حاجة تستاهل يا ابن عمي."

"عندك أنا أهو، عمي قتل أبويا عشان متخانقين على حتة أرض. ابنه طردني وعيالي، وكوّشوا على كل حاجة. عارف عملت إيه؟"

"إيه؟"

"قتلت عمي بطبنجة ابنه، هه هه هه، المغفل أخد فيها تأبيدة."

"وإنت إيه جابك هنا؟"

"الحُرمة تبعي قال استنصحت، فاكراني كاويرك وعايزة تخلعني، ضربتها وعدمتها العافية. وأديك شايف، أديني مشرف معاكوا."

ضحكة من هنا وضحكة من هناك، مكث الرجلان يتضاحكان حتى يؤثّرا في الشخص الثالث، والذي كان لا يزال منطويًا على نفسه ولا يحدق إلا في الجدار المنقوش بالخربشات. كان قد أشعل سيجارة وكان الدخان يعصف كزوبعة خانقة من الرماد.

دوامة تحمل معها الذاكرة...

رجل ينتفض في الحارة القديمة، ويضع له الناس ألف حساب. ومن يجرؤ على الوقوف في وجه الكراكة؟

فقط أولئك الذين يتمنون الموت أو يبحثون عن الخلاص من بعض أطرافهم. هكذا كانت الشجاعة على لسان أبيه، ذلك الرجل الذي وُجد قتيلًا في درب غير مأهول. لا يزال يذكر نظرته المرعوبة، من بعدها، عاهد نفسه أن روحه لن تستكين حتى يأخذ بالثأر، فلن تسكن تلك النظرة ملامحه أبدًا.

بلا أمل ولا تعليم، ولا رقابة من الأم التي انكفأت على ذاتها، تتبختر وتتمايل، تضع المساحيق على وجهها. كل ليلة كانت تخرج ولا تعود إلا عند أطراف الفجر، فاقدة للوعي، شبحية الشكل، تسيل الخطوط السوداء من أسفل حاجبيها. كانت تعود لترتمي على السرير، وتغط في الثبات العميق.

ليلة بعد ليلة كان يرقبها عن كثب، يمقتها، يعقد حاجبيه من الغيظ ويضربها في الخشب. يده الصغيرة كانت ضعيفة. كان يتمنى أن يشتد عوده. كان يتمنى أن تموت.

يضرب الخشب على الرغم من الجروح حتى يقوى.

"يـا عرب! حبيبنا!"

صوت أحد الرجلين الجالسين معه أخرجه من حالته، وقد كان لتوه سيتذكر الرجل الذي أدخله بين تلك الأسوار، فازداد حنقًا وسخطًا، وتأفف بزفرة ملتهبة، غمّمت ملامحه بالدخان.

"وحد الله يا عرب، مفيش حاجة مستاهلة."

"ولا يكون في بالك، هتلاقي نفسك خرجت من هنا هوب، زي كدة،" وطقطق إصبعين من أصابعه. كان قد لفت انتباهه بالفعل.

قال الرجل الآخر بعد أن استدار لمواجهتهم، "شوف يا ريس كراكة، إحنا هنا كلنا عفاريت، والعفاريت لا ليهم شقا ولا مُر. اللي يضربك على قفاك، اقطعله راسه، ولو كان صاحبك."

سحب (كراكة) الكثير من الدخان ثم نفخه بعنفوان. حاجبه المرفوع والمشقوق إلى نصفين أظهر غضبه، لكنه قال، "كلام سليم يا رجالة."

"الحيّة اللي راسها طالت الرِجلين لازم تتقطع."

أتى واحد منهم، رجل نحيل، كثير الكلام تحت أقدام (كراكة) وجلس، و(كراكة) ينظر إليه ويفرق ما بين شفتيه.

"أنا بس أخرج من هنا، هسلخ جلده وأعلّق راسه على باب الحارة. ومين أجدعها راجل هيتكلم ويقف قدامي؟"

طرقات الأحذية في الممر، وضربة بعصاه على أبواب الزنازين، كان قد رأى ذلك المشهد في التلفاز الليلة السابقة وقرر أن يقوم

به. حين وصل عند باب تلك الزنزانة، نقر عليها عدة نقرات. ما بين شاربه الكث وحاجبي المكنسة، زمجر بشكل حانق، "بطلوا كلام."

"ماشي يا شويش،" نادى الرجل النحيل، بينما تلاعبت نظرات (كراكة) بشيء من الامتعاض. كان يريدهم جميعًا موتى. كانت أصابعه وحدها لا تستطيع عد الفترة المتبقية من محبسه.

(كراكة) الذي أخفت رقبته جسدًا مُمزّقًا بضربات السيوف والمطاوي، كان لا يزال منتصبًا. بحركة خاطفة، قذف عقب السيجارة ووقف، واتجه ناحية باب الزنزانة.

"بطل كلام منك له، وإنت بالأخص يا مسجون الغبرة."

أمامه مباشرة وعلى الطرف الآخر، كان (كراكة)، لم يكن يعرف ذلك بعد، لكنه كان يُتمتم بصوت جهور، "عامل رعب في المنطقة ومسيّط على نفسك اسم كراكة. فاكر نفسك فتوة ومحدش هيقدر عليك."

"أديك طبّيت يا فالح وهتشرف معانا هنا اللي باقي من عمرك."

"ده إذا اتبقى كتير أصلًا."

"تحب أزور عيالك،" نطق (كراكة) وانتفض الشاويش، وتراجع بحركة فجائية إلى الوراء عدة خطوات. حاول جاهدًا أن يتمسك بطرف بنطاله الذي كان ينزلق، بعد أن تراجعت مقدمة بطنه المنتفخة وراح عنه الشموخ.

"أنا عارفك يا صول الندامة،" ردّد (كراكة)، "وعارف إنت ساكن فين."

"الحارة دي مملكتي، وأنا الملك فيها."

بعد أن اتخذ موضعًا آمنًا، رتّب هندامه وتكلم، "لسه يا مسجون، إحنا هنا هنربيك لو أمك معرفتش تربيك."

"متجيبشي سيرة أُمّي،" نعق (كراكة).

"ليه؟ الحاجة كانت شغالة رقاصة لا مؤاخذة."

"متجيبشي... سيرة... أُمّي،" زاد (كراكة) اهتياجًا.

حاول الرجل النحيل أن يقبض على كتف (كراكة)، لكن تخشّب جسده أخافه، كما أن الرجل الآخر طأطأ رأسه بالرفض وربما مُبلِغًا إيّاه أن يتركه لحال سبيله.

قال الشاويش وهو يبتلع ريقه، "متقلقش، هتلاقيها مشرفة معاك في السجن. ماهي عيلة سوابق كُلّك."

قبض (كراكة) على الأسياخ الحديدية، وكأنه سيقتلعها، فضربه الشاويش بعصاه، لكن يده لم تبرح مكانها. كانت أسنانه تصطك بصرير مسموع.

أحذية كثيرة كانت تترجل في الممر، قاطعة المسافة في وقت لا يُذكر. عاد (كراكة) إلى الوراء بعد أن ظن أن أفعاله ستقوده إلى غرفة انفرادية، ووقتها لم يكن ذلك حلًا مطروحًا أمامه. كان الشاويش قد عاد أدراجه هو الآخر، لأن أحذية رسمية قد تجمعت من حوله، واستلموا زمام الأمور.

"شاويش نجاتي..."

"أيوة!" والاندهاش لا يُفارِق شاربه، "أيوة يا باشا."

"في أمر بالإفراج عن المجرم ده،" وكان قد مرر ورقة، حاول الشاويش (نجاتي) أن يتطلع فيها، مما استغرقه بعض الوقت ليتفقد الاسم المدرج. أصابته غصة حارقة وكأن روحه مُعلّقة في جوفه، ثم تمتم، "إنت متأكد من الكلام ده. المجرم ده لسه عليه أحكام كبيرة."

"طلعله أمر الإفراج خلاص. إحنا هنستلمه من هنا."

"أنا لازم أراجع."

"راجع مع اللي إنت عايزة."

"افتح يا ابني الزنزانة دي."

ترجل اثنان من العساكر ومن ورائهما ظهر صول عريض المنكبين، كان قد اقترب كثيرًا من (كراكة) وتفحصه من أخمص قدمه إلى رأسه، بينما انزوى السجينان الآخران عند ركن الزنزانة، و(كراكة) بثبات، لا يتحرك أمام نظرات الصول، والذي طقطق وغرغر، ثم تفل وقال، "إنت هتيجي معانا."

"على فين؟" سأل (كراكة) بجفاء.

"آخدينه فين يا باشا؟" استفسر الرجل النحيل، فتلقى ضربة في البطن من العسكري، الذي يقف إلى جواره.

قال الصول، "كلبشوه وهاتوه."

عادة ما يقاوم (كراكة) في كل محاولات القبض عليه، حتى المرة الأخيرة، كانت شديدة الصعوبة، لولا أنه قاطع نفسه وامتثل

تمامًا للعساكر، الذين طوّقوه من الأمام ومن الخلف، أحدهم يُقيّد معصميه والآخر ينتظر.

"خلاص يا صول توفيق."

"هاتوه."

هكذا ترجل (كراكة) ورفيقيه ينتحبان الحظ العاثر الذي أخذه منهما. إلى أي مكان كان سيذهب؟ ربما إلى مكان أشد ضراوة من ذلك السجن البائس، والذي عاشوا فيه قدرًا من أعمارهم.

عند بداية الدرج النازل، كان الشاويش مُتصلّبًا. كان ينظر إلى (كراكة) بنظرات مغتاظة، ولكنه في الأصل ينتفض، كان يخاف كل الخوف على بناته. في مفكرة سوداء في عقل (كراكة) كُتِب اسم ذلك الشاويش، الشاويش (نجاتي)، إلى أن يأتي الوقت ويخطّه أو يكشطه.

زجر (كراكة) وضحك لما رأي رد فعل الشاويش (نجاتي) وفرائصه ترتعد، حتى اندفع الأخير للأمام محاولًا ضربه وهو يسب عند منخاره، "يا ابن المجرمين."

"هترجعلنا تاني، وساعتها مش هرحمك."

"اللي زيك مبيعرفش يعيش بره كتير. هترجع تاني، متقلقش."

أيام العمل الحارقة، كانت زنازين السجن مكتظة بالناس. ينظر (كراكة) إلى المُجنّدين المترامين في الطرقات، وإلى الأبواب التي كانت تُفتح وتُلقى فيها الأجساد. بعض أولئك المعتلين سطوة المجتمع، يقودون بأذرعهم المنتشرة في البلاد الناس إلى الهلاك، وبعض المجرمين والقتلة العتاة، الذين اتسمت

جرائمهم بالدموية، كانوا يضحكون، فيما بينهم يتسامرون. أما الذقون، فكان لها النصيب الأكبر، وكانوا جميعًا في تكتلهم، يجتمعون، برغم تشتتهم لا يفترقون.

رآهم هناك، تلك الأجنحة التي اعتلت غمار السلطة وتساقطت واحدة تلو الأخرى من على السلم. بعضهم في الأسر حزين والبعض الآخر، يقرأ القرآن جهرًا، والبعض الآخر يتناول الأخبار سرًا. حديثهم لم يكن يسمعه لتلك المسافة التي كانت بينه وبينهم، وكما نظر إليهم، هم بأنفسهم كانوا ينظرون إليه.

تقزز ووجوم على وجوههم المجعدة. لا شيء سوى كرمشة مناخرهم بامتعاض.

لم يكن يرتاح أبدًا لنظراتهم المُتفحّصة. كان يشعر أنها تُخفي من ورائها سرًا عظيمًا. في قرارة نفسه أراد أن يبصق، لكنه فضل الانتظار. كان وحسب يسمع إلى الكلام المُلقى ناحيته، ويُقابِله بالجمود.

قبضة قوية كادت أن تكسر يده. أشعة الشمس الساحقة على غشاء أعين اعتادت العيش في الظلام. أراد أن يقفلها، لكن الضوء كان يتخلل كل جنباته، فيصيبه بالضجر. كان يُعاني، ورفع ذراعيه المُكتّفين سويًا ليحمي نفسه من الشمس، فأنزلهما العسكري الذي لا يُفارِق ظله.

في سيارة الترحيلات الزرقاء، سيارة تويوتا قديمة، لها صندوق مُغطّي، أُلقِي (كراكة)، حتى أن ركبته اصطدمت بالحديد، فأحس تيارًا كهربيًا جمّد حركته، وبمساعدة ضئيلة من العسكري، تمكن من الصعود، وجنح عند آخر

الصندوق بينما جلس أحد العسكريين إلى جانبه، والعسكري الآخر في الجهة المقابلة.

طرقة على الحديد المُثبّت مكان الزجاج في الفتحة الصغيرة، التي تكشف كرسي القيادة، وطرقة أخري من العسكري الذي يجلس أمام (كراكة)، انطلقت سيارة الشرطة، و(كراكة) الذي أدار رأسه لينظر إلى بوابة السجن الشائكة، وهي تُغلق أمامه من مجندين يقبضان على سلاحهما الآلي بكل حزم، والكثير من التحويلات المرورية، عربات مدرعة، وحراسات مشددة.

لوحة ارشادية: (قطاع مصلحة السجون - الإدارة العامة لسجون المنطقة المركزية)

طريق النصر، ألا في طريق النصر اختبأت سيارة الترحيلات بين السيارات الأخرى. عاد شعور الألفة إلى (كراكة) زاحفًا. كان يشم الهواء المُكدّر بالأدخنة، ورائحة القمامة تفوح من الأماكن البعيدة. وقت أن كان العسكري يسعل، كان يتمتع. كان يحلم بكل لحظة قادمة وكل فصل جديد من فصول حكايته.

(كراكة) لن يرضخ أبدًا للواقع...

وقف الصول (توفيق) وقفة شموخ إلى جوار (كراكة) بعد أن ضربه في مفرق رجله، فأرداه أرضًا. كان (كراكة) قد أطلق زمجرة كانعكاس لذلك التصرف، لكنه متى افترش الأرض، أصبح بلا قوة.

كان الوقت قد مر سريعًا عليه منذ أن رحل عن السجن، واخترقت سيارة الترحيلات بين الزحام بسرينتها المعهودة، تُبعِد المُترجّلين عن الجانب الأيسر والجانب الأيمن من الطريق. حتى أن الصيحات المنزعجة من

السائقين، والتي كانت تحتد متى تسمع الصياح المزعج، لم تهدأ. الأمور تبدلت، لم يعد المواطن العادي يخشى الشرطة كما كان.

كان (كراكة) يتلاعب بلسانه وكأنه يُدخّن سيجارة، وكلما تخطّت السيارة مطبًّا، كانت رأسه ترتطم بالحديد البارز.

لم يتوجع، فكثرة الطرق على الرأس تصنع دماغًا فولاذية، تمامًا مثل دماغه. متعته الحقيقة كانت في نظرة العسكري الذي يجلس أمامه، نظرة خائفة ممتزجة بالريبة.

لم يكن من العجيب أن تقف السيارة عدة مرات، مرة منهم حينما أُغلِق الطريق أمام حادثة بين سيارتين، وانكفأ الناس يتصايحون وتضاربون فيما بينهم. الصول (توفيق)، ذلك الرجل ضخم الجثمان، شق الصفوف بذراعيه كمن يقطع كعكة إلى قطع صغيرة، ومع هياج الناس وتطاولهم عليه، زعق فيهم بدرجة صوت، لم يعرف (كراكة) من أين مصدرها.

كان ينظر للناس كالقطيع، ذلك القطيع الذي هدأ فجأة، وانقلبت العداوة إلى تصالح، وقرر كل طرف أن يكتفي بأضراره ويرحل. سريعًا عادت حركة المرور، وسريعًا وجد (كراكة) نفسه مُقادًا في الرواق الضيق، حيث الوجوه الكالحة، والدموع الغزيرة، وجوه كانت تلوك اللعاب، وترمقه وكأنه ابن عباءة واحدة، في آخر الرواق، اصطدم كتفه بسيدة كانت تنوح، فزعقت، "ما تحاسب يا خويا،" بين يديها رجل ضعيف الجسد، كانت تضربه بفردة حذاء اقتلعتها من قدمها

العارية، وانهالت بحافتها على رأسه الأصلع، وهي تصيح، "يا راجل يا واطي."

"أنا تعمل فيا كدة!" كان جلبابها المصبوغ بالألوان المبهرجة، والذي يجسد تفاصيل جسمها المكتنز، مُمزّقًا. في خفية كانت تبتسم ابتسامة صفراء، رآها (كراكة) فعضّ على شفتيه.

جاثيًا أمام المكتب الكبير. في غرفة تشبه غرف الرؤساء وجد (كراكة) نفسه، كان يحط عينيه ناحية الأرض مُرغمًا، وكان كف الصول (توفيق) يقف على رأسه. كانا ينتظران مرور الوقت أيًّا كان الانتظار.

بلمحة صغيرة أبصر الشارة الخشبية الموضوعة عند مقدمة المكتب، النقيب (شادي عسر)، فأعاد طأطأة رقبته من جديد وسحب نفسًا عميقًا، لا يخلو من التأفف. لعله كان يفضل السجن على أن يلتقي بذلك الضابط مرة أخرى.

اختلاجة خفيفة لكنها قاطعة، كان لا يزال يشعر بلسعات الضربات على قفاه. نفس الضربة التي أعطاه إياها الصول (توفيق) لأنه تحرك من مكانه، أو حرك جزءًا من جسده.

تكلم (كراكة)، "الظابط شادي!"

"كان لازم أعرف إن الخروجة دي وراها حاجه."

من الأعلى نظر إليه الصول (توفيق) ولم يُعقّب.

أكمل (كراكة)، "أكيد في مصيبة من مصايبه عشان كدة جابني هنا."

هواء بارد مر من ياقة ردائه. كان الحذاء الأسود، شديد السواد، يقف وراءه مباشرة. يشم رائحة غير التي يعهدها، رائحة عطر ثمين، لا يضعه العساكر أو الصولات. ببنطاله الضيق وقميصه الأبيض، الذي حشره بإتقان وبشكل منمق، يحمل في يده هاتفًا جوالًا ضخمًا، بالكاد يمسكه بين أصابعه، يُعلّق سلسلة فضية في رقبته، ويضع كمية هائلة من مثبّت الشعر، والذي يزيده بريقًا ولمعانًا.

نطق (كراكة)، "باشا،" بنبرة فاقدة للمقاومة، لم يتكلم بعدها.

عدة خطوات فقط، استدار على اليسار ثم اقترب حتى شعر بتركيز العطر المنبعث من القميص. كان قد اقترب للدرجة التي يشعر فيه (كراكة) بالتضايق.

بابتسامته البلاستيكية المعهودة، تكلم، "تفتكر هتقدر تغيب عني يا كراكة!"

"حتى لو كنت في السجن!"

كرمش (كراكة) شفتيه وأغلق عينًا واحدة، وحاول جاهدًا أن يمتنع عن تنفس تلك الرائحة النفاذة، والتي كانت تُعييه، بينما يتحدث، "تحت أمرك يا باشا."

كان قد ابتعد عنه، يتكلم وهو يمشي الهوينا بينما يرمق الصول (توفيق)، "إنت عارف أنا تعبت قد إيه عشان أقنع رؤسائي إنهم يطلعوك من السجن؟"

"... مظنش إنك هتقدّر."

"ولا..."

قال (كراكة)، "إنت الخير والبركة يا باشا."

"آه،" همهمة غير مبالية، ثم جلس على مقعده ووضع الهاتف على المكتب.

وجهه الصبياني كان يحمل شيئًا جللًا. كان يعقد ما بين حاجبيه ويتنفس بهدوء. كان يبتسم ويعبس في نفس الوقت، حتى أشار إلى الصول (توفيق) أن يفك وثاقه ويرحل، وهذا ما فعله الصول (توفيق) تمامًا، ومن تعجّب (كراكة)، أن تلمّس معصم يده بينما يُراقِب الصول (توفيق) وهو يُغادِر الغرفة ويُغلِق من ورائه الباب.

وقف (كراكة)، وأسند (شادي عسر) ظهره برفق إلى الوراء، وأشار بإصبعه ثم قال، "إنت عارف إن ما بينك وما بين سجن العقرب شوية مباني. أنا اللي مرضيتش أدخلك هناك."

"بعد أحداث الشغب الأخيرة في سجن العقرب القوانين اتغيرت.

صاح (كراكة)، "لا عقرب إيه، أنا مش إرهابي يا باشا."

"إنت ألعن من الإرهابيين،" قاطع (شادي عسر).

"ده ملفك، شايفه؟"

هز (كراكة) رأسه لما رأي الملف المتخم عن آخره.

قال (شادي عسر)، "كل جرايمك وأفعالك وحتى اللي تعرفهم واللي يعرفوك عندي."

"وإيه لازمته الكلام ده يا باشا؟ أنا في الخدمة. إنت عارف إني واحد من رجالتك."

نقر (شادي عسر) عدة نقرات بسبابته، وقال، "تفتكر؟"

"المرة الأخيرة دي لسعة ودان بس عشان فكّرت إنك تخرج عن طوعي وتشتغل لحسابك."

"يا باشا ولاد الحرام هما اللي وزّوك عليا، أنا أصلا..."

"إنت رُحت الاعتصام وقعدت طول الفترة هناك. في البداية كنت ماشي تمام، لكن بعد كدة اختفيت."

"وأنا هختفي منكم إزاي؟ يا باشا، إنتوا عيونكوا في كل مكان..."

"... إنت عارف إن المكان كان ملبّش وأنا كنت بجيب معلومات زي ما طلبتم."

"إنت كنت رايح تبيع سلاح."

صدمة على وجه (كراكة).

"كنت فاكر إننا مش هنعرف نوصلك هناك."

"بس أديك أهو مشرف عندنا."

"بس بلغتكم عن كل خططهم،" قال (كراكة)، "أنا قولت كل اللي شوفته."

"وده اللي خلاني مدخلكش معاهم، وتشرف سجن العقرب."

وقف (شادي عسر). وقتها لمح (كراكة) بعينه المطاطية بعض الأوراق والملفات على مكتب الضابط.

أوراق كثيرة مرتبة، لكنه وضع ملفًا واحدًا أمامه، ملفًا أزرقًا له كبسة تُغلِقه، يحمل عنوان (سرايا الزعفران)، والكثير من الأقلام، حتى أنه أسند مسدسه الخاص إلى جوار القداحة، وترجل.

ترجل ناحية (كراكة)، ينظر إليه بتقزز، ولا شيء أبغض إليه من ذلك الحقير الماثل أمامه. ترامت عين (كراكة) هنا وهناك. يستعد تمامًا لأي ضربة مفاجئة من الضابط (شادي عسر)، لكن الضابط (شادي عسر) وضع كفه على كتف (كراكة) وقال مبتسمًا، "إنت واحد من رجالتي،" ثم استدار ليقف أمامه ويكمل، "رجالتي تحت حمايتي."

طأطأ (كراكة) موافقًا ومرتبكًا.

قال (شادي عسر) وكان صوته يتميز بالجِدّة، "وده محصلش في المنطقة بتاعتك، اللي إنت عارفها أكتر من أهلك."

"تفتكر ينفع أسكت."

"لا يا باشا مينفعش،" أجاب (كراكة).

عاد (شادي عسر) إلى المكتب وهناك ضرب بيده. كان يتكلم، "من ضمن الحاجات اللي حصلت، إن المُخبِر بتاعنا اتخطف إمبارح في المسجد اللي بيصلّي فيه اللي إنت عارفهم وقت العشا."

"عارفهم يا باشا،" والتقزز على طرف لسانه.

بنظرة ثاقبة، "أنا عايزك تجيبهوملي..."

"... هنا."

قال (كراكة)، "دول عالم عوق، وأنا رجالتي معرفلهمش طريق."

"رجالتك موجودين، وهسيبك تعمل اللي إنت عايزه بس تحت طوعي وأوامري."

ثم أخرج هاتفًا نقالًا، سامسونج صغير لونه أسود، ووضعه على المكتب أمام (كراكة)،

وقال، "ده عشان تعرف تبلّغني بأي حاجة بتحصل."

"آه! متحاولش تلعب بديلك المرة دي."

نظر كلاهما إلى الآخر نظرة المحتاج والمسيطر. كانا يبتسمان سرًا ويُظهِران الحزم والاستسلام. لحظات قليلة جمعت بين (شادي عسر) و(كراكة)، حتى انفتح الباب ودخل الصول (توفيق).

قال (شادي عسر) بعد أن جلس في مقعده، "سلّك المجرم ده يا صول توفيق."

بابتسامة تبدو كالغضب، أومأ الصول (توفيق)، وقال، "أوامرك يا باشا."

في يده حمل (كراكة) الهاتف النقال، وقبض الصول (توفيق) على ياقة ردائه وساقه أمامه. عقد (شادي عسر) أصابعه متأكدًا من أنه سيحل تلك القضية الشائكة، قضية أمن، أمن دولة.

كان يقهقه.

كان يظهر ساكنًا.

****

" 16 "
رسالة قديمة

صباح بارد جديد، يحمل رائحة العيد الذي يأبى إلا أن يأتي في العام مرة. استيقظ الناس وهبوا إلى أشغالهم، كلٌ إلا من عانق الصباح السعيد بابتسامة العيد. ألم يكن على الوجوه حيرة ثم انتهت؟ ألم تكن العقول تحلم بأسرار الخيال ثم عادت إلى الواقع؟

لا الأنفاس تنتظر ولا الأفواه تصمت، فالأم تُكلّم صغيرها وتحكيه. حكايات تأتي من الزمان البعيد في كتابه المصور. كان يسمعها ويضحك، يحدق وينظر إلى شفتيها، يلتقط منها الكلمات باهتمام بالغ. كان يتخيلها أبدية، لم تكن هناك ولم تكن تقص عليه القصص، كانت في فراشها متعبة، وكان عليه أن يبقى الطفل الوحيد.

سريعًا رحلت الأم وسريعًا رحل الأب رغم وجودهما. في دوامة الحياة كان محورًا، تلتف من حوله الأعاصير ولا تصل إليه، في داخل الدوامة لا يرى سوى أن حياته أصبحت رتيبة. إن أراد أن يتكلم، يُنهر، وإن أراد أن يُعبِّر، يصمت.

كان يحدق في سقف المنزل ليلًا، كان يرى أضواء الشارع وهي ترسم الأشباح. كان يتخيل المغامرات، وينتظر الحلقة بعد الحلقة، واليوم بعد اليوم. لم يبكِ حين ماتت والدته، ولم يبكِ حين أتت امرأة أخرى إلى بيته. لم يبكِ لأنه كان وحيدًا. تضربه

الأيادي على رأسه وعلى قفاه، فلا يتكلم ولا ينطق. يتنابذون بينهم بألقابه، فلا يبرح ساكنًا، يتألم.

كان يراها، كانت تبتسم ابتسامة شيطانية. في كل ليلة كانت تأتي إليه لتُعذّبه بكلامها المر. كانت تلومه على موت والدته المريضة. كانت تُلقِي على أكتافه الصغيرة كل أعباء الحياة. هو السبب لأنه لم يكن الولد الطيب الذي تمنت والدته أن يكون، وها هو والده، أتاه الشيب قبل أن يبلغ الأربعين.

لا خير فيه ولا صحة في جسده.

"نجيب."

"نجيب."

"ماما!"

"تعالى يا حبيبي."

"تعالى أحكيلك حكاية."

الطفل الذي يحلم ويمشي على أقدام عارية، كان ساكنًا. مثل الأفعى كانت تداعب خصلات شعره وتُقرّبه إليها. كانت لا تزال صغيرة، تشعر أن في جسدها نيران لم يقدر والده على أن يُطفِئها. المال والبنون، نعمتان، اختارت واحدة منهما. تلك المرأة التي تلف شعرها وتعقده، لم تكن إلا في خياله لأنه أرادها أن تكون كذلك. تمر عليه الأيام والليالي فيكبر العام بعد العام، حتى أضافت إليه نفس الاحتراق الذي كانت تشعر به.

أنفاسه تضيق...

... عرق غزير!

كان يتقلب.

كان يتلوى.

"نجيب."

"نجيب."

"عايزة إيه؟"

"أنا بحبك."

ضحكة خافتة مستبشرة، "بس إحنا لسه في اعدادي! حب إيه اللي بتقولي عليه ده!"

"وكمان إنتي أبوكي راجل صعب قوي."

"وإيه المشكلة؟ متبقاش رِذل بقى."

"إنت عارف إني بحبك، صح؟"

"إنت الوحيد اللي بتسمعلي ومش بتضحك على كلامي."

غمزة عين، "يوه متكسفنيش بقى يا نجيب."

أعين مكفهرة كان تترصدهما. أعين رباعية تصب عليهما الحمم من الصميم. يد امتدت فأمسكت الفتاة وأوجعتها، وكادت أن تقصم روحها. كنخلة مغروسة في الأرض، قبع في مكانه. ضربة باليد وركلة بالقدم، يراها وهي ترحل، وذلك الذي يمسكها يصيح فيها، "جيبتيلنا العار، ربنا يلعنك يا بنت الأبالسة."

"ده مسيحي... ده مسيحي..."

"أبو الصليب... أبو الصليب..."

"الله يلعنك يا بت الـ... الله يلعنك يا بت الـ..."

يد تبطش بها وأيادٍ تبطش به.

لا الضرب يوجع ولا الأقدام التي تركل، تؤلم. الأب متعب وزوجته تنتفض من الأنوثة، أما الابن الذي كان يكبر، لم ينضج بعد. لا شيء يعتريه سوى حُمرة خدين، وقلب موجوع، ونظرته التي تبدّلت إلى كراهية وحقد.

إلى أي طريق يذهب؟ وفي أي مكان ينتمي؟

جسده النحيل يتضخم. في طريقه، عاد الحب مجددًا. كان قد كبر وقتها. كان قد نسي تخاريف الطفولة وهواجسها.

كانت تبكي هي الأخرى، كانت تنتظره أن يتحدث إليها لكنه لم يكن يتحدث. هو القائل، روحه ضائعة تائهة. هو القائل، حياته أصبحت سرابًا وأن في صدره الخواء. هي التي وضعت في ضعف قلبه كلمة أخذته بها. هو الذي كان لا يفتأ يفكر فيها. كان يتمزق، كانت ترى خوفه وضعفه، وحنينه سر ضعفه وقوته. كانت تقف هناك ليس ببعيد ترقبه.

كانت تحبه. يقترب ناحيتها، لا يدري ما يقول.

الحب هو الشيء الوحيد المشترك في تلك الأوراق التي صنعتها الحياة. كان صوتها يأتي ضعيفًا حزينًا. كانت تُنادِيه بعلو همساتها لكنه لم يكن يسمع. هو لم يكن هناك. كان غارقًا متوجسًا. لم يعد يفرق بين الخيانة والوفاء. لم يعد يُميّز بين الحزن والسعادة، فكل الألوان سواء. كانت الأصوات تتقاذفه بالحيرة والشك. كانت تتقاذفه باللوم والعتاب. الحب هو المحرك للعتاب،

فالشخص الذي لا يكن لك الحب لن يعاتبك أبدًا، تمامًا كما كانت تعاتبه.

المستحيل هو الشيء الذي أخرجه من صمته الذي استمر طويلًا. كان يرى أسطر حياته وهي تنتهي قبل أوانها. كان يرى تلك الأقدام الخائرة تسترسل على الطريق من دون أن تشعر، هي التي جعلته يقف على قدميه ويترنح لأسفل الوادي، ذلك الوادي الذي أودعه بعيدًا في أغوار قلبه. هناك حيث كان الإعصار يمحو كل أثر للوجود.

"نجيب."

"نجيب."

"إنت ليه مش بترد؟"

مغمومة، كانت هناك، تقف أعلى التبّة وتنظر إلى الأسفل، إلى تلك الهاوية السحيقة التي بالكاد تبتعد عن مشارفها، إلى حيث ترى عالمها الخاص. لم تكن تتلفت من حولها. لم تكن بمفردها. دفعت في نفسها الاعتقاد بأنها ستواجه الدنيا وحيدة. الكل يفترقون عنها، الكل يتغيرون عليها، الكل يترك من ورائه بصمة لا تنساها من الضياع والتيه. وصلت بنفسها إلى مشارف الضيق. هناك حيث كانت تُبصِر القادم وكأنه نيران صاعقة، ولابد أن تذهب إليها.

الخوف أحيانًا يُعمي القلوب، فلا ترى تلك الظلال التي تتربص بها أو تحميها. كانت وحيدة، كانت تقف بمفردها وتنظر إلى الأسفل، إلى تلك الهاوية السحيقة.

شهقة مفزعة، وعين تجحظ وكأنها آخر الثواني قبل الموت. هب من فراشه مُكسّر

الأضلع، وكأنما تركت الضربات علامة عليه. كان يشعر بها في مفصل ذراعه وكل موضع داست عليه تلك الأقدام. يد تُكمّم فمه في الظلام، فلا يقدر أن يصيح أو يتكلم. ينتفض بقوة مثل نبضات قلبه الخائف.

كان ينظر بحدة، فلا يرى سوى شبحًا هلاميًا من السواد يضع سكينًا على رقبته ويحمل في يده رسالة قديمة.

كشر الشبح عن أنيابه، فامتزج الخوف بالحيرة، ووقت أن ترك فمه وأراد أن يتكلم. همهم الشبح وأجبره على السكوت، ثم أعطاه الرسالة القديمة. عندما فتحها، وجد أنها ورقة بيضاء ناصعة البياض، ولما بادر بالسؤال، كان الجواب قهقهة صارخة أوجعت أذنيه، وسرى الشبح في الغرفة كلها، وتسلل إلى صدره العاري، لا يترك فيه موضعًا إلا واقتحمه بين صرخات وقشعريرة وذراعين مفرودين من الألم.

"نجيب."

"نجيب."

"هاه!!"

"مش أنا اللي عملت كدة يا نجيب. إنت بتزيّف الأحلام."

وجهها كوجع الغول ظهر فجأة أمام وجهه. حرارتها كانت تُذِيب الشمع من على ملامحه. كانت تنظر إليه، لا تطرف ولا تغمض. صوتها كان يشبه صوت الجان.

كانت تتكلم، "نجيب."

"نسيت اللي عملته فيا."

"نسيت المُخدِّر والشاي."

"نسيت يا نجيب."

"كله مكتوب ومِتسجّل."

"الرب غضبان عليك."

"الرب غضبان عليك."

"الرب غضبان عليك."

نور المصباح والستائر المغلقة، وورق على المكتب إلى جوار الأباجورة.

ألم يكن قد نام؟ كان يسأل نفسه.

أحس أن أنفاسه ضيقة. لم يكن قد استعاد وعيه كاملًا. كان يضع يده على صفحات الكتاب، لم يكن قد اقتحم منتصفه بعد، فأغلقه بغضب، كتاب (آدم).

قال بصوته الخفيض، "ملعون الكاتب ده. خلاني أشوف كوابيس،" وحزّم رأسه بأصابعه وأغلق عينيه. كان يشعر انتفاخ عروقه وانقباض أوتاره. كانت رأسه تتشرخ من حدة الضجيج.

بعد أن هدأ قليلًا، نخر ثم ردّد في سره، "في الجحيم، دعواتي يا ملعونة. إنتي وبنتك المُلعب."

استفاق، ولما استفاق ذهب ليصنع الشاي. هو نفس الشاي، وهي نفس الابتسامة، والحيوية التي تسري في جسده. كان يصب الماء في الغلاية الكهربائية ويتركها، ليس أسرع من ذلك سوى أن يحتسي الكوب.

لسعة السخونة على طرف لسان زلق، جسده المتضخم يضعف.

في طريقه كما كان من قبل، ذلك الطفل الصغير. كان قد بدأ مرحلة الشباب.

ألم يكن صغيرًا؟

لماذا لا ينسى؟

استشاط غضبًا، كان يشعر بالضرب على جسده وعلى رأسه. كان يتلوّى مثل الصرصور الصغير، باحثًا عن مخبئ ليقبع فيه.

صاح الأب، "يا ابن الصرمة. مش عارف يعني أربّيك."

"معلش يا خويا،" التفّت سيدة ممتلئة الجسد بجلبابها الأبيض وشعرها المفرود، كانت تُمسِك الأب الذي يصيح، تمنعه بينما ينتفخ ويتورم، الأب الذي كان يلتقط أنفاسه بصعوبة.

"وأنا عملت إيه يعني؟" زعق الولد من مخبئه بين كرسيين.

تكلمت المرأة، "معلش يا خويا، سامحه المرة دي. أكيد نجيب مش قصده."

"إنتي بتتكلمي في إيه؟ متدافعيش عنه - كح كح - الولد ده - كح كح - لازم يتربى."

"آآآآآآه!"

فقد الأب طاقته سريعًا وسقط على أقرب مقعد إلى جواره حين فزعت السيدة وربتت على كتفه وأحاطته بخوفها، وقبضتها السمينة.

في محاولة للهدوء، تكلم الأب، "الولد ده هيموتني. مش مقدّر إني تعبان. رايح جاي يعمل مشاكل مع الجيران اللي عايشين معاهم بقالنا عمر كبير."

"عايز يبوّظ سيرتي الكويسة بين الناس."

ضرب الباب، وصاحت السيدة بالتفافة، "أيوة! حالًا. ثواني بس."

"ريّح هنا يا خويا عقبال ما أشوف الباب."

انتحب الأب، "خلااص! أنا مبقتش قادر عليه. هيموتني ناقص عمر."

وبعد أن فتحت السيدة الباب، دخل رجل له ذقن بارزة ويرتدي جلبابًا رماديًا متسخًا من غبار الدقيق. نظر إلى الأب بغضب وذهب إليه، وقال، "لولا العيش والملح والعشرة اللي بينا كان ليا تصرف تاني. بس إنت عارف أنا بعزك قد إيه. والمصحف يا أبو نجيب، لو كان ابن حد تاني كنت دبحته."

"امسحها فيا يا ريس، أنا - كح كح - هربيه، آه! وهعلمه الأدب."

غصة في الحلق، "وعد مني مش هيقرب لبنتك تاني،" وكانت عند الحائط البعيد فتاة ضعيفة، تختبئ، سرعان ما تشبثت بجلباب والدتها الواسع.

يا خويا الواد صغير ومش فاهم..."

مقاطعًا، "أنا محدش هيقدر يوصلّي ولا يعملّي حاجة تاني..."

"... ولا حد هيقولي يا أبو الصليب تاني."

"ولا إنت يا راجل يا عيان،" أردف الولد، وكان لا يزال مختبئًا وراء المقاعد.

"كلكم بتكرهوني، مفيش حد بيحبني غير أمي."

"إنت السبب. إنت اللي خليتها تموت. إنت اللى كنت بتعذبها. هي مكانتش بتحبك."

قالت السيدة بحنان، "يا حبيبي إحنا كلنا بنحبك، والمسيح بيحبك. إنت لسه ولد صغير ومش عارف بتقول إيه."

"اطلع يا بابا خلينا نخلص الموضوع ومنزودش المشاكل."

قال الأب، "أخرج من ورا الكرسي، محدش هيقربلك."

بتردد، وبعد امتناع دام للحظات، خرج الولد، وكان لا يزال صغيرًا نحيلًا، بمجرد خروجه، أمسكه الأب وانهال عليه بالضرب والصياح، لكن يده الضعيفة كانت تسقط، وقواه كانت تخور. بضربة في بطن الأب، استطاع الولد أن يُحرّر نفسه، وأن يقف مُتربّصًا، ممتعضًا من كل من أراد أن يضربه.

بين توجعات الأب وتوسلات السيدة التي هبّت إليه لما رأت الزرقة الشديدة على ملامحه، وهلعها المُطّرد على وجه زوجها بعد أن سعل وتفل اللعاب، وضاقت أنفاسه وتصلبت عروقه. شعرت أن الموت قد اقترب منه كثيرًا، وهبت بالصياح.

انتفضت الفتاة في مكانها، وقبض الرجل على يد الولد ولم يتركه، وصاح فيه بصوت جهور، "سيبلى الولد ده. أنا هربّيه مادام محدش قادر عليه."

توسلت السيدة، "أرجوك يا شيخ خيري، مش عايزين نزود الطينة بلّة."

"إزاي بس يا ستّنا. الواد ده شارخ فيها ولا معبر أي حد."

الأب موافقًا، "أيوة يا شيخ خيري، اضربه. علمه الأدب الواد الصايع ده. إحنا معرفناش نربيه."

قال الشيخ (خيري)، "لولا إني سايب الحاجّة والدتي لوحدها كنت كسّرت عضمه، وإنت عارف إنها ست كبيرة ومريضة."

"إنت متقدرش تعملي حاجة،" وعينه مكفهرة، وظل يردّدها ويردّدها.

امتاز الشيخ (خيري) من الغضب وانهال على الولد بالضرب الموجع بعد كلام الأب، حتى أن وجهه تخضب بالاحمرار والكدمات، وكاد أن يموت في يده. كانوا جميعًا ينظرون إلى حاله وكأنه يستحق، حتى زعق الأب بحشرجة، "خلاص، سيبه يا شيخ خيري."

"آآه!" تنهد الأب.

أتبعت السيدة برفق، "خد نفسك يا خويا."

بعد أن تراجع الولد المُكسّرة عظامه إلى الخلف، وكان ساقطًا على الأرض، يترنح، والسيدة تحوط ابنتها من أسفل ذراعها من الخوف عليها، والشيخ (خيري)، الذي هز رأسه، وأسدل جلبابه، وقف الولد وكأن شيئًا لم يكن، ورمق الشيخ (خيري) بنظرات حارقة، استمرت فيما بينهما وقتًا، يتبادلان الكراهية في مقابل العقاب.

تكلم الأب وكان هو من قطع، "أنا عارف هعمل إيه، إزاي هعلمه الأدب."

"أنا هوديه الكنيسة وهما هيربّوه كويس."

همست السيدة، "أرجوك بلاش يا خويا،" واتبعت، "الولد كده هيتعقّد. أنا رأيي نودّيه عند عمه. فترة كدة يحاوط عليه. إنت

عارف إنه شديد، ولسه فيه العرق الصعيدي، وكمان هو بيحبّه وهياخد باله منه."

لم تلق الفكرة الأريحية التي توقعتها، فهي لا تعرف الأمور الدائرة بينه وبين أخيه. بعد ثانية واحدة، قال الرجل، "لأ! لأ! أنا عزمت خلاص، هوديه الكنيسة."

أما الولد، فلم يُعقّب على قرار والده، ولم يلتفت إلى الفتاة التي أصبحت ترمقه بشيء من الألفة، بل انصبّ على ملامح الشيخ (خيري)، لا يزال يشعر بيده المتخشبة على وجهه. كان ينفث من داخله البغض والكراهية الشديدة.

كان يريد أن يقتلع قلبه...

كوب الشاي وضوء الصباح الذي كان يأتي من الأفق، ليلة العيد وابتسامة على وجهه لا سبب لها غير أنه كان يتحدث إلى نفسه، "نجيب... رسول..."

ضحكة (نجيب رسول) كانت تمتزج مع انعقاد حاجبيه. نفس تلك الصورة كانت في أوقاته السابقة. كان يشعر أنه على قيد الحياة.

ليلة العيد كانت ليلته الخاصة. أسوار الكنيسة، والجسم الممشوق. جسده النحيل امتلأ قليلًا، لكن ملامحه ظلت كما هي.

"بعيد عن العين، ليس بقريب."

مقولة ترددت أمام عينيه. لا يكاد يفهم لها معنى. بعيدة هي تلك الكلمة التي ارتسمت في مخيلته، وبحث كثيرًا في الكتب والقواميس عله يجد لها معنى يحمل فحواها ولم يجد. كان قد قرأ العديد من الكتب وآلاف السطور، مئات الحكايات والأساطير

والمقولات فقط لأنه أراد أن يدرك معنى هذه الكلمة.

كان لا يزال يحتسي الشاي أمام نفس المنظر وشرفة غير تلك الشرفة. كان شعره مسترسلًا حينها، كانت له صبغة متباينة، ووجهه كان يافعًا.

حين وقعت عينه على تلك العلبة المتربعة على الطاولة بغلافها الوردي وعطرها الفواح، حينما فكّ أطراف الشريط وأبصر ذلك الكتاب، والذي انطبعت عليه ألوان القِدم وتشققت صفحاته، وأعلاه رسالة مطوية، بالكاد استطاع أن يقرأ ما يحويه من كلمات، وجده غريبًا مفعمًا بالغموض، وهو ما جذب انتباهه.

على ضوء الشمس البيضاء، في يوم ساكن ورعشة برد خفيفة تجتاح المفاصل، تعكس عيناه كلمات تحوي عنوان الكتاب، (حـــــــــــــــياة) لـ (هيثم أ. هميمي).

تلك هي المرة الأولى التي يقرأ فيها لذلك الكتاب أو يسمع عن ذلك الكاتب، وما أزاد من حيرته ودهشته وامتعاضه قراءته لجملة في بداية الأوراق، (ليس في الماضي إلا ما وجدته في حاضرك....)

حينها، اتكأ على الأريكة وباشر في القراءة:

"في ليلة مثل هذه..."

هذه كانت البداية...

"في ليلة مثل هذه كنت أجلس وحيدًا، مثلها كمثل أية ليلة على أريكتي الرمادية، أُمسِك قلمًا أداعبه بين أصابعي ومخطوطات ملقاة

على الطاولة أمامي. بحذرٍ أرقب ضوء القمر الشاحب. يبدو بعيدًا جدًا عن مستوى الرؤيا. أهمس بأبيات شعر حانية، أرتجلها، وإن انقطعت شيئًا قليلًا، لا أتذكرها.

سريعًا كنت أتمايل إلى ماضٍ كنت أتمنى أن يندثر في طي النسيان، لكن الكلمات التي ارتسمت في خيالي كأنها سحر عجيب دفع بالذكرى على مقدمة كل الأفكار التي قد تكون خطرت ببالي وقتها.

رأيتها، ورأيت في صوتها نغمًا عازفًا لبيت من أوتار الهدير الساكن خلف حفيف أغصان الشجر، ألهذه الدرجة أحببتها؟؟"

امتعض وجه (نجيب رسول) الشاب من التقزز، حتى أنه أبرز لسانه، لكنه أكمل على مضض.

"إنها هي!!

مممم!!

تلك الرائحة!!

لا تزال تسكن عميقًا جدًا داخل أواصر فؤادي المُعلّق بالهوى. أعرفها، أجل أعرفها من بين جموع النساء. إنها هي من مكثت تتأرجح على أوتار الأحاسيس الدفينة، الموجعة، الفرحة والحزينة. إنها هي من بعثت هذه الرسالة الملقاة أمامي مكتوب فيها.

لست ببعيدة!

أحقا؟! ولكنني لست بقريب.

أهواها بمفردي، أجدني لا أبحث عن شيء سوى السكون الذي يحتويني. لا أريد أن أُفكّر. أريد فقط أن أعود من حيث أتيت، إلى ذلك الطفل الصغير قبل أن يلتقيها. لم تعطنِ

الفرصة كي أثبت لها أنني الأجدر، أنني انسان يهوى بقلبه لا بعقله.

أقنعها أنني ومهما طالت بي الأيام سأظل على حبها. لامني كثير من الناس، أقاربي وخِلّاني، ليس لي من بعدها سوى ذكرى كالسبيل أسير فيه حين أجد نفسي وحيدًا."

صوت احتساء الشاي أصبح كالأزيز، كمن يبتلع التراب. (نجيب رسول) يستاء.

"أتت النساء، كثيرات، يتخايلن من حولي، لسن ببعيدات عني. في طريقي يتهافتن فيرحلن ولا يعُدن، وأنا كما أنا لا أزال على عهدي.

مرت الأعوام كأنها لم تمر، وكأنها أطالت في الحنين شوق لا ينضب. لست أنا المُعذّب، إنما أنا البائس الحزين. هي ارتحلت وخلّت بداخلي سخط على أحكام القدر، لم أستطع يومًا أن أهزم أحاسيس القهر. هي ليست ببعيدة وأنا لست بقريب. لم يكن مُقدّرًا لنا الالتقاء، ولم يكن مقدرًا لنا الحياة أو الحنين.

كلماتها نبضات لا تزال توجعني:

أيها البائس، أنت، كنت حقًا أود. سأحيا ليس حقيقة كما أردت، سأصلح نفسي، زوجي وأسرتي، ولن أنظر يومًا إلى الماضي لأني في الذكرى تعذبت. أنا لست ببعيدة ولكنك لست بقريب، فلا أنت تحاول ولا أنا حاولت.

لكنها رحلت وأنا مكثت. أنا فقط ترنّحت في الوادي كظلال شاحبة تتلاشى، تعود وتختفي. لم يخبُ ضوء القمر، ولكنه زحف من أرضٍ إلى أخرى كما زحفت. هكذا تركني وحيدًا في

الظلام. إن لم أُشعِل الشموع وحدي، سأظل هنا، عابثًا إلى الأبد.

رحلت!

ليست بعيدًا!

ولكني لست بقريب!

لا هي تحاول ولا أنا حاولت..."

علامة الوجوم على وجهه والتأفف مما قرأ، قال في نفسه، "إيه السخافة دي، هو في حد بيقرأ الكلام العبيط ده؟"

"فعلًا، ناس معندهاش مخ."

"الزمن ده زمن اللي يقدر، اللي ياخد."

"الدنيا الأفلاطونية دي ملهاش وجود،" ووضع الكتاب على الطاولة، وباشر في فتح الرسالة المطوية.

أولها، رأي كلمة (حبيبي)، ففغر فمه من قهقهة مكتومة، وأظهر أسنانه الناصعة البياض، والتي تشبه لون الأوراق. في البداية قرأ:

"حبيبي نجيب،

أتمنى إنك تكون قريت الكتاب وتكون فهمته. ده واحد من أجمل الكتب عندي، اللي بحبها كتير، أكيد مش هتغلى عليك. إنت وحشتني جدًا. بقالي فترة لا عارفة أشوفك ولا عارفة أكلمك.

إنت فين كل ده؟ وليه مش بترد عليا؟ تفتكر لو كنا إحنا الاتنين مع بعض دلوقتي، كان هيبقى ده حالنا؟ بس إحنا مش اتنين، إحنا واحد، وطول عمرنا واحد. من ساعة ما عرفتك

وأنا حاسّة إن الدنيا كلها جنة بتزقزق حواليّا.

نجيب، أنا خايفة قوي. مش عارفة هعمل إيه لو أهلي عرفوا اللي بينا. دول ممكن يموّتوني ويموّتوك فيها. إنت متعرفهمش. إنت لازم تتصرف وتيجي تخطبيني. أرجوك متتخلاش عني، أنا محتاجالك. ابنك أو بنتك محتاجلك.

ساعات بقعد مع نفسي بالليل، الوقت الوحيد اللي ممكن أكلم فيه نفسي، بسألها إزاي ده حصل. عمرها ما جاوبتني وعمري ما وصلت لإجابة معينة.

بس عارف؟ أنا هسامحك على أي حاجة بس تعالى، ولّا مش فاكر إنت كنت بتناديني بإيه؟ إنت الوحيد اللي بتناديني باسم غير اسمي مع إني مش فاهماه، بس أنا بحبه منك.

حبيبتك،

بوران"

التقيا، شابان وحيدان، فتاة شديدة الحزن، شريدة، صامتة مثل الجبل، لا تُكلّم أحدًا في الحديقة. كلاهما مر من نفق العقد الثاني. جلس إلى جوارها، نظر إلى ما تنظر إليه، بدأ الحديث، تذكّر تلك الفتاة الصغيرة وابتسم، تلك التي كان يُحبّها لما كان قصيرًا. عاتب نفسه على غوغائية أفكاره حينها.

صدّته، لكنها سريعًا بعد الحديث عانقته، واليد التي كانت تبتعد، أحاطته وطوّقته. ساعتها كانت تستند على طرف السرير، تربت على بطنها برفق وتئن.

تبسم (نجيب رسول)، الشاب الواعد، ابتسامة حمراء، كان يشعر بالقوة بين ذراعيه، واختفت ظلال الحديقة وعادت الشمس لتصبغ خصلات شعره بالبياض.

بين أصابعه، برد كوب الشاي الخاوي. كانت عينه تُحدّق من خلال النافذة، وشهق لما استعاد إدراكه.

الرسالة المطوية ساكنة، لم تبرح مكانها على الطاولة، أصبحت رسالة قديمة، ذبلت كما تذبل الأغصان. عندما أبصرها، قال في نفسه، "بوران! هه هه!"

بسخرية وبضحكة مستنفرة، ترجل مبتعدًا، وعلت ضحكاته النطاق كله حتى أنها أيقظت النائمين في الغرف المجاورة من شدة ارتفاع طبقات صوته.

****

" 17 "
هاوية

مئات الأسئلة ومئات العلامات تمتزج في حلقات مفرغة في عقل (ديجا). كل مبادئها كانت تنهار. كانت الصدمة أقوى بكثير من قدرتها على الاستيعاب، أولًا والدتها المرتبكة التي تنحدر إلى هاوية لا تعرفها، ثانيًا رئيسها الغاضب الذي تغيرت نبرة التقائهما، وأخيرًا تلك الحادثة المريعة. انقضت سبع ساعات، ولا زالت ترى الأنوار والومضات ببلبلة أطرافها.

ربما نفس عدد الساعات التي كانت فيها الفتاة القوية التي تقف في طريق الثائرين على مبادئها وحرية كلماتها، لكنها وفي ذلك الوقت كانت محتارة. طيلة الليل لم يغمض لها جفن. كانت قد تراجعت رجوع المهزومين إلى منزلها، إلى السلم الذي يخفت نوره في عينيها، إلى المصعد الذي كان يضيق الخناق على رقبتها، إلى غرفتها وسريرها المُظلل بالستائر.

لأول مرة تشعر (ديجا) بالرهبة في قرارة نفسها. شعور لم تعهده من قبل. شعور لا تحبه أن يتمكّن منها. لا تزال يدها تنتفض، تضع المفتاح في أقفال الباب، وكأنها ترى المزيد من الأقفال، أقفال تمنعها من التفكير قبل الحركة، أقفال تُثبّتها جنبًا إلى جنب مع إرادتها، حتى يتملكها اليأس.

برغم الاحتضان الوافر الذي غمرها بقدر من الحب الجم، وبرغم أنها انهارت على صدر

والدتها، لم تكن تدمع، ولم تكن تبكي. بل كانت عينها الحادة مثبتة صوب هدف واحد. كيف ومن ولماذا؟ أسئلة لابد لها من جواب.

بعد أن انقضى الوقت وذهبت الأم إلى مخدعها بعد أن اطمأنت على صغيرتها، مررت (ديجا) خطواتها البطيئة ناحية غرفتها. غرفة لازوردية اللون، تُميّزها صورة لـ (تشي جيفارا) مثبتة مباشرة أمام السرير، يحدق فيها الدب الأبيض، صديقها الصدوق وسر سعادتها، من تحتها تلفاز إلى حدٍ ما صغير، وعلى جانبيه صور لها ولوالدتها، والبسمات لا تفارق ملامحهما.

في الزاوية درج لمجموعة كتبها المفضلة، وخزانة رباعية لملابسها وأغراضها، غرفة حديدية منمقة، تصيب من يدخلها بالجمود، لكنها بالنسبة لـ (ديجا)، الغرفة المثالية، الترتيب ثم الترتيب ثم السكينة. لا شيء أفضل عندها من النظام. لا شيء أفضل من البراح. كانت تؤمن أن الأفكار المنظمة هي أقصر طرق النجاح، ولهذا ارتمت أمام المرآة، لوقت ليس بالقصير تسأل عن حالتها وإن كانت تغيّرت.

الوقت كان يمر بطيئًا عليها، حتى تبدّلت خيوط الليل إلى الصباح. لم تنم (ديجا)، لم تتحرك من أمام المرآة. طيلة ذلك الوقت كانت تتلقى من قرارة نفسها أسئلة وتضعها في مفكرة في عقلها.

كانت قد شحذت كثيرًا من قواها واستعادت توازنها. وقتها زفرت واستندت ثم قامت. حقيبتها كما هي، ملابسها كما هي، كانت

وحسب تُرتّب شعرها المتمرد، تبعث فيه شيئًا من النشاط مرة أخرى.

عيون مغلقة ووجه أصابه التعب، تنظر (ديجا) إلى والدتها، مباشرة أمامها بعد أن تلمّست الطريق إلى غرفتها. عقدت شفتيها، فقد كانت تشعر الحنين وبالرثاء. كثير الحب الذي تُخفِيه عن تلك السيدة، لم يكن يسعى لاختباء في تلك اللحظة. كانت تُتابِع أنفاسها المتصاعدة بحرقة، وكأنها الأنفاس الأخيرة للقاء لن تراها من بعده.

عضّت (ديجا) لسانها من التوتر. في احساسها بالخوف كانت تسأل، كيف لتلك السيدة أن تتحمّل وحدها شعور الأمومة؟ كانت تبتسم، ابتسامة مبهمة، روح طيبة هادئة دفعت (ديجا) لأن تبتسم هي الأخرى.

أيّ سكينة تلك التي تشعر بها وقت أن ترى والدتها!

برفق شديد، انحنت (ديجا) وقبلت وجنة الأم وفارقت ما بين خصلات شعرها. كانت تريد أن تقول لها، شكرًا، وأنها محبتها تفوق كل أنواع الحب، ولكن، طرق الباب طرقة واحدة وانغلق، وعاد الصمت ليحمي ذلك البيت الصغير.

"أستاذة ديجا، أستاذة ديجا!" نادى صوت امرأة لم تنتبه إليه (ديجا).

كانت تنحني بأعجوبة، وكانت تكنس بمقشتها القديمة الجزء الخاص برصيف الشارع أمام المنزل مباشرة وما حوله، تُلملِم الأوراق من هنا ومن هناك، وتُكوّمها في صندوق كرتوني مفتوح. كانت تتوجّع رغم أنها لا تُظهِر ذلك.

"راجية!" قالت (ديجا)، وأتبعت، "آسفة مخدتش بالي،" وهي شديدة التعجب من المشهد الذي تراه.

"خَبَار يا أستاذة؟ وشّك مخطوف كنّه ما شاف نوم! دي نوبة أشوفك الصُبحيّة باكر كِدة!" قالت السيدة والتي كانت تلتحف بعباءتها السوداء القديمة ووشاح على الرأس يُظهِر شيئًا قليلًا من خصلات شعرها المعقود.

ابتسمت (ديجا) ابتسامة لا تعرف من أين أحضرتها، وقالت، "لا مفيش يا راجية. بس عندي شوية شغل النهاردة."

تكلمت (راجية) ببشاشة بعدما انتصبت فطقطق ظهرها، "شرّفينا يا أستاذة، كوبّاية شاي صعيدية والله بتعدِّلك دماغك،" وكانت تحمل في طلبها بساطة شديدة، أخجلت (ديجا)، حتى أنها لم تعرف كيف تتصرف.

إجابة الرفض سهلة جدًا، لكن (ديجا) لم ترفض، بل استقرّت على القبول. كانت تحب تلك السيدة، وتراها مِثالًا للمرأة العاملة الكادحة.

قالت (ديجا) ببشاشة مقابلة، "تعرفي، أنا محتاجة كوبّاية شاي فعلًا."

تهلّلت السيدة ونادت بينما تصطحب (ديجا)، "يا خَبَار! هلّ نورك يا أستاذة ديجا."

وطأت قدم (ديجا) نزولًا في إحدى غرفتين أسفل السلم، حيث كانت تسكن (راجية)، حيث جلست أمام الطبلِيّة المستديرة، وانتظرت بينما تُبعثِر النظرات في المكان، إلى المحتويات القديمة والأصيلة، والتي تعود إلى غابر الزمان وأرض الأجداد.

كانت تشم في مسكنهم رائحة غريبة، أدهشتها، رائحة لها عبق جميل، لا تفوح إلا من صُلبِ وجهد الرجال.

(راجية)، السيدة الصعيدية الحرة، والتي تصنع الشاي في إناء صغير، احترقت بِطانته، كانت شديدة الفرح، كانت تتكلم بعفوية، "والله شرّفتينا يا أستاذة. عارفة، أنا ولا حلجة من حلجات برنامجك بفوّتها، كلها بسمعها."

ابتسمت (ديجا)، فهي لم تر تلفازًا في المكان، بل راديو متوسط الحجم، له سماعة أحادية.

قالت (ديجا)، "بتسمعي برامج يا راجية! طيب، أتمنى يكون عاجبِك."

"ومين ميعجبوش يا أستاذة. ده إنتي أستاذتنا كلنا، وكلامك كله تمام،" قالت (راجية) مُكملة، وأتبعت، "كلامك كله صُح. حال البلد لا يسر عدو ولا حبيب. محدش من الناس اللي فوج حاسس بينا. الأكل بيغلى والعيشة بتغلى، نجيب منين عاد عشان نأكل؟"

بنظرة واحدة قالت، "بس نحمد الله، أهي مستورة بفضله."

قالت (ديجا)، "عندك حق يا راجية، محدّش حاسس بحد. هُمّا عارفين الكلام ده كويس وبيرتّبوها، بس بيرتّبوها على إيه ولا على مين، متعرفيش. كل اللي عليهم يطلبوا من المسكين إنه يبطل يقول إنه جعان ويسكت."

تمتمت (راجية)، "بيّرتبوها للي ليه المصلحة يا أستاذة. اللي حداه جِرش

بيزوّدوه بجِرش،" وكانت قد أنهت كوب الشاي ووضعته في كوب حديدي، وأحضرته إلى (ديجا)، والتي استقبلته بكلتا يديها، ووضعته على الطبلِيّة.

قالت (ديجا) بعد أن تلفّتت عدة مرات، "أُمال فين رُقيّة وأم كلثوم؟ كنت عايزة أسلم عليهم."

"عارفة يا راجية، بناتك دول شوية سكر."

"الله يعز مجدارك يا أستاذة."

"ربنا يكرمك، رُجيّة بتشتغل في محل كوافير وبجِت أستاذة عاد، وأم كلثوم بتكمل علامها في جامعة الأزهر."

قالت (ديجا)، "ما شاء الله، ربنا يخليهملك يا راجية. إنت أساسًا تستاهلي كل خير،" وارتشفت القليل من الشاي.

برغم مرارة طعمه، واختلاجتها التلقائية، إلا أن (ديجا) ابتسمت في وجه (راجية) المُتعشِّم، وقالت، "تسلمي، كوباية الشاي مظبوطة."

تشجّعت (راجية)، "لازم تفطري معايا بجي يا أستاذة."

أجابت (ديجا) بضحكة خفيفة، "لا، لا، اعذريني في دي يا راجية. أنا لازم ألحق الشغل. خليها وقت تاني."

"خلاص، أعتبره وعد عاد من جنابك."

"أكيد."

أنهت (ديجا) شُرب الشاي ثم وضعته على الطبلِيّة وشكرت (راجية)، والتي رافقتها مجددًا إلى طرف الشارع.

قالت (راجية)، "الله يحفظك في طريجك يا أستاذة زي ما أكرمتيني." بإشارة من (ديجا) ودّعت (راجية) والتي كانت لا تزال تدعو لها.

تأوّه بلا ملل، وضحكة بلا سبب، لا شيء يفوق الزحام والطقس اللاذع تحت سماء القاهرة. بعد عمر قضته (ديجا) على تلك الأرض، أصبحت تتمتّع بصيحات الباعة، ومشاكسات المارة، والمارقين إلى المحروسة ليلة أو لليالي.

في أعين الناس وتحت أضراسهم المُصْطكّة، كانت ترى طيبة ورأفة، فقسوة الزمان كانت أول دوافع الانهزامية التي يشعرون بها، لعل عيبهم الوحيد هو الاستسلام والرضوخ للواقع.

كانت ترى من نافذة السيارة، المقاعد المُتراصة على المقاهي، تسمع قرآن الإذاعة الصباحية، وحتى بائعي المناديل والورود في الإشارات، لا تعرف لماذا ولكنها نفس القاهرة التي وُلِدت لتراها، لم يتغيّر الكثير، فلا تزال تحمل طابعًا مختلفًا، ربما ازداد حدة، ولكنه يحمل نفس الأصالة ونفس المعنى.

زحام شديد، وأناس كثير يتجمعون عن طرف الشارع المؤدي إلى مصلحة الطب الشرعي، حيث كانت وجهة (ديجا).

لا شيء أصعب من أن تصُفّ سيارتك في ذلك المكان، ولذلك فضّلت (ديجا) مكانًا بعيدًا، وقررت الترجُّل. بعد أن أطفأت السيارة وبمجرد أن استلمت الشارع، رأت جموعًا من الناس يهيمون في نفس الاتجاه، الأحاديث بينهم تشبه قاعة كبيرة من الشائعات.

اندهشت (ديجا) وهمهمت، وحملت حقيبتها، ثم سارت بينهم، تسمع حديثهم:

بوف! سمعت اللي حصل إمبارح؟

أيوة سمعت طراطيش كلام كدة، بيقولك كان في ضرب نار وصواريخ وشماريخ ولا حرب العراق يا جدع.

يا راجل حرب العراق إيه، ده ولا الحرب العالمية.

دلف أحد الرجال بينهم وقال:

واحد صاحبي قالّي اللي حصل، بيقولّك إن في انفجار في المشرحة من ماس كهربا ومكانش في ضرب ولا حاجة.

يا عمي بقولك حرب، انفجار إيه بس!

قاطع شخص آخر:

على فكرة، ده أكيد شغل مخابرات، أكيد عشان يلهونا عن اللي بيحصل في البلد. هِيّا الناس دي اللي مش عايزة تسيبنا في حالنا، فاكرينّا عُبط أصله وهنصدق.

شغل مخابرات إيه يا عم! إنت تبعهم ولا إيه؟ بلاش كلام أهبل. إنت مش شايف الدخان، ده لحد دلوقتي معرفوش يطفوا الحريقة.

وإيه المشكلة! سهل جدًا إنهم يعملوها. يا بني، إنت ناسي اللي حصل في الثورة، عايز تقنعني إنه مكانش شغل مخابرات.

أسرع رجل من ورائهم وطوّق إثنين منهم بيديه، وقال:

على فكرة لا شغل مخابرات ولا غيره، بيقولك كان في إرهابيين هنا إمبارح، وهمّا اللي فجروا المشرحة.

وإنت جبت الكلام ده منين؟

أنا ساكن في المنطقة يا صاحبي وسمعت ضرب نار إمبارح.

ضرب نار! يا دين أميّ يا جدع لو بس كنت هنا.

يا أخي وحد الله.

رجل كبير في السن كان يمشي ليس ببعيد عنهم، قاطع حديثهم.

إيه يا عم الشيخ؟ ما تخليك في حالك بدقنك دي.

يا ابني عيب الكلام ده، أنا زي أبوك.

أبويا مين؟ أنا أبويا بيحلق دقنه كل يوم.

إنت شكلك منهم أصلًا.

شكلك من الخونة اللي كانوا عايزين يبيعونا.

نظرة حائرة ومحبطة في نفس ذات الوقت أعطتها (ديجا) إلى ذلك المشهد. حيث التف الشباب حول الرجل العجوز، يُطوّقونه، ولم يتدخل أو يوقفهم أي مار في الطريق.

هتعمل إيه يا عم الحاج؟ احترم نفسك، نحترمك.

إنت أصلًا لو متربّي وأهلك ربّوك مكنتش قلت الكلام ده.

متجيبش سيرة أهلي، دول أشرف منك ومن اللي زيك.

والله عيب الكلام اللي بتقوله ده. يا ابني احترم سِنّي.

لا احترام ولا غيره يا عم الحاج.

وقام بإشعال قداحته في ذقن الرجل العجوز، الذي اضطرب شيئًا قليلًا من الدخان والنار بينما ذقنه تحترق، ويحاول أن يُطفئها بأصابعه.

"معتقدش إن رجالة يعملوا كدة، ولا إيه يا... يا رجالة؟" قالت (ديجا) مُقاطِعة ومُقترِبة من صفهم، في حين التفّ الشباب جميعًا وتركوا الذي أشعل القداحة يتكلم. مرة أو مرتين تلعثم في البداية، لكنه قال، "مقدرش أقرب لواحدة مُزة يابا..."

ببلاهة كان يضحك، "... يالّا بينا من هنا يا جدعان ليقولوا تحرش،" وبالأخص أن لباسها وهيئتها أثارت حفيظتهم، فلم يقربوا منها، بل فضّلوا الرحيل في سكات.

على غير المعهود، لم تتوقع (ديجا) رد الفعل ذلك، لكن بمجرد أن ابتعد الشباب، تنهد الرجل العجوز بزفرة بائسة، وتكلم، "ربنا يكرمك يا بنتي. أنا مش عارف البلد دي جرالها إيه. مبقاش في أي احترام لسن ولا شيبة."

"ربنا يباركلك يا بنتي. مش عارف كان ممكن يوصلوا لإيه لو متدخّلتيش في الموضوع. زي ما إنتي شايفة، الجِيل مهدوم والواحد صِحّته على قدّه."

ربتت (ديجا) على كتف الرجل العجوز، وقالت، "متقلقش يا حاج. البلد دي لسه فيها كويسين. مش كل الناس زي اللي إنت شفتهم من شوية."

قال العجوز، "ربّنا إنّا لا نسألك ردّ القضاء ولكن نسألك اللطف فيه،" وكانت (ديجا) قد ابتعدت وتركت العجوز ليلتقط أنفاسه.

بدأ الناس يتصارخون كلما اقتربت من مصلحة الطب الشرعي، حيث تكوّم الناس وصنعوًا طوقًا خانقًا أمام سيارات الإسعاف التي تتخلف عن سيارات الإطفاء، والتي كانت مُنصبّة في إطفاء الحريق من وراء حزام أمني من رجال الأمن المركزي، وسيارات الشرطة المُكدّسة في كل مكان. فكرت (ديجا) لوهلة، "شكل الموضوع مش مجرد حريق، في حاجة كبيرة هنا، في أخبار!"

حاولت أن تُزاحِم، وتمر من خلالهم، وتقترب أكثر إلى السياج الموضوع، حيث رأت العديد من قنوات التلفاز والراديو، من وراء سيارات الإسعاف، يتكلمون، وينقلون الأخبار. رجال ونساء تعرفهم (ديجا) جيدًا، حتى ذلك الشخص الذي كانت تستضيفه احدى القنوات المصرية، والمدني الوحيد الذي مر من السياج الأمني.

أعزائي المشاهدين من أمام مبنى مصلحة الطب الشرعي ننقل تطورات الأوضاع بعد أن تم التأكد من مصدر أمني عن حالة هجوم إرهابي على مبني مشرحة زينهم...

قاطعها صوت يعلو نجومًا ثلاثية بنبرة شديدة التكلّف، لم يظهر في الكاميرا المُوجّهة بالكامل على تبرّجها، "يا فندم، إحنا مأكّدناش أي حاجة، ولسه مفيش أي أخبار، سيبوا الجهات الأمنية تشوف شغلها بعد إذنك،" وبالتفافة سريعة استدار ولم تتمكن الكاميرا سوى من إظهار ملابسه وصورته من الخلف، وبنطاله الضيّق الذي أثار حفيظتها، لتعود سريعًا إلى المذيعة.

كانت تصيح في أحدهم بصوت يبدو أنه لم يظهر في البث، بينما يرمقها مذيع آخر بنظرات شزر واحتقان، متأففًا من طريقتها الغريبة.

أكملت المذيعة، "ومعانا أحد المواطنين القاطنين في المنطقة، بنسأله، إيه معلوماتك عن اللي حصل إمبارح بالليل تحديدًا بما إنك من سكان المنطقة؟"

حاول الرجل أن يتكلم، لكنها كانت تثرثر، "هل الموضوع له علاقة بالشائعات المُتردّدة بوجود ماس كهربائي؟"

"آآه..."

"ولّا ده تنظيم من الجماعة إياهم اللي عايزين يخربوا البلد؟"

"الـــ..."

"ولا هجوم إرهابي وقوات الشرطة البواسل كانوا بالمرصاد؟"

أخيرًا تمكن الرجل من الكلام بعد أن سكتت وحشرت المايك في فمه، ليرفع حاجبًا ويُنزِل الآخر ويتراجع خطوة واحدة قبل أن يُهندم نفسه ويتكلم، "الموضوع بالتأكيد الجماعة إياهم، أنا كنت صاحي بالليل وسمعت صوت ضرب نار، لا هو ماس كهربائي ولا حاجة. يا فندم أنا عايز أقولك إن الناس دي مش عايزة تسيبنا نعيش في حالنا، على طول مكدرين عيشتنا..."

لم يكد الرجل أن يُكمِل حتى يظهر على التلفاز في المقهى المجاور للمشرحة شريطًا إعلانيًا فحواه، (مصدر موثوق - هجوم الجماعة المحظورة على مشرحة زينهم وحتى

الآن لم تُعلِن الجهات الأمنية عن أعداد الضحايا).

ترجّل شابان بخطواتهما السريعة، ليقضيا طلبات رواد المقهى والمُتجمّعين من الناس بسبب تلك الحادثة، ليصيح أحدهما في الآخر في خفاء، "الحساب قبل المشاريب، يا عم الناس بتخلع من هنا."

ويرد الثاني، "وأنا أعملهم إيه؟ الله يعوض شقانا."

بينما قرأ أحد الشباب الجالسين على التحديثات الفورية لموقع الفيس بوك أن ماسًا كهربائيًا تسبب في حريق مشرحة زينهم، وتُقدّر خسائر المشرحة بالملايين وأعداد متزايدة من الضحايا، بسبب تكرر انقطاع الكهرباء.

عضت (ديجا) على لسانها من الانبهار، "هو نفس الشخص، مش الشخص ده اللي كانوا مستضيفينه في برنامج؟؟!"

"واو! ابهار حقيقي فعلًا. نموذج للمواطن المتواجد في كل مكان."

ضحكة لم تستطع (ديجا) أن تكتمها، لكنها حاولت منعًا للإحراج. كانت قد رأت ذلك المواطن في عدة حلقات وعدة برامج، يتكلم في مواضيع مختلفة، بنفس الشكل والهندام.

كان الناس يتجمّعون وكأنهم يشاهدون فيلمًا سينمائيًا. لا تستطيع الجزم بأعدادهم، ربما المئات أو يزيد. كانوا يأتون من كل صوب لمتابعة المحاولات المُستميتة في إطفاء الحريق، والذي استغرق الساعات لإخماده.

وقفت (ديجا) بينهم بينما تلتقط بعض الصور عن طريق هاتفها الجوال ذو الكاميرا الاحترافية، تسجل أهم اللحظات وردود الأفعال المتباينة. ربما كانت الشائعات أسرع انتشارًا بين الناس من كتلة الدخان.

على حين غرة، اصطدم أحدهم بكتف (ديجا) صدمة قوية، انتفضت منها وسقط الهاتف من يدها. استغرقتها الصدمة لحظات قليلة حتى تتبين أن الهاتف قد سقط، وأن الألم في ساعدها لم يكن ألمًا بسيطًا، لتتناساه. نظرت إليها العيون، وهي تنظر وتبحث عن الشخص الذي صدمها، لكنها لم تر أحدًا توافق حالته حالة الاضطراب التي أصابتها. كان اهتمامها في أن تجد ذلك الشخص أكثر من اهتمامها بهاتفها الذي تلاشى بين الأقدام.

امتعاضة على الشفتين رسمتهما بالضيق وقت أن جابت بالنظرات المتفحصة من خلال الصفوف. ساعة أن تيقّنت (ديجا) أنها لن تصل إلى شيء، صنعت دائرة وجثت على الأرض، تُتمتم بانزعاج، "التليفون!!"

"آآآآه!"

أحذية متسخة وأصابع أقدام تفوح منها رائحة قذرة، تقززت (ديجا)، وانتصبت قليلًا، تمشي وتبحث عن الهاتف، والذي لم تسمع حتى صوت اصطدامه. كانت قد خرجت تمامًا من الجمع، لم تباشر في المرور من السياج رغم كونها مذيعة، تستطيع أن تستقي الأخبار من مصادرها الرسمية.

ذلك الشخص الذي برز أعلى السلالم المؤدية إلى المصلحة، ومِن حوله تكوّمت

الميكروفونات، بهيئته الرسمية وجسده الممتلئ، نظر إلى الجميع ثم تكلم، "مفيش أي حاجة اتحصرت حتى الآن، أتمنى إنكم تساعدوا قوات الإطفاء إنها تقوم بعملها،" والأسئلة تتراص على رأسه، لا يدري عن أيها يُجيب، فيُجيب عن أسئلته الخاصة.

"حتى الآن الأجهزة الأمنية لم تتوصل لسبب اشتعال الحريق. بعد انتهاء قوات الإطفاء، هتقوم لجنة الفحص الجنائي في البحث عن الأسباب."

"والضحايا؟" زعق صوت مرتفع.

"إحنا في هاوية من الأحداث. حتى الآن لا يوجد أي رقم محدد، لعدم التمكن من دخول المشرحة، لكن حتى الآن لا يوجد."

"والحالة الأمنية للمشرحة؟" زعق صوت آخر، وكان يتمتم في مواجهة سؤاله، "إيه الهواة دول؟ بيتكلموا في إيه؟"

بدأت بوادر الضيق تظهر على ملامح المسئول، لكنه صبر قليلًا، وأجاب، "بعد انتهاء التحقيقات، هيكون في تصريح أشمل. رجاءً ترك الأجهزة الأمنية تقوم بشغلها."

"يا..."

"يا فندم..."

بحركة مفاجئة، استدار وكأن الأسوار تحاوطه.

أمام (ديجا) مباشرة، وقف أحدهم بابتسامة خافتة ووجه يتصبب عرقًا وقت الشتاء. كان قد حمل في يده هاتفها الجوال، وكانت قد تلعثمت من دهشتها.

قالت (ديجا)، "أنا!"

"أنا متشكرة قوي!"

"أشكرك بجد. مكنتش عارفة هعمل إيه من غير التليفون ده."

"لا، ولا يهمك،" قالها بصعوبة بالغة وكأنه يلتقط أنفاسه من بعد صعوده إلى قمة منحدر. كان قد كوّم معطفه الأبيض، وكان يهمّ بالرحيل.

لم تلتفت (ديجا) إلى تلك الشارة على جيب قميصه، كان قد همّ بالفعل بالرحيل، و(ديجا) تتسمر بعد أن حملت هاتفها.

"يافندم، يا فندم..."

"... لو سمحت،" نادت (ديجا) وهي تُسرِع خلف الرجل، والذي كان يسحب قدمًا خلف الأخرى.

"أرجوكي، بعد إذنك، " توسل الرجل بصورة بائسة، "إنتي مش أختي تليفونك؟"

"آه،" تمتمت (ديجا).

أرجوكي سيبيني أمشي. اليوم طويل جدًا، ولسه في نيابة وأحداث كتيرة جاية."

"حضرتك كنت جوه؟" كانت (ديجا) قد أوقفت الرجل، بعد أن اقتربت منه كثيرًا، بضيق استدار، ثم نظر إليها وقال، "إنتي صحفية من إيّاهم؟ أنا مبتكلمش مع الصحافة."

"لو سمحتي، بعد إذنك."

همهمت (ديجا) وسريعًا قالت، "لا، لا يا فندم."

"مممم! في الحقيقة أنا مذيعة راديو."

"أنا عايزة أشكرك على إنك لقيتلي التليفون، شكرًا ليك بجد."

نطق الرجل، "ملوش داعي."

"عادي، أي حد كان هيعمل كدة لو كان شافه، أنا بس أخدت بالي إنه وقع منك. بعد كدة ابقي خدي بالك يا... ممم! يا آنسة، خصوصًا في الأماكن اللي فيها تجمعات."

حملقت (ديجا) في الشارة، ثم قالت، "دكتور يونس."

أدرك الطبيب أن الشارة كانت لا تزال مُعلّقة في جيب قميصه، فقام بانتزاعها وحشرها في جيبه بضجر، في حين أكملت (ديجا)، "أنا مش عايزة أي تصريح أو أي حاجة من دي. أنا كنت جاية عشان أسأل على حاجة معينة."

قال يونس، بعد أنا عاود المشي، "اعذريني، معتقدش إني ممكن أفيدك. أنا لازم أرجع لأولادي."

"أنا بس عايزة أسأل، هو مفيش حد جه في حادثة عربية إمبارح؟ لو ممكن تقولي بس."

"أنا أقوالي اتاخدت خلاص، إنتي مش متخيلة!"

"أنا معنديش استعداد أقول أي حاجة تاني."

شعرت (ديجا) بالبؤس وقررت العودة إلى صفوف المتجمعين عند المصلحة بعد أن نهنهت، ربما ستجد طريقها إلى المشرحة من هناك. كان الطبيب (يونس) قد همّ بالفعل بالمغادرة، وتبعته (ديجا) في الاتجاه المضاد.

"عايزة سبق صحفي؟" قال صوته الأجوف أمام لمعان بؤبؤ عينها.

"حقّقي عن الإرهابي المجنون..."

رقبتها التي استدارت وحسب، وعلامات الحيرة على جبينها، (يونس)، والذي كان يعرج شيئًا قليلًا ويرحل سريعًا من أمامها.

هاوية سحيقة في انتشار الإشاعات، هاوية في الأخلاق أم هاوية انحدارها؟

لم تفهم (ديجا)، لكنها ردّدت، "إرهابي!"

بيان عاجل: ارتفاع أعداد الجثث المتفحمة في مشرحة زينهم، ولم يتم التعرف على أسباب الحريق حتى الآن.

رنين الهاتف - خمس مكالمات فائتة - انتهاء البطارية...

****

" 18 "
أرض الميعاد

أحرف ذهبية...

تشكيل عثماني...

"قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (106) - سورة الكهف

على رقعة كبيرة من جلد الماعز المرتب والمقصوص بحِرفيّه كُتِبت تلك الآية القرآنية.

كانت مُعلّقة مباشرة فوق الكرسي الخشبي الأرابيسك، ذلك الذي يعود إلى العصر العثماني القديم، على مصطبة حجرية أمام باحة صغيرة، إلى جوار بعض التواشيح والأعلام السوداء، والتي كانت تتراقص بين أدخنة البخور الكثيفة، منقوش عليها دائرة التوحيد، بلون أبيض براق، (الله - رسول - محمد). من تحتها، علامة نصلين يصطكّان ببعضهما، دلالة على القوة، ومن فوقها، كتاب مفتوح يُشعّ نورًا، دلالة على الحق.

رائحة البخور كانت نفّاذة، أعواده التي أتت من بلاد الهند كانت تحترق باستمرار، تأخذ وقتًا طويلًا حتى يسقط الرماد عنها. دخان كان يسري بين الممرات الترابية الضيقة والحجرات المُكتظة عن آخرها بأجساد الناس، حيث كانت أصوات الغطيط كأصوات

المناشير، آلات حادة تقطع السكون وتُصِيب العقل بالاضطراب.

بعضهم يقبع في سكينة من أمره والبعض الآخر يتقلّب كمن يُشوى على النار. مر فيهم الوقت مرور أهل الكهف، حتى استيقظوا ساعة أن لاحت مشارف الصباح، وقت أن نام المُنادي عن صلاة الفجر، وأفاق مُهتزًا بزمجرة وأعين مغلقة، وأيادٍ تُمشِّط اللحية الكثة. كان شديد بياض الوجه، له علامة في وجهه، غائرة، لا تبدو مثل علامة الصلاة، بل جرح قديم واندمل.

فغر فمه من التثاؤب حتى ابتلع قدرًا عظيمًا من الهواء، حك ذقنه بأطراف أصابعه ثم نعر، "استيقظوا يا رجال الله."

"استيقظوا إلى الصلاة."

أول من استيقظ منهم كان ينام مُخالفًا للذي ينام إلى جواره، وأول ما فعل أنه نظر بلمحة واحدة إلى ساعته الروليكس. تضايق كثيرًا ونهر لأن الساعة لم تتخط العاشرة بعد، وكان الليل عليهم طويلًا، فلم يناموا ولم يهنأ لهم بال.

جلس شاب نحيل آخر وكانت ذقنه هشة ويضع على رأسه طاقية بيضاء. بعد أن أناخ جسده إلى الجدار، تكلم، ربما إلى نفسه لأنه لم ينتظر إجابة، "صلاة إيه دي اللي دلوقتي؟" وكان يفكر سرًا، "أنا عمري ما ركعتها أصلًا."

في مواجهته مباشرة جلس شيخ عريض المنكبين، يبدو شديد التنبّه وشديد سواد شعر اللحية، رمقه بنظرة مضجرة، وقال، "ششش! ويش هالجيل؟" وكان يُمسِك في يده

اليسرى مصحفًا قديمًا جلدته بنية مزركشة، وفي اليد الأخرى يحمل كتابًا ضخمًا له جلدة مصمتة، عنوانه: تفاسير قرآنية للشيخ الأعظم.

كان يقرأ من القرآن ثم ينظر إلى الكتاب الآخر:

"إِنَّمَا جَزَآءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ (33) - سورة المائدة"

في كتاب (تفاسير قرآنية للشيخ الأعظم)، أوراقه السميكة، راجع الأبواب الأولى عن الإسلام الصحيح، وطريقة المسلم الحق، مظهره وشكله وعلاماته المميزة، كانت أولها لحيته الهشة وغطاء رأسه الأسود، صورة الشيخ الأعظم، وهو الشيء الذي تميز به ذلك الرجل العجوز وكل من كان هناك.

في مقدمة الكتاب، جملة في أول صفحاته: دولة الإسلام لن تموت - خلافة الله في أرضه، وفي آخر الصفحة: طريق الجنة الإلهية.

بداية بالسلام على المؤمنين واستهلالًا بقيمة اليقين، كانت أولى الاستدلالات التي استخدمها، الآيات الشيطانية، والتي ظنّ أنها دخلت إلى نصوص القرآن فغيّرت معانيه، ومع اختلاف وجهات النظر، إلا أن استخدام نقطة الآيات الشيطانية في الأساس هي للتحذير من أن الإسلام أصبح ضعيفًا هشًا، كثيرًا تغيّر عن حقبة المنشأ، وأن المسلمين ضلوا الطريق وحادوا عن الصراط، بأن تخلّلت نصوصهم العِوج.

أول النصوص، عن الوحدانية، عن الله، ثانيها عن الإسلام واليقين وثالثها عن علامات الصلاة، باختلاف أشكالها وسُبلها، تكلم الشيخ الأعظم عن أن عبادة الله تستلزم الرضوخ التام بطاعته، وفسّر الطاعة على أنها بذل من أجل اليقين بالروح أو الجسد أو بالدماء المارقة حتى تتطهر الأرض من الضالين والمغضوب عليهم.

وقتها، تصفّح الرجل العجوز الآيات التي قرأها في قرآن وتفسيرها في الكتاب.

"أما الذين يُحارِبون الله ولا يتبعون الرسول فأولئك هم المارقون عن دين الله، الذين يتعاونون مع الكفار وأعداء الله، شياطين الإنس بكل أطيافهم، فهم من شاكلتهم وعلى صبغتهم. أولئك لعنهم الله بأن يُصلّبوا علانية وتُقطّع أيديهم وأرجلهم شِقاقًا عن بعضها، فلا كناية لهم ولا دية. هؤلاء هم الكافرون الذين حذرنا الله منهم، لا نتخذهم أخلاء ولا نُعاهدهم. ألا لعنة الله عليهم أجمعين، ألا إنهم في النار خالدين."

مزيد من الصفحات، مزيد من الآيات، تباشير...

قريبًا، أفاق فريق من الجالسين وفريق من النائمين، وهبّوا من سباتهم كالأموات المستيقظين من تحت الثرى بأوجههم المغبرة. يتمسّحون بالتراب ما بين مفارقهم ويقفون في جماعات وفرادى، يُصلّون.

يُنادي الواحد فيهم، (الله أكبر)، وينادي الآخر، (الله أكبر) وكأنها صيحات للحرب. إلا الذين تخلّفوا بحجة ضيق المكان. كانوا يتربّصون في المؤخرة، يتصنّعون القيام

والركوع والسجود، ولا تنطق أفواههم ببنت كلمة.

الله أكبـــــــ

“What are we doing here, Man?”

فأشار الآخر بإشارة من يده على فمه ورمق عدة مرات ما وراء الباب حتى تيقن أنه لم يكن هناك أحد، عندها تكلم بصوت خفيض:

“Shhh! Are you crazy?”

“You want us to be killed or something.”

“Man, I didn’t sign for this. I’m not even a Muslim in the first place.”

“Yea, I know, but this is how we learn about Islam.”

“Isn’t it a great honor?”

“I was always fascinated in this religion, and through the Internet, I finally had my redemption.”

“Damn! Now you are the crazy one.”

كان قد استند على الحائط وعاس بإصبعه في مقلتيه، محاولًا أن يفيق من الحلم ويعود إلى الواقع. وضع الشاب المكتنز الملابس يده على مرفق صديقه. كان ينظر نحوه نظرة ساكنة، يُخبِره فيها ألا يخاف أو يحزن.

“You’d be a martyr, Dude. You shouldn’t be afraid.”

مرّ من أمام مكمنهما رجل يلتحف بعباءة سوداء مزركشة بخيوط بيضاء، يضع قلنسوة على رأسه، ويُخفي ملامحه تمامًا. وقت أن رأياه ارتبكا ارتباكًا جمًا، حتى أنهما تركا ما كان يفعلان وفزِعا بينما يتكلم أحدهما بلكنة عربية ركيكة:

"Mowlana!"

من ورائه ظهر رجل ضخم البنية، يفوق طوله المترين وربما يزيد. رجل أصلع الرأس، مكتحل العينين، له شارب كثيف ولحيته مرسومة. يرتدى سروالًا من القماش الأسود ويضع في معصمه الأيمن سوار فضي، رأسه بيضاوية الشكل وكأنها مضروبة بالسيف، وعلى صفحة جبينه ترى غضب الآدميين جميعًا.

كل من رآه كان يخشاه. هيئته العملاقة كانت تصبّ الوهن في قلب أي شخص يتجرأ على نزاله. أما هو فقد كان يتبعه كظله. لا يفارقه أينما ذهب حتى عند النوم.

جأر التابع الأكبر وغرغر ليلفت انتباه الحاضرين، أولئك المُتجمِّعون من كل حدبٍ وأولئك المُتفرِّقون. كان يدعوهم إلى الجلوس أمام القائد الأعظم، الأمير الملثم، أو بالأحرى الشيخ الأكبر. ذلك الذي اقترب شيئًا قليلًا وبالتفاتة خاطفة على القائمين والقاعدين، جلس على كرسيه الحجري، بعد أن أرخى اللثام وترك وجهه مجهولًا لهم.

الله أكبر...

العزة للجماعة...

الله أكبر...

النصر لرؤوس الإيمان...

كانوا يصيحون فيما بينهم بنداءات النصر وصيحات الحرب، يضمّون أيديهم إلى صدورهم، ويرفعونها بقبضتها كقبضة واحدة. ليس حتى اضطجع الشيخ الأكبر على الكرسي، وأشار بيده أن يصمتوا، فصمتوا جميعًا إلا شخصًا واحدًا، شاب صغير السن كان قد تخلّف، فكوّر

التابع الضخم كلتا يديه، فصمت الشاب هو الآخر.

ساد صمت لا يسري إلا بين الموتى، ولا الأنفاس حتى كانت تُسمع. كانوا ينتظرون، ينخرون سرًا ولا يتكلمون. كانوا ينتظرون الأمر الجلل، ألا وهو الشهادة، من سينال مفاتيح الخلود، ليصحوا في جنات النعيم.

في ذلك الحين، كان بعض الشباب يتراجع زحفًا إلى وراء الصفوف، بصورة شديدة البطء حتى لا تُرى حركتهم. فالواحد منهم يتنعم بخيرات الأرض، فلِم يُسارع إلى الموت؟ هذا هو عنوان خيالهم.

كان يبتعد، والناس من حوله لا يسمعون ولا يرون، لا يلحظون تقهقر أحدهم بين الصفوف، حتى مال التابع الضخم إلى الشيخ الأكبر، يهمس في أذنه بالكلمات، والتابع الضخم يهزّ رأسه موافقًا وليس مُعارِضًا، مُتمتِّعًا وليس مُتمنِّعًا. كان قد استغرق وقتًا في الهمس إلى الشيخ الأكبر، ووقت أن انتهى، صاح الشيخ الأكبر بعد أن عاد إلى حالته الطبيعية، "سائد، أحضره إلى هنا،" وكانت نبرته شديدة الغضب وشديدة الحسم.

طرقات أقدام التابع الضخم، سائد، كانت تُزلزل البراح. كان يشق الصفوف بيديه شقًا، كثور هائج لا توقفه أسوار. وقت أن أيقن الشاب الذي كان يزحف متراجعًا أنه الوجهة والقصد، ارتمى على الأرض باكيًا مُتوسّلًا. كان قد وصل إلى الحائط، فلا فرار ولا خروج من ورائه ولا من أمامه.

"أرجوك، ويش سويت أنا؟ أرجوك خلّيني،" توسل الشاب.

توسلاته لم تعنِ شيئًا بالنسبة للتابع الضخم، (سائد)، والذي أمسك الشاب من طرف ثوبه ورفعه بيد واحدة من دون أن يبذل أي مجهود يُذكر، يُحدّق في وجهه بغضب بينما ينكمش الشاب كدجاجة شارفت على ذبحها. كان يتلوى في بداية الأمر لكنه سرعان ما هدأ وقت أن أيقن أنه لا سبيل للخلاص من قبضة (سائد).

تحت أقدام الشيخ الأكبر ألقى (سائد) الشاب البائس. كان يجلس ساجدًا، لا يرفع رأسه ولا ينتهي عن النواح. بحركة سريعة زحف مُقبّلًا حذاء الشيخ الأكبر، يدعوه، "أرجوك خليني، والله ما سويت شي."

كان (سائد) يقف وراءه، فأمسكه من قفاه وألقاه بعيدًا عن الشيخ الأكبر، والذي لم يتحرك من مكانه، وبعد أن سادت الأحاديث الجانبية بين الجالسين، أوقفهم (سائد) وتكلم الشيخ الأكبر.

نحنحة وهمهمة في بداية الأمر، كان صوته أجشًا، صوت رجل عجوز، برؤية شديدة ونبرة خافتة كان يتكلم من تحت لثام قلنسوته، "الله يعلم كل شيء..."

"... الله يعلم كل شيء ولا يخفى عنه مثقال ذرة مما تفعلون."

"الحكم حكم إلهي، لم يُصدِره بشر."

"إسلامك ناقص وأنت لم تتعلم شيئًا بعد."

"ويش سويت أنـــ...." فضغط (سائد) على رقبته فأسكته من الخوف. كاد أن يبلل سرواله لولا أن كل عضلة في جسده كانت منقبضة.

أكمل الشيخ الأكبر، "هو يتكلم بالسوء ناحية الجماعة، والأمر لنا أن نقيم صلبه ونشد عضده."

"أنت من ينشر الأخبار، ومن ينشر أخبارنا فليس منا، بل من المارقين الكافرين."

"أما العدل، فقد تيقنت أن أحدًا لم يسمع حديثك."

"وأما الحكم، فلسائر الحاضرين."

"لقد أقمنا عليك الحجة وانتهى الأمر."

بدأ الغضب يسري بين الصفوف وكادوا ينعقون نعاق الثائرين لولا أن (سائد) أسكتهم، ومال أحدهم إلى الآخر وقال، "والله ما أنا عارف ليه يدعموا الصفوف بالضعاف."

"لهجتك!" قال الآخر، "اللغة العربية ثم اللغة العربية. لا تنسى حتى لا تكون رأسك هي التالية."

"آه، أجل! أجل!" وأمسك ذقنه بالكاد، وابتلع شيئًا من ريقه.

وقف أحد الجالسين في الصفوف الأولى وقال باهتياج، "القتل، القصاص يا أميرنا. العين بالعين والسن بالسن، الشريعة يا إمامنا،" وبعد حديثه، تهلل الجالسون.

زعق فيهم الشيخ، "لا حُكم لكم اليوم."

"سأنبّئكم بما يقول القرآن الكريم:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ

أَلِيمٌ (178) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179)

القصاص للآثمين المجرمين ممن يرتكبون فاحشة مبينة بين الناس، أما رحمة الله على العبد الآثم أن يُعفى له من آخيه. أحضروا أخيه..."

وكان من بين الجمع شاب يفوق الآخر في السن، اقترب على هونٍ وتكلم، "أنا ابن عمه يا شيخنا، فقد استشهد أخوه ليلة أمس."

قال الشيخ، "آه، دعاء لإخوتنا الذين استشهدوا ليلة البارحة. ربنا..."

قاطع أحدهم، "يا شيخنا، انتشرت الأخبار بيننا أن رديف هو من قتل إخوتنا."

رفع الشيخ حاجبًا وأنزل الآخر من تحت قلنسوته، همهم ثم قال، "مهدور دمه، من يجده فليقتله."

"نحن لا ننسى المُحرّضين علينا والذين يُقاتِلوننا، وإن كانوا منا."

"رديف، لعنه الله وبلعنة الله سيموت في نار الدنيا والآخرة."

ثم أشار إلى (سائد)، الذي هدر وأخرج سكينًا، يظهر بريقها تحت ضوء المصابيح والمشاعل، وحشرها على حين غرة في فم الشاب، واقتطع لسانه، بين صيحات ودماء، وتهليل وتكبير، وانبثقت الدماء على حذاء الشيخ بعد أن تمسح فيه الشاب، رغبة في المغفرة وطمعًا في أن يكون أول التائبين، حتى أعاده (سائد) بين الصفوف، والتقفه ابن عمه ليُطبّب له لسانه، الذي أمسكه في يده.

عاد الهدوء مرة أخرى إلى الصفوف بعد أن هدأ الشيخ وانكفأ أحدهم يمسح عن حذائه الدماء بطرف ثوبه.

تقدم أحد الرجال وانحنى ليُقبّل يد الشيخ وقبع تحت قدمه، وهو يتكلم، "أفضل ما طلبت يا شيخنا. كلهم حاضرون ولك المشيئة."

وقف من دوره ثم أشار بيده، وابتعد قليلًا. تقدّمت أقدام صغيرة عارية، يعلوها الوسخ، والملابس القديمة الممزقة، وأمام الشيخ، وقف سبعة من الأطفال، الذين ضنّت عليه الحياة بما رحبت. كانت أفواههم تسيل، ونظرات البائسة تحترق.

قال الشيخ، "هؤلاء أبناؤنا، يتركونهم في جوف الليل البارد وقسوة الأزقة، لعنة الله عليهم."

أشار الرجل إلى الصغار بأن يتقدّموا واحدًا بعد واحد ليُقبّل يد الشيخ الأكبر، ويتبرّكون من هيبته ووقاره. كان أولهم طفل لا تزيد قامته عن النصف متر، تلطّخت جبهته بجلد محترق، كان يقترب مترددًا ناحية الشيخ، لكنه قبّل يد الشيخ سريعًا ثم عاد إلى مكانه.

أما الثاني فوقف صامدًا، ينظر إلى الوراء وإلى الأمام، يرى ذقونًا ترسم الوجوه، سيماهم على وجوههم المسودة. كان ينتفض لأنه يرى في أعينهم ظلامًا غريب. بدفعة من الرجل الذي كان يقف وراءهم، تقدّم الطفل وتعثر، لكنه قبّل يد الشيخ ثم قفز إلى الوراء سريعًا.

سادت البشرى بين الجموع حين تقدم الطفل الثالث، كان يمشي بسلاسة، هادئًا جدا،

يحاول أن يرى ولا يستطيع من زجاج نظارته المكسور. عندما اقترب ليُقبّل يد الشيخ، أمسك الشيخ بمعصم الطفل، رأى على يده نقشًا بلون أخضر ثابت، علامة الصليب، فنهر الشيخ الطفل ولم يقبل أن يُقبّل يده، فعاد الطفل خائفًا متوجسًا في قرارة نفسه.

لم يتكلم الشيخ حينها، بل ظل صامتًا أمام الطفل الرابع والطفل الخامس، إلى أن حان دور آخر طفلين في الصف، فتاتان لم يكملا أعوامهما العشرة، إحداهما تعلو الأخرى ببضع بوصات، وهي التي تقدمت ووقفت أمام الشيخ، لكنها جعلت فيما بينهما مسافة قصيرة، عدا أنها للفتاة المهلهلة ثيابها والمنتفش شعرها، والتي تنظر بامتعاض وكراهية إلى الجميع، كانت كفرسخ طويل ربما لا يقدر أحد على بلوغه.

ضوء أصفر باهت، رؤيا لم تكن واضحة. ما بين عظام صدره كسور وخدوش. ظلام تتخلله ظلال تتحرك بلا نظام، بلا حركة، قيود مثبتة بإحكام وانحلت. زفرة حارقة تأتي من أعماقه. كان يغرغر وكانت أنفاسه تتصاعد. عادة ما يرى مشهد غرفته الضيّقة ويستبشر بيوم جديد، لكنه كان يرى من بين الغمام حجارة وطين.

أفاق، ولما أفاق، شهق بصوتٍ مسموع. حاول أن يتبيّن أين مكانه وأين أرضه. تلمس بأصابعه الجدار وشعر بملمس خشن كان يعرفه جيدًا. ربما ذلك الملمس أعطاه شعورًا بالسكينة، لم يتطرق إليه الخوف بعدها. كان ينام على جلسة من الطوب المبني وعليها فراش مغزول. كل قطعة في جسده كانت توجعه، أسفل ظهره وكتفه وحتى رأسه.

تلك الرائحة التي يشمها كان الريس (طلبة) يستخدما يومًا بعد يوم. تلك الرائحة التي دفعته لأن يضع قدمه على الأرض ويتجه ناحيتها. حين خرج من مكمنه، رأى غرفًا كثيرة لا تتعدى المتر أو المترين عمقًا أو الأمتار الثلاثة طولًا. كلها تشبه التجاويف في الجدران، كلها مفروشة بنفس الفرش الذي نام عليه. كان يسمع أصوات أناس تأتي من نهاية الممر، حيث ترجل ومسامعه تسبقه إلى هناك.

زجر الرجل ودفع الفتاة، التي اقشعرت واستدارت، وصاحت، "أنا مش هبوس إيد حد. إنتوا الناس اللي بالدقون."

زعقت الفتاة في الجمع، "أنا عارفاكم وعارفة اللي زيكم. أنا مبحبكمش. إنتوا اللي بوظتوا البلد وضحكتوا علينا."

"أنا ممكن أكون صغيرة وعايشة في الشارع صحيح بس عارفة كويس. مش هتضحكوا عليا."

"أنا بنت بلد وأحسن من أجدعها راجل."

"آه..."

"... واللي هيقرّبلي هشقه،" واستعرضت الفتاة مطواة كانت تُخبّئها في ملابسها في مكان لا يخطر على بال أحد.

بأصابع حجرية، أمسك (سائد) ذراعها وعصره، فسقطت المطواة، وصرخت الفتاة من الألم صرخة مفزعة، أدمعت عينها. عظامها اللينة كادت أن تنكسر بينما تهيج موضع أصابع (سائد) وازداد احمرارًا بعد أن امتنعت الدماء عن السريان.

كان قد اقترب كثيرًا، رأى الصفوف من الخلف ورجلاً ضخم الجثة يُمسِك بمعصم فتاة، تتلوى من الوجع، تُعافِر جاهدة لتتحرر، تضرب القدم التي لا تشعر بوخز محاولاتها. في نهاية الباحة، شاهد عباءة ملثمة على مقعد حجري وعدد من الأطفال.

أشار الشيخ بسبابته، فقبض (سائد) على الفتاة وسحبها معه مبتعدًا حتى اختفى في الممر من وراء المجلس. بعد وقت قصير، صرخت الفتاة عدة صرخات مدوّية، صرخات ألم واستغاثة، سكتت من بعدها تمامًا.

انتفض الأطفال خوفًا على أنفسهم، حتى أن الواحد منهم بلل ملابسه، وتكلم الشيخ، "لا تقلقوا، لا يموت عندنا أحد."

كانت الفتاة الأخيرة تتقدم لا إراديًا وبخطوات سريعة، لتنحني أمام الشيخ وتُقبّل يده عدة مرات، حتى وضع كفه على كتفها، ونطق، "أحضروا الطعام وأطعموا أطفالنا،" فانقلبت نظرة الخوف إلى أصواتٍ تعوي في الصدور، فرحة بالأطعمة التي تقدم بها بعض الرجال على جانب من الصف، ووضعوها في مرأى من الأطفال، الذين هبوا من السعادة يتمرّغون في الأكل الذي لم يرونه من قبل.

نادى الشيخ، "عابد..."

نبرته قاطعة...

كان (عابد) يقف بعيدًا عن الصف، في آخر الباحة، وكان لعابه يسيل على الأكل الذي لا يقاوم رائحته. كان يشعر بجوع غريب، يسمع قرقرة نغمية لبطنه، وكان يترجّل إلى هناك، يمشي على قدم ونصف.

قال الشيخ، "تقدم يا عباد..."

"... أرني وجهك."

أمام الشيخ وقف (عابد)، كانت عينه لا تُفارِق الطعام والأطفال يهجمون عليه هجوم الوحوش الضارية، يُمزّقونه فلا يبقون من شيء. بعد أن تيقن أنه لن يجد إلا الفتات، قطّب عن جبينه واحتد بزمجرة وحيدة.

قال الشيخ، "اقترب يا عابد..."

"... أنت اليوم لك شأن عظيم."

حاول (عابد) أن يجثو أمام الشيخ، لكنه لم يستطع. قدمه التي تعوقه كانت تأبى الانحناء. نعر (عابد) وضرب على فخذه في يأس. تلك القدم لم تكن تستجيب إلى رغباته أبدًا. حينها، وقف الشيخ وانتصب أمام (عابد)، ولوقوفه وقف الجمع ممن كانوا ينتظرون.

وجه (عابد) ووجه الشيخ الأكبر، نظرات يتبادلانها في صمت.

وضع الشيخ يده عند رقبة (عابد)، وقال، "أنت الروح الطاهرة الوحيدة هنا. أنت الذي لم تنله الخطايا."

لم يأبه (عابد) أنه كان نائمًا في منزل الريس (طلبة) ليلًا، وأنه أفاق في ذلك المكان وبين أولئك الناس، فمنهم أناس كان يعرفهم لأنه رآهم بين الجموع حين ترجّل بين الأجساد في المسجد. واحد أو اثنين وربما ثلاثة، لم يشكّ أبدًا في أنه رآهم من قبل، بل كان يُصدِر صوتًا ربما تحية لهم وهم ينظرون.

نادى الشيخ على واحد منهم، وقال بهدوء، "أحضروا لباسًا غير هذا اللباس، فالليلة ليلة عيدٍ لأخيكم."

هي البشرى التي دفعت الصفوف الأولى للصياح. عندما اقترب أحد الرجال ونزع عن (عابد) ردائه، صدره المقوس كان ينضغط أسفل ذلك الرداء. كان قلبه يدقّ من بين عظام مشوهة، يتقززون منه ولكن لا يُظهِرون، ودقت أجراس السروال، فتهلل (عابد) بعد أن شعر بلفحة برد غريبة. كان يشعر أن الأيادي تتخلله وتجتاحه، ربما تغسله وربما تُنجِّسه، بل كانت تُلبِسه رداءه الجديد.

كانوا يقفون جميعًا، وُضِع (عابد) إلى يمين الشيخ الأكبر، وانتهى الأطفال من الطعام وأصابتهم التُخمة، فانكبوا على الجدار، ينعسون.

تقدم (سائد)، وكان يُكوّر يده، ويزجر. يقبض على رجل مغطى الوجه، ينتحب ويعوي. تصطك أسنانه ومفاصل قدميه. كانت ملابسه ممزقة، وجسده شديد الهزل، ربما من الخوف.

في حضرة الشيخ الأكبر، انكب الرجل المُغطّى على الأرض كبًّا، بعد أن غاصت سيقانه في التراب، علامات الضرب واضحة بين ثنايا الرداء الممزق. بعين منكسرة ورقبة لا تستطيع أن تنظر إلى الأعلى، لكنه أجبر على ذلك بعد أنفاس متقطعة وطنين في الأذن.

قال (سائد)، "الجاسوس أيها الشيخ."

زادت الهمسات بين الحاضرين، "الجاسوس اللي اتمسك إمبارح."

"هذا أحد المارقين."

"أسرار الجماعة عند أعدائها."

تكلم الشيخ، "أما أنت فجرمك عسير،" وكان يُشير بالإصبع إلى مقدمة رأسه.

"فهذه الأرض هي أرضنا نحن."

شيخ عجوز يجثو، ذقنه بيضاء وجلده مُجعد، يستند بكفّيه على التراب.

****

" 19 "
رقم مفقود

ثِقل أقدام، سمع (مراد) صوت أقدام، صب اتجاهه جل اهتمامه ليتيقن من مصدره، مرت الثواني حتى تأكد من توهّمه، فعاد ناحية المعطف الأبيض وتمشّى بهدوء حتى وضع مسدسًا على رأسه، فتجمد كل شيء عن الحركة، حتى أن المِشرط وقع من يده، واتسع بؤبؤ العين حتى غطى الحُمرة الدامية.

نطق (مراد)، "متتحركش،" وكان الغيظ ينفذ من أحشائه المضطربة.

بقوة أدار (مراد) الرجل الذي يرتدي المعطف الأبيض، نظرة أمام نظرة يفصلهما زجاج النظارة.

"إنت!!"

وجهًا لظل، أمام غرفة التشريح التي ارتعشت الأنوار فيها. صدره الذي يعلو ويهبط مثل إعصار كاسح. مسدس في يد مهتزة، مصوب على شخص يرفع كلتا يديه، مُمسِكًا بمشرط لامع، وعلى استعداد لأن يهوي على الجثة القابعة في مواجهته، أمام الباب مباشرة.

"اقف مكانك..."

ولم يتحرك، لم يتحرك أي شيء سوى اليد التي هوت على رأس (مراد) بآلة حادة، فأظلم بعدها كل شيء.

ظلام لا يخلو من السكون أو الاضطراب. ظلام عاد سريعًا ليكتنف الجسد المبتهل على الأرض، الجسد الذي يرفع الأيادي إلى السماء

ولا يتكلم. عين لم تكن تبكي ولا تسأل. عين ناظرة لوقت قريب، وقت تجاب فيه الدعوات بالموت وتستريح.

صوت صرخات...

نيران! نيران الجحيم!!!

نيران تحرق الجسد!!

نيران تُعذِّب الروح، لا تطهرها...

ذلك الصوت!

ذلك الصوت المغموس بالجنون لم يكن صوتًا عاديًا. تلك النبضات الخافتة التي كانت تتأرجح على أنغام السكون لم تكن نبضًا لشخص على قيد الحياة. ألوان معتمة خضبت السماء لم تكن إلا غيومًا أشاحتها الرياح عن حدود الدنيا.

كل ذلك لم يكن عاديًا بين تلك الأقدام المُتخبّطة وأصوات تلك الآلات الصاخبة وضجيج الأفواه التي ليس بمقدورها السكوت، لكنه ورغم كل ذلك كان شيئًا مألوفًا إلى شخص تهاوى عن حدود الهاوية، وتساقط فجأة بين جموع الناس من دون سابق إنذار.

كانت الأمطار تتساقط على عينيه فلا يرى سوى أصوات القطرات المبعثرة بين خصلات شعره، وكأنما انشقت السماء وتلوّنت فصار يرى الشمس وكأنها كرة من ظلام دامس وقد انمحت عنها الأزلية المدعوّة.

لم يكن شيئًا عاديًا أبدًا أن تتزايد الأنفس وتتلامسه الأيادي وكأنها تُودّعه ولعلها تنجده. كان هناك وقت سكن فيه كل شيء سوى من صفير يتراقص.

همسة في أذنه، لم يكن يسمعها لكنه شعر بها. لم يكن يراها لكنه افتقدها، كانت تلتف حوله وكأنها تطوقه، تحميه من ذلك الشعور العجيب الذي لم يعهده من قبل وتحفظ روحه. كانت الأصوات تتصارخ وبعضها الآخر يتباكى، وكأنما لم يعهد واحد منهم المشهد من قبل.

ينساب الظلام تدريجيًا إلى داخل عقله المُفعم بالحياة، ذلك الذي كان يسبح في الذكريات. كان يقبع وحيدًا في تلك الغرفة القاتمة في أبعد مكان إلى جوار نافذة غابرة، يكاد يكون زجاجها شفّافًا، يعكس ضوء القمر إلى جوار ضوء مصباح قديم، يُظهِر الفراغ الذي كان يصبغ الطريق بوحدة لا تُؤنِسها سوى رياح الشمال.

هناك حيث قبع ظل شبح تتطاير خصلات شعره مع همسات الريح. كان ينتظر ويرتقب مرور الخطوات الساكنة في الطرقات. كانت الأضواء تتمايل وكأنها تسير. كان يتهادى فيها وكأنما كان منسيًا، لا لشيء سوى أن الجميع اعتبره ميّتًا، ولكن كل شيء فيه كان ينبض بالحياة.

كان الناس يرقبون حركاته التي لم تهدأ، وكأنه يُعانِي من صراع لا ينتهي، وكأن الحلم الذي أسره لم يكون سوى كابوسٍ مقيتٍ لا يريد إلا أن يمحو كل أثر في حياته. كان صراعًا ما بين الخوف والاطمئنان.

إنه إظلام ليلة أخيرة. ساعة من غدو النسيم المتطاير فوق هامات قد انتكست. لحظات وضع فيها أطرافه المترنحة على بداية الممر، وكأنه يستمع إلى سكون الكون وفراغ العقل

وعوالم لا نهاية لها. لو أن السماء لم تكن تدمع، لكان تأكد أن تلك الدموع لم تكن سوى دموعٍ أخفاها بين الذكريات.

ذلك البريق في ذلك الطريق في تلك الرؤيا التي كانت أقرب ما تكون إلى الواقع منها إلى الخيال. تلك الأضواء البيضاء الخالِصة في البياض وتلك الألوان المُتفرّقة التي مزجت الطريق بسلاسل رمادية باهتة، تحدّها من الجانبين بأسوار عالية على شكل بيوت، لا يكاد يُرى لها طابع محدد.

تلك الأوجه المنتشرة كالسراب، تجيبه عن السؤال الوحيد الذي ارتسم في خياله.

أين أنا؟

وبرغم أن كل شيء كان مألوفًا، كان يشعر بغربة حقيقية. تلك الطرقات التي اخترقها مرارًا في حلقات أحلامه، ها هو بعد وقت طويل يعود إليها ليترجل دربًا آخر إلى حيث يجب أن يُكمِل الرحلة.

كثيرًا توقف عند نقطة من قبل كان مغزاها ذلك السؤال، ما الذي يقف هناك مختبئًا في تلك الظلال؟

التفّت الرأس وكأن الصورة قد رُسِمت مرة أخرى فوق أحد المنازل. لا يزال يترنح ويتسلق ويتلاشى في الظلام عل أحد يراه. ربما لم يكن يجب عليه أن يذهب هناك. كان يبحث في البيوت عن طريق يُخرِجه من المتاهة.

لا زال التيه يبتلعه.

لم تكن معه.

من هي؟

كانت هناك. لم تكن الشمس قد تغيرت ولم تضع سوى بضع درجات من حرارتها في الأفق. كان يواجه الشيء الوحيد الذي خشي حقًا مواجهته.

كان يُسارِع في الطريق إلى النهاية، وكأن تلك الطريق كانت البارحة، وكأنما كان يُحمَل على الأعناق. تتراقص الأيدي على جسده، تمسح عنه الحزن والأسى، ولعلها تريده أن يعود. هي تلك الأصوات التي تمقته كثيرًا وتحبه كثيرًا. بعضها لا يبالي والبعض الآخر لا يعتبره شخصًا قد يبكي عليه.

كان يرمق الطفل المرتمي على أكتاف الناس وقد أيقنت الأطراف كلها أن الشخص الذي تساقط منذ وقت لا يذكر قد ذهب أدراج الريح، وأن الحياة قد أخذت بالفعل نهايتها بالنسبة إليه. كان يقف هناك مشدوهًا، ضائعًا، لا يريد أن يُشارِك في مساعدة أناس راكضين أو مهتاجين أو مصدومين.

ذلك الأب الذي كان ينتحب، لم يكن إلا لأن ابنه قد أوهمه بالرحيل فرحل. كان يخشى أن تكون تلك اللحظات هي اللحظات الأخيرة التي لن يراه بعدها. كان يتقطّف كل جزء من جسده وكأنما يريد أن يحمله بمفرده بعيدًا عن الناس، فلا يبوح بسرهما معًا حتى الزمان. ليس لأنها أتت كان الصوت يُناضِل للخروج، ولكن لأنه رآها.

كانت الأمطار تتقطر على جسده من عينيها وكأنها فقدت كل أسباب الحياة، وكأن المستقبل الذي تمنته قد صار ذكرى في لحظة أغفلها الزمان بين الرماد. لم تكن للدنيا

بأسرها أن تعوضها عن رحيل والدتها. كانت تنوح، كانت تصرخ، كان عويلها يُمزّقه، ولعلها كانت تقتطع الأجزاء المتعاقبة من عمرها.

هناك تهاوت على ركبتيها، وهناك على الطريق كان ينظر إليها.

من تكون؟

برغم الظلام الدامس والسديم المدقع والعيون المغلقة، السارحة، والتائهة في السبات، جاء السكون.

سكون تتبعه أدخنة النيران...

تلك النيران التي ابتلعت كل شيء...

نفس الشعور القاتل...

لا تزال أشعة الشمس تُرسِل حرارتها. لا يزال يشعر بها، تمتزج مع نسيم بارد ولفحة قاسية. هناك حيث شعر أن أنفاسه تضيق، تتحرّر وتُحرِّر معها عينه ليرى. رأى الصرخات العاتية وهي تقطع الصمت، رائحة الموت التي كانت تُرفرِف على المكان. رأى النيران من بين يديه ومن خلفه، من حوله وفي كل مكان ينظر إليه.

كان الضوء شديدًا والأصوات ترتفع. حيثما ذهب سيجدها وراءه. مهما حاول أن يتعقبها، لن يصل إليها، بل ستأتي هي إليه. كان يتنفس بالكاد ولم تكن الأيدي لتُدرِك أن الجسد المهلهل، المحمول على الأكتاف، لا يزال على قيد الحياة، لا يزال يُدرِك ويسمع، يُنصِت بدقة ويتمعّن في أضغاث الزمان. كان يرى الموت الذي وهبه حياة زائفة. كان يرى ويسمع وقد ظن الجميع أنه قد أصبح صورة

قديمة ستوضع في الإطار، إطار يلفه القماش الرث.

لم يكن على وجهه سوى ابتسامة خافتة تملؤها الدموع، كان الناس من حوله ما بين محب وكاره، وبعضهم في الحياة يضع الأقنعة لصداقات فارغة وأخوّة باهتة.

كان ضوء القمر شاحبًا، والرياح تهدر منذرة بويلات غادرة، هناك أسفل ذلك المصباح القديم كان يقف، ظل شبح يتلاشى خلف ستار الضباب. هناك حيث كان يحدق نظراته إلى زجاج تلك النافذة.

أغمضت عينيها ونامت، نامت طويلًا إلى أبعد ما تذهب الأرواح. كان على قيد الحياة ولكن كل شيء فيه مات.

نيران تزحف...

نيران تحرق...

نيران تبتلع...

كانت هناك، تقف وحيدة من خلال النافذة، وحيدة في النار.

****

دحرجة عجلات على الأسفلت، شعور بالغثيان من تقلّب بطنه صعودًا وسقوطًا كلما مرّت السيارة مسرعة على المطبات.

كانت سرعتها جنونية، والطرقات المكتظة بالناس لم تمنعها من الاستمرار على نفس الوتيرة والمنوال. بين الفينة والأخرى يطرق رجل يضع نظارات سوداء وسمّاعة أذن في أذنه اليمنى عينه ناحية المقعد الخلفي.

هناك، كان (مراد) يتكوّر على نفسه، يُتمتِم، يتنفس بصعوبة والعرق الغزير على وجهه. كان يتقلب باستمرار ولا يهدأ، عدا أن اضطجاعه لم يتبدّل. ينحني مثل يرقة أخرجت نفسها للتو من شرنقة الموت.

كان يهزي وكان يردّد، "إنتي... إنتي..."

"إنتي مين؟"

"إنتي مين؟"

صوت الراديو:

إلا هي، ظلّت كما هي مثلجة بالهموم. لم تدرك أن ذلك الرجل الذي التقى عينيها لم يبرح مكانه حتى تلك اللحظة. يحفظ تلك الذكرى القصيرة في صميم عقله خشية أن تقسو الأيام عليه. يحفرها في صميم أعماقه حتى لا تُلهِه الدنيا فتُنسِيه. هو ذلك الرجل الذي مكث رغم البرد والمطر، برغم سطوة الريح وسطوة القدر، متماسكًا، حاملًا في قلبه حبًا عجيبًا، لا يعلم ما هو ولا يدري كيف له أن يحمله.

هو ذلك الرجل الذي رمق في كل زهرة برية تتلألأ مع ضوء شمس الصباح صورة لها. لم تنتظر.

عادت علها تراه.

من يكون؟ من تكون؟ كيف لما بينهما أن يكون؟

هي تلك الفتاة التي صبغت الشمس بالذهب ملامحها.

تن... تن... تن... أهم الأخبار... صرّح النائب العام المستشار/ هشام بركات ببدء

عملية التحقيق في الهجوم الغاشم على مبنى مشرحة زينهم ويتم حاليًا الكشف عنه....

مناوشة بينه وبين السائق الذي هم بإغلاق الراديو بالرغم من محاولات رفيقه، "استني بس أسمع بقيّة الأخبار!"

وجهه الجاف كانت إجابته، مُتعلّلًا، "إنت عايز الباشا يولّع فينا لو اتأخرنا عليه."

"عندك حق،" أردف موافقًا، وعادت نظرته إلى الوراء لترمق (مراد) التائه عن الكون.

تتابعت أشعة الشمس حتى انتهت بعد أن كانت تمر مرة بعد مرة على وجه (مراد) لما أُسدِلت الغمامات. شارع ضيق وشجر كثيف، أغصانها تُظلّل الشارع كاملًا. فُتِحت بوابة مستطيلة وأُغلِقت، وانطفأ المحرك ثم انطفأت الأنوار.

أسوار الحديقة الشعثاء، حديقة تصنع سورًا خانقًا، في منتصفها فيلا صغيرة من المباني القديمة، الزاحف عليها شجر اللبلاب، والمبنية من الأحجار البيضاء.

الأضواء البرّاقة تودع الألم في عينيه المثقلتين بالدوار، بالكاد تصل إلى حافة الباب. تتبدل ألوان الظلام كلها في ثوانٍ إلى مروج من العبوس، حرسٌ وجوههم مُتجهّمة يُقطّبون، فلا توجد أرض بلا ضوء ساطع وظلام.

بمفرده ظن نفسه ولكن يُمسِكه رجلان من إبطيه ويُجرّانِه في ممر طويل. عند كل باب غرفة رجل في مثل هيأتهما.

أحذية وأروقة تتوقف ثم تلف وتدور، بالكاد يُميّز الطريق الذي كان مسحوبًا عليه. مرارًا

وتكرارًا، تتوقف وتدور، ثم تدور وتدور في دوائر محكمة.

البيت!

يرى غرفته القديمة. يرى بيته القديم. يرى حكاياته وقصصه المصورة وأبطاله الخارقين. لا أحد يعلم أين بيته. لا أحد يعلم أين وطنه. لا أحد يعي أن السماء تدسّ خيباته وآماله. لا أحد يدرك أن الألم الذي يشعر به هو في الأساس السبب فيه. أعطى الكثير وفي المقابل حمل أثقال خِداعِهم.

لكن الأبواب فُتِحت، وعلى أعتابها أتى ضوء جديد. لعل تلك الابتسامة التي رآها هي الطريق الوحيد إلى الجنة الكائنة في أحقاف الجحيم، لكنه برغم الرغبة لا يستطيع وربما لا يريد. لعله خنع تمامًا لرغبة تلك الأنفس، والتي قهرت فيه المقاومة وألزمته الخضوع.

ألم في الرأس!

ألم موجع شديد!

صور مشوّشة تتراءى إليه دفعة واحدة!

رنين مزعج لا يعرف مصدره!

يُغلِق العين ويفتحها، لا يكاد يرى. لا يكاد يشعر سوى بالسكاكين التي تُقطِّع في جسده. كان يُعانِد، يُواجِه جاهدًا رغبته القاتلة. يذهب على أملٍ لم يكن حقيقة. كانت كالسراب، ترسم صورة أخرى في إطار آخر في صفحة بيضاء. لا تنفك تضع عليها ألوانها، لكنها كلما وضعت لونًا انسكب وكأن الخواء فيه صار مدمجًا، لا يرضى استقبال أي نوع من أنواع الفرح.

تحزن، وحزنها لأنها لا تعرف ما تفعل. لا تعلم سر ضياعه، لا تعلم سر آلامه. لا تعرف أنه صار مثل قرص مدمج مستعمل لا يمكن الكتابة عليه، فيتراجع هو وتأتي إليه. تأتي إليه لتعطيه من اهتمامها، فيتراجع عنها مرارًا ولا يعود. يخشى كثيرًا من أن يرى في ذلك الإطار تلك الصورة القديمة التي لا تزال تتجدّد في داخله. يخشى ما إن تراها تلك الأعين وتسمعها تلك الأنفاس، أن يرى القناع الذي يحمل همساتها وبسماتها.

لعله أيقن أنه يكره ذلك الشعور، ولذلك أصبح ساعيًا للرحيل بلا عودة.

دوار وصداع، قشعريرة سحبت معها الألم كالسم من الجسد.

طقطقة الأصابع، هي المرآة، ولكنها لم تكن مرآة وإنما كانت ستارة بيضاء، مُسلّط عليها جهاز العرض الموضوع على طاولة صغيرة.

إعياؤه لم يستمر طويلًا وسط حالة الجنون. كان كمن يُغرغِر من انقطاع النفس وفجأة صعد وجهه فوق الماء. كان يموت ببطء. كان يموت في ظلمات أفكاره التي لا يعرف أيًّا منها. أنفاسه عادت، والضوء الباهر الذي أحرق عينه، أفاقه. كان عقله يهتز. كان يترنح من الألم الذي أطبق على صدره.

لم يكن مقيدًا، ولم يكن مُحرّرًا. كان أسيرًا على مقعد في المنتصف، في منتصف غرفة وفي منتصف الستارة مباشرة. يُطأطِئ رأسه من الخضوع. يُبصِر حذاءه المتسخ ويشم رائحة الجلد المحروق. كل ذرة فيه كانت تفوح بتلك الرائحة النتنة. بدأ يشعر بها في

منخاره لما استعاد وعيه، أو نصف وعيه على وجه التحديد.

"أفتكر إنك فقت دلوقتي،" قال صوت رجولي غاشم، لم يكن يراه لأن رأسه كانت محنية.

تنفّس (مراد) وصدر عن تنفُسه حشرجة كخلخلة أجراس ذنب الأفعى. كان يحاول أن يرفع رأسه، لكن عضلات رقبته لم تساعده. كان منهكًا، كان متعبًا، لا يقوى على الحراك وقت أن سال من فمه اللعاب بغصة الموت التي تفادته أو تفاداها.

"أنا مش منتظر إنك تجاوبني لأني عارف إنك سامعني كويس. حاولت أو محاولتش فإنت ميّت وإحنا أنقذناك من النار."

رفع أحدهم وجه (مراد) بقبضة فولاذية من عند فكه، كانت عينه شديدة الاحتقان، مطموسة. بنظرات حانقة وغضب مُنهمِر برز من بين الحواجب الكثة والشارب الغليظ. رجل رفيع الهيئة، أعصابه قوية، ونظراته صارمة، خدّه المقوس وذقنه الطويلة والمدببة، كل تلك المعالم أظهرته في بزته الرمادية وقميصه الأسود، كتلك الحكايات الأسطورية عن الشبّيحة، تلك الحكايات التي لا يزال يتحاكى بها أبناء الصعيد. كان واحدًا منهم، رجل أتي من بين قسوة الحياة.

تنفّس في وجهه، وشعر (مراد) بحرارة الهواء المنبثق من منخاره. بعد أن نظر مليًا في عينيه، ألقى وجهه بغضب، ثم ترجّل، وتكلّم، "زمان كان لا يمكن حاجة زي تحصل، بس أهي حصلت. سمعتي سابقاني في أي مكان، والسمعة هي أهم حاجة ممكن أي واحد زيّي ياخُدها.

تفتكر بعد كل ده ممكن أحط راسي في الوحل؟"

بالتفافة، "زيك!"

بصعوبة بالغة، ومن بين أسنان تكاد تسقط، تفوّه (مراد)، "إنت..."

"إنت... مين؟"

"آه! أنا معرّفتكش على نفسي،" كانت الإجابة الفورية، وأكمل، "مع إن ده مش هيفرق في أي حاجة، بس أنا العقيد/ رؤوف ثابت الدكروري - الأمن العام."

همس (مراد) بانتكاسة تعجّبية، "الأمن العام!" وكانت عينه زائغة.

تكلم العقيد (رؤوف)، بعد أن وضع كفه على كتف (مراد)، "الوقت الصعب بتبقى ليه مقاييس مختلفة، وإحنا بلدنا ليها مقاييس مختلفة عن أي بلد تانية. مصر حاليًا في موقف تُحسد عليه، والمفروض مننا إن يكون لينا أسلوب موازي للأحداث."

"إحنا قوات الأمن العام بالتعاون مع القوات الخاصة تِهمّنا مصلحة البلد. حاجات كتيرة اتغيرت عن زمان ولازم نرد الدين اللي علينا."

"إنت واحد من المحاور دي،" ثم ضرب برفق ضربة واحدة على الكتف، بعدها أتبع، "إحنا متابعينك بقالنا فترة."

(مراد) والعقيد (رؤوف) تبادلا لمحات مبهمة.

"سكير، يتيم، بلا عمل، ولا عائل، ملكش أي اهتمامات غير دفتر صغير بتجمع فيه

ملحوظاتك عن حاجات بالتأكيد ملهاش أي فايدة."

"إنت بتسأل نفسك سؤال ومش عارف توصل لإجابة."

تلك الكلمات شحذت انتباه (مراد)، فقال مقاطعًا، بتأفف، "إنت عايز مني إيه بالظبط؟"

وقتها أتى رجل آخر من وراء الكرسي الذي يجلس عليه (مراد). يمشي مهرولًا، وكانت له هيئة أقل رتابة، وتقريبًا نفس الزي الموحد، من دون البزة الرمادية، يحمل ملفًا أعطاه للعقيد (رؤوف) وهمّ بالرحيل على الفور بعد أن رمق (مراد) مرة واحدة.

"شكرًا يا سيادة الرائد،" قال العقيد (رؤوف)، بعدها لفّ الملف في يده، وواجه (مراد)، ثم تكلم، "إحنا لا بنلف ولا بندور، دايمًا بندخل في صلب الموضوع."

"أما إنت فكل حياتك لف ودوران. هروب من السلطات واعتقال."

"أنا هكون واضح ومختصر معاك يا أنور."

"في حلقة مش موجودة، رقم مفقود موقّف كل حاجة."

"إحنا لازم نوصله."

نخر (مراد) ولم يهتم لذِكر الاسم على لسان العقيد (رؤوف).

قال العقيد مُردِفًا، "كل الإجابات اللي عايزها موجودة في الملف ده،" وقتها رفع (مراد) رأسه، كان العقيد يحمل ملفًا

بلاستيكيًا لونه أرجواني، كان يلفه كالأسطوانة في يده، ويُقرّبه إليه.

أكمل العقيد، "دي آخر فرصة ليك يا أنور. المرة الأولى أنا كنت معارض للطريقة دي، وحتى الآن أثبتت فشلها. أي غلطة كمان، هترجع للسجن تاني ومن غير خروج."

همس (مراد) مرة أخرى لنفسه، "السجن!"

قال العقيد، "فكر كويس يا أنور."

"دي فرصتك الأخيرة."

تلك الستارة كانت تعكس ظل العقيد على ضوء مصباح وحيد أصفر، يتشنج في حديثه ويتعصب. ظلٌ كان يظنه (مراد) حقيقة ذلك الرجل، لكن الملف الذي يُلوّح به في نطاق رؤيته، وحقيقة السجن الذي تكلم عنها أصبحت تؤجج هواجسه.

القضبان، كان يشعر بملمس القضبان بين أصابعه، باردة جليدية...

كان يسمع طرقات الأحذية، لا يستطيع أن يميز لمن. لا يستطيع أن يتذكر أكثر من ذلك. لا يقدر إلا على إغلاق جفن مثقل بالعيوب.

كان العقيد يتكلم، "الاختيار ليك يا أنور، اختار، ولو اخترت فلازم تخرج بسرعة، ولو قررت إنك تقف، هترجع تاني لزنزانتك،" وألقى على الطاولة أمامه ملفًا مختومًا، ملفٌ أمسكه (مراد) وقت أن همّ العقيد (الدكروري) بالخروج، يرمق (مراد) بنظرة خبيثة على استحياء.

(أنور رحيم عدلي عبد المولى)

(الأمن الوطني)

(مـراد) انـقـطـعـت أنـفـاسـه...

****

عـادة مـا كـان يـعـود إلـى بـيـتـه مُـتـأخّـرًا، لـكـنـه وفـي تـلـك الـلـيـلـة كـان مـتـعـبًـا. شـعـر بـالإعـيـاء فـجـأة وانـقـبـض قـلـبـه، لـمـا انـقـبـض قـلـبـه عـصـر صـدره بـيـده الـخـشـنـة وتـكـلـم، "إنـت فـيـن يـا عـابـد؟!"

"مَـرّات خـروجـك مـن غـيـر مـا تـقـولـي بـقـت بـتـزيـد ودي حـاجـة تـوغـوش."

"يـا تـرى بـتـعـمـل إيـه!"

"غـلـطـان أنـا إنـي أدخـلـك بـيـتـي وأراعـيـك؟!"

ضـجـيـج نـبـضـات قـلـب عـجـوز مـرتـجـف، كـان صـدره كـالـعـلـبـة الـمُـعـتّـقـة، تـلـك الـعـلـبـة الـقـديـمـة الـتـي سـكـنـتـهـا خـيـوط الـعـنـكـبـوت. أصـبـح يـتـنـفـس الأتـربـة ويـزفـر الـوهـج الـلافـح. كـان يـعـرف أنـه سـيـمـوت، كـان يـدرك تـمـامًـا أن نـهـايـتـه قـريـبـة، وأن ذلـك الـمـرض الـسـائـر فـي رئـتـيـه سـيـجـلـب مـعـه مـلـك الـمـوت عـاجـلًا أم آجـلًا.

مـع أنـه لـم يـكـن مـسـتـعـدًا أبـدًا عـلـى فـراق (عـابـد)، ذلـك الـولـد الـمـسـكـيـن، الـذي يـعـيـش فـي كـنـفـه وتـحـت رعـايـتـه، هـو فـي أمـسّ مـا تـكـون الـحـاجـة إلـيـه. إن خـضـع أو رحـل فـلـن يـجـد مـن يـلـوم عـلـى حـالـة هـو بـيـده صـنـعـهـا.

رفـع الـعـجـوز رأسـه إلـى الـسـمـاء، كـانـت عـيـنـه مـتـلألـئـة بـأنـوار الـقـمـر الـمُـكـوّر، تـكـلـم حـيـنـهـا وأراد أن يـسـهـب، "مـالـك يـا..."

وقـف عـلـى مـضـض وأكـمـل، "... يـا طـلـبـة!"

"إنـت هـتـسـلّـم دلـوقـتـي!"

لـيُـجـيـب نـفـسـه، "مـا إنـت سـلِّـمـت مـن زمـان، مـن أيـام مـا كـان لـسـه الـعـصـب ضـارب فـي جـسـمـك."

"محموق على إيه؟"
"عالعجز؟"
"جاي دلوقتي وتشتكي."
"هتشتكي من إيه؟ ولمين؟"
"العدرا؟"
"ولا حتى العدرا هتسمعك."
"اللي زيك هيموت وحيد، هيتدفن، ويتحط على راسه التراب..."
عبوس كئيب، "... بالظبط زي ما عاش وحيد وسلّم حياته للّي مبيرحمش."
نفخ الريس (طلبة) بحرج...
وقتما رأى أن السماء كانت جامدة لا تدفع حتى الريح إلى وجهه، أيقن أنه هالك. كان يترجل بين القبور ليلًا، أضرحة هو بيده شقّها وحفرها، يعرف ساكنيها اسمًا وعنوانًا. يعرف البعض من حكاياتهم وأساطير حياتهم. أيقن أن الحياة لا تستمر وسريعًا تنتهي. أدرك أن الموت واقع، وأن الحياة خدعة، وأن بينهما عداء.
لحظتها أطرق الريس (طلبة) واتخذ سبيله عائدًا إلى بيته المختبئ بين الأضرحة المتراصة عن اليمين وعن الشمال، كأنها درب ممهد تقود مباشرة إلى طريق الموت.
كانوا يتكلمون، يهمسون ويتحاورون، كانوا عنه يتكلمون ولم يكن يسمعهم، ساكنو القبور، يشعرون بمن يزورهم ويتضجرون، من الضجيج والصخب يسأمون، لذلك كان يمشي منفردًا، صامتًا، لا يخرج منه سوى الطرق الخفيف لنعله القديم الممزق. كان يُرتّل من إنجيله الآيات ويلوكها في فمه كحبات

العنب. كل حبة كان لها مذاقها الخاص من الحلاوة.
نظرة هنا ونظرة هناك، يبدو أنه تاه وهو لا يتوه إلا لأن عقله كان مشغولًا بمئات الأفكار. هو لا يتوه لأنه يعرف كل رقعة في أرض الموتى ويحفظها عن صميم القلب. وقت أن أدرك الريس (طلبة) أنه كان يسيرًا في اتجاه مخالف لطريق بيته، ردّد مسرعًا، "بحفظ المسيح، إيه اللي جرالي؟" وكان متضايقًا، وضرب الكف على الكف، ثم عدّل من طريقه لليمين، وكان قد ابتعد شيئًا ما عن طريقه الذي يمشي فيه كل يوم.
حشرات الليل، صرير ونعاق، أقدام كانت تهرول مسرعة، أقدام لرجلين يلتحفان بالظلام المدقع. أصوات سمعها الريس (طلبة)، شقّت رأسه عما كان فيه، فأمسك أنفاسه المجلجلة وأبصر بعينه التي اعتادت الظلام بعد الحياة فيه دهرًا طويلًا. رجلان يقبضان على أربعة من الأطفال، يسوقانهم بعنفوان كالماشية.
من بينهم فتاة كانت تصيح وتزعق، "إيه يا شيخ منك ليه؟"
"إنتوا آخدِنا على فين؟ لا، يا حبيبي."
"على فكرة أنا معملتش حاجة عشان تقبضوا عليا؟" والرجل يمسكها من رقبتها مثل الجرذ، فتنهره، "لا، بقولك إيه، مش أنا اللي يتعمل معايا كدة. اصحى وفوق لنفسك. ده أنا متسيّطة في الحتة."
عرف الريس (طلبة) أنها فتاة لما سمع صوتها، وكانت لا تهدأ ولا تمل، كانت تصيح المرة بعد الأخرى، حتى صفعها الرجل على خدها صفعة أصدرت طرقعة مدوّية، فأمسكت

الفتاة خدّها وكادت أن تبكي، لكنها وعلى النقيض، انقضّت على الرجل لتضربه في بطنه وأي جزء تستطيع الوصول إليه، وهي تصرخ، "يا ابن الـ..."

ولم يسمع الريس (طلبة)، لأن الرجل كمم فمها بيده الضخمة، كانت تهتز مثل صغير الماعز الذي حُزّ رأسه بالسكين، فكادت أن تختنق بعد أن منع عنها الهواء.

لوهلة بسيطة تردّد الرجل العجوز، الريس (طلبة)، ولكنه قرر أن يهرع خارجًا من القبور إلى أقرب مركز للشرطة، بالرغم أنه فكر أن الشرطة إن عثرت عليه فستودعه في الغياهب لسنين، لم يكن مستعدًا لذلك، لكنه كان مستعدًا لأن يفعل أي شيء كي يُحرّر الأطفال من قبضة الرجال المجهولين، الذين يخترقون القبور ليلًا.

من يدري ما يفعلون؟ لعلها مصيبة أكبر.

حسم الريس (طلبة) قراره ووضع في صدره اختيار السجن على أن يترك الأطفال، فاستدار بحركة رشيقة لا تُناسِب عمره، ولما استدار وجد أمامه رجلًا ضخمًا، لا يكاد يرى القمر من ضخامته، يسدّ عنه أي مجال للرؤية أو الهروب أو الدهشة أو الكلام. رفع ذلك الرجل الضخم كف يده وطرق الريس (طلبة) طرقة عند الأذن، قذفت الرجل العجوز على التراب غائبًا عن الوعي في التو.

من قدمه كان يجرّه، تسلّخ جلده من الأرض الوعرة. أصابعه مغروسة في التراب بوهن برغم أنه حاول جاهدًا أن يستعيد وعيه ويخرج من الدوار القاتل الذي أصابه. ذلك الضخم كان ينخر، كان يزمجر وكانت قدمه تنثر الغبار. حاول الريس (طلبة) والدماء

تسيل من أذنه. كان يتعذب، وكانت الأحجار تُمزّق ملابسه وترسم الجروح على جسده.
أدخله الضريح، حمله وأمسكه من رقبته، يعتصرها. يُخرِج منه آخر بذور الحياة، وبسكين تشبه الخنجر طعنه في صدره، موضع قلبه، فجحظت عين الريس (طلبة) حتى خرجت الروح من جسده وفارق الحياة. نعق الرجل الضخم حينها وألقاه إلى جوار شاهد القبر، ثم همّ بالخروج من هناك، تاركًا الريس (طلبة) قشرة مجففة لإنسان محتضر من وراء أبواب مغلقة.

****

بوهن في الجسم وعظام مُكسّرة زحفت الفتاة بالكاد وكانت لا تشعر بساقيها. كان تُجاهد حتى تخترق الغرفة القاتمة، التي لا يصل إليها ضوء المصابيح ولا ضوء القناديل. كان قد تركها للتو، ذلك الرجل الضخم، (سائد)، الذي سحبها بجبروت كفه بعد أنا أمره رئيسه الملثم من تحت قلنسوة عباءة، وأدخلها تلك الغرفة المقيتة، ليُطوّقها بين ذراعين من حديد. العضلة الواحدة تشبه أحجار البناء.
"آآآه!" ناحت الفتاة.
كانت تتألم وكانت تشعر باحتراق أحشائها. كانت تريد البكاء لكنها تذكرت كل قلم وكل ضربة احتملتها في حياة الشوارع، أجل، للشوارع مذاق مر وصقيع ينخر في العظام، لا يشعر به إلا من جرّبه، حياة قاسية صعبة، فتلك الحياة الوعرة علمتها أن من يبكي أولًا، يموت، وهي تريد الحياة برغم ما جرى لها.

تنشقت الرائحة العفنة وعطست، ثم مسحت أنفها في ملابسها القذرة. كانت تنظر على عجل، وأخذ ذلك وقتًا طويلًا منها كي تعتاد على الظلام وتسترجع ارتخاء عضلاتها المنقبضة. كانت تنتفض باهتياج ولا تعرف كيف تُسيطِر على أعصابها، فحقيقة أن الخناجر كان تطعن في عرضها، كانت تقتلها. تلعثمت ثم هدأت، ولمّا هدأت، تلمّست وتفحصت نفسها جيدًا. كانت تحسّ الملمس الساخن للدماء، تنساب منها بلا توقف، وتذكرت أول مرة جرى لها ما جرى، وكيف أنها كانت تنوح في ليالي المرض لأسابيع، نفس الأسابيع التي قضتها عند الحاويات المغلقة، ما بين الحياة والموت، هي نفس الأسابيع التي قوّت عظامها، جعلت من عضدها صلدًا، شديد القوة.

أنين!

اعتقدت أنها سمعت أنين...

استندت الفتاة على الجدار وتنهدّت، كانت تتوجع والوجع لا ينقطع. انتبهت ولما انتبهت، أيقنت أنها كانت تسمع صوت أنين خافت، يأتي من الجهة المقابلة من الغرفة، والتي لا ترى فيها أي شيء.

قالت الفتاة، "هو في حد هنا؟" وازداد اضطرابها.

"أنا هسلّم، أنا خلاص مش قادرة."

"هعمل اللي عايزينه، أي حاجة تطلبوها!"

لم يأتِها الجواب فسألت، "أنا سامعة صوت،" ولما أفاقت من الصدمة شيئًا يسيرًا واعتادت الظلام، وكانت بين اللحظة والأخرى تتمزق من الوجع المفاجئ، رأت شبحًا مُسدَلًا، يتكوّر عند جانب الجدار الآخر، يصعد صدره باطّراد ويئن بلا حركة.

"إيه ده؟!" قالت الفتاة ثم دحرجت نفسها. شيئًا فشيئًا زحفت عند صاحب الصوت وتركت الدماء تُلطِّخ الأرض من تحتها. اقتربت كثيرًا حتى تمعّنت في تضاريسه.
أظهرت أسنانها من الدهشة، "إنتي واحدة؟"
برويّة جلست عند رأسها، رفعت الرأس عند فخذيها المغرقين بالدم. كانت ملامحها لا تظهر بوضوح. كانت تتأوّه وتتوجع هي الأخرى. أنفاسها متسارعة وكأنها تُصارِع الموت وحدها في تلك الغرفة المظلمة.
"همّا عملوا معاكي نفس اللي عملوه معايا؟"
"مسكينة!"
برفق مسحت الفتاة على رأس المرأة وقالت، "متقلقيش، كل حاجة بتعدّي."
"مفيش حاجة مبتعدّيش."
"أنا... آه! أنا مجربة وعارفة كويس."
"اللي زيّنا مكتوب عليه يعيش مزبلة للأوساخ."
"متخافيش..."
لما ظنّت أنها وجدت من يُهوّن عليها ضائقتها، ضرب الباب وانفتح، ودخل منه الضوء، وشاهد رجل كان يقف عند الباب الفتاة وهي تضع رأس المرأة الأخرى على فخذيها. كان الضوء يُلامِس نصف وجه المرأة، وتنقلت عين الفتاة بين الرجل الواقف عند الباب وبين المرأة، ورسمت له ولها نصف صورة لوجهه المموّه، المدقع بالسواد، ولوجهها الجميل، الغارق في الألم والضياع. ذلك الرجل الذي لم تكن تراه، تنهّد، ثم تقدّم. كان يمشي ببطء حتى أصبح حذاؤه عند

رأس المرأة، ولما تقدّم، اندفعت الفتاة زحفًا للوراء في فزع وريبة.
سقطت رأس المرأة وارتطمت، فأنّت، وجثا الرجل واقترب كثيرًا من قرطها، يهمس في أذنها بالكلمات، كلمات طويلة، حديث مستمر لم ينقطع، "مرجانة..."
"إنتي..."
"غلطة..."
"وده..."
"مفيش..."
"هي..."
"فرصتك..."
كلما أسهب في كلامه كانت تنتفض.
كل ذرة في جسدها المتعب، تقشعر.
اختلاجة اجتاحت الظلمة وظلمة الصدر المُغدَق بالدخان.
ظلمة أضاءت شيئًا في قلبها. أضواء سوداء، كراهية وحقد، عنفوان وبغضاء.
"إنتي الوحيدة اللي ...."
جحظت عين (مرجانة) ثم صرخت، وكان صراخها مكتومًا.
"كنـ...يسة!"
وجاء رجلان من وراء الباب يحملانها.
يجرّانها وقت أن ركنت الفتاة وأحاطت قدميها بين ذراعيها من الخوف.
إلى الضوء الباهر.

****

" 20 "

لاكريـموسا

هيـاج الظهيرة وسط أبخرة الغبار!
كانت السماء تتلون بشيء من الحيرة التي خضّبتها الحُمرة القانية، حُمرة قد يراها الآخرون دموية مدقعة. لم يفهموا أنها كانت ذلك الهياج الذي يُصاحِب الدموع، وأن تلك الغيوم الرصاصية وألسنة اللهب المتناثرة في الأفق ومن قبل في العقول، ما كانت إلا سِتارًا يدفع الناس إلى الاعتقاد في جمال ذلك الغموض المسترسل خلف قرص الشمس. إليه يقتربون، وعنده يهرعون ويتناثرون كحبات العقد المفروط.
تلك الكرات التي تتطاير لم تكن سوى مصابيح مضيئة تحمل في طيّاتها رسالات لا يفهمها ذلك الشخص البسيط الذي انتصب في موضعه، بعد أن اهتز كيانه، وتشوش إدراكه، تتخلل نظراته الضيقة عنان السماء بشيء من التذبذب والدهشة الممزوجة بالخوف والاشتياق، والدوار الجامح الذي يلفّه مثل الإعصار.
رنين حاد، دقات على طبلة الأذن، كعزف الدفوف.
أنغام كئيبة واحتراق نيران.
نيران أصبحت طريقه الدائم.
نيران يراها تستعر وتأكل ما تجد.
رجل يسعل، ينفض عن ردائه السواد، وينعق.
تلك العلامات التي كان يراها وكأنما كان قد قرأها في كتاب ربما يُسمّيه كتاب

الحياة. تلك العلامات قد أشرقت نفسها أمامه في كل صورة من صور إنسان يُعانِد من أجل البقاء.

تلك الفتاة!

من تكون؟

ولماذا كلما مرت في خاطره أصابه الوجل والخوف، والاشتياق الجامح، في لحظة واحدة حتى يقشعر جسده من شدة ذلك الشعور الذي لا يستوعبه، فيسأل نفسه، هل هذا هو الحب حقًا؟ أم أن أسرار الماضي لا تريد أن تجيب؟

مشدوه حائر!

حتى هو لم يعد يعلم بماذا يُجِيب على ذلك السؤال العجيب الذي لا ينفك يومض في مخيلته، وكأن الظلال التي كان يراها ما كانت إلا أشباحًا من الماضي الذي لن يهرب منه أبدًا، وأن الصبر هو ذلك المسار الذي كان مجبرًا على السير فيه من دون أن يريد. كان عليه أن يتيقن أن الحياة التي أعطته الكثير، قد حان وقت أن تسترد ما أخذه، وأنها تُمهِل الوقت القليل الذي في الأساس يسحب البساط من أسفل أقدام العمر، ولكنه حينها كان يتساءل في قرارة نفسه، عن ذلك الشيء العجيب الذي وهبته الحياة.

أناس يركضون وأنا يهرولون!

صرخاتهم مفزعة!

رهبتهم واضحة!

في أياديهم يحملون بقايا مُتعلّقاتهم وأرواحهم!

وجهه مُغبّر بالتراب، يده ملطخة بالدماء، على جسده الركام!

هو عندما يبحث، لا يجد حقًا تلك الأشياء التي تدّعي الحياة أنها وهبته إياها. لعل الحياة قد أصابها ذلك الضلال الذي أصاب الناس جميعًا. هكذا يرى الإنسان فقط الدنيا من حوله ولكنه أبدًا ما كان ينظر إلى قرارة نفسه.

أما هو فقد كان يتوغل ليس في تلك الممرات والدروب التي كانت تكتظ بالناس، يشعر بشيء من الألفة في حركتهم، ولكن تلك الألفة كانت تدفع في نفسه شيئًا من الخوف وخشية القادم، والذي سيأتي لا محالة.

كان هو الذي سأل نفسه عن أسرار ذلك الليل الطويل الذي لا ينتهي، ذلك الليل الذي أسدل على عينيه ستائر الحرمان، فصار شبحًا من حكايات الماضي، توقفت دقاته عند نقطة لا يمكنه الرجوع عنها.

صرخات، هياج واستنفار!

امرأة تبكي وفي يديها تقبض على شيء ما!

ألم في رأسه يزداد!

يراها!

هناك بين الحطام، واقفة، مشدوهة!

ملابسها رثة وهيئتها هزيلة شبحية!

كانت تُعانِد بصمتها وكأنما تُعانِد في كل كلمة تقولها، وهي في الأساس تريده أن يتحدث إليها، كان ينتظر ذلك الحديث طويلًا، ولكنها كلما أتت، كان يصمت، ليس لأنه يريد السكوت، ولكن لأنه غير قادر على الكلام. لم تكن أسرار ذلك الصمت واضحة بينهما، وقد كان يصمت في شكل يظن الآخر أنه غير مبالٍ بحديث، إلا أنه في الأساس كان يتساءل، حقيقة هي أم خيال؟ أم أن اهتزاز رأسه أوهمه بالمحال؟

لم يتغير شيء طيلة الوقت. استمر هو في سكوته رغبة من الآخر في أن يُحدّثه، فلم يكن يُحدّثه، بل وكان يلومه في صدره بعدها لأنه لم يتحدث إليه.
لم يكن يعلم من هي ومن تكون؟ وكيف له أن يرى طيفها بين ذلك الجنون؟
أناس يصارعون الموت وآخرون ينتحبون!
رجال هبّوا مسرعين إلى النيران باحثين عمن ينقذون!
مع ذلك، ظل كلاهما صامتًا مبعثرًا، كان يُفكِّر في تلك الصور من الماضي، يُقلِّبها في رأسه لا لكي يبحث عن الذكرى أو صورة يفتقدها، بل محاكاة منه لتقليب الأفكار الدائرة في عقله، كساقية لا مركز لها ولا تروس.
لم يكن يفهم لماذا يجب عليه أن يتحدث، ولماذا يجب أن يقود هو بداية الكلام إن كان الآخر يريد حديثه، فلماذا لا يتحدث وحسب.
طرف الخيط لم يكن ضعيفًا كما بدا، كلاهما كان متصلًا بطرف الخيط وبشدة. كانت هي المحور الذي تلتقي عنده الخيوط، وفي طريق يتمنى لو أن بمقدوره أن يميل ناحيته ولو قليل. الشيء المؤكد حقًا، أن في قلبه رغبة لا يحتملها، وأن شيئًا ما أقوى كان يدفعه إلى السكوت.
كان يتعذب!
كان يصرخ!
بركة من الدماء حول الملابس الممزقة!
رجال سود يهمّون بالرحيل!
في أيديهم رجل خائف يندثر تحت ستارهم!

أظلمت السماء الحزينة بدخان كثيف، وأسدلت عباءتها على المُعذَّبين، كان من بينهم ضعيفًا تائهًا، مُتيقِّظًا، لا تفارقه الصور القديمة. يُمسِك في يده بقايا الأقمشة المحترقة، لم يكن في سراديبه سوى الظلام الذي أسلم نفسه له. لم يكن الظلام من حوله وإنما في قلبه الذي أطفأ فيه الأنوار.

أنوار!

عين مُحتقِنة في وجه مُتعرِّق، ترى الظلمة والأنوار.

أنوار كانت تضيء في كل مرة في شاشة هاتفه، حاملة معها ابتسامة خافتة في الظلام، ابتسامة تُشعِل لهيب الاشتياق، صوت كالجمر، خوف وشعور بالاطمئنان، امتزاج غريب بين شعور الرهبة والحنين.

رجال يتقدمون مهرولين، يقتلعون الحطام ويختطفون جسد امرأة ويسحبونها في أيديهم. امرأة كان يمد يده ناحيتها بجهد مرير، أراد أن يصل إليها ولم يقدر. لم تكن تقاوم، كانت غائبة عن الوعي.

تمتم، ولم يكن لتمتمته صوت.

خمود وانتهاء...

****

وجهًا لوجه، (نورينا) ومن ورائها ابنتها (ديجا)، والتي كانت عينها غارقة في الدموع، وغضب على وجه (نورينا) بعد أن رأت حالتها المُنكسِرة.

بعد أن ربتت على كتفها وأرجعتها إلى الوراء، وكانت قد اخترقت للتو دائرة مُحكمة الغلق ولم تَعْنِها سلامتها الشخصية،

ساعة أن وجدت (ديجا) بين فكي الأفاعي، يغرس أنيابه في جسدها النحيل ويسحب من دمائها ما يستلذ، تدخلت، ووضعت نفسها في مواجهة مباشرة مع الشيطان الخارق.

شيطان الانسان ومارد الخوف كانا حاضرين، وكان يهمس في أذنها بكل أوقات حياتها السابقة، يُرهِبها، يحقن في أعصابها الارتجاف بكل صورة وكل صفعة، وكل خنجر غرسه ذلك الشيطان في صدرها. كانت عارية تمامًا، كالقشرة التي سقطت من سطح يابس هش. لم تخش في حياتها مثل ما كانت تخشى ذلك الرجل الماثل أمامها.

لكنها تنفست، وأدركت أن الوقت قد مرّ بالأعوام عليها. ذلك الجسد المهترئ أصبح قويًا، وربما أرادته أن يكون قويًا. كان بياض عينها محمرًّا، وجه ساخط حانق. تنفث من أنفاسها اللهب، وتصنع دائرة خاصة بها لتحمي ابنتها ونفسها من شرور الفعل.

كانت ضعيفة كضعف العجين، كان جانبًا منها ينحني إلى (ديجا)، يقبض على كفّ يدها، برفق وإحكام، لا تريد أن تتركها أو تفارقها. لا تريدها أن تغيب عن عينها. مجرد التفكير في أن (ديجا) قد يمسّها السوء، كان يقتلها. كانت على أتم الاستعداد أن تواجه الشيطان نفسه كي تحمي طفلتها الصغيرة. (نورينا) كانت تستمد القوة من (ديجا)، تستمد القوة من خوفها الذي لا يفارقها ولا يخالفها.

رددت (ديجا)، "إنت شيطان،" وكانت عينها ستدمع وكلماتها مُحطّمة. لولا أن يدًا امتدت على كتفها وربتت عليه برفق لما أفاقت.

بعدها تحسّست (ديجا) المنكسرة والتي طأطأت رأسها من الضيق إلى الأرض، وتشمّمت عطر والدتها، كان يفوح بقوة من فستانها الفضفاض، ومن بين خصلات شعرها الذهبية، خصلات تشبّعت بالألوان الرمادية، قوة تشبثت بها (ديجا) واستمدّت المزيد من رحيقها.

أين وشاحها؟ هكذا فكرت (ديجا) لثانيتين.

"ابعد عن بنتي يا منير يا أمونيوس،" نبرة مفاجئة اخترقت الصف وجذبت انتباه (ديجا) الباكية، وذلك الرجل، (منير أمونيوس)، الذي كان يدخن السيجار.

بعد أن فحصها (منير أمونيوس) وسحب قدرًا كبيرًا من الدخان ثم نفثه، قال، "كويس إنك جيتي يا نورينا عشان تعقّلي بنتك."

"ملكش دعوة ببنتي، إنت مش وصي علينا،" كانت إجابتها قاطعة حازمة.

قهقه (منير أمونيوس)، وتكلم، "واضح إنه بجد، مش مجرد صوت في تليفون. اتغيّرتي يا نورينا وبقيتي بتتكلمي بصوت مسموع."

"بس ده مش هيستمر كتير."

"زي ما قولتلك قبل كدة. أنا صبري ليه حدود."

"متفتكريش إن بتطاولك عليّا ووقوفك جنب البنت المستهترة دي هيغير حاجة."

"فوقي يا نورينا وارجعي وافتكري."

"إحنا واقفين على أعتاب الرب، الخداع والكذب مينفعوش هنا."

"والرب ده راعيته يا منير؟" سألت (نورينا).

كانت تحاول طمأنة (ديجا)، والتي كانت ترتجف، وتتكلم، "إنت آخر واحد يتكلم عن الرب لأنك متعرفوش أصلًا."

"أنا مش جاية هنا عشانك ولا عشان أي حد، أنا جاية هنا عشان بنتي."

"بنتي اللي هاخدها وأمشي."

قالت (نورينا) مُهدّدة، "متفكرش يا منير إني هسكت على كلامك بعد كدة، ومتفتكرش إنك بتهديدك ليّا هخاف."

"أنا مبتهدّدش ومبخافش، وإن كان في إيدك حاجة كان زمانك عملتها من زمان."

"متستفزّينيش يا نورينا،" قاطع (منير أمونيوس) بعلامة بين شفتيه، ساخرة، "مش عشان سكت في الأول يبقى ده هيسمحلك إنك تطوّلي بالكلام عليّا. أنا لحد دلوقتي صابر ومش هزوّد."

"إرجعي عن اللي في عقلك لأني مش هدّي فرصة تانية."

"وافتكري كويس، بنتك اللي إنتي خايفة عليها ممكن متشوفيهاش تاني أبدًا."

"إنت متقدرش تعملّي حاجة،" قالت (ديجا)، ولما حاولت (نورينا) أن تمنعها، أردفت، "لا، استني يا ماما."

باستدارة موجّهة، "إنت صحيح والدي والمفروض أكون بحبك. بس أنا لا يمكن أنسى اللي عملته آخر مرة."

"إنت استغليتني، واستغليت طيبتي وثقتي فيك."

"أنا متأكدة إنك إنت اللي عملتها أو على الأقل واحد من رجالتك."

"بعد ما وثق فيّا أصحابي وقالولي على أسرارهم، ضحكت عليّا وأقنعتني إنك هتساعدهم، وإنت أصلًا اللي دمّرتهم."

"أنا مش هنسالك ده يا منير يا أمونيوس، يا والدي، ومش هنسالك اللي عملته في أمي."

"بسببك، الست دي شافت أيام سودة."

ضجيج في الرأس هو كل ما سمعه (منير أمونيوس)، من ضيقه قال لأحد رجاله، "امسك البنت دي."

بينما وضعت (نورينا) جسدها بين الرجل الضخم وبين (ديجا)، وأشاحت يده في كل مرة حاول أن يمسك ذراع (ديجا)، و(ديجا) تتكلم، "إيه؟"

"هتقبض عليا أنا كمان؟ هتدخّلني السجن وتدمّرني أنا كمان؟"

"مش غريبة على واحد زيك. إنتوا اللي حبستوا الشباب ودمّرتوا مستقبلهم، كل ده عشان قالوا كلمة حق ووقفوا قدّامكم."

ولم تتوقف، "اقبض عليا يا منير. اقبض عليا أنا كمان."

"دخلني سجنك واخفيني عن الوجود."

"ما اللي زيك يعملوها."

نعقت (نورينا)، "بس، كفاية..."

"... مش عايزة أسمع كلام تاني."

"حرام عليكم اللي بتعملوه فِيّا ده،" ثم استدارت ناحية (منير أمونيوس) وقالت، "إنت فاكر إنك ممكن تاخد مني بنتي بالسهولة دي."

"أنا أطلّع قلبك فيها وأعصره لغاية ما تطلع الروح من جسمك."

"إلا بنتي يا منير، سامعني، إلا بنتي."

زحام المُترجّلين حول مركز المربع الذي صنعه الرجال السود، لم يزد الموضوع إلا توترًا. وقت أن ضاق الممر وحاول الرجال جاهدين أن يمنعوا الناس والأطفال الذين تجمعوا وتصايحوا فيما بينهم بأصواتهم الناعقة من الترجُّل إلى داخل المربع، وإلا ستكون العواقب وخيمة على كل الحاضرين، إلا شخصًا واحدًا، كان هو من تمكن من شق الصف والدخول إلى دائرة المربع المحكم. يقف عند ركن من الأركان الشاغرة.

ملابسه المميزة بالتونية البيضاء، بالطيلسانة والأكمام والبطرشيل، يعتمر فوق رأسه البرنس الأبيض، المزيّن بنقوش الصليب، أودعت الرهبة ربما في قلوب الرجال السود، مما مكّنه من الدخول، لكنه دخل على حين غرة، وباقتدار غريب. ينظر برفق إلى الأم التي تتقدم ابنتها، وإلى الرجل الذي ينتصب باختيال أمامهما، يمسح على ذقنه وقد تفاجأ (منير أمونيوس) من ذلك المشهد.

للوهلة الأولى لم يعرفه، لكنه ما إن دقّق في ملاحمه حتى أدرك من يكون. تكلم أولًا وكان أول ما قال، "بيت الرب، بيت الرب خالٍ من الشحناء والمشاكل."

رددت (نورينا) بعد أن أسقطت نظراتها من الخجل، "أنا آسفة يا أبونا، سامحني أنا وبنتي."

"لا كراهية ولا خطيئة النهاردة يا ابنتي. كلنا في رعاية الرب،" كان جوابه الذي أراحها.

تكلم (منير أمونيوس)، "مفيش أي حاجة هتتغير. البنت دي هتيجي معايا."

من تحت البرنس أسهب، وكان وجهه ناحية (منير أمونيوس)، في حين مختفيًا عن (نورينا) و(ديجا)، "اللي يدخل بيت الرب لازم يستمر فيه لغاية ما يأذن الرب، وإحنا في ليالي الفرح، ليالي العيد والأنغام الفرايحية. ابتهل وتوسّل إلى الرب أن يضعك تحت عباءته ويمسح على رأسك بالماء المبارك."

قالت (ديجا)، "أنا عن نفسي همشي من هنا وهاخُد أمّي معايا."

"كفاية علينا قوي لحد كدة."

لما همّت (ديجا) بإمساك معصم (نورينا)، وكانت قد استعادت رباطة جأشها، تكلم، "خطيئة، والخطيئة تتطلب الغفران."

"اتكلمي يا ابنتي عشان أمسك عنكِ الخطيئة ببركة المسيح، يسوع المخلص."

قالت (ديجا)، "أنا معنديش حاجة أقولها ولا عندي خطيئة أعترف بيها."

"لأ، عندك؟"

دُهِشت (ديجا) من كلامه وانتفضت (نورينا) وسابت أعصابها، حتى أن (ديجا) شعرت

باهتزاز أناملها، ولما بادرت بالسؤال، قال مجاوبًا من قبل أن تسأل، "ومين معندوش خطيئة يعترف بيها، كل أبناء آدم خطّاؤون. كلنا مُلطّخون بعار الخطيئة على أكتافنا الضعيفة العارية."

قال (منير أمونيوس) بعد أن امتعض كثيرًا، "هدّيك خمس ثواني تخرج فيها من الدايرة دي،" فقاطع الآخر، "هتقبض على كاهن! واحد من أبناء الرب!"

ولما أصابهم جميعًا بالدهشة، قال، "مش غريب، ما إنت عملتها قبل كدة. ودمرت واحد من بني جنسك."

ارتبك (منير أمونيوس) ثم قال، "القانون مبيقفش عند أي حد أيًّا كان، حتى لو كان راهب أو مُتصنّع،" فقاطع الكاهن وكان يبتسم، "القانون ما هو إلا مادة كتبها الإنسان عشان يجور على أخوه الإنسان، لكن أنا ماشي بالقانون السماوي، اللي لا بيعرف جور ولا ظلم."

"الكنـ..."

"... متخافش، الكنيسة مبتحميش المخطئين."

وكشف عن وجه، الذي ما إن ظهر حتى سقط فك (نورينا) ناحية الأرض بعد أن رأت ملامحه، فغر فمها باتّساع، انقبض قلبها الخافق، بينما امتازت (ديجا) بالاشمئزاز والتضايق من حضرته. بينها وبين ذلك الشخص سجالًا طويلًا، وكانت تُمقِته وتُمقِت أفعاله على الرغم من أنها لم تُواجِهه إلا بضع مرات، أما النظرات الحقيقية، فكانت بين (منير أمونيوس) وبينه. كل واحد منهما يُجرّد الآخر من طبقات الزيف ويضعه في نصابه الصحيح.

همس (منير أمونيوس)، "نجيب رسول!"

وهمس (نجيب رسول)، "منير أمونيوس!"

بداخل كل واحد منهما كلاب تَسعُر، تُكشّر عن أنيابها بضراوة وبرغبة في القتل.

ردّد (نجيب رسول)، "إيه مفاجأة بالنسبالك؟ مش مصدّق إني هنا؟ في المكان الوحيد اللي متقدرش تقرّبلي فيه."

كان جواب (منير أمونيوس) ابتسامة صفراء أظهرت أسنانه الفائقة الاعتناء، وكان يُتمتِم بداخله، "حقير..."

قال (منير أمونيوس) بعدها، "جايز تكون غِبت عن الرادار لفترة، لكن ملفك لسه مفتوح."

"متفتكرش أبدًا إنك بعيد عن عينينا أيًّا كان المكان اللي رحت أو هتروح فيه."

"شخص زيّك لا يمكن نغفل عنه."

التفت (نجيب رسول) إلى (نورينا) بعين يعلوها حاجب مرتفع، وقال، "معلش يا نورينا، الكلام ما بيني وما بين جوزِك نسّاني الاحترام والأخلاق."

"أصل اللي بيني وبينه كبير ومبينتهيش."

(نورينا)، التي غمر عينها اكتظاظ نسائج الغضب والأحزان، وشعرت كأنها ما بين مطرقة تنهال على إرادتها وسندان تفلّ من عليه الشجاعة، لأول مرة تشعر بالبرد منذ أن دخلت أبواب الكنيسة، بل وكانت تشعر بالصقيع يطبق على صدرها. كانت تلك النظرة الخانقة في عيني (ديجا) هو كل ما تخشاه.

نظرة كراهية متأصلة في قلبِ رجلٍ لم يعرف الثقة بعد. نظرة كراهية متأصلة في قلبٍ شابٍ لم يعرف الحب بعد.

رددت (ديجا) بعين زائغة ما بين والدتها (نورينا) و(نجيب رسول) و(منير أمونيوس)، "يعني إيه الكلام ده؟ إنتوا كلكم تعرفوا بعض!"

ثم استدارت ناحية (نورينا) فقط، "يعني إيه يا ماما الكلام ده؟"

"إنتي تعرفي الراجل ده؟" وكانت تُشِير إلى (نجيب رسول)، والذي رسم ابتسامة حاقدة على وجه المطاط.

"اتكلمي يا نورينا."

"إنتي تعرفي الراجل ده؟"

ولما رأت (ديجا) قدر التردّد والتبعثر الذي ألمّ بوالدتها، قالت، "ده شيطان! ده واحد من أبالسة جهنم!"

"ما إنتي لازم تتعبي وأعصابك تبوظ لأنك بتعرفي الأشكال دي أصلًا في حياتك."

"يالا بينا يا ماما من هنا. كفاية قوي لحد كدة."

كان (منير أمونيوس) صامتًا، مُتمتّعًا بنفس القدر أو أكثر من (نجيب رسول)، الذي ظهر شامِتًا ومُؤجّجًا للخلاف بينهما.

كلما نظرت إليه (ديجا)، رأته مصفرًا يتلون مثل الثعبان الأقرع، ثعبان كان يتربص بها وفي الأساس تخشى لدغته.

ردّدت (نورينا) باستماتة، "أنا معرفش الأشكال دي ولا بيني وبينهم حاجة..."

"... إنتي لازم تصدّقيني يا ديجا،" وكأنها كانت تتوسل.

قال (منير أمونيوس)، "أنا حذرتك يا نورينا."

أتبعت (ديجا)، "منير أمونيوس، وأنا عارفة إنه داهية من دواهي الزمان، واحد من القيادات السيادية اللي ماسكة البلد بقبضة من حديد، حاطين الشعب المسكين ده كله تحت المفرمة. لا في حد يقدر يتكلم ولا حد يقدر يعترض، ولا حد يعرف همّا مين أصلًا، واللي يعترض، بيختفي، لأن عندهم صلاحيات وسلطة غريبة، غير مفهومة، ومُستغلّة أسوأ استغلال."

"لكن ده، ده لعنة من اللعنات. أنا متابعاه في برنامجي من فترة. أقدر أقولك إنه بيتشفّي فِيّا دلوقتي لأني بكشف كل ألاعيبه وخبثه."

"لا هو نجيب ولا هو رسول، هو بني آدم غبي، حقود، عايز يغيّر حتى في الدين."

ووجهت كلامها إلى (نجيب رسول)، "استناني في الحلقة اللي جاية، كشف ألاعيبك وهجرّدك من قناعة الطيبة اللي حاطّة على وشك."

صرخت (نورينا)، "لأ،" وكانت صرختها مدوية، لدرجة أنها جذبت انتباه الحاضرين ممن عبروا الباب إلى القاعة الكبيرة، وهي اللحظة التي تكلمت فيها (نورينا) بصوت خفيض موجّه إلى (ديجا) وحسب، "لأ، يا ديجا، إحنا ملناش دعوة بالناس دي. الناس دي مبيجيش من وراهم غير الأذيّة."

"متوجعيش قلبي يا بنتي أكتر ما هو موجوع."

قال (منير أمونيوس)، "متحاوليش يا نورينا، بنتك مش هتهدى إلا لما تدخل السجن، لأنها بتروّج للفتنة وبتنشر أخبار مغلوطة في برنامجها الإذاعي."

"النائب العام أصدر قرار ضدها وأنا اللي وقفت في آخر لحظة، لكن واضح إن مفيش فايدة."

تكلم (نجيب رسول)، وكان مرتاحًا، "التطاول على الكهنة جريمة كبيرة أمام الرب قبل القانون، أنا مش هلاحقك قانونيًا، لأن نجيب رسول بيعرف ياخد حقه كويس."

"اسألي أمك، جايز تريّح بالك من الحيرة."

قهقهة خافتة...

استدارت (ديجا) إلى (نورينا) وقالت، "قصده إيه بالكلام ده؟"

انفجرت من الغيظ، "إنتي ليه ساكتة؟"

"ما تقولي... اتكلمي..."

بدأت الدموع تخرج من عيني (نورينا)، كانت تنهار. تلك الشفاه الوردية المتلعثمة كانت عاجزة، لم تقدر.

فتكلم (نجيب رسول) ..... وجحظت عين (ديجا) ودمعت.

****

"افتكري..."

"افتكري السبب..."

غضب وعنفوان يمتلكها، كان وجهها مُخدّرًا ومتورمًا من الكدمات. كانت تترجل مسرعة في الممرات المقوسة، جسدها الضعيف لا يزال ينبض بالحياة وينبض بالوجع. كلما اقتربت، كانت تتوجع من ضرباتهم. كانوا ينهالون عليها من كل مكان، فلا يتركون فيها موضع لحذاء أو مكان لقبضة إلا وأسقطوا أياديهم عليها.

ملابسها الملطخة بالدماء، الملتصقة بجسدها، تبدّلت، أصبحت هيئتها مُنمّقة رقيقة مثلما كانت، لكنها تشعر أنها ضاعت. كانت تتهادى في الممر بلا وازع ولا مُغِيث، تسبقها مجموعة من الشباب المختلط ما بين النحيل والسمين، الرفيع والطويل، يتضاحكون فيما بينهم، ويتحدثون بالحديث الصاخب والمزاح الذي يمتد إلى الأطراف والأقدام.

ليلة العيد، ليلة الفرح والسرور!

قال أحدهم وكان ينظر إلى اقترابهم من الكنيسة أولًا، "حد فيكوا سمع أغنية هادي الأمير اللي في ألبومه الأخير؟"

مال أحدهم على الأخر وقال، "اللي في ألبوم سلام الليل؟"

"آه، عارفها، دي فورتيكة يا جدعان. جامدة هلس."

"عليا النعمة إنت برنس."

"اسمعوا كدة."

الحلم تاه وسط السكوت والذكريات

والناس مبتفكرش إلا في نفسها

العمر فاااااات

ويّا الساعاات
اللي بترسا في اسمها
وكانوا يرددون مع كلمات الأغنية.
كتير بنشكي بعضنا
لناس تقرّب مننا
وناس نفكرها بكلامنا
يقولوا كان ماضي... وسكات
طب هُمّا فين
لما نجاوبهم
محتاجينهم
بيروحوا وإحنا منفتكرش
يا حبيبتى ليه ما بنعترفش
إن إحنا بنشوف بعضنا
ويا دوب
في ذكرى بنفتكرها
نعيش ونتألم عشان
كل اللي فاااااااات من عمرنا

ضحك الشباب واكتأبت. كانت قد اخترقت الصف، وامتزجت عينها بالدموع من كلمات الأغنية، غير أن الأسباب الحقيقة كمنت في داخلها. مرّت من بين الشباب كفتاة يتغزّلون في جمالها وحُسنها. ينظرون إلى مفاتنها، لا يعبئون بحالتها أو حزنها أو حتى احترام المكان الذاهبين إليه، بل ألقوا عليها الكلام الثقيل، وأضاقوا عليها الدنيا بنظراتهم المقيئة، والتي لا تخلو من الشهوة أكثر مما كانت تضيق.

على آثـار طيفـها أكـملت الألـحان...
يـا دوب حاجات
ساكـنة ف قـلوبـنا
أوقـات بـنستنى وساعات
الـمعجزات
الـحلم كـان عايش ما بـينّا
بـيحكي عن حبي حكايـات
جمّعنا بـاقي الـذكريـات
وسيبنا إيـدنـا بـنفسنا
ولا يـوم نـفكر في الـحيـاة
الـحلم تـاه وسط الـسكوت والـذكريـات

تـأوهت، وضمّت جناحها من ضيق الدنيا. كانت تشعر بتلك البرودة من قبل، برودة النظرات وسكاكين الوجع، كانت تبكي وتنوح من بين جنبات الروائح القذرة، في سلة صغيرة عند حاوية القمامة. هناك كانت تصرخ من الجوع لساعات ولم يُعرها أي إنسان الانتباه. يأتون ويذهبون إلى حاجياتهم ثم يعودون، وهي في سلتها، تُداعِب أصابعها وتتخيل صديقًا لها، يؤنِس وحدتها ويُطمئِنها.

الحياة مُرّة وطعمها علقم، هذا ما تعلمته بعد ذلك. مذاق الحياة لاذع على اللسان. كان عليها أن تكتوي بالنار حتى لا تشعر المرار بعدها. كان عليها أن تُقوّي عظامها وأن تترك الألم للضعفاء.

اصطدمت، ومن حيرتها ارتبكت، كانت قد ترجلت للتو إلى داخل البهو، وقد تكدست مجموعة من الأطفال بحقائبهم، يحاولون دخول البهو مسرعين إلى القاعة الكبيرة، وكأنها

رحلة ترفيهية، فاصطدمت بمجموعة منهم، الطفل توجع، كان ينحني ويئن، يمسح نظارته المشروخ زجاجها وكأنه يبكي من الألم.

لم تهتم كثيرًا لحاله، فمن يهتم لحالها؟ كان الجمود فيها لأنها لم تعلم ما تقول ليبعد عنه الحزن. هي لم تعرف ما تفعل، ولذلك فضلت الابتعاد، وسارت إلى جوار الطفل، الذي سرعان ما حمل حقيبته، ونظّم هيئته وسار بين الأطفال، لتُشاهِد مربعًا كاملًا من رجال سود، يُطوّقون جزءًا ليس بهيّنٍ عن باب القاعة، في كل ركنٍ قبع شخص ما.

رأت رجلًا يُدخّن السيجار، ينفخ بغيظ، ورأت راهبًا يبتسم وعلى وجهه الاستمتاع. كانت ملامحهما جليّة لها، يقفان وجهًا لوجه أمام شابتين، تبدو احداهما أسنّ من الأخرى، بالأخذ في الاعتبار طريقة ملبسها.

(ديجا)، الشابة الأصغر، والتي صاحت وكان الضيق قد بلغ مبلغه في حلقومها، شعرت بثقل الكلمات التي سمعتها. كانت تشعر بالدوار. كانت تشعر بالحيرة، بالوجع والهزيمة. لم يخطر ببالها أبدًا أن تسمع تلك الكلمات. انفصلت دائرة المربع وتركته مثلثًا قائمًا، بعد أن نعرت، "أنا ماشية من هنا."

ولما حاولت (نورينا) أن تلتقط ذراعها، رفضت، وقالت، "سيبيني في حالي."

"أنا مش عايزة أشوف حد ولا أكلم حد."

"ديجا! ديجا! استني..."

وقت أن وقفت (نورينا) أمام (منير أمونيوس) و(نجيب رسول)، كان بينهم غضب في

أصله زائل وفي حقيقته مُتمكّن قائم. كانوا يتلاومون فيما بينهم بلا حديث.

(نورينا) التي قالت، "ملعونين."

(نجيب رسول) الذي قال، "انتقام."

(منير أمونيوس) الذي قال، "خادع."

بغير قصد، صدمت (ديجا) جسد الفتاة التي ترجّلت للتو عند باب القاعة الكبيرة. جذبتهما نفس نظرة الحسرة والاختناق لمّا حدّقا لبعضهما مليًّا، من غير رغبة ولا سبب، غير أن كل واحدة منهما شعرت بما كمن في قلب الأخرى من حطام. آلاف وآلاف من أسباب التعاسة والأسى تجمعت بينهما، طوقتهما سوية لدرجة أنهما شعرا بالألفة.

ألفة الحزن، ورموش مغلقة، وقلب توقفت نبضاته، سكون يجمع ما بين الأرواح المُعذّبة. كل واحدة منهما شعرت أنها وجدت نصف الوجع الأخر. نصف لم يكتمل، لأنهما مرّا من خلال بعضهما بلا حديث ولا كلام، ولا أسف يعبر من الأنظار.

(ديجا) كانت تتنفس بصعوبة، ومن ورائها (نورينا)، التي تسعى للحاق بها.

****

السماء التي على الأرض، أحجار الكاتدرائية التي وصفها القمص (سرجيوس) بأنها معقل من معاقل الوطنية المصرية، والبوتقة التي ينصهر داخلها كل المصريين.

الأكبر كمساحة في كنائس الكرازة المرقسية، فتبلغ مساحتها ألفين وخمسمائة متر مربع، من الداخل: الكنيسة الكبرى، والتي تحمل

اسم القديس (مرقس)، وكنائس أخرى صغيرة تحمل أسماء، (العذراء مريم) وبعض القديسين، إلى جوار المقر البابوي ومزارات عدد من القديسين، (مارمرقس وأثناسيوس والأنبا رويس) وعددًا من البابا وات.

بين كل ذلك كان (مراد) يترجل، ذقنه الهشة، وحالته التي يُرثى لها، كانت تثير حوله الشكوك. استطاع أن يمر من خلال الطوق الأمني على حين غفلة من رجال الأمن بعد أن ارتبكوا في عدد الأفواج القادمة عند البوابة الخارجية.

برغم حالة الاستنفار الشديدة، لم يمنع ذلك (مراد) من الدخول. كان يسير مهرولًا في المروج وعينه مصوّبة ناحية مبنى الكاتدرائية الكبرى. إلى هناك كان عليه أن يذهب.

رجل الأمن، النجوم الثلاثية على أكتاف مسطحة، الذي كان لتوه عند البوابة، يصيح ويزعق في القائمين على الأمن والحراسة، ذلك الشاب الذي رآه (مراد) مغرورًا، متعاليًا، كان يسير أمامه بعد أن لعن مئات اللعنات لقدومه إلى تلك المناوبة في تلك الليلة بالذات، بل وكان يُدخِّن سجائره بشراهة قبل أن يصل إلى المبنى الرئيسي.

لما وصل ومن ورائه (مراد)، انكفأ بتواضع غير مفهوم أمام (منير أمونيوس)، ذلك الرجل الراقي، والذي أبصر (مراد) على مضض، والكاهن الذي انفضّ واضعًا البرنس على رأسه وتخطّى أقدام رجال سود، كانوا يطوقون المكان وربما يحمون الرجل الممتلئ الذي

يقف عنده نقيب الشرطة، مستكينًا إلى حد الخضوع، حتى جاء الرجل هاتفًا فأجابه، فرحل عنه النقيب إلى داخل البهو الكبير.

ترجّل (مراد)، كان لا يزال ينظر إليه، (منير أمونيوس)، وهو يتكلم في هاتفه. أول خطوة وضعها (مراد) داخل البهو الكبير، رأى جمعًا من الناس غفير، كانوا قد جاءوا ليُكمِلوا الاحتفال والابتهال، وليلة العيد التي لاحت عليهم بالأفراح.

عن يمينه، انكفأت (ديجا) في مرارة، وكانت تصيح وتزعق في سيدة عجوز، ملونة الشعر، والتي امتثلت تمامًا أمام غضب الفتاة المُنكب كالسيل العارم.

"أنا بجد مش مصدقة!"

"إنتي يا نورينا! إنتي فاهمة بتقولي إيه!"

"يعني كنتي بتخدعيني طول الفترة دي."

"بتكذبي عليا يا نورينا."

"طب ليه؟ ليه كدة؟ أنا عملتلك إيه؟"

كان يبصر السيدة العجوز وفي نظراتها يأس شديد، وحالتها الجسدية مزرية، وقت أن أبصرت (ديجا) نقيب الشرطة، والذي ترجل أمامها عند المقاعد الأمامية، فصمتت، بل واقشعرّت، وفكرت في نفسها، "هوّا!"

"الظابط الحقير!"

"بس بيعمل إيه هنا!" وكانت (نورينا)، السيدة العجوز، تحاول أن تُكلِّمها.

نقيب الشرطة، (شادي عسر)، الذي أبعدها عن الأسوار وتركها في حيرة من أمرها، ذلك

الشاب المغرور، يتكلم مع فرد أمن دخل القاعة، ولما أخبره أنه مسيحي، أزاد من ترهيبه وألقاه خارجًا إلى مكان حراسته، فأسرع من الخوف إلى مغفره. كانت نظرات (ديجا) تتبعه وهي لا تُصدّق أنها تراه. تريد أن تذهب إليه وتقتحم خصوصيّته، وهو ما لم تتردد أبدًا في القيام به، و(نورينا) مهمومة من تصرفات ابنتها، التي تركتها ومشت.

وجهًا لوجه التقيا...

وجهًا لوجه تكلما...

نظر (مراد) عن يساره، بين الناس كانت تقف ولم يراها، كانت تفحص الحاضرين بعين ثاقبة، تبحث ولا تسأم من البحث، بعد أن جابت الأرجاء وقررت الاستسلام، كان الوخز في أطرافها يُنبِّهها، يحقن الأدرينالين في عروقها، يستثيرها. كانت تستشيط غيظًا.

"مريام!"

أحد يناديها!

وفي الأمام، ذلك السابح في الملكوت، أمام جدارية الأرابيسك الخشبية، يتفحص في سكينةٍ الأيقونات السماوية، أيقونة العذراء وطفلها الرضيع، أيقونة المسيح والبشارة، أيقونة الروح والأيقونة الكبيرة للعشاء الأخير، مائدة يأكلون منها جميعًا.

أعياد الميلاد وترانيمها...

تسابيح المعمدانية والغمر بالماء...

(عابد)، الحائر، كان موهومًا سائرًا في عالم آخر. عالم كان يعزف الألحان في أذنيه من جهاز الراديو القديم.

من ورائه، (مراد)، يقف مباشرة عند نهاية ظله، لا يفرق بينهما سوى عدة أمتار.

تلك الألحان كانت تعرفها! تُميّزها وتسري بداخلها كأنها جزء منها.

تلك الطرقات كان يعرفها! نقرات من داخل جمجمة تأسر حدود عقله الشريد.

تلك الأصوات من قبل سمعتها! صحوة باكية، نحيب وعويل لا ينتهيان.

اهتزاز الأعصاب وطلقة رصاص! فوهة شحذت نيرانها برمية حاسمة.

بريق! جرح غائر! يدها التي تقبض على قلبها! (نورينا)!

احتملت! تهاوت وفي عينها الصدمة والدموع!

سقطت مثلما تسقط الأحمال بين الدماء!

صرخت (ديجا) وفزعت إليها كثور هائج بين قطيع من الغنم النافر.

نواقيس تدق وأجراس تتراقص على وتيرة نبضات قلبها...

رنة أولى ... تننن... خطوة فخطوة فقفزة...

رنة ثانية... تننن... صراخ فنداء فأنين...

رنة ثالثة... تننن... الصدمة التي أوقفتهم جميعًا...

سكوت... رنين... فجيعة... اضطراب... انفجار... أحجار... ركام يأسر الأجساد...

ديجا

_____ تصرخ

نورينا

_____ لا تتحرك

مرجانة

_____ تبكي

مراد

_____ يتألم

شادي عسر

_____ يتشنج

عابد

_____ لا يتكلم

نجيب رسول

_____ متضايق

منير أمونيوس

_____ مرتبك

إلا جهاز الراديو، بين سريان الدماء، أنغامه لم تنقطع: موسيقى حالمة! ألحان موجعة!

حزين هو ذلك اليوم

عندما سينهض من الرماد

رجل مخطئ للعقاب
ربنا، أغدقه برحماتك
أيها المسيح الرفيق
امنحهم الراحة الأبدية
آمين

(لاكريموسا - موزارت)

****

صندوق الراحة

مراد نصري:
خروجه وذهابه فجرًا إلى المشرحة زينهم من دون سابق إنذار.
العثور عليه من قبل الأمن الوطني والقوات الخاصة إلى فيلا خاصة بالعمليات.
ذهابه إلى الكنيسة المرقسية.
ديجا منير:
ذهابها إلى المشرحة ومحاولة استبيان ما حدث للرجل الذي صدمته بسيارتها.
مفاجأتها بما حدث للمشرحة، والتقائها بطبيب تستعلم منه عن الأمور.
مواجهتها مع والدتها ووالدها و(نجيب رسول) في الكنيسة المرقسية.
عابد:
مراقبته لمحاولة اغتصاب فتاة، عينه تدور عليها، قام بعدها بطردهم ليستفرد بها لوحده.
استيقاظه عند الجماعة السوداء، حضور جماعتهم، وذهابه إلى الكنيسة المرقسية.
خيري شهاب:
يقوم بضرب الولد (نجيب رسول) وقت أن كان صغيرًا.
مرجانة:
ضعفها الشديد، وسقوطها في قبضة الجماعة السوداء.
شخص من الجماعة يهمس في أذنها بكلمات وذهابها إلى الكنيسة المرقسية.
نجيب رسول:

ذاكرة قديمة تربط بينه وبين (خيري شهاب).
رسالة قديمة أرسلتها إليه الشابة (بوران) وهو كاهن في الكنيسة المرقسية وموجود فيها.
نورينا:
في مواجهة مع (منير أمونيوس)، زوجها، ووالد (ديجا)، ومواجهة مع (نجيب رسول)، الكاهن، ومحاولتها التحدث مع ابنتها (ديجا).
... انفجار الكنيسة ...

****

" 21 "
غفران

{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: 186]
"وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ [الأنعام: 116]

إذاعة في مواجهة إذاعة...
أناس في مواجهة أناس...
صوت مُتخشّب من وجه يختبئ بلا أقنعة -
"أما أنت فجرمك عسير،" وكان يشير بالإصبع إلى مقدمة رأسه.
"فهذه الأرض هي أرضنا نحن."
وجوه تعلّمت أن تعبث بالقلوب بين أصابعها -
"وأي خطيئة هي تلك! وأي خطيئة هي تلك! وأي خطيئة هي تلك!"
"فاثبتوا على الحق! فاثبتوا على الحق! فاثبتوا على الحق!"
"رجل وفتاة... رجل وفتاة... رجل وفتاة..."
"خطيئة الجسد... خطيئة الجسد... خطيئة الجسد..."
شيخ يتكلم، "تطهير الذنوب... تطهير الذنوب... تطهير الذنوب..."
"تطهير الجسد... تطهير الجسد... تطهير الجسد..."

بيان عاجل: ارتفاع أعداد الجثث المتفحمة، ولم يتم التعرف على أسباب الحريق حتى الآن.

فتاة تتكلم بلا صبر ولا رويّة -

"إحنا كلنا بنحب البلد دي، مصر، بس فينا اللي بيحبّها كإنها أمه، وفينا اللي بيحبّها زي مراته، وفينا ودول اللي عايشيين، كل واحد فيهم فاكرها عشيقته."

رجل ينتظر أن يفهم آخر طريق الموت -

حياة الآخرة ليست ببعيدة، رجل من وراء الباب يبثّ في النفس الشرور. كان يسمع له، بل كان يُنصِت له بإمعان. لحيته طويلة، وعينه السوداء المنتفخة مسرورة من النتيجة.

الغضب مِرآة الحاقدين -

ستارة وأسلاك وضربة واحدة على الخشب من الهياج...

"ديجا منير!"

بغيظ ردّد في جوفه.

"تمام،" صوت من الجهة المقابلة.

امرأة كفراشة في مهب الريح -

بلمحة واحدة، كانت الشمس قد أودعت رحالها إلى أطراف الليل بعد أن حملت حرارة القلوب على عاتقها وألقت بظلالها على الشوارع المتراصة سياراتها. أقدام لا تكلّ من السير في الطرقات. أشجار تستدير وأزهار لا تحمل رائحة تذكر. أصبحت تلتف في منتصف الشارع. تُزيّن شكله القبيح ليصبح شكلًا حضاريًا، لكن الأشياء المتناثرة، والقليل من الأشياء الملقاة كانت تثير حفيظتها.

الحقيقة ليس لها معني إن لم تكن واقعًا - الليلة ليلة عيد! عيد مبارك!!
"هه هه هه!"
بسخرية، ضحكة (ديجا) لم تكن تفهمها - "مش عيد مبارك"
الماضي لا يترك المنتظرين -
تك...
..1
تك...
..2
تك...
..3
.. 116
عدد خطواتها!
قبضة اليد سطوة -
بعيدًا جدًا عن كل من يدرك، شخص يلتحف بالدخان الكثيف، يقف من وراء نافذة الشرفة المغلقة وينظر إلى النقاط المضيئة والمتبعثرة في الظلام.
كان يبتسم!

****

ذلك الأكتع المسكين، الذي لا يراه الناس. يحمل كيسًا من القماش يُلملِم فيه أشياءه. يرمقونه بنظرات الاشمئزاز، ونظرات أخرى تحمل الشفقة وأخرى تحمل الرياء. كان يترجّل بلا تسرّع ولا رويّة. كانت القدم تعرج ويتبعها بالأخرى، يمشي من وراء أجراس حزامه. يمر بالمقهى فيسمع آيات القرآن تُتلى، فيقف مليًا ليستمع، ويمر بعدها

بمقهى آخر فيسمع آيات القرآن تُتلى، غير تلك الآيات الأولى وغير تلك الطريقة الأولى، فيقف ليستمع.

في استماعه يزجره الناس ويسوقونه بألسنتهم. يدفعونه للرحيل رغمًا عنه، فلا يملك إلا أن يستجيب.

يقول الواحد منهم وعلى وجهه المتيبّس الامتعاض، "استغفر الله! إيه القرف ده! امشي ياض من هنا. هيا ناقصة أشكال منيلة عالصبح."

"يا رب اغفر للواحد، ما هي مش طالبة."

يتأففون، يتقدّمونها بالاستغفار ويُتبِعون بطلب المغفرة.

على قدم واحدة وعلى الرصيف كان يقف الأكتع، (عابد)، طريقة الرجل معه قذفته إلى الوراء، فتعثر وارتمى إلى الشارع. كان خائفًا، فجأة مما سيفعله الرجل له. ربما يصلب ظهره ويطرق رأسه بكف يده.

صاح الناس، بل وهبوّا من أماكنهم على المقهى.

كانت تُعدّل محطات الراديو حتى تصل إلى محطة بعينها، علّها تسمع خبرًا جديدًا يُبعِد ريبتها وأضغاث هواجسها. انحنت قليلًا وهمهمت، وتكلمت لنفسها المُثقلة، "يعني إيه أروح ألاقي المكان ولّع؟ إيه الجنان ده؟ هو إيه اللي بيحصل بالظبط؟"

"حد يفهمني يعني إيه؟"

"ومين ده اللي خبطته؟ ومين الظابط ده؟"

"أنا حاسّة إن في حاجة كبيرة بتحصل."

"والأخبار الزبالة دي مش عايزة تجيب أي أخبار عن الموضوع."

"حاجة بجد تقرف!"

"أووف!"

رنين الهاتف، "يووووه!"

"إيه ده؟"

"آآآآه!"

زيييييييييييييء -

مرة أخرى قفز قلبها من صدرها الصغير وعاودت المشاهد التكرار، مشاهد الليلة الفائتة. ربما كانت صدمتها أشد وأعتى من التي سبقتها. كانت تقبض على مقود السيارة بكلتا يديها. كانت متأكدة أنها تقود على الستين أو السبعين، على جانب الطريق، لا توجد إشارات ضوئية أو ممرات للمشاة.

حظها العاثر أودعها مرة أخرى في طريق الصدمة، صدمة دوّت في عقلها بأضواء من الليلة السابقة وأصوات العجلات تُسحل على الأسفلت. رجل يُقذَف عاليًا في السماء ويسقط على الأرض على مسافة ليست بالقريبة.

عينها الجاحظة وأنفاسها المتقطعة ويدها التي ترتعش، كل ذلك لم يمنعها من التحرك. على خِلاف المرة الأولى، هزّت رأسها وفتحت باب السيارة وأسرعت إلى الناس القابعين عند المقدمة، تترجى، "أنا آسفة جدًا، والله ما كان قصدي."

"أنا! أنا بجد آسفة."

"أنا مستعدة أعمل أي حاجة، أي حاجة."

"أنا...!!"

صدمة أقوى، ذلك الشخص الذي يتلوّى، تلك الملابس الغريبة والحزام الطويل المدعم بالأجراس. بنية جسده المتكوِّرة، وظهره المحنى المقبب. لوهلة شعرت أن جُرمها كان أعظم.

تمتمت في سريرتها، "عملتي إيه يا ديجا؟"

تلك الأماني الطوال التي كانت تراها في عقلها طويلًا، لدرجة أنها تنام وفي يدها لعبة تشبه الميكروفون. تحلم في ليالٍ شديدة الظلمة أنها تخطب في الناس وتتكلم. تلك الأحلام التي كانت تتشبث بها ولا تريد أن تفقدها وقت أن تصحو على أول أضواء الصباح، وكأنها كانت مجرد أضغاث أحلام تؤرّق سباتها العميق.

شيء عجيب هي تلك الحياة، أنت تسعى فيها لأن تحصل على شيء ولا تعلم هل هو لك من البداية أم لا، تظل تركض وراءه وكأنه الشيء الوحيد الذي تريده في الدنيا، فإما أن تصل إليه وفي داخلك ذلك الشعور العظيم بالانتصار، فأنت حقًا كنت تسعى إليه لتُرضِي شيئًا ما بداخلك، أو في المقابل لا تصل إليه، وحينها فأنت لم تشعر سوى بالفراغ المتراكم بداخلك، الفراغ الذي غمرك بحزن عميق.

تظل تتذكر وربما تتحطم...

لا تنسى ذلك الظل الذي ما انفك يركض وراء أوهامه...

كانت مستعدة، كانت على أتم الاستعداد، وكانت قد عقصت خصلات شعرها الأصهب وعقدته إلى الوراء. ترتدي قميصًا أبيضًا، ضيّق التقسيمات، مفتوح، يرسم جسدها النحيل،

تتدلى منه سلسلة ذهبية تحمل في آخرها بريق الصليب، وتُسدِل على القميص سترة من الصوف الأسود المزركش، وبنطال كُحلي مُجسَّم، وحزام بُنّي على حذاء بُنّي له رقبة.

عندما نظرت إلى نفسها في المرآة، تبسّمت. كانت متحمسة جدًا لأول لقاء لها. امرأة شابة قوية، نظرتها ثاقبة.

هناك، حين كانت تريد أن تبحث في جعبتها عن تلك الأمنية الوحيدة التي تريدها حقًا، فتظل تبحث عنها ولا تجدها، وتسأل نفسها عن ماهيتها، ولِم لم تتبد لها مع أنها كانت تبحث عنها طويلًا، فلا هي تستطيع أن تعيش مثل أي شخص آخر ولا بمقدورها أن تكون إلا نفسها. هي ذلك الشخص المُعلّق بين طائفتين، لا تنتمي لأي منهما، الصحافة والاقتصاد.

سريعًا تعود إلى حاضر الماضي، تسري في شوارع، لم تكن تظن أنها ستمشي فيها لمرة ثانية، ترى بأعينها تلك الأضواء والأناس الذين يترجلون أو يركبون، يضحكون أو يعبسون، وهي تشعر في قرارة نفسها أنها شخص واحد في ذلك الكون الممتد إلى النهاية. فلا هي تشعر بما في داخلها ولا هي تشعر بما يدور من حولها، هي وحسب تبحث عما تريد، وهي لا تعلم ما هو. الشيء الوحيد الذي أدركته هو أنها ذلك الشخص الغريب الذي يشعر بالراحة وقتما يمشي وحيدًا على أضواء القمر الباهت في ليلة باردة وأصوات الموج يلف العقل.

بين جمع من الناس كانت تقف، كانت تحاورهم، تكلّمهم، تحثّهم وتسمع منهم. لم تكن لتجعل في طرق أحلامها عائقًا ولا حائط.

مميزة، قويّة ومُتمكّنة، فمن سيغلبها؟

إلى جانبها وقف الكثيرون. كلهم يسعون إلى ما تسعى إليه وكلهم يتصيدون الفرصة الأولى مثلما تتصيدها. عند الحائط، فتاة صغيرة نحيفة، تُخبّئ ملامحها خصلات شعرها البني المدعمة بخصلات شقراء. كانت ترتدي قميصًا لازورديًا مائلًا إلى البياض على بنطال زيتي اللون، وحذاء رياضي مسطح. كانت تستند على الحائط، وتضع في أذنها اليمنى سماعة، تسمع منها الموسيقي.

وقت أن سمعت طريقة كلام الفتاة الصهباء وطريقة حوارها مع أمناء الشرطة والمتجمّعين من الباحثين عن أي تعليق صحفي عن القضية التي شغلت الرأي العام وقتها – رجل عنتيل استغل فتيات وشباب القدرات الفائقة، المصابين بمرض التوحد، استغلالًا جنسيًا.

مالت إليها وهمست في أذنها، "لو سمحتي؟ ممكن كلمة؟"

قابلتها أولًا بالرفض ونظرة مُستعجِبة، لكنها عندما كررت طلبها، استجابت مُرغَمة.

كلمتها أولًا، "هاي، أنا كارما."

فأجابتها بعين على أمين الشرطة، "آه، هاي! أنا ديجا."

استمرّ الكلام بينهما، أطراف من الحديث يتجاذبانها سويّة بعيدًا عن الصخب، حديث أجبر (ديجا) باحترام على أن تضع اهتمامها على الفتاة ذات الخصلات الذهبية، لتُحدّق في عينها الزيتونية.

"إنتي جاية تعملي تحقيق عن قضية العنتيل والشباب المتوحدين، مش كدة؟"

"آه! فعلًا."

"أنا كمان، بس، ممم! مش بصفة رسمية،" وابتسامة.

"حاجة مقرفة الأشكال المريضة اللي زي دي. مفيش مراعاة أبدًا لصعوبة حياة الشباب دول. بينتهكوهم ويستغلوهم حتى في أسرارهم."

"على فكرة يا ديجا، متصدّقيش كل اللي تسمعيه. دي مجرد إشاعات، مفيش استغلال جنسي ولا أي حاجة من دي، ده مجرد تعذيب وتحريض على تعذيب بس."

"وإنتي عرفتي إزاي المعلومات دي ومتأكدة منها كدة؟"

"ليّا مصادري الخاصة،" نفس الابتسامة.

"المريض ده كان بيعذّب الأرواح البريئة دي!"

"متقلقيش وكيل النيابة شديد."

"مفيش قضية واحدة بتفلت من تحت إيده."

"وإنتي ليه متأكدة قوي كدة من كلامك كإنك تعرفيه؟"

طريقة أعجبت (ديجا).

كلام ثم كلام ثم كلام...

"عايزة نصيحتي، إنتي مش طريقك الصحافة..."

"... إنتي طريقك الإذاعة. أنا لاحظت طريقتك في الكلام والحوار وأسلوبك المميز. فكّري في الإذاعة وإنتي هتبقي نجمة."

حديث مستمر لا ينقطع، ضحكة وابتسامات...

"إنتي عايزة تقابلي وكيل النيابة، مراد نصري؟"

غير مُصدّقة، ولهفة واضحة، "ثواني أنا عندي المفتاح."

ابتسامة على الوجه وحيرة على الوجه الآخر...

أصابع تضغط على أزرار الهاتف برسالة قصيرة إلى طرف لا تعرفه (ديجا)، وإجابة فورية بالموافقة. ليس حتى انتهى الهرج والمرج حتى دخلت (كارما) ووقفت على اليمين ومن ورائها (ديجا) إلى غرفة وكيل النيابة، (مراد نصري)، ووقفت ناحية اليسار، وفي المنتصف.

ذلك الشاب الوسيم، المُهذّب لحيته، البشوش، الذي لا تُفارِق الابتسامة ملامحه برغم الأحاديث الجانية التي تُوصِمه بالصلابة والجبروت.

****

ترنّح (عابد)...

لمّا ترنّح قام من دون مساعدة أحد، هذا لأن أحدًا لم يرد أن يُساعِد الشخص المقيئ الشكل.

كان قد اعتاد على ذلك، وبرغم الوخزات الموجعة في مفاصل قدمه وفي جنبه، إلا أنه نظر إلى (ديجا) المشدوهة نظرة لا تخلو من

الأسى. لا تعرف (ديجا) كيف احتملت أن تنظر في عينه المُتلألِئة بالدموع، والتي لا تريد أن تنزل.

نظرة دامت بينهما طويلًا...

نظرة كانت تقول كثيرًا...

"إنت سليم؟ أرجوك قولّي، فيك حاجة؟ حصلتلك حاجة؟" ردّدت (ديجا) وقت أن أفاقت، ووقت أن رحل الناس لعدم اهتمامهم بما يحدث، ليس إلا من كان في قلبه ذرة من ود، هو الذي بقي ليرقب الأحداث. كانت (ديجا) تتلمس (عابد) وتبحث عن دماء أو خدوش في ذراعه أو في وجهه.

قال أحد الحاضرين، "خديه معاكي يا أستاذة، وديّه لأقرب مستشفي، يكشفوا عليه وتكسبي فيه ثواب."

بعين مُنكسِرة، أجابت (ديجا)، "آه، أكيد،" وكلّمته على استحياء، "إنت لازم تيجي معايا. أنا هودّيك أي مكان إنت عايزه."

حاول (عابد) أن يتكلم وكانت شفته تتحرك، فعقبت (ديجا)، ""اتكلم، قول، أنا سامعاك،" فامتنع (عابد) عن الكلام ووقف كالتمثال، ينصت إلى كلامها. كانت عينه تسيل.

نطقت (ديجا)، "إيه بس اللي حصل؟"

"طيب تعالى معايا،" وأمسكت يده، وفتحت الباب، بالكاد تمكنت من إدخاله وأشياءه في سيارتها، ورمقت السماء بحزن وتنهّدت، ثم دلفت إلى داخل السيارة وعاودت القيادة.

لم تلتفت (ديجا) إلى رائحته ولا هيأته، وإنما كانت تنظر إلى سكوته ونظرته إليها. كان ينظر إليها نظرات تحمل الشغف.

"أنا آسفة جدًا قوي إني خبطتك."

"بجد آسفة قوي، سامحني."

"أنا مش عارفة مالي اليومين دول. مش على بعضي ومش مركّزة."

"لو فيك أي حاجة يا ريت قولي."

وتابعت في نفسها، "إنت جيتلي منين وحكايتك إيه؟"

"إيه بس اللي رماك في سكتي؟"

"هو أنا ناقصة؟"

فاجأها وأمسك يدها اليمني حيث كانت تضعها جانبًا وتقود باليد باليسرى، أمسك يدها بيده اليسرى، فاقشعرت. جلده خشن وملمسه يُماثل ملمس الصخور، لكنها رأته ينظر إلى الصليب المرسوم على معصمها ورأت في يده صليبًا مرسومًا على معصمه هو الآخر. صليب يبدو مختلفًا بطريقة ما، ربما في رشمه خلل.

نطق (عابد)، "مُراجة،" وكان يُردّد الكلمة باطراد.

لم تُعره انتباهًا وإنما قالت، "إنت مسيحي زيي!!" ويبدو أن سريرتها هدأت، فأكملت، "يااه، أنا كنت رايحة على الكنيسة أصلًا، كدة هاخدك معايا. هناك هيقدروا يساعدوك كويس."

"مش عايزاك تخاف من حاجة."

"إنت في أيد أمينة."

ابـتسامـة، وطريـق يـطول ولا يـقصر فـي الـسيـارة.

في موقعها، في حي العباسية، تلوح في البعيد. تبرع الرئيس (جمال عبد الناصر) لبنائها في ستينيات القرن الماضي، وحضر حفل افتتاحها معه الإمبراطور (هيلة سلاسي)، ويعني اسمه قوة الثالوث، وهو آخر أباطرة إثيوبيا أو الحبشة، الاسم المشتق من لفظ (حبشت) والذي ورد في التوراة بمعنى الأجناس المختلطة والمختلفة إشارة إلى التصاهر ما بين الساميين الوافدين من جنوب شبه الجزيرة العربية والحاميين الكوشيين من سكان البلاد الأصليين.

الكاتدرائية المرقسية، أو كاتدرائية القديس (مرقس)، الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، بُنيت على أرض الأنبا (رويس) بجوار الكنيسة البطرسية والتي بناها بطرس باشا غالي.

وقتها، كان بابا الإسكندرية والكرازة المرقسية الأنبا (كيرلس) السادس، والذي أُنتخِب بعده البابا (شنودة) الثالث.

أصبحت كاتدرائية القديس (مرقس) القبطية الأرثوذكسية بالأوزبكية المقر البابا‌وي في القاهرة حينما قرر البابا (مرقس) الثامن رقم (108) أن تصبح هذه الكاتدرائية الكبرى الكنيسة المرقسية الكبرى بالأزبكية، وبنى بجوارها المقر البابا‌وي، وكانت قبلًا في كنيسة العذراء المغيثة بحارة الروم.

في يوم الأحد، الخامس من شهر توت لعام ألف وخمسمائة وسبعة عشر للشهداء، الموافق لسنة ألف وثمانمائة للميلاد، قام البابا

(مرقس) الثامن بتدشين الكنيسة المرقسية الكبرى في الأزبكية ومعه جمع من الآباء الأساقفة والكهنة والشعب.

كان الحصول على ترخيص ببناء كنيسة من الهيئة الحاكمة أو القيام بإصلاح وترميم ما تهدم من الكنائس القديمة في زمن المعلم (إبراهيم الجوهري) أمرًا غاية في الصعوبة، وحدث أن إحدى الأميرات جاءت من الأستانة (إسطنبول حاليًا) والمعروفة أيضًا تاريخيًا باسم بيزنطة أو القسطنطينية أو إسلامبول، إلى مصر في طريقها لقضاء مناسك الحج.

اهتمّ المعلم (إبراهيم) بأمرها، وقام على خدمتها وواجبات راحتها على أكمل وجه، كما قدّم لها الهدايا النفيسة، فأرادت مكافئته وإظهار اسمه لدى السلطان، فالتمس منها السعي في إصدار فرمان سلطاني بالترخيص له ببناء كنيسة بالأزبكية، حيث يوجد محل سكنه، كما قدّم لها بعض الطلبات الأخرى الخاصة بالإكليروس.

أصدر السلطان فرمانًا بذلك، والتمس رفع الجزية عن الرهبان وأشياء أخرى. بعد ذلك اشترى (المعلم إبراهيم الجوهري) المحلات وهدمها، وبدأ البناء فيها، ووضع الأساسات في قطعة كبيرة من الأرض التي امتلكها، ولكن المنية عاجلته قبل الشروع في بناء الكنيسة، فأتمّها أخوه المعلم (جرجس الجوهري).

أكمل بناءها البابا (كيرلس) الخامس، وقام البابا (كيرلس) السادس بترميمها وكان قد مر على بنائها مائة عام وزينت بالرسومات

الجميلة، وفي صباح الأربعاء السادس والعشرين من شهر يونية لعام ألف وتسعمائة وثمانية وستين للميلاد تم الاحتفال بإقامة الصلاة على مذبح الكاتدرائية، وفي نهاية القداس حمل البابا (كيرلس) السادس رفات القديس (مارمرقس)، حيث أودعه في مزاره الحالي تحت الهيكل الكبير في شرق الكاتدرائية.

مشهد مهيب وصورة عالقة في ذهن (ديجا) وقت أن كانت تقترب من أرض الأنبا (رويس)، وهي تجمع في عقلها المعلومات وتطرحها لنفسها عن تلك الكاتدرائية.

لم تكن تريد الذهاب إلى هناك. بينها وبين ذلك الطريق أشواك لم تتمن أبدًا أن تتخطاها. كلما تقدمت خطوة، تذكرت والدتها (نورينا)، أي سبيل سارت فيه من بعد الطوفان الذي اجتاح حياتها.

هل ستمشي هي الأخرى في ذلك الطريق؟

تخطت البوابات ودخلت إلى الأرض الشاسعة، وعند مواقع انتظار السيارات، انتظرت (ديجا). فتح (عابد) الباب بصعوبة وترجل عن السيارة، ففزعت من ورائه (ديجا) بعد أن تجمّد تفكيرها للحظات واستعادته مرة أخرى.

"ثواني، ثواني! إنت رايح فين؟"

"خليني طيب أساعدك..."

"أنا هكّلم أي مسئول هنا عشان ياخد باله منك ويحطّك تحت رعاية الكنيسة."

تمنّع، تمنّع (عابد) وهز كتفه مُصدِرًا غرغرة من بين فكيّه، ورغم أنا (ديجا) حاولت أن

تُهدِّئه وتحتوي هياجه، إلا أنها لم تستطع. كان ينتفض ويهتز كالمجنون.

أصابها ابتئاس شديد، وردّدت، "أنا مش عارفة إنت عايز إيه دلوقتي؟"

"إنت عايزني أسيبك تروح لحالك؟"

"إنت عايز كدة؟"

سكن (عابد)، ولما سكن لملم حاوية القماش من على الأرض وسار مبتعدًا عن (ديجا)، كان مبتعدًا، تاركًا إياها في حيرتها، لكنه أسقط عينًا عليها، ترسم ملامحها، أما العين الأخرى فكانت موجّهة صوب مبني الكاتدرائية.

"وأديك إنت كمان روحت؟!" أردفت (ديجا) وضربت كفيها على فخذيها من الضيق.

ليس ببعيد عن المكان، طرح (عابد) لباسه الذي كان يُضايقه بتأفف وتشنج، وفتح حاويته القماشية وأخرج رداءه القديم، ذلك الرداء المهلهل الذي يفرح كلما ارتداه، بقذارته، بتمزقه، وبأجراسه.

زمجرت (ديجا) وطرقت الأرض بقدمها، كانت تُفكّر في أمرين، بين المُضي قدمًا إلى داخل الكاتدرائية وبين التراجع. ربما إن لم تكن الأحداث الفجائية التي حدثت لها ليلة البارحة، لكان رأيها مختلفًا تمام الاختلاف، أما في ذلك الوقت، فكانت لا تعرف حقًا. كانت تحاول التركيز على ما تريد أن تصل إليه وحسب. لا تعرف معنى العيد ولا طبيعته الروحانية. لا تعرف كيف تتحرر من هواجس صدرها الضيق.

الممر الأبيض المقوس سقفه، كثير من الناس كانوا يأتون. من بينهم (ديجا) التي كانت

تأنى قليلًا عن خطواتهم. كانت تشعر بغصّة في حلقها في نفس ذات الوقت الذي تشعر فيه بلفحة البرد القادمة من داخل الكاتدرائية حيث البهو المُقبّب والتماثيل المُصوّرة في الزجاج.

بين الأقدام ترنحت، وقبل السجاد وقفت، أمام باب البهو الكبير مباشرة، أمام القاعة الكروية. تسأل نفسها ولا تسأل. حائرة تائهة لا تفهم. عند أطرافها يهمّ الحاضرون إلى الدخول مسرعين. بعضهم يصدمها لأنها كانت مُتسمّرة عند منتصف البوابة. عند الحد الذي يجب عليها فيه الاختيار، إما التقدم وإما العودة. كانت تظن أن الوقت متأخر وكان باكرًا. كانت تظن أن وجهها المعروف سيكشف حيرتها.

عندها، طرق الصوت...

"ديجا..."

صوت أجش، شديد الاتّزان، ومرتفع النبرة.

قطّبت (ديجا) حاجبيها وعقدت أنفاسها بعقد نارية، إجابتها كانت فورية، "منير!" ثم استدارت بحركة رشيقة.

أمامها مباشرة، رجل له هيئة ملكية، يرتدي نظارته الشمسية الباهظة الثمن. على الفور أشار بإصبعين إلى الرجلين الماثلين إلى جواره، فانصرفا مبتعدين، يصنعان طوقًا أمنيا من أمامه، ومن الوراء رجلان آخران يُكمِلان أركان المربع الذي يمتد إلى خمسة أمتار. لا تعرف الواحد منهم من الجسد المتضخم ومن السترات السوداء والنظارات القاتمة.

تكلم (منير)، وقبل أن يتكلم مر أحد القساوسة من بينهما، قائلًا، "منير أمونيوس! إيه الشرف العظيم ده!"

نهنه (منير أمونيوس) وقال، "الشرف العظيم ده ليّا. عام طيب وسعيد عليك وعلينا."

"بالتأكيد هتكون في فرصة تانية نتكلم، أنا حاليًا لازم أدخل،" وعينه تتجه صوب الشمّاسين ممن سبقوه إلى الداخل.

قال (منير أمونيوس)، "بالتأكيد."

بنظرة حانقة من تحت النظارة الشمسية إلى الرجال السود، أضاقوا الخناق على الرواق ومنعوا أي قدم تترجل بين (منير أمونيوس) و(ديجا).

تكلمت (ديجا)، "منير!"

"مش هتفرق كتير إذا كنتي هتقولي يا بابي أو حتى منير بس."

"الحقيقة وجودك هنا مش هيفرق كتير ولا هيشكل أي جديد."

"إنت متابعني؟" رددت (ديجا) بغيظ.

"بالتأكيد، أمال مين اللي خرّجك من البلوة اللي وقعتي نفسك فيها. مصيبة كانت ممكن تنهي حياتك وتدخلك السجن زي أي واحدة مجرمة."

بحسرة، "أنا مطلبتش منك تساعدني. أنا مطلبتش منك أي حاجة أصلًا."

"مش لازم تطلبي. أنا عملت ده علشانك."

"إنت عملت ده علشان محدش يقول إن بنت منير أمونيوس متهمة وفي احتمال إنها تدخل السجن."

"متحاولش تقنعني إنك فجأة بقيت بتهتم."

"هه هه،" قهقه (منير أمونيوس) بصوت خفيف وحدّق في (ديجا) بعد أن رفع حاجبًا وأنزل الآخر، ثم تكلم، "ومين هُوّا منير أمونيوس؟"

أجابت (ديجا)، "أنا معرفش، بس أقدر أخمن إنك واحد من الجهات السيادية اللي مسيطرة على البلد. هما اللي بيمشوا أي حركة سواءً سياسية أو اقتصادية أو حتى دينية. بمعنى آخر البلد في جيبهم الشمال. بيعملوا اللي هما عايزينه من دون أي رقيب ولا وصي."

كان (منير أمونيوس) يُشعِل سيجاره الخاص وقتما كانت (ديجا) تتكلم، ولم يكن يُعِيرها قدر الانتباه الذي تستحقه. كان يهتم بدوائر الدخان أكثر. بعدما أنهت حديثها، وجّه إليها الحديث المضاد بمقص الاصبعين وبينهما السيجار.

قال (منير أمونيوس)، "هو ده السبب، لسانك اللي عايز القطع، ولولا إنّي حايش عنك أيادي كتيرة كان زمانك في المعتقل زي أي كلب من الكلاب اللي قبضنا عليها."

انتفض البهو، وتكتل الداخلون. لم يصل أي منهم إلى (منير أمونيوس) أو (ديجا). رجاله السود كانوا يمنعون أي قدم تترجل ناحيتهما، وكانت الأصوات المتضايقة تتزايد، غير أنها نبرة متضايقة وحسب، ففي وجود الدببة المكتلة عضلاتهم، لم يتجرأ أحد على الاعتراض.

أكمل (منير أمونيوس) بحدة، "الكلام الأخير اللي قولتيه في برنامجك السخيف كلام خطير. ده تأليب وتحريض للرأي العام ودعوة

للمظاهرات في وقت البلد محتاجة فيه للاستقرار."

"أفتكر إنك آخر واحد تتكلم عن استقرار البلد. ملفك عندي موجود."

"مفيش ملفات يا ديجا."

"مفيش!" صرخت (ديجا).

"إنت كمان بتتدخل في أسرار شغلي وأوراقي ومصادري."

تكلم (منير أمونيوس) بنبرة رتيبة، "شوفي يا ديجا، إنتي آخر اللي اتبقوا من عيلتي. إذا كنتي من اللي هيحطوا نفسهم في الخطر عشان مجرد شعارات وتفاهات، يبقى لازم رادع. أنا بحميكي من نفسك اللي إنتي مش عارف قيمتها."

نعقت (ديجا)، "إنت عايز مننا إيه؟" وكان وجهها يزداد حمرة، "ما تسيبنا نعيش حياتنا وتبعد عننا."

"عذبت أمي، الست المحترمة، وبهدلتها."

مقاطعًا، "أمك اللي..."

فقاطعته، "ودلوقتي بتدور وتلف حواليّا. عايز توقّعني في شباكك تاني. أنا لا يمكن أصدّقك بعد المرة الأولى."

أكمل (منير أمونيوس) حديثه الأول، "أمك اللي جابته لنفسها."

الأنظار، الأنظار لم تكن كلها مبتعدة، أعين كانت تترصدهما. نظرات فرحة ونظرات متضايقة، مُتقلّبة بين هذا وذاك. شيء يجذب الأفكار بينهما، كلما رأى (ديجا) في

مواجهة والدها (منير أمونيوس)، تصيح فيه وتصرخ، كان سروره يزيد.

ذلك الرجل! كراهية متأصلة في صدره ناحية ذلك الرجل. كان يقبض على هاتفه الجوال ويعتصره، يعتصره بقوة، وإن كانت يده كالحديد لكسرته. لكن اللاشيء الذي اكتنف أواصره، أصبح واقعًا. هواجسه أصبحت مثل الأجراس تدق في عقله. كان يتتبعه منذ أن أتى، وكان يختبئ من نظراته ورجاله. عادة، كان يتلصص الساعة التي سيرى فيها تلك الفتاة التافهة في مواجهة والدها المقيئ. أصابعه على أزرار هاتفه، ولسانه الذي كان يتحرك بالكلمات، (نجيب رسول) كانت عينه تنفث النيران.

قال (منير أمونيوس) وكان لايزال مُحتفِظًا برباطة جأشه، "أمك أخطئت، ولازم تستحمل نتيجة خطأها. مش منير أمونيوس اللي يتلوي دراعه ويتهدد، وإذا كانت فاكرة إنها بإسلامها هتهرب من إيدي، يبقى بتحلم،" وأتبع، "أنا لو عايز أجيبها، هجيبها."

"بس أنا عامل خاطر ليكي. مش عايزِك تشوفي أمّك بتتبهدل وتتهان."

"أما إنتي، فأنا بنصحك، لكن النُصْح مش هيطول."

"لو مبطلتيش الطيش اللي بتعمليه، العواقب هتكون وخيمة. مش هقدر أحميكي أكتر من كدة وأخاطر بسمعتي عشان بنت طايشة غير متعلمة."

ردّدت (ديجا)، "إنت شيطان،" وكانت عينها ستدمع وكلماتها مُحطّمة، لولا أن يدًا امتدت على كتفها وربتت عليه برفق لما أفاقت.

بعدها تحسّست (ديجا) المنكسرة والتي طأطأت رأسها من الضيق إلى الأرض، وتشمّمت عطر والدتها، كان يفوح بقوة من فستانها الفضفاض، ومن بين خصلات شعرها الذهبية، خصلات تشبّعت بالألوان الرمادية، قوة تشبثت بها (ديجا) واستمدّت المزيد من رحيقها.

تلك المرأة التي طرق حذاؤها ومرت من خلال الرجال السود، لم تأبه إلا بابنتها التي رأتها أسيرة في فك الأفعى. لم تفكر فيما قد يحل بها لمجرد تجرؤها على الدخول في دائرة المستنقع الصغير. كانت قد أبعدت (ديجا) وأزاحتها من الطريق.

بقوة نظراتها وصلابة يدها العجوز المنتفضة، وقفت (نورينا) ومن خلفها (ديجا) رجلًا لرجل في مواجهة زوجها (منير أمونيوس)، والذي نفث الدخان بشراسة وكثر عبوسه.

****

" 22 "
أجراس

توقف الزمان إلا من أنفاس ونبض قلب. سكن الوجود بلحظات الانتظار التي لا تنتهي. تلك الأيدي التي كانت تمتد، وتلك النظرة المُرسَلة أعلى التبّة، تلك النيران التي كانت تشتعل في الأغوار، وذلك الهمس الذي كان يئن ويتساقط على المرجة الخضراء.

هناك حيث قررت الدنيا أن تجعل الناقوس يدق، أن تنتظر، شبحًا تتفاوت عليه ألوان النهار ذهابًا وإيابًا من دون أن يحرك، مُتشبّثًا في الأرض وكأنما ضربت جذوره كأوتاد الجبال. هناك حيث نامت الظلال، رافعة أطيافها إلى أحداب السماء بعد أن خضعت لليأس. أوراق كانت تتساقط شيئًا فشيئًا في أغوار الهاوية.

"نورينا، أنا بحذرك... بكرة آخر يوم ليكي..."

مُمدّدة في فراشها، كل عضلة في جسدها تؤلمها. كانت عينها مُتورّمة محمرة، لم تكن قد نامت. كان عقلها يُفكّر مليًا في مكالمة تلقّتها ليلًا أزعجتها وصبّت على روحها الخامدة البنزين. كانت قد نسيت، وأرادت أن تنسى وتستمر في حياتها، لكن حياتها لا تُريدها أن تنسى وتستمر بلا وعي موجع. لعل الشيء الوحيد الذي استوعبته من تلك المكالمة، هو أنها لن تنعم أبدًا بحياة هادئة هي وابنتها.

تمتمت (نورينا) بضجر، "أنا مش عارفة إنت طلعتلي من أنهي داهية."

"أنا ما صدّقت إني أخلص منك وأبعد أنا وبنتي."

ومن على الطاولة الصغيرة على يمين السرير، إلى جوار الأباجورة، حملت هاتفها النقال، وأجرت اتصالًا، ثم رددت بنفاذ صبر، "ما ترد يا شيخ خيري أرجوك."

"يووه!" ثم وضعت الهاتف وحملت الإطار الذي يحمل صورة ابنتها، ومسحت برفق عليه. كانت تنظر إليها بحنان. كانت ترقب كل لمحة من لمحاتها.

قالت (نورينا)، "متخافيش يا ديجا، أنا مش هخّلي المجنون ده يوصلك أو ينغّص علينا حياتنا. زمانك نايمة دلوقتي...."

"... بس! إحنا دايمًا كنا عايشين لوحدنا ومبسوطين، مش هخّلي الوقت ييجي وتجور عليكي الأيام زي ما جارت عليا."

كانت قد رفعت جسدها قليلًا واستندت على ظهر السرير. كانت تدمع رغم ذلك. من بين رموشها دمعة حائرة تفوق الدمعات التي أطلقتها على نفسها وعلى (ديجا). لعل في كلامه شيء أوجعها. عندما كانت تنظر إلى الصورة، كانت ترى أشياءً أخرى. كانت ترى الأمطار والشال. كانت تشعر بلفحات البرد ورماحه. جسدها النحيل لم يحتمل الضربات، فناخت.

سريعًا هزت (نورينا) رأسها وأبعدت تلك الصور عن رأسها، وركزت على (ديجا). تلك النواقيس بالنسبة لها كانت نذير شؤم. لا

زالت تسمع الأجراس في عقلها. رنين يتبعه رنين يتبعه رنين. كل رنين كان يحمل لها صورة من صور حياتها. أينما ذهبت وأينما أكملت عمرها. كانت لعنة الأجراس ترافقها. (ديجا) هي الوحيدة التي كانت تزيح عنها تلك الهواجس.

بجهد شاق، ومع تركيزها في صورة (ديجا)، لعلها تنفلت من سطوة الأجراس، إلا أن سطوة الأجراس كانت أشد وأَمَر.

ساعات الفجر لم تنه سطوتها التي امتدت طيلة ساعات هوجاء، تحمل معها من تقلبات الحياة. حب وحياة ثم افتراق. رسالة تريد أن ترسلها أو مجرد هاجس مخيف لم تدرك بعد عواقبه. كانت كثيرًا ما تخشى تلك اللحظة التي لن يُسمَع فيها صوت دخل بقوة في قرارة نفسها.

لم تتعلم أنها أتت إلى الحياة وحيدة وأنها سترحل وحيدة، وأنها لا يجب أن تُعطي مفاتيح حياتها أو قلبها لأي شخص آخر قد يُضِيع ذلك المفتاح في احدى لحظات الضعف التي أصبحت وكأنها إناء ينضح على الجميع في أوقات ضعفهم.

كانت ترسم لنفسها حلمًا جميلًا من أحلام لم تكن تؤمن فيها من قبل. استقرار اسمه العزلة لا يزعزعه أحد، ولعله الهدوء الذي يسبق العاصفة، ولعلها منحة الهدوء التي وُهِبت إليها ولن تجدها مرة أخرى.

عجيب هم أولئك الذين يحيون حياتهم من دون شيء سوى هدف في الانتصار والنجاح. تلتقي أهدافهم عند ساعات تمر من حياتهم ويوقنون أنه الوفاق إن لم يكن الحب. تمر من بينهم

كشبح الجنون، شاقة طريقها إلى أمواج عارمة تأتي صباحًا أو مساء. رياح تعوي من حول الجميع، لا يُبصِرونها ولا يُبصِرون سوى خطوات يُسرِعونها.

هناك حيث اتكأت في ليلة من ليالي الصيف المُقتِم، وألوان النجوم فوق رأسها وأنوار في بحار سوداء تبرق بوهن.

طرقات على الأبواب...

رجال ونساء...

حزينة بائسة، ضعيفة ويائسة...

رجل يتكلم، "اللي انتي بتدوّري عليه ده مش موجود يا بنتي؟"

"مش موجود!"

"الولد مشي مشوفنهوش، والأب ومراته وبنتها عزّلوا من هنا."

آلام اضطراب البطن...

كانت تلتحف بملابس فضفاضة رمادية، أوشحة ربما تخفيها عن الوجود بأسره.

كانت هناك وظنت أن في بحور الرمال سر أسرار حياتها الماضية. وكأن مع أصوات الموج القادم من عباب الليل هواجس وأضغاث أحلام في عقلها الصغير، وأنفاس متقطعة قلقة دفعتها لأن تنسى الناس والعالم والكون بأكمله. دفعت يدها إلى وراء المتكأ الحجري المُكسّر.

للحظة صغيرة دفعت رأسها المغبرة صوب النجوم، ومن خلال أذنيها تسمع ضوضاء السكون الرهيب، سكون سكن خيالها وفي

بؤرتي عينيها نقاط النجوم التي انتشرت في مجال الكون.

همسة وصوت، ضحكة كانت تعلو باستمرار وصور تتقاذف إلى عقلها، لقاء وافتراق، حنين، حب ووفاء، ضعف من بعده انكسار، ولحظات خضوع تستمر طويلًا. قوة، لوم وعتاب، كل الأمواج كانت تُلاطِمها. تحمل أحلام الماضي في صور كوابيس تؤرّق مأسوريها.

"إنتي قاعدة هنا ليه يا بنتي،" قال صوت أجش لرجل مُغبّر بسيط الحال.

"أنا!! أنا..." دموع تزحف، وجه على الأرض، لم تعرف ماذا تقول.

قال الرجل وكان عجوزًا، "وحِّدي الله يا بنتي، أيًا كان اللي شاغل بالك وقاهرك، ربنا هيفرجها. ربنا مبينساش حد."

من جواره مرّت امرأة عجوز وكانت بالكاد تمشي وكانت تحاول أن تُسرِع خلف زوجها العجوز. لما دنت منه قالت، "مش تستناني يا أبو عمرو،" وضحكت رغم أنها تلتقط أنفاسها.

"مبقناش شباب زي زمان. خلاص عجّزنا يا راجل."

شابة مُتخوّفة، تُمسِك بطنها وتحاول أن تخفيها ريبة وتوجّسًا وقت أن رأتها السيدة وتكلمت إليها، "إيه ده مين الحلوة دي؟" وكانت برغم حالتها السيئة، شديدة الجمال.

بلمحة خاطفة رأت السيدة الصليب على معصمها رغم أنها كانت تلتحف جيدًا كي لا يظهر أي شيء منها، فاقتربت منها ووضع

كفها على كتفها، وقالت، "متقلقيش يا بنتي. متخافيش مننا."

هدأت ولما هدأت سألتها، "إنت اسمك إيه يا حبيبتي،" فأجابت من توها، "نورينا."

قالت السيدة، "ما شاء الله، اسمك جميل."

قالت السيدة بعد أن نظرت لزوجها نظرة واحدة، "تعالي يا حبيبتي، مش المفروض تقعدي في مكان مقطوع زي ده."

"إحنا ساكنين قريب من هنا. تعالي اقعدي معانا على الأقل لغاية الصبح. بعدين يحلّها ألف حلّال."

(نورينا) المتردّدة شعرت أن الأمور تسير تباعًا. اعترضت وفضّلت البقاء، لكن إصرار السيدة وزوجها العجوز كان أقوى منها. لم يسألاها عن ماهيتها. لم يسألها عن عائلتها وعن مسكنها. لم يسألاها عن الأسباب التي دفعتها للجلوس في ذك المكان. رحّبا بها وحسب، وأسدلا لها ستائر المعروف.

بيتهم القديم وحجراتهم الضيقة، تكلمت السيدة ببشاشة، "دي أوضة بنتي. هيّا... هيّا ماتت... ماتت وهيّا صغيرة. كان زمانها قدّك دلوقتي في السن."

"أنا آسفة،" قالت (نورينا) وكانت نبرتها حزينة متعبة.

قالت السيدة، "متتأسفيش يا حبيبتي، ده قضاء الله. قدّر الله وما شاء فعل،" ثم أكملت، "ابننا الوحيد عمرو شغال في الخليج، في العراق، لو ليكي حظ ممكن تشوفيه هو كام يوم وينزل أجازة."

ابتسمت (نورينا) في وجه السيدة ولا تعلم من أين لها بطاقة الابتسام.

طاقة الأيام... ساعات برغم طولها قصيرة...

أتت، فوقفت، وتمالكت نفسها للحظات قبل أن تقع عينيه الخجولتين عليها فيرى فيها كل أحلام الحياة الماضية والآتية. رأى على خدّيها نتوءًا عجيبًا أوجس في قلبه حب الحياة وامتطاء صحوة الجرأة العجيبة كي يتقدّم نحوها. كان قد انتظر طويلًا مثل تلك اللحظة الفارقة في حياته. سريعًا مدّ يده ناحيتها وهي تبتسم، ولا يبتسم سوى قلبه النابض بإحدى أسرار الحب.

شعر بها وشعرت به، كانا برغم بعدهما قريبين. من بين يديه أمواج البحر في ليل دامس، أرسلت إليها بدلًا من الفرح الفراغ، فعادت إلى ما كانت تخشاه، وعاد ذلك الجرح الذي صنعه الزمن، فلا هو يلتئم ولا هي تقوى على نسيانه أو السيطرة عليه.

هي، ذلك الشخص الضعيف الذي لم يعد يرى في الحياة هدفًا يرنو إليه، وإن رأى ذلك الهدف ظن أنه بلا قيمة أمام حلم ظل يطارده لأعوام، فتلاشى من بين يديه وكأنه السراب الذي كان يُدركه منذ أن رآه، غير أنه لم يكن يريد أن يُصدِّق.

هو لا يستطيع أن ينام أو يتحدث، وهي لا تستطيع أن تنام. لا تعلم إلى متى ستظل أسيرة لهذه الحياة التي لا ترى معالمها، وكيف لهذا الشخص القوي أن يقع ضعيفًا أمام أصوات الماضي التي لا تنفك تؤرِّق عليها فرحتها وحريتها، فحتى وإن أشاحت بعينيها عنه أو رفعت كفها على عينيها، فلن تتغير

حقيقة أن البحر مظلم وعميق، وأن أضواء الأفق ليست سوى نقاط من نقاط تاريخها الخاص.

هو لن يُغيّر من الماضي من شيء رغم أن للماضي علامة من علامات الحاضر. كانت تريد وتتمنى الحياة...

أحبته وأحبها، وصارت تضع يدها في يده. هو من احتواها وهي من احتوته. علّمها أن الحياة مواجهة، وأن عودها لابد أن يشتد كي تقدر على مجابهة الصعاب. كانت ترى فيه كل أمل جميل. كانت تُكلّمه وتسمع بلا ملل. كانا معًا في طريقهما، يسيران بتعقّلٍ وكانت الشهور قد مرت، وبدأت بطنها في البروز.

كان يعرف؟ بالتأكيد أخبرته.

ضحكة تتبعها همسة ومزاح. ذراعٌ في ذراعٍ وجسد يكاد يُلاصِق الجسد. في طريقهما كانا يمشيان. ليلة الأحد، وليلة الأحد تحمل عندها طابعًا خاص. كان يُخبِرها أنه يريد أن يتزوجها، وكانت صامتة ساكنة برغم فرحتها. جل ما فعلته أنها مالت إلى كتفه وغاصت فيه. غاصت فيه إلى درجة أنها رأت سطور حياتها المقبلة، حياتها التي كانت تطير.

"هوّا إحنا رايحين على فين دلوقتي يا عمرو؟"

"هه هه! إنتي لازم تعرفي يا حبيب عمرو؟"

"متبقاش رخم بقى وجاوبني."

"يا ستي إحنا رايحين لواحد شيخ."

"شيخ!"

"أيوة، عشان أتجوزك، وأبقى أبو الواد ولا البنت اللي في بطنك؟"

قالت في خوف، "إنت صحيح هتتجوزني حتى باللي موجود في بطني؟"

بنظرة رفق، "الله حليم ستّار،" وأتبع مُغيّرًا نظرة الحزن بابتسامة، "ألا صحيح؟ إنتي ناوية تسمّيه ولا تسمّيها إيه؟"

"شوفي أنا عن نفسي، لو واد هسميه نادر، ولو بنت...!! ولو بنت هتسمّيها إيه؟"

بعد أن وضعت كف يدها على بطنها، قالت، "لو بنت! هسميها لينا."

"لينا!"

"لأ، أنا رأيي تسميها...."

ودقت الأجراس في الكنيسة، دقات يوم الأحد، دقات تتبعها دقات القلب من بعد عين مستبشرة جحظت على حين غرة. امرأة في منتصف الطريق تصيح، صُراخها يجمع الخلق من حولها، يُشاهِدون طريقتها في الجنون، تُلقِي بطرحتها وتدوس عليها، تنفض وتُمزّق ملابسها. أمام الكنيسة كانت تُمسِك بأحدهم وتضربه بنعلها.

رجل شيخ كبير...

"إنت رايح فين؟ عمرو، استنى... رايح فين؟"

"في خناقة هناك."

"استني كدة؟"

"أنا شايف فضيلة الشيخ."

"ملناش دعوة،" لكن يده سبقت يدها وكان يسبقها إلى الجمع الغفير.

كلماته قابلتها السيدة بالزعيق. رجل ضخم الجثة عرف هيأته كان يقف من ورائها، وينعق، "في إيه يا إنصاف؟"

"تعالى يا خويا شوف البلاوي اللي بتتحدِّف علينا."

"يا بنتي عيب كدة، أنا راجل شيخ كبير. ميصحش الكلام اللي بتقوليه."

"يصح مين يابا وهو يصح إنك تتحرش بواحدة حُرمة، إيه يا عم؟ مفيش نخوة؟"

"احترم نفسك يا عدنان،" زعق (عمرو) والذي تدخل في المشاجرة بحزم.

الاحترام يد في يد وانتفاخ في العين.

"هو فيه إيه؟" سأل أحدهم (نورينا) وكانت عينها لا تُفارِق (عمرو)، وجوابها بأنها لا تعرف.

لما رأى الجمع الغفير ولمح الشيخ في منتصفهم، شمّر عن أكمامه، ورفع جلبابه وعقده، ونعر فيهم، "مفيش غير خيري اللي هيوقفك يا عدنان الكلب."

قبضة في الوجه وضربات بعصا تفوق قبضة اليد على الأسفلت. ولد نحيل الجسد، غائر الوَجْنَات، حز على رأسه يقطر دمًا، وهياج على وجهه وأعصابه.

كان أمام ناظرها، رأته ينتفض ويقبض على عصاه ويرطمها على رأس (عمرو). كان أمام ناظرها لكنه أصبح جسدًا خاويًا. هلعها فاق حدود السماء وصرختها أتت من أحشائها،

ربما صوت في صوتين. حياتها الهلامية كانت كقطعة الزجاج التي قُذِفت في السماء لتتكسر على الأرض. كل ثانية وكل عصب من أعصابها، وكل طائر كان يطير أمام الكنيسة من بعد دقات الأجراس.

دقات طالت، جسد تهاوى فتبعثر على الأسفلت، قلب متوقف تمزق. صرخت ودوّت صرخاتها برنين الأجراس. أشلاء وحسب. أشلاء أصبحت أحلامها. (نورينا)، التي تكسّرت ملامحها، أبصرت (عمرو) غارقًا في دماء الموت، ساكنًا، فابتعدت.

برغم هروبهم وتجمّع الناس من حوله إلا أنها سارت بعيدًا، رحلت ولم تعد.

ألم تكن قد ابتعدت كثيرًا؟

في غرفتها كانت تبكي، تلتحف بوشاح الصلاة بعد أن حاولت مرارًا أن تلفّه ولم تستطع، حتى وضعته وحسب على رأسها ليُغطّي شعرها. لا تعرف صوب أي اتجاه أو أية طريقة تستخدم. لا تعرف ما ستقوله ولا ما ستفعل.

كل ما تعرفه هي كلمة واحدة ردّدتها، "الله أكبر،" أطالت فيها على قدر ما تستطيع، ثم صمتت.

صمتت وفي جوفها يسكن حديث طويل. كانت تشعر أنها مُحطّمة لأنها لا تعرف الصلاة، لأنها لا تعرف كيف تُمسِك أطراف حياتها، لأنها لا تدرك تبعات خطواتها. كل ما كانت تريده هو السكينة.

(نورينا) التي أشاحت الوشاح عن رأسها، وقامت من بعد يئسها لتدلف إلى غرفة ابنتها، في اشتياق وحيرة من وجوم قدومها

في ساعة متأخرة، ورغبة في الاطمئنان عليها.

"ديجا..."

"ديجا!!"

لم تكن هناك.

قلب ينعصر بمرارة.

كانت تُتمتِم ولا صوت يخرج منها، حتى أظلم البيت وأغلقت الباب.

****

في مكتبه وبين كتبه في الكاتدرائية المرقسية قبع (نجيب رسول)، كان يُبدّل الفرجية السوداء ويرتدي التونية البيضاء والطيلسانة والأكمام والبطرشيل ويتممها بالبرنس. يُرتّب كتبه ويضعها على الرفوف في مكانها الخاص بنظام يعرفه هو وحسب. كتبه التي تحمل أفكارًا محددة كان يضعها بترتيب الحروف الأولي كل أربعة كتب، وعلى هذا كان يقيس بقية الرفوف، وبهذه الطريقة كان يصل إلى الكتب بطريقة أسرع.

ساعة أن ترجل تاركًا الغرفة، نبّهه رنين الهاتف.

"ألو."

"أيوة يا أبونا. أنا موريس."

"أيوة يا موريس، اتكلم."

"أقولك إيه ولا إيه بس. الدنيا هنا شايطة مولعة، وباين إن في حوار كبير هيحصل."

تكلم (نجيب رسول)، "خلّص يا موريس. قول اللي عندك. أنا مش فاضي."

"حاضر، حاضر يا أبونا، أعذرني."

"في خناقة لرب المسيح هنا في الحارة."

"وأنا إيه علاقتي بالخناقات؟"

"يا أبونا، في واحد بلطجي كان مسجون من سنين طويلة، ظهر النهاردة في الحارة ووقف وش لوش مع خيري شهاب."

"خيري شهاب!" تمتم (نجيب رسول).

"أيوة يا أبونا. أنا قلت أبلّغك أحسن الموضوع كبير."

"بس أنا حاسس إن في حاجة مريبة."

"أصل كلنا عارفين إن البلطجي ده ممسوك في قضية قتل."

"يعني مستحيل يخرج."

"قضية قتل!"

"تمام كدة يا موريس. بلغني أول بأول أي حاجة بتحصل."

"روح إنت دلوقتي، في رعاية المسيح."

تحدّث (نجيب رسول)، "شكل يومك قرب يا خيري،" وكانت عينه صفراء حانقة.

بعد انتهاء صلاة اللقان ورشم جميع الحاضرين في جباههم وتوجه الكاهن إلى الهيكل ليبدأ رفع بخور باكر كما يرفعه في عيد الميلاد المجيد وفتح الستر، لتبدأ صلاة الشكر الفرايحي، القطعة الأولى من ذكصولوجية باكر بطريقة أرباع الناقوس الفرايحي.

لم يكن (نجيب رسول) مشاركًا عند رفع بخور باكر لليلة المعمودية. كان يتقلب في هواجسه المستمرة.

رائحة البخور لازالت عالقة في أجواء العيد، أول أيام العيد، الليلة الحادية عشرة من شهر طوبة في الرزنامة القبطية، التاسع عشر من شهر يناير في الرزنامة الميلادية.

أجواء اجتمع من أجلها الناس وتفرّق من أجلها الناس، وحملت العائلات أطفالهم بعد تغطيسهم لتحل عليهم البركات ويتمسّحوا بالنِعم. لا صياح ولا بكاء وربما القليل من الدموع.

عند باب البهو الكبير، وقف وفي يده هاتفه النقال، يرتدي ملابسه الميري الضيقة، يلتفت هنا وهناك. ينفخ ليخرج من أعماقه الجمرات.

وقف عنده وقال، "كل حاجة متأمّنة يا باشا. الرجالة طوقوا كل خرم في المكان."

بنبرته الجافة أجاب، "تمام يا سيادة الملازم. روح إنت شوف موقعك،" وقبل أن يرحل الملازم أكمل، "إمبارح كان الرئيس هنا والأمور مشيت بصورة كويسة. مش عايزين مشاكل لغاية ما يخلص العيد بتاعهم."

سريعًا تراجع، وقال، "بتاعكم... العيد بتاعكم."

"يالّا يا سيادة الملازم، شوف مهامك. معندناش وقت نضيعه."

شيء ما كان يأكل أصابعه. تريد أن تمتد وتُمسِك سيجارة، ليحشرها في فمه، ويدخن،

غير أنه لا يستطيع في ذلك المكان بالتحديد، وهو ما وصمه بالعصبية وقلة الحيلة. ما بين الفينة والأخرى، يرمق الساعة ليرى أن عقاربها لا تتحرك، فقال لنفسه بصوت مكدّر، "باين له يوم نيلة من أوله - أووووف!"

عند ظله الممتد، والذي اختفى بعد أن قطع الضوء عنه، قال، "النقيب شادي عسر،" وكانت له لكنة خاصة عرفها (شادي عسر) من توّه فاستدار ليقابله.

"واضح العصبية والضيق. واضح كمان إنك عايز تدخن بس مش عارف."

أومأ (شادي عسر) وكأنما يخبره عن الحالة المُتعسّرة التي وصل إليها.

"تعالى معايا، أنا كمان عايز أدخن."

تاركين من ورائهما الدرجات السبع والمقعد البابا‌وي، المحروس بالأسدين على السجاد الأحمر، إلى جوار صور المسيح، والصليب المعلق الذي يعلوه تمثال المسيح مصلوبًا عند السقف المقبب.

تبع (شادي عسر) من معه إلى البهو الخارجي، حيث كان بإمكانهما التدخين عند مكان نأى عنه الناس.

"غريبة إنك تبقى موجود هنا يا حضرة النقيب!"

"لأ، بالتأكيد ده مش من التزاماتي، أنا موجود لدواعي أمنية من الوزارة بس. التأمين مش دوري..."

"... بس غريبة إنك بنفسك، القمص نجيب رسول، تيجي وتكلمني. هل أفترض إن في حاجة معينة ولا ده يبقى مجرد تخمين؟"

ابتسم (نجيب رسول)، وابتسم (شادي عسر) ابتسامة مغايرة، كل منهما ينظر إلى الآخر بتمعن وكأنه الوجه الآخر للعملة. (شادي عسر) يعرف من (نجيب رسول) جيدًا. ملفه أصبح ثقيلًا في درج مكتبه، غير أنه ضمن الملفات المنسية أو بالأحرى الملفات التي تنتظر سقوط صاحبيها. (نجيب رسول) سيظل الملف الأول دائمًا في قائمة الانتظار، و(شادي عسر) يعرف ذلك جيدًا.

على النقيض، (نجيب رسول) يعرف طريقة صعود (شادي عسر) إلى مقعده وطريقة تمكنه من فرض السيطرة عليه برغم صغر سنه ورتبته. (نجيب رسول) يعرف من يقف وراء (شادي عسر)، عضو ثقيل يقبع في الظلال، يُحرّك الكثير من الخيوط. عن طريقه يتم توجيه (شادي عسر) إلى وجهات محددة، فبالنسبة إليه، (شادي عسر) مجرد عروس الماريونيت، لا قيمة له على الإطلاق.

نظراتهما الخبيثة قطعها (نجيب رسول)، كان أول من بادر بالكلام، "أنا عارف إن حركة كراكة دي حركتك إنت..."

مصّ (شادي عسر) شفتيه، ولم يتفاجأ، بل قال، "وأنا عارف ميولك الغير موثوق فيها."

"تفتكر لو كل واحد فينا قال اللي يعرفه عن التاني، هيخلص."

"بالتأكيد، لأ،" أجاب (نجيب رسول) بغرض. تابع بعدها، "بس أنا عارف إن في الوقت

اللي بنتكلم فيه دلوقتي، كراكة زعيم البلطجية مجمع البلطجية بتوعه وبيتحدّى خيري شهاب،" وقالها مرة أخرى، "خيري شهاب..."

ارتبك (شادي عسر)، ربما لأن تلك لم تكن الخطة التي كانت تدور في مخيلته، غير أنه أعطى التصريح الشامل لـ (كراكة) ليفعل ما يحلو له.

على الفور أكمل (نجيب رسول) وكان يرمق (شادي عسر) بحدة بعد أن لحظ ارتباكه، "بس أنا ممكن أساعدك."

لمح (شادي عسر) المربّع من حولهما، خاليًا من أي شخص قد يتدخل في محادثتهما، بعدها تكلم بوضوح، "وإنت مستفاد إيه من الموضوع ده؟"

قال (نجيب رسول)، "خيري شهاب..."

رنين الهاتف! لم يجبه في بداية الأمر. كان ينظر إلى (نجيب رسول) والذي أشار إليه برأسه ليتكلم.

كان يضحك، "متقلقش أنا محضّر مغرز مش هيقدر يهرب منه. إذا كان فاكر إنه هيهرب، فإحنا متابعينه كويس وراصدين كل تحرُّكاته."

لم يكن ببعيد عن الأحداث. قال من الجانب الآخر، وكان الهرج والمرج صاخبًا، "أيوة يا باشا. ألو! ألو! سامعني يا باشا؟"

تحدث (شادي عسر) والوجوم على وجهه، وعينه لا تفارق (نجيب رسول)، "إيه الجديد عندك؟"

"شكلها هتحصل مجزرة هنا يا باشا ما بين كراكة وخيري شهاب."

"المكان مشعلل والناس متجمعين وخناقة هتقوم."

سمع (نجيب رسول) أطراف الحديث وخمّنها، ولما أراد (شادي عسر) أن يُجِيب، همس له (نجيب رسول)، "ده مش وقت تدخل القوات. لو بعت قوة عشان تقبض على كراكة وخيري شهاب مش هتلاقي الاستفادة اللي إنت عايزها."

"خليهم يطحنوا في عضم بعض الأول وخلـ..."

"... وخليه يقعد بعيد يتابع الموضوع كويس وينقلك الأخبار. في الآخر هتطلع بالنتيجة اللي مستنيها،" وغمز بعد أن هز رأسه مُشجِّعًا إياه.

بتلجْلُج، وبعد أن فكر تفكيرًا ممتدًا، تكلم (شادي عسر)، "تمام، بلغني أول بأول وخليك بعيد دلوقتي."

قال (نجيب رسول)، "مش هتندم..."

"دي نصيحة من صديق يهودي. صديق عزيز عليّا كانت أعرفه من زمان. هو اللي قالي: استني للآخر يا نجيب. كل ما هيجيبوا، هتجيب."

"السياسة إنك ترمي الطُعم وتمسك الشبك في إيدك لغاية ما يجي الصيد."

أنصت (شادي عسر) ولم يُعقّب، وكانت لمحاته صبيانية طامعة.

قاطع بعدها (شادي عسر)، "وهي وصلت لليهود! رجل دين مسيحي زيك يكلم يهودي!" وعلى ما يبدو، اهتز حِسّه الأمني.

قال (نجيب رسول)، "من اليهود ناس جدعان قوي، تاخد منهم الكلام وتعمله، وزي ما

إنتم المسلمين بتقولوا، كلها أديان سماوية."

"إنت بتتكلم عن اليهود؟" استفسر (شادي عسر) بعصبية.

"أنا بتكلم عن اليهود اللي كانوا من ضمن شعب مصر. مبتكلمش على الصهاينة والمجدِّدين من أبناء إسرائيل. أبناء إسرائيل لعنة من لعنات الزمان.

وَيَجْلِبُ الرَّبُّ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعِيدٍ، مِنْ أَقْصَى الأَرْضِ، أُمَّةً لاَ تَفْهَمُونَ لُغَتَهَا، فَتَنْقَضُّ عَلَيْكُمْ كَالنَّسْرِ. أُمَّةً يُثِيرُ مَنْظَرُهَا الرُّعْبَ، لاَ تَهَابُ الشَّيْخَ وَلاَ تَرْأَفُ بِالطِّفْلِ، فَتَسْتَوْلِي عَلَى نِتَاجِ بَهَائِمِكُمْ، وَتَلْتَهِمُ غَلاَّتِ أَرْضِكُمْ حَتَّى تَفْنَوْا، وَلاَ تُبْقِي لَكُمْ قَمْحًا وَلاَ خَمْرًا وَلاَ زَيْتًا وَلاَ نِتَاجَ بَقَرِكُمْ وَنِعَاجِكُمْ حَتَّى تُهْلِكَكُمْ. وَتُحَاصِرُكُمْ فِي جَمِيعِ مُدُنِكُمْ حَتَّى تَتَهَدَّمَ أَسْوَارُكُمُ الشَّامِخَةُ الْحَصِينَةُ الَّتِي وَثِقْتُمْ بِمَنَاعَتِهَا فِي كُلِّ مُدُنِكُمْ. فَتُحَاصِرُكُمْ فِي جَمِيعِ مُدُنِكُمْ فِي كُلِّ أَرْضِكُمُ الَّتِي يَهَبُهَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ لَكُمْ. (Deuteronomy 28: 49-52)

غزا نبوخذ نصر القدس، حرقه، ودمر معبد سليمان. ثم تولّى بنو إسرائيل ورحل الأغلبية عبر إمبراطوريته البابلية. وهذا كان الوفاء بنبوءة موسى.

وَكَمَا سُرَّ الرَّبُّ بِكُمْ فَأَحْسَنَ إِلَيْكُمْ وَكَثَّرَكُمْ، فَإِنَّهُ سَيُسَرُّ بِأَنْ يَفْنِيَكُمْ وَيُهْلِكَكُمْ فَتَنْقَرِضُونَ مِنَ الأَرْضِ الَّتِي أَنْتُمْ مَاضُونَ إِلَيْهَا لِامْتِلاَكِهَا. وَيُشَتِّتُكُمُ الرَّبُّ بَيْنَ جَمِيعِ الأُمَمِ مِنْ أَقْصَى الأَرْضِ إِلَى أَقْصَاهَا، فَتَعْبُدُونَ هُنَاكَ آلِهَةً أُخْرَى مِنْ خَشَبٍ أَوْ حَجَرٍ لَمْ تَعْرِفُوهَا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ، (Deuteronomy 28:63-64)

قال (شادي عسر)، "مش هتكلمني عن اليهود والصهاينة! إحنا عارفينهم كويس في الإسلام. العداء ما بينا وبين إسرائيل مش عداء دين ولكن عداء عدوان..."

"... بس تفتكر، هل لسه في يهود في مصر؟"

ضحك (نجيب رسول) وقال، "اليهود في كل مكان. اطلع على المعبد اليهودي وإنت تعرف."

حيرة (شادي عسر) لم تدم طويلًا.

كان قد رأى أحدهم، فاستأذن من (نجيب رسول) وهبّ مُسرِعًا، بل راكضًا إليه.

رأى رجلًا ضخم البنيان، تسبقه بطنه، شديد بياض الوجه، يرتدي نظارة شمسية. تكاد تُخفِي شاربه الذي يشبه شارب الملك فاروق، بل وكان يماثله في تضاريس جسمه وطريقة وقفته. يرتدي بزة رسمية رمادية، مكتوب عليها بأحرف صغيرة، ويعلق في جيبها ساعة ذهبية قديمة، تتدلى أطراف سلسلتها.

دقت الأجراس، أجراس كانت تدوّي في رأسه وحسب. كانت تدوّي عاليًا لدرجة أن أذنه كانت تهتز. نفس الأجراس التي كان يسمعها صغيرًا. كان يشعر بالنيران على جسده.

أما اليوم فكان يسمع الأجراس ويشعر بالقوة بين يديه.

كان يشعر بالانتصار الساحق.

تلك الضربات سريعًا ما تعود لصاحبها.

كل خطوة كان يخطوها ذلك الرجل، كانت تدفن في قلبه المزيد من الأحقاد. مقته الشديد

كان يبدو جليًا على وجه، وتأففه لم يكن إلا من سرعة ركض (شادي عسر) ليلقاه.

لكن الحال سريعًا تبدّل، ورغم مرور الوقت إلا أنه كان قد توقف.

وردة برغم شيبتها لازالت عطرة. كانت تتلفت على اليمين وعن الشمال بلباسها الأبيض. وشاحها الذي تضعه على رأسها، شيئًا ما يُخِفي قليلًا من شعرها.

كانت حائرة وكأنما تبحث عن شيء ما.

تُمسك الوشاح من الطرف وتحشره في حقيبتها.

من وراء العامود وقف (نجيب رسول)، يُردّد في نفسه الأسامي القديمة...

****

" 23 "
سكاكين

ربما مرت الساعات سريعًا لأنه كان يتنفس باطّراد في تمام ثلث جديد بعد الساعة العاشرة...

في مُتّكئ على مضطجع فوق الأرض كان يجلس، أمام أنوار الصباح، وكان في مواجهته جمع ليس بالقليل، ربما يزيد عن العشرين أو أكثر. كان قد وقف طويلًا وهم في شوق ينتظرون، يتكتّمون ولا يتكلم. كانت أصابعه الشيباء ترتجف، وكان الشغف فيهم ضعفًا.

أنوار الصباح لم تكن تتخلل بذاتها من خلال نوافذ المسجد الذي فُتِحت أبوابه وأُغلِقت إلا على شيء يسير من الناس، الذين زاد صخبهم وتغبّرت أطراف أقدامهم بالتراب، وهبّوا إلى أعمالهم ودنياهم يتسابقون.

امرأة سوداء، بشرتها طينيّة، ملابسها معتمة، تفترش البساط وتضع الخضار عند باب المسجد، وعندها وقفت النسوة يثرثرن، يتقايضن فيما بينهن ويعبثن، ونسوة في المدينة سائحات وبعضهن يعبسن، يحملن على رؤوسهن الأثقال تباعًا، لا يتعبن ولا يكللن. الواحدة منهن بألف من الرجل ربما أو يزدن.

أمام المسجد مباشرة امرأة تختفي تمامًا في نقابها الأرجواني، لا تُظهِر حتى مقلتيها. كانت تقف كثيرًا وتنتظر، ولا زالت تنظر وما باليد حيلة.

ألم يكن العيش هيّنًا عليها وعلى أبنائها؟

ألم تكن تخبز المعروك قبل القمح لتطعم صغارها؟

لماذا تبدّلت الحياة غير الحياة؟

لماذا صارت الصورة المرسومة في عقلها لا شيء غير الدمار؟

كانت تبكي، ألا إنها كانت تبكي بمفردها على حالها ودنياها.

تمتمت بوجلٍ في نفسها، "أبصر إيش وأبصر إيش..."

"يا رب يا موجب الرحمة، ارحم عبادك يا كريم. مدهرنة كنّي ستينية وأنا بنت العشرين."

"سوريا يا كريم يا مغيث."

لم تنقطع عن البكاء أو الانتظار...

أما الذين جلسوا بداخل المسجد الموارب بابه، أرادوا أن يسمعوه أو أن يكلموه، هم من طلبوه كي يسألوه في دينهم ويستأذنوه. كثر اللغط واعتلت الطيور الرؤوس، فليلة البارحة كانوا يتساءلون عن الناس الذين في تيههم ضائعون، عن ليلة العيد وعن المغضوب عليهم وعن الضالين.

مصّ الشيخ لعابه وتذوقه من تحت لسانه، كانت فيه مرارة لاذعة. يسند راحة يده على قدمه، يميل يمينًا ويميل يسارًا، مُغمّض العين، غير مرتاح البال، وكأنما يستحضر الأحاديث.

لمّا تكلّم بعد طول انتظار وبدأ في الحديث، قال: "الحمد لله..."

"... الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتّقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله المُرسَلين وقيُّوم السماوات والأراضين، وأشهد أن نبيَّنا محمد عبده ورسوله خاتم النبيين وإمام المتقين، وقائد الغُرِّ المُحجَّلين، اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمدًا، وعلى آله وصحابته أجمعين، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين."

نهنه الشيخ ليفتح مسالك حنجرته، وأكمل:

"والأُخوّة تعني أيضًا: كف الأذى، فالمسلم حقًا من كمل إسلامه بسلامة الناس من إيذاء لسانه ويده، وما في حكمهما، كما جاء في (الجامع الصحيح للإمام البخاري - رحمه الله - بإسناده عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم) أنه قال: المسلم من سلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه."

نهنه الشيخ مرة أخرى، وأردف، "فالمسلم ليس بالبذيء ولا الجبار، وعلى خلاف ذلك، فليس بالضعيف ولا المستكين، فلقد أعزنا الله بالإسلام وبكلامه، فلِم نرضى بغير دين الله وأحكامه؟ فالدين بيّن والحديث بيّن، لا اختلاط فيهما."

أراد أحدهم الكلام وكان شابًا مزغب الوجه، قليل شعر الشارب، فقال الشيخ بعد أن أومأ برأسه وكأنه فهم ما يريد الشاب، "حال الإسلام لا يسر، حينها غير حال الإسلام اليوم. تبدلت الأزمنة ولم يتبدل الدين، وإنما تطور الفهم كي يندمج مع حاضرنا المعاصر، فالاستكانة اليوم ضعفٌ بلا قوة، والقوة عتو

في الأرض بلا رحمة، فمن ضربك فاضربه، ومن سبّك فسبّه، ولكن لا تكن من يبدأ."

"انصر نفسك بأن تدرأ عن النفس معرّة وعاملها كما تريد أن تُعامَل

فلا النفس ترضى الذل ولا هي أمّارة بالسوء وإنما لا تقوى التحمل."

"ليس البطش بأن تدرأ عن نفسك عار الهزيمة وذل الخضوع، وإنما أن تسعى في الأرض باختيال بعد أن اجتزت التجارب وسكن الغرور بين الضلوع."

"الدين معاملة، ومن عاملك بسوء فقوّمه."

على الفور، نهض شاب في الثلاثين أو يزيد. كان قد تقدم خطوتين، لكنه رأي لحية بيضاء تختبئ من أسفل الوشاح الأبيض لوجه ناصع البياض، تميزه علامة الصلاة. علامته هي السكينة والابتسام، وكان يجلس خفية بين الصفوف، يستمع إلي ما يقوله الشيخ، الشيخ (خيري). كان هادئًا، شديد الوقار، مجرد النظر إليه يدفع في القلب المحبة.

كان الشاب يرتدي عمامة وثوبًا من تحت عباءة زرقاء، ويتشح بالوقار والطمأنينة، ولما رأى الشخص العجوز، جثا إلى قدميه، وقال، "مولانا!"

وكأنما أراده ألا يتكلم، لكن الشاب قال، "فضيلتك قاعد هنا في المجلس ده!"

قال العجوز موجزًا بعد أن أمسك بيده، "أجلس هنا لأسمع الصواب والخطأ."

"أرى ما يقول الناس وما يسمعون. أتجسس أخبارهم لأعلم أسباب المرض."

بحزن أكمل، "أخشى أن يجيء يوم تتحول فيه خطبة الجمعة إلى ورقة تقرأ، فلا بأس على مسلم ضاع حينها وقت أن أضاعه علماؤه."

كان حزينًا، ضيقه أوجع صدر الشاب، وهو يدفع يده برفق.

انتصب الشاب وكان محتارًا، لكن صوته كان حازمًا قاطعًا، وتحدث من فوره، "سيدي الشيخ خيري شهاب، كلامك غير صحيح ووقعه شديد، جزاك الله."

توهّجت نظرات الشيخ (خيري) وكان قد قطع كلامه فجأة، وانصبّت أنظار الحاضرين إلى الشاب الذي تجرأ ووقف في حضرته وقال كلامًا عارضًا، غير أن الشاب لم يتوقف عند ذلك الحديث ولكن أكمل، وكان يُحرّك يده بالإشارات وكأنما يرسم ما يقول.

"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..."

"... وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103)."

ورغم المقاطعة أكمل، **"وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105) (آل عمران)."**

"سيدي الشيخ..."

قاطع رجل عجوز، بسيط الحال، "شوف يا ابني، إنت قاطعت فضيلة الشيخ من غير حتى ما تستأذن ومن غير حتى ما يكمّل كلامه. هو ده مش عيب برضك! ولا دي مدرستوهاش في الأزهر."

وقال آخر، "اتفضّل يا شيخنا كمّل واعذره، لسه شاب ميعرفش الأصول، ربنا يزيدك من علمه."

"بارك الله فيك يا شيخ خيري وجزاك العافية وأطال في عمرك."

وقال آخر وكان إلى جوار الشاب، " اقعد وعيب عليك اللي عملته ده،" وكان يجذبه من عباءته.

أسهب الشيخ، وكان قد تنهد صابرًا، **"عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ، وَالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ: تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ."**

مُوجِّهًا كلامه إلى فتى الأزهر الذي رسمه بين جفني عينه، "قبل أن تتكلم يا بني، عليك أن تستأذن."

بشكل أو بآخر، بدا أن كبار السن اغتاظوا من جرأة الشاب، وحدّقوا فيه، مما دفع الرجل الذي يجلس إلى جواره لأن يزيد من جذب عباءته كي يجلس، لكنه لم يجلس.

كانوا ينظرون إليه نظرات مارقة، يعيبون صفاته على ملابسه.

بكلمة قال الشاب رادًا على تهكمهم، "قال النبي صلى الله عليه وسلم: "السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءًا من النبوة."

فقال الشيخ، "**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (111)** (آل عمران)."

فقال الشاب، "**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72)** (التوبة)."

قال أحدهم، "يا فضيلة الشيخ، النهاردة زي ما قلت لنا،" ولم يكن يُعِره الانتباه.

"يوم العيد الغريب!"

"اللي فضيلتك كلمتنا عنه إمبارح."

كان يُردّد رغم أنه أيقن أن حديثه طار في الهواء، "نعمل إيه وإحنا فيه؟ هل المفروض نعمل حاجة معينة؟"

قال الشيخ، "أيها الشاب، تكلمت فأكثرت كلامك..."

"... أوجز حتى يستفيد الجمع وإلا فاقعد مع القاعدين."

قال الشاب، **"خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199) (الأعراف)."**

فقاطع الشيخ، **"أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) (الحج)."**

قال الشاب، "لِم تُنقِص في الحديث وتقتطع من الآيات؟ يا فضيلة الشيخ، ما تقوله لا يدعو إلّا إلى العنف، فدين الإسلام دين سمح،" فهبّ أحدهم مُعارِضًا، "وإنت تعرف أكتر من فضيلة الشيخ! يا أخي مرّرتوا عيشيتنا وطهّقتونا."

"استفدت إيه أنا بالسماحة والطيبة، ولا يكون ليك عليا حلفان يا فضيلة الشيخ، فِضلت مطاطي راسي لأبويا، مطاطي، وكل حاجة أقوله عليها حاضر، حتى مُرتّبي كنت بدّيهوله، وفي الآخر كتب كل اللي عنده لأخويا الصغير."

"اقعد مكانك، إنت شكلك لسه تلميذ، معندكش العلم اللي عند الشيخ خيري، ربنا يكرمه. فاهم في الدنيا والدين. مش كلام بيقوله وخلاص."

تكلم الشيخ (خيري) بعد أن هدأ المجلس، **"يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**

(18) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19) (لقمان)."

فجلس الرجل وقال، "حاضر يا شيخنا،" وسكن تمامًا.

قال الشاب وقد أصابه الحَزَن، وكان صوته خفيضًا، **"الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157) (الأعراف)."**

استغاثات!!

صياح!! هياج!!

لفّت السيدة المتشحة بالسواد أشياءها وقفزت من مكانها مُسرِعة، تركض في اتجاه الناس، حين أشرقت الأجساد من الشرفات، يتطلعون على سبب الهياج الحادث بلا مبرر.

صاحت إحدى السيدات، "هو رجع المدعوق على عينه!" وكان زوجها يُحاوِل جاهدًا منعها من الكلام مخافة أن يسمعها.

"اسكتي الله يحرقك..." غير أن استطاعتها تراخت أمام رغبتها في أن تزيح عن كاهلها ثقل الحديث بتشنجها في يده التي ثبتتها بإحكام، لأن الزوج أدرك أنه كان قد قدم إلى أسفل شرفة الطابق الأول، طابقهما، وكان قريبًا جدًا منهما.

كان قد سمعها على يساره... أنفاسه تميّزت بالاشتعال...

نصف عُصبةٍ من الرؤوس الصلعاء، المُقطِّبي الجِباه، العارية صدورهم، رؤوس كشطتها معالم الأسفلت وتركت الخربشات في كل مكان في ذلك الشارع البائس. بين سلاسل من الرجال الذين يرتدون الفانلات البيضاء والسماوية، شديدة الاتّساخ، يحيطون أنفسهم بالسلاسل والجنازير، وسراويل تصطك عليها السكاكين بالسواطير. كل واحد منهم يشبه الثور الهائج أمام جمع من الفئران.

كان قد وقف في منتصف المكان تمامًا، حيث بإمكان كل ساكن من سكان المنطقة أن يسمع حديثه وأن يهبّ إلى رؤية المشهد.

نصف دائرة من ورائه، يتقوسون ويتقدمهم، في يده قطعة خشبية مدعمة بالمسامير، يضربها في كفّه ويرمق كل من تجرأ ونظر عليه بشزر. لعاب يسيل من القوة التي كان تسري بين شعر صدره المحروق. نعر في كل الوجوه السمجة التي تطفلت على قدومه بصوت جارف من خيشومه، "كرااااااااكة رجع."

"كراكة رجع يا حارة الخرفان."

"بس المرة دي جاي ونيتي كلها خير."

"مفيش خير هتشوفه الحارة دي إلا لما يعدّي عليا الأول."

"أنا هنا رئيس جمهورية المكان."

"أنا الشرطة."

"أنا الجيش."

"أنا الكل في الكل."

لو سمعت صوت أي حد بيعارضني منكم، هييجي تحت المفرمة."

"كرااااااكة خلقه داق."

"كرااااااكة بقي وباء."

"كله تمام يا كراكة،" قال أحد الرجال بعد أن مال عند رقبته.

إجابة بالهمس، "شوفلي فين خيري الزفت شهاب."

"أنا هنا يا كراكة،" زعقت النبرة الشيباء، صوته كان واضحًا رغم ذلك، لا يشوبه خوف ولا ارتعاش. كان محاطًا بعشرات من الرجال الحاضرين في جلسته، وكانوا يُطوّقونه ويمنعون رؤيته حتى ترجل من بينهم إلى أول الصف.

انزوى رجل على جانب الطريق، يحمل هاتفه النقال، يحني رأسه ويثرثر. طريقته تحمل الخوف وتنقله إلى الطرف الآخر.

مبتعدًا، رحل الشاب الثلاثيني. أراد أن ينأى بنفسه عن الأحداث والشغب، وأن يعود إلى بيته ليعتكف فيه، تجنبًا للمشكلات وتفاديًا للفتنة. كان يخشى أن يصيبه وابل من غضب القوم فيفقد هيبته ووقاره.

يطقطق أصابعه رافضًا، يتمتم بضيق في نفسه، ويدعو، "حسبي الله ونعم الوكيل."

لم يكن يُطأطئ رأسه ولم يكن ينظر للأمام. كان يعد خطوات أقدامه رجوعًا إلى بيته وقت أن تقدّم الشيخ (خيري)، وكلما تقدّم أسرع من ورائه الناس.

صرخ فيه (كراكة) بعد أن أشاح بعصاته المسننة، "إنت جايلي ومعاك رجالتك يا خيري."

"بتتحامى في شوية الخرفان دول!"

"مش كراكة اللي يخاف يا خيري."

"إنت تارك معايا للدم... حقي وهسلخه من جلدك."

الشيخ (خيري) الصارم تكلم، "لقد صبرنا على أذيتك كثيرًا يا ابن..."

"إوعى تنطق اسم أمي،" صرخ (كراكة) وكانت أطرافه تعصر العصاة وربما تُكسِّرها.

"كراكة مبينساش، والتعويرة اللي أخدتها على وشّي هردّهالك يا خيري."

"متفتكرش إن العوق اللي حامي نفسك فيهم دول هيعملوا حاجة. دول شوية ورق قدام الرجالة بتاعتي. إحنا تعابين ولدغتنا بالقبر."

قال (خيري)، "كلنا خطّاؤون وخير الخطائين التوّابون."

صاح أحد الشباب ممن يقفون إلى جوار الشيخ، "إحنا مبنخافش منك يا كراكة. ده كان زمان، من الناس اللي عايشة هنا زمان. كنت بتأذيهم في عيشتهم ولقمتهم. كنت مخلّيهم يكرهوا اليوم اللي شافوا فيه ولادهم."

"إنت والبلطجية اللي زيك لازم يكونوا في السجن."

"حاجات كتير اتغيرت من آخر مرة كنت فيها هنا. رجالة الحارة مش هيسمحوا أبدًا إن زبالة زيك يحكمها."

أمسك به رجل وكان أكبر سنًا، يُهدّئه، ويُتمتِم، "امسك لسانك، ده كراكة مش بلطجي من إياهم."

"ولا يهزّني..."

"لأ، هيهزّك، لأن ده مبيجيش بالزعيق والكلام."

لم تفتر عزيمة (كراكة) ولم يزده الحديث إلا تجبّرًا ورغبة في الانتقام. كان يضحك، كان يضحك بقوة ربما لم يشاهدها الجمع منذ آخر مرة كان فيها بينهم، يعدّ على أصابعه عدد السنين التي قضاها في السجن ويسمعهم، انتظاره كان طويلًا.

تكلم الشيخ (خيري) وكانت نبرته قوية، "أتظن أننا ننسى؟ كثيرًا ما ينسى العبد ولكن لا ينسى رب العباد."

"لا تجهل ولا تصخب، ولا تزد في طغيانك فتعمى."

عارض (كراكة)، "بقولك إيه يا أبو دقن عيرة. من النهاردة كلمتني أنا اللي هتمشي. كلمتي أنا وبس."

"أنا خلاص خرجت. خرجت وفاضيلك. هفتح سوستة البنطلون وأطرطر عليكم كلكم."

"أنا الوحيد اللي عارف حقيقتك، على الأقل أنا فتوة ومعروف بين الناس إني فتوة، لكن العيب والباقي على اللي بيعملوها في الدِرا، زي كلاب السكك."

تجهّم أحدهم، "اكتم فمك يا حثالة،" وكان أحد أساتذة اللغة العربية، يضع عصاة صغيرة تحت كتفه، ويحمل الكتب وحقيبة صغيرة.

ضربات على الأسفلت بالعصيان وبالسواطير، استشاط أتباع (كراكة)، أرادوا أن يقلبوا الحارة إلى جحيم. تمتم الشيخ (خيري)، "الصبر والاحتساب على البلاء، لا عودة حتى ننتهي من الخبث."

رفع الشيخ (خيري) إصبعه في وجه (كراكة)، وقال، "أشهد أن هذا الرجل زنا، فمن يشهد معي؟"

بعد تردد وريبة، تقدم رجل قصير القامة، مكتنز الملبس، وقال بعد أن تلفّت مرات عدة، "أنا يا شيخنا، أنا عارف إنه كان بيختلي بالست إنصاف مرات الفتوة عدنان في الحرام."

"وأنا كمان يا شيخنا، بس قلت أستر على ولايانا."

"وأنا كمان يا فضيلة الشيخ."

عين (كراكة) مثل ذاكرة حديدية في قفص مغلق، لا تحرقها النار. كان يرى كل شيء سابق. لم يكن الشيخ (خيري) بعيدًا، وكان يغض بصره وينهر في وجهه الحديث الذي جمعه بشخصية مقيئة مثل (كراكة).

لا شيء بينهما، فالمسافة كانت إلى حدٍ ما بعيدة ولكنها أقرب مما تكون. كان واقفًا عند الباب، يتلصص الأحاديث، يسمع ضحكات النساء وهن يتمايلن، وصوت رجل، ابتسامته لم تكن إلا سخرية من كونه عرفه من الوهلة الأولى. كانت تداعبه وتلاعبه، تمسك بلحيته وتدعك جسده المترهل. تهمس في أذنه بالنكات فيضحك.

يسمع وكأنه يرى كل شيء...

"بقولك إيه يا عم الشيخ؟"

"ما تطلقني من جوزي، أحسن أنا زهقانة منه."

"عندك حق يا إنصاف يا أختشي، ده راجل ناقص، وراجل إزاي؟ ده نص راجل."

"ولا إيه يا بت؟"

"يرضيك اللي عمله فيا، حتى بص..."

باختلاجة في جسده، أرته بقعة زرقاء في رقبتها التي تشبه العجين الطري. كان لعابه يسيل، يُحدِّق وكأنما يخترق الطبقات كلها.

"بس أنا!!"

"بس إيه يا عم الشيخ! ليه طيب كدة!"

"مش إنت من بتوع قال الله وقال الرسول؟ يرضيك يعني الظلم اللي معيّشني فيه."

تنهد الشيخ، وأمسك بقوة جلبابه، على أريكة كان يجلس وكان المصباح ضعيفًا، لا يقدر على إضاءة ظلام الليل.

"مش قصدي، بس جوزك راجل شرّاني، وماسك الحارة كلها في إيده."

همست المرأة في أذن الشيخ، فبرقت عيناه، وقال، "اللي بتقوليه ده فعلًا؟ مُرشِد!!"

"أيوة يا عم الشيخ، عليّا النعمة حقيقي."

"موضوعك سهل يا بنتي."

"بنتك! هه هه هه! بنت إيه يا عم الشيخ؟ كل ده وبنتك."

عرقه ينهمر بغزارة، كانت أعصابه تسيل بين ضلوعه الشبابية. عرقه ينهمر مثلما ينهمر

اليوم. أصابعه تنتفض مثلما تنتفض اليوم. لم يختلف كثيرًا عن أيامه السابقة. (كراكة) والشيخ (خيري) لا يزالا يحدقان في بعضهما البعض.

محتميًا في رجاله ومحتميًا في الناس. كان بينهما تاريخ لا يعرفه سواهما.

"ارحل ولا تعد إلى هنا. حارتنا وعمّها السلام من بعدك أنت وأمثالك. أنتم بلاء على مجتمعنا."

كانت عين (كراكة) ترسم كل الصور، القديمة والجديدة. كلها في ألبومه كانت تتجمع.

وقتها، انتفض من وراء الظلال وهب مسرعًا إلى الرجل العملاق، وكان صبيًا عنده حينها، فهمس في أذنه، ففزع من فوره، وقبض على ساطوره.

كان يستشيط غضبًا، وطرق الباب مرات ومرات، ولم يجبه أحد.

صرخ عاليًا فأيقظ الناس، "افتح يا خيري..."

لم ينتظر، وإنما ضرب الباب، فكسره، واقتحم المكان. كان البيت خاويًا مظلمًا، تسكنه الأشباح. انفجرت عروقه، وظن أنه يسخر منه، فهب في الطرقات الضيقة والأزقّة، حتى وجد خيالًا في منتصف الطريق، خيال زوجته الخائنة. لمّا أقبل منها ليضربها، وجد أن رأسها تسيل منها الدماء. كانت هي، وهي من ارتمت بين ذراعيه، وأصابه الجنون، بين يديها سكين صغيرة، ظنت أنه تصيدها في الظلام، فطعنته.

تلك السكين لم تكن خاصتها ولم تكن خاصته. تلك السكين كانت لعشيقها، ذلك الذي كان يتلصص عند الباب، هو الذي هبّ إليها وهو الذي حمل السكين قبل أن يحملها عن زوجها وفي يده الدماء.

أول صورة رآها، هي صورة (خيري) ذلك الرجل الذي كان يشير إلى الممر، والشرطة من حوله. فر هاربًا كالفأر، لكنه سقط سريعًا، عدا أن القبض عليه لم يأت بلا ضحايا.

أخطاء الماضي، تبعات للمستقبل...

تكلم الشيخ (خيري) وكان يرى كراهية مُتأصِّلة في وجه (كراكة)، لا تفوقها سوى الرغبة في القتل، **"في الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يحلُّ دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيِّبُ الزاني، والنفسُ بالنفسِ، والتارك لدينه، المفارق للجماعة."**

"وما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ما جاء في الصحيحين من حديث مالك الطويل من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال، أما بعد، أيها الناس! فإن الله تعالى بعث محمدًا بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزله عليه آية الرجم، فقرأناها ووعيناها، ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورجمنا بعده، فأخشى أن يطول الناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضنوا بترك فريضة قد أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن

من الرجال ومن النساء إذا قامت البيّنة أو الحبّلِ أو الاعتراف."

نطق الشيخ (خيري)، "ارجموه وانتهوا من شره فقد تبينت الحجّة عليه."

"لاااا!" نعق (كراكة).

"إنتوا فاكرينّي واحد من الكفار إياهم! ينعل ميتين أهاليكم واحد واحد."

"أنا كرااااكة، أنا ممسحش واحد فيكم في جزمتي."

من أين جاءوا بالعصي؟ لم يعرف (كراكة). فجأة ومن دون سابق إنذار، تبدّلت نظرات المواجهين إلى الغضب، وحمل كل واحد منهم عصاة كانت تأتي من الوراء، تُلقى من النوافذ وتخرج من أبواب البيوت. صبية يهرعون لذويهم بأي أداة يجدونها، عصي وأحذية، كرات حديدية وسكاكين مسنونة.

أدرك (كراكة) أن تغييرًا جزريًا طرأ على أولئك الناس في وقت غيابه. في زمن مضى كان يرى الدجاج أشجع وأعتى منهم قوة، أما اليوم فكانوا يقفون أمامه وجهًا لوجه، وعصاة لعصاة، لا يخافون سابقة أعماله ولا يتراجعون عن مجابهته.

تكلم الشيخ (خيري) أولًا، "تراجع يا كراكة، فلن نسمح لك أن تعود إلى سابق عهدك من الظلم والجبروت."

كمن صعقته أسلاك الكهرباء، اقشعر جسد (كراكة) وتلوّى. كان يفرد أذرعته كالأخطبوط المتربص بفريسته، يزعق بصوته الجهور وتتقلب فرائصه ما بين العته والجنون، "لأأأأأأأأ!" ولعله يتمنى تلك اللحظة.

حديث في الهاتف، لم يكن ببعيد عن الأحداث، "أيوة يا باشا..."

تشويش أتبعته الإجابة، "إيه الجديد عندك؟"

"شكلها هتحصل مجزرة هنا ما بين كراكة وخيري شهاب."

"المكان مشعلل والناس متجمعين وخناقة هتقوم."

"تمام، بلغني أول بأول وخليك بعيد دلوقتي."

وتعالت الأصوات المنادية على الشيخ (خيري)، "خلينا نخلّص عليه هنا يا شيخنا."

"يا عم الشيخ الواد ده ملوش دِيّة."

"فضيلة الشيخ، إما أن يُسجن أو يُقتل، لا ثالث لهما."

كانت الأصوات كثيرة، وكلها تتجمع في رأسه بازدحام، لأيها يسمع؟ ولا واحدة.

نطق الشيخ، "ارجموه واطردوه من حارتكم."

لما قالها، اندفعت الأدوات المنزلية من شرفات المنازل، والأحذية والكرات البلاستيكية والحديدية من أيدي الناس، ومن ورائهم الأطفال يقذفون الحجارة، مسومة على وجوه البلطجية، من انكمشوا من وراء (كراكة) حماية لأوجههم. (كراكة) الذي انفجر غيظًا، زمجر بشراسة وصرخ عاليًا صرخة مدوية، ربما استقرت على بعد عشرات الشوارع المجاورة.

من وراء الجموع، برز رجل ضخم الجثمان، يلتف شاربه كأغصان اللبلاب على وجهه. كانت معالمه قاسية، ويثبت معصميه بسوارين من

حديد. هو الذي أتى وفي قبضته خمسة من الأنياب المسننة، كلاب الراعي الألمانية تنبح بل وتعوي بهياج. كلاب جائعة تستعر بطونها، مُكمّمة الأفواه، متشوقة للانقضاض.

تحررت، ولما تحررت فزعت إلى الجموع الذين انتفضت صفوفهم، وتحرر (كراكة) ومن معه من ضرباتهم المتلاحقة. لم يتبق رجل واحد في إمكانه أن يواجه الكلاب الشرسة، والتي كانت تبحث عن هدف لأسنانها.

امتزجت الصفوف بالصفوف، ارتفعت العصي بكثرة وتقطّرت الدماء كالأمطار. رجال مُمَزّقي الملامح فوق رؤوسهم السواطير ورجال يعافرون للتحرر من أنياب الكلاب.

نباح لم ينقطع... دماء لم تنقطع...

أطفال يهرعون وربما يشاهدون باستمتاع أكثر من الهروب!

عويل النساء بصياحهن وهن يُلقين بالمياه الباردة والساخنة!

وهب رجل من البلطجية على رجل ثلاثيني بضربة من عصاه على الرأس، فانشقت. انشقت بضحكات واهتياج متلذذ من رؤية الدم.

ينتصرون على جموع الناس الذين أربكت الكلاب جماعتهم، وفرّ بعضهم هاربين، إلا من صمد وقرر أن تكون كلمته هي الكلمة الأخيرة، من تحمل الضربات والعضات، وحمل روحه في كف يده قبل دمائه.

تلك كانت اللحظة المثالية بالنسبة لـ (كراكة)، عاشق القتال، من تسري المعارك في عروقه. كان يتلذذ بكل قطرة تنفجر من الأجساد. كان يتأكد أنه الغالب ولا غالب

بعده. يسير بقوة ولا يجرؤ أحد على تتبع أثره.

كان يزعق، "خيري ي ي ي....."

****

" 24 "

دماء و رصاص

بعنق تختنق في قبضة (مراد) الحديدية، تكاد العروق تتفجر في الرأس البيضاوية، أنفاس تتحشرج وبصعوبة تجد طريقها دخولًا وخروجًا. على بعد نقرات من الموت كان يرى نفسه. كان يُتمتم ولا يُسمَع، هذا لأن (مراد) في ثورته صار كالثور الهائج الذي لا يحوشه عن القتل سوى كلمة، وتلك الكلمة كانت في حلق الطبيب، محشورة بآلاف الخلايا المضغوطة، والتي تمنعها من الخروج.

جحظت العين جحوظًا غير عادي. أصبحت ترى الخيوط البيضاء والومضات المُحبّبة، وظلام يزحف من على الأرض. كان يتشبث بالحياة مثل دجاجة تنتفض باهتياج باحثة عن رأسها المقطوعة. وقت أن خارت قواه، (مراد)، والذي اكفهرت عينه بخدوش قانية متشابكة، كان يُغرغِر. كانت رأسه تبحث في ظلام لا ينتهي، ظلام يكتنف جنباته مثل والد يحتضن طفله. في ذلك المكان كان كالأسير الذي لا تُحرّره الأنوار.

وهدأت العاصفة، هدأت لما شحذ بقايا سمعه لغرغرة تنبع من الطبيب، أنزله أرضًا ثم لصقة في الجدار، يُمسِك بطرف معطفه مسكة العنقاء، ويُعِيد إلى ذهنه اللحظات السابقة، وقت أن التقت العين بالعين وارتفعت حدود الدهشة حتى بلغت السقف.

"إنت!"

ردد (مراد) بصوت جاف، "إنت مين؟"

كان الطبيب يبحث عن بقايا الهواء المترامي في الغرفة، وبعد أن هدأ قليلًا، تكلم وعلى وجهه فزع لا ينتهي، "إنت دخلت هنا إزاي؟ إنت سفاح؟ جاي هنا تقتلني؟"
أضاق (مراد) من نظرته. لم يكن يفهم ما يرمي إليه الطبيب الخائف، سوى أن الطبيب أكمل، "طب ليه؟ أنا مجرد دكتور ملوش أي أهمية."
قال (مراد)، "قصدك إيه؟" ورطمه في الجدار، "أتكلم..."
"طيب طيب، أنا هتكلم. أرجوك متقتلنيش."
انتظر (مراد) والطبيب يبتلع الخوف في حلقه، في حين أنه وضع يده في جيبه خفية من وراء إدراك (مراد)، والذي كان كل اهتمامه أن يفهم ما يقصده. ضربة أخرى على الجدار، وقبضة كف قاسية تُمسِك اليد التي تسللت إلى الهاتف الجوال، ليُمسِكه ويرطمه على السيراميك الأزرق فيتكسّر إلى أجزاء، تبعثرت في الغرفة.
وكأنها الناهية، أصبح (مراد) على مشارف القضاء عليه، غير أن الطبيب انكمش على نفسه، وصار ينتحب مثل الولد الصغير، "استنى! استنى! أنا هتكلم. أرجوك متقتلنيش. أنا هتكلم. هقولك كل حاجة."
تركه (مراد) وظل واقفًا كالتمثال الحارس، ينفض الحرارة في غرفة شديدة البرودة. كان الطبيب يتعرّق بغزارة، وشعر أن شيئًا قد ابتل في سرواله عدا أن شيئًا لم يبتل. أصبح يُلملِم الأحرف من على طرف لسانه، فتتبعثر، فيعيد ترتيبها مرة أخرى، في حين أن عينه الزائغة كانت ترسم المسافات ناحية المشرط أو آلة النشر أو أي شيء

حاد، والتي برغم قربها، إلا أنها كانت بعيدة جدًا.
الطبيب الذي ظهر اسمه على شارة المعطف، "ط.ش. يونس جاد،" وتعريفات أخرى لم يهتم لها (مراد)، تكلم، "أنا... أنا... أنا شفتك قبل كدة."
نفث (مراد) البخار غيظًا من أنفه فانتفض (يونس)، وأكمل، "إنت اللي فجرت المترو، أيوة، إنت الإرهابي اللي فجر المترو من كام سنة..."
تصلّبت العروق في يد (مراد). دفعت الكلمات بكتلة باردة، أثلجت عقله. كان يتسائل، والطبيب لم يعطه فرصة السؤال لأنه أجاب من تلقاء نفسه، "أنا شفتك. أنا شفتك ساعتها ومعاك رجالة كتير ملثمين. بس إنت... أنا... أنا فاكرك، أنا فاكرك لأن الغطا اتقطع من على وشك. أنا متأكد، و.... ممم... مش متأكد."
"بس أكيد هو إنت..."
"أنا افتكرتك،" قال (يونس) بينما عينه الزائغة كما لو كانت تستجمع الصورة كاملة، "الناس، والمحطة اتقفلت، المترو وقف وكنا محبوسين فيه. أنا شفتك من الإزاز. كنت بتوجه الرجالة اللي معاك يلزقوا حاجات على الحيط. أكيد دي كانت قنابل."
"إنت هربت ساعتها، كانت حرب مع الشرطة، بس إنت لوحدك هربت، والمترو انفجر."
"إنت عارف كام واحد مات اليوم ده؟ كانت كارثة..."
طقطقة المفاصل دوّت على إثر ضربة أخرى في الجدار، سرعان ما أراد أن يتبعها بضربة

أخرى، غير أن توسلات (يونس) سبقته، "أوك، أوك، أنا آسف..."
"أرجوك، أنا عندي أسرة وأولاد. متقتلنيش، حرام عليك تيتمهم."
"اللى بتعمله دلوقتي هنا جريمة كبيرة والقانون بيعاقب عليها."
"المشرحة متأمنة، ولو حد سمع أو شم خبر، مش هتخرج من هنا حي."
محاولاته البائسة باتت بالفشل رغم أنه كان يتكلم بشكل النصيحة. تردّد (مراد) وأحنى رقبته يمينًا ويسارًا حتى أخلى سبيله. حقيقة لم يكن يعلم ما يصنع في ذلك المكان. أمسك رأسه بقوة. كل الأفكار كانت تذوب.
قال (يونس) بعد أن لمس حالة الارتباك، "إنت مجنون... إنت أكيد مجنون... إنت عارف جريمة دخولك هنا إيه وكمان في الساعة دي بالذات؟" وأتبع، "إيه غرضك أصلًا إنك تقتحم مشرحة ليها حرمة وقانونية؟"
"كتير هنا ميتين، لا حد عارف لهم أصل ولا حد بيسأل عليهم."
"إنت آخدني رهينة هنا؟ مش كدة! أرجوك تسيبني، أنا عايز أعيش مش عايز أموت."
"إرهابي؟ قاتل؟ مجرم؟" كلها أدلة يبحث لها (مراد) عن تفسير.
(يونس)، الطبيب المرتعش، والذي كان يترصّد الفرصة المناسبة، والتي لم تكن بادرتها تقترب أبدًا، كان يُردّد كلمات أخرى، كلمات يائسة لا يجد من دونها بديل، "أرجوك سيبني، أنا... أنا... شوف، أنا مش هبلّغ عنك. أنا أصلًا معرفكش، ولا أعرف شكلك، ولا هقول حاجة."

بعد أن أعاد إلى نفسه الطمأنينة الخادعة وحاول جاهدًا أن يتعلّق بقشة في الرياح، تكلم (يونس) بإشارة من إصبعه إلى صدره، "لازم تصدقني، أنا معنديش حاجة تاخدها مني إلا نفسي،" وكان لا يزال ينتفض.

استدار (مراد) ثم انحنى ناحيته، وكأنما يتشمّم خوفه، وقال في ضجر، مُشِيرًا إلى الجثة الأخرى على الطاولة اليسرى، "الجثة دي جات هنا إمتى؟ فحصتوه؟"

بتردد، أجاب (يونس) مع أنه لم يُرِد الكلام، "صدقني، أنا هنا دكتور بس. أنا مبسألش الأسئلة اللي بتسألها دي. أنا معرفش اسمه ومبصتش في ملفه لسه. أنا مهمتي أقوم بالتشريح وأشوف مات إزاي، هل جريمة قتل ولا إنتحار ولا موتة عادية؟ وحتى لو كنت أعرفه، ده هيفيد بإيه أصلًا؟"

تمتم (مراد)، "مش هيفيد، لأن الأشكال دي ملهاش وجود أصلًا."

"لو بس تقولي إنت عايز إيه! جايز أفيدك وتعتقني لوجه الله..."

"... إيه اللي بتدوّر عليه ومش هتلاقيه إلا في المشرحة وسط الأموات؟"

"ششش!!" تمتم (مراد) وأشار للطبيب بالسكوت الفوري. كان يشعر بارتباك. كان يتبع حدة صوت أتت فجأة وسرعان ما اختفت عن الوجود. على يقينه صب جميع أحاسيسه، توهُّمات؟ ربما كانت مجرد توهُّمات، لكنه لا يستطيع العزوف عنها.

تلعثم الطبيب، "هو في إيه؟" وكان صوته يأتي خفية إلى مسامع (مراد).

قال (مراد) بعد أن تبين، "أنا مش جاي هنا أقتلك. في حاجة في المكان ده، عايزها."

أمسك (يونس) نظارته بإصبعين ومسحها بطرف معطفه، حيث ظهر الاحمرار على عينه ومُستهل وجه المسطح لا تحدوه أي خدوش.
قال بهدوء مصطنع، "هنا! في المشرحة. هنا صدقني مفيش غير الميتين وبس،" ثم أعاد النظارة إلى مكانها ورمش أكثر من مرة ليتأكد أنه يرى بوضوح.
"لأ، في. في اللي إنتوا بتبيعوه..."
أمسك (مراد) المشرط، يلفّه إلى طرفه الحاد ويتمعن في بريقه. كان يبتسم بطريقة أودعت المزيد من الخوف في قلب (يونس)، الذي جثا إلى جوار الحائط بعد أن فقد الأمل في الفرصة الوحيدة، والذي ظهر جليًا على ملامحه المضطربة. الموت كان يُرفرِف في أرجاء المكان، ليس الغرفة وحسب ولكن في كل أركان المشرحة، موت وجمود.
"بنبيعه إيه؟ إنت مجنون! إحنـ..."
"إحنا... مفيش... أصلـ..."
رنين الهاتف، جذب انتباه (مراد) وارتباك (يونس)، والذي قال سريعًا، "مش تليفوني، أكيد مش تليفوني!"
انحنى (مراد) ناحيته بشيء من الريبة ليتأكد من كونه لا يحمل هاتفًا آخر، و(يونس) يُفتِّش نفسه ليُثبِت حُجته، حتى أنه مزّق المعطف من دون قصد، وتضجر كثيرًا لأنه يعتقد أن معطف الطبيب مثله مثل شرفه، متى تمزق، تتمزق معه أشياء يجاهد الطبيب لسنوات كي يستحصل عليها، أولها الكبرياء.
على دراية، تقدّم (مراد) في اتجاه الباب، يستقدم الأخبار بلمحة هنا وهناك في الممر الطويل بسواده الشديد ولكن دون جدوى. بدأ الشك يتسلل إلى قلبه لأن هواجسه كانت

تتأكد كلما مكث أكثر في تلك الغرفة، فاتجه إلى (يونس)، والذي حاول أن يُبعِد يده، إلا أن (مراد) مسكه من طرف ردائه، وزعق فيه، "تعالى معايا..."
اختفى الضوء والمعطف الأبيض في الممر كالغبار.

****

"ممم! ممم!" همهمة ثائرة من صوت مكتوم، صوت لجّمته الأيادي وضربة على الرأس أفقدته الوعي ليسقط صريعًا على الأرض إلى جوار الكوب الفارغ إلا من بقايا الشاي المتيبس.
أمام (محمدين)، والذي طوقته أقدام عدة، حتى تلقّى هو الآخر ضربة بين أذنيه، قلبت بؤبؤ العين إلى البياض، بلسان يتدلى من الفم، ودماء من الأنف في مواجهة (ناصر).
مجموعة من الأحذية السوداء القديمة، الجزمة المصفّحة، البيادات المستخدمة في الجيش، تصنع مثلثًا فيما بينها، وأطراف أسلحة آلية تتجلى إلى كعوب الأقدام، بأصابع لا تُفارِق زَنادها.
قال أحدهم، "الرياسة قال إن الجثة موجودة هنا، أكيد موجودة هنا."
وقال الآخر، "لازم نخرّجها قبل ما يعملوا فيها حاجة."
"وتعرف منين أصلًا إنهم معملوش فيها حاجة لغاية دلوقتي؟" قال الثالث بتوجّس.
عاد الأول ليؤكد، "يا غبي، بالليل المصلحة مبتشتغلش، ولا حتى الأيام دي. أنا عارف لأن عديلي جه هنا قبل كدة، على نقالة."

"والاتنين دول؟" وأشار إلى (ناصر) و(محمدين)، المُكوّمين أرضًا.
"متشغلش بالك بيهم، خلينا نشوف البضاعة فين وناخدها قبل الصبح ما يصبح."
"مش نأبِّجها بالفلوس أحسن زي كل مرة."
"ونأبِّجها ليه وندفع ليه؟ فلوس سهلة وفي جيوبنا يا عسل."
"عايزين نلاقي طريقة ندخل بيها الأول، أي دوشة ممكن تصحّي الناس يا فالح."
"تعرف تطفِّش الباب؟"
"أعرف بس! يا حبيبي أنا خبرة، بس ده هياخد شوية وقت."
"طب ومستنى إيه؟ اجري طفِّشه."
ترجل أحد الرجال والأقصر بينهم، وانحنى على الباب بعد أن أخرج قطعًا حديدية، ظهرًا لظهر مع الرجلين الآخرين ساعة تربُّصهما بالمحيط الساكت.
"الباشا مُصر إنه يشوف الجثة. لو مرجعناش بيها، هنختفي."
"آآخ! آخر مرة يا بويا. كل ما أقول آخر مرة، وملاقيش طريق."
"هاه! اللي يدخل سِكّتنا دي، مبيعرفش يخرج منها أبدًا. ونخرج ليه أصلًا؟ ما العيال عيشتها ألِسطة والفلوس تمام."
"على رأيك..."
"ها، خلصت ولا لسه؟"
"لسه شوية..."
"أمّال مسمى نفسك الإبرة ومسيّط على نفسك، على إيه؟ بتطفِّش أجدعها خزنة وإنت مش عارف تطفِّش باب!"

انفجرت البوابة الحديدية بفعل سيارة مدرعة، وجحظت العيون السارقة، كانت قد اخترقت للتو إلى داخل باحة المشرحة سيارة مدرعة، فهبّ الرجال الثلاثة إلى أماكن متفرقة، يختبئون عن الأنظار ويرقبون الحدث الغير متوقع قبل أن يُقدِموا على فعل أي شيء في الأساس، فقط بعد أن طقطقت الأقفال مثل طقطقة الساعة لتعلن الساعة السادسة صباحًا.

أوشحة سوداء تُلثّم الوجوه، ملابس فضفاضة أكثر سوادًا، وأسلحة نارية لخمسة من الرجال ترجلوا من السيارة المدرعة، لا تبدوا ملامحهم جليّه أسفل نور العامود. أخرج رجل يتقدم الجميع مسدسًا كاتمًا للصوت، وأطفأ الأنوار بضربات متلاحقة على المصابيح، حتى ساد الظلام كما يسود السكون من بعده، بينما أشعل أحدهم زجاجة حارقة، أظهرت لحية مكتنزة من أسفل الوشاح، ثم ألقاها، فاشتعلت أمام باب المشرحة بنيران خضراء حتى استوت.

ناحية الجدار رآهم (مراد)، رأي خمسة من الرجال المُتّشِحين بالسواد وآخرين مبعثرين أسفل عتمة الليل، يختبئون من المواجهة، والتي سرعان ما احتدمت، وانفجرت مواسير البنادق بالطلقات تِباعًا، تُمزِّق وتُكسِّر، وتحفر النقر في الحائط، فأضاءت مصابيح البيوت جميعها، وفي مُخيّلة الناس أن أنبوبة قد انفجرت.

تكلّم أحدهم، "ابحثوا عن إخوتنا، أحضروهم جميعًا. اتركوا أي حي تجدونه بين الأموات،" ثم التفّ ورفع البندقية إلى صدره وقال، "أوامر الشيخ ألا نترك أي دليل للفاجرين.

علينا أن نأخذ كل شيء يتبعنا قبل طلوع الشمس."
صاح أحدهم صياحًا مفزعًا، جعل أحد الرجل الثلاثة يرتجف، أولئك الذين كانوا يختبئون فرادى من خلف سيارة على يسار البوابة الرئيسية.
قال أحدهم متسائلًا، "مين دول؟ ومالهم بيتكلموا بالنحوي زي الكفار."
أردف أولهم، "ششش! خلينا نشوف هيعملوا إيه."
"نشوف إيه يا أبو عمو؟ شكلها موتة ملهاش تاني، يالينا يا ليهم."
تكسّر الزجاج، وضجت الباحة بشظايا الرصاص المترامي على الأرض. إصابات موفقة، غير أن أحدهم لم يتأثر، لأنهم كانوا يرتدون سترات واقية من الرصاص. بحركات خاطفة، احتموا بسيارتهم المصفحة، وباشروا إطلاق النار على الآخرين.
صاح أحدهم، "اجتلوهم الكفرة..." وقال غيره، "إنها نيران الموت،" وألقى أحدهم قنبلة، أصدرت دويًا هائلًا، تسمعه من عشرة شوارع. على إثرها ارتمى الرجال إلى الوراء كالورق، مُغبّرين بشظاياها، لكنهم صمدوا، حتى أن أحدهم أُصِيب في كتفه ولم يكن يشعر بالإصابة، وفي المقابل كانت الرصاصات تخترق الأجساد بلا رادع وبلا أثر.
"دول مبيموتوش! مفيش حاجة بتأثر فيهم!"
"دول معاهم قنابل ومولوتوف يا جدع!"
"اضربوا على العربية اللي واقفين وراها."
"حامد... يا إبرة..."
"هاه!"

"اجري ناحية الباب وإحنا هنغطّيك."
"ماشي يا ريس."
علت أصوات النساء من النوافذ والشرفات بصيحات مستغيثة، وباشر رجالهن بإلقاء الأشياء الحادة على الرجال المُلثّمين، المختبئين من خلف السيارة المُصفّحة، مما دفع ثلاثة منهم لأن يطلقوا النار وبعشوائية في اتجاه البيوت، وقتها فزِع (حامد) مُتستِّرًا بقصر قامته وظلام المكان إلى الباب والذي كان قد فك الأقفال فيه من قبل.
لجنون أحد الشباب، اعتلى شرفة منزله في الطابق الخامس، يحمل أنبوبة صغيرة، يرفعها ويصرخ بغوغائية، وقام بإلقائها على السيارة المصفحة، أظهر انفجارها البرتقالي خيالات الرجال الخمسة على الأرض، مُترامين، والرجل الذي يريد أن يدخل المشرحة، بسعي حثيث للفرار من الجحيم، والرجلين الآخرين، يتقدمان بأسلحتهما النارية ناحية الملثمين، يذلقونهم حتى النهاية بوُبُلِ الموت.
رصاصات في الرأس قتلت اثنين من الرجال الملثمين، تبعتها عشرات الطلقات التي تخترق أحشاء الرجلين المغوارين، ليسقط الأول صريعًا، ويترنح الثاني، متشبثًا بالحياة، لا يُصدِّق أن الموت قد التهمه، فيهوي على ضوء النار، وتسيل من أحشائه الدماء، أنفه في التراب ويده التي عليها وشم الآحاد الثلاثة لا تتحرك.
لملم الرجال الملثمون أنفسهم، وحشروا موتاهم سريعًا في صندوق السيارة المُصفّح، ينظر أسيدهم باشمئزاز إلى اللحم النتن، أولئك الذين يراهم حثالة، سواءً المفترشين

الأرض بدمائهم، أو المترصدة أطيافهم من السماء.

بحزم وحنق شديدين، قال، "شلون كلاوجي! احرجوا المكان، خلّوه نار."

****

" 25 "

رؤيـــــا

هدوء وأنفاس تتصاعد وزفرات. استدارة وحاجب معقود وغيظ. كلها علامات صبها (عابد) على تلك الفتاة في نطاق سيطرته، كانت ترى في عينه نظرة تفوق نظرات الشباب. كان يتقدم ناحيتها، ينفخ، خطوة تعرج وراء الأخرى. فتاة مهزومة وهمجي محدب الأطراف.

عصر ذراعيها بيديه، نظرة نارية متأججة، أنفاس مضطربة.

حيرة!

صراخ!

ألم!

ألم جامح يغتال براءتها. تتمايل على جانبين من النار. لا فرار من عذابها ولا أمل في العويل أو الصراخ. مشاكسة وانفلات، ثم انقباض وانبساط، وشيء من الارتخاء. بشاشة تعاود زيارة السقيم بعد تحرره. أرقام وأحاديث كثيرة على وجهها وفي أذنها، كلها تُخبِّرها بمعاني الرضوخ. برودة تعود من قطرات المطر المتساقط على جنبات منخارها، دموعها الغزيرة أو عرقها الدائم. لا تقدر على انتزاع أنفاسها المتصاعدة.

شهقة ثم بكاء! منازعة ويأس من الرضا!

ما بين أذرع خشنة، وتضاريس شاهقة تفوقها حجمًا. حشرجة في الحلق وتُفال، وصيحة ثائرة

تتبعها صيحة استمتاع. ضغطة على ذراعيها تركت عليها علامة انتهاء الصلاحية. مشاعر مُجبّسة وأصابع متجبرة تكاد تكسر عظامها. شبح يفرد سيطرته عليها. لا يفارقها أينما سكنت. لا تحتمل المزيد من الاستخدام. لا تحتمل المزيد من الدماء. لا تستطيع إلا أن ترضخ لرغبته، فقد كانت العروس التي يُحرِّكها بقوة القانون.

دائمًا ما ينتظرها العذاب في الغرفة المظلمة. دائما ما تنكمش على جسدها المنهك، لتعدّ على أصابعها النحيلة عقارب الوقت. الوقت يأتي وينجلي، إلا أنه لا يمر، فدائمًا ما يُعِيد الوقت ساعاته، وتعود ذات الساعة، ساعة الانكسار.

كان يضحك! كان يتمتع! بين أصابعه خاتم فضي برّاق!

تحاول الروح أن تُفارِق الجسد، وتُقوِّسه بحدة حتى كاد أن يعْوج، حتى استسلم تمامًا للسلام المشوب بالذنوب.

كانت تبكي، وكانت مغمضة العين، هزيلة. آخر ما بدر منها هو نداء السكينة. خارت أجزاؤها، فلم تعد تقوى الحراك. كثير المقاومة أفقدها الرغبة في التحكم في مصيرها، فلا هي تتألم ولا هي تسلم من الصرخات. فحيح الأفاعي يزحف في دائرة من حولها، حماية لها أو التفرُّد بها من عيون الذئاب.

ساعة هدوء سريرتها، لم تعد تشعر بطهارة الروح التي تلطخت بالمزيد من العار. عارها أصبح عاريًا من ثياب الأمل. كانت لا تزال صغيرة، لكن الحياة علمتها كل دروسها

المقيئة، وضعت إرادتها فوق سندان، وظلت تطرق عليها، لعلها تضيف إليها شخصية جديدة، أكثر صلابة وقدرة، لكن جل ما فعلته أنها وصمتها بوشم الضياع.

وقتها فقط، أصبحت مثل الملاك الحزين، ممددة الأقدام، تسبح في ملكوت غير ذلك الملكوت، تُكلِّم الجان وتدعوهم إلى زيارتها. عند أناملها الصغيرة كانوا يتجمعون. في فراشها الأخير انتظروا كثيرًا كي تعود من رحلتها الطويلة. هكذا ظلت، تطرق أبواب البيوت في الأودية بلا مجيب. أبواب موصدة على بيوت خاوية حتى عروشها. لا أحد يُكلِّمها ولا تُكلِّم أحدًا، لا يُسلِّم عليها أحد ولا تُصادِق أحدًا، كل أناس البرّية في أصلهم وحوش، يتربصون وينتظرون، يتخيرون اللحظة المناسبة للهجوم.

انقباضة في الصدر! كانت تتعرق بغزارة وكأنها تُنازِع الموت منازعة المُتشبِّث بالحياة. سنوات فقط قد مرت من نهاية عقدها الأول. لم تكن قد تعلمت بعد أن طعم الحلوى، يختلف عن طعم المرار، لكنها تعلمت أن الواحد لا ينتمي إلا بين الأرقام، وأنها لم تكن رقمًا.

برغم الحرارة الشديدة التي كانت تغوص في أعماقها إلا أنها أحست بحلقات من البرودة، مثل الخيوط تسبح على جبهتها وترسم القلائد على رقبتها. لا شيء أفضل من تجانس الألوان في عينيها. كانت ترى الشمس والقمر مجتمعين بعد أن أحرقتها حرارة الشمس وحدها. ببطء وربما برفق، كانت تعاود زيارة الطمأنينة التي صُبّت عليها.

في غفوتها، ابتسمت...

بجهد مرير، انفكت الحلقات التي أغلقت الرموش على جفنيها. ضوء شديد يطفو على بقية الأضواء هو كل ما رأت. صورة باهتة تُرغِم وتيرة النبض أن يتزايد في رأسها. كانت ترى شيئًا فشيئًا، إلى أن أبصرت. شبح يفرد ظلاله عليها ويترقبها بإمعان.

انتفضت الفتاة وصاحت، "آآآآآه!" لما رأت الشكل الهلامي لذلك الأكتع، ينحني أمامها مباشرة، ويترقّبها باهتمام، فلملمت بقايا الإحساس المتراخي وقفزت متراجعة إلى الوراء، تُغطّي جسدها بذات الغطاء الذي كان يسترها.

اندهش (عابد) وأومأ بلا فهم لسابقة فعلها بأن أصدر صوتًا غير مفهوم، وتراجع بدوره إلى الوراء خطوة بعد أخرى، حتى استقر إلى جوار الحائط. كان قد نثر المخاط عن أنفه من اختلاجة مفاجئة بعد أن فزعت الفتاة، حتى أنه ترك المخاط يسيل وترك كل أثر في الوجود إلا أثرها، يغلق العين ليريحها ويترك الأخرى، لا يريد أن يبتعد عن مشاهدتها، كان يبتسم. وجهه الطفولي وقامته التي لا تتعدى المتر الواحد، وحواجبه الكثة المعقودة، برغم كونها مثيرة للاشمئزاز إلا أنه كان يبتسم.

تلك الابتسامة الغير متوقعة أرغمت الفتاة على التخلي عن حيطتها جدارًا جدارًا، حتى أنزلت ذراعيها برويّة من أمام وجهها، بل وتركت الغطاء، لتكشف عن ملامح وجهها كاملة، وكأنها استسلمت تمامًا لذلك الوجه الغريب.

قفز (عابد) قفزات بهلوانية ناحيتها، ففزعت الفتاة وسقطت من السرير بعد أن اندفعت إلى اليمين، فضحك (عابد) ضحكة كانت أشبه بنعاق الطيور، وكأن ضحكاته كانت معدية، ضحكت الفتاة هي الأخرى، واستندت على طرف السرير وعاودت الجلوس. كانت تشعر أن أشياءها الممزقة لم تتمزق بعد، روحها والسأم الذي يحوطها، يبتعد، فاطمأنت الفتاة شيئًا قليلًا، واكتفت بالسكوت.

أسرع (عابد) خطواته البطيئة وغادر الغرفة بعد همهمة، تتبعته الفتاة من خلال نقرات حزامه، حتى أنها أمالت رأسها حتى اختفى، بل وأمالت جسدها بأكمله وحبت على السرير كي تراه، لكنها لم تكن تراه، ليفاجئها (عابد) مرة أخرى وفي يده سطل حديدي صغير، تتساقط من على جنباته المياه، حتى أن المياه كانت قد انسكبت تقريبًا، لكنه كان ينظر إليها وقت أن انتظمت في جلستها مرة أخرى.

شعور غريب!

أي إحساس ذلك الذي كان يغمرها! كل ما كانت تبحث عنه، هو تفسير تلك الأحاسيس التي تلِجُها. كانت تحمل عنه السطل وتغوص فيه بوجهها بين ضحكات (عابد)، كفرس النهر الذي يسبح كاملًا في الماء ليشرب ولا يرتوي. حتى ولو اتسخت المياه بالأغبرة على وجهها، لم تكن تبالي.

بعد أن أنهت (الفتاة) شرابها وتنفست الصعداء، أعادت السطل إلى (عابد)، والذي أسقطه أرضًا، ولم يكترث لإعادته إلى مكانه.

كان يصنع حركات متلاحقة، ويقبض أصابعه كلها ويضعها في فمه، فهمتها الفتاة على الفور وقالت، "آه، أنا جعانة جدًا قوي، بس..." وأشارت بيدها بتربيتة على جسدها.

لم يستوعبها (عابد) للوهلة الأولى، لكنه فهمها في المرة الثانية، فطأطأ رأسه بالموافقة، واستقبل الفتاة، والتي نزلت من على طرف السرير، بحذر تتبع (عابد)، والذي كان مُتقدِّمًا إياها إلى الحمام، وهناك وقف (عابد) أمام الفتاة، التي نظرت إليه بدهشة وأشاحت بيدها إليه بالابتعاد، ثم أغلقت الباب.

لم يبتعد (عابد) بل قبع في مكانه، ينتظر بلا صوت. هدأت الفتاة، بعد أن أغلقت باب الحمام، وصارت بمفردها. هي لم تتأفف من رائحة الكنيف، أو السطل المسنود جانبًا، والذي اعتلاه الصدأ، على النقيض، أصدرت غمغمة باهتة وفرحة على وجهها لا مثيل لها.

صوت المياه المتناثرة كان يذكره بأمطار الشتاء التي قل ما يراها. لم يكن (عابد) يفهم ماذا يكون ذلك المخلوق الملائكي العجيب. كان دائما ما يمنعه الريس (طلبة) من الخروج من دائرة المكان، حيث امتدت حدود موطنه إلى جنبات أسوار الأضرحة القريبة. هناك عاش وهناك كان يختبئ عن أنظار الناس، لكنها أتت! تلك التي لا يعرف ما كونها، تلك التي كانت تدندن بالكلمات الغير مُرتّبة، تلك التي كان يسمع غناءها وكأنه يسمع ألحان السماء.

في غفوة من الزمان، ابتعد (عابد) عن الحمام واختفى. كانت الفتاة قد أنهت

مداعبة المياه وباشرت في غسل ملابسها. تلقائيًا وكما تعود (عابد)، قام بإحضار جلبابًا من ملابس الريس (طلبة)، ليكوِّمه ويُدخِله من خلال الشق الصغير أسفل الباب، ومع انحنائه الشديد ومحاولته أن يجثو كاملًا، لم ير (عابد) أطراف أقدامها. لم يعبأ (عابد) بأن يرى أطراف أقدامها التي كانت تتقافز باستمرار.

جزعت الفتاة بشهقة رعب لما رأت طرف الثوب، لكنها سرعان ما ابتسمت، ومالت من دورها. كان (عابد) قد أعاد وقفته مرة أخرى وقد شعر بالوخز في مفاصل أقدامه.

بعد أن أكمل أعماله، ظل واقفًا هناك، يترقب عودتها...

بعد وقت قليل، فُتِح الباب. كان أول ما رأى، هو ذلك الشعر السابح في أرجاء المنزل مثل أمواج الخريف. عندما أبصر وجهها، ظن أنه لم ير نورًا يُشبِه ذلك النور قط. كان يُحدِّق باستمرار، وفغر فاهه من الحيرة ومن التعجب، وكأن الحاجبين الخفيفين حول عينيها يكتحلان ببدر في أوج جماله. ملمسها الأبيض، شديد البياض، وعينها السماوية، والتي لا يقوى على النظر إليها. رباط مثل رباط الحذاء، يتدلّى من رقبتها بقطعة خشبية وقامتها المنتصبة بلا أي اعوجاج، تعلوه ببضعة سنتيمترات قليلة، لا تشوبها أية شائبة.

انتهى الكلام الذي لا ينطق به (عابد) في الأساس. كانت الفتاة تبتسم وحسب من نظراته. كانت ترتدي الجلباب الفضفاض، تعقده من منتصفه وتُبرِز ساقيها. ألا إنها

كانت نموذجًا لكل حلم كان يراه في خياله، تلك المرأة التي كانت دائمًا ما تزوره في أحلامه، لا يفرق بينهما سوى الوشاح الذي يُغطِّي الرأس.

"إنت عمرك ما شفت واحدة بنت قبل كدة ولّا إيه؟" قالت الفتاة، "هه هه!" وعاودت الضحكات بينما تمر من جوار (عابد). (عابد) لم يُعلِّق، بل اكتفى بتتبُّع خطواتها، كما لو كان يبحث عنها في كل أرجاء المنزل.

ذهبت الفتاة إلى غرفة النوم، إلى المرآة المعلقة على الحائط. لم تكن قد رأت شكلها منذ وقت طويل، حتى أنها نسيت كيف كانت ملامحها. لا يزال وجهها نقيًا برغم الأوساخ التي غسلتها ولم تنجلِ، وهناك، خلّلت أصابعها الرقيقة بين خصلات شعرها، و(عابد) ينظر إليها ويحاول أن يُقلِّدها.

"هه هه هه!!" أومأت الفتاة بنظرة واحدة، استقرّت على وجه (عابد) في المرآة، وأردفت، "إنت بتعمل إيه؟ إنت مفِكشِ شعر أصلًا."

"شكلك لطيف قوى."

تكلمت الفتاة، "إنت لحقتني من الشباب السرسجية إمبارح. بجد أنا مش عارفة إنت عملت كدة ليه!"

"بس...!!"

كانت قد لفتت انتباه (عابد) إلى نظرة الحزن التي أظهرتها فجأة.

"... إنت الوحيد اللي..."

"ألّا صحيح، إنت اسمك إيه؟"

باستدارة، "مش مهم لو مش عايز تقول."

"بس ممكن تقول لو حابب،" باتساع الفم وابتسامة تُظهِر الأسنان.

لم يعرف (عابد) ماذا يقول وكيف يُخبِرها باسمه، أو كيف يعيش ومع من يعيش، أو إلى أي مدى يريدها أن تجلس معه. كل ذلك كان يفكر فيه ولا يدري بأي طريقة يخبرها. كل ما استطاع فعله هو الصمت وحسب.

بعد أن أكملت الفتاة اتّساق شعرها وعقدته كله برباطه القديم. وقفت وأخذت تمسح المكان بنظرات ثاقبة. الأريكة القديمة والحصيرة المتسخة والأكواب المترامية هنا وهناك، حتى خزانة الملابس الحديدية، المكونة من حاويتين، والتي لُصِقت عليها صور للسيدة البشوش، والتي لم تعرف من تكون، سيدة من ورائها هالة.

قالت الفتاة، "طبليّة!" وكانت النبرة السعيدة في صوتها سبب سعادة (عابد)، الذي استدار واتجه ناحية الطبليّة ومسكها بطرف يده. احمرّ وجه الفتاة بألوان وردية، وطأطأت رأسها.

"بقولك..." قاطعت نفسها بتردد ولم تكمل، لكن الكلمة كانت قد بلغت الحلقوم وتُعافِر للخروج، فأكملت، "مينفعش أعيش عندك."

كان عابد يقترب ناحيتها، وتلك المرة لم تبتعد ولم تجزع. بشيء من الطيبة، كانت تتكلم، "أنا نفسي أعيش عندك هنا."

"بصراحة، أنا حاسة إن مفيش أي حاجة ممكن تحصل في المكان ده."

بالتفافة خاطفة، "إحنا ممكن نعمل حاجات كتيرة في المكان عشان يبقى أحلى."

بإشارة من اصبعها، "يعني ممكن نشيل الدولاب ده ونحطه هنا. آه، والسرير ممكن نخليه في المكان ده أحسن."

"بس!! أنا... أنا لازم أمشي؟" وكأنها تتكلم وتسأل نفسها، تنتظر من نفسها الإجابة وتلوم نفسها على الثقة الغير معهودة، والحديث المُبشِّر الذي كانت تبوح به. على طرف السرير جلست، وعبست من الكدر الذي ألمّ بها.

"بقولك إيه؟ تتجوزني؟" بفرحة انقلبت سريعًا إلى الحزن والخوف، أجابت على نفسها، "لأ! ده مش ينفع يحصل أصلًا."

صمتت الفتاة وقررت أن تنظر إلى (عابد) كيفما ينظر إليها. كانت ترى البريق في مقلتيه. بريق يتلألأ كنجمة في الفضاء، لا تزاحمها النجوم. غير أن نظراته اتجهت إلى يدها المبسوطة على الفراش. رأي نحرًا على شكل خطين واضحين، رأى حروفًا اسودت، منقوشة بالجروح على ذراعها، فحزّ الأمر في نفسه وعقد ما بين حاجبيه. سريعًا سحبت الفتاة يدها، وجمعت أطرافها، وقالت، "متبصِّش على دي! مش هتعجبك!"

حتى أنها أغمضت عينيها لأن الوخز الشديد ضرب فيهما. تذكرت المرأة التي كانت تُعاقِبها بالألم، تشق يدها بنفسها وتكتب عليها ما لم تستطع الأقلام كتابته.

أخذت نفسًا عميقًا ثم سألت، "مش ناوي تقولي اسمك إيه؟"

هز (عابد) رأسه موافقًا ثم هزها رافضًا، بعدها أشار إلى الفتاة.

قالت الفتاة، "أنا!!"

"مممم، أنا؟ أنا مريام،" وكانت عينها زائغة متحيرة، ونظر مرة أخرى إلى ذراعها، فأبعدتها بضيق.

أخرج (عابد) لسانه من بين فكيه بصورة تدعو للتقزز، لكن الفتاة كانت تتبع ما يريد أن يبوح به، "إنت عاوز تقول حاجة؟"

قالت وأنصتت، "اتكلم، قول، أنا سامعاك."

بعد جهد مرير ومحاولات عدة، تمكن (عابد) من إخراج نبرة ما. دُهِشت الفتاة وسألت، "إنت عاوز تقول إيه؟ مش فاهماك!"

حاول عابد مرة أخرى، ونفس النبرة، حتى أن يأسه دفعه للحنق، وكان الغيظ يزحف على شفتيه، فأمسكت الفتاة يده، فتوقف على الفور. توقف عن أي حركة تصدر منه. يدها كانت شديدة الرطوبة. كان يتأمل الرفق وهي تربت على كفه.

نطق (عابد)، "مُ... مُرا... مُراجة."

سعادته كانت لا توصف وهو يردد، "مُراجة... مُراجة... مُراجة..."

أومأت الفتاة بزهزقة، وقالت، "قصدك أنا! مُراجة!" وكان (عابد) يُطأطِئ رأسه بالقبول.

رددت الفتاة، "مُراجة! مُراجة! مرجانة..."

أشاح (عابد) موافقًا ومردِّدًا الاسم الوحيد الذي استطاع أن ينطقه. كان يشعر بالنصر الكاسح الذي لا يفوقه نصر، وكان يزداد

بتلك الفتاة الجميلة، التي لم ير مثيلًا لها من قبل.

همهمت الفتاة، "مرجانة! مممم! ماشي، إنت ممكن تقولي مرجانة... أنا مرجانة."

تلك الشفاه المطويّة وذلك الصندوق العجيب الذي أخرجته الفتاة من بين طيّات ملابسها، تلك الملابس التي كانت قد غسلتها وبدأت تعلقها أمام النافذة. التف (عابد) مثل الطفل الصغير الحائر، ينطق أحرف اسم (مرجانة) بطريقته الخاصة وبصوت لا تسمعه.

قالت الفتاة، "إيه رأيك في الراديو بتاعي؟ حلو، مش كدة؟ أنا أخدته من آخر مكان كنت فيه."

"إنت تعرف إني مخطوفة؟"

"الشباب دول خطفوني من أهلي."

"لأ، أنا مش مخطوفة."

"أنا أصلًا مليش أهل."

بسبب نظرة الحزن، أدارت الفتاة أزرار الراديو، فنطق بكلمات لا تبدو كالكلمات، مجرد أنغام أسرت وجدان (عابد)، فمكث غير بعيد، كمن يجثو على الأرض ويُنصِت بشدة. نفس ذات الشعور الذي غمر الفتاة.

لا هو ولا هي يفهمان، ولكنهما يشعران، يشعران بدفء الألحان وانتقال الروح من سلم أعلى إلى سلم أدنى، ورقصات على الدرجات. هكذا مكثا لفترة من الزمان، بعد أن وضعت الفتاة الراديو على الطاولة إلى جوار السرير وأطفأت كل بواحث خوفها.

كانت تسبح مع الألحان وكأنها تعزف لحنًا خاصًا بها. هي لا تعرف ماهية تلك الأسطر السحرية، ولا تعرف كيف تأسرها إلى ذلك الحد.

في ضياء الفجر وتحت قمر مستدير، كانت تشعر وكأنها ترقص بلا خوف من الزمان، مُتحرِّرة من قيود الماضي، مُتحفِّزة إلى مستقبل أفضل. هكذا نسيت نفسها، وهكذا كانت تبتسم. هكذا قطبت بامتعاض، وهكذا دمعت.

أمسك (عابد) يدها، ووضع كفه المستطيل على الخطين البارزين من يدها. نقرة في الرأس شديدة الألم، سيدة تتقدم كجلاد العذارى، تضع السكين على النار حتى تتوهج أطرافها. انتفضت (مرجانة) لأنها استعادت ملمس النار على يدها. ألم شديد لم يكن يبارح أفكارها أبدًا.

(عابد) الذي برك أمامها على الأرض، كان يربت على كفها بحنان. كانت عينه مُنصبّة على ألوان تتلألأ بين دموعها. كانت النغمات تعلو وضوء المصباح الأصفر يحترق باهتياج، كشمعة تخطُّ نقشًا لليلة حالمة. مرارة الضياع ولطمات الشوارع وبرودتها، وجدت (مرجانة) أخيرًا سبيل السكون. تلك الفتاة الصغيرة كانت قد اقتربت كثيرًا من حلمها. تلك الفتاة التي تشبه الصلصال، لا تزال تتشكل شخصيتها، لا زالت تبحث عن الاستسلام للأمل.

كانت قد مرت الساعات على ذلك، وربما دقائق قليلة فقط ما بين (مرجانة) و(عابد). هكذا استدار (عابد) وترك المجال

لها كي تضع الجلباب الفضفاض جانبًا وترتدي ملابسها برغم تبللها إلى حد ما.

هكذا وقفت، وهكذا أمسكت بيد (عابد)، وهكذا تراقصت كفتاة الباليرينا، تختال بكل أمواج حولها. منسيّان، تائهان، في وقت كان القمر فيه يتسرب لهزيمته، لتعود الشمس بقوتها وهيمنتها، وتعيد الضوء الذي يكشف الحقائق. ساعات لم تملّ من الدوام، طاقة في الجسد لا تنتهي. صغيرين كانا، وصغيرين ظلا.

لا، لم ينته العزف...

طرقة الباب، صريره المعهود، أشياء تُلقى على الأرض، وصوت ينادي، "عابد..." ولكن (عابد) لم يكن يسمع غير صوت الموسيقى. ترجلت الأقدام مسرعة، لتبصر فجيعة المشهد الآثم. هي الأفكار التي دارت في خلده وقتها، وهي الأفكار التي حفّزت بداخله براكين الغضب.

شر البليّة دفعه للصياح، "عاااااابد، يا ملعون!"

لم يعبأ (عابد) للنعاق، لأنه لم يكن هناك. ورغم استمرار الرجل في الصياح، إلا أنه ظل على حاله، لكن الفتاة فزعت، تراجعت للوراء وتبدّلت ملامحها إلى التوجس الشديد. كانت تُردِّد، "أنا معملتش حاجة... أنا معملتش حاجة..."

بينهما وقف (عابد)، والرجل الذي كانت يده لا تزال تحمل قوته، أراد أن يقبض عليها من يدها، لكنها قفزت للوراء.

صاح الرجل، "حريم يا ملعون! هتحِل علينا لعنة الرب."

"يا مريم، يا عدرا، المغفرة والسماح،" وظل يبتهل، وظل يُحاوِل أن يُمسِك بالفتاة التي قفزت من فوق السرير وتعثرت، واصطدمت بقوة في الأرض، لكنها تداركت نفسها رغم الوجع، وهي تنظر إلى (عابد) نظرة الاستسلام.

طريقها الوحيد، طريق الفرار، بسرعتها الخاطفة كانت تسابق الألحان في الراديو، والتي كانت ألحانًا منتحبة ونبرة حزينة. خلفها أسرع (عابد)، يلهث ويترجى، يدعوها ولا تسمع، يمد يده إليها ويُكرّر اسمها في أسى، "مُراجة... مُراجة..." بينما ظل الرجل بغضب جم يُبعثِر الأشياء باحثًا عن شيء سميك، لم يجد سوى الحزام، حزام سرواله القديم.

كانت قد ابتعدت عن المنزل، كانت تتلاشى في آخر قطرات الظلام وقت الفجر، و(عابد) بدقات قلب مضطربة تمنعه من الركض في إثرها، كان ينظر إليها بحسرة من خلال الباب، والرجل المارق ناحية العَجَز يصب اللعنات بعد أن ابتعدت الفتاة، وانهال على ظهر (عابد) بالضرب بالحزام، يُسهب ويدعو، ينتحب في طلب المغفرة من الرب.

حينها، شهق (عابد) من الأسى، لم يعد يسمع صوتها، لا يشعر بلسعات الحزام، لا يفهم زجرات الرجل الغاضبة، لا يسمع إلا ألحان الموسيقى ورقصاتها الجنونية التي لم تكن تُفارِقه.

أغمض (عابد)، الولد الصغير، عينه لأنه لم يعد يراها. فتح (عابد) الذي كان ممددًا في فراشه الضيّق عينه لأنه كان قد رآها.

لعلها الرؤيا في منامة الهلاك. كان قد أفاق من هجوعه. ما بين عظام صدره كسور وخدوش.

ظلام تتخلله ظلال تتحرك بلا نظام.

بلا حركة وقيود مثبتة بإحكام.

زفرة حارقة!

****

" 26 "

نيـــــران

فـي الجحيم تستعر الأرواح من العذاب
جحيم الحياة الأبدية الذي لا يزول
في نيران الخلد تذوب الجلود وتتبدل جلودًا غيرها
كسوة يلتحفون بها من حرارة الخبث الذلول
صحراء بلا غيث ولا نهاية
تحرق موضع الأنامل وتبث دماء الشر في الروح البتول
كوباء ينتشر حتى يعلو باستفحال
ويأسر كل خلية خير لا تهوى المثول
في طريق الموت نيران تستعر
تهس كالأفاعي وفي الأراضين
ليعلو صليل تتبعه حوافر الخيول
بتباشير الانكسار وتباشير القبول
الخير والشر... الحياة والموت... الفقر والغنى
كلها أمجاد من السماء
كلها أنصال مغموسة بالدم
ما بين أقواس الزمان وأبناء الخطيئة العائدون
يعيثوا في الأرض الفساد
على تراب الكون يبصقون

وفي رحاب العالم يخطئون
حتى تعود الشمس إلى موضعها
وينبثق نورٌ في السماء الدنيا
فكل معاني الحروف عدم
وجُل معاني الحياة الموت
ألا إن في النورانية آية الحياة
ألا إن بعد الحياة انتصار
التوبة بعدها عذاب
والأقدام الزاحفة على التراب كلها
تبحث جاهدة عن سراب
بين أصابع الإله وتحت أقدامه
كل الرؤوس الساجدة هباء
تمجيد ثم تمجيد ثم انتهاء
أبيات الشعوذة في سرادق الأوهام!

همهمة مضطربة وأنفاس تتصارع في عبور النفق الضيق، حيث تبتسم الشفاه ابتسامة أبدية، وتشتعل النظرات بنيران الجحيم، أباريق تصب الحمم على جليد القلب بين أصابع مجعدة، لعنها بأس الزمان بعجز قريب، فأغلق الكتاب وكان قد قرأ منه شيئًا يسيرًا، كتاب بلا عنوان، كتاب لونه أسود.

أسود هو لون أوشحة تضع الطلاسم على الأوجه، هو لون الظلام الذي صار يسري في الممرات بعد أن انفجرت البوابة الحديدية بفعل سيارة مدرعة، كانت قد اخترقت للتو إلى داخل باحة المشرحة.

بعد أن تفجرت المصابيح وأطفأت أنوارها بطلقات الرصاص، وساد صمت رهيب بعدها،

لتبدأ دوامة أخرى من الكر والفر، حتى ارتفعت ألسنة اللهب إلى أطراف السماء، زاحفة عبر البيوت، بعد أن انفجرت أنبوبة كانت قد ألقتها أيادٍ شابة، اعتلت سور الشرفة، وبكل عزم ألقتها على السيارة المصفحة، وقت أن تميّزت الملامح بتباشير القوة، بأذرع نحيلة، تصنع علامة النصر من خلال ملابس داخليه ملونة، وصدر مقوس عاري.

ضحكته التي أظهرت أسنانه الصفراء كان قد بذل فيها كل عضلة من عضلات وجهه. ضحكة تنبع من أفكار متراكمة من أفلام الأكشن والأبطال الخارقين، وذلك الوقت هو الوقت المناسب كي يكون واحدًا منهم.

طفل في ثوب الرجال، لم يكن قد خط شاربه إطار أنفه، حتى أن الضربة التي أتت من قوة ديناميكية أكبر، من قوة ليس لها رادع، أنهت على اختياله بنفسه وأعادته إلى الواقع، ضربة الأب على قفاه.

وقف الرجل الذي بدا وكأنه قائدهم، بعد أن أماط اللثام عن وجهه، وظهرت لحيته الشعثاء المُخضّبة من أسفل أعين تلطخت باكتحالها بنقوش سوداء، تبدو ملامحه غريبة عن تلك الأقطار.

بصوته الأعجمي ولكنته الدخيلة، تكلم، يدعو في غضب ثائر، "... احرجوا المكان، خلوه نار."

نداء لم يكرره ثانية لأن الأعيرة النارية ناحية الباب الأزرق كانت الإجابة الفورية. فقط عندما تمكن (حامد)، ثالث الرجلين الغارقين في بركة دمائهم، من الدلوف إلى داخل المبنى، ولم يجد الوقت لأن يغلق

الباب من خلفه، لأنه هرع مسرعًا في الممر، بعد أن تعثر وصار يزحف لأمتار على الأرض، يلهث بصعوبة ويستند على الجدران، حتى ينتصب في بحث حثيث عن مكان يختبئ فيه.

انتقلت الأنباء بسرعة الريح في شوارع القاهرة، تسبح من خلال زحام السيارات في ممراتها وتكتل المشاة على الأرصفة وفي الطرقات، حتى أنها اخترقت الحاجز الأمني لمبنى المديرية، إلى مكاتب الضباط، إلى مكتب مساعد مدير أمن القاهرة، والذي هبّ فزِعًا من مقعده الدوّار، لتصطدم قدمه في المكتب، لا يكترث للخدر الموضعي الذي تأفف به، ليوصل الخبر إلى المدير، والمدير إلى مساعد الوزير، ومساعد الوزير إلى الوزير.

عندها وقفت قليلًا، ليُعِيد الوزير الكرة تنازليًا، إلى مساعد الوزير، ومنه إلى المدير، ثم إلى مساعد المدير، إلى الضباط الذين تجمعوا سريعًا، لا تميز الواحد منهم من كثرة الأقنعة والأيادي المنتفخة، والأجساد المصبوبة كألواح الخرسانة، إلى القوات التي اصطفت في طابور نظامي مثل الأقلام المتراصة من العمليات الخاصة – سرايا الدعم القتالية – وحدات التدخل السريع – مكافحة الارهاب الدولي – قوة انقاذ الرهائن (333) – قوات الشرطة.

وتصاعديًا، بحشرجة ولغة يُحاوِل أن يُظهِرها قوية متماسكة، إلى رئيس الوزراء، الذي أصابته الفاجعة بمفاجأة، استغرقت بضع ثواني، والذي نهنه وتهته، وتكلم بكلام غير مفهوم ثم لم يعلق، بل أعاد الاتصال إلى رئيس الجمهورية المؤقت والذي كان يتكلم

بهدوء شديد، ولغة عربية متقنة، لا يشوبها الاعوجاج.

أعطى الرئيس أوامره بفرض حزام أمني حول المنطقة، وإطلاع القوات المسلحة وتدخلها في حالة فشل جهاز الشرطة في السيطرة على الموقف في الوقت المحدد، وبالطبع، إلقاء القبض على الإرهابيين أو أحدهم على الأقل، وانتهى الاتصال بنبرة مضجرة ساخنة، "مصر أمانة يا ببلاوي، القذارة لابد وأن تنجلي عن أرضنا."

ليرد عليه، "بالتأكيد يا ريس..."

أمسك (مراد) برأس الطبيب، يدفعه إلى الداخل. يودّ لو أنه يغرس المشرط في جسده فينتهي منه، لكنه فضّل أن يتركه على قيد الحياة، وقد كان انتحاب الطبيب لا ينقطع، ويتكلم باستمرار، حتى أن الصداع استوحش في رأس (مراد) من الضجيج المتكون في أذنه.

"مين دول؟"

"دول أكيد هيقتلونا. صح؟ أكيد هيقتلونا."

"أنا بعد ما شفتهم، أقدر أقول إنك مش إرهابي. لأ، إرهابي إزاي؟"

"لا، بجد، إنت مفيكش البتاعة اللي فيهم دي."

"إنت عارف؟"

"تفتكر هنموت النهاردة؟"

"أنا مش عايز أموت. عشان خاطر ربنا خليني أعيش."

كان (مراد) يغمض عينه وقت أن انتفخت أوداجه في محاولة غير مجدية للسيطرة على نفسه، كان يتكلم مع عقله، "المسدس مفيهوش غير كام طلقة، مممم! أربعة..."

تشبث (يونس) في ملابس (مراد) بطريقة هستيرية، بأصابع مقوّسة وخاتم فضي، يكاد يمزقها من فرط توتره.

"إنت لازم تحميني. إنت لازم تخرجني من هنا سليم."

ضرب (مراد) بيده، ففتح احدى الأدراج الثلاثية، وقال، "ادخل هنا."

"إنت مجنون؟" تمتم (يونس).

"أنا مستحيل أدخل هنا. ده درج الميّتين."

قال (مراد) بغلظة، "عايز تعيش، اعمل نفسك ميت."

نطق (يونس) متلعثمًا، "لا! لا! لا! أكيد في طريقة تانية."

"الأحسن إننا نهرب من هنا."

ردد (مراد) وهو يستدير ناحية المدخل، "مفيش هروب،" وكان يقولها بنفس شديدة الثبات.

ما إن رأى (يونس) تلك النظرة المارقة حتى أذعن وطأطأ رأسه بهمهمة رافضة، ولكنها لا تجد بُدًا من الخضوع، ليتكور داخليًا ويدخل جحر الموتى، وقبل أن يُغلِق (مراد) الدرج، أمسكه (يونس) من معصمه وقال في يأس، "أرجوك متنسانيش هنا! أنا ممكن أموت فيها."

غمز (مراد) بإيماءة متهكمة من شفتيه ثم أغلق الدرج، وصوت (يونس) لا ينقطع عن الاستجداء أو التوسل.

صوت الحذاء المُدرّع على الأرض، صاحبه يشير بسبابته إلى الباب، ويقول، "دوروا على إخوانّا..."

قال آخر، "ولو..."

فقاطعه بنظرة قاطعة، "روح بول ونام،" وأكمل، "بواعيلي! إن لجيتوا أي حدا، اجتلوه..."

"تمام!" وتمتم الثالث بغمغمة خفية، "شش! جريذي وذيله مكناسه!"

فتح الباب وترجّل اثنان بينما ظل ثالثهما في الخلف، يرقب تحركاتهما بإمعان. يرفع حاجبًا ويُنزِل الآخر، ويُعلِّق البندقية من حزامها على كتفه، ثم أخرج سيجارة بنية، تبدو كإصبع الكفتة، وأشعلها بقداحة رمادية اللون عليها الكتابات والنقوش وتعلوها جمجمة.

جمجمة مربعة استدارت إلى اليمين، تمسح في الظلام كل ركن من أركان المكان، مكتب صغير وعليه الكثير من الدفاتر المستطيلة، دفاتر الحضور ودفاتر الانصراف، ودفاتر أخري لتقييد حركة الأموات، وإلى هناك ترجل، وقام بفتح شباك حديدي صغير، شباك التعامل مع المواطنين، ليسمح بقليل الضوء بالمرور.

بكفه الذي يشبه المطرقة، عليه نقوش خضراء لكلمات عربية تبدو وكأنها آيات من القرآن، ظل يُقلِّب الصفحات تِباعًا ويرقب

الأسماء كلها، الواحد تلو الآخر، ما بين ضربة بسيف أو طعنة بخنجر أو السم في ترياق الخديعة، أو الموت لأسباب مجهولة. ما بين رجل وفتاة وامرأة مسنة، صبي صغير لم يتجاوز اللحد، وأشخاص ما بين ذلك وذاك، كلهم قبعوا كأحبار على ورق، مجهولي النسب، بلا معارف ولا أقارب ولا وطن غير افتراش الطرقات.

فتّش الرجل الآخر وكان قد مر من البوابة الثانية وكانت مفتوحة على مصراعيها، وعلى يمينه، يضرب الأقفال بمؤخرة سلاحه، ويستمر في الطرق حتى انفتح شيئًا يسيرًا، مندهشًا، مد يده إلى المقبض ليجد أن الباب كان مفتوحًا، فحك رأسه واسترسل في ذلك حتى كاد أن يقتلع الجلد من أسفل خصلات الشعر.

رائحة الدخان كانت تفوح من بين أصابعهما، رائحة الكاوتش المحترق، بقايا النار التي تشبثت بملابسهما لكنها انطفأت.

الرجل الواقف، بعد أن اصطكت أسنانه من لفحة الصقيع التي انبعثت من داخل الغرفة التي تختفي من وراء صرير الباب، وجد المصاطب الحديدية مكدسة وعليها أناسًا بلون قرمزي ولون أسود، وأشلاء ممزقة وبعضها بلا ملامح.

كان قد اقتحم الصقيع ونفث بخارًا غير اعتيادي، إلى مسكن الموتى، حيث يضطجعون على الأسرة الحديدية، ملتحفين بأغطية ممزقة وملابس تعوصها الدماء، أجسادهم مخشبة كأنها لم تر الموت بعد. بريق في العين قد إنطفأ، لكنها نظرة الرهبة، نظرة الرهبة التي أبصرها على وجه أحدهم،

فاقشعر بدنه، وتمتم بكلمات تبدو كاللعنات، حتى استمالت روعته.

كان قد مر لتوه على زوج من الأسرة الثلاثية، يقلب الرؤوس كلها، وتتلمس أصابعه البشرة القاسية، خط أبيض غائر بين الأذن والعين، فيقذف بالوجه إلى اتجاه آخر ولا يستطيع. ابتسامة ساخرة من كرمشة أعلى وجنتيه، فتاة صغيرة اسودت شفاهها. سريعًا كان قد فحص الغرفة كلها، لكنه لم يتعرف على أي شخص من بينهم ينتمي إلى صفوفهم، فعاود الخروج وقد اجتاحته بوادر الغضب.

كان يرمي نظراته على الشخص الآخر، المنحني على الدفتر، يبحث فيه، "وجدت أماكنهم؟" وكان يسأل.

"لسه شوي، بس أكيد موجودين..."

"... ولو مو موجودين، بدنا ندوِّر في الثلاجات."

هز الرجل رأسه وأدخل أصابعه من تحت الوشاح ليحُكّ لحيته، "أوك، أنا هدوِّر في الثلاجة الثانية،" ليتحرك متى رأى اهتزاز عنق الآخر بالموافقة.

من البوابة الثانية وشباك الحديد الذي يثبتها، ما بين استقامة خطوط زرقاء تتخلل بياض الجدار، طرق الحذاء طرقات متقدمة، بعد أن ترك لفحات البرد المنبعثة من ثلاجة الموتى.

أصوات المولدات! كانت تتزايد على يسار الممر حيثما دلف. وقف في منتصف أدراج ثلاثية مرقمة بعلامات مكتوبة بخط اليد، حيث

تكوم (يونس) على نفسه في إحداها، وانقطعت أنفاسه صانعًا مشهدًا يفوق الموتى.

كان الدرج يهتز على اهتزاز أطرافه، وكان يحاول جاهدًا وتفر من لسانه الكلمات فرار الأسير. إلى جواره مباشرة كان الرجل يقف، وقف مدة ليست بالقصيرة وفي كل لحظة اعتقد (يونس) أن لحظته الأخيرة قد حانت. ساعتها، أبصر كل دقيقة من دقائق حياته. لم يتندّم على شيء منها أكثر مما تندّم على ذلك اليوم الأسود الذي قرر أن يدخل فيه كلية الطب أو بالأخص أن يتخصص في الطب الشرعي بالذات.

(مراد)، والذي كان يجثو في البعيد ويرقب الرجل ويشعر بكل اهتزازة من حوله. كان يتحدث بصوته الخفيض إلى نفسه، ويدعو الطبيب الجبان إلى الهدوء، لكنه قرر عدم التسرع والانتظار قليلًا.

هز الرجل رأسه رافضًا الفكرة أو مؤجلها، أن يباشر في فتح كل تلك الأدراج، سيستغرق الوقت الطويل، فكان قراره أن يتجه إلى الثلاجة الثانية، ثلاجة التجميد، متاريسها صعبة، ولكنه رفع السلاح على كتفه وأبدى قوة في فتحها.

نفس الأزيز وبرودة أعلى وسخونة انسابت، جعلته يُقطِّب عن حاجبيه ويعقدهما من الاستغراب. كان الأزيز ينبع من قطع في رقبته وأنفاس ملتهبة تنصب على رقبته، صوت المحركات أخفى أي صوت ربما استطاع أن يُصدِره.

(مراد)، والذي اقتنص فرصة انشغاله، انقض كطير جارح، لا هدف له سوى رقبة الرجل، حزّ

أسفل الحنجرة بجرح غائر، انقطعت معه كل سبل الحياة. كانت تظلم، كان يتجمد، حتى هوى...

وقف (مراد) وعلى يده الدماء. شعور غريب سرى في شرايينه. شعور يفوق الانتصار والهزيمة، شعور يفوق الجنون.

نادى الرجل القابع عن الدفاتر بجفاء، "راشد، وِجدت اسم واحد،" وبعد رجوع الخواء إلى إجابته، نادى مرة أخرى، "راشد! وِجدت اسم مأمون،" وكان يتقدم من الممر إلى المولدات، ومنها صوب ثلاجة التجميد.

"راشد! اهواية يا شيخ!"

عملية التفجير الأخيرة التي قاموا بها كانت قد تسببت في طمس ملامح مرتكبيها من بين عدد غفير من الناس، في ثلاجة التجميد كانت حالتهم محفوظة للمزيد من التحقيقات من السلطات، فمرتكبي الجرائم الإرهابية لهم معاملة خاصة، وقد تظل حالة الجثة مثالية لسنوات، حتى يتم التعرف عليها، ومطابقتها مع المعلومات المتوفرة عن العناصر الإرهابية المزمع البحث عنهم واختراق صفوفهم، وهو الأمر الأصعب في ظل الهياج الذي أصاب المجتمع.

أمام باب الثلاجة كان يقف ورأسه محنية على جثمان رفيقه. لا يتساءل عما ألم به، بل كان ينتظر. لا يتعجب ولكن يتربص بمن سيهجم عليه.

لحظات اقتصّها (مراد) ليطيح برأسه كما أطاح برأس الآخر، عدا أن إيماءة والتفافة من الرجل مُتفادِيًا الضربة كانت أسرع من حركة (مراد). بهجمة خاطفة وقبضة فولاذية

في أحشاء (مراد)، والذي انكفأ بصرخة مكتومة، ووجه شديد الاحمرار يكاد يتفجر.

"ويش بك؟ بتفكر إنك تِجتلني مثل هذا المعتوه؟"

"فكِّر مرة ثانية،" وألقى البندقية وانتصب في وضع القتال.

استجمع (مراد) شتات الخلايا التي تضررت أسفل عظام صدره. سال لسانه باللعاب وكان لا يستطيع الكلمات، على الأقل لبضع ثواني. بالكاد حملته قدمه وتراجع عدة خطوات إلى الوراء، حتى صارت المسافة بينهما تفوق المترين.

استل الرجل سكينًا كتلك التي كان يمسكها (مراد). في تباهٍ وخيلاء بقوته الأسطورية، كان يلف السكين ويُطقطِق أصابع يده التي تشبه آلة الموت، بينما يبتسم ابتسامة صفراء، ويردّد "جبا.... ء.. أ... آآآه!"

فجاءة، اصطدمت ركبتاه بقسوة على الأرض وجثا، صدمة أصدرت صوتًا يشابه صوت التكسر. شهقة سحب فيها كل الهواء المتبقي في الغرفة، وتقابلت عيناه حتى التصقتا سوية وارتفعتا، إلى أن ظهر البياض وخطوط حمراء تتشقق، وسكين (مراد) في منتصف جبهته بعد شحذ جل طاقته وعلى حين غرة صوبّها بإتقان. لم يستطع الرجل أن يزفر الهواء الذي تجمع في صدره، وهوى إلى الأمام فانغرست السكين في رأسه حتى برزت من الجهة المقابلة.

وقف (مراد) ووحد قواه، كان يشعر بالدوار رغم ذلك. أمسك السكين واقتلعها، فانبثقت الدماء، وتلطخ وجهه. تلك الدماء كانت تمتزج مع روحه التي تضررت، وعينه الغائرة

التي تتراقص رقاصات الجنون. شيء ما كان يشعر به. إحساس متبذل يرتدي جسد (مراد) من أخمص أقدامه حتى رأسه. كان يمشي ويكأنه ثعبان يزحف في الظلام، شبح ليس له وجود سوى بصوت أنفاسه. قلب ينبض في الممر الطويل المظلم.

"ألو..."

"... أغاتي..."

"شكو ماكو؟"

"رديف موجود، ماكو حدا على قيد الحياة."

"اقتله..."

في البعيد، كان هناك، آخرهم، يقف ويحدق بشراسة بعد أن وضع هاتفه جانبًا...

ألقى السلاح الآلي وترجل إلى الممر. شاهد (مراد) ظلًا أسودًا ينحني مثل شبح من أشباح الماضي. يده التي تختفي من وراء ظهره كانت تعتصر زجاجتين صغيرتين، سرعان ما ظهرا وقت أن فرد ذراعيه جانبًا، يقترب أكثر، ويتكلم مناديًا، "رديف!"

"مجابلتك ماكو متوقعة!"

"ويش؟ مخربط!"

باختلاجة ودهشة من قِبله اتجاه (مراد)، والذي لم يحرك ساكنًا.

"آآآه، نسيت! فكر ويصيح ويرر..."

"فكنا من شرك، أنا أنطيك فرصة أخيرة."

(مراد)، والذي كان يستنثر الغضب، مما جعله يقول، "حرامات رديف، موت هواي."

رفع (مراد) نظراته ببطء، ساعة أن نفش الرجل عن ذراعيه كالطاووس، يرفعهما عاليًا، والزجاجتان في آخرهما. سوائل مركبة، تمتزج وتتفاعل، قداحة تنفث الشرارات، بريق يصّعد إلى السماء ويهوى سريعًا إلى الأرض.

تكسّرت الزجاجات واستعر اللهب اعتلاء، وتصاعدت النيران لتعلن سطوتها وتستفحل بقوتها لتلتهم كل شيء. كل طاقات الظلام تجمعت في مشهد برتقالي متوهج. يقف في منتصفه (مراد) وعلى وجهه الدماء كمارد أو شيطان. صيحات كان يطلقها الرجل تدب في نفس (مراد) الاستسلام.

نيران!!

نيران في كل مكان!! ألسنة تبتلع الوجوه وتحرق الطلاء على الجدران. لا أبيض ولا أزرق، كل الألوان سواد. نيران لا تُفرِّق بين أجساد ودماء وأخشاب. نيران في حدقتي العين المتسعتين مثل مرآة كبيرة، مرآة تُظهِر الألم يطفو على الجسد.

طأطأ (مراد) وأومأ رافضاَ. كان يحبو للوراء باطراد، يتقلب كمن يزحف على الرمال الملتهبة، رمال تأكل أنامله، بينما لا يتنحى الرجل عن التقدم. أينما زحف (مراد) وأينما ذهب، ظلال الرجل كانت تتبعه.

لم يجد المفر من خواره!

لم تعد هناك قوة!!!

تجمّد (مراد)، أقدامه تغوص في موضعها، حيث الصيحات وأرجل تسرع بلا نظام، خبطات

وفرقعة مدوية وارتطام. صوت نسائي يصرخ ويُنادي بالحذر. صوت كان يحترق. صوت كان يئن. صوت ينتهي.

وقت أن كان الرجل يتقدم بثبات، يضحك بلا ضجيج، كان (مراد) يهوي، حتى استسلم وأحنى رأسه للأرض ذليلًا.

"بورجيك؟" قال الرجل من البعيد كهمس مريض في أذن (مراد)، همس جعله يغرق في مخاوفه المختفية.

"نيران..."

"هه هه هه!"

"نيران تحرج الدنيا حرج..."

كان قد وصل ووقف على رأس (مراد)، يرمقه باشمئزاز وافتخار. البطل المغوار ليس سوى أسطورة جوفاء، أسطورة سيدهسها تحت رحمة حذائه الحديدي، أسطورة في نطاق المسدس الذي أخرجه ووضعه على الرأس مباشرة.

قال الرجل بلكنة عربية أقرب منها للمصرية، "اليوم نهايتك، رديف."

"اليوم نهايتك زي ما كانت نهاية زوجتك وابنتك."

"هه هه هه!"

صرخ (مراد) صرخة من أعماق الجحيم الذي احتضنه، "آآآآ

تاك...

تاك...

تاك...

نقرات حادة!

نقرات كانت تخترق أنسجة العقل وترسم لنفسها صورة بين أودية النيران التي سكنها (مراد). نقرات كان يتتبعها. ألم رأسه كان يمنعه من الرؤية بوضوح. كان الممر في توهجه مثل لوحة هلامية، تملأها الألوان. لا يزال الرنين لم يفقد شدته. طنين يرُجّ مثبتات دماغه.

وجهًا لظل أمام غرفة التشريح، والتي ارتعشت الأنوار فيها. صدره الذي يعلو ويهبط مثل إعصار كاسح. مسدس من أسفل أشرطة بيضاء من أسفل قبضة في يد مهتزة، مصوب على جسد شخص نحيل يرفع كلتا يديه، يمسك بمشرطٍ لامع، وعلى استعداد لأن يهوي على الجثة القابعة على يسار الباب مباشرة.

"أقف مكانك..." قال (مراد)، وهو لا يستطيع أن يتكلم من شدة الحرارة والعرق الغزير، الذي أصاب رؤيته بالشلل. لم يتحرك، ولم يتحرك أي شيء سوى اليد التي هوت على رأس (مراد) بآلة حادة، فأظلم بعدها كل شيء.

ظلام قاتم لا يخلو من السكون ولا من أقدام مهرولة. جسد مجمد على الطاولة الحديدية من أسفل نيران زاحفة. خاتم الصليب يبرق. عين ساكنة سكون الموتى تُفتَح باضطراب. ظهر ينحني ويشهق شهقة الحياة.

أضواء المصابيح وسيارة مسرعة. صدره العاري وجسد بلا غطاء.

صراخ!!

أوراق المفكرة الصغيرة تحترق إلى جوار أربطة في آخرها مسدس!!

****

باوعيلي = انظر لي

جريذي وذيله مكناسه = مثل عراقي/ صغير في الحجم وطلباته كثيرة

اهواية = كثير

أغاتي = سيدي أو مولاي

شكو ماكو = ماذا هناك؟

أني أنطيك فرصة أخيرة = أنا أعطيك فرصة أخيرة

حرامات رديف = يا خسارة يا رديف

موت هواي = موت كثير.

" 27 "

بساط الخوف

تحت الأضواء الباهتة. تضرب بعصا صغيرة على الطاولة الخشبية، يزيد الصرع في جبهتها، وتزعق، "اكتبي..."
"اكتبي عشان تعرفي إنك غلطانة..."
"الخطيئة محتاجة الألم عشان تنمحي."
سيدة تربض أمام الفريسة، فتاة من أمامها تدمع وتئن. بين أصابعها تقبض على آلة حادة وتغرزها بقوة في ذراعها. كانت تصرخ، صرخات تُجلجِل بين عظامها، لكن شيئًا لم يكن يخرج من فمها. كانت صامدة ثابتة أمام السيدة التي تنعق وتثور، "اكتبي، اكتبي اسمك، عشان كل ما تبصي عليه تفتكري إنك لقيطة وملكيش أصل."
كانت تكتب! كانت تنطق! كانت تدمع! كانت تبكي! أصبحت تتمزق، داخليًا!

****

ستائرها لا تزال مُسْدلة برغم الجو العاصف والرياح. كانت الأمطار تهطل عليها إعصارًا، يكسر ما تبقى فيها من إرادة. كانت تشعر بالبرد وتشعر بالخوف. عباءتها الرمادية كانت تقطع الريح وترفرف باطراد. غطاء رأسها الشبيه بالمخروط، لونه أسود، وله علامة مميزة. صوته يصنع أزيزًا مزعجًا، بينما كل عضلة من عضلات جسدها تتحرك. من أسفل وشاحها كانت تحمل روحًا صغيرة. كانت أصابعه تتشارك، وكان يضحك ولا يبكي برغم ضراوة الطقس.

حينها، وقفت قليلًا كي تلتقط أنفاسها وتطمئن على الطفل الصغير. كلما أزاحت عنه الوشاح رأته يضحك في وجهها، فتضحك من

داخل روحها البائسة وترفع حاجبيها مستبشرة، تسأل نفسها، "نفسي أعرف بتجيب الضحكة دي منين؟" فتضع أصابعها على أنفه، تداعبه وتلاعبه، حتى تنسى أنها في طريق صعب وأن عليها الاستمرار.

ما بين الناس كانت تسير، كانوا يتأرجحون على جنبات الطرقات من المطر الذي لم يهطل بتلك الكمية من قبل، فمن يسكن في تلك الأرض يوقن تمامًا أن المطر ضيف غريب. كانت تشق الصفوف وتعاكسهم في المسير، وكانوا يبتعدون عنها ربما ليضعوا لها براحًا في الأرض لتمشي في سلام. ملامحها وهيئتها كانت تبعد عنهم الشك والريبة، فرجع الطفل إلى البكاء. بلا داعٍ كان يصيح ويصرخ. وقفت وكلها حيرة من أمرها. وضعت يدها على صدره، وقالت، "متقلقش يا حبيبي، هنلاقي أبوك أكيد."

عينها كانت تعود إلى وقت مضى...

كان الوقت قد مر سريعًا، في تلك الغرفة المظلمة وضعت نفس اليد راحة لها. في منتصف الطريق صمدت، لأنها تذكرت. في تلك الغرفة المظلمة، التي لا يدخلها شعاع الشمس، كانت تبكي، كانت تزعق، وكادت أوداجها تتفجر. طعم مر لا تزال تتذوقه في فمها. تمسك بطنها وتصرخ.

كانت تنوح وتعوي، "السماح والغفران، يا سيدة الكون يا عدرا."

كانت تتوسل رغم ذلك، "الخطيئة رداء الذل والعار، والألم طهارة الروح من الوجع."

إلى جوارها، مكثت سيدة أخرى، كانت تختفي تمامًا في ردائها الرمادي. تحمل عنها

الثقل وتُثبّتها في جلستها. على الأرض التي تخضب جزء منها بدماء جافة، قبعا سويّة. لم يبرح الليل ساعاته حتى ينقضي ذلك الكرب. كان وجهها محمرًا منتفخًا ونظرت على يسارها بنظرة حزن، وقالت، "ماجدولين، أختي. أنا شكلي هموت النهاردة!"

"أنا حاسة بالنهاية..."

"متقوليش كدة،" عقبّت (ماجدولين)، "رميس، إنتي لازم تعيشي عشان ابنك."

"آآآآه!" تململت (رميس)، وكانت تنطق، "الجسد متعب من الخطيئة. مفيش وجع أكتر من وجع الروح في معصية الرب."

"كل شيء وله غفران،" قالت (ماجدولين)، فقاطعت (رميس)، "نيران الجحيم، غفران وسلام."

"ماجدولين! ماجدولين!"

"أنا شايفاها... الأم البتول..."

"الإيبيفانيا!! الإيبيفانيا يا ماجدولين!"

"آآه! آآآآآآه!"

آلام الوضع المتعثر كانت قاسية، تلك المسكينة كانت تتلوى. لا تستطيع أن تلتقط أنفاسها المتناثرة في ظلمة القبر الذي أُسكِنت فيه. برغم الألم والجسد المنهك، برغم العرق الغزير والنبضات المتصلة، كانت تراه، ذلك الذي شقّت من أجله الجلباب وتعاهدا على الاستمرار. كان هو أول من رحل وتركها تحت أقدام الكاهن الأكبر. كانت لا تزال تشعر بروحه المضطربة. لا تزال تتمتم له بالمغفرة على ما ارتكب في حقها. هو،

الصيد الجريح الذي داوته ليتركها بين الذئاب...

"آآآآه! آآآآآآآآآآآآآآه!"

سكون! لا صوت بعده ولا بكاء!

هوت (رميس) بين ذراعي (ماجدولين) مثل خرقة بالية. (ماجدولين) التي أسرها الموقف وتسمّرت في مكانها، مُتحيّرة بين صديقتها التي فراقت الحياة، لا تزال دموع عينها لم تجف، وبين صغير مطبق الصدر، يعلو ويصعد، لا يبكي ولا يتحرك. شهقت (ماجدولين) وأرادت البكاء عنهما. لكم من الأيام مكثت صديقتها في سطر العذاب! ضمّت إلى رأسها (رميس) وانتحبت، "متقلقيش يا رميس، ابنك هيروح لأبوه. ابنك مش هيتربى يتيم."

في ردائها الرمادي، لفّت الصغير بدمائه بذلك الجزء المتشبث بأمه ثم رحلت. حذاؤها المسطح يطرق في أرضية الساحة. لا يترك شيئًا من ورائه سوى الظلام. عند أسوار الدير وقفت قليلًا، وقفت لترى الأنوار تُضاء، والرهبان والعاملون يتجمعون، لكن قرارها قد نفد. (رميس) كانت أكثر روح بريئة بينهم. كانت هي أول من رحل وتركهم.

(ماجدولين) رحلت، جاهدت بين ذئاب الجبل...

تحت الأمطار كانت تسير، وكانت تنظر إلى الطفل الذي هدأ بمفرده. كانت تشعر أنه ببراءته يعيش في عالم آخر، في دنياه التي لا تشبه دنياهم. لم يكن يشعر بما يدور في خلدها. كانت قد تعبت، أجهدت، لم يعد كتفها يقوى على حمل تلك المشقة. كانت

تعاكس القول الذي قالته في نفسها. هي لم تعد تقوى على الاستمرار. جسدها كليل وعينها لا ترى النوم. دائمًا تخشى من أن يصل إليها كما وصل إلى صديقتها، ذلك الراهب المارج.

رددت (ماجدولين)، "رميس! أنا آسفة، بس... بس..."

أخذتها أقدامها إلى شارع جانبي، حيث تلاشت عن الجموع، هناك تحدثت، "أرجوكي سامحيني يا رميس، بس أنا تعبت. مبقتش قادرة خلاص."

برفق شديد، كانت تضع الصغير الملفوف بملاءة بيضاء تحت أسوار كنيسة. كلما أسندته، كانت تشعر أن النيران تلتهم ذراعها. كان يضحك في وجهها أو هكذا ظنت. بعد أن أراحته أرضًا، قالت، "رميس، أرجوكي سامحيني..."

كانت تهمّ بالرحيل، واستدارت بالفعل نصف استدارة. غرغرة الطفل هي ما أوقفتها. هي التي أزاحت رأسها وأرجعتها. كان لعابه يسيل بغرغرة. كان يضع الأصابع بين بعضها ويضحك. (ماجدولين) تاهت في ملامح وجهه البريئة.

"ماجدولين..."

"ابني مش لازم يشوف الوجع اللي شفته. ابني لازم يعيش."

"خديه لأبوه، لما يشوفه أكيد هيحِن."

"أنا مسامحاه."

"صحيح دعيت عليه ميشوفش راحة. بس أنا دلوقتي مسامحاه."

"عشان خاطري يا ماجدولين..."

"ابني... ابني... ابني..."

"عابد... عابد... عابد..."

بكت (ماجدولين) بكاء الميؤوس من حالته. إلى جوار الطفل جثت ووضعت إصبعها بين أصابعه. لم تكن تفكر فيما فعلت، بل فيما ستفعل. خوفها لم يكن عليها وحسب، بل على الطفل الصغير. كانت ملاحقة، منذ اللحظة التي قررت أن تأخذ الطفل وتفر من الدير لتبحث عن والده، أصبحت مطاردة. مطاردة لأنه لن يتركها، ذلك الراهب الأكبر، ذلك الذي عذب صديقتها، وتركها لتلقى حتفها.

هزت (ماجدولين) رأسها المبللة، وأزاحت عن عينها غمامة اليأس، ثم قالت، "ابنك هيرجع لأبوه يا رميس، بس قوليلي أعمل إيه؟"

"ساعديني... أنا مش عارفة أعمل إيه."

"مش عارفة أروح فين وأطلب مساعدة مين."

"آه يا مريم يا عدرا. أرشديني..."

رأسها المطأطأة والتي تظلل الطفل، ظللتها غمامة أخرى، غمامة أبعدت عنهما المطر وسوءته. كانت تبكي وحالتها يرثى لها. (ماجدولين) لم تكن مثل صديقتها. هي لا تتحمل الألم والعناء، ربما مشقة العبادة وحسب. أول ما دفعها إلى الرهبنة أنها تخشى من الليل. تخشى غرفتها الصغيرة القاتمة. تخشى الأماكن المظلمة.

وقت أن رفعت رأسها، رأت المظلة فوقها، ورأت فتاة شابة ربما لم يتعد عمرها السنة الثامنة بعد العقد الأول، كانت تبتسم

ابتسامة خيالية، أزاحت ما كان في صدر (ماجدولين) من غوغائية وحماقة.

تكلمت الفتاة، "أنا آسفة جدًا. أنا شفتك قاعدة هنا وبتعيطي. مرضيتش أسيبك وأمشي."

"لا يا حبيبتي، مفيش أي حاجة،" وكانت تمسح دموعها بطرف ملابسها.

قالت الفتاة، "لأ، إزاي؟ إنتي كنتي قاعدة بتعيطي،" وبعد أن حكّت مؤخرة رأسها، وشعرها الأشقر المائل إلى تدرج الألوان البنية، كألوان شروق الشمس في ليلة خالية من الغيوم، أكملت، "مم! هُوّا ممكن يكون الموضوع مش يخصني، بس..."

"هُوّا أكيد مش يخصني، بس أنا عايزة أساعد."

ابتسامة شديدة الصفاء أربكت (ماجدولين). قالت الفتاة بعد أن نظرت إلى السماء، "آه، شوفتي، أهو المطر خلص،" فأغلقت مظلتها ثم التفتت إلى الصغير، وعقدت حاجبيها بعد أن جلست إلى جواره، "هُوّا كويس؟"

"شكله عيّان..."

قالت (ماجدولين)، "لأ، مش عيّان. هُوّا مولود كدة."

"ده عابد..."

"عابد!"

"اسم غريب قوي. بس جديد برضو."

"هُوّا ابنك؟"

"لأ، آه، لأ! لأ مش ابني..."

قالت (ماجدولين)، "ابن صاحبتي، بس هي توفّت وأنا بدوّر على أبوه عشان أرجّعهوله."

"وهُوّا أبوه مش عايزه؟"

"لأ، دي قصة طويلة..."

وقفت الفتاة وانتصبت تمامًا، كانت ترتدي سروالًا وقميصًا، وتضع في رقبتها قلادة، لا يظهر منها إلى شباكها.

قالت الفتاة، "أنا كارما... أنا هساعدك..." وجهها كان أكثر ليونة وجمالًا.

تعجبت (ماجدولين)، وكانت قد وقفت وحملت الطفل بين يديها.

قالت (كارما)، وكان لها ذلك الرنين العجيب في نطق الحروف. رنين أرغم (ماجدولين) على السكينة، "أيوة... أنا هساعدك..."

"... أصل أنا صحفية."

زاد اندهاش (ماجدولين)، ففسرت (كارما)، "أوك، أنا عايزة أبقى صحفية،" وأكملت، "واضح من لبسك إنك راهبة. لو كنتي عايزة تروحي لكنيسة كان زمانك رُحتي، بس واضح إن في حاجة أنا معرفهاش..."

"مش مشكلة! بس أنا أعرف حد بيدوّر في الحاجات. زي ما إنتي شايفة، أنا كمان بدوّر على حاجة معينة خاصة بينا."

ردّدت (ماجدولين)، "إنتي كمان!" وكانت تقولها سرًا.

قالت (كارما)، "تعالي معايا، أنا متأكدة إننا هنلاقي الشخص اللي إنتي عايزاه."

أمسكت (كارما) يد (ماجدولين) واصطحبتها ومعهما الطفل الصغير. سريعًا تلاشوا جميعًا بين الأقدام التي دلفت إلى الشوارع مرة أخرى بعد أن انتهى المطر. ألا إن في المطر كان البعض يلعبون ويمرحون، وكانت الأجساد تتلقى القطرات ولا تُلقِي بالًا للبلل، فالمطر ضيف عزيز، وله طقوسه الخاصة.

لا مدينة تأتي على غرار القاهرة، فالقاهرة لها طابع متعلق بها. في كل صباح أو مساء ينزح الناس إليها، والقادمون أكثر من الراحلين.

فُتِح الباب، باب شقة متربّة. دخلت (كارما) ومن بعدها (ماجدولين) ومعها الطفل الصغير. كانت شيئًا ما متوجِّسة، لكن (كارما) أخبرتها، "متقلقيش، أنا عايشة هنا،" وقالت ضاحكة، "اعذريني، المكان مش نضيف قوي، لأني معظم الوقت مش ببقى موجودة."

همهمت (ماجدولين)، فقالت (كارما)، "ممكن تحطيه هنا، وكانت تشير إلى أريكة وطاولة.

نظرت (كارما) إلى ساعتها، وقالت، "زمانه جاي."

سألت (ماجدولين)، "هُوّا مين ده اللي جاي؟" وكانت تهمّ بالرحيل.

سارعت (كارما) في التفسير، "اللي هيلاقي أبو الطفل..."

"... اقعدي، اقعدي، متقلقيش."

وقت أن اختفت (كارما) عن ناظرها، تعجبت، فكرت (ماجدولين) أن ملامح (كارما) وملابسها وهيئتها وحتى طريقة كلامها لا تقول أبدًا

أنها تسكن في ذلك المكان. برغم كل شيء، كانت تشعر بشيء غريب وكانت تخاف من تأكد شكوكها.

بنظرة سريعة كانت قد مسحت الغرفة كلها، وكانت ترى الأتربة في كل مكان، فوق التلفاز وبين الكتب المكدّسة على الأرفف وحتى على الطاولة. مكتب متخم بالأوراق، بعضها يبدو قديمًا، ربما من الغبار، ولمحت ببصرها أغلفة من أسفل الأوراق مكتوب عليها: (قضية الراوي)، يليها (النائم)، وضاقت عينها على الغلاف الأزرق المصمت. لم تكن ترى ما عليه بوضوح وحاولت أن تقرأه ليس إلا بأحرفه الأخيرة، (---عفران)، لتعود (كارما) وفي يدها كوب الشاي، والذي تاهت معه (ماجدولين) لأنها تعشق الشاي كعشقها للعذراء.

"شكرًا قوي قوي،" قالت (ماجدولين) وقابلتها (كارما) بالابتسام.

طرق الباب، ودخل حذاء مكدس بالطين. رأت (ماجدولين) رجلًا يرتدي قبعة ليست بشرقية، ومعطفًا طويلًا يصل إلى كعب القدم، زيتي اللون، وكان شديد البلل. عطس عدة مرات وهو يضع القبعة فوق حاملة التلفاز. سوالفه المتصلة وذقنه المنمقة كانت ترسم له ملامح خاصة. بمجرد أن رأي (ماجدولين)، تلعثم وقال، "أوه! أنا آسف..."

"... مش تقولي يا كارما إن عندنا ضيوف."

مالت (كارما) قليلًا إلى (ماجدولين)، وقالت، "مش قولتلك زمانه جاي؟ ده بقي أحسن محقق خاص في البلد، الأستاذ الكبير

آسر الراجي،" أمام دهشة (ماجدولين) وسعادة (كارما)، ترجلت ناحيته.

تكلم (آسر) بصوت خفيض، "ها! عملتي إيه؟"

همست (كارما) بنفس حدة الصوت وحدة التركيز، كانت مختلفة تمامًا، "للأسف ملقتش حاجة، بس أنا مستمرة."

"مش يمكن مجرد توجسات يا كارما؟ يعني ممكن ميكونش حقيقة أصلًا."

"لأ، أنا متأكدة من تخميني."

"طيب براحتك،" ثم قال، "مش تعرّفيني على ضيفتك."

استدارت (كارما) باختلاجة، "تصدق معرفش! هُوّا حضرتِك اسمِك إيه؟"

"ماجدولين،" أجابت سريعًا وبرويّة.

مالت (كارما) على أذنه وهمست بكلمات، فقال، "طيب، نسمع من الست ماجدولين إيه الموضوع."

بدأت (ماجدولين) في الحديث. كانت تتكلم وتحكي وكان يسمع و(كارما) تُنصِت بعناية.

"واسمه إيه؟"

"عطا..."

"عطا إيه؟" سألت (كارما).

"عطا إيميل حنا جرجريوس..."

ومرت الليلة، وربما مرت الأيام. في بعض الأوقات كانت ترى (ماجدولين) (كارما) حائرة البال، وكأنها تفكر كثيرًا وتحمل على رأسها أعشاش الطيور كلها. حينما تناديها، لم تكن تجيب، وحينما تكلمها، لم

تكن تستجيب. لكن الشيء الوحيد الذي قامت به (ماجدولين)، أنها أعادت ترتيب الشقة بأكملها، وقلبت الأغراض كلها تحت دورية النظافة.

كانت (ماجدولين) تحمل الطفل (عابد)، ترضعه من قنينة بلاستيكية، حين أتت (كارما) بوجهها البشوش وقالت، "خلاص عرفنا مكانه."

"بجد!" قالت (ماجدولين) مُتهلِّلة، فأجابتها (كارما)، "أكيد."

لحظات...

أمام البوابة وقفا لخمس ثواني، كانت (ماجدولين) تقرأ ببطء واهتمام، "دار أيتام النشأ السعيد!" وكانت تتعجب لحال الدنيا.

لما باشرت (كارما) واقتحمت الهدوء الذي لم يستمر طويلًا، كانت (ماجدولين) تتبعها وتتكلم إلى الطفل (عابد)، "خلاص، لقينا أبوك يا حبيبي."

"خلاص يا رميس، لقينا عطا."

سألت (كارما) احدى السيدات وكانت قد ترجّلت كالسيف القاطع من الدار لتوها، "لو سمحتي، بعد إذنك؟" وكانت تلك السيدة الشابة مرتعدة الفرائص، متخوفة، وجهها تجعد إلى درجة الشيخوخة، كانت تُكلِّم نفسها وتُردِّد، "أنا أعمل طيب؟ معنديش حل تاني!"

مرة أخرى، "لو سمحتي؟ بعد إذن حضرتك."

لكن السيدة لم تلحظهم من الأساس، ولم تلتفت إليهم. كانت لا تزال تُغمغِم بينما

تقترب من أسوار الدار، "إنت السبب يا والدي، إنت اللي عملت فيا كدة..."

تكلمت (ماجدولين)، "بعد إذنك يا بنتي..."

التفتت السيدة الشابة وكان بؤبؤ عينها يتراقص بلا توقف، كأن شيئًا ما أخرجها من ضياع تفكيرها إلى ضياع وجودهم.

"نعـ... نعم!" تلعثمت الشابة في الحديث.

قالت (كارما)، "كنا عايزين نسأل عن واحد اسمه عطا؟"

"عطـ... عطاااا!" صاحت السيدة، "أنا... أنا معرفش،" وبعد أن ابتلعت الكثير من الهواء وأخرجته تارة واحدة، أتبعت، "هتلاقوه جوة."

سارت معهما السيدة إلى الداخل، حيث تكوّمت المقاعد على الجوانب، وزعق صوت رجل أجش، "إنت يا عطا، يا فاجر يا ملعون!"

"إحنا نأمِّنك على بناتنا، وولايانا وعرضنا، تقوم تتحرش بيهم."

صاحت فتاة من بين الحضور، "بس عطا متحرّش بينا... عطا ملوش ذنب في حاجة..."

أضاق الرجل عينه واحمرت مقلته، وانفجر، "مش عايز أسمع صوت. إنتي بالذات متتكلميش. ده إنتي ليكي عقاب خاص بعد كل ده ما يخلص،" وكان يصك على أسنانه.

"تعاقبني أنا!" زعقت الفتاة، وأشاحت بيدها، "إنت اللي لازم يولّعوا فيك."

"إنت اللي بتتحرش بالبنات..."

"... إنت اللي معندكش نخوة ولا ضمير."

اندهش الحاضرون، وكانوا رجالًا ونساءً، وعددًا ليس بالقليل من الفتيات، حيث وقفت (كارما) و(ماجدولين) في الرواق بعيدًا عن المشهد ولكنهما يريانه بوضوح.

"إيه اللي إنتي بتقوليه ده؟"

"عندك دليل على اتهاماتك دي يا مريام؟" عقّبت إحدى السيدات، وكانت أكثر هدوءًا ورصانة.

صرخت (مريام)، "أنا مبكدبش، واللي عايز يكشف عليا يكشف."

"ولو عايزين تتأكدوا، اكشفوا على باقي البنات."

"دليل إيه اللي عند البنت الفاجرة دي،" قال مدير الدار وأتبع، "واضح إن المعاملة الطيبة بتيجي بالعكس."

"متنسيش إن دي تالت دار تدخليها. مفيش دار تانية هتقبلك، وأكيد هتكون خرجتك على الأحداث."

قالت السيدة، "طالما مفيش دليل على كلامك يبقى بطّلي يا مريام."

قالت (مريام)، "دليل إيه؟ بقولِّك بيتحرش بينا،" وبعد أن أشارت إليه مرة أخرى، قالت، "وبيغتصبنا الحقير ده..."

ضحك الرجل، مدير الدار، وانكفأت الفتيات على أنفسهن، يُغطِّين أجسادهن بأيديهن.

قالت السيدة، "لما بنت تتهم مدير الدار، الكلام ده خطير. إحنا لازم نطلب الإدارة المسئولة عن الدار، ونوضّح لها إن البنت دي لازم تتعاقب."

زعق مدير الدار، وكان قد رأى للتو السيدة الشابة، والتي حاولت أن تبتعد عن المشهد لكنه رآها، ورمقها بنظرة شديدة الحنق، فاقتربت وسارت بينهم، وحدقت فيها (مريام) بنظرات كره خارقة.

قالت (مريام) بغضب، "انتوا هتصدّقوا دي؟ دي النايبة بتاعته، أكيد هتستر عليه."

"لاااااا! إنتي زوّدتيها قوي. لو سمحتي يا آنسة اندراوس."

اقشعر جسد الشابة (اندراوس)، لما سمعت صوته، "وضّحِيلنا الحكاية بما إنها عندك من الأول..."

على الفور شعرت (مريام) باحتراق جلد ذراعها، تألمت، وتذكرت تلك الأوقات التي كانت تعاقبها فيها بالآلات الحادة. ربما كانت تستلذ من صرخاتها. كانت تمقت تلك السيدة. (مريام) كانت تنظر من أسفل وجه ساخط، كانت تقبض على معصمها وتتوجع. بالجروح الغائرة والقطع الحادة، حروف كانت تكتبها وتعيد كتابتها بالألم.

قال آخر، "اتكلمي يا أستاذة اندراوس، إحنا سامعينك."

تلعثمت السيدة (اندراوس)، كانت تنظر إلى الجمع وإلى مدير الدار، والذي أضاق حاجبيه، ولم تنظر إلى الفتاة (مريام) ولا لمرة رغم أنها كان تصيح في الحضور بأنها ستكذب.

بلعت السيدة (اندراوس) ريقها ومصّت شفتيها، وقالت، "إنتي عايزانا نصدقك إنتي؟"

"إنتوا متعرفوش مريام؟ مفيش أي حاجة بتقولها إلا وبتكون كدب."

"بس واضح إن الموضوع كبر قوي عشان تقول الكلام ده على مديرنا."

"ولولا إني خايفة من الشوشرة واللي ممكن يجرالك، كان هيبقى في تصرف تاني."

انكمش (عطا)، ولم تتراجع (مريام)، بينما تبسّم مدير الدار خفية، وقالت (كارما) لـ (ماجدولين)، "الرجل ده شكله بيكدب. شايفه نظراته عاملة إزاي..."

أكملت السيدة (اندراوس)، "عيب قوي اللي بتقوليه ده، واضح إن الدار كانت متساهلة قوي معاكي."

"الأول كانت حاجات صغيرة وكنا بنعدّيها، لكن الموضوع يوصل لكده! ده اللي مش هسمح بيه أبدًا، ولا المدير هيسمح بيه أبدًا."

أما الحضور، فكانوا يهزّون رؤوسهم بالموافقة، وأما (كارما) فقاطعت بحرية، "الراجل ده كداب،" واستطاعت أن تجذب انتباههم جميعًا إليها.

"إنتوا مش شايفين نظراته عامله إزاي؟" ارتبك مدير الدار وأشاح نظراته بعيدًا، عندما التفّت (مريام) وشعرت بالراحة عندما وجدت من يُناصِرها ويُصدِّق حديثها.

زجر مدير الدار، وقال، "إنتي مين؟ وإزاي دخلتي هنا؟ فين الأمن؟"

"أيوة يا فندم،" أجاب أحد الرجال العواجيز، والذي كان مختبئًا بين الصفوف.

"طلّع البنت دي برة، هُوّا المكان سايب ولا إيه؟"

"وإنتي، إنتي هتتحطي في العلبة. واضح إني دلّعتكم زيادة عن اللزوم."

"شكرًا يا أستاذة اندراوس على نزاهتك، لكن الدار دي ملتزمة ومش هتسمح بالتسيُّب."

"إنت أقذر واحد شفته في حياتي، مش راجل،" نعقت (مريام)، بينما سحبتها السيدة (اندراوس) من ذراعها بقبضة فولاذية، وعلى وجهها غضب جم، وامتدت يدها إلى رقبة (مريام)، غير أن (مريام) وبحركة خاطفة، تمكنت من الفرار من قبضتها.

كانت تحمي عنقها وضيّقت الخناق على ياقة ردائها، كانت تخشى أن تفقد الرباط الذي لطالما أخفته، ذلك الشيء الذي يعود إليها، وهي وحدها تحميه، وهرعت ناحية الباب، تُحاوِل الفرار في مخيلتها من ذلك الوكر. مرورًا بـ (كارما)، والتي اصطحبها فرد الأمن، لكنها اصطدمت بـ (ماجدولين)، والتي ارتمت للوراء، وكاد الطفل (عابد) أن يسقط من يدها. لولا أن (مريام) حملته بين ذراعيها، وقت أنا سقطت (ماجدولين) بالفعل.

كان برغم كل ما يدور، يبتسم. رأت (مريام) نفسها متحيرة، لا تتحرك، لا تتراجع ولا تتقدم. وضعت إصبعها وحسب في إصبعه، شعرت بلمسته، فقط قبل أن ينقضّ عليها فرد الأمن ويطوقها.

ضربة صارخة على خدها كانت السبيل الوحيد للتنفيس عن الغضب الذي شعرت به السيدة (اندراوس) قبل أن تسحبها وتسحبها معها.

زعق مدير الدار، قائلًا، "اتحفظوا على عطا. أنا هبلغ الشرطة، ييجوا يشيلوا الحثالة من هنا."

"يا أخي، كل ما أبُصّلك، أبقى عايز أتف عليك وإنت راجل شحط كدة."

"يا باشا أنا غلبان. أنا في حالي، ومعملتش حاجة."

"مسمعش صوتك،" نعق مدير الدار مرة أخرى، وأشار إلى فرد الأمن أن يقبض عليه.

قال مدير الدار، "اللي زيك لازم يروح السجن."

رنت الكلمات في أذني (عطا) وأثارت مخاوفه. من دون أن يتكلم أو يبدو منه أي فعل، كان قد أسرع راكضًا، وقفز من بين الصفوف، زاحفًا ومسرعًا، ومدير الدار يصرخ في الناس أن يمسكوه، وفرد الأمن ملقى على الأرض بعد أن صدمه بجسده. كان قدره أن يمر من جوار (كارما) و(ماجدولين)، كان قد فر من مصيره.

رائحة الشموع...

ظلٌ يتحرك فينكفئ تحت ضوء شمعتين على طاولة صغيرة.

أمام صورة (مريم) العذراء، كان الصوت ينتحب.

لم تجف الدموع أبدًا.

كان قد غالبها الأرق وشعرت بضيق الصدر.

رأت (رميس) و(عطا)، كلاهما بجناحين من نور ونار.

عادت إلى البكاء، استيقظت بعد ثلاث ساعات ونصف من منتصف الليل، ليلة العيد.

بيأس، رفعت رقبتها ونظرت إلى صورة الطاهرة، (مريم) العذراء، تبحث في طيّاتها عن الراحة. ساعات الليل، لا تمر ولا تنتهي عليها.

ليلة العيد!

تائهة!

غمضة العين بين دعاء وآخر!

أقدام مثقلة تمشي على الأرض الترابية الجافة. تترك من ورائها أثرًا للرجوع.

كانت تجرّ ملابسها وتتقدم بين المباني المتهالكة. تحت ضوء الشمس الأول، كانت تسير بمفردها، إلا من يدها التي لم تخل من صغير كان يعرج إلى جوارها.

كان يحاول متابعة خطواتها وكانت تحاول التباطؤ حتى لا تشُقّ عليه.

توقفت فجأة ثم استدارت بعين وجلة، وقالت، "أشكرك كثير يا شيخ خيري. إنت راجل محترم."

"من غيرك مكنتش هعرف أبدًا ألاقي أبو الواد المسكين ده."

"بس أفضّل إني أكمل الحتة دي بنفسي."

نهنهت ووضعت الجليد على صدرها بعدما وقف الشيخ، وبعد أن وصلت إلى نهاية الممر، إلى الباب الخشبي، الذي يُخبئ من ورائه الستائر.

وضعت يدها على رأس الصغير وطرقت الباب.

لم تعد تحتمل الاستمرار. يأتي الرفض مرة ويأتي البحث مرة أخرى.

انحنت السيدة، (ماجدولين)،

كانت منهكة، قبّلت جبهة الصغير ثم تراجعت عدة خطوات إلى الوراء حتى ابتعدت.

رحلت، و(عابد) ينظر إليها بشيء من الحنين والشغف.

كان جامدًا كالصخرة، لا يتحرك من مكانه.

لما اختفت عن رؤيته، فُتِح الباب.

رجل بدأ بياض الشعر يستفحل في رأسه.

بصدر ظل يتسع، وعين مُجعدّة تواجه العين الصغيرة.

بين القبور...

كانا يقفان أمام بعضهما.

****

" 28 "
فـنجـان الـقـهـوة

صلاة الـعشاء انـتهت... انـقـلب صوت الـراديـو إلـى إذاعة الـقرآن الـكريـم بـعد أن طرقت الـخطوات إلـى غرفـته. كـنكة الـقـهوة الـتي وضعها على الـنار، أصبحت تـتقـلب وتـنفث مـاءها، لـكن يـد امـتدت وأزادت من الـنار فـانـقـلبت، يـد تـفـتح كـتابًـا وتُـقـلّب فـيه مـرتـين ثم تـضعه بـهدوء في مـكانـه. لم تـترك مـوضع قـدم إلا وقـلبت فـيه. أطراف كـثيرة كـانت تـتفحص الـغرفة بـما فـيها.

كـان الـشيخ (خيري) قـريـبًـا من بـاب غرفـته لـما انـفـتح بـاب الـمسجد ودخل خمسة من الـرجال. سيـماهم على وجوههم. يـتميـزون بـالـجلابـيب الـقصيرة، لـحاهم قـصيرة وطويـلة وعلى رؤوسهم علامـات الـصلاة. دخل أربـعة مـنهم سريـعًـا، وظل خـامسهم جوار الـبـاب، يـرقـب الـطريـق بـحواس مـستعرة، ولـما اطمـأن، انـضم إلـيهم، وشرعوا في الـصلاة فـرادى. في صفـوف مـتفـرقة يـقـفون ويـصلـون صلاة في أولـها بـطيء.

"صلاة الـجماعة أفـضل من صلاة الـفـرد"، هكذا ظن الـرجل الـطاعن في الـسن والـمرتـكز على عمـود في نـطاق رؤيـتهم، يـقـرأ مـا تـيـسر لـه من سورة (الأنـعـام).

"قُـلْ سِيـرُوا فِـي الْأَرْضِ ثُـمَّ انـظُـرُوا كَـيْفَ كَـانَ عَـاقِـبَـةُ الْـمُـكَـذِّبِـيـنَ (11)"

وفُـتح بـاب الـحمام...

علامـات الـوجوم على الـوجه الـمبلل. ستة أزواج من الأقـدام الـمفـلطحة. وجوه عـابسة وأخرى بـاسمة. خمس من الـرجال، سيـماهم على

وجوههم، على جباههم علامات الصلاة، ينخرون ويتنفسون الهياج الذي يشعرونه. كل واحد منهم يرمقه بشيء من الضجر، بشيء من الوجوم. يرى الشرر، ويتوجس خيفة من أشكالهم. ابتلع ريقه بالكاد، وكأن رطوبة البلل تبدلت عرقًا، والجسد الذي ينتفض من البرودة، أصبح ينتفض من الاختلاجة المباغتة التي أصابت عزيمته قبل عظامه.

رجل عجوز وكان يقف وحيدًا. لا يهاب ربما الموت، ومن لا يهاب إلا الموت؟!

تكلم أحدهم أولًا، وكان صوته شديد الغلظة، شديد الغضب، "أنت أخطأت أيها الشيخ ولابد أن تُعاقَب..."

"... خطؤك اليوم عندنا عظيم،" وقال آخر، "عقابك لن يكون يسيرًا أبدًا."

"هل تظن أن ثمن الخطيئة بخسًا بلا دماء؟ الدماء وحسب حتى تعود طهارة الروح إلى جسدك الخسيس."

"أنا! أنا! أنا...." وربما كاد أن يُبلّل نفسه وقت أن وقف أمامهم، يراهم جميعًا في نطاق عينيه.

"أنا... أنا واحد على باب الله، لا ليّا في ده ولا ليّا في ده، أنا عملت إيه بس؟"

"يا ابني إحنا في بيت ربنا، ميصحّش كدة!"

تهته الشيخ بعد أن رأى اصرارهم على بقائه، وكان رجلًا كبيرًا عريض المنكبين، له ذقن طويلة، تتخللها خصلات شعر بدت اصطناعية رغم أنها لم تكن كذلك.

"اللي انتوا بتعملوه ده غلط كبير على فكرة. جريمة والقانون بيعاقب عليها."

قهقه أحدهم باهتياج، وقال الآخر بنبرة سمِجة، "أما أنت فجرمك عسير،" وكان يشير بالإصبع إلى مقدمة رأسه.
الشيخ (خيري)، لما رآه، انكفأ إليه متوسلًا، "الحقني يا شيخ خيري، أنا في عرضك."
تقدم الشيخ (خيري) بعين مكفهرة وكانت لحيته لاتزال تخضل من البلل، وأمسك بذقن الشيخ الأربعيني، وشدّها بقوة حتى أن الشعر نُتِف في يده، يبتسم ابتسامة شيطانية بينما يتكلم، "تفتكر بعد كل اللي قولته واللي بلغته عننا واللي عملته، مش هنعرف نجيبك ولا نعرف إنت مين."
"تفتكر ممكن تخرج عادي كدة؟"
تراجع الشيخ مشدوهًا، وندد رافضًا، ومتوسلًا، "أنا... آه! أنا مقولتش حاجة ولا عملت حاجة. أنا معرفش إنت بتتكلم عن إيه. إنت بتقول إيه يا شيخ خيري؟"
"يا شيخ خيري، حضرتك راجل تقي وورِع. شيخ جليل من مشايخنا المحترمين..."
"... ولّا جزاتي إني بحب آجي أسمع لخطبك وحديثك."
"لا، متمكن! هه هه هه!" أردف الشيخ (خيري) وأمسك بفوطة ثقيلة ليمسح بها وجهه ويُخلِّل ذقنه.
"على فكرة، أنا ابن بلد قوي ومكحوت بتراب الشوارع، متحاولش تصيع معايا لأني عارف إنت مين كويس وبتعمل إيه هنا."
انكفأ الشيخ الأربعيني على قدم الشيخ (خيري) يُقبِّلها، بينما أطال الشيخ (خيري) في الاختيال أمام التوسلات، "يا عم الشيخ أبوس رجلك، أبوس إيدك،" واستطال إليها.

أراد أحد الرجال الخمسة، الضخم الجثمان، أن يجتذبه من الأرض بقبضته الحجرية، لكن الشيخ (خيري) منعه، بل وأسال عليه قطرات لحيته المبللة، وكانت ألوان الصبغة السوداء تتقطر منها بلا مبرر، وتدخل في عين الشيخ الأربعيني، والذي أحنى رأسه بالكاد ليرى نظرة الشيخ (خيري) المضجرة.
قال الشيخ (خيري)، "آه، ظهرت وأقريت بحقيقتك دلوقتي."
"إنت عارف الفِران اللي زيك، وباء وبينتشر، وباء ليه عيون، ليه ودان راميها في كل مكان وبين أي مجموعة، وباء ولازم نقضي عليه."
"بس إنت عايز تعيش، صح؟"
"مش إنت عايز تعيش برضو؟"
"أيوة! أيوة! أبوس إيدك! أبوس رجلك!"
أجاب الشيخ وقد تجلت صفاته الشابة، لم يكن عجوزًا كما يدّعي. ذلك الشكل وتلك الألوان كان تتساقط كأسطح تتقشر.
"أنا مستعد أعمل أي حاجة يا شيخ خيري، أي حاجة تطلبها!"
"عايزني أبقى خدام تحت رجلك، أنا موافق. عايزني أشتغل لحسابك، أنا موافق. عايزني أبقى عبد عندك، أنا موافق. أي حاجة، بس أرجوك..."
بقرف شديد تكلم الشيخ (خيري)، "الشرطة، الجيش، أي جهة حكومية أو سيادية، محدش هينفعكم."
كانت له نبرة جارفة ونظرة قاطعة، وتكلم باللغة العربية الفصحى، "فهذه الأرض هي أرضنا نحن."

"هذه الأرض أرضنا نحن، وهذا الزمان زماننا."
"بُشِّرنا به من قبل ونحن إليه عائدون."
صرخ الخائف، "يحرق الجيش على الشرطة عالكل كليلة! أنا مليش صالح..."
"... أنا هقولك، أنا يا دوب حتة أمين لا راح ولا جه، مليش أي لازمة."
وضع الرجل الضخم الجثمان كف يده على كتف الشيخ الأربعيني، فشعر أنه شاب عشرات السنين في موضعه، وتلمّسه الخوف تلمُّس الجان، فلا يمتلك حتى حركة أطرافه.
"صحيح!" قال الشيخ (خيري)، "إنت مجرد تافه حقير."
"كنت فاكر إننا مش هنعرف نجيبك، مش كدة؟"
"هاتوه...!!!"
بضربة بحد الكف من وراء أذن الشيخ الأربعيني، صار يترنح، وسريعًا فقد الوعي.
كان يتنفس! ربما كان يتنفس...

****

سيارات الرينج روفر السوداء تقتحم دوائر أضواء المصابيح، عجلات فولاذية تنثر بركة متجمعة من المياه الضحلة على جانبي الطريق. لا خوار يُسمَع لصوت محركها، لا شيء يُسمَع من داخلها، ولا يرى، حيث انكفأ شخص يضع السلاسل على معصمه، وقلادة كبيرة في منتصف صدره العاري من الشعر، والموشوم بالنقوش السوداء، يضع قرطًا دائريًا وحيدًا في أذنه اليسرى، ويطوي أكمام قميصه عند كوع ذراعه.

كان ينخر وينعق، وينام تقريبًا على المقعد الوثير، بينما يرفع رجله ناحية النافذة تحت الضوء الداخلي الأزرق للسيارة.

"إحنا لسه موصلناش؟" صرخ بصوته المزعج على السائق. كان السائق مشغولًا، يفكر في ابنته المريضة، وفي زوجته الثانية الصغيرة في السن، إلى أي منهما سيذهب تلك الليلة، لكنه سرعان ما أبعد تفكير الزوجة الثانية، واقشعر بدنه متى تجلّت حقيقة ما ستقوم به تلك الليلة.

"نعم!" التفت السائق، "لأ، لسه موصلناش يا رياسة."

"بقولك إيه؟"

"سرّع شوية، خلينا نوصل، الواحد عايز يفرفش شوية."

"ليه بس قافش يا رياسة؟ على العموم، هتروح وهتفرفش، إحنا قربنا نوصل."

"عارف يا كلّو، كله من عملية إمبارح. كانت عوق وكلها مشاكل..."

"... بس بوف!! خلصت على خير."

"طب الحمد لله يا رياسة. يا رياسة، إنت البروف برضو."

"أصلك مش عارف إحنا دوّرنا قد إيه لغاية ما لقينا المطلوب. كان هيودّينا كلنا كدة في ستين داهية، من أولنا لآخرنا للباشا."

"للدرجادي! الأشكال الزبالة دي لازم نقطعوا رقبتها، بيدخلولنا في رزقنا ويقرفونا يا رياسة."

"إنت عارف؟ أنا بثق فيك، مع إني مبثقش في أي حد تاني من رجالتي."

"أنا تحت أمرك يا كبير، يا ريس مراد..."

"مراد مين؟ لا، إنت كدة ابتديت تغلط، يا كلّو،" قال مقاطعًا، وبسخط، "مورو، الرياسة مورو."

"امسحها فيا دي يا رياسة،" قال السائق (كلّو) بوجل.

فرد (مورو) ذراعيه على المقعد، وتنفس الصعداء، وقال ضاحكًا، "كان مفكر إنه هيهرب."

"بس على مين..."

بوم بوم... يه يه... بوم بوم... يه يه... بوم بوم... باك باك...

وبعد أن تطلع إلى هاتفه، قال، "ششش..."

"الأشكال الضالة اللي بتقرف الواحد ابتدت تظهر. اجري شوية يا كلّو، وصلنا بسرعة خلينا نخلص من القرف."

"ألو، حبيبي..." تحدث (مورو) بصورة مغايرة تمامًا لملامح وجهه العابسة.

"إنت عارف! أنا كنت هتصل بيك."

بعد همهمة، "بس قولت أستنى شوية."

"إنت عارف، لغاية بس ما أتأكد إن كل حاجة ماشية تمام."

"بس كل حاجة تمام وإحنا مراقبين الموضوع كويس."

صوت أنفاس متأججة أتى من الجانب الآخر من المحادثة، كان قد أخذ وقتًا طويلًا، وانتظر

حتى بلغ (مورو) نهاية الكلام، وبعد أن انتهى من الكلام، نطق هو، "مراد نصري،" وكانت نبرته متجهمة.

"من غير كتر كلام ولا التفاهات اللي هتقولها. أنا بفكرك، إن بكرة الميعاد المطلوب."

"متنساش إني بعملك الموضوع ده خدمة،" أردف (مورو) وكان وجهه ينتفخ، لأنه لا يحب اسم (مراد نصري) ويُفضِّل أن ينادونه باسم (مورو).

قهقهة من الطرف الآخر، "شكلك إنت اللي بينسى..."

"أنا اللي بعملك خدمة."

لفّ (مورو) إبهامه وسبابته على خاتم في بِنصر كف يده اليسرى، خاتم من الفضة يحمل شكل الصليب. كان يلفه بضيق ولم يشعر بالوجع الذي أحدثه في إصبعه، لأن شيئًا فيه كان مخدّرًا.

"باخ!" قال بسخرية في سريرته، ثم تكلم بوضوح، "أنا مش عايزك تقلق خالص. إنت عارف إن رجالتي محترفين."

"كل حاجة هتِّم في ميعادها وفي وقتها حسب الترتيب بالظبط."

"مراد نصري..."

"أنا مش عايزك تنسى."

"ولّا تحب أقولك، مورو."

"بقولك متقلقش، كل حاجة هتكون تمام."

"تمام..."

بامتعاض شديد، ودّ لو أنه عصر الهاتف في يده فكسره، لكنه ضربه على المقعد إلى جواره بمجرد انتهاء المكالمة، وقال بحنق، "مش هخلص منه!" وينفخ في غيظ مستمر.

"ده آخر طلب هعملهوله، بعد كدة هعرف إزاي أحطّه تحت جزمتي."

بأعصاب تكاد تنفجر، ضرب (مورو) على زجاج السيارة، فتوقف السائق فجأة، وقال، "وصلنا يا رياسة..."

كان يتنفس احتراق الدخان المكوّم في صدره. ترجل (مورو) على مضض بعد أن أنزل حذاءه المصنوع من جلد التمساح، وطوى نظارته الشمسية في منتصف عنق قميصه، والتي تخبئ عينه المحتقنة خلف غطاء من الظلال البُنِّية، ليُشاهِد الشارة الضوئية البنفسجية لماخور (تلت وحايد)، فيُبرِز عن أسنانه من الغبطة.

"آآآآه،" قال وبكل أريحية.

في استقباله، تحرك رجل نحيل من خلال الباب الصغير، الذي يشبه باب الخرابة وإلى جواره عدد من الأجساد المُكتّلة، كانوا يرتدون سراويل سوداء، وسرابيل سوداء، بالكاد تحوي الأعناق المتضخمة والأضلع المفتولة. تهته الرجل على استحياء بينما يتكلم، "الرياسة وملك الكون!" وكانت يده تنتفض شيئًا قليلًا وينثر رذاذًا من أنفه.

"الرياسة بنفسه مشرفنا النهاردة! لا، ده كتير يا بوس!"

"ما كنت تقولنا وإحنا نيجوا لحد عندك، نعملوا أحلى واجب في فيلا سعادتك."

بتنهيدة صبورة، "انجز يا قرد."

"يا باشا بقالك كتير مجيتش ولا شفنا سعادتك. إحنا بنرحبوا بيك مش أكتر. القرد في خدمتك وتحت طوعك."

كف يده على قفا القرد، يطرقه مرتين، "آه يا قرد، كانت وقعة سودة والواحد خرج منها بسلام."

"سلامتك يا رياسة."

"تعالى ورايا طيب عشان أطمن على المكان."

"آه، وبقولك إيه؟ أنا جاي أقضي وقت طياري، لا عايز وجع دماغ ولا مشاكل."

"يا رياسة، لو في مشاكل نمسحوها، بس..."

ضاقت أنفاس (مورو) بينما لم يمنحه القرد ثانية واحدة، "... العوايد النهاردة في النازل والزباين مقشفرين."

"حطلهم حاجة حلوة في كاساتهم،" قال (مورو) من دون أن يفكر.

قفز القرد من مكانه، "وحياة الحباية دي إنت دماغك ذرية،" وقد التقطها (مورو) من يد القرد، ووضعها في فمه بأسرع ما يكون.

دخل الماخور، ولخطوته الأولى، التفّت النساء من حوله كالأفاعي، يتمايلن ويتخايلن بحسنهن على الومضات البنفسجية والحمراء، وألوان زرقاء في الأركان البعيدة لمن أجهده التعب، وانزوى على نفسه في هدوء.

صيحات وصرخات ماجنة، قفزات عاليًا ناحية السقف المدهون بالرسوم الشيطانية. يرون النجوم قريبة ويحاولون إمساكها. أعين جاحظة وأجساد سائبة، لا قوة لها ولا حول.

بطقطقة من أصابع يده، هزّ القرد رأسه، فهبطت عليهم لعنات من السماء، حبوب جهنم، تلك التي لا يأخذها إلا الذين يعيشون في عالم آخر. حقيقة أن تلك الحبوب باهظة الثمن، لكن المصنع الخاص به استطاع أن يُعدِّل التركيبة وأن يستنسخ تركيبة مغايرة أقل سعرًا وأشد مفعولًا.

بدأ يرى تأثيرها على عقول الحاضرين، المتمتعين بالغيوم وبالفضاء، والعالم الآخر، الذي لا يراه سواهم. في مروجهم الخضراء، وفي فضائهم الشاسع، كانوا كمن يُمسِك دفة المركب في الصحراء، إلا من يعيشون أسوأ كوابيسهم، وعاد الاحتفال مرة أخرى، والجيوب الخاوية أخرجت ما كمن فيها، وأصبح ثمن الضحكة غاليًا جدًا، والمشروب الذي يُكلِّف جنيهًا، أصبح ثمنه خمسة جنيهات. عاد العمل من جديد، وبما أن (مورو) سعيد، فالكل سعيد.

ابتسم (مورو) وحكّ ذقنه، وهز رأسه، ثم تقدّم ناحية مؤخرة الماخور. كان القرد يدنو منه ويتبعه في طريقه، حيث السلالم والممر الطويل المدجّج بالرجال المفتولي العضلات، بعيدًا شيئًا ما عن الضجيج، ولكن في خِضمّه.

أبواب حديدية وغرفة بيضاوية سماوية، في منتصفها مكتب خشبي كبير. أمامه مباشرة شاشة ضخمة، وعلى جانبيه لوحات فنية لرسامين معروفين.

هناك، جلس (مورو) واستدار ليواجه الصالة، يتفحصها من خلال الزجاج العاكس. لا أحد يراه، ولكنه يرى كل شخص في داخل تلك

الرقعة الجحيميّة، والتي تشبه السجن الذي خرج منه للتو. يريد أن يتحرر. يريد أن يزيد من نشاطه لأبعد من تلك الحدود.

احتفال جنوني وأطراف متشابكة...

أصابع تمتد فتفرغ الجيوب والحقائب... ألواح خشبية معلقة عدا جسد واحد...

كان يجلس في الطاولة البعيدة. يقرأ في مفكرة صغيرة. لا يلتفت إلى ثورة الجنون من حوله. تلك الكلمات فقط كانت الحافز كي يذهب إلى ماخور (تلت وحايد) وربما لم تكن. من هناك، بإمكانه أن ينسى جزءًا آخر من الأشياء التي نسيها. بإمكانه أن يرقب الناس بلا عناء.

تلك اللمعة في عينه كانت تنبثق من مصدر عميق في عقله. لمعة ترسم الوجوم على وجهه بملامح باردة. أصبحت الرسائل المجهولة هي كل عالمه، حيثما أرادت، ذهب، وحتى تلك اللحظة، مكث على قائمة الانتظار، ينتظر محطته التالية بصبر يشرف على الانتهاء. ابتسامته الصفراء، ابتسامة قاتلة وقتما وضع القلب على اسم وقام بشطبه. اسم لم يكن يُفكِّر فيه، لأنه كان ينظر إلى الصفحة البيضاء المجاورة.

"اللي! اللي! هيئ..."

"لوحدك!"

"الـ!"

وبملامح تحاول التركيز، أمسكت احدى الفتيات السائحات بسكين وبكل قوة غرزتها في الطاولة. غصة في الحلق لا تفارقها. كانت تتمايل ناحيته وكأنها تزحف،

والطاولة وما عليها تدور في دوائر مغلقة، حتى وقعت في حجره، وغابت عن الوعي.

على مضض، أسقطها أرضًا وتركها لتتدحرج، حتى سكنت عند الجدار. بكامل قواه العقلية، تركها ولم يلتفت إليها. كان هادئًا وربما غائبًا عن الوعي أيضًا. يأتي إلى ذلك المكان كلما شعر أنه تائه، عله يجد بين الجنون طريقًا إلى ما يرنو إليه. لا يعلم لماذا، ولكن شيئًا في ذلك المكان كان يجذبه. يشعر وكأنه جزء لا يتجزأ من تركيبته.

شاب بطريقة أنثوية، يرتدي لباسًا ضيقًا ويُضفِّر خصلات شعره كذيل الحصان، وبينما يلوك العلكة في فمه، قال، "تحب تشرب حاجة يا لذيذ؟"

رمقه بدهشة ولم تكن ملامحه كلها تظهر لـ (مورو) من خلال الزجاج العاكس، والذي كان يراقبه عن كثب، لأنه الشخص الوحيد الذي لا يتفاعل مع لحظات الهياج. ربما يكون الشخص الوحيد الذي لا يزال يحتفظ بذرات عقله، وبالتالي يُعدّ تهديدًا على أعماله، لذلك أرسل إليه أحد السعاة ليخطب طلباته. كان يحاول أن يتفحصه رغم أنه لا يراه بوضوح، بل انتظر قليلًا ليرى ردود أفعاله ليصنفه.

بصوته المتصنع أجاب، "بيرة سخنة وفيِّملي وشها بالنار..."

"أجيبلك معاها دخان؟ حبوب؟" ووضع على الطاولة نماذج من المعروضات التي كان يتكلم عنها. بلمحة خاطفة قال له بعد أن نظر إليها ثم نظر إليه، "بيرة سخنة،" وكانت نبرته حقًا متضايقة وجافة.

"هاي! هاي! تشل يا مان. مش لازم تبقى عنيف كدة، يوه!"

"بس ناشف وجميل، آخ!"

"أنا عايز أخدمك وأفكك كدة بدل ما إنت ماسك في بعضك ومش في المود."

"يعني! جايز!" وبرقت عينه بوميض متألق.

على حافة الطاولة ضربت خمسون جنيهًا من تحت يده، بحنق شديد كان قد وضعها ما بين أوراق الكوتشينة، فسحبها برفق ثم وضعها في صدره، ولم ينته عن العلكة بل أصدر طرقعة من بين أسنانه.

"أوك، زي ما تحب يا لذيذ."

"بيرة سخنة قلت؟ مش باردة؟"

"وفنجان قهوة..."

زمجرة مغتاظة، رآها (مورو)، ومن ورائه القرد ينتظر.

قال (مورو)، "حد يشوفلي قرار الراجل اللي قاعد في ترابيزة 16،" ثم استدار وأكمل، "شكله مش عاجبيني..."

"... شكله هادي زيادة عن اللزوم."

بعد أن لمح القرد، قال، "تمام يا رياسة، هنشوف قراره،" وهمّ بالرحيل ليدخل على إثره رجلان، تقدما سوية وكان أحدهما يتقدم الآخر بخطوتين.

تكلم (مورو) بعد أن وقفا أمامه كالصخور الجامدة، وطرق أحدهما وأعطاه تحية عسكرية، أعجبته، "تمام قوي يا رجالة. العملية عاجبة الباشا جدًا ومبسوط منكم كمان."

"أفتكر كانت سهلة ومفيهاش عوق؟"

تقدم الأول وكان عريض المنكبين، "إحنا رقبتنا سدادة يا رياسة، في أي مكان تقول عليه حتى لو في جهنم الحمرا."

"هو كان فيها عوق بس إحنا خلصنا عليه وتاويناه."

"متقلقش يا رياسة، ولا حتى الدبان الأزرق هيعرفله طريق جرة. زمان السمك بيتغدى بيه."

"عفارم يا ضاني، هه هه هه،" قال (مورو) وأسهب، "ما هو عشان كدة بعتمد عليك في الشغلانات اللي زي دي. أنا عارف إنك هتجيب قرارها، صول ووحش يا ضاني."

"يا رياسة، إنت الكوموندان."

ضحك (مورو)، وأوضح، "ده كان زمان يا ضاني... المهم ميبقاش في طريق يقب."

"متقلقش يا رياسة، اللحم قبل العضم..."

تقدم الشخص الآخر باستحياء، وتكلم، "يا رياسة ولا يكون ليك علينا حلفان، كانت شغلانة ملبوسة. دا إحنا ولا كإننا كنا داخلين مستشفى المجانين."

"مكان مرعب يا رياسة!"

وكز (ضاني) الشخص الواقف إلى جواره وكان قصيرًا، وصاح هامسًا، "اكتم خالص وبطل هبل يا روح النوغّة."

"آه!" همهم (مورو)، "مش هتفرق كتير يا..."

"لقطة، محسوبك لقطة يا رياسة."

"متاخدش بكلامه يا رياسة، ده واد هتيه، بس فتّيح خِزن إنما إيه، يعجبك."

"إيه اللي تم بالظبط؟" سأل (مورو).

"شوف يا باشا..." قال (لقطة)، فضربه (ضاني) في جنبه، فتوجع وسكت.

"إحنا وصّلنا الشوال للراجل اللي إنت قلت عليه، بس مشوفناهوش، فدخّلنا الشوال لغاية جوة. أوضة تحت الأرض في السرايا الغريبة دي."

بعد أن ابتلع ريقه من دون أن يلحظ (مورو) وربما لحظ، أكمل (ضاني)، "زي ما قال لقطة، سرايا المجانين يا رياسة. تحسها مسكونة. كانت فيها أصوات غريبة. بس إحنا رجالة قلبنا ميت."

"هايل،" أعجب الحديث (مورو)، وكان يلف أوراق التبغ ببطء، ويضع فيها مسحوقًا أبيضًا ما بين اللفائف البنية، ثم استدار مرة أخرى ليواجه الزجاج العاكس، وتمتم، "الباشا هيبقى مبسوط جدًا جدًا."

"أصلًا مكانش يفكر إننا هنلاقيها."

"بنت الإيه؟ عاملة زي الحشيشة، بتيجي بصعوبة وبتخلص بسرعة. بس برضو لقيناها وجيبناها."

بعد أن تنفس (مورو) الصعداء، ونفث الدخان بكثافة، كلًا من (ضاني) و(لقطة) كانا يرجعان إلى الوراء.

"أي خدمة تانية مننا يا رياسة؟" استأذن (ضاني).

"لا، يا ضاني. روح فرفش نفسك في الصالة، وابعتلي حامد عشان عنده طلعة."

"ما توكِّلنا بالموضوع ده يا باشا، إحنا رقبتنا سدادة."

"حامد ليه معارف هناك، هيعرف يجيب المعلوم ويطلع بسرعة."

(ضاني)، والذي طأطأ موافقًا رضخ لـ (مورو)، والذي قال، "القرد، هيدِّيكم حسابكم."

"تحت أمرك يا رياسة."

"شكرًا يا باشا،" قال (لقطة)، و(ضاني) يجذبه من قفاه.

مرور الوقت على الألحان والتوهان. دراويش الحبوب والدخان. (مورو) وقف واستعد.

عند البار، وبين جموع المرتعشين، اتشح جسد أنثى بعباءة سوداء، كانت تحنى رأسها وتخفيه. تُكوِّر يدها، تضع عينًا في مؤخرة رأسها وعينًا أخرى تنصبّ على ذلك الشخص القابع عند الطاولة البعيدة. كانت ترمقه بحدة ولا تغفل عن حركاته أيًا كانت.

عاد الشاب الأنثوي بشكل منزعج، وقال للفتاة التي تصنع المشاريب، "حضري بيرة سخنة وفنجان قهوة للأستاذ اللي قاعد هناك ده..."

"بوف! قهوة قال!" وأشار إلى الرجل القابع في الطاولة البعيدة.

تلك الفتاة التي كانت تضع قرطًا في أنفها، ووجهها الشديد البياض والمُكتحِل بالسواد

حتى الرموش وفوق الشفاه، تبتسم وتتكلم، "هو مجاش على هواك ولا إيه؟"

قال الشاب بضجر ويأس، "شديد قوي!" وكان لا يزال ينظر إليه بلهفة حارقة.

"بس عاجبني،" ومص شفتيه بشغف.

"بقولك إيه، اعمليله أحلى بيرة عندك، بحركاتك كدة، جايز يجيب معاه سكة."

"ومالو يا أختي، عينيّا، هه هه هه..."

"ياي! سخيفة! متألّسيش عليّا."

"روح خدلك جولة طيب، وتعالى كمان شوية يكون الطلب جهز."

"ماشي..."

بعدما ضغطت على مكبس ماكينة القهوة، وصبت الفنجان بأريحية، خفقت البيرة في قنينة لتصبّها في الكأس الزجاجي المزخرف ثم استدارت لتُحضِر مشعل اللهب، فانقضت الأنثى المُلتحفة بالعباءة، وبحركة خاطفة أسقطت قرصًا بين بخار القهوة وعادت كما كانت.

لما بدأت الفتاة في استخدام مشعل اللهب، ذاب القرص تمامًا. كانت تدندن على أنغام الموسيقى الصاخبة وتستمتع برقصات لا تُفارِق محيط دائرة صغيرة صنعتها من حولها.

شراب البيرة حرّك شيئًا في بطنه!

قرقرة غريبة ورغبة في التبول!

ذراع تمتد فتبعد الشاب الأنثوي وتدفعه.

لم ينته عن الحديث والكلام الكثير.

أصابه الضجر وأصابه الصداع.

مُفكِّرته على طاولته، رحل إلا من أثره، أما هو فلم يكن موجود.

لم يكن الشاب الأنثوي قد اقترب من الطاولة حينها، كان يتمايل بثقة ورغبة متأججة. عند آخر السلم، قبضت يد على فنجان القهوة وتجرعته كله مرة واحدة، ثم طرقته على الصينية قبل أن يتدارك الشاب الأنثوي أن (مورو)، صاحب الماخور، كان هو من احتسى الفنجان في طريقه إلى الصالة، وتجشأ بكل ما في بطنه من غازات.

شيء سقط أرضًا، لمّا أبصر الطاولة خاوية تمامًا إلا من كأس البيرة، و(مورو) يضربه على مؤخرته ويدفعه إلى عمله.

بين أمواج النساء كانت تسير. كانت تداعبهما أحلام اقشعر لها جسديهما. كانتا تتموجان خلف رنين الخلاخيل. امرأة اقتحمت الصالة، تلتحف بعباءة لف مثيرة. كانت تتمختر في مشيتها لكنها لم تجذب وحسب أنظار الرجال. اشتهتها النساء في دربها قبل الرجال، ومع تساؤل الفتاتين عنها، لم يدركا ولم يدرك أحد من تكون. سرعان ما تلاشت بين الصفوف. سريعًا أصبحت كالشبح لا يأتي إلا إن ذكرت طلاسم الحنين والأنين.

تلك الأحاديث بينهما وبين رجل اعتاد المجيء لم تستمر، رجل قبع بينهما، عينه تدور مثلما دارت عينهما، ومع أن احداهما نادت من ورائه، "مورو..."

لم يستجب!

أوقات ترجع للوراء وكل شيء يسير من خلفه. كان يشعر بالضيق. كان في صدره نار تحترق.

قالت إحداهما إلى الأخرى، "مراد مش مظبوط النهاردة!"

عرقه اشتد فجأة، كان يشعر بالحرارة الزائدة، يشعر وكأن عروقه كلها تصلبت. كان يشعر أن الحياة قد عادت إلى من اعتقد أنه مات. ورغم أن الأخرى وافقتها، إلا أنها شعرت بالضيق. ابتعد عنها بعد أن أزاحهما بذراعه.

حنق شديد لأنه لم يُعِرها أي اهتمام. كانت تذلل أمامه كل سبل الإغراء. كانت تسعى له في كل درب كي تصل إلى عقله، لكن عقله كان مشغولًا بطيف مر من أمامه للحظات.

عباءة سوداء وجسد يحترق من الأنوثة...

لا طاقة ولا قدرة تحمله عليها. تُمسِكه بعنفوان وتدفعه على أرض الحمام. تنقض عليه بلا صوت وتدعي أنه فقد صوابه. تصيح وتستغيث. يكتم أنفاسها تحت أقدامه.

قطرات الماء في المبولة! لا اكتراث ولا مبالاة!

باب مغلق وجسد ينهار!

جنون ولطمات متكافئة!

إبرة المحقن - السرنجة - مغروسة في كتفه!

قلب يكاد يتوقف!

(مراد)!

(مرجانة)!

ضربة في الكتف وضربة بالكف. دماء تتناثر من الشفاه. سخط وركبة موجعة في البطن. خبطة على الجدار واهتزاز. رجرجة في الرأس ويد تمتد ناحية المسدس ويد تمنعها، ضربة

بالقدم أفقدته وعيه. أقدام صغيرة كانت تسير في هدوء، أمسكت المسدس، كانت تصوبه ناحية رأسه التي أصبحت صخرة ملقاة على الأرض.

كانت تتمنى، إلا أن يدًا قبضت على يدها قبل أن تضغط، فمنعتها.

سقط (مورو) على بلاط الحمام عند أقدام (مراد) وأمام وجه (مرجانة).

أشباح كانت تمر مر السحاب، أشباح تمر من نافذة السيارة، سيارته البيجو الرمادية، بعد أن حشر (مورو) في المقعد الخلفي، وقفزت (مرجانة) إلى جوار مقعد القيادة، ولكن أين هو؟ وماذا يكون؟ هو لا يعرف!

لم تُعطِه الاهتمام الذي يستحق، كانت رأسه تدور، وكانت تظنه هاجسًا عارضًا لِما أظهر من ثبات غريب. لا يزال يتنفس، يجفل مرات ويُحدِّق مرات. كان يرى الأقنعة تتساقط، وأعين الناس تبحث عن مكانه وتتربص. هو الصمت الرهيب. هو السكون الذي لا ينتهي.

صوت الراديو!

ممكن تدوق

طعم المطر

صدقني مر

أنا شخص حر

فتاة!!!

عين تضيق، هل كانت إلى جواره؟

تلك الفتاة المتصوفة! عباءة سوداء! بلوزة وبنطال ضيق!

شيء يعبث في جيبه! أوراقه! بطاقته! صور تتحرك إلى الوراء.

بين المرة والأخرى كان يراها مستندة على الزجاج، تائهة في ملكوت غير ملكوته. يجفل مرات ومرات أخرى لا يراها. الطريق يشبه الخطوط الصفراء. يريد أن يضرب رأسه في المقود، ولكنه لا يستطيع.

أنفاق أم كباري؟ كانت سرعته جنونية، ربما في عقله فقط. عينه زائغة وروحه تُنزع من صدره. ضيق غريب يشعر به في جوفه، لا يستطيع.

"آآآآه!" تمتم في وجع. رأسه تؤلمه. طريق النهاية، طريق الموت.

ضغطة بقدمه على المكابح، على الجانب الأيسر من الطريق. أضواء السيارات وأصوات احتكاك العجلات على الأسفلت من الوقوف المفاجئ، مفاداة ولعنات وسباب. أصابع ترسم الحركات البذيئة، وتصرخ في ذلك المغفل الذي وقف فجأة على الكوبري، وعلى الجانب الأيسر من الطريق.

شهق بصعوبة وزفر بصعوبة أكبر...

في المرآة، كان يرى الظلال من خلفه، يسيرون على الأرض ويطفئون كل شيء.

يبحثون عنه. يريدونه أن يعود. باب السيارة فُتِح، الباب الخلفي، بعد أن سقطت يد على المقبض وحاولت مرارًا أن تفتحه. بعد جهد مرير وعين تدور كالدوامة، ارتمى (مورو) على الأرض.

القلب يكاد يتوقف من شدة نبضاته.

يترنح، ينكفئ على الجانب الآخر.

يتهادى على الطريق بلا وعي.

رنين الجوال! يد سائبة تحاول أن تُمسِكه. لا يستطيع (مورو) أن يرى. لا يستطيع أن ينطق الكلمات.

"نم! نن! مممم!"

أنفاس وجفون تغمض تباعًا.

ضوء شديد البريق!

"هاه!"

زيييييييييييء –

دخان وغبار! صيحات وبكاء! حذاء ميري يطرق على الأرض!

"أنور رحيم عدلي عبد المولى!!"

سكون!

****

" 29 "
ستائر

"**ديجا**! ديجا!"

"اصحي يا بنتي، يا ديجا، اصحي!"

دخان ورماد ورائحة غريبة تفوح بلا أصل.

"إنتي مش هتروحي الكنيسة النهاردة؟ هتسيبيني أروح لوحدي يعيني، مش هتيجي معايا؟"

"ديجا! ديجاااااا!" لاتزال تصيح وتنادي، مُتحمِّلة المرارة في صوتها.

"إنتي ليه مش بتردي عليا؟"

"يا بنتي كلميني..."

"ديجا! إنتي رايحة فين؟"

"متمشيش الطريق ده."

"اسمعي كلامي."

تراها تسير وهي تركض وراءها، لا تستطيع أن تلحق بها أو أن تتعلق بأستارها. رحلت سريعًا جدًا. غابت عنها طويلًا. ابتعدت أكثر وأكثر حتى اختفت.

"ديجا!"

"ديجاااااااا!"

سكوت طويل!

"هاه!" همهمة قوية خرجت من أعماق صدرها. كانت تشعر وكأن أضلعها قد انطبقت فأغلقت كل الطرق على قلبها وأنفاسها. لا تستطيع الحركة أو الاستمرار في الحياة.

عرقها المُتصبِّب ويدها البيضاء المُجعّدة، والتي كانت تختلج بوضوح. حركات عشوائية لعين زائغة لا تعرف أين هي في تلك اللحظة. كانت تشعر أنها رحلت، رحلت إلى عالم آخر حيث لا عودة لها ولا توبة. كل ما حاولت التركيز فيه، طيف من أطياف ابنتها العزيزة، (ديجا)، ذلك الملاك العابث.

انقباضة في القلب مؤلمة. برغبة حثيثة، عقدت حاجبيها من الفزع وتنشّقت الهواء الحارق في صدر كان يصعد ويهبط تحت كف يدها. كانت تشعر أن شيئًا جللًا قد ألم بابنتها. لعلها مصيبة أكبر من قدرتها على التحمل. لحظة غريبة تكتنفها تحت ضوء غرفتها الباهت، ضوء لا يُميّز عزيزًا من قميء. كل الألوان كانت أرجوانية. لا ترى سوى ناحية واحدة من الوعي والإدراك، رائحة من أصل الألم.

"يا مريم!" نطقت (نورينا) تلقائيًا بعد أن ابتلعت ريقها بغصة أوجعت حلقها، بعدها أمسكت رأسها وكأنها تندب حظها التعس، تتمايل شيئًا يسيرًا، يمينًا ويسارًا، وتتمتم بكلمات هي نفسها لا تسمعها. ألا إن في غرفتها كانت الحرارة تزيد وكأنها أصبحت جحيمًا. جحيم يعود من الوقت الفائت ليُعذِّب أرواحًا كانت قد اقترفت الأخطاء. كلها كألواح معلقة ومثبتة بمسامير هشة، لا تفتأ تتساقط لوحًا بعد الآخر.

جلست (نورينا) عند طرف السرير، تبتهل بنبرتها العاجزة، تفوح منها رائحة الخوف، وتتأرجح على أوتار القلق، "يا مريم يا عدرا... يا... يا رب الكون، رحماتك علينا."

سرعان ما عاد إليها البكاء بدموع لا تبغي النزول، دموع على أطراف عينها، لا تدري كيف تمحوها. في خوفها كانت ترى أن شيئًا مُعلّقًا في رقبتها لم ينته منها. شيء تشعر أنه يخنقها، وتساءلت، لماذا؟ لكنها لم تبحث عن جواب. لم تكن تبحث فهي تعرف كل الأسباب. أصبحت تلك اللحظات تتكرر ليلة بعد ليلة، ولعل عدم وجود (ديجا) كان الأفضل لها.

اقتضبت (نورينا)، "ديجا!" وهبّت فزِعة من سريرها، بالكاد تمشي على أقدامها الثقيلة، لتسمع نقرات الساعة فتنظر إليها، كانت الساعة الثانية والنصف تقريبًا، فأعادت الاتزان إلى خطواتها وهدأت قليلًا برغم الاضطراب الذي سكن جنباتها.

"ديجا، حبيبتي..."

"أنا جاية يا حبيبتي، جاية أنام معاكي."

صرير حاولت أن تخفيه بحركة بطيئة، شقًا صغيرًا في غرفة (ديجا) حتى تطمئن عليها من دون أن وتُوقِظها أو تُقلِق راحتها.

"ديجا!!!!"

لم تكن هناك، لم تكن في غرفتها الراكدة المظلمة. لا شيء يدعوها إلى القلق أكثر من ذلك. لا شيء يدفعها لأن تغيب عن الوعي أكثر من ذلك. تأخر الوقت والشعور الجارف الذي كان يجترفها، شيء ما كانت علاماته تستمر. كانت مستيقظة وعاودت الاتصال بها مرات ومرات، فهل غفت؟ كيف لها أن تغفوا وابنتها لم تعد بعد؟

استجدت (نورينا) بحاجبين معصوبين، "يا رب!"

"ليه يا بنتي كدة؟ ليه اتأخرتي؟"

"ما إنتي عارفة إني بقلق عليكي يا ديجا."

أمسكت هاتفها الجوال وحاولت الاتصال. في كل مرة كانت أصابعها تنزلق، حتى أن أعصابها انزلقت معها. لا ترى بوضوح، فقد تحولت إلى غبار في الضباب، لا هيكل ولا علامة لها.

"يووووه!!!" نعقت (نورينا)، لا تستطيع الاتصال بـ (ديجا). كان عليها الهدوء، على الأقل حتى تسمع صوتها، فهي لا تريد أن تُخِيفها أو تُصِيبها بالقلق، لكن قلبها كان ينبض باهتياج. في صدرها خنجر مثلّم سيطعنها تحت أي ظروف، خنجر الأمومة.

اسمها الذي رُسِم على الشاشة، والرنين الذي حاولت أن تسمعه بنظراتها المُتعمِّقة، كانت تنتظر بفارغ الصبر أن يلتقط الهاتف الاتصال فتضعه على أذنها. على الأقل، ذلك هو رد الفعل الطبيعي لآلام الأذن بعد الأربعين.

"رُدِّي بقى يا ديجا..."

"... يا حبيبتي رُدِّي، أرجوكي."

رنين وحسب ثم انقطع الاتصال، فعاودت الأم اتصالها مرة بعد مرة، ومرة أخرى بعد المرات العشر، لكن هاتف (ديجا) لم يعطف على حالها ويطمئنها عن حال ابنتها.

كان قلقها يزيد. كانت تحترق وتتخيل كل أنواع المشكلات، كل أنواع الحوادث والأزمات. كانت قد رسمت عشرات التفاسير

التي تمنع (ديجا) من الإجابة، وكلها لم تكن تُبشِّر بالخير. هو شعور جارف، لا تستطيع التخلص منه. شيء ما كان يدور. شيء جلل قد ألم بابنتها الصغيرة. هو شعور الأم، حاستها السادسة.

"ليه بس كدة يا ديجا،" ردّدت الأم معاتبة.

"آه، جايز البرنامج!" طاقة إيجابية لا تدري من أين أتت.

أسرعت إلى الطاولة، حتى أنها صدمت قدمها ولعل إصبعها انثنى وطقطق، لكنها ضغطت على زر الراديو (السانيو) الكبير.

ضجيج وتقلبات، خربشة حادة كطرقات نقار الخشب...

في السهرة وزي كل سهرة على الأنغام الساحرة وعزف منفرد للموسيقار والمغني (هادي الأمير) ومقطوعة عزف منفردة (لحن السماء) من ألبوم (سلام الليل) ...

"يووووه!"

مع بداية الموسيقى، ضربت (نورينا) حد الطاولة ضربة قوية. ألا إنها بين أنغام الموسيقي كانت كروح ضالة تلفّها الستائر، ستائر من فضة تُظهِر روحها الشابة المعذبة. تسبح على تضاريسها سباحة الأفاعي على رمال الصحراء. روح تتلوى بلا إرادة أو خضوع، لا هي حرة ولا هي أسيرة. روح شريدة تُعانِد الأمواج أمام تيار جارف. تصعد وقت أن تصعد الموسيقى وتهبط إلى أسافل الأرض بطرقات على عظامها.

كل واحد منهم يقتطع منها جزءًا صغيرًا، لحن السماء كانت تسمعه بوضوح، كان يناديها

بوجع في صدرها، يُسمِعها صرخات حنينها، قرع الطبول، فحيح وشظايا تتناثر. ابتعدت (نورينا) عن الراديو وظنت أنها أغلقته لكنها لم تغلقه.

كانت تندب بحرقة، "ديجا! إنتي فين يا بنتي؟ حرام عليكي..."

أمام زجاج الشرفة في غرفتها التي أظلمت، وقفت (نورينا)، ترمق شيئًا من ضوء الشارع. تتخيل أنها تقفز من على الأسوار، فلا تسقط ولا تهوي، بل تطير إلى ابنتها، كطير جارح يشق عباب الليل، بنظره الحاد يبحث عنها، فيجدها ويعيدها إلى عشها الدافئ. هي مجرد لحظات وحسب تاهت فيها (نورينا) عن الوجود. لكنها كانت تفزع إلى حاوية ملابسها وتلتقط الرداء خلف الرداء وتكدسه على جسدها، والجورب قبل الحذاء، والشعر الذهبي المنمق، والقصير، (نورينا) كانت تعود إلى الوراء.

لا، لم تكن ترتدي ملابسها ولا تُهندِم سريرتها، بل كانت واقفة أمام زجاج الشرفة، تسري من حولها أنغام الموسيقي وفي يدها هاتفها الجوال، يُومِض وينطفئ، ثم يعاود الوميض برسائل خفية.

كليك...

"شش! ألو..."

على أذنها، كان الكتف قد أدار المعصم والذراع ووضع الهاتف على القرط المتدلي.

"ألو،" بنبرة كسهم جاف بعد أن غُمِس في رطوبة أحبالها الصوتية.

"نورينا،" ألا إنها نبرة صارمة وكلمة حادة، وقعها شديد.

ساد صمت بعدها، استمر للحظات، حاول الوقت فيها أن يرسم لوحة لذلك المشهد. تسيل عليها الألوان من فرشاة مخضبة عن آخرها. إطار أسود قديم، صندوق حزين يحوي النقاط كأولاده. رسمة معلقة على الجدار وعليها رفعة وشموخ وانكسار. لا تدري لماذا ترددت. لا تدري لماذا صمتت. كانت مشدوهة إلى أبعد حد. كانت تخشى الكلام وكان الكلام يخشاها. أي نبرة كانت تلك التي ستخرج منها!

"نورينا،" عاود الصوت الكلام مرة أخرى.

"أنا بكلمك...."

أغمضت (نورينا) عينها المجهدة وظهرت التجاعيد واضحة في الضوء القليل. خصلات شعرها كانت تُخفِي ملامحها. لقد أصابها العجز، كان عليها الاعتراف بتقدم العمر، لكنها وفي تلك اللحظة بالتحديد لم تكن (نورينا) العجوز، بل كانت (نورينا) المراهقة التي لا تتكلم من الخجل. هي (نورينا) التي تتلقي طلقات التوبيخ والتأنيب مرارًا. لم تكن تشعر أن شيئًا قد تغير، وكانت تشعر أن كل شيء قد تغير.

(نورينا) كانت تشعر بالخوف...

"واضح إن مفيش فايدة ولا في أي حاجة اتغيرت! لسه زي ما إنتي!"

"نورينا... نورينا..."

نبرة ازدادت غضبًا وسخطًا. قوة جبارة كانت تهز أركان عقيدتها. انتفضت (نورينا) وكأن على أكتافها مزيج من النار والجليد.

"لما أكلمك، رُدّي عليّا،" مرة أخرى زعق الصوت ثم انتظر لحظة واحدة فقط.

بشيء من الاضطراب والهلع، نطقت (نورينا)، "نـــ... نعم!" وكانت كأنها بنت تزداد صغرًا في السن، حتى أصبحت لا تُفارِق السنوات الخمس، تطأطئ رأسها إلى أصابع أقدامها الصغيرة، والصيحات لا تهدأ ولا تكل. هي لم تكن تتكلم. كانت تشعر كأنها حشرة صغيرة أمام غول جبار، شبح ينحني على ضوء المصباح، يلعنها بالسخط ويكيلها السباب.

"بابا! أنا معملتش حاجة عشان كل ده!"

أوه! صرخة دوّت كرعد في السماء. أخلاق جافة وقوة تُحطِّم بعنفوان ذراعها. قبضة حديدية كانت تُقيّدها في غرفتها، بخوف شديد تنظر إلى السماء، تدعو وتتمنى.

لكنها أفاقت، سريعًا أو بطيئًا أفاقت. رحل والدها ولم يترك لها سوى الذكريات المؤلمة. ميراثه كان الماضي المشوه والحاضر السقيم، والذي كانت تُعافِر كي تعيشه. رحل الأب وتمنت لو أنها لا تذكره. تمنت لو أنها تمحوه من قلبها، لكنها لا تستطيع. لا تستطيع لأنه أعطى مفاتحها لجبار آخر، أشرف على إخضاعها.

"نعم!" نطقت (نورينا) بصوت يكاد يُسمَع.

"مممم! لسه زي ما إنتي. حتى وإنت عجوزة، لسة زي ما إنتي."

صوت يسحب وينفخ. رائحة كانت تتخيلها (نورينا) وتختنق، رائحة السيجار المقيئة. لطالما كانت تكرهها، وتكره كل شيء من حوله أو يُميّزه.

"ديجا..." تكلم الرجل وكان يبدو غاضبًا.

ثارت فيه (نورينا) ثورة المتحررة، "إلا بنتي! متدخلهاش في الأمور اللي ما بينا. سيبها في حالها."

قال مرة أخرى، "أنا متأكد إنك متعرفيش بنتك فين دلوقتي. حقيقي مفيش أي تغيير."

تساءلت (نورينا)، وكان الشك يقفز على أسوار قلبها، "قصدك إيه من الكلام ده؟ بنتي ديجا مالها! اتكلم..."

"اتكلم، بنتي مالها؟"

تنهد الرجل وأجاب، "هي أكيد هترجعلك. أنا تأكدت من ده."

"إنت تعرف عنها حاجة؟ قول، أرجوك."

تنهد الصوت مرة أخرى، ووضع قدمًا على قدم في مقعده الوثير، مباشرة أمام مكتبة مكتظة بالكتب، وكان دخان السيجار يتناثر بشراسة. بعد أن فكر في أنه ربما من الأفضل أن يتركها تتذوق تبعات تصرفاتها.

رماد السيجار كان يقطره في حاوية زجاجية إلى جوار هاتفه الآخر، لا تزال شاشته مضاءة، قبل أن تنطفئ مباشرة بآخر اتصال، (شادي عسر).

تكلم الرجل، "بنتك ماشية في سكة غلط. أقنعيها إنها تسيب الإذاعة أفضلها."

"أنا مش هقدر أحميها على طول."

صاحت (نورينا)، ولكن في صمت.

"أنا هتكلم بهدوء،" وأتبع، "بنتك في مواجهة صريحة مع قيادات الدولة، البلد

غير مستقرة والعيون على كل واحد، وبنتك عليها عيون كتيرة."

"أحسنلها تسيب الإذاعة دي وتشوف لها حاجة تانية تعملها. أنا بقولك يا نورينا، وإلا هيكون تصرفي مختلف."

"وهتعمل إيه؟" سألت (نورينا)، "هتقبض على بنتك؟ هترميها في السجن زي كل الشباب اللي اللي اترموا! هوا ده اللي بتعمله الدولة بتاعتك!"

نعاق، "لو مبطّلِتش الكلام الفارغ اللي بتقوله في الإذاعة هيكون تصرفي صعب. أنا معنديش اختلافات أو تحيزات، كل المخطئين تحت المطرقة سواء."

"ولّا عايزاها تلاقي نفس المصير؟"

"مش خايفة على بنتك تضيع؟"

"ولا تحبي أفكرك..."

"أفتكر إنك فاكرة لوحدك."

"متخلينيش أفتح المواضيع القديمة."

تلعثمت (نورينا)، بل وصمتت في الحال.

"ديجا ملهاش عيشة معاكي، بعد اللي أنا شايفه ده. إنتي مش عارفة تسيطري عليها."

بهدوء، "أنا هتولّاها بعد كدة."

صيحة مضادة، "إنت مش هتاخد ديجا مني! ده مش هيحصل!"

"مش ديجا بس!! وعالعموم أنا لِيّا كلام معاها الصبح في الكنيسة."

"أفتكر إنه عدّى وقت كبير. أنا سيبتِك براحتِك لفترة طويلة."

حشرجة في الصوت، "أفتكر لازم ترجعي للبيت..."

تمتمت (نورينا)، "لأ، مش عايزة،" لكنها لم تتكلم. كانت تُبعِد تلك الفكرة تمامًا عن مخيلتها. ذلك الاقتراح لم يكن مقبول.

"ده مش اقتراح يا نورينا. أنا بقولك ترجعي."

"إنت عايز مني إيه؟" نعقت (نورينا) لكنها لم تتكلم أيضًا. كانت صامتة كمنضدة مهملة.

قال الرجل، "الوقت بيعدّي وإنتي بتسيئي لصورتي. أنا فكرت أسيبك شوية تهدي، لكن ده مش معناه إنك تخرجي عن طوعي."

"نورينا، إنتي مش حرة. إنتي ست متجوزة، وأنا كجوزك بقولك إرجعي."

نطقت (نورينا)، "أنا..." وتلعثمت. كانت أنفاسها تتقطع بقسوة. لم تكن تستطيع أن تلتقط الهواء.

"أنا مش هنتظر الكلام في الموضوع. أنا معنديش وقت للكلام الفارغ ده."

لحظة فاصلة، "بكرة الصبح إنتي وبنتك تبقوا عندي في السرايا."

قالت (نورينا)، "ولو ده محصلش؟" وكان صوتها إلى حد ما مسموع، لأن الرجل على الجانب الآخر كان قد تميّز من الغيظ، وصاح، "أنا مش هكرر كلامي."

"مش كفاية اللي أخدته! إنت عايز إيه تاني مني؟"

"نورينا، متحطيش نفسك في موقف صعب. إنتي عارفة إني ممكن أجيبك لغاية عندي بسهولة."

قالت (نورينا)، "وليه متعملش كدة؟ طالما إنت تقدر،" أمام زجاج الشرفة، كانت قد انتصبت في وقفتها وتكلمت بوضوح.

"بكرة هيبقى عندِك اتنين من رجالتي يجيبوكي إنتي وبنتك."

قالت (نورينا)، "شوف، الكلام ده مش هيحصل. ابعد عننا وسيبنا نعيش في حالنا."

"إنت خلاص خرجت من حياتي ومن حياتنا."

قهقهة ساخرة، "هه هه ها! الحاجة الوحيدة اللي هتخرجني من حياتكم هي الموت. مش أنا اللي يتقاله الكلام ده. إظّاهر إن صبري عليكي هيخليكي تتمردي."

"متتكلمش،" زعقت (نورينا)، وأكملت، "إنت ملكش سلطان علينا."

"الكلام ده تقوله للحوش اللي شغالين معاك. أنا وبنتي أحرار. مش محتاجينك في حياتنا،" وأتبعت، "ولو فاكر إنك هتخوفني بكلامك ده، يبقى بتتوهم."

"أنا مش نورينا اللي إنت دُست عليها يا منير باشا. نورينا بقت أقوى من إنها تخاف من كلام. أنا بحذرك،" وكانت تشعر أن حديثها شيئًا من اللغو الفارغ.

"أنا بحذرك، لو قربت مني أو من بنتي مش هيحصلّك طيب. البلد فيها قانون."

"أنا القانون،" زعق (منير) برنين كمن يُكشِّر عن أنيابه ويجهر بالغضب. في كل مرة

كانت كلماته تصب في صدرها خوفًا رهيبًا، (نورينا) تغيرت، (نورينا) لم تعد نفس الفتاة التي تمشي على درب الضياع. تلك القوة التي كانت تسترجعها، من (ديجا) كانت تأتيها. (ديجا) التي لا تدري أين هي وكيف أحوالها.

قال (منير)، "أنا لسه مطلقتكيش يا نورينا، ومش هيحصل. القانون مش هيساعدك بحاجة."

أجل، (نورينا) تعرف ذلك جيدًا، وتلك المقطوعة من لحن السماء كانت تخبرها بذلك، لأن نبرتها أصبحت حزينة. كثيرًا حاولت وكثيرًا فشلت، وكثيرًا ما كانت الأيام الصعبة.

أكمل (منير)، "لا القانون ولا الكنيسة هيوافقوا إنهم يطلقوكي."

"الكنيسة مش هترحم المخطئين."

"إنت المخطئ الوحيد، أما غلطتي إني ارتبطت بيك أصلًا."

"واضح إنك خرفتي وجالك الزهايمر. ملفك القديم لسه متعلق متشالش. بجرة قلم مني ممكن تختفي من الوجود."

قالت (نورينا) بحرقة، "كام واحدة عرفتها؟ كام واحدة نمت معاها في السر أو في العلن؟ إنت شخص حقير وأنا بكرهك."

قهقهة أعلى، "حقير! هه هه هه! الحقير ده هيخليكي متعلقة زي الست اللي مفيش رجا من خلفتها."

"أنا عرفت ستات كتير، لكن إنتي عرفتي راجل واحد بس."

"وصدقيني، من الأفضل إنك ترجعي لعقلك وترجعي البيت."

"أنا صبرى ليه حدود، وإيدي دي مش هقدر أمسكها على طول."

ضحكة أمام قهقهة (منير)، "هاه! بس إنت مش هتعرف تعملي حاجة. خلاص أن بقيت حرة منك ومن سيطرتك وجبروتك."

"أنا اتحررت منك ومن الأيام السودة اللي عشتها معاك."

"عشان بتتردّدي على مجالس الإرهابيين؟" أجاب (منير) بثقة، وكانت إجابته مفاجأة.

"أنا عارف كل حاجة، وعارف إنك بتحاولي تدخلي الإسلام وتبقي مسلمة."

"فاكرة إن ده ممكن يساعدك! ولا حتى الإسلام هيحررك."

"إنتي كدة بتعملي جريمة أكبر."

"هه هه هه! متجبريناش إني أتصرف تصرف تاني. ارجعي عن اللي في دماغك."

نظرة يأس وريبة، فغر فاه (نورينا) بعد أن عاد إليها الاضطراب. تذكرت وقتها كلام الشيخ (خيري)، ذلك الشيخ الطيب، الواثق من حديثه.

"لا يحل للمرأة المسلمة أن تكون زوجة لرجل غير مسلم، إنه والله البلاء العظيم، فالمرأة التي تدين بدين الإسلام، وزوجها يُخالِفها العقيدة، تحللت من رباطها، هي حرة إلى أن يشاء الله. لها ما لها وعليها ما عليها."

أكان يكذب؟ هي لا تعرف.

تلك كانت وسيلتها الوحيدة للهروب من زوجها المُتجبِّر، والذي استخدم كل الأقنعة الدينية والقانونية كي يُبقِي عليها تحت سيطرته، ويضع قدمه على عنقها وعنق ابنتها، حتى سحق إرادتها وأضعفها. نبرته الواثقة زعزعت مفاهيمها. لم تعد تدرك أي الطرق أصوب.

"لأ..." غمغمت (نورينا).

"أنا خلاص، مش هتعرف تعملي حاجة يا منير. دلوقتي أنا في إيد أمينة. مش هخاف منك ولا من كلامك."

أردف (منير)، "مفتكرش إن الصورة اللي رسماها بنتك عنك، هتفضل هِيّا بعد ما تعرف المستخبي، تِحبِّي ده يحصل؟ ولّا مش قلقانة من ده كمان؟"

"بتتكلم وكإنك الملاك، إنت عرفت واحدة بعدي؟ كنت بتروحلها وإنت معايا؟ صح؟ صح ولا مش صح يا منير؟"

"إنتي غبية، وهتفضلي طول عمرك غبية."

"يبقى عرفت..."

"أنا حذرت يا نورينا."

"إنت حقير..."

"ده آخر إنذار ليكي..."

"... بكرة، آخر يوم ليكي."

كليك...

"إنت! إنت... إنت مش هتعمل كدة، مش... مش هتعرف،" صراخ وعصبية.

أُغلِق الهاتف وعاد الصمت، حتى أن الموسيقى في الراديو انتهت. كل شيء انتهى عدا الرهبة الشديدة التي سكنت في جوف (نورينا). بلا سيطرة على مشاعرها بدأت تدمع. لا حيلة ولا قوة لها أمام ذلك الهياج الجارف. تتساءل مئات المرات عما تصنع. كيف لها أن تتحرر هي وابنتها من لعنة القدر. (نورينا) فقدت طاقتها، وجلست على سريرها، منكسرة، محنية، تبكي.

لا، لم تلتحف الأيام بستائر الماضي. لم يدع شيئًا تستره إلا وكشفته. خبايا وأسرار، كلمات تُدوِّي في عقلها برنينها المفزع. لا مفر من القيود. شعرت (نورينا) وكأنها تعرّت من كل أغطية كانت قد وضعتها على كتفيها.

حزينة تبكي! قائمة تُصلِّي صلاة لا تعرفها!

إنها الأجراس تدق. أسراب الحمام الهائمة في الكون، لازالت الأجراس تدق دقات مثل نبضات القلب، تخاف أكثر، ترتعد فرائصها وتهتز.

كانت الأقدام تمشي... تمشي بطيئة جدًا...

في مواجهة الفراغ، خطوة أمام خطوة، (نورينا) في ظلمة الغرفة المجاورة، أمام شبح يترجل من باب الشقة. وجه (ديجا) الشبحي أصابها بهلع شديد.

فكّرت، (نورينا) وقلبها يتمزق.

هل للتائبين من غفران؟

أُغلِق الباب! باب غرفة (ديجا)!

****

صندوق الراحة

مراد نصري:
اقتحام مشرحة زينهم فجرًا.
هجوم ومواجهة جماعة مسلحة.
انفجار واحتراق المشرحة.
انقاذ (مرجانة) من محاولة اغتصاب من صاحب ماخور (تلت وحايد).
اختطافه (مورو) والقائه على الكوبري مما يعرضه لحادث سير رهيب.
ديجا منير:
لقائها مع (عابد) وصدمه بسيارتها ثم مساعدتها إياه إلى الكنيسة.
مواجهتها مع والدها (منير أمونيوس) وكراهيتها له.
لقائها بـ (مراد نصري) وفتاة تدعى (كارما) وقت أن كانت صغيرة.
عابد:
احتواء (مرجانة)، استضافتها في منزله وتذليل العقبات أمامها حتى تأخذ راحتها مع الراهبة (ماجدولين).
البحث عن (عطا أو الريس طلبة) مع (كارما) و(آسر الراجي).
خيري شهاب:
دعوة المسلمين في المسجد.
مواجهة بينه وبين بلطجي يُسمّى (كراكة).
مرجانة:
وجودها في ماخور (تلت وحايد) وإنقاذ (مراد) لها من محاولة (مورو) اغتصابها.
نجيب رسول:

رسالته القديمة وحكايته وقت أن كان صغيرًا.
التقائه مع النقيب شادي عسر وابلاغه عن البلطجي (كراكة) وما يقوم به.
نورينا:
قصتها القديمة مع حبيبها المسلم (عمرو) ومقتله أمامها.
حديث طويل محتد في الهاتف مع زوجها (منير) وتهديده لها.

****

" 30 "
أمطار سوداء

صوت ترتيل القرآن!

ترنيمة ملائكية عازفة تسري في الفضاء!

برغم الحشرجة والتلعثم والتهتهة المستمرة، إلا أن النبرة كانت مُتّسقة، مبنية على رواية (ورش) عن (نافع) من سورة التوبة:

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (121) وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (122)

كان يبتسم بعبوس!

بريق غريب ينبعث من عينه الدائرية...

وجهه المستبشر المستطيل، بحاجبين كثيفين ينعقدان سويًا، وملمس جلد مُجعّد جاف أظهر العجز على ملامحه، ذقنه المصبوغة بالرماد، والمستطردة حتى مشارف ياقة جلبابه، يجلس القرفصاء عاكفًا في غرفته الصغيرة المبنية من الأحجار البيضاء والملطخة بالطين.

كان يقرأ القرآن...

على الجدار من ورائه تعلق سلاحان آليان متقاطعين في مواجهة بعضهما أمام وشاح أسود، مرسوم عليه دائرة التوحيد بلون أبيض براق، (الله - رسول - محمد)، من تحتها، علامة نصلين يصطكّان ببعضهما، دلالة على القوة في مواجهة الخوارج، ومن فوقها، كتاب مفتوح، القرآن الكريم، يُشعّ نورًا، كناية عن الحق والعزم على الاستمرار في طريق الجهاد.

حتى وصل إلى قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123)

امتاز وجهه المبتسم بالسخط، واستعرت أنفاسه بأزمة خانقة، وانبثقت من مقلتيه القانيتين. بغيظ شديد نظر إلى الأمام، حتى تبدّت ملامحه الشيطانية. ملامح عادت شيئًا فشيئًا إلى وضع الاستمتاع.

كان يرى كل شيء...

كان يرى بوضوح...

ضربة وراء الأخرى...

ذاع صيته بين الناس بالطيب والكرم. كانوا يتكلمون عنه ويصفونه بالصفات الحسنة

أينما ذهب، ولما أمسك يد طفله الصغير، تنبأ الناس له بمستقبل باهر. منذ نعومة أظافره وضعوه في بوتقة أبيه، الرجل الزاهد العابد، الشيخ الصالح، طيب السمعة والأصل.

لا مجال للاستماع ولا وقت للانتظار. كان عليه تنشئته على حب الإسلام منذ نعومة أظافره. يأخذه في مجالسه ومحاضراته مُرغَمًا. أينما ذهب، كان يتبعه كظله. يتركه يحبو ويخطو من ورائه معتمدًا على نفسه. الولد الذي يتبع خطوات الشيخ، وخطوات الشيخ كانت تمشي إلى طريق محدد.

وجه لوجه أمام ابنه الذي لا يعرف القول ولا يُحسِنه. الولد الذي تنتفض فرائصه وكاد أن يبول في ملابسه من الأنفاس الخانقة لوالده.

"ميت مرة قولتلك مش كدة يا ابني، إنت مبتفهمش؟"

"اقرا من الأول تاني وسمعني."

"اخلص!"

عصاة صغيرة كانت تنهال على كف يده كلما تهته أو تناول تشكيلًا غير تشكيل الحروف أمامه. كان لا يزال صغيرًا وكان يقرأ مُسرِعًا حتى ينتهي من العذاب. أمامه جلس رجل عجوز وعلى وجهه علامات الوجوم. يرقبه عن كثب وكلما تكلم وأخطأ، يضربه بقوة، ولما أتت الزوجة، الأم التي تنظر إلى طفلها وحاله، ثم تنظر إلى الرجل العجوز، زوجها، ابنها الوحيد، فلذة كبدها الذي تمنته بعد أعوام قاحلة من الجفاف في أحشائها.

الضربة توجعها!

الضربة تؤرقها!

لا تنام الليل...

كانت دعواها أن الحمد (لله)، وكانت تزيد بدعاء (الله) عز وجل ليلًا أن يحفظه ويرعاه.

بين يديها وفوق سجادة رطبة، جاثية تبتهل بالدعاء، عل الطمأنينة تتنزّل على بيتها ويحجب (الله) عنهم طريق الشيطان إلى صراط مستقيم.

كانت معذبة بعذاب العقل...

عذاب مستمر لا ينقطع...

عذاب أمسك اللجام ووضع في حاويته الأم والأب والطفل الصغير المُقيّد بالحبال على الأرض، يصرخ من أعماق الجسد صرخة الفزع.

كان يبكي ويتوسل أنه لن يفعلها مرة أخرى. كان يرجو والده أنه لن يلعب مع الأطفال ولن يترك حفظ القرآن ولن يعود إلى ما مضى فيه.

"إنت ولد تالف مش نافع، ولا هتنفع في أي حاجة."

"أعلمك قد ما أعلمك وبرضو مش نافع."

"هتفضل غبي ومفيش منك رجا."

إنها رحلة طويلة عبر الصحراء، صحاري العقل بين الأهواء والرغبات. لم يتمكن من إدراك السياط التي تتساقط على ظهره، ولا القدم العارية التي وطأت رقبته، ولا حتى العين التي تنظر إليه وتصِمَهُ بالعار. الطفل الفاشل الذي لا يعرف كيف يقرأ ولا يكتب. يتلعثم كلما قرأ سطرًا من كتاب (الله) عز وجل.

وقت أن كان يتعذب، كانت روحه تبحث عن مخرج لها. كان يبحث عن أم تساعده أو أخ يحتمي في ظله.

"من بكرة الولد ده هيشتغل مع الريس عبده الفران، تتعلمك صنعة بدل ما إنت فاشل."

بضعف وخوف، "أنا مش عايز أشتغل فران ومش هروح."

"هتروح وراسك فوق رقبتك."

"مش كفاية إني مستحملك ومستحمل غباءك."

"مش هروح، مش هروح."

صفعة ودموع، وأم تحاول أن تبعث السكينة في قلب زوجها، تربت على كتفه بلين حتى يتركه وشأنه.

هو الجاثي على الأرض!

هو المترنح!

هو الذي أتت إليه ومسحت على رأسه وأعطته كتابًا يقرأه بينه وبين نفسه. كتاب كانت قد أهدته إيّاها واحدة من خليلاتها الصالحات، سيدة كانت تُعرف بالتقوى والورع، لا تدع فرضًا فائتًا، ولا جهدًا مارقًا، ولا تُضِيع وقتًا في الفراغ.

كثيرًا ما شكرتها وابتسمت في وجهها، وحملت الكتاب في يدها، نسخة ثمينة وحقيقية، كتاب (معالم في الطريق للشيخ سيد قطب في طبعته الأصلية لعام 1964)، هو الكتاب الذي أهدته لابنها لتعمله معنى القراءة وتحببه فيها.

وكانت البداية في مقدمته:

«أن قيادة الرجل الغربي للبشرية قد أوشكت على الزوال، لا لأن الحضارة الغربية قد أفلست ماديًا أو ضعفت من ناحية القوة الاقتصادية والعسكرية، ولكن لأن النظام الغربي قد انتهى دوره لأنه لم يعد يملك رصيدًا من القيم يسمح له بالقيادة.

لابد من قيادة تملك إبقاء وتنمية الحضارة المادية التي وصلت إليها البشرية، عن طريق العبقرية الأوروبية في الإبداع المادي، وتزود البشرية بقيم جديدة جدًّة كاملة - بالقياس إلى ما عرفته البشرية - وبمنهج أصيل وإيجابي وواقعي في الوقت ذاته، والإسلام وحده هو الذي يملك تلك القيم وهذا المنهج.»

عين الطفل الشاردة، «والإسلام وحده هو الذي يملك تلك القيم...."

وبين صفحات ذلك الكتاب انكفأ الطفل لأنه وجد فيه ضالته. تلك الأم التي رأت ولدها هادئًا على غير العادة، ظنّت أنها أنجحت المعادلة الصعبة. لم تحاول أبدًا أن تقرأ الكتاب وما يحتويه من أفكار، تلك الأفكار التي تربّى عليه الطفل وغُرِست في عقله كبذرة نبعت من أصل الجحيم، تنبت في رياض الخلد، عقل طفل بور.

الصحراء شاسعة والعقل المتشبث بالغيث مُعذّب بمفرده في الفلاء. شيء في داخل عقله ظل يدعوه إلى الفتور وإلى الرضوخ. رحلة طويلة وتزداد طولًا عما يجب أن تكون. ذهب إلى هناك عله يجد الملاذ. ليس فقط الأحلام التي أسرت عقله وأودعت فيه الحقيقة كفكرة ذهبية، لأن الحقيقة كانت مُرّة، لكن الروح

المتضررة هي التي كانت تئن وكانت تعشق الطيران.

برقت عينه واتسعت...

وصرخ الولد!

يصرخ في ظلام الليل وصمته، مقتربًا إلى جنون العزلة. كان يسأل نفسه مئات الأسئلة، الأسئلة التي لا جواب لها. لا يزال يمشي في ذلك الطريق، طريق الظلال، يتحسس فيه موضعًا لقدم، ربما سيفهم يومًا ما لماذا رحل ولماذا ترك الماضي من ورائه.

"أنا اللي عملت كدة. بس أنا مش غلطان."

"مش غلطان إزاي ده حرام يا ابني."

"إنت بتعذب كلاب الشوارع وتقول مش حرام، إحنا كلنا مخلوقات ربنا."

"الكلاب أصلًا نجس."

"نجس!"

"إنت جبت الكلام ده منين؟"

برفق الأم، "يا حبيبي أصحابك في الشارع بدأوا يخافوا منك."

كان قد كبر قليلًا، وأمام والده وقف بصمود. يرمقه ويرمق رد فعله لمّا صدمه في وجهه بحقيقة أخرى. لم يكن يُبالِي البتة لما سيقول، ولم يكن يكترث كثيرًا للعقاب. لا مجال للحديث بينما تقود العصاة. وقتها كان يتمتع ويضحك، وكلما ضحك، استشاط والده غضبًا على غضب ويزيد من ضربه. لم يعرفا ما يفعلان في صغيرها الذي أصابته لعنة الكِبر.

العذاب في مواجهة الطمأنينة وصوت الأمل المفقود يعود من وراء ستائر الأوهام. اليوم الذي سأل نفسه، لماذا يتمتع الناس بالأذية ويعشقون المهانة؟ لماذا يتلاعبون بمشاعر الآخرين ويصمونهم بالعار؟ يكتبون في كل صفحة ناصعة من كتابه ويحرمونه من كتابة حياته والعيش فيها.

سفيهًا بين أطفال في مثل عمره، يضربونه ويشتمونه ويلعنون والده ووالدته. يتضاحكون عليه كلما شاهدوه. لا يقتربون ناحيته ولكن يرشقونه بالألقاب. ذلك المُهان المُكدّر صفوه، الطفل الحقير، يدوسون بأقدامهم على أوجاعه ونقاط ضعفه. يرمون على عينه الحبر حتى يعمى، فلا يرى له في الحياة مستقبلًا أمام تسلطهم وأمام ضحكات آبائهم الفرحة بما يفعلون.

لم يكن هو الشخص المُكبّل بالقيود على البلاط المُتجمِّد، بل كان العقل المظلم الوحيد السابح في مواجهة تيار النور.

لماذا لا يستطيع الحياة مثل من يعيشون حياتهم؟

العيون مغلقة والرأس تنظر إلى السماء بدعاء لافح، ظن أنه اعترض السقف ولم يمر من تجاويفه. زفرة واحدة وأمنية أخيرة، أن يرى موته يقترب. ذلك الشيخ الطاعن في السن، والذي كان يعذبه ليحفظ، وذلك الطفل الذي يمد أطرافه بأعجوبة ليضعها على صفحات القرآن الموضوع على الطاولة الصغيرة.

يجلس أمامه في مقعده ويصرخ فيه، "اقرا،" فيتلعثم، فيضربه بعصاه القصيرة ويصرخ

فيه، "اقرا،" فيتلعثم، فيضربه من جديد، ويزعق في وجهه، "اقرا."

"عايزهم يقولوا ابن الشيخ شهاب مش حافظ القرآن."

"عايزهم يشوفوا العار في خِلفتي."

"ربنا يلعنك زي ما إنت مطلع عنيّا وكاسر نفسي."

"ربنا ياخدك وأخلص من خِلفتك العار."

مشدوهًا! متسائلًا!

لم يكن يقرأ ولم يكن يتعلم، ولم تستطع الأم التي وقفت عند أطراف الباب أن تمنع زوجها من هياجه مخافة غضبه.

النافذة!

كان ينظر إلى النافذة. كانت تحمل شعاعًا ضعيفًا من الضوء الخافت للشمس، جزء منه أراد لو أن بمقدوره الهرب والركض في الشوارع، أن يُحدِّق في وجوه الناس في الطرقات وفي النوافذ المُكسّرة، أن يرى البشاشة على وجوههم ويشعر بفرحهم أكثر مما يشعر بأوجاعهم. مرآة كان يرى فيها كل ما يفتقد، فليس بمقدور الإنسان أن يُغيّر عباءته القديمة ويعيش في عباءة شخص آخر.

كلهم يعيشون في الأوجاع...

أرواحهم كلها تحتسى قطرات الفرح وتتجرع مياه العذاب...

من المخطئ؟

هو من أمسك القلم وغرسه في يده ليصرخ. هو المجنون الذي لا يشعر بالألم. لم يكن يريد البقاء، لكنه ظل ومكث وتعلم. تعلم أولًا أن

يحني عظامه حتى لا تنكسر. هو العقل المظلم الأسير في أغوار صدره.

العذاب كلمة نبعت من داخل القلب، لم يفهمها. فلا علاج لروح تمزقت إلا بالإيمان، والإيمان يأتي مع الصبر والرضا ومجابهة النفس، أما إيمانه فدفعه إلى الاستسلام.

كان هناك في الظلام، مُحطّمًا كقطع الزجاج. روحه الممزقة إلى آلاف القطع ألقت نفسه إلى حد الجنون، لأنه رفض أن يخضع أو يفهم، لا يوجد كمال على الأرض، والكمال هو ما قام وادّعاه.

نظرته لم تكن بريئة، ويد الأب لم تكن ساحقة قاضية، والنفس الأمارة بالسوء ترسم سبلًا غير الحقيقة، والأم القابعة عند الجدار لم تكن تنتظر ولم تكن تبكي، بل كانت تربت على رأس صغيرها وتُهدهِد من أجله.

والده المترهل جسده يقف حائرًا مسكينًا. أمسك بذراعه بعد أن قوي عوده وبرزت لحيته، ووالدته التي تدعو له، لم يرأف لحالها. كان على وجهه الغضب. أخذته روحه إلى من أعطاه السبل التي ينتمي إليها، إلى من علمه فأوجز، وتركه فأنجز، وصار من بينهم بارزًا في غمضه عين. هو الذي دفع بيد أبيه حتى سقط فتوجع، وهو الذي نظر نظرة السخط إلى أمه حتى دمعت عيناها.

هو الذي تركهما ورحل ولم يعد...

تركهما لكنه بعد وقت عاد...

عاد ليضع شكلًا آخر وحياة أخرى. عاد ليُكمِل أعماله ويرسم لنفسه طريقًا مختلفًا عن

الطريق الذي رسمه له أبوه، لكي يريه أن عوده اشتد وأصبح قاسيًا.

"في إيه يا إنصاف؟"

"تعالى يا خويا شوف البلاوي اللي بتتحدف علينا."

"يا بنتي عيب كدة، أنا راجل شيخ كبير. ميصحش الكلام اللي بتقوليه."

"يصح مين يابا وهو يصح إنك تتحرش بواحدة حُرمة، إيه يا عم؟ مفيش نخوة؟"

"احترم نفسك يا عدنان،" زعق (عمرو) والذي تدخل في المشاجرة بحزم.

الاحترام يد في يد وانتفاخ في عين، وهبّ ذلك الرجل يأتي من أقصى الطريق بزوابعه، يطوي أكمام جلبابه، يرفع أطرافه ويعقده على وسطه، يمسح على ذقنه ويضرب على وجهه الغضب والكراهية.

لما رأته أنصاف، حذرت زوجها، "عدنان!"

(عدنان)، والذي تقدم زوجته، تنتفض فرائصه أمام (خيري)، الغاضب القادم، وكلًا منهما يُلقِي الآخر بلعنة الحقد، وذلك النحيل المشقوق رأسه والدماء منها تسيل، يصيح مثل الدجاجة، وينتفض باهتياج إلى جوار الشاب الغارق في دمائه، والفتاة التي أصابتها الصاعقة، ببطن منتفخة تتقلب، بعد أن أماط اللثام عن وجهه وقبع إلى جوار راعيه، البلطجي (عدنان)، والذي همس بقلق، "خليك هنا ياض يا كراكة..."

انتهت ولم تنته، وفي البيت، أدخل (خيري) والده وصاح فيه، أصبح عجوزًا قليل الحيلة

والأم تلتف حول ابنها الشاب. كان ثائرًا منتفخًا وكان يزعق وينعق.

"أنا ميت مرة أقولك متقفش في طريق عدنان، ده بلطجي وملوش دية."

"يا بني..." ثم وقف.

"مفيش يا بني. إنت خلاص هتقعد في البيت."

"عايز تقعدني في البيت زي الولايا. هِيّا دي آخرتي."

"مش أحسن ما تموت في الشارع زي الخرفان."

"يا ابني، محدش بيموت ناقص عمر،" واقترب منه حتى صارت المسافة بينهما ذراعًا واحدًا، وحاول أن يربت على كتفه، فوكزه.

تعثر الأب، وانتفضت الأم، وابتعدت العصاة عن يده، فرطم رأسه على حافة الطاولة، صريعًا لا يتكلم ولا يتحرك، ولا صياح غير صياح الأم، الذي كان شيئًا فشيئًا يقل حتى تلاشى هو الآخر.

(خيري) وقف جامدًا أمام جثة والده الهامدة، ووالدته التي كمن مسّتها ألاعيب الجن، برغم أنها تسمع وترى، إلا أن أطرافها شلت، ولسانها انعقد، وأصابتها حسرة الموت في الحياة، أولم تكن ماتت من قبل؟

في الظلام كان يجلس، كان يقرأ القرآن. يُمسِك بمسبحة من الخرز الملون، يُتمتِم ويعدّ عليها حتى أتم الكلمات فصمت، صمت ليدخل عليه أحدهم ويقف على أعتاب ظله، ويقول، "جاء الوقت..."

على أعتابه كان يسير خارجًا بعدما ترك صفحات القرآن الكريم مكشوفة على قوله تعالى:

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94) – (سورة يونس)

****

"عايزك تاخد بالك كويس، المجموعة دي مش مجموعة عادية، وافتكر إن دي فرصة الداخلية عشان ترجع زي الأول وتحسن صورتها."

"النهاردة كان في مصيبتين أكبر من بعض، وده شيء كبير في تاريخ الدولة والجهاز، إنت متخيل؟ أنا سحبتك على مسئوليتي من موقع الانفجار لأني عارف امكانياتك، مش عايز مصيبة كمان فوق البيعة."

"تمام يا فندم..."

"يا سيادة النقيب شادي، الموقف لا يحتمل أي خطأ. إنت عارف إن العيون علينا، والصحافة والفضائيات ومؤسسات الدولة كلها مركزين معانا، والمصيبة اللي حصلت من ساعات هتقلب الرأي العام كله على الدولة، دي كارثة ولازم لها حل مضاد وسريع."

"متقلقش يا فندم، مش هيحصل،" وكان يضع حاوية الرصاص في مسدسه ويُحكِم إغلاقها ثم يشد الأجزاء. كانت عينه تستعر رغبة في القضاء على تلك الخلية وكان قد تتبع الأحداث باهتمام بعد نهاية المكالمة، لا

يزال دوي الانفجار في قرارة رأسه، والأحداث الأخيرة تجعل أعصابه تتراقص.

كل شيء تغير...

انفجار المشرحة وانفجار الكنيسة، موتى وقتلى في النيران وبين الركام. كان قد كلم أحد عيونه من قبل.

"إيه الجديد عندك؟"

"شكلها هتحصل مجزرة هنا ما بين كراكة وخيري شهاب."

"المكان مشعلل والناس متجمعين وخناقة هتقوم."

"تمام، بلغني أول بأول وخليك بعيد دلوقتي."

تلك كانت اللحظة المثالية بالنسبة لـ (كراكة)، عاشق القتال، من تسري المعارك في عروقه. كان يتلذذ بكل قطرة تنفجر من الأجساد. كان يتأكد أنه الغالب ولا غالب بعده. يسير بقوة ولا يجرؤ أحد على تتبع أثره.

كان يزعق، "خيري ي ي ي ي...."

من مات قد مات منذ الوهلة الأولى لحضوره، ومن أُصِيب فَقْد فَقَد جزءًا عزيزًا على نفسه. أما (كراكة)، الباحث عن الشيخ (خيري)، والذي اختفى تمامًا. كلما وقف أحد في طريقه، اقتلعه من الأرض.

"خيري ي ي ي!!!"

"أخرج يا جبان..."

لم يكن هناك، وكأنه تلاشى تمامًا، وربما أيقن أن موته قد اقترب، فرحل، وربما عدل

عن قراره في مواجهته، وفضّل أن يحتفظ بالسنوات المتبقية من عمره.

فكر (كراكة) وهدر، "أنها الملك! أنا هنا الملك..."

شبح خاطف!

من بين جموع الناس، جحظت عين (كراكة).

كان يشعر امتزاج بين برودة وسخونة، برودة آلة حادة تخترق جنبه الأيسر وسخونة دمائه الفائرة. صاح وزجر، وأشاح لأنه لم ير من أقدم على طعنه. كان يقف قريبًا جدًا منه لكنه تراجع بين الصفوف.

ردّد (كراكة)، "خيري يا ابن الـ... كح... كح! آآآآه!"

"إي!!! بتتحامى في الناس يا رِمّة."

"متقدرش تقف قصادي لوحدك، راجل لراجل."

كان يتبدد، يفقد الكثير من الدماء وكان يُصاب بالهزل، ورغم احتدام الموقف بين رجاله وكلابه وبين طوائف الناس، كانوا يفزعونهم عن أماكنهم وكانوا يتقدمون، إلا أنهم وقفوا وقت أن رأوه وهبّوا مسرعين، يتشتتون مثل الغبار من وراء الرياح.

حتى المخلوقات الضارية، والتي كشّرت عن أنيابها، نبحت، ثم ابتعدت، منهزمة منكسرة، تركوه بين دمائه بين دائرة الناس الذين تهللوا من إبراز قوتهم ومن النصر.

عند رأسه وأمام وجهه المتورم، جاء رجل يرتدي جلبابًا أبيضًا تلون بلون الدم، رفع عصاه وكله رغبة في أن يقضي عليه، أن يحطم رأسه ويُنقِذ الحارة من شروره.

هوى، لكن العصاة أمسكتها يد أخرى، يد رجل آخر له هيئة مختلفة، هيئة قاسية، ومن ورائه سار الشيخ (خيري) ونظر إلى (كراكة) وتنهد ثم قال، "لن يقتل أحدٌ أحدًا اليوم."

"خذوه، احملوه في السيارة إلى أقرب مشفى لعلاجه، ثم أبلغوا الشرطة كي يلقى نتائج أفعاله."

برغم الضياع اندهش (كراكة)، وبرغم اندهاش الناس إلا أنهم نعقوا مهللين، "الله يفتح عليك يا شيخنا، الله أكبر..."

"الله يكرمك يا عم الشيخ."

"بارك الله فيك."

كانوا يحملونه، كما لو كانوا يُشيّعونه إلى مثواه...

دخان ما بين العجلات! دخان السجائر المستقرة بين أصابعه. في طريقه إلى الشهرة، طريق أتى من مركز العمليات، حيث كان واقفًا بين مشاعر ممتزجة بين الرغبة والسرعة، ينتظر الوقت المناسب للبدء.

"ها! عرفت مكانه؟"

"تمام يا فندم، إحنا بنتتبع الإشارة."

"ممتاز!"

"تمام يا سيادة النقيب، الحقيقة فكرة المتتبع دي فكرة عبقرية."

"متشكرنيش دلوقتي يا فندم لغاية ما نقبض عليهم. أنا متأكد إنهم هياخدوه لمكانهم السري."

"اطلع إنت بالقوة وإحنا هنوجهك من مركز العمليات عشان الوقت."

نظرة قاطعة! دخان السجائر المستقرة بين أصابعه. سيارات الشرطة الخافتة، تتخذ مسارًا واحدًا، والذراع المنحنية على شباك الباب، والهواء يقتحم كابينة القيادة. كان يفكر بشكل جلي، وكان دخان السجائر يلتهب كلما أمعن في التفكير. منذ ساعة تقريبًا استقرت الإشارة ولم تتحرك. الأضرحة القديمة، بين الأموات وعلامات الوجوم على وجهه ووجه كل ما كان قابعًا في غرفة العمليات المنعقدة.

القبور، هي الكلمة الأخيرة في الإجابة، طريق القبور، طريق الموت. لا يفكر من يذهب هناك أنه قد يُكمِل حياته في تلك الأرض.

هو كالريح بل أسرع...

القدر!

رجال يجلسون عند نصبة الشاي بعد عناء يوم طويل، فزعوا لما رأوا سيارات الشرطة تقتحم المكان، بأعاصيرها، تُطوِّق المداخل إلى القبور وتفرض حصارًا أمنيًا كاملًا بقوات من الأمن المركزي والفرق الخاصة وفرق المفرقعات، بل وظن كل واحد منهم أن الشرطة قد أتت لتقبض عليه، لأي تهمة! لا يعرف، فندب حظه العاثر.

كانوا يشعرون بقلوب تتقافز في الصدور، وخشي كل واحد منهم على أولاده، فانتصب مسرعًا إلى أن شاهدوا الحذاء الذي ترجل عن السيارة، ذلك الشاب الذي وضع نظارته الشمسية وفحص المكان بنظرات متضايقة.

بحركة من إصبعه أشار، فأمسكوهم جميعًا، وهم يصيحون بالبراءة وأصواتهم الباكية تتوسل بالسماح، لكنه لم يكن يسمع. كان

ينظر بعين ثاقبة إلى طريق القبور الممتد إلى حد بصره. القلب الميت كما كان يُلقّب، إلا أن قلبه كان يتحرك. ليلًا أو صباحًا، القبور تدفع الرهبة في صدر أعتى العتاة، فكان خائفًا! كان ينتفض!

"تِشت... فرقة التنفيذ! فرقة التنفيذ!"

انقطع خوفه، "تِشت... أيوة عمليات! عمليات!"

"تِشت... الهدف ثابت. مرة تانية، الهدف ثابت."

"تِشت... بطلب الإذن ببدء العملية."

"تِشت... تم التصريح. على بركة الله."

"تِشت... عُلِم وجاري التنفيذ."

اجتمعوا، وعلى سيارة الشرطة الزرقاء، وضع خريطة المقابر، المداخل والمخارج. قال منوهًا للضباط الأصغر منه رتبة، "على عجالة، كل واحد عارف هيعمل إيه، كل واحد ياخد فرقته ويروح يحاوط المخارج الخاصة بيه. عايز ناحية الأوتوستراد ومنشية ناصر تكون متحزمة، وإنتوا، ناحية صلاح سالم والدرب الأحمر، أما القوة اللي معايا، قوة الاقتحام..."

"... تحسُّبًا لو في أي خلل حصل، لازم نكون مطوقين المكان ونمنع هروب أي حد."

الساعة الرابعة والنصف، "تمام!"

"تمام يا فندم."

"استخدموا أي نوع من أنواع القوة ناحية أي شخص تشتبهوا فيه بالهرب."

"تمام يا فندم."

"يالا يا رجالة، بالتوفيق."

****

"هداية خلق الله الضالين واجب على المؤمنين، الموحدين بـ (الله)، الواثقين في رحمة (الله) عليهم وبركاته. لا عدل اليوم فيمن عدل عن ذكر (الله). هم الذين غابوا عن الرحمة والمغفرة، وانكبوا جميعًا في أهوائهم يعمهون، وانظروا إلى الحديث الشريف.

حدثنا (قتيبة بن سعيد) حدثنا (عبد العزيز) عن (أبي حازم) عن (سهل بن سعد) رضي الله عنه أن رسول (الله) (صلى الله عليه وسلم) قال:

لأعطين الراية غدًا رجلًا يفتح الله على يديه. قال فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يُعطَاها، فلما أصبح الناس، غدوا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كلهم يرجو أن يُعطَاها، فقال أين (علي بن أبي طالب)؟ فقالوا يشتكي عينيه يا رسول الله. قال فأرسلوا إليه فأتوني به، فلما جاء بصق في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال (علي) يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق (الله) فيه، فوالله لأن يهدي (الله) بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم.

فمن يأخذ الراية اليوم؟"

وكان يفكر في عقله لما اقترب ناحيته الرجل ذو الذقن البيضاء، فوضع كفه على كتفه وقال له، "لقد أثبت أنك واحد من جند الله في الأرض."

"أعمالك كالصرح العظيم، واضحة للعيان."
"لن ينكرها عليك أحد أبدًا."
بهدوء، "إنت بينّا ذو شأن عظيم يا خيري."
لما رأى (خيري) أن الشيخ الأكبر تكلم بلغة عادية، قال، "ده كله من فضلك وتعليمك، فضيلتك."
"متقللش من إنجازك وحسناتك، لسه في المزيد."
"ومتفتكرش إن الجهاد هينتهي."
"الجهاد مستمر لغاية ما نوصل للمبتغى."
"دولتنا الإسلامية الكبرى."
"شوف يا خيري. أنا بحضّرك للعملية الكبرى. العملية اللي هنحقق بيها نصر كبير على الكفرة والماجنين، الباعثين الفساد في الأرض."
"هذه الأرض أرضنا نحن يا خيري، ونحن أحق بها منهم."
"أنا مستعد لأي أمر يا فضيلة الشيخ الأكبر."
"مش أمري أنا، لكنه أمر من أوامر الله."
"جه الوقت إني أنزاح عن المقعد ويصعد قائد جديد."
"أنا اخترتك إنت يا خيري."
"إنت أحق واحد بالقيادة."
"متتكلمش ومتعترضش. الاختيار وقع عليك خلاص."
"ده... ده شرف كبير يا مولانا."
شرف كان يبرق في عينه اليسرى، وعين كانت تُخفِي ملامحها من أسفل ستائر القلنسوة. حديثه مع (خيري) كان في وقت مضى، أم

وقتها فكان واقفًا أمامهم جميعًا بعد أن سأل سؤاله.
"فمن يأخذ الراية اليوم؟"
قال الشيخ الأكبر بروية، "أيُّ سماء تظلني وأيُّ أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله تعالى ما لا أعلم."
"عمليتا اليوم هما نصر من الله ونصر لرسوله. علامة فارقة في تاريخ جماعتنا أن نضرب هيكلًا من هياكل الوثنيين الكفرة."
"الفضل لا يعود إلا لجنودنا وللشيخ خيري، الذي خطط للعملية برمتها."
"لذلك فقد اخترته ليكون قائدكم من بعدي."
الأصوات بالتهليل والتكبير، وكان بعضهم يتقدم الصفوف، لا يهلل ولا يكبر وإنما يضحك حتى برزت صفوف الأسنان، وكانوا يتصايحون فيما بينهم بالمزيد من النصر ومن التفجيرات التي تهز أركان دولة الكفر.
في غمرة احتفالهم وتكبيراتهم، مشت فتاة صغيرة منكسرة، تلك الفتاة التي قصمها الرجل الضخم (سائد)، فأصبحت بلا إرادة ولا قوة. فزعت لما رأت الرجل الملقى على الأرض بين جراحه، يشهق ويزفر، ينعر في وجهها بأسنانه وكأنه يريد أن يُمزِّقها، وأسرعت إلى الرجل الآخر عند الجدار البعيد، ذلك المسنود بين أوهامه. كان يتنفس ولكنه لا يشعر بمن حوله. كان تائهًا ضائعًا، سابح في عالم آخره الموت. عثروا عليه فاختطفوه، تربصوا به فأحضروه.
عند قدمه جلست الفتاة، وكانت تمسح على رأسه، لأنها لمست فيه طيفًا آخر أكثر اختلافًا من الوجوه التي كانت تراها هنا. كان مختلفًا برغم العبث المُستفحِل بين ملامح

وجهه. كانت تشعر بالألفة إلى جواره، كانت هزيلة ضيّقة الصدر من بعد ما رأت في الغرف المجاورة.

شاهدت الأطفال ممن جاؤوا معها في مقاعد خشبية، مستكينين، خمستهم يتأوّهون، كل واحد منهم مع رجل من الرجال، يجلس في مواجهته وبينهم أنبوب رفيع مشترك، أنبوب أحمر قاني، ينقل الدماء من طرف إلى آخر.

خافت ولم تكن منهم، كانت قد فقدت الكثير من الدماء في وقت سابق. لكن نظرة الرعب والهزل على وجوههم، وضعت في قلبها حقيقة الموت، حقيقة الموت التي أصبحت تُخيّم عليهم منذ أن أُحضِروا إلى ذلك المكان، ولعله سيكون مثواهم الأخير.

مال (سائد) ناحية الشيخ الأكبر لما أشار إليه، فهمس إليه ببعض الكلمات، كان نتيجتها أنه رمق الرجل النحيل المُكوّم بنظرة حادة، والذي برغم جرحه الغائر وتقلبه على أجنابه، وعروقه المنتفخة من تحت جلد يُقطِّر العرق كالسيل، إلا أنه لاحظ النظرة المُحتدّة، وقفز في أغواره مكنون الفزع.

أمام المنزل من بعد العصر، من بعد رنين الانفجار، وعند بداية الرصيف أحاطوا به فاختطفوه! هو من كان يتقدم ناحيته مرة أخرى! من بين الصفوف كان يتقدم ناحيته، عملاق جبار، يطرق الأرض طرقًا ويُزلزِل الجدران، حتى أن مشيته جعلت قلب الصغيرة يركض على سرعته القصوى لأنها ظنت أنه عاد إليها مرة أخرى، فما كان منها إلا أنها أخفت وجهها بذراعها عله يعدل عنها، غير أنه تخطّاها، وذلك الرجل الذي كانت قابعة

عنده كان يئن وكأنه يستعيد وعيه شيئًا فشيئًا، حتى أنها شعرت بحركة أصابعه المثقلة.

****

أفراد المجموعة الرئيسة يهرعون من وراء قائدهم النقيب، والذي كان يضغط على أطراف الزناد، في استعداد تام لأن يطلق الرصاص على أي كائن حي يمر من أمامه. كانوا قد توغلوا كثيرًا في القبور، في تلك الشبكة الغير متناهية من التعقيدات والمسارات المتضاربة والأزقة الخفية. كانت أشبه بالمتاهة الحقيقة، غير أنها لم تكن إلا متاهة بين الموتى، الموتى المستلقين في أضرحتهم والموتى السائرين على التراب.

اقترب أحدهم وقال، "يا باشا في حاجة بتشوِّش على الإشارة، بقت تلت أربع إشارات في وقت واحد، وكمان المكان ده عامل زي المتاهة، حتى بالخريطة مش عارفين نوصل لحاجة."

بنظرة حانقة إلى الأفق، وصمته الدائم للحظات، قال، "الكلام ده ملوش معنى عندي،" ثم التفت إليه وأكمل زاعقًا، "اقلبوا المكان ده عاليه واطيه. فتشوا في كل ركن وكل خندق. إحنا مش هنخرج من هنا إلا والعملية تمت بسلام."

قال الرجل وكان يُعلِّق الأشرطة على كُمِّه الأيمن، "في الحال يا باشا،" وأسرع يأمر أفراد الأمن والقوات المتتابعة من ورائهم بالتعليمات.

الضابط المنتصب في منتصف الطريق أعاد بغيظ، "رحت فين يا خيري الكلب؟"

"أيًّا كان المكان اللي روحته، هجيبك يعني هجيبك."
"مش هتفلت من إيدي المرة دي."
بين الأضرحة جماعة من الشباب النحيف، أجسادهم شبه عارية، يرتدون سراويل سوداء ضيقة، بعضها مزركش وبعضها ممزق، وأقمصة مطبوعة بصور الجماجم وأشكال الخراب. كانوا يتهادون في مكان ضيق بين ضريحين، وكانوا في مواجهة الضابط الذي مر من خلالهم للتو، ونظر إليهم نظرة تملؤها التقزز.
كان العساكر يرقبونهم عن كثب، وهم ينظرون إليهم ويتضاحكون، بل ويشيرون إليهم وأقراطهم المعلقة في مناخرهم وآذانهم، تركوا الليل وينتظرون قدوم ليل آخر ليبعثوا طقوسهم المنادية للشيطان.
عند الأضرحة يقبعون وهناك يعيشون ويختبئون بعد أن أصبح ذهابهم إلى قصر البارون دربًا من الجنون. استعدّوا جميعًا للقبض عليهم وكانوا مجموعة من ستة أفراد، يتشابهون جميعًا في هيئتهم الشبحية وأعينهم الملطخة بالدم من بعد ليل طويل.
من ورائهم أشلاء ماعز كانوا أحضروه ليكملوا طقوسهم، وكانوا يحفرون في الأرض ليضعوا بقاياه فيها ويواروه التراب، حتى يأتي ليل جديد.
كان الضابط مشغولًا في تفكيره واسترجع حديثه مع قائده في مركز العمليات، بعد الانفجار مباشرة، لم يكونوا سائرين بلا إرشاد.
تكلم القائد حينها، "التحريات مكثفة وسريعة عن الولد اللي قلت أوصافه."

أجابه، "يا باشا أنا متأكد إنه الولد ده هو اللي عملها."
"الولد ده كان شكله غريب وتصرفاته مريبة جدًا ومثيرة للشكوك."
"يا سيادة الظابط الولد ده ملوش أي بيانات عندنا ولا في الجهاز. إنت بتتكلم عن شبح ملوش وجود."
"وعالعموم، احمد ربنا إنك طلعت من هناك بأعجوبة."
بنظرة قاسية، "هحمده لما أقبض عليهم واحد واحد."
"دي الخلاصة، وده اللي بيمشي مع الإشارة اللي وقفت عند القرافة. التحريات أكدت إن الولد ده كان..."
كان الصوت في عقله يتلاشى لأنه يصيح في القوات من بعدها بعد أن نظر إلى الخريطة وتتبّع المسارات، "إحنا مش بعيد عن المكان،" وبعد أن نظر إلى الشباب الخليع، صاح في الجنود، "بسرعة..."

****

في منتصف دائرة كان يجثو على الأرض، بيده يضغط على الجرح في جانبه. بين الحين والآخر كان يرفع رأسه لينظر إلى الرجل المخبأة ملامحه من تحت القلنسوة، وعند أطرافه جاء أربعة من الرجال يصنعون مُربّعًا حول دائرته. كل واحد منهم يحمل سكينًا، والفتاة المتوجسة والرجل الذي كان يستعيد وعيه، كانا ينظران مليًا.

كان يجثو على بركة من الدماء ومن ورائه جسد ملقى. بجهد شاق رفع رأسه وتكلم، "اعتبر كراكة واحد من رجالتك."
"اعتبرني طوع ايدك وعبدك."
"أنا مستعد أربّي دقني وأبقى واحد منكم."
"أنا مستعد أبوس جزمتك وأحط رقبتي تحتها طول العمر."
تكلم الشيخ الأكبر، "صحيح!" ثم أشار إلى الرجال الأربعة، ومن بين صيحات التابعين، اندفع كل واحد منهم بسكينه في جسد (كراكة)، يقطعونه قطعة بقطعة، علامة بعلامة، بين استمتاع التابعين وخوف الفتاة ودهشة الرجل الذي رفع رأسه أخيرًا.
يتلاعبون بصرخات (كراكة) وقد أصبحت الطعنات على جسده تفوق الخمسين. كان يتلوّى وينعق بمئات اللعنات والسباب، حتى امتثل لسانه للضعف الذي ألمّ به من بعد أن خارت قواه، وأيقن أن الموت قادم لا محاله. كان ينتظره طويلًا، لكن كل ما فكر فيه هو ذلك الضابط الذي خدعه، وظل يُكرّر في سريرته، "ليك يوم يا ابن عسر... ليك يوم يا ابن عسر..."
"مش كراكة اللي يموت كدة."
"مش كراكة!"
"آآآآآآآآآآآآه!"
اهتياج اللحظة الأخيرة... صرخات في مقابلها تكبير وتهليل...
أشار الشيخ الأكبر إلى (سائد) أن يُحضِر الرجل المستند على الجدار عند قدم الفتاة، وكانت الفتاة برغم خوفها من الرجل الهمجي الضخم إلا أنها كانت تمسك

بأطراف الأصابع وكأنها لا تريد أن تتركه أبدًا. كان مُترنِّحًا ضعيفًا، ولم يكن قد استعاد وعيه بعد.

"رديف..."

عند أقدام الشيخ الأكبر ألقاه (سائد)، توجع وشهق ثم سعل بحشرجة، ولما رفع رأسه الهزيلة، برقت عيناه. من تحت عباءة القلنسوة رآه.

تمتم في صمت، "النـــ... نضارة!"

جاء رجل مسرعًا وهمس في أذن الشيخ الأكبر، وعلى حين غرة وقف وترجل مبتعدًا والرجال لا يزالون يستمتعون بتقطيع (كراكة)، الذي أصبح خرقة بالية، لا يتحرك ولا يقاوم.

قال الشيخ في حين كان يكمل طريقه، "اقتلوهم جميعًا..."

طعنة في الجسد، صيحات، وتتابع أقدام...

مقاومة وبكاء...

دهشة وحيرة وانفجار الدماء في العروق...

عين مكفهرة وغيظ!

"آآآآآآآآآآآآآآآآه، إزاي!"

****

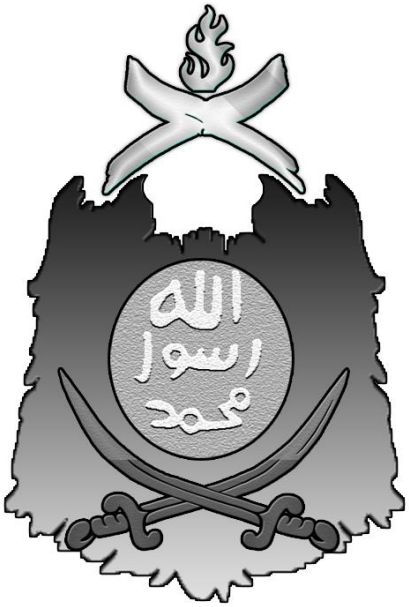
صوت ترتيل القرآن!

ترنيمة ملائكية عازفة تسري في الفضاء!

برغم الحشرجة والتلعثم والتهتهة المستمرة، كان قد أنهى قراءة القرآن ووضع الكتاب على طاولة قريبة. وقف وامتثل تمامًا إلى الرجل الذي ألبسه العباءة. كان يُرتِّب ذقنه الشعثاء، يمسح عنها بقايا الحِنّة ويضع الأثمد في عينيه.

رائحة البخور والدخان المتطاير في الجنبات!
صمت ليدخل عليه أحدهم ويقف على أعتاب ظله.
قال في حزم، "جاء الوقت."
على أعتابه كان يسير خارجًا بعدما ترك صفحات القرآن الكريم مكشوفة على قوله تعالى:
فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94) – (سورة يونس)
عند طرف الباب وقف مُترجِّلًا أمام أصوات التكبير. ضوء باهر يأتي من الظلام الذي مكث فيه. عشرات بل مئات من الجنود. كلهم يصيحون ويُهلِّلون على رؤياه، عندما ظهر لهم وأشار لهم، يبتسم في وجوههم بوجوم، ويرفع يده إليهم أجمعين.
ساعة الغروب! أمطار سوداء! أمطار جارفة ستزلزل الأرض بمن عليها. السيل قادم من بعد الريح...قادم لا محالة...
تكبير... **اه..... تكبير... **اه...

****


الله
رسول
محمد

" 31 "
نصف المرآة

"رديف..."

عند أقدام الشيخ الأكبر ألقاه (سائد)، توجع وشهق ثم سعل بحشرجة، ولما رفع رأسه الهزيلة، برقت عيناه. من تحت عباءة القلنسوة رآه.

تمتم في صمت، "النـ... نضارة!"

كان يصرخ ويصيح، (كراكة).

صيحات العذاب النابعة من كل أفعاله السابقة!

جاء رجل مسرعًا وهمس في أذن الشيخ الأكبر، وعلى حين غرة وقف وترجل مبتعدًا والرجال لا يزالون يستمتعون بتقطيع (كراكة)، الذي أصبح خرقة بالية، لا يتحرك ولا يقاوم.

قال الشيخ في حين كان يكمل طريقه، "اقتلوهم جميعًا، فالكافرون جاؤوا إلينا."

"اقتلوهم جميعًا ولا تتركوا منهم أحد."

اقترب (سائد) وأحاط بالشيخ الأكبر، وقال أحدهم، "ارحل أنت واتركنا لننال الشهادة."

"لن يصلوا إليك أيها الشيخ الأكبر."

ما بين زمجرة (كراكة) وترنحه الأخير، وسقوط جسده، أمسكت الفتاة المرعوبة بيد الرجل المتبعثرة أفكاره، صاحت فيه بكل ما

أوتيت من قوة في محاولة منها لإبعاده عن المكان، وقت أن بدأوا يسمعون صوت إطلاق النار يأتي من الأعلى، صوت كان يسري بين الممرات الضيقة والقناديل المُعلّقة بأضوائها والمصابيح الممتدة بين أسلاك مثبتة على الجدران. على درجات السلم المبني من الطين، بغطاء خشبي قديم، يقبع من وراء ضريح لأحد الموتى، إلى بوابة حديدية، ورجال يختبئون من وراء الجدران.

صرخ الضابط، "متخلوش ولا واحد فيهم حي،" ثم قال للشاويش الذي يقبع إلى جواره، متقدمًا عنه بخطوتين من وراء ساتر، "القوة اللي معانا كافية، أنا عايزك تشغلهم. مش عايز حد فيهم يهرب."

انفجارات القنابل اليدوية والقنابل الحارقة، وفي المقابل قنابل الغاز والقنابل المسيلة للدموع، والدروع الحديدية أمام السُترِ الواقية في المقدمة، ومن ورائها صفوف من رجال الأمن، يحتمون ويطلقون النيران.

صرخ واحد مناديًا، "المجد للرؤوس السوداء،" وكان يزعق مُلبِّيًا، "الله أكبر! إنها الشهادة!" ثم فزع من وراء الجدار وفي يده قنبلة يحملها ناحية أفراد الأمن.

وصل إليهم، وصل إليهم وعلى جبهته فظاظة الموت. وصل إليهم إلا أن بشاشته تحولت إلى الوجوم من رصاصة في منتصف رأسه، فسقط صريعًا، وانفجرت القنبلة فيه.

تكلم الضابط في جهاز الإرسال، "تِشت... إشارة، إشارة، حوِّل. أمِّنوا كل المخارج. إحنا هنتقتحم الوكر دلوقتي، حوِّل!"

"تِشت... تمام يا فندم، القوات مستعدة وفي أماكنها."

"تِشت... عُلِم يا فندم، الأوضاع تحت السيطرة."

"تِشت... عمليات، عمليات، جاري السيطرة على الهدف."

طلقة وراء طلقة، ودرع تُبعِد وابل الرصاص من رشاش آلي، مواجهة ضارية، وصيحات من الجانبين.

صيحة أطلقتها الفتاة لما رأت اثنين من الرجال يقتربون منها ومن الرجل الذي ارتكز عليها، طويلًا لا ترى رأسه، "هيقتلونا! هيقتلونا! آآآآه!"

"رديف..."

"الحقير المنشق!"

بحركة بهلوانية، دفع الاثنين، وقام بكسر مفصل كف أحدهما، وسحب سكينه ثم غرزها في الآخر. انتفضت الفتاة من الدماء التي لطّخت وجهها وملابسها، وكادت أن تُبلِّل نفسها، وفقدت أعصابها، وأصابها الهياج.

أمسكها بعنفوان ودفعها وراءه، وترنح ناحية الرجال الأربعة، القائمين على تمزيق (كراكة)، كان قد شق واحد منهم بطنه، قبل أن يسقط بين دمائه من ضربة السكين، ولما التفت إليه الأخرون، كان قد شعر بقوة فائقة لا يعرف سرها، فقتلهم جميعًا بضربة واحدة، حز بها رقابهم، فتراموا في مراكزهم جاثمين.

(كراكة)، الفاقد للوعي، كان النبض فيه قائمًا، يسترجع ما مكث في جسده من الحياة،

يرمق الرجل بنظرات مُغمّمة، ويبدأ في الزحف مبتعدًا.

صرخت الفتاة في الرجل، "متسيبنيش هنا،" وحاولت أن تُقبِّل يده، فمنعها رغم أنه كان يضعف، فقالت له، "خدني معاك أبوس إيدك يا بيه. أنا مش عايزة أموت هنا."

عند الجدار تهاوى، لا مخرج في عقله غير السكون إلى الحائط وانتظار الموت، بينما (كراكة) لا يزال يزحف، وبعد محاولات مريرة، اتركز ووقف بين دمائه، كان يسير في نفس الاتجاه الذي سار إليه الشيخ الأكبر مع الرجل الضخم.

من وراء الكرسي، عند انحناءة ما بين عمودين، طاولة صغيرة لا يراها ولا يلحظها أحد، كانت مخبأة تمامًا بين العمودين. أزاحها بشق الأنفس، وأبعدها قليلًا. من ورائها سرداب صغير، انكفأ فيه وغاص في أعماقه.

كانت الأقدام تطرق على الدرجات، وانفجار الطلقات يتراكم، تقدمتها قنبلة غاز سقطت في حجر الباحة، عند الكرسي الحجري.

صرخت الفتاة، وبكت، وزعقت، "هنموت خلاص! هنموت! هيموّتمونا!"

"اعمل حاجة! اعمل حاجة! إنت مالك قاعد كدة ليه؟"

"إنت عايز تموت ولا إيه،" فكرة لم تبتعد كثيرًا عن مخيلته.

"أنا... أنا شوفته وهو بيمشي، شوفته خرج منين."

"أنا ممكن أوريلك."

صفعة على الخد، صادمة، "قوم بقى! هوّا أنا هبقى أشجع منك!!"

تقلُّب نظراته، وقف بصعوبة، شهق بعنف، وحاول أن يكتم أنفاس الفتاة عن الغاز حتى ظنت أنه سيقتلها هو الآخر. صرخت ونظرت في وجهه بعد أن تركها، كان وجهه مسودًّا، شديد التيه وشديد الغضب، فتوسلت، "خدنى معاك يا بيه، متسيبنيش هنا عشان يقتلوني."

"أحب على ايدك يا بيه. خدني معاك، متسيبنيش لوحدي."

"هيقتلوني... هيموتوني..."

"وحياة أغلى حاجة عندك، وحياة ولادك ما تسيبني."

نظرتها المنبعثة من مقلتين سوداويتين سهام قاتلة في صدره، ويده التي تحاول أن تبتعد عنها. كان يقاوم نفسه بنفسه.

انتهي الغاز، وعادت الطاولة إلى وضعها، ونزل الضابط بمنديل في يده أولًا، مُقدِّمًا مسدسه في مواجهة أي تهديد يظهر.

نظرة هنا ونظرة هناك، صرخ وضرب مسدسه على الأرض، "آآآآآآآآآآآآه! إزاي!"

"راحوا فين!"

"أكيد الراس الكبيرة كانت هنا، أكيد!"

حركات وهرج ومرج، وقف أمامه الشاويش وقال من تحت منديله، "تمام يا باشا، إحنا فتِّشنا كل الأوض، مفيش حد باقي."

"مبروك يا باشا، العملية نِجْحِت."

استشاط الضابط حنقًا، "نَجحِت!" ودفع الشاويش بقوة من كتفه وصرخ، "شوف شغلك

كويس يا حضرة الصول. فتش المكان كله، سامع! حتة حتة. طلّعهم ما بين الحيطان."

امتلأ المكان بالقوات، كلٌ يقوم بعمله، ووقف الضابط ناحية الكرسي الحجري، أمام جثمان رجل غارق في الدماء، وكانت الدماء تشبه بركة تشرّبتها الأرض، كانت ملامحه مُشوّهة، وجسده مُقطّع، حتى أنها أصابته بالغثيان.

ردّد اثنان من الجنود، "مش ده الأمين إيّاه! يا ربي! ياع! كح كح!"

"يا أخي ميت مرة قلتله متشتغلش مرشد مع شادي عسر، نهايتك هتكون زفت، مسمعش كلامي."

في وقت سابق...

انقلب صوت الراديو إلى إذاعة القرآن الكريم بعد أن طرقت الخطوات إلى غرفته. كنكة القهوة التي وضعها على النار، أصبحت تتقلب وتنفث ماءها، لكن يد امتدت وأزادت من النار فانقلبت، يد تفتح كتابًا وتُقلّب فيه مرتين ثم تضعه بهدوء في مكانه. لم تترك موضع قدم إلا وقلبت فيه. أطراف كثيرة كانت تتفحص الغرفة بما فيها.

وفُتح باب الحمام...

"هاه!!"

"إيه!!"

علامات الوجوم على الوجه المبلل، نظرة حادة وغضب جم.

"بتتجسس علينا في بيتنا، بيت الله!"

"مين اللي بعتك؟ شادي عسر؟"

"هه هه هه!!"

"أنا مبتجسِّسش! أنا... أنا واحد من المُصلِّين. اتقوا الله يا عالم، إنتوا عايزين مني إيه!"

"كنت فاكر إننا مش هنعرف نجيبك، مش كدة؟ متقلقش، مش هناخد حاجة غير حياتك."

"هاتوه...!!!"

"وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ [الأنعام: 116]

واختفى صوت الراديو!

(الله أكبر)

وجهه المُشوّه وفمه المفتوح عن آخره، أظهر آخر لحظات العذاب. كانت نظرته مُفزِعة وكانت تصيب (شادي عسر) بالتقزز.

جاء الشاويش وتكلم، "مفيش أي أحراز ولا خرائط ولا أجهزة غير المسدسات والرشاشات الآلي، يا باشا."

"بس... في خمس أطفال..."

"أطفال!"

"أيوة يا باشا، أطفال موجودين جوه محطوطين على خراطيم بتنقل دم، بس للأسف ميّتين. كانوا بيستخدموهم في نقل الدم لرجالتهم المصابين."

ترك الشاويش وأفراد الأمن والتحريات وأفراد المفرقعات والبحث، وبدأ يبحث بنفسه في الأرجاء، رأى بنفسه الأطفال في كراسيهم، أياديهم الموصلة بالخراطيم الدقيقة، بعضها لا تزال تنضح بالدماء

العالقة فيها. أزاح بنفسه الوشاح الأسود المُعلّق، شعار الرؤوس السوداء، ووضعه على الكرسي الحجري من بعد أن نظر إليه بتقزز.

كان قد وضع نفسه أمام الباحة موضع الشيخ الأكبر، ولوهلة قصيرة شعر بتلك القوة التي يُعطِيها المقام. شعر برقاب تنحني لرغبته وإرادته. رأى نفسه فوق أكتاف البشر. شيء جعله يرتقي فوق صفوة الأنبياء بل ويصل إلى الألوهية. ذلك هو سلم واحد يرتقي من خلاله، طاولة يضع قدمه عليها فينظر، "...!" غمغم (شادي عسر).

طاولة كانت مائلة شيئًا قليلًا ما بين عمودين، لا تظهر البتة. بنظرته المتفحصة، جثا عند أطرافها وأزاحها ليشعر بالهواء.

أجل اختفى وأعاد الطاولة مكانها، كان يسعى إلى القوة والمجد الذي لا يضاهى، هي فرصته التي كان ينتظرها كي يعود كواحد بين الأبطال العِظام.

****

سعل وتجشأ الدماء، عند نهاية النفق، من وراء أسوار القبور، شجرة يابسة قديمة وأرض شاسعة ممتدة. هناك، استند (كراكة)، يتجرع حسراته وينتظر من يقبض روحه. هناك حيث ترك الفتاة لحال سبيلها، فأسرعت راكضة ولم تنظر للوراء إلا مرة واحدة. كان يقف أمام (كراكة) المحتضر، (كراكة) الذي بادله نفس نظرات الموت.

قال (كراكة)، "أنا عارف إنت مين؟ إي!! بس جايز إنت مش عارفني يا باشا."

- كح كح -

"آآآه!"

"أكيد مش هتعرفني، وهتعرفني إزاي بعد اللي حصلك!"

"هه هه هه! الباشا الكبير مراد نصري، وكيل النيابة المحترم."

"أنا ورجالتي اللي عملنا الأنفاق دي. مكنتش أعرف إنها لخيري الملعون."

"خيري شهاب، هو اللي بتدور عليه، مش أنا."

(مراد) كان جامدًا كتلك الشجرة اليابسة، يتكلم بأسنان مُصطكّة ومقلة جاحظة، "ديجا!" وكانت نبرته جافة كملامح وجهه.

تحشرج (كراكة) ونطق، "ديجا! أنا معرفش حد بالاسم ده."

"بس أعرف إني كنت هناك..."

- كح كح -

"كنت هناك ساعة ما البيت ما ولع."

نيران...!!!

وجه حزين ووجه مُتحيّر...

نصف وجه يرى النصف الآخر في مرآة جهنمية...

تلك الليلة لم تكن كباقي الليالي الباردة، كان يقف في الجانب البعيد وحيدًا، في غرفته ظل طيلة الليل يرقب من نافذته الصغيرة. رغم كثرة الأقدام وتسلل الضحكات من تحت أعقاب الأبواب، إلا أنه كان وحيدًا. كان يرمق ذلك الشكل الشبحي، تلك

الفتاة القصيرة النحيلة المخضبة الأوجان بحمرة خفيفة، تلك التي انشغلت ملامح وجهها ببياض وبسمة لا يفهمها.

كانت تدفع في نفسه التساؤل. كان كلما رآها في ذلك الركن تقطّعت أنفاسه ولام ضعفه، لأنها كانت بين الحين والآخر ترمق شخصًا آخر وتترقب قدومه، شخص لا يعرف من هو.

حبيبها؟ والدها؟ من يكون؟

في عينيه رغبة حقيقية في أن يتحدث إليها، أن يسمع منها وأن يراها.

كلما أسرعت خطواتها ظن أنه سيُقتلَع من الأرض التي تسبح عليها لأنها مرّت، فلا يدري إن كانت قدماه استسلمتا، أم أنهما تتشبثان بأمنية قديمة، أم أنه قد حلّق منذ وقت بعيد ولم يصل.

كانت كلما تمايلت في طرف عينيه، يقبع في مكانه مبتعدًا قدر الإمكان. كان يخشى أن يقترب منها، وهي في الأساس لا تراه وإن كانت تراه وهي تبصر ذلك الشخص الآخر الذي لا يراها، غريب هو ذلك الفكر الذي يقبع في داخل أواصر الإنسان. له أن يتخيل أنها كانت تتخيل أن ذاك الشخص يتخيلها فلا يتخيل أنه يتخيل أنها تتخيل أن ذاك الأول يتخيلها.

وجع حارق وهُوّة مدقعة في القلب الصغير...

نغمات تلك الدقات الهامسة تحمل في فحواها عنوان شيء قادم، ما بين حب وإعجاب، فإن كان حبًا، تعلق بصاحبه كما تتعلق اليرقة اليافعة بغصن شجر أخضر، وكأنها تشعر إلى

جواره بالأمان، حتى تكبر وتنضج، فترحل، ولكنها لا تنسى أبدًا ذلك الغصن الرطب.

أما إن كان إعجابًا، تعلق بصاحبه كما يتعلق العطر الفواح، سريعًا فاح وسريعًا راح، ولم يتبق من أثره سوى تلك اللحظات التي أسرت العقل لا الفؤاد.

وضع القلم حينما انتفضت يداه فلم ينطق، ولم ينفك يُؤنِّب نفسه. رحل ثم ابتعد، ولم يُكلِّم حينها أحدًا، وهناك في غرفته قبع إلى جوار الحائط الأقصى، في ظلمة الألوان يُقلِّب كل أوراقه، وينظر في قلبه إلى حبيبته التي مضت.

غريب أنها رحلت وأزاحت الستار، والأغرب أنه لا زال يذكر كل تفاصيلها، ببراءتها وجنونها، بفرحتها وشجنها. غريب أنه لا زال يذكر كل تلك الأوقات التي رآها فيها، بمواعيدها وأقاصيصها، وكل كلمة قالتها، حتى سكوتها وهمسها.

غريب حقًا أنه حين أفاق، يراها، وحين ينام، يراها، وحين يبتسم، يراها، وحين يحزن، يراها، وكأن هي، هو، وهو لا يدرك كل شيء عن نفسه كما يشعر أنها هي نفسه. أعطى لنفسه الوقت لكي ينسى فلا يذكر، فلم يقدر.

عادت إليه كل تلك الأوقات في قصير اللحظات. بكت عيناه، بل دمعت. رمق من حوله فلم ير أحدًا يراه، سوى (الله) عز وجل. ليس من أحد سواه يراه، هو الأعلم بما يحمل.

أيقن حينما أبصر بسمتها أنها الأجمل. أعطى لنفسه الوقت عله يهدأ، ولا زال في دهشة من أمره. كيف وبعد أن مر الوقت وعبرت السنين

لا زال قلبه معلقًا بها؟ لم يكن ير في تلك الفتاة الأخرى سوى صورة منها.

شعر وكأنه ولوحدته ضعيفًا... كان قويًا بها...

هذا خطأ!

أعطى لنفسه الأسباب، فلم يتقبّل غيرها. كان الناس والأصحاب يلتفون من حوله، يُحدِّثونه فلا يسمع. أغلق أذنيه حتى صار وحيدًا، حتى صارت الكلمات في جوفه كالجمرات.

لا ينطق!

لم يدرك بعد أن الحياة التي يعيشها لم تكن حياة، وأنه أضاع الوقت في الذكرى والبكاء. رجل هو أم أنثى! ظل خائفًا من القادم، من الأقدم. ظل حبيسًا لسطوة الأحلام، حاول كثيرًا لكنه لم يسلم من الأوهام.

رمق الفتاة علّه يدرك...

لم ينظر إليها...

لكنه عاد لينتظر وجودها وهي ترمق ذلك الشخص الآخر الذي لم يأت.

هي لم تعلم، وهو لم يسأم...

لم يكن الوحيد البعيد عن الشمس وهي تحتضر. كان الجميع يستظلون بخنوع لسطوة الليل. لم يكن الوحيد عندما اقترب من إحدى تلك الأضواء المنتشرة في ذلك الشارع المكتظ بالناس. كان الوقت يميل إلى الظلمة، وكانت السماء تتخضب من دون إرادتها بأدخنة وحمرة من الشفق الذي طغى على بريقها ومن الخيوط البرتقالية المتماوجة.

كان هناك، يضع كفيه في جيوبه، بالكاد ينتفض، ينظر لأبعد مما يكون الأمام وهو يبتسم. كان الناس من حوله يرمقونه وهو يبتسم، لا يعرفون سر تلك الابتسامة التي ظن أغلبهم أنها ابتسامة صفراء، لا توحي بما في داخله، وأنه بلا شك كان يسخر منهم بها، تلك الابتسامة المقيتة.

كثير منهم تقزز حقًا من أمره، وتناوبوا عليه ألسنتهم بما يقتص من عباءة كينونته، أما البعض الآخر ممن لم يبال البتة لأمره، كانوا يضعون نصب أعينهم ذلك الوقت الذي يسحب البساط من تحت أرجلهم، لكنه رغم ذلك كان يبتسم.

لم لا وهو من أودع البعض ثقتهم فيه؟ لم يخن ثقتهم ولم يفرط فيها.

لم لا وهو من ظل يُعطِي من دون أن يسأل؟ وعندما يسأله الناس لا يبخسهم حقهم.

ظل هكذا وقتًا طويلًا. ظل ينشر البسمات على قلوب الآخرين حتى طبعت الابتسامة على قلبه الرقيق. الشيء العجيب أن الناس كانوا يتعجبون من أفعاله، من وحدته ومن أقواله.

كانوا يرمقونه على أنه البئر الغائر أعماقه، المبهم السائح في كينونة الأوهام. كانوا يرمقونه على أن ذلك الهدوء الذي اتصف به بالتأكيد لن يحلّ طلاسمه سوى شخص آخر يملك أسرار ذلك الغموض.

كثيرًا ودّوا ذلك وكثيرًا التفوا من حوله، ليس إلا كي يعرفوا سر ذلك السكون. لم يُر أحدٌ من أحدٍ هناك سواه. كان بمفرده أمام الحياة التي كانت تمتد باستمرار ولا

تنتهي. لم يكن يبالي حقًا بما سيأتي وقتما يغمض عينيه كل ليلة.

كانت بداخله روح الطمأنينة راسخة رسوخ الجبال في غمار الأرض. لم يسأل ولم يعلم من أين أتت، لكنه كان يجلس طويلًا بمفرده فيرقب كل حركة لكأس الماء الذي وضعه أمامه، فلا يجده يهتز بمفرده إلا إن تسلطت عليه قوة ما ليس لكأس الماء دخل فيها.

يا لها من ليالٍ كان يضع عينيه فيها نصب ذلك الكأس. كانت الأضواء الخافتة لضوء القمر تتخلل النافذة وتُشرق في مقلتيه، راسمة في روحه لحنًا من ألحان الحياة. كانت تدفع إليه السلام والسكينة، تلك التي كان يسعى دائمًا إليها.

عندما يلتف حول نفسه كي يسألها عن سر ذلك السكون، لا تجيبه، وإنما تريه مما في جعبتها عجبًا. كانت تريه ابتسامة طفل يتلوى من الألم، وقوة عجوز يمشي بالكاد، لا يزال يُصرّ على المضي قدمًا برغم ضيق الحال، وتلك الرأفة التي انصبّت على رجل غاشم عندما رأى عصفورًا جريحًا يئن في سكون.

كانت تُريه تلك المرأة التي تلف أولادها حولها خشية أن يصيبهم الصقيع، يندثرون تحت أجنحتها وكأنها العالم بأسره، وكأنها هي الحياة وما فيها، فيبتسم، ويظل يبتسم لأنه أدرك أن الحياة التي يلتف الناس حولها، كانت تقف على مرتقى وتناديهم. بعلو صوتها تناديهم للقدوم. تُريه بنظرتها من النافذة وهي تنتظر، فلا يقدر إلا أن يتتبع نظراتها.

دارت ورحلت!

تركت من ورائها خيطًا رفيعًا فتأزم الموقف بينه وبين الحياة.

احتدم كثيرًا وتأجج!

صارت تعاديه في كل أركانها لغرور فيه رأته يزداد. أرادت أن تحنيه وتقصم تلك الشوكة التي دفعته لأن يتخلى عنها، لكنها في كل محاولاتها لم تستطع.

أتى مبتعدًا عنها، فذهب، فعاد من حيث أتى ورحل، أرته أنها لن تستسلم لرغبته، وصمته بالعار، وأضنته في أحلامه. أرته من أشكال العناد كل أطياف الجنون. أرته أنها تفرد سطوتها على البشر الخانعين لجمالها.

هي كانت تحبه وهو لم يكن حقًا يبالي...

كان يرى من بين تلك الأسوار العالية والأضواء التي تحرق الأبصار تلك الفتاة النحيلة الراسخة أقدامها، تلك التي كانت تتهاوى بشعرها السابح مع أمواج الريح السارح صوب طريق ليس ببعيد عنه. كانت تخترق الصفوف وتشق طريقها بصعوبة. كانت كلما اصطدمت بأحدهم، لا تتأفف، ولا تلعن، بل تعتذر، ثم تبتسم وتكمل.

حدق نظره على خطاها، أراد حقًا أن يراها، كانت الأضواء تعكس نظراته.

تلاشت من أمامه وكأنها حلم لا ينفك يراه في عقله المتخم بالحب.

ولد هو ولكنه ظل يبحث عنها هنا وهناك في عقله وصدره، فتّش كل ركن في قلبه، لم يجد لها أثرًا، كانت كالشبح، لم تطبع على روحه طيفها.

هو ذلك العطر الساحر الذي أرشده إلى مكانها، كانت تسير بخطوات ثابتة بين الجموع لا يشوبها التردد. بطرف أصابعها دفعت بضع خصلات شعرها الذهبي عن جبهتها. رأى عينيها، فتاه فيهما لسنوات. لحظات مرت، رحل فيها وكأنه لن يعود. لكنه ابتسم، ثم أغمض عينيه طرفة واحدة وعاد ليبتسم.

التف الكون بألحان النجوم الخافتة، ورسم القدر لوحة جمعت أطيافًا وألوانًا، والناس يتمايلون كخيالات على الممرات، والأضواء تومض شيئًا فشيئًا. أصوات الريح تسبح من بين أصابع أقدامهم.

هناك ابتسم وتجمد، وهناك التفّت لترفع عينيها البراقتين قبل أن ترتطم فيه، فتوقفت النظرة. غفل عنهما الزمان والمكان والناس أجمعين، حتى البحر والنجوم والألوان وعاطفة الحنين. لحظات قليلة ليس إلا التي رسمت فيها أعينهما دقائق التقائهما. كانا يمران جنبًا إلى جنب كطيفين يسحبهما عطر خاطف، يتقطر من طرف قلبيهما على درب الحياة.

هو الذي أرشدهما إلى ذلك الممر دون سواه. هناك، حيث كانت أطيافهما معلقة ببعضها، يتمايلان، والأقدام تدفعهما للأمام. ابتسم واقتنص نظرة إلى عينيها في غفلة من الزمان وهي تبتسم.

سريعًا مرت من جانبه...

لم تفهم من يكون. لم تفهم سر توقف الزمان حينها. لم تفهم تلك الصاعقة التي ضربت أعماقها. لم تفهم سر ذلك الجنون.

من يكون؟ هكذا سألت نفسها.

لم يفهم من تكون؟ ملاك هي أم حلم عابر! أم أنها تلك العيون! لم يفهم سر رغبته في رؤيتها مرة أخرى مع أنه لم يكد يراها.

من تكون؟ هكذا سأل نفسه.

لم تكن الإجابة عنده أو عندها. حينها توقف ظلاهما وهما يمران تاركين ذلك الإطار الذي رسمه القدر لهما، وشحبت تلك العلامات التي جمعتهما لحين.

ابتسم في طرفة عين، فابتسمت...

ابتسمت مع أنها مرت...

اختطف روحها القدر، فسمعت...

لسوء خاطره كانت تمسك بأطراف أنامله، فتاة تحبه وتبحث عنه، مليحة الوجه، شديدة سواد الشعر، لكنه كان ينظر إلى الأخرى، إلى خيوطها الذهبية. ترحل ولا يريدها أن ترحل. كثيرًا ما انتظرها وكثيرًا ما بحث عنها ولكنها كانت تبتعد.

ألم حارق في الرأس. كان يشعر أن عروقه ستنفجر. كانت السماء تدور وكل الصنوف تدور في عينيه. لماذا توقف الزمان وأرسل إليه تلك الصور؟ هو لا يقوى على الإدراك، لا شيء سوى أن ملامحها لم تفارق فؤاده المُعلّق.

غمغم (مراد)، "كار..." وكان يقِظًا بائسًا.

(كراكة) الذي هزل كثيرًا وأصبحت دماءه غذاءً للشجرة اليابسة، أكمل كلامه، "خيري شهاب، الملعون، هُوّا اللي عملها."

سعال وحشرجة، "هُوّا اللي عملها يا باشا، مفيش غيره اللي يقدر يعمل كدة."

"ده... مكانش الاتفاق، بس هُوّا... هُوّا كان ناوي."

ظلالهم كانت هناك، وقف الشيخ الأكبر و(سائد) عند مشارف الشجرة اليابسة إلى جوار سيارة الرينج روفر المارونية. تقدم الشيخ الأكبر وفي يده عباءته التي يُلملِمها من الطريق ناحية (مراد)، والذي كان مُتجبِّسًا ضائعًا، لم يأبه كثيرًا لاقتحام الشرطة لوكر الرؤوس السوداء، ولا للأبواب المحاصرة للقبور. كان يمشي على راحة من أمره، وقف و(سائد) متقدم عنه بخطوة أو خطوتين.

تكلم الشيخ الأكبر، "خيري شهاب كارت محروق. أنا ممكن أسلِّمهولك،" وكان يتكلم باللغة العادية، "خيري شهاب أخطأ خطأ جسيم ولازم يتعاقب. كل اللي أخطأوا لازم يعاقبوا."

"في لعبتنا دي مفيش مجال للأخطاء."

"أنا مكنتش عايز أقتل أبوك اللوا، لكن خيري كان ليه تحالفات تانية."

شهق (مراد)، "أبويا!"

"طبعًا مش هتكون فاكر، لكن الكلام اللي هقولهولك أهم من الشرطة ومن الانتظار."

"لكن افتكر البيت..."

"... افتكر البيت والبنت اللي كنت بتحبها."

تكلم (مراد)، "أنا عارف إنت مين؟" وكان يطرق على رأسه.

"النضارة!"

ضحكة صفراء وإجابة كالصاعقة، "أنا مش الدكتور يونس."

سيل جارف في الدماغ المدمر!

عين جاحظة في العدم!

أنفاس متقطعة وضوضاء!

مرة ثانية كان يرقب الفتاة من النافذة ويتمنى أن يقابلها. كثيرًا ما كان يحلم بتلك اللحظة، وكثيرًا ما كان ينظر إليها من البعيد فيري عينها الممتزجة بالدموع. كانت تجلس عند الشرفة تنتظر وتنتظر بالساعات. يسأل نفسه عن هويّة من تنتظر ولا يعرف.

أضاء نور الغرفة على حين غفلة، ارتبك وابتعد عن النافذة، وحاول أن يشغل نفسه في كتابه الكائن إلى جواره. كانت الأم تقترب وعلى وجهها علامة الدهشة الممزوجة بالفرح. عند أطرافه جلست، وأمام شكله الصبياني تكلمت، "صاحي لغاية دلوقتي ليه يا مرمر؟ مش المفروض تكون نايم!"

امتعض الولد واختطف نظرة إلى النافذة، كانت هناك، فعاود الالتفات إلى أمه وقال، "يا ماما أنا مش عايز أنام دلوقتي. أرجوكي سيبيني قاعد شوية."

"باقي كام صفحة وأخلّص الفصل ده بعدين هنام على طول. آه! وإيه مرمر دي كمان؟"

ابتسمت الأم ورفعت رأسها ناحية النافذة، "تِخلّص الفصل برضو! ولا بتبص عليها."

"إيه! أنا! أنا! لا..."

"لا إنت ولا غيره، أنا عارفة إنك بتبص على بنت الجيران."

"مش عيب برضو، هِيّا الرجالة تعمل كدة؟"

"طيب إيه؟"

"حاضر، هقفل الكتاب وأنام."

مسحت الأم على رأس ولدها برفق ولين ونظرت في عينه نظرة حيّرت الطفل لدرجة أنه تساءل عن السبب في صدره ولم يجرؤ على سؤال والدته. كانت حقًا قانطة.

قالت الأم، "تصبح على خير يا حبيبي،" ثم تركت طفلها من دون أن تُقبِّله وأغلقت الباب.

عند زوجها الجالس أمام التلفاز وقفت، قال لها، "مراد عامل إيه؟"

أجابت، "كويس..."

"أنا مش مِطّمن الأيام دي. في مشاكل كتيرة والبلد مش مستقرة."

"مش مستقرة إزاي؟ ما البلد كويسة وكل حاجة ماشية تمام."

"ده إنتي اللي بتقولي كدة، لكن إحنا في الوزارة لينا رأي تاني. إحنا متابعين كويس اللي بيحصل."

من وراء غرفة حجرته كان يستمع إلى حديثهما، ثم عاد إلى النافذة مرة أخرى،

كانت قد رحلت، فضرب الخشب وذهب إلى سريره لينام.

نوم لم يكن يأتي إلى عينيه أبدًا... نوم كان يُثقِل رأسه بعد حين...

صوت عجلات السيارات، ذلك الصرير المؤلم الذي تتراقص عليه نبضات قلبه. تلك البرودة القاسية التي اخترقت عظامه البالية. طرقات أصابع تضرب على رأسه. أصوات أشباح هائمة في الظلام، غمام كثيف يتكاثر، يُخبِّئ من ورائه أشباحًا وأمواجًا عاتية. رذاذ المطر يتساقط على عيون حمراء مكفهرة.

كان يرتعد، كان يخشى من الألوان المظلمة. ينحني بالكاد على نفسه، ويندفع إلى الحائط حتى صار جزءًا منه، حتى تلاشت ملامحه كُلِّية في الضباب الذي طغى على رؤيته، فما عاد يُفرِّق بين الطرقات. أصبحت كل السبل سواء. أصبحت الغربة التي يشعر بها هي الطريق الوحيد في حياته.

أناس يصرخون، يئنّون ويبكون، كانوا جميعًا يقتطفون من ابتسامته جزءًا يلونون به حياتهم، ويتعجبون من تلك الحرية التي كانوا يتمتعون بها وهو بينهم. رغم سكونه وسكوته إلا أنه كان يضفي على سمائهم لون الأمان. هم يقتطفون منه وهو يعطي، كان يخشى من ذلك الشعور الذي قد يحل على أيامه القادمة، كان يخشى من الفراق ولذلك لم يكن في حياته سوى الصور التي كانت تلتصق في صفحات ذكرياته بغراء الحب.

أم وأب! ولد يتقلّب في نومه باهتياج...

الأضواء التي كانت تتمايل على الزجاج من الطريق المكتظ بالمارة كانت تدفع أنفاسه إلى الاقتضاب، لم تكن عينه التي تتمايل، وإنما أطراف أصابعه التي التقفتها رأسه من على الحائط. كان يُفكِّر، لا يدري لماذا كلما مر الضوء من أمامه لم يكن يزيحه عن عينيه، كانت تلك هي الصورة التي رآها فيها. كان يرى النور الساطع وهو يُخفِّفه بطرف يده، فيلمحها في البعيد، ساكنة تقف. ابتسم وتألم، لم يكن في يده سوى المكوث إلى جوار النافذة.

صوت عجلات السيارات! رجال ملثمين ينزلون ويهرعون! يدخلون تحت ظلال الليل إلى باب العمارة...

نيران ودخان...

كانت الأضواء تمر نهارًا، تبهت ليلًا، وتتلاشى مع الغمام. ومضات العين ودهشة الخواء الذي سكن في القلب. صار يسمع صوتها، يرى ابتسامتها ويسمع صرخاتها. لا يزال يبكي لحزنها. لماذا لم يعد يفكر في أي شيء سواها؟ أن يضع الأمنيات والأحلام، وأن يعمل على تحقيقها، ثم تتلاشى وكأنها الهباء، ربما من اختيار صعب أو قسوة الدنيا أو ضعف شديد وحيرة.

رائحة النار! صوت احتراق يسري في جنبات البيت!

صرخات...

هي تلك التنهيدة التي أخرجها مع زفرات أنفاسه المحترقة عندما أفاق. إنها تنهيدة الحنين، الحنين الذي يضرم في فؤاده النيران، ويتركه للريح حتى يتوهج. الحنين

الـذي دفـعه إلـى حـافـة الـيـأس، فـلا هـو يـعيش ولا هـو يـمـوت، وإنـمـا يـسكن عنـد أطراف الـمستقـبل.

لا يـعلم لـمـاذا يـنظر إلـى تـلك الأرقـام الـتي تـعطيه عنـوانـهـا، هنـاك حيث كـانـت، لا يـراهـا وإنـمـا يـفكر فـي حـالـهـا، وتـتـدافـع الـكلـمات الـتي تـذكـره بـالـنصيب، الـتي تـخبره بـتـدابـيـر الـقـدر، الـتي كـان يـراهـا وكـأنـهـا تـعارضه. الاقـتـنـاع شيء لا يـمكن أن تـجده فـي الـحب. الانـسان دائـمًـا مـا يـسعى إلـى الأفـضل، والأفـضل مـع مـن رآهـا الأفـضل.

يـظل يـعطي وتـظل تـأخذ، فـإن لـم تُـعطِ فـي الـمقـابـل، لـن تـجد أبـدًا الـحب الـذي كـانـت تـتـوقـعه، وقـتـهـا تـسـاءل، هل كـان الـصمت الـذي أصبغه على نـفسه هـو الـسبب؟ أم أن الـحيـاة الـتي يـعيشهـا كـانـت أشد نـفـورًا مـن الـفـرحة الـتي يـتـمـنـاهـا؟ هل تـتـحدّاه الـدنـيـا ويـتـخلى عنه كـل مـن كـان حـولـه؟

صوت شهيق استيقـاظه كـان مـفـزعًـا. نـظر هـنـا ونـظر هـنـاك، لـم يـر أحدًا، لـم يـر والـدتـه الـتي كـانـت تـربـت على رأسه ولا الـنـافـذة الـمضيئة الـتي يـرقـب مـن خلالـهـا الـفـتـاة. كـان قـد نـعس وضوء الـغـرفـة مـضاء، يـحلم، ومـا يـمـلك غـيـر حـلم جـمـيـل فـي حـقـيـقـة صـعبـة.

يـد الأب تـتـرك علامـتـهـا على خدّه. يـبكي ويـهـرع إلـى غـرفـتـه. بـمـقـدوره أن يـشعـر بـالـوجع مـن داخـلـه. مـر الـوقـت وانـطـفـأ الـنـور!!

"يـووووووه!! كـل يـوم زي كـدة." مـمـتـعضًـا، ولـكـن بـهـدوء، "بـس مـش مـشكـلـة."

"مـمـمـم!! أي حـاجـة أحـطـهـا فـي الـكـتـاب عشان مـنـسـاش الـصفـحـة. صفـحـة!!!! آه... 116... بـكـرة أبـقـى أكـمـل بـقـى."

كان يُفكِّر مليًا، "بس الأوضة ضلمة قوي،" ومع أنه لم يكن خائفًا، إلا أنه تميّز بين رغبة الذهاب إليهما، إلى والديه، وبين العزوف عن ذلك.

لم يعد يعرف كيف أصبح هكذا. يشعر دائمًا أنه وحيد. بمفرده سيصبح في مأمن أكثر من أي مكان أو بين أي جمع آخر، فلن ينهره أحد ولن يضربه أحد، وبالتأكيد لن يزعق والده في وجهه ثانية.

للحظات تذكّر حكايات جده عن الجان والعفاريت. لم يمنع نفسه من رسم تلك الوجوه المرعبة في مخيلته. خطواتها كانت تقترب، تتربص به من أسفل السرير، أو من خلال ذلك الشق في خزانة ملابسه أو من ذلك الوهج الغريب من أسفل عقب الباب، أضواء برتقالية متموجة، ليس سوى الاختباء من أسفل الغطاء.

ليس أسهل من قص الحكايات المرعبة على أطفال لا يخشون عواقبها لأن كبارهم معهم، ولكنهم وبمفردهم قد يعانون أكثر من تلك العواقب في وقت قد يصدق أي شيء في الكون، أي فكرة سوداء قد تتسلق إلى عقله، أي سارق أو عفريت أو ثعبان أو صور قد تتهاوى على رأسه. حتى صورة الفتاة التي يحبها لم تشفع له أمام خوفه. تلك الصورة التي خبأها وراء صورة جده. لا يستطيع الاقتراب منها، لا يعلم اسمها ولا يراها كثيرًا لكنه اقتنص صورة لها في ليلة ما.

وسمع صوت اصطكاك الباب كطبول قلبه المترنح، وحدّق بعينيه المتعبتين كي يرى شيئًا يُطمئِنه في تلك الظلمة الحالكة.

تكتكة غريبة كتكّات الساعة، تتخللها أرجل من الخوف، تتصادم، لكنه تدلّى إلى الأرض حتى أحسها، وظل يعدد الأرقام كلما تقدم ناحية الباب، ناحية ذلك الضوء البرتقالي الذي كان يزداد بريقًا.

انفجار!!!

دخان ونار!!

لا أب ولا أم ولا جد!!

تكتكة ما بين الأشياء المتناثرة...

1

2

3... أربع خطوات فقط!

أقدامه المسرعة، لا تستطيع أن تفتح أبواب غرفة أمه وأبيه. بدأ بالصراخ، وشعر بلهيب النار المنتشر. أصبحت حركته جنونية. لا يستطيع أن يفتح الباب. مرارًا وتكرارًا لا يستطيع. حاول بكل الطرق الممكنة، كان اللهب يلتف من حوله سريعًا جدًا.

بكاء وانفجار...

عين مُحدِّقة لا تعرف ما تفعل. مشلول لا يقوى على الحراك. يُتمتم باسم أمه وأبيه. يفقد شجاعته لضعفه الطفولي.

حرارة النار! كان يختنق...

وكُسِر الباب...

كُسِر الباب، وولج رجل يتشح بجورب أسود على نصف رأسه العلوي وذقن هشة، سريعًا ما اقتلعه ورماه في النار، حمل الطفل معه

والطفل يُنادِي على أمه وأبيه، والرجل يُحاوِل أن يُطمئِنه أنه سيعود إليهم.

وحيدًا على الأسفلت يقف، يراها إلى جواره وهي تتلاشى شيئًا فشيئًا في سديم ذكرياته. لم يكن يُفكِّر أن أقدامه ستسارع الخطوات عائدًا إلى داخل السديم. الأم والأب غاية الوجود.

انهياره وبكاؤه وحتى صرخاته الصبيانية لم تكن شيئًا مما يشعر. كانت إلى جواره ولم يكن يراها، تُمسِك بطرف ذراعه، تسعل وتسمح وجهها المُغبّر بالدخان، تبكي وهو لا يشعر بها لأن قلبه كان يدفعه في الظلام والأوار الكثيف المنتشر على الدرجات.

لم يعد الأب ولم تعد الأم!

ظل هو وهي وحيدين بين جموع الناس...

رجل أنقذه وجاء إليه مسرعًا، يطمئن عليه، ما إن رآه حتى اندفع إليه، يصرخ، "ماما! بابا! يا عمو..."

هو الذي ربت على كتفه وكانت عينه منتفخة ووجهه مُترّب ولحيته القصيرة متسخة، "أنا آسف يا مراد، بس إحنا معرفناش نطلع حد تاني،" ونادى أحدهم، "يا شيخ خيري، في صوت، لسه في ناس عايشين!"

"أيوة، أنا جاي..."

أسرعت الفتاة، تجري إلى داخل العمارة، مد يده صارخًا، "كارماااااااا!"

****

وقف منتصبًا وامتثل تمامًا إلى الرجل الذي جاء من ورائه وألبسه العباءة التركمانية،

ووضع على رأسه العمامة السوداء، يُرتِّب ذقنه الثائرة، ويتجمد تمامًا بينما يضع الكحل الأسود في عينيه. رائحة البخور والدخان المتطاير في الأغوار. رائحة أثارت في صدره عبق الرغبة المتأججة.

صار منهم! بل صار زعيمًا عليهم...

صمت ليدخل عليه أحدهم ويقف على أعتاب ظله. قال في حزم، "جاء الوقت."

انتهى وتقدم، تبعه من خلفه وكان يسير خارجًا بعد ترك صفحات القرآن الكريم مكشوفة على قوله تعالى:

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94) - (سورة يونس)

عند أعتاب الباب وقف كالصنديد أمام صيحات التكبير. ضوء باهر كان الغمام يُظلِّله في السماء، غمام يُلقي بالظلام على الأرض. عشرات بل مئات من الجنود، مُصطفين كالأسنان، كلهم يصيحون ويُهلِّلون على رؤياه، عندما ظهر لهم وأشار لهم، يبتسم في وجوههم بوجوم، ويرفع يده إليهم أجمعين.

ساعة الغروب! أمطار سوداء!

أمطار جارفة ستزلزل الأرض بمن عليها.

السيل قادم من بعد الريح... قادم لا محالة...

- تكبير... إلاه...

- تكبير... إلاه...

الشيخ الأكبر الجديد... (خيري شهاب)، يرفع يده ويُشِير إلى الجموع، فتتعالى تكبيراتهم.

نظرته كانت مُستمتِعة.
من وراء ظله تصخّر (سائد)، الرجل الضخم، العملاق مفتول العضلات، يحرس ظهره، ويرقب حركاته. بلمحة خارقة جاء من وراء (خيري شهاب)، وضع الهاتف الجوال في جيبه، ونطق أخيرًا، "أجل! حسنًا... طلبة كان عليه أن يموت، أخل بواجب الحراسة...هو أيضًا!! حسنًا..."
القاضية! (خيري شهاب) في نطاق مخالبه...

****

"كارما!!" همهم (مراد)، لبرهة من الزمان كان واقفًا مثل التمثال. ينظر في أعماق عقله، لم يكن هناك، لا الشيخ الأكبر ولا الرجل الضخم. بدأ يظن أن ما رآه كان وهمًا. سلسلة أخرى من الضياع الذي يعيش فيه في عقله.
هل كان يتخيل؟
(كراكة)، الذي كان يحتضر وعينه مفتوحة على اتساعها، يلتقط آخر أنفاسه ويُحدِّق إلى ما وراء (مراد)، كان لا يزال يُردِّد، "خيري شهاب..."
"خيري... شهاب... هُوّا... اللي..."
بخفة ملحوظة تقدّم (شادي عسر) وفي يده مسدسه الميري. وقف على بعد خمسة أمتار أو يزيد من (مراد)، يتّخِذ وضعية الحيطة قبل وضعية القتال، وصرخ قائلا، "أقف عندك..."
"ارفع إيدك لفوق، أشوفهم. ارفع إيدك لفوق، بقولك..."
واقفًا مثل الصنم كان (مراد). لا يتحرك له إصبع ولا تلتف له نظرة ولا رقبة. كان مُحدِّقًا

في (كراكة)، والذي فاضت روحه وسالت بين دمائه صعودًا إلى مثواها.
"أي حاجة معاك ارميها. مش هكرر كلامي..."
"لف واحد واحدة لغاية ما أشوف وشك."
(مراد) لم يستجب.
"سلم نفسك ومتحاولش تعمل أي حاجة مجنونة."
"المكان كله محاصر بالقوات، مفيش مجال تهرب."
بانحناءة بسيطة نطق (مراد)، "أنا مش بحاول الهروب."
تجمّد (شادي عسر)، تلعثم ولم يعرف ما يقول، كان يُفكر، "بس إزاي؟ ده مات..."
قال (مراد)، "إيه! محتار إنت كمان!"
مجرد الفكرة كطلقة رصاص دوت في دماغ (شادي عسر)، اقشعر بدنه بعدها.
ردد (مراد)، "ديجا... كارما..." رددها عدة مرات، فقال (شادي عسر)، "ديجا منير؟"
تمتم (مراد) باستغراب، "ديجا منير!"
لم يسمعه (شادي عسر) حينها لأنه أكمل في نفسه، "العيلة دي ورايا ورايا! ولا شوفت أي مقابل لخدماتي."
قال (شادي عسر)، "سلِّم نفسك يا مر... يا أنور. إنت خلاص وقعت."
رفع (مراد) ذراعه وطواها بينما تقدّم (شادي عسر) بحذر، وهو يتكلم، "أخيرًا وقعت في إيدي، متتخيلش قياداتي هتبقى مبسوطة بِيّا إزاي لما يعرفوا إني وقعت أنور رحيم بنفسه."

بحركة سريعة، انقضاض وإيماءة، أمسك (مراد) بذراع (شادي عسر)، سحب مسدسه، ورفعه من فوق ظهره وطرحه أرضًا.

انحنى عند صدره (مراد) وضغط عليه، وكان (شادي عسر) يتوجع ويتفقد ملابسه التي اتسخت.

قال (مراد) بحنق، "مراد... أنور... مش هيقف دلوقتي." "أنا اللي هيجيب النهاية."

حمل في كف يده المسدس وابتسم ساخرًا، وقال، "متحاولش تمشي ورايا." "الطريق اللي أنا ماشي فيه طريق موت."

ترجل (مراد) وابتعد، ترجل و(شادي عسر) المكوم على الأرض يُرسِل إشارة استغاثة في جهاز اللاسلكي.

تِشت... تِشت...

عين (مراد) الثاقبة، "دحا منير!"

*

" 32 "
عذراء

لم يكن من أحد هناك، غرفة واحدة مضاءة بمصباح صغير عند حافة جدار، فراش واحد عند الحافة الأخرى، ووسادة أمامها تلفاز شاشته تبث نورًا وصوتًا خافتًا. بالكاد تسمع طرقات أقدام في الممر. طرقات تأتي من تحت سماء داكنة مُتفحِّمة، تتبدى من نافذة صغيرة بعيدة، سماء أطفأت أنوارها ورحلت إلى أعماق الكون.

ليس إلا تلك العيون المجهدة التي كانت النظرات تتسلل منها. تجلس على حافة جدار وترقب الأضواء. تكاد خيوط شعرها تتمايل مع الريح. كلهم رحلوا بعيدًا، كلهم ناموا وأدركتهم الأحلام، لكنها رغم وحدتها كانت تبتسم. كانت هناك، فوق الجدار، تنظر إلى المدينة العابثة، وذلك الليل الساحر الذي لون وجهها بلون الشحوب، وتلك الأصوات التي سرت في عقلها كنغمات الحياة وشيء من السكون.

اهتزاز في الرأس موحِش!

غرفة ساكنة، مُتربّة وقاتمة، وجسد مقيد بإحكام...

لم تكن تشعر! لم تقدر أن ترى!

خاتم الصليب، يبرق، إصبع يُدِيره بلا توقف. يد جامدة كانت تعبث بلا هوادة. وجهه المقيئ ينظر إليها عن كثب. ينظر إلى منحنيات جسدها الملفوف. مُكوّمة ومُوثّقة على مقعد في غرفة لا يصلها الصوت.

لم يُبعِد نظراته عنها. لم يكن بمقدورها الحراك. كان ينظر إليها ولسانه ينعقد ويتلوّى. ينظر إلى أصابع أقدامها التي تهتز، فيجري لعابه سيلًا. كان هائمًا، وكان يحلم بجسدها الطري بين يديه. يتفحص التلفاز المضاء، يستمع إلى الضجيج المتواصل، أخبار كثيرة، جميع القنوات الإخبارية وغيرها لا تتكلم إلا عن شيء واحد، حادثة الكنيسة، اقتحام المشرحة وعملية القرافة.

وحتى الآن لا توجد أية أخبار عن...

- كليك

أجرت قوات الشرطة المصرية بالمعاونة مع...

- كليك

زي ما بقولك بالظبط، البلد دي رايحة في ستين داهية، الـ...

- كليك

صرّح مسئول أمني أن العملية التي أغارت بها قوات الشرطة وقوات مكافحة الإرهاب على الأضرحة قد تمت بنجاح منقطع النظير وأنه قد تم تصفيه جميع العناصر الإرهابية المختبئة، وقد أوفد المتحدث الرسمي لوزارة الداخلية أن...

- كليك

تنهّد كثيرًا، لم يعد يكترث للقيل والقال، بل كان ينتظرها. يتأفف لأنه لا يستطيع أن يظفر بها، يمد يده ليُمسِك ذراعها المُدلّاة بلا قوة، ويُمرِّر وقته المتحفظ عليه

كالرهينة، يُمرِّره بين خيالات تظهر في عقله السقيم. وضع آخر وعالم آخر غير الذي يعيش فيه. ليس بشيء من خاطره أن يعيش وحيدًا، شريدًا، طريد الماضي، حبيس الأوهام. اختلفت الحقائق وتبدل تاريخه. كانت هناك، يريد أن يحظى بهديته.

مقيدة، مكشوفة الرأس، وتتنفس بصعوبة. رأسها محنية ناحية اليمين، مغمضة العين، وضعيفة الإرادة. لا زالت تتنفس، أنفاس وكأنها رزنامة تتطاير أوراقها في كل ثانية، في كل ليلة ساعات من عمرها. هي كفراشة سابحة في الكون، يراقبها بشغف ويتساءل متى ستسقط تلك الورقة. رزنامة خاوية على الأرض، لا يتبقى منها سوى ذكرى الحياة التي قضاها.

يُحدِّق ببصره في محتواها، يقترب إليها، يلصق جسده بجسدها، ورقبته برقبتها، عله يفهم النيران التي دبّت في أوصاله. يُغمِض عينه عله ينام من بعد عناء طويل، لكنه كلما غط في النوم رأى الأوراق تتطاير، ومعها حياته، ومعها ذكرياته، وأناس أحبهم وأناس خدعوه، وأناس عاشوا يحلمون به وأناس باعوه، وآخرون يرسمون بسماته وبعضهم أوجعوه. داعب أنفه ومسح القذارة عنه بطرف يده، ثم أعاد خاتم الصليب، خاتم الفضة في بِنصر يده إلى وضعه، وقت أن ترجل ظل آخر إلى جواره، وتكلم، "لسه مفاقِتش!"

ذلك الصوت الجاف، كان قد أزاح عن كاهله العباءة السوداء وارتدى بنطالًا من القماش وقميصًا فضفاضًا، أخرج أطرافه.

"لأ، لسه،" قال الآخر وإلى جنبه رجل ثالث، "نفوّقوها يا رياسة."

اقتطع الأول، "لأ! سيبوها تفوق لوحدها،" وكان يبتسم ابتسامة شريرة، ظهرت ملامح وجهه في ضوء المصباح الخافت شيطانية.

"البنت حلوة يا رسول،" ولعابه مازال يتقطر.

"لأ، دي محدش هيقربلها. على الأقل دلوقتي... دي هترجع تاني لأبوها زي ما هُوّا عايز بالظبط."

"الباشا!" استفسر الثاني.

"أيوة الباشا،" وضحكته لم تُفارِق وجهه.

"إنت إيه في دماغك بالظبط؟ نجيب رسول بيفكر في إيه؟ إنت عارف إن الباشا ممكن يقلبها علينا. صحيح بعد اللي عمله معايا آخر مرة، مبقتش أقوله آمين، لكن؟"

"تار قديم مع عفريتة العلبة دي، هي وأبوها، أنا عايزها تتعذب يا مراد."

بامتعاض وعضة على الشفاه، "مورو! ميت مرة أقولك، مورو."

"يا باشا، نعذِّبوها، قولنا بس إيه طلباتك، وإحنا هنورّوكوا هنعمل فيها إيه."

صفعة على الوجه، "اسكت إنت يا قرد."

قال (مورو) على مضض، "بس مش ده اللي اتفقنا عليه، الاتفاق كان مختلف. كدة النسبة هتزيد يا رسول."

نظر إليه (نجيب رسول) نظرة احتقار، وبعد وقت تكلم، "صحيح، عبد الفلوس!"

أكمل، "الفلوس متفرقش معايا. اللي يهمني إن البنت دي متشوفش النور. إنت فاهم، عايزها عايشة في الغيبوبة."

"نجيب رسول مبينساش حد أساء إليه."

"نجيب رسول لسعته بالموت."

هو الذي مد يده إلى ذقنها ورفع رأسها، كانت عينها بيضاء ممتزجة بشعيرات حمراء، انتشرت منذ آخر دوي في الكنيسة.

كان يبتسم في وجهها، وقال لها، "أنا حذرتك قبل كدة."

ضحكة شريرة...!!

نواجذ بارزة، تبعتها ضحكة (مورو) وقهقهة القرد، والتي كانت أشبه بالسعال. كانوا جميعًا أمام جسدها الخائر، يترقّبون.

أضواء وغيوم، غياهب الماضي البعيد، هناك حيث رُسِمت على ملامح وجهها أطياف الأسى والبؤس، وانحنى جسدها مُرخِيًا كتفيه باعتراض. تعب كثيرًا من ثقل الأحمال المُسنَدة إليه. كانت تبذل قصارى جهدها كي تعتدل، لكنها لا تستطيع، بل خنعت تمامًا إلى الواقع الذي فُرِض عليها.

في الأمام أناس يرمقون المشهد وينتظرونها، مجرد ظل بين أطياف العوام، حيث الصباح والليل سواء. ألم الجسد صعب وشديد، وجع دام طويلًا. كانت قد أفاقت قليلًا من الضجيج الصارخ في رأسها. كانت متوهمة بلا مرشد.

شهقة من بعدها جحظت عينها بوخزة صارخة، أصابتها بالشلل. رأسها تهتز، تسمع الصيحات والصرخات، وتذكرت أنها كانت تركض وتزعق، "نورينا!!!!!!!!!!"

شهقة أخرى، لاذعة، ونعقت (ديجا)، "ماما!! ماما!!"

أجابها صوت جاف، "أُمِّك ماتت..."

في هول الصدمة لم تكن قد استعادت كامل وعيها بعد. في اللحظة التي غادر فيها القرد ومكث (نجيب رسول) و(مورو) المتلذذ بنظراته إليها وحدهما معها.

تكلم (نجيب رسول)، "أنا حزين جدًا إن نورينا ماتت،" وكانت نظرته الحادة تنقلب إلى شيء من التعاسة.

بعد أن أدركت أنها مقيدة، قاومت، ولما فقدت القدرة على التحرر، زمجرت، "إنت!! إنت عايز مني إيه؟"

قال (نجيب رسول) مُبتسِمًا مرة أخرى، "أووه، بس أنا مش عايز منك حاجة."

"إنت يا دوب أمانة عندي وهترجع في ميعادها بالمظبوط."

"أمانة!" تعجبت (ديجا)، إلا أن (نجيب رسول) أكمل، "منير أمونيوس، أبوكي، عايزك، وعنده هتروحي بعد ما تاخدي واجب ضيافتك."

في النار بين مطرقتين، هكذا شعرت (ديجا). ذلك الرجل ذو الملامح السمجة، تكرهه وتكره التعامل معه منذ المرة الأخيرة، وبين حقيقة والدها.

قاطع (نجيب رسول)، "أنا مكنتش عايز نورينا تموت..."

"... زي الحقيقة، الرابط بيني وبين نورينا أكبر من إنك تفهميه."

قاطعت (ديجا) بدورها، "إنت كنت عايز تخطفها هِيّا مش أنا!"

"صحيح، بس مش هِيّا المقصودة، لكن إنتي،" بضحكة شيطانية وغضب على وجه (ديجا)، "حقير!"

"بس لما شوفتها في الكنيسة غيّرت كل حاجة عشان أحميها."

"زي ما إنتي شايفة، نورينا هِيّا حب حياتي، ملكي أنا، سواءً كان بموافقتك أو لأ. بس اللي بيني وبينها أكبر من خيال مريض لطفلة زيك."

"بس للأسف..."

"أنا أمي أشرف وأطهر إنسانة،" وكانت تقاوم لعلها تتحرر من الحبال، غير أنها لم تستطع سوى المكوث في موضعها.

قال (نجيب رسول)، "نورينا غِلطت لما فكرت تسيبني عشان واحد زي منير أمونيوس. باعتني أنا عشان السلطة والفلوس والجاه."

"سابتني وخلّت أهلها يطاردوني في كل مكان، مسابوليش مكان أروح له إلا وطِلعوا لي فيه. كل تفكيرهم إنهم يخلصوا على الشخص الوحيد اللي حبته بنتهم."

"آخر حاجة عملوها إنهم سابوا الموضوع للبيه، منير أمونيوس، الناجح الصاعد، اللي راشق في السما بخطاف من دهب."

"منير أمونيوس!" قالها وأسنانه تصطك ببعضها مع نظرة متأججة، ظهرت على قبضة يده.

الغريب أنه هدأ سريعًا وأكمل، "أنا كنت مستعد أسامحها، بس القدر مأسعفهاش، وأكيد هِيّا بتتعذب من خطاياها دلوقتي في النار."

"النار يا ديجا، اللي بتاكل روح أي إنسان، أي إنسان باع نفسه للشيطان وفكر إنه ممكن يلف ويدور على نجيب رسول."

"نجيب رسول مبينساش الأذية أبدًا."

قالت (ديجا)، "إنت بتقولي الكلام ده كله ليه؟ غرضك تِأثّر عليّا!"

"أووه! مش هتفرق كتير، أنا بس حبيت أعرفك مين أمك ومين أبوكي."

لف (مورو) وقال، "إيه رأيك نكهربها؟ بس سيبهالي بعد كدة. أنا محتاجها في مواضيع حساسة ومهمة."

"مراد!" زمجر (نجيب رسول)، "مراد يا نصري! لو اتكلمت تاني من غير ما أقولك، إنت اللي هتكون مكانها."

"ديجا، مهمة. أيوه! مهمة جدًا! هي لازم ترجع لوالدها صاغ سليم، ذي ما طلب منك بالظبط. مفيهاش خط واحد."

ردّدت (ديجا)، بتعجب، ويبدو أن (نجيب رسول) سمعها، "مراد نصري!"

قال (نجيب رسول) موضحًا، "أوه! صاحبي هنا،" ورمقه بغضب، "دكتور المشاعر، عنده حل لكل مشكلة، إلا مشكلة الستات طبعًا."

"إنت مراد نصري؟!"

وقت أن اختال (مورو) بنفسه، قالت (ديجا)، "إنت مش مراد نصري..."

"إنت كداب! إنتوا الاتنين كدابين..."

"أما إنت، فبعد ما أخرج من هنا، عقابك هيكون عسير."

"أوه!" برقت عين (نجيب رسول)، "قصدك أبوكي، منير أمونيوس؟ المصالح المشتركة هتسيب أي مشاكل ممكن تحصل. أبوكي راجل عملي، يمكن زيادة عن اللزوم."

احتارت (ديجا) وتلعثمت...

أردف (نجيب رسول)، "قصدِك الكنيسة؟ هه هه هه! الكنيسة مشغولة بمصيبتها. معتقدش إنهم هيشغلوا نفسهم بواحد زيّي، على الأقل لكام شهر كمان."

علامات الوجوم تتزايد على جبينها!

"قصدِك الشرطة؟ مش لازم تحطي أمل كبير عليها وخصوصًا بعد الحادث اللي حصلك."

"الحادث!"

تساءلت (ديجا)، كيف؟ ولماذا؟ وكان الرجل الآخر (مورو) يكشف عن قميصه ليُظهِر الرضوض، والأضلع المكسرة، والخدوش، وساعتها رأت (ديجا) الجروح في رأسه ورقبته، وقالت، "إنت!"

نظرة في عينيها، ضوء شديد البريق...

- إيييييييييييييييييي - كرييييييك -

- طاااااخ!! -

صدمة قوية ورد فعل أخرق لحزام الأمان الذي قبض على صدرها كما لو أنه ضمّ أضلعه سويًّا. دحرجة وإيماءة بالرهبة، وضغطة بكل ما أوتيت من قوة بذلت فيها جل ما تملك من عضل في رجلها، لتري من بين الضوء الساطع

الذي ضرب في عينها شظايا أشلاء تتطاير وزجاج يتكسر.

عقل (ديجا) الذي ارتج بعنف على إثر الصدمة أوهمها بشخص يسبح في الهواء، ليسقط ويتدحرج، وتنفجر الدماء سيلًا على الأسفلت الخشن. شعرت بنفس تأثير الصدمة على رأسها مرة أخرى.

شهقت من الفزع... نظرة في عينه المدقعة بالحَمَار...

مُمدّد على الطاولة الحديدية في ظلمة المشرحة وبين نيرانها المحتدمة، يُحدِّق فيه شبح فتاة. ذلك الشخص القابع بين الحياة والموت، كانت تنظر إليه بحنق وغضب وافر. عليها أن تقضي على حياته أو تعيده إلى الحياة. أي الطريقين ستسلك إن كانت ستمحو الأخطاء في إطاعتها للأوامر؟

وجه لظل أمام غرفة التشريح، والتي ارتعشت الأنوار فيها. (مراد)، صدره الذي يعلو ويهبط مثل إعصار كاسح. مسدس من أسفل أشرطة بيضاء من أسفل قبضة في يد مهتزة، مُصوَّب على جسد امرأة نحيلة ترفع كلتا يديها، تمسك بمشرطٍ لامع، وعلى استعداد لأن تهوي على (مورو)، الجثة القابعة على يسار الباب مباشرة.

"متتحركش..."

القرص في فنجان القهوة! أضواء الماخور وضعف الجسد وصوت محرك السيارة!

أنوار الموت القادم على الطريق السريع!

ظلام!

ظلام لا يخلو من السكون. ظلام لا يعرف إن كان استمر طويلًا أم أن رحلته في طريق الموت كانت قصيرة.

جسده المُجمَّد على الطاولة الحديدية. صدر ينشق ويعود نبض القلب الذي مات. عين ساكنة سكون الموتى تُفتَح بهياج واضطراب. ظهر ينحني ويشهق شهقة الحياة.

يد تساعده، (حامد)، يد تحمله بعيدًا وتمضي به من بين النيران.

في الماخور، بين عقاقيره ومواده التي يستخلصها بطريقته، تلك المركبات الكيميائية التي جعلت من جسده المتوفى حديثًا مجالًا للتجارب والتعافي. لم يمت، بل أصبح كالثور الهائج من بعد أن ابتلع المزيد من الحبوب، تلك الحبوب التي أعادت نشاط أعضائه المُدرّبة لدهر مضى بين قوات الحرب الكيميائية وفرق الصاعقة والقوات الخاصة. (مورو)، وحش لا يعرف غير البريّة، عاش فيها وتأقلم معها حتى صار جزءًا منها.

تعجبت (ديجا)، "إنت!!"

"أنور رحيم عدلي عبد المولي!"

كانت عينها لا تزال جاحظة ولاحظت ارتباك (مورو)، الذي لم يستمر طويلًا.

قالت ديجا، "إنت أنور رحيم عدلي عبد المولي! أنا افتكرت من الحادثة."

قاطع (نجيب رسول)، "مش هتفرق هو مين وإنتي مين، بعد شوية الناس كلها هتبقى زي بعضها."

جاء القرد، وفي يده يحمل علبة حديدية صغيرة. كان وجهه مُجعّدًا من الضحك المستمر. كان مستمتعًا لدرجة تفوق قدراته.

فتح (مورو) العلبة وكان بها قنينة كتلك المستخدمة في العقاقير الطبية، ومحقن بلاستيكي أبيض.

قال (نجيب رسول)، "هِيّا دي نفس المادة القديمة!"

"أيوة! هِيّا، حجر الجنة،" أجابه (مورو) وكان يسحب من القنينة حتى ملأ نصف المحقن أو يزيد قليلًا.

"محدش يقدر أبدًا يقاوم تأثيره..."

"تفكيرك العسكري إجرامي،" قال (نجيب رسول)، ثم أكمل، "ممتاز،" ثم استدار إلى (ديجا) وقال، "شايفة كل الكلام اللي قولته من شوية. كنت بفضفض معاكي، بس ده مش هيفرق دلوقتي."

أمسك القرد بذراعها، واضطربت (ديجا) واهتاجت، وصرخت صراخ المجانين. كانت تنتفض باستمرار والحبال تقيدها تمامًا وتمنع جسدها من الحركة.

أمسك (نجيب رسول) بذقنها وقال، "بعد خمس دقايق، هتلاقي كل حاجة مختلفة،" فتفلت عليه، وبدأت تشعر بتيار بارد يدب في أوصارها.

زغللة في العين، برودة لم تستمر حتى تحولت إلى سخونة جارفة، جسد يقشعر ويهتز، ألوان تمتزج ببعضها البعض وتدور.

(نجيب رسول) الضاحك في وجهها، يُردِّد أخيرًا، "دي... هديتي... ليكي..."

"استمتعي... بيها..."

طوفان وإعصار! غيبوبة وأشكال تظهر وأخرى تختفي! ثلاثتهم تلاشوا تمامًا من أمام نطاق عينيها!

تلك الأضواء الخاطفة كانت تتغير باطراد. كان ذلك الصخب العجيب وكانت تلتف حول نفسها. تُغنّى وترقص. كانت أجمل من في الحفل. تضع يدها حول عريسها وكانت تدور وتدور، والقاعة تضج بالأنغام التي تُسكِر العقل وتزيد الوهم. كانت تُغنّى بصوت عذب جميل. يراها الناس فيريدون الاقتراب منها.

يراها أمامه فيتيقن أنها أميرة من أميرات الزمان. حمرة وجنتيها كانت تخضب الحفل برونق الخجل الذي صبغته على شاكلتها. وكان بين الحين والآخر يلتف فيقتنص الفرصة كي يرى عينيها، فيُغمِض عينيه سريعًا، لا لأجل تلك الأضواء الشديدة التي غمرت الحفل، بل لأجل ذلك الشعاع الذي كلما أبصره، اخترقه لصميم قلبه.

لا يعلم لماذا، لكنه يحبها... لا تعلم لماذا، لكنها كانت تود لو أنها تتلاشى بدورانها...

يتوافد الناس مجتمعين، ومن حولها يتدافعون، يقتربون ويبتعدون، وكانت تدور وتدور. تراهم ولا تشعر بهم. كانت تخافهم وكأنهم أطياف أشباح في تأبين زفاف حزين. يودّون لو ينالوا الفرصة فيقضون على ما تبقى فيها. كانت تراهم يتدافعون إليها فتبتعد عنهم. كانت تدور وتدور، وكثيرًا ما تدور.

ذلك اللحن الذي عليه يتراقصون، يخترق أذنها كلحن لذكرى أليمة لا تريد أن تفارقها. كانت تسمعه أنينًا حادًا في عقلها، كانت تتألم، ومن حولها يتدافعون فتفر منهم. الخوف، تلك الذكرى الأليمة التي أسرت كل حواسها ودفعتها للالتفاف حول نفسها في تلك اللحظة التي اقتنصتها من الزمان كي تُعبِّر عن الأسى الذي تشعر به، وهو يلتف من حولها فلا يرى فيها سوى ذلك الشعور بالسعادة الغامرة التي لم تغمرها فقط بل غمرت كليهما معًا.

خداع؟ كانت تصيح، وتزعق فيه، في هياجها كانت تثرثر، "إنت إزاي تعمل كدة؟"

"إنت مش عارف عملت إيه؟"

"إنت دمرت ناس وثقوا فيا!"

"إمتى هتحس بيّا وبمشاعري؟"

"أنا عمري ما هسامحك، عمري ما هسامحك يا منير..."

"ديجا، إنتي...." لم تسمع ما كان يقول في ضجرها.

جامد كما كان وكما يكون، لم يلتفت إليها ولم يُعِرها انتباهًا، يقبض على سيجاره ويحشره في فمه وحسب. حاجب يعلو وحاجب ينزل، ولا يكترث للصراخ.

شيء هناك من فرط الأسى يتمزق، كادت أن تتقطع أنفاسها، ولعلها تقسو على نفسها رغبة منها في إنهاء حياتها. في منتصف الصالة كانت تدور وتدور، ولا تريد أن تتوقف. لا تريد أن تتوقف حتى لا يرى الناس تلك الدمعة التي كانت تقف عند أطراف

عينيها. خوفها من القادم دفعها لأن تزيد من الوقت الذي يقف أمام إنهاء تلك الطقوس. كانت تخاف من القادم فحاولت أن تحول دون بدايته. كانت تخشى تلك اللحظة التي تتبعثر فيها كل أحلام أخفتها في داخلها.

مغمضة العين... ساكنة الجسد... على كرسي خشبي كانت تدمع...

شروق وانتصاف الشمس وبداية رحيل. هي من كانت تقف عند حافة النافذة ليس بالوقت البعيد. كانت تقف وتنتظر. كانت تتنفس بصعوبة فقد تأخر الوقت ولم يأت حتى تلك اللحظة. كانت تضع كل آمالها على تلك الأوقات.

كانت تبكي وكانت تقول لنفسها أنه سيأتي، حتمًا سيأتي. كانت أصابعها تلتف على غصن وردة تذبل شيئًا فشيئًا، تضع كل آمالها على طرف أصابعها وتُدلّيها من حافة النافذة. في كل لحظة تمر، كانت تتساقط من دون أن تشعر فلا تُبقِي لها غير الفراغ. ظلت هناك تُمنِّي نفسها كثيرًا، لكنه لم يأتِ ولم يسأل. كانت تلف تحت قطرات المطر حينما سكن الوجود وأضاءت علامات برق خاطفة في عينيه، يرمقها وهي تتلوى من الشباب إلى الطفولة.

كان يبتسم ويضع عينيه نصب تموجات شعرها الكستنائي، وهو يسبح في الفضاء كلآلئ تشع وهجًا. كانت أشبه بالطفلة التي لطالما انتظرت هطول الأمطار، وكان كالرجل الذي لطالما انتظر تلك الطفلة.

يد في يد ونظرة في نظرة...

لا يعرفان بعضهما ولا يتكلمان...

كانت تنظر له وتتخيل، وكان ينظر لها ويتخيل...

يقف ولا يتحرك، وهي تلف وتدور وتتلوى، فتبرق وترى أناسًا، رجالًا ونساءً، يقتربون وأعين ترصد حركتها، ورجل يتموج، ليس ببعيد عنها، يرقبها ولا يتركها، فاستدارت وابتعدت، وسريعًا غابت عن ذلك الإطار.

أمسك يدها واقترب منها، فاحمر وجهها من دون أن تنطق. كان بينهما كل أشكال الوئام. كانت تشعر أنه هو الوحيد الذي تستطيع أن تحيا معه تلك الحياة. كانت تشعر أن الحياة ستتوقف بالتأكيد إن رحل. قالت له كلمات ترسم بها إطارًا لهما، يحميهما من طلاسم ذلك المستقبل الغامض. كانت تتمنى لو أنها تحوطه بين ذراعيها فلا يغيب عنها طرفة عين. كان يتمنى ألا يتركها أبدًا.

للوهلة الأولى مذ أن رآها وحياته تخضبت بألوان متعاكسة. كان كلما سار خطوة لا يراها فيها، يعود أدراجه فيجدها تنتظر. كان يشعر أنها تفكر فيما يفكر. كان يعلم أنها تشعر بما يشعر. هي التي اقتحمت حياته فجأة وقلبتها رأسًا على عقب، لماذا عادت وهي من اختفت؟

"كارما..."

"أنا..."

"مراد..."

"أنا..."

أما هي فكانت صغيرة، كانت تتخيل وتنتظر.

إنه السراب الذي صبغ عينيها. كانت تلف وتلف. رجال ونساء، وخيالات تأتي وتتلاشى، وشخصًا تُبصِره، فترى ذاك الظلام الطاغي، أقدام تطرق في مشيتها، ويد تمتد لتُمسِكها، فتلف وتلف لترى الأضواء من بين رجال ونساء وخيالات لا تعلمها.

والدتها! (نورينا)، تبتسم...

والدها! يمد يده بغضب ليوقفها...

أضاء البرق ولم يكن رعدًا، كان ذلك الضوء الشاحب الذي اخترق الظلام. كانت تطوي قدميها إلى فخذها وتستند إلى الجدار واضعة رأسها عند حافة النافذة. كانت هناك منذ الصباح، تنتظر. كانت على يقين أنه سيأتي. كانت تعلم أنه لن يتخلى عنها كما وعدها. كانت تعلم أنه لن يتخلى عن وعد قطعه يومًا لها.

برقت قليلًا ثم تنهدت وأطلقت بضع زفرات ساخنة من نيران حنينها.

كان يقبع عند النافذة يرقب نظراتها، يرقب حزنها وتأثرها وانتظارها. كان يتألم لتألمها، وكان يدمع لدموعها.

ستة أقدام كانت تقف قبالة بعضها البعض، أقدامها، أقدامه وأقدام الأخرى...

كان الظل يرسم حوارًا يدور بينهم. كان أحد الظلال يتقدم والآخر ينتظر والثالث يبتعد. هناك حيث اقترب وتحدث بما يدور في خلده. أعطى كل ما كان يملك من قوة هدفًا في سبيل تحقيق آماله. كانت هي كل آماله.

تحدث ولم يخنع أبدًا لذلك الهاجس الذي كان يدور في نفسه حين رمق تلك النظرة

الشيطانية في عيني الرجل المتجهم، وبعد وقت أوقف حديثه، فناداه ليقترب حتى دنا منه.

قال له، "ابعد وإلّا هدمرك!" وما كان منه إلا ذلك الذي رسمه الظل. ظل يشيح بيده، يندد بما سيحدث ويتوعد، وظل يقف مشدوهًا لما يحدث، وقد باتت كل آماله هباءً، فوقف الظل وقال بهدوء لم يكن فيه، "أنا آسف..."

لم يكن يقولها له، فسمع حديثًا مُرًّا وأقصوصة أحيت الخوف الذي كان مختبئًا في دهاليز قلبه. طأطأ رأسه شامخًا فانصرف ورحل.

كانت هناك، ليس بالوقت البعيد تنتظر. كانت على يقين أنه لن يتركها. لم تر أبدًا ذلك الظل الذي يقف عند النافذة، يرمقها. كانت نظراته حزينة كنظراتها. لكنه وضع يده على صدره وربت عليه، يحاول أن يُطمئِنه.

كما أشرق شعاع الشمس وصار يغيب، كان يخطو مبتعدًا وكان الأمل في عينيها. كانت هناك تلف وتلف وتدور. ترى كل تلك اللحظات في وقت انتهى فيه الزمان. قلب وحب ثم أمنية فمثابرة فرحيل. ضوء وبرق وهدير في رأس تأجج بالخوف.

وقفت، رأت ظلًا، والناس من حولها يتدافعون. خافت، رمى قلبًا كان يومًا هديتها.

دمعت وأحنت رأسها فوقًا، رأت رجلًا. ذلك الشارب وتلك اللحية المنمقة، لم يعد ذلك الشخص المشاكس. كان يقف بين صفوف الناس لا يفرقهما من شيء سوى ذلك الإطار الذي رسم

حاجزًا بينهما. وقتها لم يكن سواهما فيه، لكنه لم يكن لهما.

هي من كانت تسند رأسها إلى الحائط. لم تر ذلك الظل الذي كان يقف ليس ببعيد يترصدهما عند حافة النافذة. رحل من دون إرادته، فأحبته أخرى من دون إرادتها، فأحبها من دون إرادته فخاف إن عادت إرادته أن يجرحها فقرر أن تكون إرادته هي إرادتها.

****

دقات الساعة المعلقة على الجدار في البهو الكبير، أضواء احتفالات ومجون، وأجساد عارية بنفسجية. الساعة التاسعة، ينتظرون قدومه لأنهم اعتادوا على قدومه في ذلك الوقت، لم يفوّت يومًا واحدًا إلا ويأتي إلى ذلك المكان.

أقدام مترنحة وملابس متسخة...

حالته المقيئة يُرثى لها...

مُحطّمًا، ثائر الشعر، وممزق الثياب...

الطريق طويل، والليل يزداد ظلمة في ذلك الممر الخاوي من الناس. لعلها برودة الجو التي كانت تنخر في عظامه. في الأساس ينتفض قبل أن يشعر بالبرودة، يندثر بداخل ملابسه، وبكل رعونة يجوب الطرقات في وقت فزع الناس فيه إلى منازلهم. لعله لم يكن يسمع سوى مواءٍ يتعالى من الأزقة الضيقة، لعله لم يكن يسعى لأن يمر من تلك الطرقات.

إنه الضباب، بل تلك الكتلة الشفافة التي تضرب ستارها على عينيه. صدره يضيق باطراد، يشعر بالنيران فيه، يتساءل عن

الأسباب، فيرى صورًا كثيرة ممزقة. يتساءل عن القلب وعن دموع العين، فلا يرى سببًا، يتساءل عن الدنيا وحالها، وعن الماضي وعن الآتي، فلا مجيب لسؤاله.

لعله يبحث عن شيء ما يُثلِج صدره المحترق بالهموم. يتساءل عن البداية وكيفيتها، عن النهاية وشكلها، عن الطريق الواصل بينهما، والذي بالكاد كان يمشى عليه.

بمفرده يجوب الممرات، فلا يخدعنه أحد ويرسم الطريق إليه. من أراد من غيره أن يصحبه في الطريق، فهو أهل به، ومن أراد أن يقتطفه إلى طريق، فهو لا يريد سوى أن يضيع من وقته الذي ينتهي في كل ثانية تمر.

إنها بضع دقات من القلب المتوجس، دقات تُبشِّر بالظلام من خلف ضوء ساطع وحده يراه ولا يعرف ماهيته.

طرقت أقدامه الدرجات هبوطًا. اقتربت كثيرًا من أسفل الأضواء. تعبت أكثر وشهقت أنفاسه من الدخان الكثيف. أجاء إلى البيت؟

(مراد)، ينظر إلى خطواته المترنحة مرارًا، لم يكن يدرك تلك الخطوات التي كانت تأخذه في طريق هو يسير فيه منذ وقت مضى. لعله كان يعدّ أطراف أصابعه، ولعله كان يعدّ طرقات أقدامه على الممر الحجري. كان الليل يصبغ السماء بلونه القاتم، وكانت جموع المارة تتقاطع فيما بينها مقتربة ومبتعدة عنه، وكأنها أسهم تمر في طريق بالكاد يلحظ وجوده.

هو لم يلتفت، هو وحسب يقتنص منهم أنفاسهم كي يتنفس. ربما لم يكن يملك تلك الأداة التي تمكنه من التنفس في ذلك الجسد

الهزيل. بين الحين والآخر يترنح، فيجلس، ثم يقف مُستنِدًا على أطرافه ليعاود المشي.
بالكاد كانت الدموع على أطراف عينيه، لكنه بين الحين والآخر، يُمسِكها ويعيدها إلى مستودعها، ولا يُفكِّر في أن يُعاوِد الكرة مرة أخرى. هو يعلم جيدًا أنه لم يعد يملك أكثر من تلك العلامات المبهمة التي صاحبته في أيامه القاحلة، الخالية من المشاعر.
فُتِحت الأبواب... على أعتابها أشرق ضوء جديد...
أضواء مارونية وبنفسجية متوهجة. صيحات وصرخات، وضجيج موسيقى صاخبة، لا تنقطع. نساء يُلقِين بأجسادهن الشبه عارية في أحضان الرجال، ورجال يتراقصون كالنساء في أذرع الرجال. تقلبات في الوجوه بين ضحكة وعبوس وصياح.
جنون لا ينتهي...
لعلها تلك الابتسامة التي رآها هي الطريق الوحيد إلى الجنة في أحقاف الجحيم، جماعة من الفتيات المائلات يدنين ناحيته. برغم رغبته لا يستطيع الاقتراب منهن، وربما لا يريد. لعله خنع تمامًا لرغبة تلك الأنفس التي قهرت فيه العنفوان.
أصبح يُصارِع الأمواج بمفرده. يُصارِع الأجساد الضبابية. في مواجهته الصادمة مع رغبته القاتلة، ترك القبور وحطام الكنيسة، ترك الركام المُتساقِط والحيرة المُتدلِّية، ترك حالته المزرية وأسئلته العبثية، وذهب إلى الماخور، تمامًا كما اعتاد.
ذهب معهن على أمل لم يكن حقيقة. صورة أخرى في إطار آخر في صفحة بيضاء ملطخة بالسواد. لا ينفك يضع عليها المزيد من

الألوان. كلما وضع لونًا انسكب، وكأن الخواء فيه صار مدمجًا، غير قابل لاستقبال أي نوع من أنواع الفرح.
يحزن برغم رقصاته على التفافة خصرهن، يتضاحكن، لا يعلمن سر ضياعه، لا يعلمن سر آلامه، لا يعرفن أنه صار قرصًا مدمجًا مستعملًا، لا يمكن الكتابة عليه، فيتراجع ويتراجعن، فتأتي إليه إحداهن، تأتى إليه لتعطيه من اهتمامها، فيتراجع عنها مرارًا ولا يعود. يخشى كثيرًا من أن يرى في ذلك الإطار تلك الصور القديمة، والتي تتشكل في داخله.
يخشى ما إن تراه تلك الأعين وتسمعه تلك الأنفاس، أن تُبصِر القناع الذي يحمل همساته وصرخاته. لعله أيقن أنه يكره ذلك الشعور حقيقة، ولذلك كان يسعى لأن يرحل بلا عودة. لعله أراد أن يصنع لنفسه كتابًا جديدًا تكون صفحاته خالية، لم يُكتَب فيها أي لون من ألوان الفرح والمعاناة.
كان عليه أن يعود إلى بيته، إلى الماخور. طاولته القديمة وأوراق الكوتشينة المتناثرة في موضعها.

****

أبواب حديدية وأخرى زجاجية، مفتوحة على مصراعيها، وغرفة بيضاوية الشكل، سماوية اللون، في كل ركنها منها لوحة يظهر فيها الشيطان كالمارد المُحرِّر، في منتصفها مكتب خشبي كبير. أمامه مباشرة شاشة ضخمة. إلى هناك، ترجل (نجيب رسول) ومن ورائه (مورو)، يتكلم معه، "متنساش إن المكان ده

بتاعي زي ما هو بتاعك. أنا شريك فيه بالنسبة الأكبر."

وضعه يده على الكرسي الدوار ونظر من خلال الزجاج، ثم جلس واستدار ليواجه الصالة، يتفحصها من خلال الزجاج العاكس. كانت بسماته الشيطانة تبلغ مداها متى أبصر الفتيات يتمايلن عند أطراف رجل عجوز، وينزلون عن كاهله عباءته السوداء، فضحك (نجيب رسول) لأنه شاهد غريمه القمص (يوسف يونان) السكندري، ذلك الذي مرق من أمام طريقه مُتحدِّيًا، أصبح كالدمية بين أصابعه، يُسيّرها حيثما شاء، مثله مثل باقي الكنيسة الحاقدة.

هناك بدأت السماء في إلقاء ظلالها على الكون، وأظلمت معها الدروب والممرات. ظلت وحيدة تتهادى على الطريق، وهي في الأصل تنزل الدرجات، ذلك الشخص المنفرد الذي يسعى لأن يكون شيئًا في الحياة، أصبح غائبًا عن الوجود.

ذلك الممر الطويل الذي كانت تترنح فيه، أشكال أناس نائمين بلا إرادة في مقاعد لا تُقيّدهم من وراء أبواب مفتوحة، ما بين الحياة والموت يترجلون، وذلك الرجل الذي أغلق الأبواب في وجهها، ذلك القناع، وتلك الدرجات التي كانت تصعدها، تلك الصورة المكتملة التي تضمها مع أناس لا تعرفهم، كشخص واحد أصبحوا، لا ترى في الحياة غيرهم. تظل سائرة في الطريق، وكأنما التقت كل الدروب في عقدة صعبة، لا تسير في أي اتجاه آخر إلا لهناك.

هي التي كانت تدور وتدور، تدور في قاعة ضجت بالغناء.

في منتصف القاعة بين العفاريت كان يُشاهِدها، سعادته كانت لا تضاهى وابتساماته صفراء غامضة.

تحدث إلى (مورو) الماثل إلى جواره، "خليها ترقص وتنبسط، النهاردة يوم العيد."

"بعدين خدها، رجع الأمانة لصاحبها زي ما طلب بالظبط."

من وراء المقعد، طرقت الأقدام مهرولة، أنفاس ثابتة وجسد منتصب، وقال بنبرة جارفة، "السلام عليكم..."

استدار (نجيب رسول) ليواجه الجلباب القصير والعمامة السوداء، رجل لحيته تبلغ ربع ذراعه. هو الذي كان يقف أمامه، ويتكلم، "شيخنا الأكبر، خيري، يشكرك على التحذير، ويُنبِّهك إلى العملية الكبرى."

بشاشة ساحقة! ابتسامة عريضة لا تخلو من الحذر.

طوفان الحياة وزوبعتها تشكّل في الجسد النحيل، هي من كانت على أنغام الدي جيه تلف وتدور كالإعصار، مثل حلقة مفرغة من جنبات الجحيم البادية كالجنان.

تاه... تاه... تاه...

أنا المجنون... أنا الحاوي... أنا القاضي... أنا المنحوس...

بشوفكوا جوا عيني فلوس

ومش فارقة... زمن غاوي... يعلم فينا أي دروس
تعالي وقربي وقولي
واقف لِك وحدي وبطولي
زمانا مش زمان هاوي... أو حلم يقلب المعدول
بتستسلم... ما تتعلم... مش لاقي فيها أي غموس
ناس بيضحكوا في وشي... وناس بيفهموا المفكوس
وناس بيخدعوا في ناسهم... ما هي دنيا ماشية بالمعكوس
عندي من كل لون... أشكال وسحر
دي إيد خفيفة... ودنيا فيها أنا بس حر
داسوا عليّا قبل مني... لأ، مش هدوس
إنتوا اللي عايشين بالمعكوس
بحط إيدي ف جيبكوا لما بتضحكوا
طب، اضحكوا... وضحكي عليكوا... نساكوا فكركوا... إن أنا المجنون
أنا الحاوي
جوايا فرح الناس... قده بلاوي
ومش بعرف أعيش وأرتاح... ولا بينفعني أكون ناوي
وبعيش عيشتنا مش أكتر... عليها بصبر... وفيها بشوف
ومهما بقول يا واد فكر... يأنب فيا التفكير

ما هو لو زمان زمن تاني... أو حلمي كان بصبره عنيد... يحاول بس في التجديد

يا شوق لزمان يفكرني

أسيب أحزان... مفتش أوانها وأواني

أنا الحاوي

أنا مش لوحدي في الدنيا... ساكت وببكي في مكاني

يا دنيا ليه معانداني... مرة معايا ومرة قصادي... وكأني أنا لوحدي أناني

أكيد ماشية... صحيح مش عِدلة ... قوي مايلة... الدنيا فيها ناس سهلة

وسط الزحام تلقى وشوش... عمالة تربي فيها كروش

نفوس م التخمة جالها الهم... بقت تضحك... كتير شايلة

كتير قوي فيها مش قايل... ومش قايلة

أنا المجنون

أنا الحاوي

تاه... تاه... تاه...

تساقطت أوراق الكوتشينة، رأى الفتاة السائحة عند أبواب الجحيم. الكنيسة! هي نفس الفتاة البريئة التي اقتربت ناحيته وأشارت إليه، تمد ذراعها إليه، تنادي، "مرااااااد!"

هي الوردة الذابلة التي اقتلعتها الأيادي من دائرة الرقص في القاعة، سحبوها معهم بلا رغبة ولا إرادة، كانت لا تزال تتلوى بما تشعر وبما لا تشعر.

(مـراد)، الـذي ضرب الـكأس علـى الـطاولـة، شق الـصفـوف مـن بـيـنـهم، لـم يـتـرك آثـارهم.

بـاب الـمـاخـور! أغـلق أسـتـاره علـى الـضائـعـيـن.

****



" 33 "
شق التِعبان

الأم وابنتها، صور كانت تخترق بالضرب على رأسه الصلد. تلك الأم التي تحوط ابنتها الصغيرة في رعب شديد، شهقة فزع كبيرة وصيحة أخيرة، تبعتها صورة (كارما)، التي لا ينفك يتذكرها مذ أن ظهرت في عقله، ليس هي وحسب ولكن (ديجا) أيضًا، تلك التي كانت تتراقص في الماخور مثل لعبة العيد التي تلف زنبركها لأقصى درجاته، وتشاهدها تدور وتدور حتى تسكن تمامًا. هذا ما حدث لما امسكتها الأيادي وسحبتها لتُدخِلها السيارة.

"بسرعة ياض... خلينا نخلص من الحوار السئيل ده."

"أنا مش عارف يا ريس ضاني، ليه دايمًا متدبسين في الشغلانة دي؟"

"يومين ورا بعض كدة نروح المكان الموبوء ده."

"أكل العيش يا روح أمك."

"أكل العيش سّراق،" التف (لقطة) بأصابعه الخمسة، لكن (ضاني) لم يعره أي انتباه، كان يفكر في تلك المرة السابقة، ليلة قبل ليلة الأمس المنحوسة.

كانت (ديجا) تترنح مثل قطعة الجيلي في أيديهم، لم تقاوم البتة. أنفاسها كانت تضيق وعينها حائرة. ما إن وضعها (ضاني) بداخل السيارة وأراح جلستها، حتى اعتلى

المقود، وأدار المحرك وقال، "استعنا ع الشقى بالله..."

من ورائهم، لم يكن بإمكانه أن يفكر جيدًا. رحلت السيارة وظل هو واقفًا مثل التمثال، لا يعرف أن كان سيجري أم سيتوقف أم سيعدل عن الاستمرار في ملاحقة الفتاة.

(مراد) لم يعد يفهم أي شيء. رأسه كانت تخدعه وتُسقِطه في الشباك. منذ لحظة واحدة كان قد ترجل من وراء السيارة، أبصر دخانها الأسود، وسعل من غمامته، فقفز على الموتوسيكل، تلك الدراجة البخارية التي كانت إلى جواره، نزل منها رجل يحمل صندوقًا خشبيًا من مؤخرتها، صندوق يهتز بأصوات اصطكاك الزجاج، يحمل الصندوق نزولًا إلى داخل الماخور، بينما قفز (مراد) على الدراجة مُسرِعًا، وأصدر منها زمجرة غاضبة، حارقًا الأسفلت.

مضى الوقت سريعًا وكأن حياته قد انقضت. ساعات من بعد ساعات، دقائق تتبع الدقائق، وثوانٍ تركض وراء الثواني، محاصر في مكان لا يعرف كيفية الخروج منه. لا وجود لراحة سوى حالة من الاضطراب الشديد في العقل السقيم، ذلك العقل الذي شكّل دائرة محكمة من الخطر. سيجده، سيجد رأس الأفعى.

لا شيء من خلفه تبقى سوى الدخان. كانت العجلات تركض بمحاذاة العجلات، تتخطى الصفوف، والخسارة كانت الضمان الوحيد لاستمراره على قيد الحياة.

الآن وبعد أن شهقت أنفاسه وترك المقود يتحكم بالموتوسيكل، كان قد فقد شيئًا أساسيًا منذ وقت طويل، روح الإصرار وإن

كانت في إلقاء نفسه إلى التهلكة. خصلة أساسية كان يعيش من خلالها. ما بين طريق الحياة وطريق الموت، غاية كانت تُدعى (كارما)، وغاية أخرى تُدعى (ديجا)، هما ذلك الضوء الذي كان يشع في قلبه المظلم، الشيء الوحيد الذي تذكره، ولم يفقده حينها.

لا وجود للشمس في المساء، فقط المصابيح المضاءة في الأعمدة بأنوار صفراء تُرهِق العين، أنوار تتخللها لحظات من الظلام فيما بينها.

تلك هي نظرة وداع لعالم مُتحضِّر لصحراء قاحلة على مرمى البصر. درجة تتبع الدرجات صعودًا من بداية الأنوار، من المدينة القديمة والناس الذين يشبهون النقاط المتحركة. في ظل الغضب المحتدم، كانت عينه تدمع، ربما من الهواء البارد وربما من شيء يقطع في حلقه، حفرة تخرج منها الاستفسارات... (كارما)، (ديجا)، أم وابنتها! من يكون هؤلاء؟

مهما طال الليل، كانت ساعة الفجر تلوح قريبًا، وقريبًا ستعود الأجساد الناعسة إلى النشاط، وتدب الروح في الأبصار، فتُبصِر الأضواء التي لا تُقارَن، لا يعرفونها، تُدعى الأمل، الأمل في حياة غير الحياة وممات يجبُّ أوجاع القلوب.

بعدما ركض كثيرًا، أتي إلى تلك البقعة التي تُصيح عندها الجهود عقيمة، حيث لا نصر ولا هزيمة. أدرك عندها أنه لا فرق بين الاستمرار والخضوع، لا فرق بين المجادلة

والرضوخ، فالقدر يسبقه في كل خطواته، وسطور القدر تكتب ما لم يكن يعرف.

مثل البحر المتلاطم، والأمواج تضرب شطآنه بضراوة، لا البحر يفوز ولا الشاطئ ينهزم، وإن طالت الغارات وطال الانتظار. بإمكانه أن يرى موجة أخرى قادمة. موجة تحمل تيارًا جارفًا يأتي من الشمال، تحمل معها الذكريات التي لا يستطيع أن ينساها قط.

كيف له أن يرى في الضباب وعينه مُغمّمة؟ أناس يتراقصون من أمامه...

كيف له أن يرى القمر بعدما تنحّى عن تمامه؟

لا الطريق ولا بحر الرمال! ولا أفكاره الخاصة! كان يرى وجهًا لا يستطيع أن ينساه، وجه مُغلّف بأصباغ الدماء. إطار من السعادة سقط وانكسر. شيء فيه تغير، ذلك التحدي الغريب الذي أسر عقله وأفكاره. بين كل ذلك، كانت هناك، ربما كانت المحرك الذي يدفعه للاستمرار في أوهامه.

أكان يتخيل؟ بل يُحارِب من أجل اعتقاد راسخ في قرارة وجوده.

هو من كان يصعد التلة، مخترقًا عباب الريح على دراجة بخارية، وراء عجلات لا تهدأ. هو من اقتنص من نهاية الطريق أسوارًا، تختفي من ورائها الرمال. مباشرة إلى حيث كان يتجه، وراء السيارة التي تقِل (ديجا).

بمجرد ذكر الاسم في عقله، انتفض جسده بقشعريرة هوجاء. ضعف واستكانة لم يقدر أن يخرج نفسه منهما. لمسة رقيقة على أطراف أصابعه. رائحة عطر عبق تفوح في المكان.

التفافة سريعة ورقص على أنغام الخلود، كلمات ساحرة لأغنيات الفرح من طائر العندليب. بإمكانه أن يراها بوضوح الآن. بإمكانه أن يرى ما ترى من خلال عينيها.

عالم بعيد وقريب، عالم تملأه النجوم المتلألئة. سماء لا تخلو من سحر الأجنحة البيضاء، أجنحة تُرفرِف وتتساقط فوق الكواكب وبين النجوم النائمة. رقصة على أضواء الشموع وتحت ضوء القمر الساطع على الأنغام الحالمة.

كيف له أن ينسى؟

كيف له أن يفقد تلك اللحظات السعيدة؟

كيف لا يشعر بلمسة أصابعها على كتفه؟

كيف له أن ينسى تلك الابتسامة بين شفتيها؟

نقطة صغيرة من الضوء! نقطة صغيرة في ممرات قاتمة كان عليه أن يتجوّل فيها.

بين الحين والآخر، ضوء المصابيح، كان عليه أن يختار إن كان سيكمل أم لا. كان عليه أن يختار أولوياته في الانتقام أو البحث، عليه أن يبحث عما يشفي غليله والنار المتقدة في صدره. يشعر أنه يفقد شيئًا ما، شيء يندثر مختفيًا في صدره، وربما هو من أخفاه. شيء كان الحزن يضع ستارًا عليه.

نبضة جارفة من الأدرينالين دبّت في عروق ذراعه، أزاد السرعة وقفز ليسابق الريح. لا شيء يهدأ، صوت لعبة تضحك، "ها ها ها... ها ها ها..."

فتاة!!

نبرة ساخرة في أذنيه، ضحكات مستفزة كان يكرهها، صور لفتاة تشبه القزم الصغير، تتقدم ناحيته ببراءة، والضغط الخارق يضغط على صدره. وجه المغتاظ تحول إلى عبوس المجرمين، رغبة متأججة في القتل، جنون كان عقله يُرغِمه عليه. لم يبتعد، لم يرضخ لاستجداء الأم، لم ينتظر، لم يصبر، ولم يتكلم.

جنون ودموع، رصاص وانفجار وبكاء. صرخات فتاة تتبعها السكاكين في الجسد، جسد مثل الورقة البالية ملقى في غرفة مظلمة، شديدة الظلمة.

كان هناك مع الضاحكين، ذلك الذي يلف وشاحًا أحمرًا حول رقبته، هو الذي يُمسِك السيجار وكأسًا يصب فيها الخمر، ذلك الذي تظهر أجناب شعره بالبياض على خلاف منتصف الرأس، هو الذي كان يحوط عينه بخطوط سوداء ويرتدي سترة مُرقّطة كجلد النمر.

قتل؟ قاوم؟ أكان يحتسي معه الشراب؟

(مراد) لا يعرف. عقله ينعصر كلما مر الوقت. يشعر أن خلاياه تنقبض، وأن الأستار تتفتح على أسرار يعرفها جيدًا، لكنه لا يراها.

جبل المقطم، حافة الوادي الشرقية كلها، الناحية الشرقية من (الفسطاط)، تلك المدينة التي بناها (عمرو بن العاص) عقب فتح مصر في عام ستمائة وواحد وأربعين للميلاد، مدينة القاهرة، المدينة القابعة من أسفل جبل يشغل المناطق التي تقع شرق قلعة (صلاح الدين الأيوبي)، وهي تقع بمقربة من حصن (بابليون)، والذي يُطِل على النيل

من بابه الغربي والمعروف أيضًا بباب الحديد. على ساحل النيل في طرفه الشمالي الشرقي، قبل مدينة القاهرة بحوالي ميلين، وقت أن كان النيل مُقسّمًا إلى قسمين، وموضعه ما بين الفضاء والمزارع، بين النيل والجبل الشرقي، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن (بابليون).

آخر الطريق الأسفلتي المُحدّد بخطين أصفرين على جانبيه، عدد غفير من الأعمدة المدعمة بالمصابيح شديدة الإضاءة، كأنه مطار دولي. (مراد)، الذي تعجب من المشهد، قاده تتبّع السيارة إلى أسوار عالية فوق جبل المقطم، بعد أن قطع الطريق صعودًا على الدراجة البخارية تحت جنح الليل. وقت أن وصل هناك، رجل عجوز يتثاءب من قلة النوم، يعود إلى غرفته الصغيرة إلى جوار البوابات الحديدية التي تركها مفتوحة على مصراعيها من وراء السيارة الصندوقية التي غادرت للتو.

في مكان مظلم، قفز (مراد) عن الدراجة البخارية، تركها ملقاة على الأرض وكشافها مُقاد. كان ينظر إلى الأسوار وكأنه يُشاهِد حلقة من حلقات من الخيال العلمي.

عند منتصف البوابة وفي منتصف الطريق الأسفلتي وقف (مراد). بوابة حديدية مُشكّلة بأشكال متقاطعة تحتوي على الصليب ودوائر فيما بينهما كالورود أو الأشواك، وقطعة من القصدير مدهونة بلون أزرق ومكتوب عليها (116)، مائلة قليلًا إلى اليسار ورقعة الصدأ اتسعت عليها. وحده يمشي في الممرات الحجرية، طوبة بجانب طوبة، في شكل معماري متناسق، كلها ترسم الدوائر الحمراء

والرصاصية، وعلى الأجناب، الأشجار ذات الأجذاع السميكة، والتي تنغرس في أرض هي مستقر لها، وتدفع أوراقها ناحية العنان. أوراق كانت تسبح مع الريح القادم بين حفيف خافت، لكنه مخيف.

عامود إنارة وحيد كل عشرة أمتار يصنع رقعة صغيرة من الضوء على الأرض، حيث طرق حذاء (مراد). في البعيد، ذلك المبني الشبحي الهائل، كان يراه بأنواره البيضاء، لم يكن يسمع سوى فراغ الكون وأصوات حشرات الليل التي تتبع أثره. كان قد تفقد عدد الطلقات في مسدس الضابط الشاب، والذي اقتنصه منه في وقت سابق، أربع رصاصات متبقية.

المباني الرخامية على الأسقف الخشبية، مهجورة، زحفت عليها الأشجار حتى احتلتها وجعلتها جزءًا منها. أصوات غريبة كان يسمعها في تلك الأرض الواسعة. بدأ يظن أنه يمشي في طريق الجنون، إلى مصحة الأمراض العقلية، ليلًا حيث لا مجال سوى الاعتراف بالأشباح والمردة من الجان.

عند آخر موضع لقدم، وصل إلى مُدرّج يلتف من حول نافورة لا تعمل، نافورة رأى فيها القليل من الماء العكِر، والكثير من الأوراق الذابلة والحشرات.

صرحٌ عملاق، ذلك الصرح المستوحش تجلى أمامه وكشف عن هيبته. عشرات النوافذ والشرفات، والكثير من الأبواب المُعلّقة بالرخام الأبيض. رائحة كانت تفوح بغزارة من الأرجاء كلها، رائحة تحيّر فيها أولًا، لكنها كانت تتخلل خياشيمه كأنه يعرفها، رائحة

الـزعفـران، رائـحة أخرجت مـن صدره رهبة لـم يشعر بـها بـعد. يـده الـتي كـانـت تـنتفض أعادت الـمسدس إلـى سروالـه.

(سرايـا الـزعفـران)، هكذا رفع (مـراد) رأسه أمـام هيبـة الـمكان، وفـغر فـمه، وأظهر أسنـانـه أمـام الـمنزل الـعتيق.

(سرايـا الـزعفـران) ونـقش على رخام الـبـاب الـعملاق، شيئًـا يـسيرًا يـرى الـعتمة مـن ورائـه.

أبـواب!

أطراف تـنقـبض!

أصابـع تـهتـز وهي تـفتـح الـبـاب الـخشبي الـثخين...

صريـره الـحاد! اعوجاج مـفصّلات فـي مـصراع الـبـاب وعِضادتـه!

جسد (مـراد) يـختفي فـي الـبهو الـكبيـر...

****

طرقـات الأقـدام على الـبلاط، اثـنان مـن الـحراس يـتقـدمـان، أحدهما يُخرِج الـمفـاتيح لـيفـتح بـابًـا حديـديًـا سماكـته تـتعدى الـبوصتين، بصريـر مـزعج ومـقرف. كـان يـنتظر قـدومـهما طويـلًا، جدران زنـزانـته مـليئة بـالـخرابـيش، كـلـها خطوط يـعد بـها الأيـام، أيـام كـثيرة قـضاها بـين تـلك الأسوار. عند ركـن مـن الأركـان كـان يـقبع، يـنحني مـثل فـريسة تـتحاشى مـواجهة مـفـترسها.

تـلك الأقـدام الـمُتـرنِّحة فـي الـممر لـم تـكن أقـدامـه، بـل كـانـت أقـدام أنـاس آخريـن جاءوا مـن قـبـلـه، أقـدام أنـاس زحفـت إلـى أن تـلاشت تـمامًـا مُخلِّفـة مـن ورائـها ذلـك الـحنق وتـلك

النظرة المغتاظة. عند الجدار البعيد كان يجلس بمفرده. كلما مروا من عنده، ضربوا القبضة في الكف من الغضب، وصكّوا على أسنانهم.

الرجل الذي وجد نفسه غير قادر على الحياة بين الأسوار كان عليه أن يتأقلم، هو ذلك الرجل الصامد الذي فضّل أن يمكث وحيدًا، أن يضع أقنعة السخط على الوجه حتى يحظى بالحبس الانفرادي، متوقعًا أن تكون النهاية هي النهاية المرجوة، الموت، لكنها لم تكن النهاية التي توقعها عندما وضع أصابعه على رقبة أحدهم، وعصرها حتى كاد أن يخرج الروح منها.

هناك حيث قبع وظل مُعلّقًا بروحه وجسده بلا زاد ولا ماء بين الأرض والسماء، إن نظر إلى الأسفل لا يرى سوى العار، وإن نظر إلى الأعلى رأى الكون هوة سحيقة لا تنتهي. هناك حيث كانت الخطوات الثقيلة تدفعه للرجوع عن قراره. هناك حيث أودع آخر آماله في تلك الزنزانة الصغيرة، من وراء أسوار شائكة.

إما حياة الأسْر أو الحرية الزائفة. الخوف لم يكن هو الدافع الذي أرغمه على الخضوع، وإنما ذلك الشعور المبهم الذي لا ينفك يكتنفه في كل ساعاته. الوفاء علامة لا يقدر عليها كل البشر، الوفاء صفة أناس ساهمت أفعالهم في بناء حياة الآخرين، وربما هدمها. إنها تلك الابتسامة الساخرة التي كلما نظر في مرآة الماء المسكوب على الأرض يراها، لم يعد يعرف نفسه، ولم يعد يريد أن يعرف نفسه، وكأن ذلك الشخص الذي يقف

في المرآة هو الصورة الأخرى التي يود أن يقتلها، ويتخلص منها.

وقف الصول عن الباب، طرق عليه ويتكلم، "تعالى،" والآخر ينتظر ليضع في يده القيود، ويوصدها ثم يتأكد من إحكامها.

"النهاردة هتخرج فسحة وبعد كدة ترجع زنزانتك تاني. مش عايز مشاكل زي المرة الأولى، وإلا قسمًا بالله ما هتشوف الشمس مرة تانية، سامعني؟"

وجهه المُتعرِّق، وذقنه الهشة من تحت مقلتين منتفختين من شدة ظلام المحبس بينما يتكلم الرقيب الذي أحكم الأغلال، "هوّا أكيد هيسمع الكلام، محدش دخل الغلاية قبل كدة وعاز يرجعلها تاني."

الغلاية، كان يُفكِّر في الغلاية، غرفة الحبس الانفرادي، دخلها منذ وقت طويل ولم يخرج منها بعد. ضيقة كمفرق الأصابع. لا تكاد تحتوي أضلاع صدره الواسع.

قال الصول، "اسمع الكلام ده كويس يا مراد، أنا اتوسطت لك عند الباشا عشان يخرّجك الساعة دي بعد ما قضيت شهر في الغلاية."

"لو معملتش مشاكل هقدر أكلمه تاني، وإنت عارف الباشا بتاعنا شديد إزاي..."

"... إنت الأحكام اللي عليك تدفنك حي مش تدخلك العقرب، وعليك توصية كبيرة قوي."

"بس برضو، عشان بتوع حقوق الإنسان الحوش دول، والدوشة اللي بيعملوها."

"يالا..."

رحل الرقيب وأمسك الصول بالسلاسل وشدها، في البداية ظن أن (مراد) سيقاوم، لكنه كان مُتجبِّسًا، قدمه لا تتحرك، ومفاصله مُتيبِّسة. شده مرة أخرى، فصدرت طقطقة مرتفعة، وتحرك بعد أن جفل من الوجع.

ممر طويل معتم، مُدجّج بالسلاح، آخره بوابة شبكية أخرى، لا يصل النور إلى هناك أبدًا، سجن العقرب، سجن الأموات الأحياء.

"مراد أحمد كمال نصري..."

"ساعة فسحة..."

نظرة احتقار، تراخي وبطء، ثم تكتكة البوابة الثانية.

ضوء شديد البريق أحرق عينيه.

طقس ساخن وعظام رطبة باردة.

ذلك اللحن الغاشم الذي ضرب حوايا صدره، وتلك الرعشة التي نفضت عن كاهله الذكريات التي أثقلت كتفيه وألقتها أمام قدميه. نهاية الممر! باحة في منتصف السجن، محاطة بالأسوار والحراس، بالأسلاك والمغاليق، وحشدٍ من المساجين المبعثرين، المجرمين الأشقياء، منهم الخطر ومنهم الأكثر خطورة، يظنون أنه لعنة من اللعنات على الأرض، وأنه أصبح ذلك الشبح الذي لا يتكلم ولا ينطق ببنت كلمة. يتحادثون فيما بينهم عن شهرته وأعماله، يصفونه بالشجاعة ويصفونه بالجنون.

هم لا يعلمون قدر المشقة والعناء التي طبعت روحه. لا يعلمون قدر الطعنات والآلام التي يشعر بها. لا يعلمون أن شيئًا فيه تمزق ولن يعود إلى سابق عهده. عند الجدار

البعيد أجلسه الصول وفك قيوده، نظر إليه نظرة مُستقِرّة وكأنه يقول له أن يجلس مثل الصنم، لا يتحرك ولا يتكلم ولا يشيح حتى بعينه.

همسات المساجين تتعالى، بين الحين والآخر كانوا يرمقونه، ولا يتكلمون إلا عنه. عند الجدار البعيد، جلس بعد أن تحررت يداه من القيود، يطوف عليه الحرس كلما مرت الدقائق.

حياة السجن!

حراسة مُشدّدة!

(مراد) كان جسدًا هامدًا مُثقلًا بالسلاسل والهموم، لا يتكلم أبدًا.

العجيب أن اليوم تقف فيه كل تلك الألوان بين الظلال السوداء، ربما يكون على الهامش، ذلك الهامش الذي هو بالنسبة لآخرين صفحة بيضاء يودّون لو أن بمقدورهم أن يُلطِّخوها بأيديهم باللكمات. بعضهم كان شديد الحنق ناحيته، والبعض الآخر يعرفه من قبل أن تطأ قدمه أبواب السجن.

الانتقام، رغبة حقيقة بين الأسوار، هم فقط لا يدرون أن أقلامهم لا تناسب صفحاته البتة، وأنهم مهما كتبوا على أرواقه لن يظهر فيها أي شيء غير الانتقام، فهو مثل أوراق الخريف اليابسة، لا يُكتَب عليها وإلا تكسّرت، وإنما تتساقط كالسيل العرِم، تقضي على كل أنف فضولية وتأكل معها كل شيء.

أولئك الذين يراهم أمامه، يتميزون من الغيظ، ينتظرون الوقت المناسب، أولئك

الذين يخفون آلاتهم الحادة، يتصيدون الفرص للانقضاض عليه، وإنهاء حياته.

طأطأ رأسه أرضًا، خانعًا، أغلق عينيه في يأس وربما أراد أن يموت. كيف له أن يقتل نفسه، ولا يجد ما يأخذ به الروح الوحيدة التي يمتلكها.

هي وهو! هو وهي! هو والصغيرة! دماء بين يديه وألم جامح. كانت تحتضر ونظرتها لم تفارق خياله.

أبدًا، كلمة لا تُنسى. كان يفكر فيها تفكيرًا مُستغرقًا، أم أن الوعود كالحبر تجف، أم أن الليالي التي بذلها كانت عنوان صفحة شخص آخر، وليست بداية لحياته. هو من أسدل ستائره وامتنع عن الكلام، وهكذا يكون الليل الذي ألقى نفسه فيه، يرقب النجوم التي كان يراها في أرض أخرى مبعث الحب والحرية، ها هو يراها في السجن، مثل عصفور صغير لا يقدر على الطيران.

تلك الصورة التي انطبعت في قلبه فلا يرى سواها، وتلك الهمسات التي تستثير عاطفته لا تبرح حتى تؤجج الآلام التي سكنت روابطه. يسأل نفسه ذلك السؤال الذي لا يرى له جواب.

لماذا؟

يسأل لأنه فقط لا يعلم من أين بدأ، فتلك الأيام أعطى فيها كل ما يملك، اليوم تائه مُشرّد، لا يملك في داخله سوى الفراغ الذي تركوه.

لعله أيقن أنه الوحيد الذي لن يبيع روحه إلى الفراغ كما فعلوا. لعله أدرك أنه لن

يخون أبدًا النجوم المتناثرة في سماء غرفتها والأقسام التي حنثوا بها، لكنه فعل، فهو لغز لا يستطيع أحد تفسيره، لأنه أوصد الأبواب على نفسه حتى تلاشت ملامحه في السواد.

ذلك السواد، لون تلك البقعة التي أخفى فيها ملامحه كان مناسبًا، هناك حيث قبع شخص أحنى جسده ووضع يده للحظات قليلة أسفل رأسه، يفكر مليًا.

"مراد! مراد!"

كانت تكلمه! تنادي عليه ولا يراها!

"مراد! مراد!"

يلف بنصر يده اليسرى برعونة ووجل.

لم تخطر أبدًا له تلك الفكرة التي أرغمت أنفاسه على الاحتراق. لم يكن يُصدِّق أن يصير صورة تُعلّق على الحائط أو توضع على الطاولة. كونه الرجل لم يُغيّر أي شيء. كونه عاش التجارب مرارًا وتكرارًا لم يُغيّر من الأمر شيء. لا يزال صورة قديمة على الأرفف الغارقة في خيوط العنكبوت. يضع على وجهه الأقنعة التي توحي بعكس ما بداخله. يحمل في طيات صوته نبرة متعبة من شدة الآلام. أكتافه واهية محنية من كثرة الأحمال التي أُلقِيت على عاتقه. يقف وكأنما يضع نفسه هناك في تلك الصورة ويفكر.

هل ستكون نهايته بين تلك الأسوار؟

هل يترقبون اللحظات لينتقموا منه؟

هل سيلتقط من وراء الكواليس أنفاسه الأخيرة؟

يعرفهم واحدًا واحدًا، ربما لا يُميّزهم اليوم مثل الأوقات السالفة، لأن عقله اليقظ أصبح مثل العجينة الصلدة، لا يتحكم فيها ولا يتحكم في نتائجها. هو لم يعد يُفكِّر إلا في تلك الأوقات التي مضت. هو لم يعد يُفكِّر إلا في الأسباب. لم يعد يتساءل عن الناس وعن أهوائهم، بل عن أناس بأعينهم. يبحث عن إجابة يحاول أن يُقنِع نفسه بها.

ماتت!

فكيف تتحول الدماء إلى خواء؟ وقت أن رضخ أمام الجسد المخروق، يصرخ، يقبع أرضًا بين الدماء.

لحظات قليلة، غفل عنه الحراس وتركوه بعد أن اطمأنوا لاستقرار الموقف. تقدموا، رجلان بأكتاف ضخمة عريضة، ورجل أرستقراطي، ظهره يتقوس قليلًا للأمام.

(مراد) في حيرته يرى ذكريات الساعات الأخيرة المؤلمة، جفلت العين وكانت تُجافِيه. كان يضعها بين ذراعيه ويُطمئِنها أنه لن يغيب كثيرًا. يرمق طفلته ليست ببعيدة عنه، ولكنه كان أبعد ما يكون في تلك اللحظة. أخفى في مقلتيه الدموع وهو يرمقهما، وكأنه يحفظ كل تفاصيل ملامحهما. تلك الأعين وتلك الآذان وتلك الابتسامة الحزينة.

ذلك الصمت!! ذلك الصوت!!

"مراد نصري..."

صوت أيقظه وكاد يتأجج من الغيظ ممن أقدم على ذلك الفِعل. يُحدِّق في صورة زوجته وابنته، يتكلم معهما ولا ينطق، يضع نصب

ناظره تلك اللحظات التي سيراهما فيها مرة آخري. كان يرسم الأماني وينسج الأحلام المستحيلة التي تعينه على الحياة في صحراء خلت من بذور الوئام والإنسانية، يشحذ تلك الليالي وتلك التكبيرات من المسجد القريب، تلك الهمسات الحالمة وتلك الأصوات القريبة والبعيدة، والأضواء التي كانت تمتزج مع ألوان الأثير.

نصْب عينيه، تلك البرودة التي اقشعر لها بدنه، يقف في الشرفة المكعبة، يتأمل النجوم، يتأمل تلك الطرقات وتلك الممرات، ذلك الرجل العجوز وتلك الفتاة ذات الخصلات الذهبية. كان يشتاق إلى كل ركن في بيته، وطنه، ذلك الوطن الذي رحل عنه، ذلك الوطن الذي لم يتمسك به وهو يهم بفراقه، ذلك الوطن الذي أودعه بين أناس يتصيدون الفرص لقتله.

تلك الأحلام تبددت حينما تطايرت الأوراق بين سطور الواقع. واقع أسقط الحبر الأسود على قلبه حتى امتلأ تمامًا. ذلك القلب الذي أصبح مُتخَمًا بالحزن والحنق. ذلك الحنق الذي دفعه إلى الشعور بالوحدة.

إلى جواره جلس رجل، يشهق كثيرًا ويمسح منخاره بطرف يده، كانت رأسه صلعاء، هو الوحيد الذي تجرأ على الجلوس إلى جواره، وكان يخفي في جيبه خاتمًا حديديًا، وضعه في إصبعه، وظل يلفه، ويقول، "أنا أنور... إنت أشهر من النار على العلم يا مراد باشا."

نخر ثم نخر، ورغم أن (مراد) لم يلتفت إليه، إلا أنه أوضح، "إنت السبب إني دخلت

هنا،" ولما نظر إليه (مراد)، أكمل، "لا، أنا جاي العقرب زيارة وهرجع طُرة تاني."

حاول (مراد) أن يتذكره لكنه لم يقدر، فقال الرجل وكان كثير التوجس، وبين المرة والأخرى يرمق الحرس، "أنا أنور... أنور رحيم عدلي... عبد المولى، تقدر تناديني، مورو."

"مورو، دكتور الروح اللي عنده حل لكل مشكلة."

"إنت قابلت واحد من رجالتي قبل كدة. صحيح شتم فيك بعدها، بس أنا عارفك كويس."

قال (مراد)، "أحسنلك تمشي من هنا لو مش عايز مشاكل لنفسك."

قال (مورو)، "أووه! إحنا أصلًا المشاكل نفسها، مش لازم تبقى قلقان. أنا عايز أساعدك."

"أنا عارف حالتك ومعايا الحاجة اللي هتخلصك من العذاب، ولّا إنت مش بتتعذب؟"

قال (مراد)، "إنت مين اللي باعتك؟"

"محدش باعتني. إحنا كلنا هنا زي بعض،" وأخرج من جيبه منديلًا مكرمشًا، أمام (مراد) فتحه، فرأى فيه حبتين صغيرتين كحبات العدس، لونها رمادي.

تكلم (مورو)، "شوف يا صاحبي، أنا خبرة عنك وهارس الدنيا ورا الحيطان وعارف إنها صعبة."

"حكايتك السجن كله عارفها وكلهم هنا مستنظرينلك."

حبتان كحبات العدس، "حجر الجنة، حبوب الشيطان، مس عزرائيل، ده اللي هيخلصك من كل اللي في دماغك ويفوقك على الحقيقة. لو تعرف الصعوبة عشان أدخل الثروة دي هنا. من بعدها مش هتشوف عذاب تاني أبدًا."

"شوف يا صاحبي."

"أنا زيك بالظبط، عايز أكسر دماغي وأخرّج اللي جواها، بس يا ريت كان ينفع."

"متفكرش كتير لأنك لو فكرت هتتعب."

"جرب بنفسك وإنت ترتاح."

التقط (مراد) المنديل واستنثر، وقال (مورو) مُنوِّهًا، "شايف الرجالة اللي هناك دول. ناويينلك على الشر ومستنيين الفرصة،" ثم أكمل من بعد انتصابه وقوفًا، "هتدعيلي،" ثم رحل تاركًا إياه كأنه لم يكن.

تلك الوحدة التي أودعته على ذلك الطريق. ذلك الطريق الذي أضاءت فيه المصابيح بأنوار خافتة، تتلاشى فيها الملامح والألوان، إلا من ظلال ثلاثة تقاطعت فيما بينها.

كانوا يقفون هناك، في منتصفهما رجل، له خصلات بيضاء على جانبي شعره، يُهندِم ملابس السجن، يتقدم خطوتين متقدمًا عن الهمجيين المنتصبين في حراسته. أشار إلى الرجال فتلاسنوا، فبدأت مشاجرة ما بين نزيلين، كلمة فدفعة، لطمة فضربة، أحدهما من أتباعه والآخر من أتباع الذقون المهذبة، أبناء الجماعة، سرعان ما احتدمت، حتى تبعثرت الدماء من الوجوه، وسار من بينهم

أمام رجليه، بينما هبّت القوات، بالعصي لتفض الشغب.

(مراد)، والذي طأطأ رأسه، كان يسمع في أذنه.

ماتت!

ماتت!

رضوخ أبدي، ضعف وأسى، أنامل متلاصقة، وأنين حاد دفعه لأنه يبتلع الحبة الأولى، ثم الحبة الثانية. ريق جاف لا يجري.

"مراد نصري..."

رفع رأسه ببطء وعدم اكتراث، وكان وجهه عابسًا، تكلم (مراد)، "شوكت النمر!"

"إنت كمان نزيل هنا،" قهقه (مراد) وضحكته استفزت (شوكت النمر)، وقال الرجل الذي على يمينه، "شاور بس يا شاكر باشا، وإنت تشوف، هدغدغلك طقم سنانه، عشان يعرف يتكلم كويس مع الباشوات."

بإشارة منه قال، "استنى إنت شوية،" فامتثل تمامًا وأردف بمراقبة الحرس وتحركاتهم.

توجه ناحية (مراد) وقال، "مفيش فرق بينك وبيني يا مراد، زي ما جبتني هنا إنت جيت."

قال (مراد) وكان صبره ينفد، "إنت مخلوق للمكان ده يا شوكت، هو ده المكان الأمثل للأشكال اللي زيك..."

"... مفيش أي شبه ما بيني وما بينك. إنت راجل أعمال قذر، معندوش مبدأ، مستعد يبيع

أي حاجة عشان الفلوس، لكن أنا، أنا الحقير اللي دخلك بين حيطان السجن."

قاطع (شوكت النمر) متهكمًا، "متفرحش قوي كدة يا مراد، البلد دي بحكومتها بقوانينها بشرطتها بجيشها في جيبي. تقدر تعتبرها كدة، زيارة استجمام مش أكتر."

بعدها ضحك (شوكت النمر) ومال إلى (مراد)، ثم قال، "بس اللي هيضحك أكتر، اللي هيضحك في الآخر، خصوصًا لما تعرف إن اِلمامة هوّا اللي قتل مراتك وبنتك، ومش هيقعد هنا كتير."

"خالصين! مش كدة!! هه هه هه!"

غضب على غضب مُتدفِّق، انتصب (مراد) لمّا سمع تلك الكلمات الأخيرة، لم يفكر، وإنما انقض في التو ناحية (شوكت النمر)، فسقط في قبضة الرجلين بطرحه أرضًا وبكل قوة، وثبّتاه تحت أحذيتهما.

زجر فيه (شوكت النمر)، "إنت متعرفش ممكن أعمل إيه معاك، مش بس بعلاقاتي، لأ، أنا ضرسي ناشف وبيقرش العضم. النوبة دي هسيبك لرجالتي، يلعبوا معاك شوية، لكن المرة الجاية، هتبقى ما بيني وما بينك."

أحدهما ثبّت (مراد) من رقبته، بينما سدّد الآخر ضربات متلاحقة في بطنه، أخرجت الهواء والخواء الذي كان يحبسه في مُقدِّمة صدره، وأسالت اللعاب في فمه، بينما وقف (شوكت النمر) مُتفرِّجًا، مُستمتِعًا، استمتاع لم يدم طويلًا، لأن (مراد) انتفض كالمارد، وقفز على أحدهما فطرحه أرضًا، واستدار للآخر، والذي كان يُسدِّد لكمة إلى وجهه، غير أن (مراد)

تمكن من صدها بكف يده، وأطبق على أصابع الرجل، فتألم، فقام بعصر معصمه.

(مراد) المُتهيّج من على الأرض، قفز على (شوكت النمر)، والذي دلف إلى الوراء، كانت عينه شيطانية. لولا أن ثلاثة من حراس السجن، قبضوا على (مراد) وحاصروه بعدما أخمدوا حالة الشغب التي بدأها رجال (شوكت النمر)، لكان قضى عليه.

(مراد)، الذي كان مثل الذئب الضاري، أراد أن يقتلع قلب (شوكت النمر)، وقت أن أمسك أحدهم به، وكان يبتسم في خباثة، لأن (مراد) مُقيّد بين أذرع الحراس والسلاسل، ينتفض بعنفوان، ولا يستطيع التحرر. ليس حتى رطمه أحدهم بالعصاة على رأسه، فأصابته صاعقة، أفقدته القدرة على الحركة وتخدّر نهائيًا.

تدافعت اللحظات واحدة تلو الأخرى، (مراد)، والذي وضع يده على متكأ درابزين الدرج الداخلي للسرايا، وقبض عليه جيدًا، كانت عينه في مكان آخر، كان يرى ذراعيه على أكتاف اثنين من الحراس، يجرّانه، همساتهما تتزايد والأضواء تتقلب في عينيه. في ممر لا يرى فيه من ظلمة عقله، غير الممر الذي كان يسير فيه عائدًا إلى زنزانته الانفرادية.

في البهو الكبير وقف مليًا... يفكر... عند مفترق السلالم... يرقب لوحة فخمة...

الستائر السوداء المُسدَلة على الجدران البيضاء والزيتونية، بعضها كان يتحرك حركة الأشباح، بعضها ساكن سكون الموتى، والقليل فقط من يترقب ضوء القمر ويمنعه

من الدخول إلى القاعة الدائرية الخالية من الأثاث، ومن السجاد والأرائك والنجف، لا شيء سوى السيراميك المُغلّف بالتراب، والدرجات الرخامية المُكسّرة، والتي كانت تبرق في الظلام.

عبء يتثاقل على كاهله، لا يقوى على النهوض من الوهن، فظل قابعًا لسطوة الفتور والاستسلام. عندما سمع صوتًا يهمس بأنه يجب أن يقف، كان شاردًا، وكان بلا إرادة، يُقاوِم، والصوت يعلو ويعلو، ولكنه لم يسمع، بل قبض على رأسه، يتألم، يدعوه أن يُفارِقه، فلم يزل يقبض على رأسه والصوت يعلو، حتى ناخ.

السلالم التي كان يصعدها من البهو الفارغ، أو الممر الذي يُسحَب فيه جسده المهلهل في السجن.

في ضياعه وصل أولًا.

فُتِحت الأبواب، وبزغت طاولة خشبية في غرفة مُربّعة...

كان واقفًا، بل كان جالسًا، رجل يرتدي بزة شديدة البياض ويُدخِّن السيجار....

****

" 34 "

الغرفة المظلمة

ساعة أخرى بعد الواحدة والنصف صباحًا من بداية ليلة العشرين. باب السرايا، ذلك الباب الأرجواني الهائل، النقش المُستتِر

على الرخام الأبيض على يساره، (سرايا الزعفران - عائلة اندراوس). الستائر السوداء المُسترسِلة على الجدران البيضاء والزيتونية، بعضها كان يتحرك حركة الأشباح، بعضها ساكن سكون الموتى، والقليل فقط من يترقب ضوء القمر ويمنعه من الدخول إلى القاعة الدائرية الخالية من الأثاث، ومن السجاد والأرائك والنجف، لا شيء سوى السيراميك المُغلّف بالتراب، والدرجات الرخامية المُكسّرة، والتي كانت تبرق في الظلام.

تنهد (مراد)، بدأ يتوتر وتحتد وتيرة نبضات قلبه. كان يسمع أفكاره بوضوح، كل الأفكار تخبره أن يعود أدراجه ولا يتقدم. كل الأفكار تحذره من خطر قادم. ذلك السكون وذلك السديم النائم، رائحة قاسية تأتي من تحت السيراميك اللامع. شيء غريب في تلك السرايا. شيء شبحي قديم لن يفهمه. شعر (مراد) أن الأشياء تتحرك وتتكوّم، وكأن الأطياف المحتضرة قد عادت إلى الحياة لتشاركه طقوس احتضاره.

سرايا الزعفران، قصة أخرى...

عبء يتثاقل على كاهله، لا يعرف أي الأمرّين يختار. بوهن، لا يقوى على النهوض، يظل أسيرًا لسطوة الضعف والاستسلام. بؤبؤ العين المتراقص في محجر يضيق، يرى ولا يُبصِر بوضوح، يسمع صوتًا ولا يسمع إلا الهمس بالنبرات الخافتة، محذرة، تُحفِّزه على الصمود وعلى الرضوخ. كان شاردًا، بلا إرادة يُقاوِم، والصوت يعلو ويتعالى، ولكنه لم يُنصِت، بل قبض على رأسه، يتأوه. يدعوه أن

يفارقه، فلم يزل يقبض على رأسه والصوت يعلو، حتى انهار.

على أقصى اليسار، آلة البيانو، خاملة، يفوح منها عبق السنين الفائتة، والأصابع التي لامست أصابعها، تعزف ألحان السكينة قبل الجنون، بعض أسطرها فارغة، السلالم الحلزونية الملتفة ناحية اليمين وناحية اليسار صعودًا، تلتقي عند درجات تسبق الطابق الأول، حيث أضاء ضوء خفيف لشمعتين تحترقان في بوتقتهما، شموع مثبتة على الجدران، تصنعان ظلًا هلاميًا لأطياف تدبك.

إطار عملاق مُعلّق! لا يُرى حقيقة إلا عندما قبض على خشب الدرابزين، وبدأ في الصعود تدريجيًا وببطء شديد، عند كل درجة كانت تضرب رأسه المطارق، كان يراها، يرى زوجته التي أمسكت ابنتها وأسرعت إلى الجدار البعيد، تحتمي من وراء طاولة صغيرة. كانت تحاول أن تُطمئِن صغيرتها الباكية، وتربت على رأسها وتحتضنها.

هي أيضًا كانت تبكي ولكنها حاولت الصمود، واهتز قلبها لما رأته، (مراد)، أو شخص آخر غير الرجل الذي أحبته، يتقدم ناحيتهما، يُمسِك في يده السكاكين، يُبرزِها أمامه.

برق الضوء في عينيها بصياح استقر في عقله. صياح أعاده إلى (كارما)، تلك الفتاة النحيلة، ذات الخصلات الذهبية، تصيح في وجهه وتُوبِّخه، مطأطئ الرأس، منكسر، لا يعرف ما يقوله لها. لا يعرف عن أي شيء كانت الصور التي يراها تتكلم، لكنه شعر بالوجع في صدره، نفس الوجع الذي

شعرت به (ديجا)، وهي تهمّ بالرحيل. كانت تلك هي المرة الأخيرة لهما، من بعدها لم يلتقيا ثانية، حتى ليلة الأمس.

السلالم التي يصعدها، كانت تزيده ألمًا فوق ألمه، كانت تُعذِّبه، لكنه استمر في الصعود. عند مفترق أو التقاء الدرجات، وقف شاخصًا، حائرًا، بل ضائعًا أمام الإطار العملاق، وعلى جانبيه الشمعدان. صورة امرأة حزينة! امرأة ترتدي فستانًا أسودًا، شديد السواد، وتتشح بوشاح أسود من فوق خصلات شعرها التي أخفتها تمامًا، وإلى جوارها فتاة أو ولد صغير يقف، شعره قصير كستنائي، سرواله أزرق وقميصه وردي اللون.

لمس (مراد) في تلك الصورة نفس درجة الوجع التي يحسّها في داخله وربما أكبر. تلك النظرات التي كانت مُنصبّة على البهو، كانت خاوية، لا تحمل إلا الآلام.

عينه لم تتحرك كثيرًا، فقط حتى تلك النقوش في أسفل الإطار، عند آخر فستان السيدة الجالسة، قرأ (مراد)، "نورينا وديجا اندراوس - سرايا الزعفران - خريف 1991."

كانت تُمسِك بتلابيب غطاء قديم على طاولة صغيرة أسفل الإطار، (مراد)، وبرغم الخطوات القليلة التي تفصل بينه وبينها، لم يرها، ربما لانصراف انتباهه عن أي مؤثر وإن كان يئن وينوح عند ذلك الإطار العملاق.

ملقاة هناك، كانت تتوجع، كانت الدموع تسيل من عينيها سوداء، تُلطِّخ ملامحها الرقيقة، شعرها المبعثر، وحالتها المزرية، غمغمة في نفسها، تشيح بذراعها وكأنها ترى خيالات هو وحدها تراها. كانت

خائفة، كانت فرائصها ترتعد ارتعاد فأر الريوكيو.

كانت تزعق...

كانت تنتفض...

تلك أوراق العمر الراحل، تتساقط أمامها من أشجار الخريف، ورقة بعد أوراق تتناثر من بين أغصان الماضي، وتلك أوراق الحنين، على ما كان واقعًا ونُسي، وتلك أوراق النهار وأوراق الليل الطويل، وتلك أوراق الأمل وتلك أوراق الرحيل.

هناك حيث ارتمى طفل صغير يُعدِّد الأوراق، يستظل من الغروب ويرمق من بعيد سر أسرار الحياة. يكاد يرى بعينيه سطوع قوة فسطوة، وغروب خضوع فانكسار، يُسوِّل لنفسه بتلك الرؤى، فلا يأفل أن ينبهر. هناك انتظر بصبر يكاد يفرغ قدوم شيء عزيز، ولم يزل ينتظر حتى انتهى الصبر، ونضب بئر الأمل.

هناك حيث ترامت ذكريات الماضي ورقة إلى جوار ورقة على كف ريح ضاربة، تكاد تهز الجزع من أعماقه، اهتز فاهتزت الأوراق، فتساقطت على رأسه. لكل ورقة عنوان، ولكل عنوان هدف، أصل من أصولها عتاب وفي باطنها ابتهال. هناك حيث تهاوت كل أماله في مستقبل حاضر، وتزينت مأساته بلون أسود قاتم.

كانت تجري...

لماذا تجري؟

(نورينا) التي تتشح بالفستان الأسود!

أوراق الشجر، لحن يُهفهف في الخيال الخصب، فيرسم من شريط الماضي لحظات فأيام فسنوات لا حصر لها.

تلك أيام مضت، أجل، ولكنها تحمل في طياتها أحلام. رمق الغروب وشعر أن حياته تكاد تُفارق ذلك الجسد الهزيل، والحلم الذي عاش لأجله سيُفارِق القلب الجميل. خاف، وبكى، ثم ارتمى، يستظل بأوراق الخريف.

ذلك الملمس وتلك الذكرى، وكأنه يرى من يرنو إليه قريب، حقًا يراه قريبًا لأن ضلوعه اهتزت، فيسأل نفسه.

إلى أين ذهب.....؟

تلك الأوقات حين ارتمى على فراشه يرمق الأعلى، فلا يرى من الكون من شيء سوى ابتسامة خجولة، ترسم على ملامحها شيئًا من الدفء وشيئًا من الحنان، فيمتعض لأنه لا يُصدِّق أنه هو من حاز على تلك الابتسامة خالصة له، فيبتهج، فيبتسم، فيبكى، لأن تلك الصورة كانت شيئًا فشيئًا تتلاشى.

يمد ذراعيه فلا يجد من واقعها سوى جدارٍ أملس خاوي، فلا يلبث أن يعود إلى ذلك الجرف الممتد من أسفل أوراق الخريف. يأخذه بعيدًا حين يقتربا، رآها فابتسم، ورأته فابتسمت.

كانت أقرب إليه من نفسه حينها، شعر وكأنه يملك العمر وما فيه، وأن كل مشاعر الخوف قد بهتت أمام رونقها، وذابت كما يذوب الثلج. تلك أوراق تمنى أن يحفظها في صميم فؤاده. تلك أوراق كانت تتساقط من خريف عمره الماضي.

"نورينا!"

"أيوة..."

"أنا..."

"بحبك..."

ابتسامة!

قام فاعتلى صخرة الوادي عله يراها من جديد، يُلقِي بنفسه بين ذراعيها، فلا يعاتب ولا يشكو، فلا مجال حينها لعتاب. لكنه وجد نفسه ما بين صيف وشتاء، ما بين لهيب الحب وبرودة الفراق، فانتفض قلبه كعصفور صغير لاقى الصقيع في أوج نيران.

لم يُدرِك أن عصفورًا صغيرًا كان يُجابِه الإعصار وحيدًا، بجهد مرير اعتلى غصنًا منحنيًا على لحاء يابس. صمت الصوت وهدأت الأمواج، وظل ذلك العصفور ينتظر وهو يرى في عينيه الصغيرتين، صورة لحبيبته، تغدو راحلة من أمام ناظريه بعدما ترجاها، فلم تستطع سوى أن تُخبِره أنها لا تستطيع، وأنه لا يفهم ولن يفهم.

فلا سبيل لجناحيها في الانتظار...

هناك أدرك ذلك العصفور وهو يمرق إلى جوار طفل صغير وحبيبته تُحلِّق بعيدًا عن سمائه، أنه لا فائدة من التحليق وراءها، فقد عزمت وأخذت قرارها، وفي قرارة نفسه يعلم جيدًا ذلك العبء الذي تحمله في جوفها.

لعله لا يدرك ولكنه أيقن كما أيقن الطفل الصغير، أن خريف العمر أوراق تتساقط، لن يرى ما قد يفوته إن لم يعزم على الحياة.

غربت الشمس وأفلت إلى قمر اعتلى صفحة السماء بدرًا، وذلك الطفل الصغير، (ديجا)، بجوار عصفور تتخيله، مكثا متقاربين في سكون لعل العاصفة تنتهي.

كانت تنتفض باستمرار، و(مراد) الذي قبض على كتفيها وبعثرها كما يُبعثَر الغبار، لم تتحرك، ولم تنظر إليه، كان يزعق في وجهها، "ديجا!!"

"ديجا!!"

أشاحت يده، هو لا يعرف من تكون، لكنه يذكر اسمها، "ديجا..."

صرخت (ديجا) أخيرًا بين ذراعيه، "نورينا!!"

"نورينا!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!"

نظرته بائسة...

حالتها العابثة، إطار حزين وسواد حالك، أنفاسه المضطربة، لم يعرف (مراد) ما يفعل سوى أن يتركها لأوهامها التي كانت تعيش فيها، كان وجهها مُصفرًا، شديد الشحوب، وكانت الدموع السائحة لا تزال تُلطِّخ وجنتيها، تصيح كالمجذوبة من تحت غطاء الطاولة، من أسفل الإطار الكبير.

عقل (مراد) لم يكن يحتويه، هو أيضًا كان يمضي ما بين عالمين. السلالم التي كان يصعدها من البهو الفارغ، أسوار يشعر برودتها في صدره، وممر يُسحَب فيه جسده كالخرقة البالية في السجن.

اللكمة والضربة على الوجه...

الرجل الأنيق ووحوشه الضارية...

ختامًا، ترك (ديجا) لحالها وصعد من وراء الجدار المُعلَّق عليه الإطار الكبير، إلى ممر طويل مظلم، مكتظ بالأطر التي لا يلتفت إليها بعناية، رجل عجوز وزوجته، ابنة صغيرة تبتسم، شابة تكبر وتتمرد، صور عائلية، وأخرى لطفلة تحبو، في آخره باب، يُشِع نورًا من داخله.

جفل (مراد) لثانية، طرف فيها بجفنه مرات. كان أيضًا يُجرّ في ممر غير الممر الذي يمشي فيه، في عقله بين ذراعين، يسحبانه ورأسه متورمة، تهتز الرؤية فيها.

ربما تقدم في واقعه غير أنه في ضياعه وصل أولًا، وصل إلى غرفة في آخر الممر. فُتِحت الأبواب وسريعًا أغمض عينه، وبزغت طاولة خشبية بين مقعدين، كان واقفًا، بل جالسًا، رجل يرتدي بزة شديدة البياض، يدخن السيجار، ويمعن النظر فيه وقت أن وضعوه على الكرسي، ثم رحلوا، ومن ورائهم أوصدوا الباب.

نفثة الدخان، مرة بعد مرة، عين مستديرة تتفحص (مراد)، تمسح حالته الجسدية وقوة أعصابه، بعدما تتابعت اللكمات على وجهه، أصبح ككرة الدم، متورمة، منتفخة العروق. كان يستنشق الدخان ويسعل، رائحة مقيئة، رائحة نفّاذة صعبة، ربما ليس على الرجل الآخر، والذي كان يُدخِّنها باستمتاع.

تكلم، ولمّا تكلم، قال، "مضايقك السيجار بتاعي؟!"

لم يُعقِّب (مراد)، فأكمل، "ده سيجار كوبي فاخر، مش أي حد يقدر يشرب السيجار ده،

نوع معين من الرجالة بس، الصفوة... تحب تجرب؟"

استنثر (مراد)، وتفل عن جانبه ثم لعق أسنانه من الدماء التي كانت فيها، ثم قال، "إنت مين؟ وعايز مني إيه؟ أنا معنديش حاجة أقولها تاني!"

بسخرية متقلبة، "أكيد مش جايبني هنا عشان تكلمني عن السيجار الكوبي الفاخر."

قهقه الرجل وألقى الرماد المحترق من طرف السيجار في المرمدة، وحدق مليًا في (مراد). بزته البيضاء وحذاءه البني الفخم، وتلك السلسلة التي يُعلِّقها في صدره، شعره المُرتّب وذقنه الملساء المنمقة، كل ذلك يخبره عن طبيعته الأرستقراطية، وأنه لا يعرف معنى المزاح، لكنه رغم ذلك كان يتكلم بكلمات فارغة، أدرك (مراد) فحواها.

"أنا فعلًا اللي جايبك..."

"... تفكير ذكي منك. غير متوقع! بس ذكي."

قال (مراد)، "لو إنت جاي هنا تلف وتدور، وتتكلم في الكلام الفارغ ده، فسيبني أطلع أكمل ساعة الفسحة بتاعتي قبل ما تخلص."

"فسحة إيه!"

قال الرجل، "مفيش فسحة في العقرب، العقرب ليه قوانين صارمة، محدش يقدر يخالفها أبدًا. وجودك على قيد الحياة في العقرب لحد دلوقتي، ده في حد ذاته إنجاز كبير. إنجاز لازم تفتخر بيه من ضمن سجلك الإجرامي..."

"... يا مراد... مراد بيه نصري... وكيل النيابة المجرم..."

بعد أن سكت قليلًا، أردف، "على العموم، أنا اللي طلبت ودبّرت المهلة دي."

جذب انتباه (مراد)، ولما رأى أنه جذب انتباهه، أكمل، "أفتكر دلوقتي عندك استعداد تسمع الكلام اللي هقوله، لأني هقوله مرة واحدة بس..."

"... مفيش تفكير، مفيش أسئلة، ومفيش تراجع...."

"أنا منير باشا أمونيوس..."

ضحكة صفراء! اهتاج (مراد) وانفعل، غير أن (منير أمونيوس) رمقه بنظرة مغتاظة وزعق فيه، "اقعد..."

بؤبؤ عين ساخط في بؤبؤ عين أجوف، (مراد) و(منير أمونيوس) كانا يتشاطران ماضيهما المشترك في تلك اللحظات الهامة. على الرغم من أنه حاول أن يفك قيوده، إلا أن (منير أمونيوس) كان هادئًا جدًا، "أفتكر إنك لازم تهدى، لأن الكلام اللي هقوله محتاج عقل. ده على حسب إذا كان العقل لسه موجود ومتأثرش بالحبوب اللي بلبعتها."

"مقدرش أحدد بالظبط إنت شايف إيه،" والحقيقة أن (مراد) بدأ عالمه يتغير، أحس بالحرارة واللهب، شاهد النيران تستعر، انتفض وشاهد زوجته وابنته، تحترقان في الجحيم. شاهد ضحكات (منير أمونيوس) الشيطانية، شاهد (كارما) تصرخ و(ديجا) تبكي. اهتزت أصابعه، وضرب على الطاولة،

كان يري ذلك الرجل الأبيض شيطانًا مارجًا، يحوطه بسياج من الحمم.

يعرفه اسمًا ولم يره حتى تلك اللحظة. كان مثل الفراشة التي لا تستطيع التحليق، كلما رفرفت، قبعت في مكانها، لا تتحرك شبرًا واحدًا، فراشة سقطت في شبكات العنكبوت، العنكبوت الذي بحثت عنه كثيرًا، وجابهت أطيافه في كل مكان، حتى تلك اللحظة.

تكلم الرجل أو الشيطان الضاحك، "أنا منير باشا أمونيوس..."

نخر (مراد) بوجه مُنكسِر وأنفاس ساقطة، "أنا عارف إنت مين كويس... كارما حذرتني منك..."

قال (منير أمونيوس)، "فعلًا!"

قال (مراد)، "أنا شفتك في النيابة!! إنت... إنت شيطان..."

"إنت حقير... إنت لعنة... إنت داهية..."

"إنت وراك بلاوي كتيرة... ملفاتك عندي..."

"الملفات كلها اتحرقت يا مراد، مفيش ملفات،" قاطع (منير أمونيوس)، وتابع، "كان المفروض متخطّيش برجلك للمكان بتاعي، تسمع كلام بنت تافهة وتتجرأ عليّا حتى لو كنت وكيل نيابة..."

"... كنت فاكر إنك لو دوّرت ورايا، هتعرف توصل لحاجة، لكن أنا طريق مسدود."

"أباليس!! إنتوا واللي زيّكوا، رجّعتوا مراكز القوى تاني واشتغلتوا قهر في الناس!"

"إحنا مين يا مراد!"

"الجهات السيادية!"

ضحك (منير أمونيوس) وظهرت أسنانه، حتى أن بطنه المنتفخة برزت أكثر من ذي قبل، "قالوا أكتر من كدة بكتير. بس ده مش غريب ومش بيفرق. إحنا الدولة، فاهم يعني إيه؟"

"أنا مش جاي أحذرك. أنا جاي أقولك. إنت مش مراد نصري..."

"أنا!!"

"مراد نصري مات..."

"إحنا موِّتناه..."

"مراد نصري دلوقتي ملوش وجود في الحقيقة ولا عالورق..."

"وبما إنك مش موجود فأنا بعزيك في مراتك وبنتك. كانت حركة غبية لكن ملهومش ذنب. الحقيقة، الذنب ذنبك، لأنك معرفتش تحميهم وكنت فاكر بغباءك إنهم هيحموك."

"بسبب غباءك وطيشك، عملت لنفسك أعداء كتير. لدرجة إنك فكرت إنك ممكن تقف قصادي."

"يا مراد، إحنا الدولة، وممكن نخليك في المعتقل ده مدي الحياة أو..."

"... أو تقبل عرضنا وتبقى أنور رحيم عدلي عبد المولي، ودي الأوراق اللي تثبت ده."

كان عقل (مراد) يعتصر، لا يعرف ما يسمع وما يقول. تأثير الحبوب كان يضغط على مراكز إدراكه، ومحاولات (منير أمونيوس) كانت حاسمة، ذاكرته التي اتسمت بالحدة صارت تتراجع تدريجيًا.

على الطاولة، ألقى (منير أمونيوس) ملفًا بدون علامات ثم قال، "الراحة مش إنك تخرج من هنا أو إنك تعيش حياتك، الراحة إنك تلاقيهم، وأنا مستعد أوفر لك الفرصة دي."

صرخ (مراد)، "أنا!" كل شيء كان يتسرب من عقله، زوجته وابنته، حتى (كارما) و(ديجا)، وكل الأحداث القديمة، كان أشبه بالإسفنجة الخالية من المياه، خاوية تمامًا، كل ما تذكر، حبوب الجنة، النعيم والراحة الأبدية، تلك الحبوب التي أخرجها (منير أمونيوس) من جيبه ووضعها على الطاولة.

كان يعلم جيدًا لو أن (مراد) أخذ المزيد، سينتهي. (مراد) الذي لم يقاوم البتة. رغبة عارمة في داخله كانت تدعوه لأن يبتلع تلك الحبوب. مذاقها يعرفه، لم يكن ذلك الرجل أول من أعطاها إياه، كان قد أخذها من قبل، كانت قد وضعت في طريقه سابقًا.

تكلم (منير أمونيوس)، "أنا عارف إنت بتفكر في إيه..."

"... دي مش أول مرة، ولا آخر مرة."

"هه هه هه! أكيد مش آخر مرة،" وتمتم في سريرته، "منير أمونيوس هو الطوفان الكاسح، مش إنت اللي هتوقّعه، ولا أي حد تاني غيرك أو زيك."

تمتم (مراد)، "أنور رحيم!"

أجاب (منير أمونيوس)، "أنا مستعد أخرجك من هنا، لكن هتبقى تحت طوعي ونظري."

تمتم (مراد)، "منير أمونيوس!"

"القرار قرارك يا أنور..."

"اعتبرها مهمة وطنية! اعتبرها فرصة تانية! اعتبرها مهمة رسمية وهتغير ملامح الحياة السياسية في البلد! اعتبرها بالشكل اللي إنت عايزه، لكن في النهاية، هتوصل للي قتلوا مراتك وبنتك وهترجع بطل من بعد عار الفضيحة والتشهير،" وسخر (منير أمونيوس) من الأخيرة.

ردد (مراد) وكان وجهه مبللًا بالعرق الغزير، "إنت عايز تقتل مراد نصري زي ما اتقتلت مراتي وبنتي، عايز تحييني وأبقى واحد من رجالتك وأقوم بأعمالك القذرة."

أكمل (منير أمونيوس)، "صفقة، وفي المقابل هخرّجك من سجن العقرب قبل ما تندفن فيه."

قال (مراد)، "وإيه المقابل؟"

أشعل (منير أمونيوس) سيجارًا آخر، وبعد أن امتص ما فيه، ونفثه في وجه (مراد)، قال، "متقلقش، مش كتير،" وكان وجهه باسمًا، باسطًا حاجبيه من البشاشة.

قال (منير أمونيوس)، "من النهاردة إنت أنور رحيم، ظابط سابق في الجيش وتاجر المخدرات، راجل الدولة العميقة وواحد من أفضل رجالتنا..."

"... أما مهمتك، فلو وافقت، هتعرفها في الوقت المناسب..."

"... وعايز أقولك حاجة، لو رفضت الفرصة دي، هتعيش عمرك كله في الغلاية، ومش هتعرف تنتقم من اللي قتلوا مراتك وبنتك، إحنا تأكدنا من ده."

"ومراد؟"

"ملكش دعوة بيه... مراد نصري انتهى..."

"إحنا داخلين على ظروف خطيرة من بعد الثورة والبلد مليانة إرهابيين، والفترة اللي إحنا فيها، مفيهاش أي استقرار. كل المقاييس بقت مختلفة وبتتغير."

"مراتك وبنتك ضحايا من ضحايا الإرهاب والانفجارات، إنت بنفسك كنت شاهد. لو قلتلك إنك عنصر من ضمن عناصر الحفاظ على الدولة، جايز ميكونش بنفس قيمة رغبتك في الانتقام."

وقتها زحف (مراد) ببطء ناحية اللحظات التي وقف فيها عاجزًا أمام صيحات الأجساد التي تحترق. يراهم، يشعر بهم، يلمس عذابهم وكأنه بنفسه يحترق.

أما (مراد) الراضخ عند الطاولة، ذلك الذي تلاعبت الحبوب بعقله، لم يُميّز (منير أمونيوس)، (منير أمونيوس) الذي كان يبتسم لرؤية (مراد) خاضعًا تمامًا لكلماته.

وقف (منير أمونيوس)، وساعتها، وضع (مراد) يديه الاثنتين على الطاولة وتنهد طويلًا، ثم قال، "أنا..."

"... موافق."

تمتم (منير أمونيوس)، "اختيار سليم،" ثم سحب قدرًا كبيرًا من دخان السيجار، وسحب الملف معه، ليغرق (مراد) في شبورة من الحيرة.

****

الإطار الكبيرة، (ديجا) التي تنتحب، وحالتها المزرية!

صورة السيدة التي ترتدي الفستان الأسود، (نورينا)!

ربما وصل في ضياعه أولًا غير أنه في واقعه كان مُتقدِّمًا. وصل إلى آخر الممر، إلى الباب المفتوح شقًا صغيرًا. يظهر الضوء من ورائه، ضوء الشاشات، شاشات كبيرة وصغيرة، مكتب من الأرابيسك العتيق أمامه طاولة خشبية وكرسيين أبيضين، كان واقفًا ناحية الشاشات، يرتدي بزة شديدة البياض، يُدخِّن السيجار، يُمعِن النظر فيها وقت أن تقدم (مراد)، رافعًا المسدس في يده المهتزة ويصوبه ناحيته.

(منير أمونيوس) ومظهره الراقي، (مراد) ورأسه المُنحطّة، أمام الشاشات المستطيلة، الطاولة الخشبية العريضة، ملف ومن فوقه مسدس جاء من بين النيران مدعومًا بشرائط بيضاء.

شاشة أولى جذبت انتباه (مراد)، مقاطع مسجلة يعرفها، رأى نفسه واقفًا أمام رصيف العقار، عمارة (الأم تريزا) لما رحلت حاوية القمامة، وجاء حارس المبنى، (سيد)، يسنده بينما يترنح ويصطحبه إلى المصعد ثم إلى الطابق السادس، الشقة الحادية عشرة.

فتح الباب وأدخل (مراد) مسرعًا، بعثر في جيوبه، أخذ أمواله وحشرها في جيبه. بحث في أوراقه ومتعلقاته، لم يعثر على أي شيء جديد. وضعه عند الكرسي وتركه في غيبوبته، دلف بعدها إلى حجرة نومه، بحث فيها وتحقق، حتى تيقن فرفع هاتفه وأجرى اتصالًا.

"ألو... بلّغ الباشا إن..."

شاشة ثانية، ألوان أرجوانية كمهرجان الربيع، طاولة مستديرة وعليها أوراق الكوتشينة، (مراد) ومفكرة صغيرة غلافها ممحوق من اسكتش بالقلم الجاف، (كار...)، بها أوراق بأكملها ممزقة، خيوط وأدلة كان يتتبعها، لم تكن بخط يده، كلمات تُشِير إلى ماخور (تلت وحايد)، إلى البداية، إلى كأس الشراب وإلى رأس الأفعى.

علامة استفهام أمام رسمة باليد لفتاة كان قد رسمها بنفسه، لا تظهر ملامحها الحقيقية. أين هي ومن تكون؟

تتجسس على (مراد). تضع الأقراص في فنجان القهوة. يتجرعها المارق (مورو) فينقلب حاله. في حمام الرجال يتبول، امرأة ورجل، (مرجانة) و(مورو) يتعاركان، يقبض عليها تحت أقدامه، يعتصرها ويعتصر جسدها المرن. يُرِيد أن يظفر بها. صيحة وتلاطم ثم عراك. (مراد) و(مورو) يتقاضيان، و(مرجانة) تستل محقنًا وتطعنه في رقبته، لملما جسده من بعدها وأخذاه خارج الحمام.

شاشة ثالثة، أسوار المشرحة ليلًا، باب مفتوح وطبيب يتفحّص إحدى جثتين. رجال يأتون ورجال مدججين بالأسلحة يقتحمون. حارس وعسكري يُقتَلان. رصاصات وقنابل، وانفجار أنبوبة ساقطة من السماء. جثامين تتهاوى على الأرض. معركة وقتال، قضى على اثنين. رجل يتربص، (مراد) بين النيران وطعنة بسكين. ماثلًا أمام غرفة التشريح، امرأة ترفع ذراعيها بمشرط ساطع، (مرجانة)، وضربة على رأس (مراد) من الطبيب (يونس).

تحدث معها وأسهب، تشاجرا فتناحرا، ضربت نظارته أرضًا فكسرتها، فرطمها على رأسها. ذهب إلى الجثة الهامدة أمام الباب، ضربها في قلبها بحقنة الأدرينالين ثم أسرع إلى السيارة المصفحة، عند البوابة الحديدية. نزل منها رجل عملاق. اشتدت حمية النيران، زحفت (مرجانة) مبتعدة على البلاط الأزرق. رجل ضخم، (سائد) ورجاله، أمسكوها وتوغلوا. اقتحمت القوات الخاصة المشرحة، ففروا من هناك، لتختطف (مراد) من بين النيران وقت عودة الجثة الهامدة، (مورو)، إلى الحياة بشهقة مغلولة، وكتف قصير يدعمه فيُبعِده.

شاشة رابعة، هيئة جديدة! ظلال بعد ساعات الظهيرة مررت نفسها على رصيف العمارة، (مراد) يحك ذقنه مستهجنًا مما حدث في الكنيسة، و(مراد) الذي يتفرج، أومأ تلقائيًا لأن الدقائق القادمة حملت مفاجأة له، سيارة مصمتة المعالم وقفت أمام منزله، باب يتدحرج، ورجال ملثمين يقتلعونه من الأرض، ويأخذونه معهم.

وانطفأت الشاشات...

انطفأت ونطق (مراد) أخيرًا، "منير أمونيوس!"

"جاي تكمل مهمتك؟" سأل (منير أمونيوس)، وهو يُشِير إلى الشاشات، "كنت متأكد إنك هتيجي هنا..."

"... أنا كنت شايف كل خطوة ليك من ساعة ما وصلت عند سور السرايا..."

"... عارف؟ السرايا دي قديمة وعظيمة جدًا، تقدر تقول راجعة لـ مِتين سنة فاتت، قبل

الإقطاع وقبل الثورة، وقبل حتى ما يتجرأ الرعاع على السادة. زي ما هي بفخامتها، كانت ملك لعيلة مستهترة، مكانش همّها غير إنها تضيّع ممتلكاتها على الأمور السخيفة..."

"... رجعت لي لأنها ملك عيلتي في الأساس، ولما جاتني كان لازم أحافظ عليها..."

"... تعرف إن فيها جناح كامل كان موهوب للمجانين والصحة العقلية! مستشفى مجانين! شعب حقير! أنا نفسي مكنتش أعرف..."

"... معندهمش أي تقدير لقيمة مبنى أثري عظيم زي ده. السرايا دي كانت ملك لأجدادي قبل ما تكون ملك لعيلة اندراوس. كانوا فاكرين إنهم ممكن ياخدوا جزء من تاريخي بسهولة."

بدأ (مراد) في تذكر مقتطفات وهمية من محادثة تمت فيما بينهما من قبل، لم يكن يعرف الحقيقة من الضلال، يسمع (منير أمونيوس) ولا يُعقِّب على كلامه. سرايا الزعفران! ذلك المكان! أجاءه من قبل؟

"مفيش أي حاجة اتغيرت في السرايا، زي ما اتبنت بالظبط..."

"... كتير حاولوا يهدموها أو يغيروا حاجات فيها، حتى الدولة كانت عايزة تاخدها بحجة إنها مبنى أثري، لكن السرايا كانت دايمًا بترفض بشكل أو بآخر، لغاية ما طلعوا عليها إشاعات، وإن فيها أشباح وعفاريت وإنها المبني المسكون..."

"... السرايا دي عاملة زي مصر بالظبط. ليها كيانها المحفوظ، جميلة وقوية،

مليانة بالأوض الفاضية، مركزين بس عند الصالة وكلهم متجمعين هناك. كيان كان لا يمكن أخلي حد يمسّه أو يهزمه، حتى لو كانت بنتي المستهترة وأمها، ميعرفوش قيمتها."

أكمل (مراد) طرف الحديث، "ديجا! بنتك!"

"مش غريبة، أكيد اللي يدمر بنته، يقدر يعمل أي حاجة يوصل بيها لمصلحته."

غمز (منير أمونيوس) بامتعاض، "ابتديت تفتكر! ممتاز! لكن..."

"ديجا دلوقتي بقت في أمان أكتر من الأول. كانت خطر على نفسها وعليّا، وكان لازم تقويمها وإلا هتتمادى. أنا عارف الشباب الطايش اللي زيّها، ميعرفش معنى القومية..."

"... الجنون في البلد دي مبقاش له حد، وحلّه، عوج المكسور عشان يترمم من الأول."

أمام هياج العقل وفوران الدم في العروق، دمع (مراد) ثم صرخ، "إنت اللي قتلت بنتي!" وكانت أصابعه ترتجف ويفقد أعصابه، "إنت اللي خطفت كارما!" وكان دموعه تتراقص، "وإنت اللي ضيعت ديجا!"

قال (منير أمونيوس) بهدوء، "تفتكر هِيّا دي الحقيقة؟"

فوهة المسدس، مصوبة بإحكام على قلب (منير أمونيوس)، والذي استمر في تدخين السيجار، وحمل الريموت في يده بسكينة ثم أعاد تشغيل الشاشات.

في البداية، تشويش، ثم صراخ، من أربع زوايا لكاميرات مثبتة على الأضواء الليلية، لا حركة ولا سكون سوى اهتزاز

المسدس، (مراد)، والذي كان يتشبث بالفكرة التي طرقت إلى مقدمة الأفكار التي هزت عقله، أبصرت عينه الشاشات.

(منير أمونيوس)، ذلك المارد هو من دمر حياته بالتأكيد. تذكر لأن (كارما) حذرته من أن يرى وجهه الكئيب مرة أخرى.

صوت من أربع سماعات مسرحية، موضوعة في جنبات الغرفة المظلمة، صرخة هلع، طفلة تجري ومن ورائها سيدة تُمسِكها، في الزاوية الأولى ظهرا كاملين، وفي الزاوية المقابلة، رجل كان يمسك سكينًا كبيرة.

يصيح ويصرخ، "أنا لازم أقتلك، لازم أخلص منك..."

"... مش... مش هتقدروا تخدعوني مرة تانية... مش هتعرفوا..."

"خيانة!"

في الزاوية الأولى، المرأة التي أمسكت ابنتها، تنتحب وتزعق، "مراد، إنت بتقول إيه؟ أخدع مين؟ إنت اتجننت!"

"أنا رنا يا مراد، مراتك، ودي بنتك هيا، إنت إيه اللي حصلك؟ فهمني..."

"أنا... حصلي! أنا... أنا سليم! أنا تمام!"

"إنت مش تمام، إنت إيه اللي بيحصلك ده! إنت مجنون!"

هاط (مراد)، هياجه كان مستمرًا، هجم عليها، (مراد) الذي قبع أمام الشاشات أشاح بيده، أراد أن يُخرِجهما من هناك، لم يستطع.

هربت (رنا)، وتعثرت (هيا) في الزاوية الثالثة، كانت تنتفض أمام والدها الذي يشبه الشيطان، إحدى حكايات العفاريت التي أخبرتها بها والدتها، والدتها التي هبّت مُسرِعة وقفزت عند قدمها، لتأخذ شحطة بالسكين، بالكاد لامست ذراعها.

في الزاوية الرابعة كانت تبكي، هي وابنتها، كانت تُمسِك ذراعها، وتُردِّد، "مراد، أرجوك فوق يا مراد."

أنفاس (مراد) كانت خانقة غامضة، كان وجهه مُنتفِخًا، وعروقه مشدودة، يتعرق بغزارة وينفخ بشراسة.

طرقات الباب!

ظن (مراد) أنها من ورائه، لكنها كانت من الشاشة. طرقات الباب وهو ماثل أمام (رنا)، الزوجة، و(هيا)، الابنة التي تنهمر من البكاء.

رفع السكين، ضرب الباب، صرخت (رنا) واختبأت (هيا) في أحضانها، تقدمت الأقدام، وصرخت فتاة كانت تسبقهم، "مراااااااااد!"

صاحت (رنا)، "كارما!! الحقيني يا كارما."

اندفع بالسكين، وأغلقت الشاشات بصوت التشويش السابق. انحنى (مراد) واستدار (منير أمونيوس) ومضى. سار ناحيته ببطء شديد وأطفأ سيجاره في المرمدة قبل أن يصل إليه. وقت أن وصل إليه، وضع كفه على كتف (مراد)، وقال، "الحقيقة دايمًا صعبة، تفتكر كام واحد قتل مراته وبنته زيك؟

تفتكر لو أنا كنت هقتلهم، إيه أسبابي؟ أنا معنديش عداوة معاك يا مراد..."

"... بالعكس أنا بحميك من نفسك. إنت عندك بذرة اسمها الإجرام..."

"... ولولا إن رنا مراتك استنجدت بيا، كان ممكن الموضوع يتطور أكتر من كدة..."

"... رنا عايشة يا مراد... وهيا بنتك عايشة..."

حاجبان هبطا فجأة!

"تعرف يا مراد، الشغل في الجهات السيادة ده حاجة صعبة جدًا، دايمًا لازم نبص لمصلحة البلد، أيًا كانت الطريقة وأيًا كانت الوسائل."

برضوخ وذل تمتم (مراد)، "ويعني إيه جهات سيادية؟"

"إحنا يا مراد، إحنا الجهات السيادة اللي بتحمي البلد من أعداءها وحتى من نفسها."

انفجارات وقتل، أسوار وقيود، مؤامرات ومصالح، كل ذلك كان يدور في مخيلته وقت أن سمع كلمات (منير أمونيوس) الأخيرة، من بينها شاهد الخصلات الذهبية وهي لا تزال تتطاير.

شهق (مراد)، وردّد، "هِيّا فين؟"

أضاق (منير أمونيوس)، وقال، "كارما؟ ولا رنا؟"

"في حاجات كتير إنت مش هتفهمها يا مراد، أنا لا يمكن أأذي كارما."

قليلًا، ابتعد عنه ثم عاد إلى المكتب الخشبي، ثم تفوه، "كارما سليمة،" وبعد أن

حشر يده في جيبه، أكمل، "هِياّ طلبت منقولش على مكانها، لكن سألت عليك، وعشان كدة ممكن أودّيك لعَندها،" ثم وضع على الطاولة قرصًا ملونًا، ذلك القرص الذي جذب نظرات (مراد).

"كارما في أمان يا مراد، وده كله إنت السبب فيه بعد ما دلّتنا على اللي عايزين يقتلوها."

"كارما مستهدفة... ورنا وهيّا كمان... بس هُمّا كويسين ومستنّيينك."

"أفتكر إن الوقت جه عشان تروح لهم، عشان يطّمنوا على البطل اللي ضحّى عشانهم."

تراخى المسدس وتراخت يد (مراد)، أصبح عبوسه مصابًا بداء الاشتياق. (رنا)، (هيا) و(كارما)، يتذكرهم الآن ويرى التفاصيل السابقة. بكبسة زر أخرج الخزانة، وبطرف إبهامه بدأ يقذف الطلقات، طلقة وراء طلقة، تّقذف ناحية السيراميك. كل طلقة كانت تحمل معها شرخًا في كيانه. كل خطوة كان يتقدمها، كان يفقد فيها جزءًا من داخله، احتياجه الشديد كان يدفعه.

(منير أمونيوس) يدعوه، و(مراد) يُسقِط المسدس ولا يكترث. شاهد نظرة (ديجا) الضائعة بين الظلال الشاحبة، وصراخ (كارما) في غرفة قاتمة، لا ترى فيها أناملها. شاهد دموع ابنته وفزع زوجته وصورة وردية في إطار عاتم.

(منير أمونيوس) كان يتكلم، "تعالى يا مراد، إنت قمت بمهمتك ولازم ترتاح."

"تعالى يا مراد، تعالى..."

توقف (مراد)، وعينه مُنصبّة على الحبوب، دقات الأجراس، عروقه تتصلب، يحاول جاهدًا، يضغط على صدره، ويتراجع. ردة فعل استثنائية لفيضان جرف هارٍ في أطرافه.

يقاوم! يقاوم أكثر!

"أنا... أنا... لأ... أنا..."

(منير أمونيوس) يتكلم، "متقاومش يا مراد إذا كنت عايز تروح عندهم. لو استمريت على الحالة دي مش هتلاقيهم."

"لأ...

لأ..."

أمسك (مراد) القرص، ضغط عليه بين إصبعيه. قرّبه من فمه، واستطعم مذاقه من قبل أن يضعه على لسانه. زجر وتأفف ثم ألقاه بعيدًا وبكل عنفوان، ودق على خشب المكتب بكلتا يديه.

(منير أمونيوس) تجرع الغضب، وصك على أسنانه.

بعدما تيقن أن (مراد) لن يرضخ، أشار بإصبعه إلى رجل كان يترقب (مراد) منذ أن جاء إلى السرايا. مادة باردة سرت في عروق رقبته، جمدت أنفاسه، يد خارقة تمسكه، عملاق يسحبه، ووجه مألوف كان يندثر شيئًا فشيئًا بعد أن طمست الغشاوة قدرته على الرؤية. بقعة بيضاء، بقعة فيها كل من يحب، تتبعثر في السواد.

(مراد)، تراخى كالجسد الهامد المُكوّم على الأرض، حيثما وقف (منير أمونيوس)، يرمق كلبه المطيع الذي عاد إليه.

قال (منير أمونيوس) وهو على رأسه،
"الكلب الوفي لازم يرجع لصاحبه."
نظرات الغضب تحولت إلى استمتاع.
دخان السيجار لا ينقطع ولا ينتهي، يتبع الواحدة بالواحدة، دخان ينبعث بين عيون الشيطان. قوة بين الأصابع الفولاذية. ضحكات تنبع من بئر شهوانيته في عظمة السلطة الساحقة.

****

في صبيحة ليلة العشرين، صباحكم سعيد...
لعلهم ينظرون إليه بشيء من الاستهزاء لأن زمانه ولّى، لكنه كان يبتسم، كان يبتسم لأنه يعلم أكثر مما يعلمون، أصحاب الأشرطة المعلقة على الأكتاف، بملابسهم الرسمية وشواربهم الكثة والمنمقة، من أسفل حذائه كانوا ينظرون إليه.
بعضهم يعلم من يكون والبعض الآخر لا يعرف من يكون، أما من يعرفون فكانوا ينحنون أمام خيالاته تواضعًا واستكانة، يلقونه بالتحية ويغمرونه بالحمد والتهليل على سلامته، وعلى خروجه، هو من كان يحمل لباسًا مطويًا، ويمشي في ممر الخروج.
مشيته الأرستقراطية وقوامه المتسق، إلى جوار خصلات شعر سوداء محفوفة بالبياض، كانوا خائفين، ولا يخاف الإنسان إلا من شيء لا يعرف أوله ولا آخره، من شخص لا يعرف ردود أفعاله ولا تعابير وجهه، وجهه البلاستيكي الحاد، كان مُقطِّبًا عابسًا، لا يبتسم ولا يضحك رغم أنه يمشي في طريق التحرر من قيود السجن.

كل ما كان منه أنه اعتدل في وقته، وقت أن سادت الثرثرة على خلفية سجنه وخروجه السريع، لم يكترث كثيرًا، بل وضع اللباس على حافة النافذة الصغيرة، أمام شاويش مُجعّد القسمات، رجل لا يتجاوز الأربعين، بعد أن احتد في نظرته، ولاك شيئًا في فمه، وقال على مضض، "شاكر شوكت النمر؟"

فقط اهتزاز رأسه كانت الإجابة.

كانت الساعة العاشرة صباحًا، صوت الراديو كان يتحدث عن شيء جلل، جذب اهتمام بعض القائمين على السجن، حتى أنهم اندمجوا فيما يقوله المذياع:

صوت نسائي دافئ... الآن نشرة أخبار رأس الساعة من راديو مصر (88.7 إف إم) - راديو مصر - في قلب الحدث

في هذه النشرة: أعلن الدكتور هشام عبد الحميد المتحدث الرسمي باسم مصلحة الطب الشرعي، أنه قد تم التعرف والعثور على جثمان الطبيب المناوب ليلة البارحة في الهجوم الغاشم على مشرحة زينهم، وأنه قد تم التعرف على الجثمان من ضمن الجثامين المتفحمة بعد إجراء العديد من فحوصات مطابقة الدي إن إيه، الطبيب/ يونس جاد الذي توافقت مناوبته مع حدوث الهجوم الغاشم، رب أسرة مكونة من زوجة وثلاثة أطفال، كان قد تم العثور على جثته متفحمة، وتم التعرف عليها بعد التأكد من قبل المعمل الجنائي.

كما أعلن المسئول أنه لم يتم العثور على أية أدلة على وقوع أية أعمال إرهابية بين أسوار المشرحة، وأن السلطات تُباشِر حاليًا

تحقيقها في الواقعة للكشف عن ملابسات الحادثة.
قال الشاويش على مضض، "ركِّز معايا في يومك اللي مش فايت ده."
التفت إليه (شوكت النمر) والشاويش يتكلم، "امضي هنا إنك استلمت حاجاتك كلها."
بنظرة حانقة وضع توقيعه على الدفاتر، واستلم متعلقاته التي لم تقتصر على ملابسه وسيجاره، وقلمًا من الفضة الخالصة، بالإضافة إلى محفظة مُكدّسة بالبطاقات البنكية. في حين أن باله كان مشغولًا بنشرة الأخبار في الراديو.
نبرة رجولية جافة...
أعلن المتحدث الرسمي في وقت سابق عن عدم العثور على أية أدلة تربط بين انفجار مشرحة زينهم فجر يوم التاسع عشر وبين انفجار الكاتدرائية المرقسية في العباسية، وفي منتصف عيد الغطاس المجيد، وهي التي تحتوي على عدد من الكنائس الفرعية بالإضافة إلى المقر البابوي والمجمع الأساسي للمسيحية الأرثوذوكسية في أرجاء العالم كافة، بعد أن تزايدت أعداد الضحايا وبلغت قرابة المائتي قتيل والخمسين جريحًا، وحتى الآن تقوم قوات الأمن بحصر المصابين ولم يتم الإفصاح عن الأعداد النهائية.
خروجًا، كان يمشي ببطء في طريق الإفراج عنه من السجن.
أضواء الشمس الحارقة، سيارة فارهة كانت تنتظر في الخارج، ورجل يرتدي بزة رسمية، هرع لما رأى (شوكت النمر) وحمل عنه أشياءه، إلا السيجار، والتي حشرها في فمه

وأشعلها. كان لا يزال غاضبًا، وكانت عينه فحميّة من وراء النظارات الشمسية التي اعتمرها.

****

نفس نظرة الغضب والسخط، بعد أن فتح الباب وأغلقه بقوة، كان يسير مهرولًا. ربما لا يشعر بضيق بنطاله، والذي كان يُعطِّل من حركته. انتشرت الأخبار سريعًا، ووقف أحد الضباط مُمسِكًا بهاتفه الجوال يتصفح آخر المستجدات. لما شاهد الغضب على ملامحه، انحنى قليلًا، لكنه أكمل القراءة.

(رعب في القبور)

لا اكتراث، ولا حرمة، ولا وجل من حرمة القبور وساكنيها، قامت قوات الأمن ليلة البارحة بعملية تعد الأولى لها في تاريخها باقتحام القبور، أو التي يسميها المصريون، القرافة، مثوى أجدادهم وآباءهم، أمهاتهم وأطفالهم، ولم تكتف القوات بذلك، بل باشرت في إطلاق النيران مع مجهولين، واستخدمت القنابل والمتفجرات....

غضبه يتزايد، كان الصوت يتصدى في عقله مرارًا وتكرارًا، "إخلال بالأمن العام... سوء استخدام القوة... فقدان السلاح الميري... إيه أكتر من كدة إهمال؟"

"إنت محال لمجلس تأديب يا سيادة النقيب."

"بس يا فندم، أنا..."

"مفيش يا فندم..."

"يا فندم، أنا ظابط كفء."

"شادي عسر، إنت عار على الداخلية. إنت موقوف عن الخدمة ومتحول لمجلس تأديب، وممكن وأتمنى تبقى محاكمة عسكرية."
"سلم كارنيهك يا سيادة الظابط، واتفضل أخرج لغاية ما يتم استدعاءك."
أول ما فكر (شادي عسر) كان في (منير أمونيوس)، وردد لنفسه، "أكيد الباشا هيساعدني في المشكلة دي وأنا لسه محذره من مراد نصري."
بسخط يشيط، وقبضة مُكوّرة، انحنى (شادي عسر) خجلًا وخوفًا من نظرات زملائه بعد أن تجرّد من صفته الأميريّة، ونال كل من نظر إليه قسطًا من الشتائم في الخفاء واللعنات.
من أسفل التلفاز مر، حيث كانوا جميعًا مُحدِّقين إلى نشرة عاجلة جاءت للتو.
أعلنت جماعة الرؤوس السوداء مسئوليتها عن التفجيرات الأخيرة، وفي بث على شبكات الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، أعلنت تحديها للسلطات وتوعدت بالمزيد من العمليات الإرهابية في البلاد في تحدٍ سافر على السلطات الرسمية والمدنية والسلطات المؤسّسية، وإليكم مقطع من الفيديو المزعوم:
هذه الأرض أرضنا نحن، ونحن من سيملكها...
من سيقف في طريقنا، فالموت نهايته الحتمية...
نعِد بالمزيد من العمليات الاستشهادية حتى يتم تحرير البلاد من الماجنين الكفرة...
(الله - رسول - محمد)

****

" 35 "
116

نظرة الحيرة والعبوس ليست الأولى ولا الأخيرة. نظرة الأسى ليست هي العلامة الوحيدة المُميّزة. عجيب حقًا عندما تمعن النظر من حولك، فترى ذلك التشابه المدهش والغريب، وكأنك ترى في المرآة علامة من علامات الروعة التي قد تكون نُسِيت مع تقادم الوقت ومرور الساعات، أو ربما صارت فكرة متهالكة مهملة لا يهتم كثيرًا لأمرها الآخرون.

ذلك التشابه العجيب ما بين المرأة المصرية بكل ما فيها من جمال ورونق، وذلك النيل الساحر، ذلك النهر الذي ظل يُمثِّل منذ فجر التاريخ شريان العطاء والمحبة، ورمزًا للحب والوفاء، الخير الدائم الذي تساقطت عليه الابتهالات منذ فجر التاريخ، هو في رونقه ظل صامدًا رغم تقادم الأزمان، رغم تحادث الأفكار وتصادم الكثير من تيارات التيه والتشدد، رغم الدماء والحروب، رغم البكاء، وحتى رغم السفاهة والتبول على ضفافه.

اليوم تعبر من أمام ذلك النهر العظيم بشيء من الاستهتار، إن لم يكن الاشمئزاز، تنظر إليه على مضض، وكأنك تلومه على حال لم يتخذه طوعًا، وإنما فُرِض عليه كرهًا وقسرًا. تراه في كل حين رغم تياره السخي، والذي لا ينقطع، تعلوه علامات البلوغ والتعب، ترنو بعيدًا عنه لأنك لا تريد أن تنظر إليه وهو في مثل هذه الحالة من

الإجهاد، وكأنك بهذا تنأى إلى جميل الشكل والمظهر، وتنسى أنك أنت من تسبب في هذا الحال الذي وصل إليه.

أنت من لم تُعِره اهتمامًا، وضعت على كاهله بلوغ العمر وأجله، بشقائه وتعبه، تبولت على وجهه، عبثت بملامحه، ألقيت على ضفافه القمامة، أصبته بلعنة قذارتك، تلومه كما تلوم المرأة المصرية التي تشبه في حد كبير ذلك النيل العتيق، بعطائها وصبرها، في شموخها وروعتها، في حلمها وعفوها، في رغبتها وأملها، في حيرتها وكبريائها، في بسمتها وشفافيتها، أعطت الكثير ولا تطلب في المقابل حتى أبسط كلمات الشكر والعرفان.

كيف لك أن تلوم من لم تهتم لحاله، وتنتظر أن يظل نظيفًا جميلًا غزير العطاء طيلة الوقت، وتنسى أن الاهتمام يُعطَى مقابل اهتمام موازي؟

الاهتمام المساوي له في المقدار وإن كان مغايرًا له في الكيفية.

شيء عجيب حقًا يا من تتناسى أن المرأة المصرية هي الأساس وراء ذلك الحب الدفين في قلبك سواءً لنفسك أو للآخرين، لا تخدعها ولا تتلاعب بمشاعرها، لا زالت كما هي تلك الأنثى الرقيقة وإن تشققت أصابعها، وتصلّدت عزيمتها، وارتفع صوتها بنبرة رجولية قاسية.

كانت تبكي، كانت تكتب الرسالة وتبكي، كانت نحيلة هزيلة، منتفضة الجسد، خائفة من العقاب ومن الخزي، كانت في كلماتها الأخيرة، على درج مكتبها الفاخر وغرفتها

الكبيرة الفخمة، غرفتها الملونة، المزينة باللوحات، وزقزقة العصافير، وصورتها المعلقة، شديدة الفرح، شديدة الابتسام، تلك الفتاة كانت فتاة مرفهة، وُلِدت وبين أسنانها ملعقة من الياقوت.

ما الذي تغير فيها؟ هي من عقصت شعرها وكوّمته كله كذيل الحصان، هي التي كانت تبكي وهي تكتب الكلمات الأخيرة في رسالتها، "... حبيبتك، بوران."

(بوران)! هي لم تعرف معنى تلك الكلمة وقتها، لم تعرف أنه لما رأى رسالتها، ابتسم مستهزئًا، ذلك الولد المتشح بفرجية سوداء، كان قد التحق باللاهوت منذ وقت قريب، يضحك في قرارة نفسه ويفكر، (بوران)! تلك المغفلة! لا تعرف! كلمة إيرانية بمعنى شدة الضوء وتقال عن الأرض الجدباء التي ليس فيها زرع، ولكنه فضل الأرض الجدباء التي لا زرع فيها ولا خير، هو من كان يراها الفتاة العقيم، الفتاة الثرية التي ستوصله إلى مبتغاه سريعًا.

أما هي، فقاومت والدها ووالدتها، أخطأت كثيرًا، زعقت وتبادلت الهجمات بالصرخات، والدتها التي كانت تتعامل معها كالأميرات، لم تستوعب تلك الشخصية العابثة من فتاة كانت تملك كل شيء. لم تفهم أبدًا حالة الجمود التي أصابتها، أما والدها فكان مُتفهِّمًا بقدر الوقت القليل الذي يمضيه مع أسرته، ما بين أعماله وسهراته، ولقاءاته الخاصة، لا يسأم.

لم يكن أحد منهما هناك...

كانت وحيدة تمامًا...

طوق النجاة الذي فكرت فيه كان أول أسباب غرقها، ذلك الشخص الذي تعلقت به، عند أول مواجهة تركها. لا مفر أمامها سوى الهروب، في أحشائها حياة تنمو على بذرة الخطيئة، ألم يكن قد وعدها بالزواج؟ تلك المغفلة كانت تظنه سيتزوجها! ألم يكن قد وعدها بالأمان؟ وهل من أعطي الحب سرًا بمقدوره أن يعطي الأمان؟

أما هو، فكان يريد أن يظفر بها، وقت أن حملت أشياءها وارتدت عباءتها الفضفاضة وهرعت إليه، إلى منزله الذي تعرفه، عندما كانت تظنه سيستقبلها استقبال المحبين، لم تجده هناك، بل وجدت رجلًا غيره، أخبرها بما تكره. أما رب الأسرة في صاعقة المصيبة، هرع إلى صديق العائلة، ذلك الشاب الأرستقراطي، الذي كان حازمًا قويًا، هو الذي طمأنهم، وهو الذي أخبره أنه سيعيدها، هو من قام بملاحقتها وملاحقته. لاحقه حتى بين أسوار الكنيسة وأضاق عليه حياته.

بينهما نشأت العداوة، عداوة حقيقية مريرة، أما هي، فعزمت ألّا تعود إلى أسرتها، هي من وجدت عند عائلة بسيطة راحتها، عجوز وامرأته، أغدقوا عليها من الحب الذي لم تكن تعرفه. لم يكونا على نفس شاكلتها أو دينها، لكنهما عاملاها معاملة طيبة، غير تلك المعاملة الجافة التي نشأت عليها. أحبتهم، وأحبت ابنهم، تعلقت به وصارحته بما أخفت في جوفها، صارحها بأنه لا يبالي بما كان، وأنهما سيكملان معًا طريقًا غير الطريق الذي مشته.

هو الذي أمسك يدها في يده وترجل فرحًا في الطرقات، يريد أن يُخبِر العالم أنه ذاهب ليتزوجها، هو الذي فاجأها بذلك القرار رغم صعوبته، وهو الذي وضعها تحت جناحه، تلك الحمامة الجريحة، التي لم تقو على الطيران. وقت أن ظنت أن الحياة بأكملها تبتسم، كانت تعبس، كانت تُخبِّئ لها سطرًا آخر من سطور حياتها، سطر أوله الدماء، دماء الشخص الوحيد الذي صَدَقها القول، وظنت أنها ستتعلم معنى الراحة.

انهارت وبكت، صرخت، ولم تنطق ببنت كلمة. وقت أن رأت جثمانه هامدًا على الطرقات بين الناس، لم تعرف أن عزيمتها ستنهار سريعًا، لم تعرف أن الصدمة ستصبح قوية إلا حينما رحلت من دون أن تتكلم. رحلت وتركته، مثلها مثله، جثة خاوية من الروح، ممزقة القلب، مُعتصَرة الصدر، خائفة ومرتعدة.

لا شيء أقسى من ليل بلا غطاء وساعات تقضيها باحثة عن الطعام. ترى الأبصار تُحدِّق في ملامحها، وكأنهم جميعًا يبحثون عنها. تبتعد عنهم، تخافهم جميعًا، تتخذ من الأزقة والممرات سبيلًا لها. تغيرت القاهرة، أصبحت عبثية فوضوية. تغيرت طباع الناس ونظراتهم، أصبحت ماجنة فاضحة. بدأ دبيب الخوف، وبدأ الشعور يتسلل إلى قلبها شيئًا فشيئًا. لن تتحمل المزيد من ذلك العذاب.

كانت الأم تعقب السيجارة بالسيجارة، متوترة من الفضيحة بين مثيلاتها من الوسط الأرستقراطي، ماذا سيقولون عن ابنتها واسم عائلتها الذي لطخته في التراب؟ أكان عليهم أن يسقطوها من حساباتهم؟ أم أن يبحثوا عنها بلا هوادة؟ هي التي وضعت يدها

على كتف الشاب وقالت، "منير! إنت اللي هتنجدنا..."

ذلك الشاب الذي أظهر مشاركة الحدث وأخفي ابتسامة صفراء.

آلام قاسية، آلام المخاض، آلام الولادة، صياح يتبعه عويل، لا فرح ولا عبوس، فقط الألم الجامح في الجسد وفي القلب المرتجف. خوف مستطرد ولعله من القادم، هروب ثم هروب ثم بحث واستغاثة، ومن يغيثها من قرار كانت قد اتخذته ولا تعرف كيفية العدول عنه؟ أترجع إلى أسرتها وفي يدها طفلة لا يعرفونها؟ أم أن وقت الخلاص من العار قد فات وعليها أن تعيش في ذل الحياة بقية عمرها؟

تلك اللفافة القذرة التي في يديها، حالتها الرثة، وملابسها الممزقة، هي التي كانت تعقد من رباط الحذاء عقدًا، وأصابعها التي كانت تتخلل أصابع الصغيرة، لم تكن تداعبها. كانت تبتسم في وجهها، فتاة مليحة الوجه، شديدة سواد الشعر، عينها مستديرة، وفمها صغير مثل حبات اللؤلؤ، تعبث بلعابها وكأنها تُكلِّمها، تحكيها الحكايات وتستمع لما لم تكن تقول.

"لينا... أنا هسميكي لينا،" وأخفتها في صدرها. غير أنها لم تكن تبتسم أيضًا، بل كانت تشحذ بطرف حجر على قطعة خشبية من خشاش الأرض، كتب اسم (لينا) عليها وصنعت منها عقدًا وضعته في رقبتها.

كانت قد عزمت أمرها، وقررت أن تضع حدًا لمعاناتها، لا تستطيع التحمل أكثر ولن تتحمل.

أمطار الشتاء المسترسلة، أمطار كانت تمسح الأرض مما عليها من خبث وجنون، كانت تتساقط على رؤوس المارين العابثين، المجتهدين والمتعبين، لم تكن تفرق بين الأغنياء والفقراء، ولا الأرض البور ولا الخضراء، أمطار كانت تخص من يحتاجها بالخير، أبواب من السماء منهمرة، وأدعية تصعد من الأفواه الشاكرة، دعاء كانت وحدها تقوله خفية، "يا عدرا يا أم الكون، الهميني الصبر وارشديني للطريق بعد الضلال. يا عدرا يا أم الكون، تعبانة ومفيش في ايدي سبيل."

وضعتها، وضعتها عند حاوية القمامة، بعين منكسرة رحلت، رحلت من دون رجعة ولا التفاتة ولا انتحاب، لم تكن تسمع صوت أنين الفتاة التي كانت تناديها، أصابع كانت تشير إليها وتدعوها أن تعود إليها.

ليس كل شخص مثل الآخر، وليس كل رجل مثل ذلك الرجل الذي بلغ بكاء الفتاة مسامعه، هو من بحث عنها بين الأنقاض، حتى وجدها عند حاوية القمامة، هو الذي تأثر من حالتها الرثة، بعد أن مر الوقت وانتهت الأمطار.

ضيق العيش! ألا إن ضيق العيش صعب مرير. تلك كانت الأسباب التي أرغمته على أن يصطحبها إلى الشرطة مباشرة، ظنًا منه أنهم سيتقبلونها بحالتها. كان حزينًا على فراقها، لعلها مكثت معه الأيام حتى قرر أن يذهب إلى الشرطة بعد أن استشار الأصحاب والأخلاء، تركها وفي لفافتها كما هي، تضحك وتعبس.

الأيام التي تمر كانت قاسية، ما كان من الشرطة سوى أنها أودعتها دار أيتام بدت مناسبة، حتى يتم الاستدلال على التعميم الذي لم يستمر ولم يكترث لأمره أحد سوى لأيام ثلاثة. في دار الأيتام تلك، استقبلتها سيدة سمينة، كانت قد احتوتها بين ذراعيها، وحاولت أن تداعبها، لم تعد تضحك ولا تبتسم. شيء كان قد تغير فيها.

هي التي مالت إليها وداعبت بطنها وقالت لزميلتها، "تفتكري نسميها إيه؟"

"وتفكري ليه؟ شوفي أي اسم من الجدول، أنا فاكرة إن آخر حاجة وصلنالها حرف الميم."

"الميم!! الميم!! مريام، أنا هسميها مريام."

"من هنا ورايح، إنتي اسمك مريام يا ست مريام."

كانت تبتسم، ولم تكن الطفلة تبتسم، كانت مغلقة تمامًا، عابسة لا تضحك. ما الذي جرى لبراءتها، براءتها لم تتغير بل تبدلت تمامًا، تجذب فتاة أخرى من شعرها الصغير، تزعق في وجهها، تضربها، تدفعها، وتُبعِدها عن أشيائها، لا تُشارِك زميلاتها، ولا ترافقهن. كانت صغيرة، أسنانها لم تكن قد اكتملت، الغرفة المظلمة كانت عقابها المستمر على أفعالها الجنونية. لم تكن طفلة عادية، كانت ساخطة حانقة على كل من يقترب منها.

الغرفة المظلمة، هي المكان الوحيد الذي تستقر فيه بمفردها، باكية مسترسلة على السرير، مازحة مع أشيائها، تتخيل الأحاديث وتغرق فيها، تبتسم وتضحك. لا شيء يُغيّر

حالها أكثر من أن يتطرقوا إلى غرفتها، عندها فقط، تبدأ بالصياح وبالبكاء، تقفز باستمرار وتشيح بالرفض والإنكار.

تلك الطريقة التي حاولت القائمة على الفتيات أن تنتهجها في محاولة إسكاتها، كانت عبقرية، وقت أن اقتربت إليها وأظهرت جهازًا أحمر اللون صغير، كانت تُقلِّب تِرسه الدوار، فيصدر عنه الألحان والنغمات. لما رأت انتباه الفتاة الذي انصرف إلى ذلك الجهاز العجيب، تنفست الصعداء، ذلك الجهاز الصغير، لم يكن يفارقها أبدًا، ليل نهار، في جيبها، تُحافِظ عليه كأي شيء ثمين تمتلكه.

الألحان الحالمة، الخيال الواسع الذي وضعها في مأزق المشكلات، لم تعرف أي خطأ ذلك الذي استدعى الصياح في وجهها وضربها، أكانت النيران؟ أم أعواد أثقاب؟ أم خروجها ليلًا إلى المطبخ؟

لم تُدرِك سوى أنها تحمل حقيبتها الوردية، تحتضن جهاز الراديو خاصتها وتركب سيارة، تُبعِدها عن المكان بأسرع ما يكون. تبدلت الوجوه وتحول القائمون على دار الأيتام إلى رجال يابسة أياديهم. كانوا يعرفون من هي، تلك الفتاة المثيرة للمشاكل، صاحبة الشغب، فلم تكن لها ميزة الاستقرار أو البحث عن حرية جديدة، بل استمرت في إثارة المشاكل، لأنها كانت الحل الوحيد أمام تعنّت من رأت أنهم يعاملونها بناءً على سابقة أعمالها.

الليلة بعد الليلة، والعقاب بعد العقاب، لم يتغير شيء أو يتبدل. مثل القط والفأر،

لا القط يُمسِك الفأر ولا الفأر يتخلى عن محاولاته. لم تيأس الفتاة في أن تُكيّفهم على شاكلتها الخاصة، ولم ينته واحد منهم في معاملتها كأي مجرمة صغيرة، صاحب الدار ومديره كان رجلًا جلفًا قاسيًا، هو من كان يضربها بعصاه الرفيعة، لا تأخذه بها شفقة ولا رحمة.

في البداية كانت تبكي وتصيح، لكن الوقت علمها أن البكاء للضعفاء، وأن عودها عليه أن يشتد. وقتها عزمت وفي خفية من الجميع أن تُشعِل النيران في مكتبه، كانت قد قابت قوسين أو أدنى من أن تُحقِّق مبتغاها لكنها سقطت بين أيديهم.

لا مزيد من الضرب ولا العصاة، بل الترحيل، كما جاءت، لملمت أشياءها وكلها سعادة غامرة غير المرة التي كانت تسبقها. هو من كان في مكتبه، ينخر ويسعل، يتحدث في الهاتف، يمد طرف السلك حتى يتأكد من رحيلها عن الدار تمامًا.

"جايلك بنت عبارة عن كتلة مشاكل؟"

"يا اه! وإنت بجلالة قدرك مقدرتش عليها! إنت نخّيت ولا إيه؟"

"لما نشوف هتعمل إنت إيه، أهي جيّالك في الطريق."

حذاؤها الصغير، الممزق طرفه، نظرتها إلى البوابة الحديدية، ومحاولاتها المستجدية للقراءة، "دا.... داااار... دار أيتـــ.... دار أيتاااااام... دار أيتام النشـــ... النشأ... دار أيتام النشأ السعيـــ... دار أيتام النشأ السعيد!"

تنهدت، وتفاجأت لما جاء واحتضنها، وربت على كتفها بشيء من اللين، ذلك الرجل الشديد سواد الشعر بما يتناقض مع عمره، لكنها لم تستوعب ذلك وقتها.

عند الأبواب كانت تقف هي الأخرى وأمامها سيدة أخرى، قدمها المتعبة من طول المسير، وبحثها المستمر عن العمل، كانت تطرق الأبواب كلها، كل الأبواب ترفضها، لا تدخل بابًا وتستمر فيه، لأنها لا تتحمل مشقات العمل، وقت أن دلّتها عن (دار النشأ السعيد).

قالت لها، "على فكرة، إنتي أحسن حاجة تشتغلي في دار أيتام، شغلانة حلوة ومريحة."

كانت ترفض في البداية، لكن الأوضاع كان تُجبِرها على القبول. هي من كانت تقف عند البوابة الحديدية، تنظر إلى السيدة الممتلئة، رفيقتها، وفي مخيلتها كلماتها الأخيرة، "آه، بس بقولك إيه يا ختشي، العيال دي مش عايز النهنهة والسهوكة بتاعتك، لازم تكوني شديدة معاهم ليركبوكي. آه، اسأليني أنا."

على المكتب جلست، والسيدة الممتلئة تُقبِّل الرجل الأسود الشعر، المبتسم، والذي نظر إليها وإلى التي أحضرتها باستفهام.

قالت السيدة، "أنا بقى جايبالك واحدة إنما إيه، لُقطة، هتشكِّلها زي ما إنت عايز،" وغمزت إلى رفيقتها، فقالت، "آه، أنا تحت أمرك في أي حاجة."

ابتسم الرجل وقال، "تمام،" وكان يُحدِّق في جسدها حتى أرغمها على الظن أنها عارية.

قال حينها وقت أن اتجه إليها، "إنتي هترتاحي قوي في الشغل معانا، إحنا دار محترمة والكل بيشكر فيها،" ثم وضع يده على كتفها، انتفضت، فقال مقاطعًا، "إيه؟ مالك؟ خايفة كدة ليه؟"

"على العموم إحنا دار أيتام بنات بس، وأعتقد دي مش هتكون مهمة صعبة بالنسبالك..."

"... اتجدعني وأنا هخليكي المساعدة بتاعتي، وهدِّيلك مرتب كويس."

فرحت؟ أجل، فرحت...

حزنت؟ أجل، حزنت الفتاة لما رأت سريرها الملقى في المكان البعيد من بين عشرات الأسرة في غرفة تشبه البهو الكبير، تتشارك الفتيات فيه في الدواليب وبعض المستلزمات الأخرى.

كان أول ما فعلته أنها وضعت حدودًا لنفسها، وقامت بترويض بعض الفتيات الساخطات عليها من دون أي مبرر. استطاعت أن تكسر شوكتهم على الرغم من جسدها النحيل وجسدهم الممتلئ.

مواجهتها الحقيقة كانت مع الوافدة الجديدة، القائمة على أعمال الدار، تلك السيدة الجميلة، التي كانت تختبئ من خلف قناع من القسوة والوجه النافر، لا تعرف كيف بدأت المشكلات بينهما، لكنها كانت تكرهها، كان تُخفِي عنها الراديو ورباط الحذاء الذي أخفته في ملابسها.

كانت تضربها، كانت تُعذِّبها، كانت تسحبها إلى مكتبها الخاص كل ليلة، تُجلِسها على

الكرسي المُحبّب، تضع لها الآلات الحادة، وتصيح في وجهها، تنهرها بشدة وتزعق فيها، "مش واحدة زيك اللي هتخسّرني شغلي!"

"اكتبي..."

"اكتبي عشان تعرفي إنك غلطانة..."

"... الخطيئة محتاجة الألم عشان تنمحي."

سيدة تربض أمام الفريسة، فتاة من أمامها تدمع وتئن. بين أصابعها تقبض على آلة حادة وتغرزها بقوة في ذراعها. كانت تصرخ، صرخات تُجلجِل بين عظامها، لكن شيئًا لم يكن يخرج من فمها. كانت صامدة ثابتة أمام السيدة التي تنعق وتثور، "اكتبي، اكتبي اسمك، عشان كل ما تبصي عليه تفتكري إنك لقيطة وملكيش أصل."

كانت تكتب الحروف، حروف دموية، (مريام)، كانت تنطق، وكانت تبكي. لم يُخفِّف عنها مصيبتها سوى نظرات مدير الدار، والذي انزوى بالسيدة، يشكرها بصوته الخافت، ويقول لها، "إنت هايلة يا أستاذة اندراوس، إنتي قدرتي تسيطري على المصيبة دي. حقيقي، كتير قبلك حاولوا ومقدروش."

صارت فرِحة، وكانت تبتسم، وكانت (مريام) في غرفة المكتب الخاص بالسيدة (اندراوس)، تتألم. ساعة أن دلف إليها مدير الدار، ناهِرًا أفعال السيدة (اندراوس) وقسوتها، صدّقته، وصدّقت خبث أكاذيبه. صدّقت أنه هو ذلك الرجل الملاك الذي سيحميها، الرجل الذي لم يكن يفعل سوى استغلال جسدها، يومًا بعد يوم كان يخترقها، كانت الحكايات عنه تنتشر بين عدد من الفتيات الخائفات، اللاتي رضخن لسيطرته وجبروته.

كـان يـهـدهن، وكـن يـستسلمن...

إلا هي، هي الـتي ثـارت فـي وجهه وأسقطت عباءته القذرة من على أكتافه. هي التي كانت تصيح في منتصف الدار بأفعاله وفجوره، وهي التي لم يُصدِّقها أحد سوى فتاة كانت قد أتت مع سيدة راهبة تحمل طفلًا صغيرًا، مُشوّه القسمات.

كان وقوفها وجهًا لوجه أمام السيدة (اندراوس) حتميًا، السيدة (اندراوس)، والتي وقفت أخيرًا إلى جوار الرجل الذي أعطاها العمل، والذي منه تقتات بعدما هربت من أسرتها، مواجهة مستمرة بين (مريام) والسيدة (اندراوس) كان آخرها أنها هربت. ربما ليس في ذلك اليوم، لكنها هربت ولم يعثروا عليها قط.

لكنه عثر عليها، ذلك الشاب الأرستقراطي الذي جاء إلى الدار يومًا، ووقف وجهًا لوجه أمام السيدة (اندراوس)، تلك الشابة المُعمّمة بالوشاح. هي التي وقفت أمامه صامتة ذليلة، لا تتكلم ولا تنطق. رضخت فقط أمام كلامه وعتابه. رحلت معه عائدة إلى قصر والدها، إلى رائحة الزعفران التي تعشقها، هناك حيث استقبلتها الأم بالحبس الانفرادي في غرفتها، حيث قبعت الليالي في شرفتها، لا تنظر إلا إلى القمر.

أضواء القمر، كانت لها رهبتها الخاصة، الطرقات وأعين الناس، والفتاة التي أصابتها القذارة، كلما كانت تختبئ، كانوا يبحثون عنها. أسرعت خطواتها، لكنهم استقروا على موضعها. بين أضرحة الموت كانت تتهادى. تتقلب بين مخاوفها. ظلال

ثلاثة شباب تترصدها. خائفة، يقشعر بدنها المضغوط. لا يتناوبون إلا على رغبتهم في الاعتداء عليها. هناك، حيث ظنت أنها سترقد في الجحيم بعدما يقتطعون الأجزاء من جسدها.

هجموا عليها!!

تناولتها أيديهم... لكنهم رحلوا، رحلوا لما انقض عليهم ولد صغير، أكتع، ظهره مقوس وشكله مقزز. هو من وقف صامدًا أمامهم وتحمل الضربات عنها. كانت مغمضة العين خائرة وكانت ضعيفة. ظنت أنه سينال منها ولم تعرف أنه أنقذها.

لم تعرف ذلك، حتى استقرت على سريره، في منزله الصغير بين القبور. يرقبها عن كثب، ويُحاوِل أن يبتسم في وجهها. شعور لم تعهده من قبل، أن تضع الثقة في شخص آخر.

أما هو، فكان يراها ذلك الملاك ذا الجناحين، الملاك الذي هبط عليه من السماء. كان يسترضيها، يُذلِّل الصعاب أمامها، في داخله شعور ينمو ناحيتها، لا يعرفه ولا يُميّزه، لكنه تركه وحال سبيله.

ليلة العمر، تلك التي قضتها في جنة الموتى، ساعات قليلة كان بمقدورها أن تعود صغيرة كما كانت. تضحك وتبتسم، تلعب وتعبث، لا تخشى من القادم ولا من الأيام. ربما كانت تخشى الساعات، لكنها قررت أن تستمتع باللحظات القليلة التي تملكها.

تلك العين الزرقاء، كانت ترى فيه اختلافًا كثيرًا، لا تعرف لماذا تتكلم معه بحُرّيّة ولماذا تُخبِره بما لم تُخبِر الآخرين. يُنصِت إليها باهتمام، يستمع إلى حديثها، لا يمل

من الابتسام في وجهها، هو الذي حاول جاهدًا أن ينطق أحرف اسمها، (مريام) إلى (مُراجة)، ولما ابتسمت، وأعجبها الاسم، أسمت نفسها (مرجانة).

(مرجانة)، تلك الفريدة، هي اللحظات، ذلك الشيء الثمين الذي انتهى وقت أن عاد الأب إلى المنزل، فانهارت فرائصه أمام الرذيلة التي كان يهرب منها طيلة سنوات عمره. هربت مجددًا، تركته شريدًا، يمد ذراعه إليها، تركته وتركت من ورائها مذياعها العتيق، ذلك الذي تعشقه أكثر من أي شيء آخر. تركته ليواجه بنفسه حياة لا تختلف كثيرًا عن حياتها. في شيء ما كان يتشاركان، وربما هو الشيء الذي جذبهما إلى بعضهما لمجرد لحظات.

كانت تبكي، كانت ضعيفة، ضعيفة الروح وهزيلة الجسد. كانت تستند من أسفل حاوية القمامة، تنأم من الوجع. لا يسأل عنها أحد ولا يقترب منها أحد. لم يستمر هروبها طويلًا منذ آخر وهلة كانت تمتلك سريرًا تنام عليه. كانت تنام على الطين. كانت تأكل من القمامة ومن كسرات الخبز العفنة.

جاءها طيف لا تدري من أين، يحمل لفافة من الطعام، عندها وضعها وعندها قال لها أنه يجب أن تأكل. كان يتيمًا، طيبًا، ولطيفًا معها.

كان يحدثها وكانت تستمع لحديثه البشوش، هو الذي نطق أولًا، "... أنا مازن."

وهي التي نطقت ثانيًا، "... أنا مرجانة."

اعتقدت أنه يشبهها، صدّقت حديثه وآمنت له، فذهبت معه. هو من بدّلها من حال إلى حال،

هو من علّمها، وهو من أنفق عليها وأحاطها برعايته، هو من أرشدها إلى طريق غير الطريق التي كانت تمشيه.

هي الشابة التي تقبع بين أحضانه بعد أن كان وصيّا عليها، هي التي تسللت من السرير وارتدت ملابسها، ونظرت في وجهه، ثم رحلت.

أضواء الماخور، أضواء بنفسجية حالمة، تعبث في العقل ولا تعبث في عقلها، تلك التي كانت تسحب كل العيون على قوامها الجذاب، تلك التي سحبت طيفًا أسودًا من ورائها، طيف لم يكن يفرق عن حالتها.

حالتها حزينة، مخزية، ترمق الصور في جوف الليل وتتذكر اللحظات القديمة، كانت تُفكِّر في ابنتها ولماذا لم تعود حتى تلك اللحظة. دب الخوف في قلبها، وقلّبت أصابعها على الهاتف، لا إجابة، لا شيء يشفي غليلها. خوفها الحقيقي كان أن تفقدها. كانت تخاف عليها، هي من كانت تعيش لأجلها من بعد أن دخلت مُكرَهة وكر الجحيم، وكر الرجل الذي استغلها، الذي حطمها، والذي طعنها في قلبها قبل جسدها.

تبدلت الصورة، وجهها مجعد حزين، لا تزال جميلة لكنها تغيرت كثيرًا، لم تعد نفس تلك الشابة المتسرعة. أصبحت تتريث كثيرًا في قراراتها، إلا قرارًا واحدًا. ابنتها! كانت تبكي، كانت تدعو، كانت قائمة، تُصلِّي صلاة لا تعرفها، حتى عاد إليها الوجه الشبحي من بعد مكالمة طويلة مع الشيطان.

الشيطان يتلاعب بالجميع، يُرسِل أسرابه على الناس، فيخدعوهم، يتلاعب بأم تستغيث باحثة عن ابنتها التي شق الليل منتصفه ولم تعد،

وبشابة تدع الجنون يتخلل جنبات مشيتها، لا تكترث للنظرات وإنما لأهادفها.

تحت قدمه وبين يديها، هكذا تبدلت الأحوال، وانقلبت السطور عليها ثم إليها. هي التي كانت تقف في النيران، مُتشبِّثة بآلة حادة، أخطأت وكان لابد أن تُصلِح خطأها، ذلك الجسد لا يجب أن يعيش. مرة أخرى أخطأت، فوجب عليها العقاب.

هي لعبة تكره الأخطاء، من أخطأ فعليه عاقبة الموت. هي التي تلاشت تمامًا لتقع في سطوة خيالات سوداء. في الغرفة المُعتِمة جثا، همس في أذنها، أخبرها بما كانت تريد أن تسمع. استثار فيها حكايات سعت ولم تقدر أن تتناساها.

فزِعت، هبّت من دورها، أسرعت خطواتها، وفي داخلها بركان يثور. كان يضحك، كان يريد الخلاص منها بعد أخطائها. لم تكن تبالي، لم تكترث لما سيفعل بها.

أسوار الكنيسة!!

إلى هناك أخذتها الأقدام المهرولة، من بين الأسوار دخلت، بين الأفواج أصبحت شبحًا لا يُرى. لم تكن تعلم أن طيفًا كان يبحث عنها، كان يترصد قدومها. كانت تهرع تحت الممشى المُقبّب. عبرت الأبواب الكبيرة، اصطدمت بطفل أوجعه الاصطدام، شاهدت في عينه دمعة حزن لكنها لم تهتم.

أربعة رجال يصنعون مربعًا يحتوي رجلًا منمق الثياب، يُدخِّن السيجار بغيظ، وراهب يبتسم بوضوح، وفتاة شابة تزعق، "سيبيني في حالي،" وتهرع إلى خارج المربع، تترك من ورائها سيدة عجوز ثائرة.

كانت تصيح، "ديجا! ديجا! استني...."، في مواجهة محتدة مع الرجلين الآخرين.

عند الباب اصطدمتا، نظرت إليها ونظرت إليها، نظرات متشابهة وإن اختلفت الأسباب. ألفة الحزن، ورموش مغلقة، وقلب توقفت نبضاته، سكون يجمع ما بين الأرواح المعذبة. كل واحدة منهما شعرت أنها وجدت نصف الوجع الأخر. نصف لم يكتمل، لأنهما مرا من خلال بعضهما بلا حديث ولا كلام، ولا أسف يعبر من الأنظار.

(ديجا) كانت تتنفس بصعوبة، و(مرجانة) كانت تحترق.

لحظات تمر وأنفاس تهتاج.

وجه لوجه وعين لعين، عين حانقة غاضبة، وعين استقرت فيها الدموع، وجه ينتفخ من الحسرة، ووجه ينتفخ من تيار الدماء الذي انبثق من جرح السكين.

(مرجانة)، التي كانت يدها تنتفض، شاهدت السيدة العجوز، (نورينا)، تضع كف يدها على كتفها وتتكلم، "لينا!"

****

عند البوابات، تمكن (مراد) من المرور من خلال الطوق الأمني على حين غفلة من رجال الأمن، بعدما ارتبكت صفوفهم في عدد غفير من الأفواج القادمة عند البوابة الخارجية على الرغم من الحزام البوليسي المُكثّف، والتحذيرات الأمنية الشديدة. من هناك، أسرع (مراد) في المروج وعينه مُصوّبة ناحية مبنى الكاتدرائية الكبرى، حيث كانت كل الأقدام تتجه، ذلك الصرح المرمري الطائل.

عدة أمتار من أمامه، زجر النقيب (شادي عسر) وكان حانقًا مغتاظًا من كثرة تحركه بين المبنى الرئيسي والبوابة المطلة على شارع رمسيس، وكان يُعِيد في الجهاز اللاسلكي، "هو أنا لازم أعمل كل حاجة بنفسي. مفيش أبدًا حاجة بتم من غير ما أباشرها."

"... خلاص، خلاص، أنا جاي في الطريق."

"أووووف!"

"تِشت... تِشت... أيوة يا بني، حد يراقب بوابة القاعة. متدخلوش أي واحد مشتبه فيه، أو فيه شبهة اشتباه."

"تِشت... تمام يا فندم."

أخرج بعدها النقيب سجائره السحرية، مهدئات العصبيين، علبة المارلبورو الأحمر، وتقريبًا سحب آخرها قبل أن يقذفها من يده. لا ينفخ، بل يُخزّن الدخان، حتى أطبق على صدره، ثم أفلت سراحه، فصنع شبورة مُركّزة فوق شعره المُنسّق بالجل.

(مراد)، والذي تخلّف عنه بعِدة خطوات، كان يرمقه باستياء واشمئزاز واضحين، غير أن اهتمامه بالكنيسة كان يفوق اهتمامه بالضابط الشاب. كانت نظراته تجوب الأرجاء كلها بحثًا عن (مرجانة)، كان عليه أن يجدها قبل أن تقع المصيبة الكبرى. (الدكروري) أخبره، أخبره أنهم سيستخدمونها. أخبره أن عليه أن يعثر عليها ويوقفها قبل أن تدخل إلى الكنيسة. أخبره أن التحريات أثبتت أنها عنصر من العناصر المهمة في جماعة الرؤوس السوداء.

تطرق النقيب أولًا، وكان مُندفِعًا، ومن ورائه (مراد)، وكان برغم سرعته، ساكنًا. عبر للتو من غمامة الناس عند باب البهو الكبير، غمامة تنساب بين تحويلتين صنعهما أربعة من الرجال السود، في المنتصف وقف (منير أمونيوس)، والذي أبصر (مراد) على مضض، وذلك الكاهن، (نجيب رسول)، والذي وضع برنس ردائه للتو، ومر من خلال الرجال السود، مُبتعِدًا عن نقيب الشرطة، والذي امتثل تمامًا عند (منير أمونيوس).

تكلم بضيق، "حاضر يا فندم، تمام يا فندم،" يهز رأسه، وهاتفه الجوال يضج بالصياح. ارتبك، ثم حمله، واستأذن من (منير أمونيوس)، ودلف دخولًا إلى البهو الكبير.

(منير أمونيوس) هو الآخر يتكلم في هاتفه بينما يُحدِّق في (مراد). لم يدرك (مراد) تلك النظرات. (منير أمونيوس) يُراقِبه مراقبة الصقر للفريسة بين غمزة وهمهمة.

"... مراد موجود في الكنيسة حسب الخطة."

"لازم تخرج!"

"... لأ، هنتظر شوية، أشوف هيعمل إيه."

"الوضع هيبقى فوضوي!"

"... فين المتعة في كدة."

أول خطوة وضعها (مراد) داخل البهو الكبير، رأى جمعًا من الناس غفير، كانوا قد جاءوا ليُكمِلوا الاحتفال والابتهال، وليلة العيد التي لاحت عليهم بالأفراح.

شهيق وزفير، أربع مرات...

عن يمينه، هزت (ديجا) كتفيها، كانت تصيح وتزعق بغضب في سيدة عجوز ملونة الشعر، والتي امتثلت تمامًا أمام غضب الفتاة، حتى أنها طأطأت رأسها من الخجل ومن صورتها التي كانت تتبعثر على أرضية البهو أمام الناس.

استهلت الفتاة النحيلة الصراخ، وتمكنت من جذب أنظار بعض الناس الذي تأففوا من طريقتها ونظراتها، لم يكونوا يعرفونها حقًا، إلا الذي كان من ضمن معجبيها الحقيقيين، "أنا بجد مش مصدقة!"

"إنتي تعملي كدة!"

"إنتي يا نورينا! إنتي فاهمة بتقولي إيه!"

"يعني كنتي بتخدعيني طول الفترة دي."

"بتكذبي عليا يا نورينا."

"طب ليه؟ أنا عملتلك إيه؟"

استجدت (نورينا)، "يا بنتي اسمعيني..."

"أسمع إيه؟ إنتي ليه مش عايزة تجاوبيني؟ تعرفي الراجل ده منين؟"

"نجيب رسول! ده كله مشاكل، ده مفيش مصيبة في البرنامج عندي إلا وهو سبب فيها."

"أنا لو أحكيلك عنه ممكن تتصدمي."

سكوت (نورينا) أصابها بالمزيد من الحنق، "يووووووه!"

"يعني مش هتتكلمي وتطفي ناري، إنتي ليه مش عايزة تقولي؟ أنا حقيقي مش فاهمة."

(مراد) كان يشاهد السيدة العجوز وفي نظراتها يأس شديد، لا تعرف كيف تتكلم، وكلما أرادت الكلام، كانت الفتاة تصدمها بسجال كامل من الكلمات المنمقة، وقت أن بدأت (نورينا) بعدما ابتلعت ريقها في الكلام، أبصرت (ديجا) نقيب الشرطة (شادي عسر).

"ثواني يا نورينا،" وتحركت من دورها وقت أن كانت (نورينا) تحكي، كانت تمد يدها ناحيتها حتى تلامست أصابعهما وقالت، "إحنا... كنا... هنتجوز!"

قالتها، لكن (ديجا) لم تسمعها، بل اكتفت بمراقبة ضابط الشرطة، الذي ترجل أمامها عند المقاعد الأمامية، فصمتت، بل واقشعرت، وفكرت في نفسها، "هوّا!"

"الظابط الحقير!"

"بس بيعمل إيه هنا!"

كان نقيب الشرطة، (شادي عسر)، يتكلم مع فرد أمن داخل القاعة بنبرة ساخطة، ولما أخبره أنه مسيحي، أزاد من ترهيبه وألقاه خارجًا إلى مكان حراسته، فأسرع من الخوف إلى موقعه. كانت نظرات (ديجا) تتبعه وهي لا تُصدِّق أنها تراه، قرارها أن تذهب إليه لم يستغرق الثواني الثلاث، وهو ما لم تتراجع عن القيام به.

"إنت بتراقبني؟" استفسرت (ديجا)، وكانت واقفة أمامه مباشرة، وهو في صميم الارتباك لا يراها. وقتما أدرك أن هناك من يتحدث إليه، وضع هاتفه جانبًا وقال، "أفندم!" كانت حيرته شديدة، لم يكن قد التفت بعد، فاستدارت (ديجا) لتواجهه مباشرة.

أعادت (ديجا) كلماتها، "هو حضرتك بتراقبني؟"

ابتسم (شادي عسر) بفتور وحاول أن ينظر إلى (منير أمونيوس) لكنه لم يكن يراه، فأخفى هاتفه في يده وقال، "وأنا أراقب حضرتك ليه؟ هل في سبب يستدعي المراقبة؟"

"معرفش!" أجابت (ديجا) وأكملت، "بس إنت جاي ورايا لغاية هنا، مع إني متأكدة إنك مسلم."

"يعني مفيش أي سبب واضح غير كدة."

تنهد (شادي عسر)، "لا يا فندم، أنا جاي هنا في شغل رسمي."

"شغل رسمي؟"

"أنا عارفة إن حضرتك مش الظابط المناوب النهاردة."

"متنساش إني مذيعة وأعرف كويس الأخبار مكانها فين."

"مذيعة إذاعة،" تمتم (شادي عسر)، سخرية لم تعتبرها (ديجا) إلا إهانة لها.

بطرف إصبعها مُحذِّرة، إلا أن (شادي عسر) انصرف خطوة، قائلًا، "إنتي معطلاني عن آداء خدمتي،" فتبعته (ديجا) متسائلة، "معطلاك؟ إنت لازم تجاوبني. إنت عايز مني إيه؟"

"يعني إيه اللى إنت عملته إمبارح؟"

وقف (شادي عسر) بعين متضايقة، وقال، "أعتقد إن الباشا جاوبك الإجابة الكاملة، معتقدش إن في كلام يتقال بعد كدة، ولو سمحتى بقي لأن صبرى خلاص بيخلص."

"صبرك! أنا لسـ..."

نظر (مراد) ناحية اليسار، جمع من الناس كانوا يصطفون عند الجلسات الخشبية، يقفون ويُنظِّمون أنفسهم، كل من يعرف الآخر يجذبه إلى جواره. لم يرها، كانت تفحص الحاضرين بعين ثاقبة، تبحث ولا تسأم من البحث، بعد أن جابت الأرجاء وقررت الاستسلام، كان الوخز في أطرافها يُنبِّهها، يحقن الأدرينالين في عروقها، وكانت تستشيط غيظًا.

في الأمام، محاولاته الفاشلة في الخلاص من (ديجا)، عين (شادي عسر) التي اقتنصت ذلك الشاب، لم تكن تغيب عنه، هيئته غريبة ووقفته أغرب، فتكلم في اللاسلكي، "تشت... تشت... في واحد عايزك تتحرى عنه، شكله..." ذلك السابح في الملكوت، أمام جدارية الأرابيسك الخشبية، في سكينة يتفحص مصفوفة الأيقونات السماوية، أيقونة العذراء وطفلها الرضيع، أيقونة المسيح والبشارة، أيقونة الروح والأيقونة الكبيرة للعشاء الأخير، مائدة يأكلون منها جميعًا.

أعياد الميلاد وترانيمها...

تسابيح المعمدانية والغمر بالماء...

أصبح (عابد) موهومًا، سائرًا في عالم آخر. عالم كان يعزف الألحان في أذنيه من جهاز الراديو القديم، ألحان (لاكريموسا) الحزينة، تحفة (موزارت) الأصلية، التي أسكنت الشجا والحسرة حجرات القلوب، وأعادت إحياءها من التراب لتندم على الحياة العابثة، التي عاشتها في عمر سابق، كل من كان هناك كان يسمعها، (عابد)، الذي لم يغلق الراديو، صار يجذب نظراتهم جميعًا إليه، بعضهم ينظر إلى

البعض، والقليل فقط ممن يتكلم، صمت وأنصت.

لحظات صامتة اتجهوا فيها ناحية الموسيقى الخالدة...

من ورائه، وقف (مراد) وراء ظله، لا يفرق بينهما سوى أمتار قليلة. كانت الموسيقى تعبث بأفكاره. تطرق على صفيح ساخن في داخل جوفه. صوت الشظايا والنيران، حرارة الجو والعرق الغزير. امرأة تجلس إلى جوار الطاولة، تُداعِب أصابعها مفاتيح البيانو، ألحان تتماوج بين حالته وجمود أعصابه.

كانت تصرخ...

تزعق وتُنادِي... لا يسمعها...

كانت تلف وتدور من وراء (شادي عسر)، حتى ابتعد عنها عدة خطوات، فوقفت من الضيق وضربت على فخذيها من الغيظ، حينها رأته في البعيد، رأت (مراد)، والذي لم يكن يعرف من تكون، كان مُحدِّقًا فيها. انقباضة في صدرها، انقباضة خوف غريبة، كانت تحبه، وللحب الضائع علامات لا تفهمها. لا تعرف كيف ستلقاه من بعد ما حدث في لقائهما الأخير، ماذا ستقول؟

أخرجه من حالة الجنون، صوت (ديجا)، تزعق من آخر البهو لما رأته، لم تكن تُصدِّق نفسها، "مرااااااااااااد!"

وبهدوء تتساءل، "هُوّا؟؟"

"لأ! مش ممكن!"

"بس! لكن! هُوّا؟؟ أكيد هُوّا!!"

وضعت (ديجا) يدها على رأسها، تُريد أن تتيقن من أنها ترى (مراد) وخصوصًا في ذلك المكان، لكنها كلما اقتربت، كانت خطوتها تتأخر، حالته مختلفة، نظرته مختلفة، لم يكن هو نفس الشخص الذي تعرفه، كانت تُنادِي، "مرااااااااد! أنا ديجا..."

"ديجا... ديجا..."

الاسم سلاح نافذ، اخترق إلى قرارة صندوق اختبأ في ذاكرته... (ديجا)... متر واحد فقط...

"أنا بحبك يا مراد..."

بشغف، "إنت... إنت مش بتحبني، صح؟ إنت بتحبها هِيّا."

بتذبذب، "أنا... أنا..."

يدها على الشفاه، "خلاص! متتكلمش..."

غرفة مُرتّبة بداخل مبنى النيابة، جاكت البدلة المُعلّق، الأكمام المطوية، ابتسامة خفيفة، يوم عمل شاق، ملفات مغلقة وملفات مفتوحة، الباب الذي فُتِح وتلك الفتاة النحيلة، (ديجا)، تقف على اليسار، صغيرة جميلة، وعلى اليمين فتاة أخرى.

أبواب!!

رجال سود يقتربون، تهديد ووعيد، عراك ولطمات، دماء من فمه، يُحاصِرونه ويحميها بذراعه. ضربات في بطنه، مُلقى على الأرض، يقبضون عليها، ومسدس في رأسها. لا تبكي ولا ترتجف، صامدة وقوية.

صراخ، "كارماااااا!"

صراخ!!

"اقفي عندِك،" مسدس موجه وصيحة قطعت الحبل الممتد بينهما، تخشّب (شادي عسر) وأعاد صياحه، "اقفي عندِك بقولِك..."

وجه لوجه وعين لعين، عين حانقة غاضبة، وعين استقرت فيها الدموع. منذ دقائق فقط، تلعثمت في الكلام، ولكنها نادت بصوتها الخفيف، "لينا! بنتي!"

مُتخشِّبة أمامها، تهتز باضطراب، تتفحص كل جزء من جسدها، حتى خصلات شعرها الملون، لا تُصدِّق أنها هي، تعرفها، تغيرت قليلًا وتغيرت كثيرًا، هي التي بدأت بالكلام لكنها لم تستطع الحديث. كانت حالتها مزرية، تُمسِك بمقبض السكين، وتغرزه في قلبها. لا تزال تقبض على السكين ولا تريد أن تُفارِقه.

لما وقفت أمام وجهها، (نورينا) كانت تدمع، بوهن شديد رفعت أصابعها عند رقبة (مرجانة)، طرف الرباط الذي يختفي من وراء ملابسها، رأت القطعة الخشبية التي حفرتها بنفسها، ابنتها، تصرخ وتبكي، تسير وتسد أذنها وتتركها، قدمها الخائرة لم تُرجِعها. هو نفس الخوف ولحظة الوجع.

دموعها المنهمرة لم تصب في قلب (مرجانة) شعور الشفقة، بل أضاقت صبرها، وأمسكت ذراعها بيدها اليسرى، بينما لم تُفارِق يدها الأخرى السكين، سكين موجهة مباشرة إلى صدرها. صاعقة الموت جاءت في عمر فائت، تلك العلامات على معصمها، علامات شعرت (نورينا) أنها كانت تكتبها على قلبها. وقتما برقت عين (مرجانة) وأنزلت يدها، وهي تقول، "أنا مش لينا، أنا مريام... أنا مرجانة..."

(نورينا) شاهدت كل الأوقات التي كانت تُعذِّب فيها تلك الفتاة. بكت بكاء المستغيثين وقت لا تصبح للدموع جدوى. أغمضت عينيها ولا مهرب. وجه (مرجانة) المنتفخ من الحسرة، ووجه (نورينا) المنتفخ من تيار الدماء الذي انبثق من جرح السكين.

"لينا...!!" نظرة حنان وحاجب مُنتكِس، نظرة غضب وقلب مُرتجِف.

ألم الموت!

روح سُحِبت مرتين، شعور بالألم يدفع فيها المزيد من الألم، وجع لا تعرف كيفيته ولا طريقته، عينها الجاحظة مالت إلى ابنتها الأخرى، (ديجا)، تهرع باستغاثتها الأخيرة، تصرخ وتنعق، تصطدم وتتعثر، "نورينا!!!

عند أطرافها، وقف (عابد) وفي يده جهاز الراديو خاصتها، يحمله في يده ببشاشة، لا يُصدِّق أنه رآها بعد كل ذلك الوقت. يريد أن يعيده إليها، يريد أن يقول لها أنه احتفظ به طيلة تلك السنين من دون أن يمسّه خدش أو يلتهي بغيره.

بأصابعه الخشنة أمسك السكين من يدها وألقاها أرضًا، ببراءة في عينه المتلألئة لأنها تقف أمامه، نادى، "مُراجة،" قالها بطريقة عفوية كانت تُدوِّي في صميم (مرجانة) ساعة أن بدأت في البكاء، وبدأت في الانهيار.

عينه الباسمة أُغمِضت، كان يخور، يضع الراديو في يدها ويترنح. سقط بعدها سريعًا فأمسكته، رصاصة اخترقت صدره فألقته في أحضان (مرجانة)، التي سقطت هي الأخرى على الأرض في محاولة منها لأن توقظه. تهزه ولا يستجيب، تُكلِّمه ولا يُكلِّمها. أنفاسه تُحاوِل أن تسمعها ولا تسمعها، بكاؤها فاق كل أنواع البكاء، بكاء يحمل في طياته بحورًا امتلأت من سنوات من العذاب، دموع بللت ملابسها وملابسه وفاضت على وجوه من حولهما. لم يعرفوا، أيشعرون بالخوف أم يحزنون لحزنها؟ أم يحزنوا على السيدة التي ماتت؟ أم أن الصدمة أصابتهم جميعًا بأعصاب تالفة؟

"عمو!!" وقف طفل صغير، يمسح زجاج نظارته المكسور، يُحاوِل أن يرى ولا يستطيع أن يرى بوضوح. في صمت يدمع، إلا أن دموعه كانت مختلفة.

في مقدمة القاعة، السياج الحديدي، الدرجات الرخامية والسجاد الأحمر، طفل كان ينظر إلى الأسدين، جذب بنطال أحد الرجال الشاخصة أبصارهم ناحية المشهد الجلل. تكلم الطفل وتلعثم كثيرًا، يُحاوِل أن يبدو كلامه واضحًا، "عمـــ... عمو... مم... ممكن تفك... تفك لي... الحزام ده شوية عشـــ... عشان مضـــ... مضايقني؟"

الطفل الصغير المتلعثم كان يُمسِك حزام سرواله، فانحنى الرجل إليه وعينه ناحية الجنون الذي انصبّ على كل من كان هناك.

شرر...

طقطقة!!!

انفجار أحشاء...

هلع بين الغبار والركام...

انفجار ساحق!!!

بلاء عظيم! أجساد تتمزق وتتطاير، ورؤوس تنحني بدورها وتتأرجح من أسفل أخشاب تتطاير، زجاج يتكسر ويتحطم إلى آلاف القطع الصغيرة! حطام فأشلاء، وألواح تتساقط!

خارج الأسوار، أصوات أبواق وضجيج، وأناس كالأصنام، يشاهدون صراع رجلين، "بُقّك يا حبيب! بقولك إيه، أنا محترم نفسي لغاية دلوقتي، احترم نفسك لأخلي وشك شوارع، هتقل أدبك، هقل أدبي،" فيتورّم وجه الآخر ويستشيط حنقًا على حنقه، "مبقاش غير المسيحيين كمان. إيه! عايز تُزنُق على العربية، تخدش لي الوِش وأسكت لك، دي لسه مرشوشة من يومين يا جدع."

ليجيبه، "طب مادام مبتعرفوش تسوقوا، بتتنيلوا تسوقوا ليه يا حمير يا غجر؟"

"أهو إنت اللي حمار وابن بُلغة..."

"وإنت ابن ستين...."

رجال من هنا ورجال من هناك، كل واحد كوّر قبضته، شحذ طاقته واستعد للشجار، وتناثرت الشرارات التي كانت تتقافز حنقًا، شرارات مُدوِّية ضربت في أجسادهم، مسلم ومسيحي، التقاء أقطاب جعلوها متنافرة. عزيمة لم تلبث أن اهتزت على إثر دوي انفجار مروع ليس ببعيد عنهم، وقت أن فزعوا جميعًا وكل من كان يهمّ بضرب الآخر، أمسكه من يده، وارتموا على الطرقات والأرصفة، يحتمون في بعضهم البعض، وقبل أن يفيقوا، ارتفع انفجار آخر عند مواقف السيارات، كان أشد وطأة والتهم صفًا كاملًا من السيارات، وبعثر الأحجار التي أصبحت تتناثر على الرؤوس من السماء، وشظايا تلاحقهم من وراء الأسوار.

اطمأنوا على أجسادهم أولًا واطمأنوا على أجساد بعضهم البعض، لا عداوة ولا بغضاء، كل ذلك تهشّم مع الصخور التي تهشّمت، وأسرعوا ناحية الأبواب، إلى القوات المترامية على الأسفلت. يساعدونهم، ويهرعون من ورائهم إلى داخل الأسوار، إلى المروج النارية، ولهيب النيران المتصاعدة من الكنيسة الكبرى.

أصوات الصراخ كانت تأتيهم من الداخل برسائل الفزع. الرجال الذين هبّوا، لم يتوقفوا، بل زادت أعدادهم، وصاح واحد فيهم، "إحنا هنقف كدة، كل واحد يشوفله حاجة يجيب فيهاماية."

رجال ونساء، عجائز وأطفال، يساعدون من الوراء، أسطال وحاويات، يتقاذفونها ناحية المبنى المحترق. منذ دقائق فقط، ألم تكن الفُرقة تُصنِّفهم؟

لا فرق اليوم بين الأيادي الكادحة والأيادي الناعمة، أناس يهرعون ولا ينتظرون، نساء يحملن الجرادل على رؤوسهن، يثبتون الخراطيم في الحدائق ويضربون مياهها ناحية المبنى، حتى رجال الشرطة وقوات الأمن، من توقف هو ذلك الخبث الذي كان يأكل في القلوب. وقت أن تدافعت سيارات الإطفاء، لم يتوقفوا، وقت أن جاءت فرق الإنقاذ، لم يتوقفوا.

لن يتوقفوا حتى تنتهي النيران...

نيران!!!

نيران تحترق!!!

الأعمدة تنهار!!

السقف تخذله الأحجار!!

الأيقونات تتشرّخ!!

يد يمدها بصعوبة، (مراد)، والذي سقطت عليه قطعة حجرية كبيرة، فلم يتمكن من الحركة، محصورًا لا يستطيع أن ينفذ، يمد يده بين الدخان، يسعل، ويرى الظلال تتحرك، أناس رآهم، يتمايلون، يقتلعون (ديجا)، ومن بين الركام يأخذونها معهم، يُنادي عليها، "ديـــ...جا... اا...".

صوته ضعيف لا يعلو، نظراته تتأرجح وجسده يهتز، يده التي كان يمدها، خارت وسقطت، وعلى الركام ارتمت بينما كانت تتلاشى من

أمامه رؤيته الواهمة، أذرع تجرها فتحملها.

الساعة الواحدة ابتعدت ست عشرة دقيقة. نواقيس الكنائس القريبة، نواقيس تدق رثاءً على الضحايا. نواقيس تدق في الأفئدة التي تزرف الدموع، وعيون تُوحِّد وتستعيذ من شياطين الإنس. نواقيس كانت تبتهل إلى السماء بالدعاء، وتكبيرات تشق الغمام الراكد، تنبع من الحناجر، من القلوب، من صوامع المساجد.

تننن... الله أكبر...

تننن.... الله أكبر...

تننن... الله أكبر...

الكنائس والمساجد

مسلم ومسيحي

وطن واحد - شعب واحد

(حاولوا كثيرًا ولكن حزمة العصيان لا تنكسر)

(هل الأمر عنهما حقا ؟)

****

نظرة الموت من تحت الحطام

شهق وزحف كالثعبان

انتهى!!!

☪ ربما ✝

الـطلاسم لـم تـتكشف بـعد - اقـرأ مـرة أخـرى أيـهـا الـمغـامـر

	#	توقيت	التاريخ	رقم الصفحة
مقدمة	لحظة وصول	12:00 ص	01/18/2014	09
11	10 ثواني	12:30 ص	01/18/2014	111
10	فتاة نص الليل	1:25 ص	01/18/2014	99
9	حياة الآخرة	قبل الفجر	01/18/2014	91
8	قراطيس(تنوير)	وقت الظهر	01/18/2014	81
7	أوراق الزيتون	3:30 م	01/18/2014	71
3	علامة صلاة	6:40 م	01/18/2014	37
6	تلت وحايد	9:35 م	01/18/2014	63
5	طريق الموت	10:10 م	01/18/2014	53
12	بني النور	11:05 م	01/18/2014	123

4	إيـبـيـفـانـيـا	11:55 م	18/01/2014	45
28	فـنـجـان القـهـوة	9:35 م – 1:30 ص	18-18/01/2014	309
2	لـيـلـة عـيـد	1:05 ص	19/01/2014	25
29	سـتـائـر	2:25 ص	19/01/2014	323
1	بـعـد الـفـجـر	2:30 ص	19/01/2014	17
27	بـسـاط الـخـوف	3:30 ص	19/01/2014	297
14	طـهـارة روح	4:00 ص	19/01/2014	151
13	بـلا كـفـن	4:00 – 5:00 ص	19/01/2014	143
26	نـيـران	5:40 ص	19/01/2014	287
24	دمـاء و رصـاص	6:00 ص	19/01/2014	271
15	كـراكـة	7:00 ص	19/01/2014	159
25	رؤيـا	7:30 ص	19/01/2014	277

16	رسالة قديمة	7:55 ص	/01/19 2014	169
17	هاوية	9:00 ص	/01/19 2014	181
18	أرض الميعاد	10:00 ص	/01/19 2014	191
23	سكاكين	10:20 ص	/01/19 2014	259
22	أجراس	10:40 ص	/01/19 2014	247
19	رقم مفقود	11:00 ص	/01/19 2014	201
21	غفران	11:30 ص	/01/19 2014	233
20	لاكريموسا	12:00 م	/01/19 2014	215
35	116	1:16 م	/01/19 2014	419
30	أمطار سوداء	3:30 – 6:00 م	/01/19 2014	335
31	نصف المرآة	4:00 – 6:00 م	/01/19 2014	353
32	عذراء	9:00 م	/01/19 2014	371

نـهـايـة	سـرايـا الـزعفـران	12:00 ص	/01/2014	443
33	شق الـتِعبـان	1:30 ص	/01/2014	389
34	الـغرفـة الـمظلـمة	2:30 ص	/01/2014	401

سرايا الزعفران

أريج انشقاق السماء في جوف القمر، أنوار تميل إلى بداية ليلة العشرين.

واحد... تاك!

اثنين... تاك!

أنفاس من الصدر تنشق، عرق غزير يتساقط...

ثلاثة... تاك!

أربعة... تاك!

جسد ضعيف، وعين خاملة لم تكن تضحك. سبعة فعشرون، تسعة وثمانون، مائة وست عشرة خطوة تأتي إلى المسامع، خطوات ثقيلة، وخطوات هادئة. ذلك الخواء الرهيب الذي سرى في أروقة المكان، من بين أصابع الأقدام التي ترجف، نزولًا على الدرجات، من بين الأيادي التي تهتز، تحمل علبة حديدية برّاقة، إلى الباب الموصد، إلى البهو الكبير، صورة عملاقة معلقة على الجدار، أصوات الموتى ينادون.

من يتكلم؟ ومن يعرف!

بهو رخامي كبير، ستائر سوداء تُهفْهِف مع الهواء، كأغصان أفعوانية لها حفيف ساحر، باب خشبي يُدخِل قدرًا ضئيلًا من ضوء القمر. قرص يعوي والحفيف يعلو، عيون تترصد في الفلاء، (سرايا الزعفران)، مأوى الأرواح الهائمة، أرواح لا تتجرأ على الدخول أو الخروج.

إنها تلك الحياة الهائمة بين النجوم المبعثرة في صفحة الكون، ألوان مقتضبة لا

سبب لها، لحظة فارقة ينتظرونها، لعلهم ينتظرون الحضور، شاهدين على أمر جلل، لعلهم يترصّدون القبول، يتخافتون فيما بينهم بعواء صامت.

طرقات أقدام!

كل ما كان يُسمَع، طرقات أقدام في الممر. عين دامعة لا تريد أن تفارق المحاجر، عين خائفة لا تعبث وإنما تنتظر، لا رغبة في الانتظار، ولكنه الخضوع، خضوع تام لقوة أكبر، شيء بارد يسري في الجسد، فيثبته. حياة لا معنى لها، حياة بيضاء مثل الشريط الفارغ، تتسرب من عقل مُعذّب وعروق نابضة، أنفاس خائفة وأنفاس مطّرِدة، وأصابع كانت تتحرك.

أقدام تجثو أمام رأس مطأطأة، أذرع مقيدة بالسلاسل، ولعاب يتقطر على أرضية من السيراميك الأبيض، غرفة تشبه الصندوق، مُبطّنة بالكامل بالسيراميك الأبيض، ألواح قذرة زحف عليها الصدأ، وآثار من الطين لأحذية قديمة.

مائة وأربعة عشر... تاك!

مائة وخمسة عشر... تاك!

مائة وستة عشر...

- زيييييييييئ! -

صرير الباب الحديدي المُتهالِك! معطف أبيض يظهر عند آخر الغرفة، جسد مهلهل، وازرقاق على الذراع النحيلة. صدر يعلو وصدر يهبط بحشرجة قاسية!

عند الأطراف جثا، ابتسم بسخرية، أمسك خصلات الشعر ورفع الرأس، ملامح شاحبة، ردّد في هدوء، "حمد الله على السلامة."

وقف بعدها، عائدًا إلى طاولة صغيرة، أمسك محقن وغرزه في زجاجة، ثم سحب منها قدرًا محسوبًا، أخرج الهواء وطرق عليها بطرف سبابته ثلاث مرات.

عاد مرة أخرى، ببطء شديد تكلم، عينه على السائل الشفاف، "يا خسارة! كنتي فاكرة إنك ممكن تهربي مننا! مش عارفة إن ده مستحيل."

غرز المحقن في مكان في رقبتها، ذلك النبض الثائر في عروقها، خاملة، خامدة، مسافرة إلى أرض الموتى. لم تكن هناك، كانت على شاطئ تثور أمواجه، ظنت أنها شطآن القدر. ما من أحد هناك غيرها.

كانت تُمنِّي نفسها أن خطواته سوف تعكس خطواتها، وأن الحنين كما جمعهما، سيُقرِّبهما في ذلك الحين. لم تكن تلك اللآلئ تُشِع بريقًا في عينها، ولم تكن تلك الألوان الزاهية تخطف أنظارها عن الطريق الذي رحل إليه، وكأن تلك الأصوات التي كانت تُحدِّثها، لم تكن سوى قلوبًا لم تر الحقيقة بعد، تلك الحقيقة التي رأتها، أن أحمال الزمان وشقاء العالم على أكتافها كان ثمنًا بخسًا لأجل شخص ببراءة نظراته.

لم تكن واقفة تشاهد الأمواج، بل كانت معقودة الجسد، تدفن رأسها بين ركبتيها، لا تنظر إلى سواد الليل وجنونه، وحيدة، تتلمس في الخلاء أصوات أشباح كانت تطاردها. أشباح يعودون من الممر، ويزحفون

النوافذ، ملكة عليهم تصحو من الصورة العملاقة.

(سرايا الزعفران)، ضوء يجد طريقًا للدخول، يُحاصِرونها، رجل وامرأة وطفلين...

ضحكات ماكرة... وأُغلِق الباب!

برد شديد في أنامل مجروحة، تنتفض. أنفاس يخنقها التراب، منافذ ضيقة وجسد محاط بأذرع تُناضِل للصعود.

ارتباك! اختناق وسبات. لا مفر من الرضوخ للفناء في ذلك الصندوق، في جوف الأرض، يحثو عليها الناس التراب، أقدامهم تسمعها، طرقاتهم تؤذيها، تناديهم ولا يسمعونها.

صرخة الموت!!

شهقة الحياة!!

رجل يقف عند أطرافها، يُقلِّب وجهها يمينًا ويسارًا. عين مغمضة، اهتزاز خارق، لا ترى ولا تسمع سوى الرنين المارق.

"كارما! كارما!"

رنين حاد، طيف مغمور، لا تتّضِح معالمه، يذهب ويدور في الجوار. طيف يُكلِّمها لكنها لا تفهم ما يقول.

خصلات شعرها الذهبية، تلتصق بجبهتها من حرارة الجسد.

كانت تُردِّد، لا تعرف ما تقول، لكنها تُردِّد، "مُـ... مراد... مراد..."

"إيه؟ بتقولي إيه؟"

أذنه التي تقف عن طرف أسنانها، يُحاوِل أن يسمع صوتها الباهت. استهزاء بين أسنانه، وفرحة شديدة الخبث، "مراد؟"

"زمانه جاي، يدوّر عليكي."

"قريب قوي هتتجمعوا إنتوا الاتنين... أو، مممم! جايز لأ... هه هه هه!"

"اللعبة يا كارما، اللعبة هتخلص على كل الأطراف."

"اللعبة لسه مخلصتش، اللعبة لسه ليها تكملة."

أمام وجهها ألصق وجهه وقتما كان يتكلم، يتمعن في حالتها، رديئة، مقززة، مزرية ومثيرة للسخرية. لا خوف منها ولا خطر. كيف لها أن تُمثِّل كل تلك الصعاب في العثور عليها؟ لكنه وجدها، أحضرها وقيّدها. هو بنفسه من أرضخها.

غشاء كان ينجلي، انقباض، غصة في الحلق وضيق في الأوردة. كانت تشعر أنها تموت. عينها تتراقص في غرفة مظلمة وضوء كشاف أبيض بريقه شديد، ظل ينحني ناحيتها على الجدار، ويحوطها بظلامه.

وجه مستدير... عين جاحظة... لسانها يتحرك...

"مازن!"

"مازن عاســ...!"

كان يبتسم مستمتعًا!

سابقًا، أغلق شاشة التلفاز، ناحية الشرفة ترجّل وترك (ديجا) الماكثة عند أقدامه، من هناك كان يرى القاهرة بأكملها، رائحة

الـزعفـران، ريـاح كـانـت آتـيـة مـن الـشرق، ريـاح تـحمل فـي طيـاتـهـا تـبـاشيـر الـمـوت، وريـاح آتـيـة مـن الـغـرب، ريـاح كـهبّـات الـجحيم.

الـنـهـايـة قـادمـة... قـادمـة لا مـحالـة... قـادمـة ومـعـهـا بـدايـتـهـا...

هـو مـن أراد أن يـقـضي عـلـيـهـم جـمـيـعًـا.....

مـقـعـد مـن أمـامـه غـرفـة مـظـلـمـة

(مـراد)

رقـصـات ودوار، وألـوان بـنـفـسجـيـة

(ديـجـا)

نـيـران تـسـتـعـر، صـراخ وركـود

(مـرجـانـة - عـابـد)

دمـاء، حـنـيـن وانـفـجـار

(نـوريـنـا)

سكـوت، رضـوخ، وقـبـضـة كـف

(خـيـري شـهـاب)

صـفـائـح زجـاجـيـة عـاكـسـة وغـرفـة مـسـتـطـيـلـة

(نـجـيـب رسـول)

أنـفـاس مـقـتـضـبـة وشـهـقـة الـدخـان

(مـنـيـر أمـونـيـوس)

لـكـنـهـا الـغـرفـة الـمـظـلـمـة! الـغـول الـذي يـقـف أمـامـهـا!

(كـارمـا)...

خـاتـمـه الـفـضي الـبـراق...

أمـاطـه لـيُـمسِك بـالـسرنـجـة... وضـعـه عـلـى الـطـاولـة... مـثـلـث صـاعـد x مـثـلـث هـابـط!!

****

***** المغامرة لن تنتهي الآن – الرحـــــايا قادمة *****

حقوق الطبع و النشر محفوظة